قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين



منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات الفوارس

المجموعة الثانية

جمال شاهين

جمع ٢٠٢٢

(١) سيف الزمان وجميلة

(٢) حكاية ريح البحر

(٣) الملك ابن الراعي

(٤) مدينة نجوان

(٥) الملك زرارة والملكة سفانة

(٦) أبناء الملك سماك

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

جمال شاهين

قصص وحكايات الفوارس





سيف الزمان

وجميلة

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٥

سيف الزمان وجميلة

جمال شاهين

٢٠٠٢

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

سيف الزمان وجميلة

جمال شاهين

سيف الزمان وجميلة



الملك خصيب

كان الملك خصيب بن مرار يجلس في ديوانه الكبير بين أمرائه وأعوانه ، وبين يديه وزيره الأكبر غراب بن عقاب ، وكان القوم يتحدثون ويتهامسون ويتنادرون ويضحكون ، والملك ينظر إليهم بصمت وكآبة ، ولا يشاركهم مرحهم وفرحهم وتندرهم مما لفت نظر الوزير غراب فاقترب منه قائلا : مولانا الملك ما الأمر ؟!

حدق الملك الساهم بوزيره مرة أو مرتين ، ثم هزّ رأسه بضع مرات ، ولم يرد ، فكرر الوزير السوأل ظانا أن الملك لم يسمعه جيدا ، فعندئذ قال الملك بعد تنهد عميق : آ .. يا وزيري .. إنني مهموم .. حزين !

فتظاهر الوزير بالحزن ، وقال بحزن ورقة : ويحي !! ما الذي يكدر ويحزن مولانا الملك ؟! عسى أن نفرج همه وحزنه .

فتنهد الملك مرات عدة ثم همس : ولدي الكبير ما زال رافضا للزواج يا أبا عقاب .. وأنا أرغب أن أنكحه امرأة قبل هلاكي ؛ لأرى أحفادي وأسعد بهم .. أخشى أن ينقطع نسلنا يا وزيري .. فولدي الصغير كما تعلم مريض وعليل ، ولا يستطيع الإنجاب رغم أنني كما تعلم أنكحته مرتين ، فلم يفلح بالإنجاب ، ولم يقدر له الله العظيم ذلك ، وأما الأمير قيس فقد تجاوز الثلاثين سنة وما زال مصرا ورافضا لفكرة الزواج .

فقال الوزير مواسيا مولاه الملك خصيب : لا تحزن يا مولاي ! .. التدبير كله بيد الله .. وأنا تحدثت أكثر من مرة مع ولدك الأمير قيس في هذا الأمر، وهذه الرغبة ؛ ولكنه عنيد .. وقد تكلم معه ولدي صقر، وهو صديقه ورفيقه وخليله ، وأظهر لنا تعجبه من عدم ميله للنساء والجميلات .

فقال الملك: وهذا ما يخيفني ويزعجني !..أخشى أن تنتثر سلالتنا يا أبا عقاب ، ويزول ملكنا ويتحول لأبناء عمومتنا .

فقال الوزير : سوف أتكلم مع الأمير قيس مرة أخرى ، إئذن لي الآن بزيارته ، فهو الآن يلعب في قصر الأقواس ، فكما علمت من ولدي صقر أنهما اليوم يجلسان في القصر ، فهما يستعدان لرحلة صيد في البراري والوديان .

فهمس الملك والحسرة تملأ كيانه : ما أكثر ما يذهب للصيد !! يا ليته يصيد غزالة إنسية ! حاول أيها الوزير الشجاع لعل الأمر يجري على يديك .

فسلم الوزير على الأمراء ، وغادر الديوان ، وركب جواده وتبعه خادمه ، ومشيا نحو قصر الأقواس ، وهذا القصر من القصور الكبيرة والقديمة في بلاد الملك خصيب بن مرار ولما دخل الوزير ذاك القصر علم أن الأمراء والفرسان قد خرجوا للصيد مبكرين ، فتردد الوزير قليلا مفكرا ، ثم تابع المسير وراء الأمير قيس وأصدقائه الفرسان ، ومع المساء وقبل حلول الظلام أدركهم ، ولما علموا بقدومه جفلوا وخافوا وظنوا أن أمرا سيئا قد حدث للملك ، فلما طمأنهم على حياة الملك وعافيته عاد الهدوء لأعصابهم ونفوسهم ، وبعدما أكلوا ما أعده لهم الخدم والغلمان ، قال قيس : ما الذي دفع بوزير أبينا الملك للحاق بنا ؟! لابد أن الشأن خطير!

فقال الوزير : جئت للحديث معك أيها الأمير ..

وتحدث الوزير عن حزن أبيه وهمه وغمه وقلقه على الملك وعلى الحكم ؛ ولما انتهى من شرح مراده للأمير الوارث لعرش بلاد الرايات قال الأمير قيس : ألا يريد أبي أن يبقى الأمل في صدري .. يا عماه ؟! أخاف إن تزوجت ولم أنجب الولد المطلوب ، فماذا يحل بي ؟ بل ماذا يحل بأبي ؟! الملك بيد الله يؤتيه من يشاء .. ها هو أبي تزوج عددا كثيرا من النساء ولم ينجبن إلا البنات .. وذا أخي المسكين سعيد تزوج امرأتين ولم يخلفن منه .. فظهر أنه عقيم ..فلماذا لا يبقي الأمل في نفسي يا عماه ؟!.

وأخذ الوزير يتحدث ثانية عن حزن وغم وكرب الملك وميله الشديد ليراه متزوجا ، وبعد إلحاح شديد وحديث من الأمراء وضغط من الجميع على الأمير الفارس قيس بن خصيب قال الأمير مستسلما : لقد سمعت كثيرا أيها الأسياد ! .. وأنا سأحقق هذا الحلم للملك خصيب

ابن مرار وأجرب الزواج .

فصفق الجميع من الفرح ، وارتفع صوتهم بالسعادة والغبطة ، فهم يعلمون كم تؤرق هذه القضية سيد البلاد وملكهم المحبوب ! ولما خيم عليهم الصمت من جديد ، فقال الأمير قيس : يا وزير بلادنا !.. أنا سأحقق رغبة أبي بالزواج ؛ ولكني لن أتزوج أيّ فتاة ؟ .. لقد سمعت بفتاة جميلة حسناء يضرب بها المثل في الحسن والجمال والبهاء ..

لمعت وتوهجت عيون الجميع على وهج النار ، فقال الوزير بتردد وبطء : من هي هذه الحسناء يا ابن الأجواد ؟!

فعلق صقر بن غراب قائلا وهو متذكر لماض قريب : أخشى يا قيس أن تكون هذه الحسناء الفتاة التي رأيناها قبل شهور في وادي الثعالب ؟!

فصاح قيس وهو يتظر لصديقه صقر : نعم .. هي يا صقر .. قلت يومها لنفسي إن فكرت بالزواج لن أتزوج إلا من تلك الفتاة أو مثلها إنها جميلة وشجاعة .

فقال صقر : ولكنها عاشقة ! .. ألم يقل لنا الفارس الذي كان يرافقها إنه يحبها ، وهي ابنة عمته يا سيدي الأمير ؟

فقال قيس : كأنه قال ذلك ؛ ولكنه لم يكن خطيبها ، ولم تشر هي إلى ذلك .. وهي ابنة ملك .

فقال الوزير : من هي هذه الساحرة التي تتكلمان عنها ؟!

قال قيس متابعا ومبررا : كما علمنا من الشاب رفيقها أو حارسها أنها الأميرة سلمى ابنة الملك جعد بن همام..

هتف الوزير فرحا : الله .. الله !! .. هذا الملك من أبناء عمومة أبيك .. وجدكم واحد حسنا أيها البطل ! سنرسل إليهم وفدا ، ونرى ما يكون .

ومع الفجر تابع الفرسان رحلة صيدهم ، وقفل الوزير مسرورا إلى الملك خصيب وقص عليه الخبر ، فطار الملك فرحا ، وعاد إلى قلبه السرور والابتسام ، وأعلن الأفراح في البلاد لموافقة الأمير على الزواج .

لقد غمرت الأفراح قصور الملك والأمراء على استسلام الأمير الوارث وقبوله بالزواج ، ولكن شاب فرحهم قلقا بأن ترفض الأميرة سُلمى ابنة الملك جعد بن همام الاقتران بولي عهدهم وملكهم في المستقبل ، وقد تسّار الملك مع وزيره في هذا القلق ، وبعد تأمل ونظر استعد الوزير غراب بنفسه للذهاب إلى بلاد الأكباش أوأبو كبشةحيث يحكم الملك جعد ..ولما تجهزت الهدايا المناسبة ، وجهز الوفد المرافق ، سار بهم الوزير غراب ليلا ونهارا إلى تلك البلاد ، وبعد حين اقترب منها ، فأرسل بعض غلمانه رسلا للملك جعد الذي تلقى خبر الزيارة بدهشة واستغراب وأرسل وزيره النبهان لاستقبال الوزير غراب وزير ابن عمه خصيب ، ولما التقى الوزيران تعانقا عناق الأصحاب ، وتصافح الرجال مع الرجال ، ومشى الوزير النبهان أمامهم إلى قصر الضيافة ولما اطمأن عليهم ، ورتب أمر طعامهم وشرابهم قال : الملك في انتظاركم يا ابن العم ! فأثنوا عليه الثناء الحسن ، وشكروه على حسن وفادته واستقباله ، وعند المساء سار الوزير غراب والوفد المصاحب له إلى قصر الملك جعد الذي رحب بهم ، ورحب بزيارتهم ، وقبل هدايا ابن عمه خصيب ، وسأل عنه وعن صحته وأخباره ، ثم أفصح له الوزير غراب عن القصد والغاية والدافع لهذه الزيارة ، وقال الملك بعدما سمع الكلام ووعاه : مرحبا بكم ، ومرحبا برسول ابن عمي .. وبعد أيام ثلاثة ستسمعون الجواب .. وحياكم الله وبياكم في ديارنا ولما انصرف الضيوف تحدث الملك جعد مع كبار الأمراء وقادة الفرسان وأهل مشورته بأمر هذا الزواج ، وسمع منهم الكلام ، وكان أكثرهم يرفضون تزويج الأميرة في بلاد بعيدة وأن قومها وأهلها أولى بها ، وكان أشد الرافضين خالها نحاس ، فهو كان يطمع بأن ينكحها من ولده الفارس ماجد حارسها الأمين وحارس قصرها ، ثم صرفهم الملك بعد السماع ، وأبقى وزيره النبهان الذي أثنى بدوره على الملك خصيب ، وأنه من الفرسان الشجعان والملوك الكرام ولا يتردد في مساعدة المظلومين ، وأن ابنه هو ملك المستقبل ، وفي المصاهرة للكرام تتقوى الصلات والعلاقات ، وختم كلامه أن الرأي النهائي للملك والأميرة نفسها .

وتشاور الملك بعد ذلك مع زوجته أم الأميرة سُلمى ، فأنكرت هذا الزواج ، وذكّرت الملك أن

الأميرة هواها مع الأمير ماجد ابن أخيها ، وهم ينتظرون اللحظة المناسبة لفتح هذا الموضوع وهذا الزواج ، وأمام أمها أظهرت الأميرة رفضها للعريس الأمير قيس ، وأمام أبيها عندما انفرد بها تركت الأمر له ، وأنها لا تريد إثارة القلاقل بهذا الزواج ، وكان الملك جعد نفسه يكره زواج ابنته من ابن خالها ؛ ولكنه لا يريد إثارة الصراع داخل المدينة فأخوال الأميرة وعشيرتهم كثر ، وفرسان لا يستهان بهم حين النزال والمعارك العظام ، فالتقى بخال الأميرة ووزيره ، وبعد حديث قال الملك جعد : الرفض أيها السادة سهل ؛ ولكنه سيوغر صدر ابن عمنا علينا والأيام دول ، ومجاملة الملوك لابد منها ، والاعتذار لهم ليس كالاعتذار للسوقة ..وبعد تـفكير وصلت لأمر سأعرضه عليكم .. فإن لبى ابن عمنا طلبنا نزوجه ابنتنا ، وإن اعتذر نكون قد تخلصنا منه بأدب وذكاء وفطنة ، وبقي حبل الود متصل بيننا .

ولما حضر الوزير غراب إلى ديوان الملك جعد ليسمع الجواب قال الملك : أيها الوزير الحكيم وزير ابن عمي خصيب ..اعلم أنني شاورت الأهل والقوم ، فمنهم الرافض لهذه المصاهرة ، ومنهم المبارك ، وحتى لا يغضب علينا ابن عمنا .. فنحن نطلب منه ثلاثة مطالب ؛ فإن وافق عليها حصل الزواج .. فما تقول ؟!

فقال الوزير بقلق : اشرط أيها الملك ..فأرجو أن يوافق سيدي الملك على شروطكم ..فما الشرط الأول ؟



فقال الملك : فنرى أن يهبنا الملك خصيب جواده العظيم دموع

فقال الوزير : أرجو أن يوافق مولانا الملك فالفرس دموع عزيزة على الملك خصيب .زهات الشرط الثاني ؟

فقال الملك : لقد سمعنا عن سيف الملك فردوس .. سيف ملك الصين لابن عمنا خصيب .

فقال الوزير غراب : وهذه أصعب من الأولى إنها هدية ملك !

فقال الملك : وأما الثالث ..فأول مولود يولد للأميرة سواء كان أنثى أم ذكرا أن يربى ويحيا في

بلادنا.. فاذهب بهن إلى مولاك الملك ، ونرجو أن لا تطول إجابتكم ؛ فإن ابن خالها الأمير ماجد بن نحاس طامع بنكاحها أيها الوزير الشجاع .

قفل الوزير غراب عائدا إلى البلاد ، وهو يحمل مطالب الملك جعد لقبول الأمير قيس زوجا لابنته سُلمى ، وبعد مسير طويل استغرق سبع ليال دخل الوزير والوفد على الملك خصيب في ديوانه العامر بالرجال والفرسان ، ولما تعانق الرجال كانت الاحداق تنتظر جواب وكلام الوزير ، فهمس قائلا :

هل أتكلم يا ملك الزمان بحضرة الناس ؟

فتلفت الملك حوله وهمس : هل رفض الملك جعد غايتنا ؟!

فقال الوزير : لم يرفض ولم يقبل وإنما اشترط شروطا .

فصاح الملك الشيخ : ارفع صوتك أيها الوزير أمام السادة الأكابر وأخبرنا بشروط ابن عمنا !

فسعل الوزير غراب عدة سعلات وقال : أيها الملك العظيم ! .. فالملك جعد ملك بلاد الأكباش بعدما شاور رجال قومه ووزيره وأهله ، بان له أن بعض القوم يرفض وخاصة خالها نحاس ، فهو طامع بأن ينكحها لولده ماجد ، وبعضهم راغب بمصاهرتنا يا ملك الزمان ، فأراد الملك جعد أن يخرج من هذا الحرج بحيلة لطيفة ، فاشترط ثلاثة شروط .. فأولها رغبته بملك فرسكم العظيمة والشهيرة دموع .

فبهت الجميع لهذا المطلب ، فهذه الفرس سليلة خيل ذات نسب عريق ، وهي عزيزة على الملك ولها معه تاريخ قديم ..ولما لم يتكلم الملك بشيء ، تابع الوزير غراب قائلا : وأما المطلب الثاني يا مولاي الملك ..رغبة الملك جعد بن همام بتملك سيفكم سيف الملك فردوس .. سيف ملك بلاد الصين المشهور والمعروف عند الملوك والفرسان .

فقال بعضهم : هذا الطلب أشد من الأول .. وما المطلب الثالث أيها الوزير ؟!

فقال الوزير : هو أعجب وأغرب من الأوليين ..فهو يطلب الحفيد الأول من ابنته ؛ ليكون ضمن ملكه ، وأن يعيش ويتربى تحت رعايته .

فخيم الصمت على وجوه القوم برهة من الزمن، ثم قال الملك وقد تنهد تنهدا عميقا: الأخيرة تخص قيس سأتكلم مع الأمير .

اجتمع الملك بابنه قيس وذكر له شروط ومطالب الملك جعد ، فاستغرب الأمير لهذه المطالب وبعد تفكير عميق وصمت طويل ، قال الأمير : إنني لا أعلم لماذا يطلبون هذه الأشياء ؟!.. أقلة خيل عندهم ؟! أقلة سيوف لديهم ؟!.. ولماذا يريدون ولدنا ؟ ألا يثقون بابنتهم لكي يحرموها من ولدها ؟! هذا إذا أنجبت ؟ !

فقال الملك : لا تقل ذلك .. ستنجب بمشيئة الرحمن ، يا ولدي ! لا تخف ولا تهتم ، فهذا أمر مالك الكائنات .. فإذا لم يخلف أخوك فهذا لا يعني أنك لا تخلف .. فكم أنجبت أنا من البنات أما هذه المطالب فهي اعتذار مبطن .. فهم ليسوا بحاجة لدموع ولا لسيف فردوس .. وهذان أنا مستعد للتخلي عنهما يا ولدي .. فزواجك مهم عندي ، مهما عزت عليّ هذه الأشياء ، فأنت أعزّ وسعادتك أعزّ وأهم .. أما الشرط الثالث فهو لك ؟

فقال الأمير : ألا نستطيع أن نحتال على عدم الوفاء به ؟

فقال الملك : هذا عار في شرعة الملوك ، وقد يسبب الحرب الضروس بيننا .. فالوفاء من شيم وأخلاق الملوك الكرام يا ولدي !.

فعاد الأمير للصمت من جديد ، ولما استحثه والده على الكلام قال : الأمر لك يا أبي ! إذا كنت ترضى بالتخلي عن حفيدك الأول فأنا راض وموافق .

فعانق الملك ولده وقال : ألست أنت الذي تريد أن تنكح بنات الملوك ؟!.. فلعلنا بعد مجيء المولود نتدبر الأمر معهم ونسترجعه ثانية ..فسأرسل الوزير غراب مرة أخرى بمطالبهم وهيئ نفسك للزواج ، ولا تخرج للصيد حتى يتم هذه الأمر .

أخبر الملك خصيب وزيره والأمراء والقادة موافقته على شروط الملك جعد ، وأعد للوزير سفارة جديدة ، وكان الوزير قد أرسل بدوره عبدا من عبيده يبشر الملك جعد بموافقة الملك خصيب على مطالبه الثلاثة ، ويحثه على تجهيز العروس ، وبعد مسير طويل دخل الوزير غراب

على الملك جعد بالهدايا الكثيرة من ثياب وجواهر وخيل ، ومن ضمنها سيف الفردوس والفرس دموع ؛ ولكن الوزير لم يجد البشر والسرور على وجه الملك والأمراء ؛ بل وجدوا الكآبة والحزن والأسف .

فقال الملك بأسف وحزن : كان يجب أن يغمرنا الفرح والسعادة بحصولنا على هذه الأشياء النادرة ؛ ولكن بعدما وصلنا خادمكم وأخبرنا بموافقة ورضا الملك خصيب ، وأنك قادم خلفه اختفت الأميرة سُلمى والأمير ماجد ، لقد هربا ، ولم نجدهما أيها الوزير ، ويقول حارس الباب إنه فتح لهما باب المدينة الغربي ليلا ، وقد ادعيا أنهما ذاهبان في حاجة لنا ، ولليوم ونحن نبحث عنهما يا وزير الخير .

فضرب الوزير كفا على كف ، وقال بحدة : لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. إنها مصيبة عليكم وعلينا !!

فتدخل نحاس خال الأميرة المختفية ووالد الأمير المختفي ، وقال متغاضبا : أنتم السبب أيها الوزير ! ما الذي أتى بكم لبلادنا طالبين بناتنا ؟!

فقال الوزير بحدة أيضا : اسكت يا هذا ! .. فهذه عادة الملوك والسلاطين.. يخطبون لإبنائهم بنات الملوك والأشراف .. أخشى أن تكون أنت الذي ساعدهما على الهرب .. أتدري أن هذه الفعلة قد تثير الحرب بين البلاد ؟ وتجلب الخراب للبلاد والعباد .

فصاح نحاس : ويلك !!.. أتهددننا في عقر دارنا يا غراب ؟

فقال الوزير بغضب : ويحك إنك مثير حرب !.. والله لو لم يرغب الملك بتزويجنا ابنته سُلمى لاعتذر ولم يشرط علينا .

وارتفع الصياح في ديوان الملك جعد الذي لزم الصمت خلال هذا الجدال الحاد ، واهتزت السيوف في أغمادها ، فصاح الوزير : يا ملك البلاد !.. قل لي ماذا أقول للملك خصيب ابن عمك ؟.. هل أترك جواده دموع وسيفه الفردوس أم آخذهما ؟ ..فإني أخشى إن عدت بهما غضب الملك أرشدني أيها الملك ؟

فصاح بعض أصدقاء نحاس : لسنا بحاجة لهداياكم وأموالكم .

فقال غراب : ما هكذا يرد على هدايا الملوك والكبار .. فنحن جئنا حسب طلبكم .

فصاح جعد الملك وهو يشير لهم بالصمت : إنني لن أغفر لولدك يا نحاس فعلته السوداء .. أهكذا يفعل ببنات الملوك ؟! يهرب بهن .. إنني قاتل ولدك وابنتي معه .. هذا عار كبير ابنة الملك جعد بن همام تهرب مع فارس صعلوك ..ويحكم وتريدون مني أن أثير حربا مع ابن عمي بعد عملكم الأسود الشنيع .. لا يا سادة ! أنا أطلب منكم إحضار ابنتي وماجد حيين أو ميتين .. فهذه إهانة كبيرة لا يمحوها من تاريخ أسرتنا إلا الدم والموت .

فانحنى نحاس يقبل قدمي الملك الغاضب ، ويطلب حياة ولده الجاهل ، فلم يصغ الملك لهذا الرجاء ، فانتقل إلى الوزير غراب وترجاه وتوسل إليه بالشفاعة لولده عند الملك ، فقال الوزير : ليتكم تدبرتم الأمر قبل ذلك ..لماذا فكرتم هذا التفكير الساذج ؟! كان عليك أن تدبر الأمر مع الملك قبل طلبه مطالبه.. قبل أن يشرط علينا.. لا أن تحث ولدك على خطف الأميرة ؛ وأنا أرى يا نحاس أن تحاول الوصول لولدك وتقنعه بإعادة الأميرة ، وسينصلح الحال ، وغضب مولانا الملك سيزول .. وأنا تارك هدايا مولانا الملك خصيب وعائد لبلادي ؛ لأنظر قول الملك خصيب ، وأدعو الله أن لا يغضب لهذه الإهانة الكبيرة ، وتثور الحرب بيننا من أجل ذلك السبب .

غادر الوزير بلاد الملك جعد والنار والغيظ يملأن صدره وقلبه ، ودخل على الملك خصيب مهموما مغموما ، ولما علم الملك بجلية الأمر انفجر بركان الغضب في جوفه وصدره وصاح وصرخ ، وغضب الأمراء والأمير قيس وأقسم الأخير بالرب المعبود أن يبحث عن الأمير ماجد والأميرة سُلمى وينتقم منهما ، فسعى الوزير لمنعه عن هذا التصميم ، وطلب منه الصبر والتروي حتى يروا ماذا سيفعل الملك جعد ونسيبه نحاس ؟ وأخذ الملك خصيب يتهدد بالحرب والويل لبلاد الملك جعد.

وبينما القوم مهمومون منشغلون بالخطوة القادمة لهذه الإهانة التي لحقت بهم أقبل الوزير

النبهان ، ومعه وفد من كبار رجال البلاد يـقدمون الاعتذار الشديد للملك خصيب ، وأتوا معهم بالفرس دموع وسيف الفردوس ، وبعد كلام وعتاب واعتذار ، تقدم الوزير النبهان وقال أمام الفرسان والأمراء : نحن نعتذر أشد الاعتذار عما بدر من هرب الأميرة والأمير ماجد بن نحاس .. وها هو الأمير ماجد بنفسه بين أيديكم .

ودفع الوفد شابا ضعيفا مريضا أمام الملك ، فتعجب الملك والحاشية من مرآه ، وتابع الوزير النبهان الكلام : يا سادة .. لقد دفع الهوى وسوء التقدير هذا الفارس المثخن بالجراح عندما سمع بتنازل الملك خصيب عن جواده وسيفه لئن يهرب بفتاته الأميرة !.. ولما وصل وادي السرحان قرب جبل ضربان اعترضته عصابة من رجال الليل وقطاع الطرق ، فأثخنوه بالجراح وخطفوا منه الأميرة سُلمى بنت جعد .. وساقه بعض الرعاة وعابري السبيل إلى مأمن ، وعالجوه ، ولما تحسن حاله أحضروه لبلادنا .

وأمره الوزير أن يكشف عن صدره وظهره ، فشاهد الرجال أثر الجراح الكثيرة ، وعجبوا لحياته بعد كل تلك الطعنات ، ولما شاهد القوم حال الأمير ماجد ، عاد الوزير النبهان للكلام فقال : أيها السادة ! البلاد كلها مشغولة اليوم بالبحث عن الأميرة الهاربة والمفقودة ؛ وجئنا إليكم لتتأكدوا من حسن نوايانا نحوكم .. ونأسف لعدم حصول هذا الزواج الكبير في تاريخ مدينتنا فكلنا رجاء بأن تقبلوا اعتذارنا ..

وبعد كلام كثير دار في مجلس الملك ، قبل الملك خصيب الاعتذار ، وعفا عن الأمير ماجد ، وأمر بإكرام الضيوف ، وبعد ثلاثة أيام عادوا لديارهم لينعموا بالسلام من جهة الملك خصيب بن مرار .



كان الأمير قيس يجلس مع صديقه صقر بن غراب ، ومعهما غلامه عبس الفارس الأسمر يتسامرون تحت ظل الأشجار في قصر قيس وفجأة قال الأمير قيس : إنني أفكر أيها الصديق الفارس! بالبحث عن الأميرة المخطوفة ؛ لتعرف من هو قيس الذي هربت منه مع فارس جبان ، تركها ضحية بين أيدي الأوباش واللصوص ؟

فقال صقر : دعك من ذلك الشأن .. فلابد أن هؤلاء اللصوص قد أنكحوها لزعيمهم ، وأسكنوها في إحدى المغر، ولم تعد تلك العذراء التي تحلم بها .. فليبحث عنها قومها بل فارسها المسمى ماجدا وما هو بماجد .

فقال قيس : إنها جرحت كبريائي أيها الصديق .

فقال صقر : وماذا ستفعل بها إذا التقيت بها بعد أن صارت عشيقة للصوص والشطار .. لعلك تعشق أيها الفارس ؟!

فقال عبس الأسمر : أليست هي المرأة الأولى التي خفق لها فؤاده يا صقر الفوارس ؟! أليست هي التي جعلته يقبل الزواج بعد رفض عنيد ؟ أليست هي التي جعلته يغامر هذه المغامرة ؟! ويتنازل والده الملك عن أعز خيوله وعن أجمل سيوفه.. ؟؟

فتهد الأمير قيس وقال : أجل أيها الصديقان .. هي الفتاة التي سحرتني بعيونها ، واهتز قلبي لسهام عينيها يوم وادي الثعالب إنها فاتنة ساحرة ! ولا أدري كيف تعلقت بذلك الساجد ؟!

فقالعبس: مع أني أشك بحبها له ..لم تكن حركاتها في ذاك اليوم توحي بذلك الحب بينهماولكن القرب قد يكون السبب.. وقد يكون هو أفرس فرسان بلادها

فصاح صقر : مصيبة أن يكون آخر كلامك صحيحا ! إنه كثير الكلام والفخر .. لقد رأيناهم أثناء الصيد .. غلمانه هم الذين يصيدون ويطاردون .. كما قال أحدهم هو ليس له إلا الكلام الجميل اللامع البراق .

فعاد عبس يقول : أعود فأقول ربما تحبه وتهواه ومن أجل ذلك هربت معه .

فقال قيس : وهذا ما يحيرني ؟! إنني لاحظت أثناء لقائنا ذاك أنها تعبث به ، وإلا لما سمحت

لنـفسها بالجلوس معنا والحديث معنا .. بل كانت تسترق النظر اليّ أكثر من مرة .

فقال عبس ضاحكا : إي والله ! إني لاحظت ذلك .. وهذا ما دفع ماجد للحديث عن الحب الذي بينهما حتى لا نتورط ويقع أميرنا في هواها .

فاعتدل الأمير في جلسته وقال بجد وحماس : هل تظنون أن ماجدأ غرر بها وسلمها للصوص أوه ؟!.

ونهض واقفا وقال : أيها القوم أشعر أن في الأمر مكيدة ! .. لابد من الوصول إليها فإلى وادي السرحان أيها الرفاق .



قيس في وادي السرحان

خلع الأمير قيس ثياب الأمراء ، وتنكر بثياب العوام والرعاع ، وطلب من صديقه صقر إخفاء خبر تنكره ، وأرسل وراء غلامه جُبار وكلفه بالوصول إلى وادي السرحان والالتقاء باللصوص وشطار الجبل ، ورحل قيس وفارسه الأسمر عبس متخفين إلى بلاد الأميرة سُلمى وكان قد كتب رسالة خاصة لوالده يخبره بذهابه للبحث عن الأميرة ويحثه فيها على الصبر وعدم الخوف والقلق ، ودفعها لـ صقر وسافر متنكرا إلى مدينة الأكباش ، وبعد أيام دخلوها بسلام ، وفي فندق صغير سكنا ، وهدفهما الوصول إلى رجال الأمير ماجد بن نحاس ، فقد وجدا البلاد منقسمة على بعضها البعض منذ ضياع الأميرة ، فالملك جعد بن همام يجمع رجاله وعشيرته وقومه وأنصاره من العشائر الأخرى ، ويتهم الأمير نحاسا وأصهاره بالغدر والخيانة وخطف الأميرة الشريفة ، ونحاس يتحدى ويحتمي بعشيرته وأعوانهم ، ويكاد الصراع والقتال أن ينشب بين الفريقين ، والوزير النبهانوعشيرته يحاولون منع اندلاع الحرب ، ويحثون الجميع على البحث عن الأميرة في كل أقطار الدنيا وبين رجال العصابات ، وعلموا أن فرسانا من قوم نحاس يطالبون بخلع الملك جعد وطرده من البلاد ، فهم أهل البلاد الأصليين ، وما جعد إلا دخيل عليهم ، وقد تغلب آباؤه وأجداده قديما على مدينتهم أبو كبشة ؛ ولكنهم يخشون مناصرة الملك خصيب بن مرار لابن عمه ، فهم يتمهلون ويتروون في قضية عزله وطرده ، وكانوا يرون بزواج الأمير ماجد من الأميرة سُلمى أفضل السبل للوصول للعرش وتاج المملكة ؛ ولكن طلب الأمير قيس للأميرة وموافقة الملك قلب تدبيرهم وأحلامهم ، واختفاء الأميرة وضياعها ضاعف القضية ، فكان المندفعون من قوم نحاس يطالبون باستخدام القوة والعنف وإزالة حكم الملك جعد وعشيرته وعدم الانتظار أكثر من ذلك ، ولكن بعض الكبار يعارضون ذلك ويحثون على النظر والتأمل وعدم الاندفاع وراء حماس الشباب ، ويشجعون الوصول للحكم بالطرق السلمية والهادئة ، والوزير النبهان يحاول تهدئة الأمور وإعادة الوئام للقبيلتين قبل استفحال الأمر بينهما وقبل سقوط الدماء الحمراء بينهما ، فهو يتردد بين رجال القبيلتين

للإصلاح والوئام ، هكذا كان الوضع السائد عندما نزل قيس وعبس المتنكرين باسم الربيع ومسعود الراعي مدينة الأكباش ، وبعد حين تعرف الرجلان على أهم أصدقاء الأمير ماجد ؛ فإذا هو ابن عم له شاب فارس كثير الحماس للفتن والمعارك ، فهو يجمع حوله شبابا وعبيدا من قبيلته وينفث في روعهم حب القتال وإعادة الملك لقبيلتهم الكبيرة والأكثر عددا من قبيلة الملك جعد ، وكذلك كان يحرض ماجدا على التمرد وإراقة الدماء وعدم سماع المعترضين على الحرب ، فانضم الرجلان إليه بحجة الحماس والانسجام مع مطالبه ، وطمعا بالمناصب والجاه ، ولم يطل بهم المقام حتى أصبحوا من رجال ماجد والمحيطين به في ترحاله وقيامه واجتماعاته ، بل أصبح مسعود الراعي عبس من حرسه المقرب ، فكان عين قيس عليه

لقد تمكن الأمير قيس (الربيع) والغلام الفارس عبس من الانضواء ضمن رجال وأنصار الأمير ماجد بمساعدة ابن عمه غمر الرحال ؛ ولأن الأمور متوترة لم يدقق في شخصياتهما وما هم الا من الرقيق ، وقد كادت الأمور تشتعل بين أفراد قبيلة الملك جعد وأفراد قبيلة الأمير نحاس عشيرة الجرادة ، وقد دارت بينهم معارك صغيرة استطاع الوزير النبهان وبعض العقلاء من احتوائها ؛ ولكن ما زالت الأمور تتفاعل وتغلي الصدور على بعض ، وأثناء ذلك تعرضت أطراف البلاد لغزو اللصوص وقطاع الطرق وهرب سكان الريف والقرى نحو المدينة الكبيرة وانزعج الملك جعد ووزيره النبهان لهذا الحال ، وقد قل الأمان في أطراف البلاد ، وبينما البلاد تشتعل على نار هادئة ، وقد أخذ اللصوص يتحرشون بالبلاد ، دخل المدينة رجل وأسر في أذن الأمير ماجد الذي تعافى من الجراح التي اصطنعها خبرا طار له صوابه ، وجمع له كبار معاونيه ، ووصل هذا السر لأذن مسعود الراعي ، وعلى أثر هذا السر جمع الأمير ماجد مائة فارس من رجال القبيلة ، وأخلص الرجال إليه وغادر المدينة خفية عن أبيه واخوته وأعمامه ، وكان من ضمن الفرسان المائة مسعود والربيع ، وسار بهم أياما وأياما حتى وصلوا وادي السرحان حيث جبل ضراب الكبير ، و يقال له أيضا جبل السرحان ، وهناك أفصح لهم الأمير عن سر هذا المسير العاجل فقال : أيها الأبطال .. لقد وصلني خبر عن ابنة عمتي الأميرة سُلمى ، وقد

قررت تحريرها من أيدي اللصوص ؛ ليعرف السادة من أهل بلادنا قوتنا وشجاعتنا وتصرفت بدون مشورة الكبار للعجلة وعدم التردد وتشتت الأقوال .

فأثنى الفرسان على شجاعة الأمير ونخوته ، وفرحوا بسماع خبر عن حياة الأميرة المفقودة منذ شهور ، ولما توغلوا في وادي السرحان تركهم ماجد واختار مسعودا أكثر الرجال حماسا له ولأفكاره ، وسار به نحو سفح جبل ، وبعد مسير متعب دخل به واد عميق ، وهناك التقى ماجد بعدد من الرجال المختفين بالجبل ، وبعد أن صافحهم وحياهم التـقى بزعيمهم ؛ فإذا هو رجل كث اللحية ضخم البدن .

فخاطبه ماجد بغضب ؛ وكأنه يعرف الرجل حق المعرفة : أبا الليل ! .. لقد أخبرني ناطور خبرا مرعبا .. ماذا فعلتم بالأميرة ؟! أين اتفاقنا ؟!

تنحنح الرجل الضخم عددا من المرات قبل أن يرد قائلا : لقد جرى لنا ما كدر صفونا وتعهدنا لقد زارنا سيد اللصوص وكبير هذا الوادي الملك غضبان أبو الرجال ..وأنت تعرف من هو هذا السيد الكبير !!.. ولقد شاهد ابنة عمتك الأميرة واستحسنها ورغب بها .. فقصصت عليه بعض قصتك فقال إذا شاءها فليأت مدينتي على جبل الرملي في نهاية وادي السرحان الغربي .. والأميرة نفسها وافقت على الاقتران به والسير معه ، فقد كرهتنا وملت صحبتنا ، ونحن كما تعلم لا نستطيع محاربة ملك اللصوص وسيد هذا الوادي .. وإن كان لديك رغبة بابنة عمتك فإليه فامش .

تناول ماجد الطعام معهم ، ثم قال : ما العمل يا أبا الرجال ؟! .. فسيد الوادي صعب المراس ألا تشفع لي عنده ؟

بصق الرجل الضخم ومسح وجهه ولحيته ثم قال : الذي لمسته من بقاء الأميرة خلال هذه المدة الطويلة بيننا أنها كارهة لك ؛ بل حاقدة عليك وناقمة ؛ فأرى أن تدعها لمصيرها الأسود زوجة أو عشيقة لملك اللصوص ، وربما أن تكون هي التي دست له خبرا عن وجودها هنا لتنتقم منك .. فالنساء ماكرات قليل الوفاء عندهن ! فكيف بمن هي لك كارهة ؟!..وأنا أرسلت

لك رجلي فور انصراف الملك عنا حتى لا تظن أنني اتفقت معه عليك .. فنحن استفدنا كثيرا من صداقتك لنا ؛ ولكن كما تعلم لا نستطيع أن نعادي أبا الرجال فهو زعيم وادي السرحان من غير منازع ، وكل المدن غاضبة علينا ، فلا نقدر دخولها علنا كما تعلم ، ولا أظن أنني أفيدك بشيء عند الملك ما دامت الأميرة قد قبلت الاقتران به

فتظاهر الأمير بعدم الخوف ورد قائلا : لـقد أتى معي مائة فارس ، كلهم أطوع لي من بناني .

فقال أبو الليل بنبرة فيها غضب : ألا تفهم أيها الرِّجال ؟! .. أتريد أن نحارب أبا الرجال ؟ إنه أمر صعب ..بل مستحيل .

فقال ماجد محاولا إغراء صديقه رجل الجبل : يا هذا ! إذا تزوجت هذه المرأة قربتني من المُلك وسيكون لكم مكان مناسب فيه ، وهو خير لكم من حياة المفازات والوديان .. والأمير قيس قد صرف نظره عن الزواج من أميرتنا اللعينة ..لقد سحرها بعينيه ورجولته في وادي الثعالب وهي قد سحرته بجمالها وحسنها حتى عجل بطلبها .. إيه على الأيام ..!!

فقهقهه أبو الليل وبعض رجاله على تحسرات ماجد وقال : لقد فازت بالزواج من ملك ! وهو خير لها من أمير ابن ملك ، ومن أمير حارس لها يحلم بأن يكون ملكا .. اسمع أيها الفتى ! إنني لك ناصح ، دع السير إلى مدينة الملك غضبان فلن تلقى خيرا ، وعد لبلدك ، وفكر بحيلة أخرى تصل بها لتاج مدينتك .

بعد أن فشل ماجد بإقناع أبي الليل ورجاله بمساعدته قفل عائدا نحو رجاله وفرسانه فوجدهم في غاية القلق والخوف عليه فقال : لقد قابلت زعيم هذا المكان ؛ لأن الرجل الذي ساقنا إلى هنا أحد رجال هذا الزعيم ، وهو الذي أخبرني عن وجود الأميرة عنده ، وقد أتى ملك اللصوص الغضبان أبو الرجال وأخذها منهم إلى مدينة في نهاية وادي السرحان من جهة الغرب ، وقد نصحني الرجل بالعودة وعدم الخوض بكم غمار هذه المعركة لكثرة اللصوص الذين يملكهم ذاك اللعين ، ولن تكفي شجاعتنا لدحرهم فما تقولون ؟!

أخذت الهمسات والأفكار تتناقل بين الرجال هنا وهناك ، وبعد طول جدل تقرر العودة للبلاد

وعدم المخاطرة من أجل إنقاذ الأميرة ، واتفقوا على عدم الحديث أمام قومهم وأهل مدينتهم عن سبب خروجهم المفاجيء من المدينة ، ولا يتحدثون عن حياة الأميرة بين أيدي المجرمين ، وهذا ما حصل فعلا فيما بعد ، فارتد الأمير عائدا خائبا بفرسانه نحو مدينة الأكباش وهو في غيظ شديد ؛ ولكن أثناء هذه العودة اختفى الربيع ومسعود من بين المائة فقد أطلع عبس الأمير قيس على كل ما سمعه من ماجد وأبي الليل ، فأدرك الأمير كما توقع آنفا أن الأميرة تعرضت لمكيدة ومكر ، وسيقت لوادي السرحان ؛ لأنها وافقت على الزواج من الأمير الفارس قيس بن خصيب ، فلما استوعب الأمير الأمر استشاط غضبا وكرها لـماجد ، واتفق هو ومسعود على الاختفاء والسير إلى مدينة ملك اللصوص لإنقاذ الأميرة ، وأثناء الليل هربا وابتعدا عن مكان الأمير ماجد وجيشه ، وهؤلاء لما اكتشفوا غيابهم لم يهتموا ويكترثوا لغيابهم كثيرا ، وظنوا أنهم سقطوا في إحدى الحفر والكهوف ، وكانت خطة قيس السقوط بين رجال سيد الوادي الغضبان ، وظلا يسيران بحذر من واد إلى واد ومن جبل إلى جبل حتى وصلوا إلى جبل الرملي ، وهنالك تم القبض عليهم من قبل رجال الملك أبي الرجال وقادوهم إلى سجن المدينة .

ومدينة اللصوص هذه مدينة صغيرة بعيدة عن العمران والمدن ، وهي على جبل الرملي ، وهو جزء من الجبال الكبيرة جبال ضراب ، وهذه الجبال العالية والممتدة يقطنها اللصوص والمجرمون والهاربون من العدالة والثارات والولاة ، ومع طول الأيام قام الغضبان بتشييد هذه القرية للصوص ولرجاله ، فشيدوا البيوت وتزوجوا النساء ، فكبرت المدينة ، وأصبح الغضبان سيد وادي السرحان الأكبر ، ومن لم ينضو لرجاله وعصابته كان يحذره ويهادنه ، ويقبل شفاعته ويخشاه ، وأثناء زيارة الغضبان لمنطقة أبي الليل شاهد الأميرة سُلمى المحبوسة عندهم ، وسمع بعض قصتها ، فهويها وتـعلق بها ، وأرغمهم على تسليمها له ، وساقها نحو مدينته وهو طامع بالزواج منها ، وهي وافقت على ذلك ؛ ولكن بعد تقديمه مهر لها ، وسر الغضبان برضاها ، وانتفخ تيها ؛ فإنها أميرة بنت ملك ، ووعدها متحمسا بأي مهر ولما سمع طلبها دهش

واستغرب ، وقد طلبت منه الفرس دموع والسيف فردوس ، فعشق الرجل الفرس ورغب بالسيف ، وسار بعض رجاله إلى مدينة أبو كبشة ؛ لعلم الأميرة بأن السيف والفرس في بلاد أبيها ، كما أخبر رسول الملك خصيب ووزيره غراب ، ولما علم ماجد بالأمر ـ كما روينا قبل سطور ـ جاء برجاله راغبا بإعادة الأميرة والظهور أمام قومه بمظهر البطل الفارس المنقذ ؛ ولكنه أمام تثبيط أبي الليل جبن وضعف وتخلى عن أميرته وزوجة الغد ، وعاد لبلاده بكل حنينه وجبنه ، وأيضا رجع رجال الملك الغضبان يخبرون الملك بأن السيف المذكور وتلك الفرس رجعا لبلاد الملك خصيب ، ومن شدة هواه للأميرة وحبه لأرضائها والتبيان لها عن هذا الحب والشوق أمرهم بالسير إلى تلك البلاد البعيدة والإتيان بهما من أجل عيون الأميرة سُلمى ابنة الملوك الأكابر .

ودخل قيس وعبس كأسيرين مدينة الرعب ، وبعد مضي أيام في السجن أخرجوهما وألحقوهما بحلقة تدريب ؛ ليكونا من رجال المدينة عندما تبين لهم أنهم لصوص لا أهل لهم ولا وطن .. أثناء التدريب في حلقة السلاح علموا بقصة الأميرة سُلمى ، وكان هدف الأمير وغلامه الوصول للأميرة بأي طريقة والحديث معها ومعرفة مكنونات قلبها ، ومن ثم السعي لتحريرها من أيديهم وقبضتهم .. وقد بارك الأمير في قلبه للأميرة شجاعتها وقدرة تحملها للحياة في هذه الجبال والوديان بعد أن كانت تحيا في القصور وبين الحرس والخدم ، وقد صدق ظنه بأنها تعرضت لمكيدة كبيرة ، وهو كله شوق لسماع حكايتها مفصلة ، وكان يسأل مسعودا فقال :
هل يا ترى يتمكن هؤلاء اللصوص من سرقة سيف الفردوس والفرس دموع ؟!
فيقول مسعود : الحيلة والمكر والكيد قد تسهل المهمة .

وبعد حين من الزمان عاد بعض الرجال الذين بعثهم الغضبان لبلاد الرايات ، وأخبر الملك بفشلهم الذريع ، فقد أسر بعضهم ، وقتل بعضهم ، وهرب الباقون ، وذكروا صعوبة الوصول للسيف والفرس ، فاستشاط الغضبان غضبا وغرورا وكبرا ، وأقسم أمام رجاله بأن لا يتزوج الأميرة سُلمى حتى يملك السيف والفرس دموع ، وفرحت سلُمى لهذا القسم ، وقالت

لنفسها : لابد أن رسالتها وصلت لـ قيس ، وفرح قيس أيضا بفشل رجال الغضبان ، وزاد طمعه بتحرير وإنقاذ الأميرة .. وأرسل الغضبان الغاضب خمسين رجلا وعلى رأسهم قائد شجاع من أفضل رجاله لجلب السيف والفرس .

ولم يطل الانتظار فقد جاءت الأخبار بمقتل الكثير منهم ، وعلى رأسهم قائده المفضل ، وظهر لهم بأن الوصول للسيف ودموع من المستحيلات ، وقد ازداد هوى وعشق الغضبان لتملكهما أكثر من تملكه للأميرة .. فجمع كبار رجاله للتشاور ، فشار عليه بعضهم لمعرفته لصلابته وعناده إذا صمم على امتلاك شيء أن يتحالف مع كل اللصوص في وادي السرحان ويغزو بهم بلاد الرايات ، فسر الغضبان من هذه المشورة ، وبدأ يفكر بها ويحلم بتحقيقها لتأديب الملك خصيب بن مرار ، بل فكر بقتل الملك خصيب غيلة ، وأثناء انشغال الناس بمقتله أن يغزوهم ويسرق الفرس والسيف ، وأخذت هذه الأفكار تراوده ويخطط لتحقيقها .

لقد اشتد الغضب بملك اللصوص الغضبان ، وصار هدفه الأعلى تدمير الملك خصيب ابن مرار والقضاء عليه وامتلاك فرسه دموع وسيفه الفردوس ، وبينما هو يفكر ويحلم بتحقيق ذلك أتاه أحد رجاله الناجين من قبضة فرسان الرايات يخبره أن الملك خصيب يعد جيشا لغزو وتدمير مملكة اللصوص ، فازداد قلق الملك الغضبان من هذا الخطر الداهم ،أو بدأ يشعر بأن هؤلاء القوم أقوياء ، فبث جواسيسه ورجاله في وادي السرحان ، وبدأ يتصل برؤساء العصابات ويعرض عليهم التحالف للدفاع عن جبالهم أمام الخطر القادم ، وأجّل محاولة قتل الملك خصيب .



كان قيس وعبس محجوزين في حلقة السلاح ، يتدربان ويعدهما رئيس الحلقة للانضواء تحت

ظل العصابة أو ملك اللصوص ، ولم تصل إليهم أنباء هزائم رجال الغضبان ولم يتمكنوا من الوصول لقصر الغضبان ، فما زالت الثقة بهم ضعيفة ، ولكن أمام التطورات الأخيرة أخبرهم رئيس الحلقة بقرب إلحاقهم بفرق العصابة ، وأحس الفارسان بأن خطرا يهدد الجبل ، ولكن رئيس الحلق كتم عنهم الحقيقة ، فظنوا أن الأمير ماجد قادم لإنقاذ فتاته سُلمى ، وخلال أسابيع ألحق الرجلان بمجموعة يرئسها الزعيم الملقب بـ غضبة الليل من كبار معاوني الغضبان ، فساقوهما نحو مقر زعامته فرأياه رجلا ضخما جدا كثير الجروح والإصابات في وجهه ، شعره ضخم ومنفوش ، فتعجب قيس من خلقته ، ولما سمع ثناء رئيس الحلقة عليهم قال بصوت ضخم جهوري : هل أخبرتهما جزاء من يحاول الهرب أو خيانة الأسياد؟

فهز رئيس الحلقة رأسه مرات ومرات وهو يؤكد له صدق انتمائهما لعصابات الجبل قائلا : لهما عدة شهور بيننا .. ويكفي أننا حافظنا على حياتهم .. وهما لصان هاربان يا سيدي .. وهما هاربان إلينا أمسك بهما رجالنا وذلك أثناء دخولهما الجبل.. فهم في أول الطريق .. ، وألقينا عليهم تعاليم وآداب الجبل ، وما عليك إلا أن تمتحنهما ؛ ولكني واثق منهما .. فطول مدة إعدادهما كانا مستسلمين وطائعين ، أرجو أن يكونا عند حسن ظن الجميع يا سيدي الزعيم .

فصاح غضبة الليل : حسنا أيها الرئيس ! سيكون فحصهما قريبا ، فهناك خطر داهم على الجبل كله .

وبعد أن تكلم معهما الزعيم مرغبا ومنذرا أشار لأحد رجاله بأن يرشدهما لمنامهما ، وأن يلقي عليهما آداب التعامل مع غضبة الليل ، كان قيس يخوض هذه المغامرة بقلب أقوى من الحجر ، فهو واثق من قلبه وسيفه ، ولم تمض أيام أخرى حتى علم مصدر الخطر القادم الذي يتهدد جبل ضراب فهمس لـعبس : هل يا ترى يزحف جيشنا لقتال هؤلاء اللصوص والقتلة ؟!

فقال عبس : أرى أن الغضب اشتد بحضرة الملك خصيب من محاولتهم الاستيلاء على فرسه وسيفه ، وأنت تعرف مقدار تعلقه بهما ، ولابد أنه اعتبر محاولتهم الفاشلة إهانة له ، فأمر بتجريد الجيش لتأديبهم وزجرهم .. واعلم أيها الفارس أن طلب الأميرة للسيف والـفرس دموع رسالة

خاصة إليك أنت أيها الأمير !

فقال قيس متذكرا : نظرات وادي الثعالب لم تغب عن بالي ، لقد أصابنا الحب والهوى ، ولكن ذاك اللعين حجب الرؤيا عنا .. كيف سنصل للأميرة قبل وصول الجيش ؟!

فقال عبس : القضية أننا لا نثق بأحد من الرجال ، وكلهم ينظر إلينا بريبة رغم هذه المدة التي قضيناها بين ظهرانيهم ، قاتلهم الله ما أمكرهم ! ولكن لن تعجز عقولنا من الوصول إليها ، وسأحاول ذلك بأقرب فرصة سانحة.

قال الأمير بقلق : تحرك بسرعة .. أخشى أن يحاول هذا اللص الزواج منها قبل لقاء جيش بلدنا

فقال عبس : صبرك عليّ ، أيها الأمير سأصل إليها بمشيئة الرب .

كثر تردد كبار رجال الجبل على ملك اللصوص ، والكل يعاضده على الدفاع عن الجبل ووادي السرحان وبذل الغالي والرخيص من أجل المحافظة على جبلهم وواديهم ، وتفتق ذهن الغضبان بعدما بايعه رجال العصابات من جديد أن يبادر بالهجوم ، ورغب بإرسال جماعة تصرع الملك خصيب لتثبيط عزيمة جيشه الزاحف ، وقد أمل أن ينشب صراع داخل البلاد فيستغله لسلب الفرس والسيف ، ووقع اختياره لتنفيذ هذه المهمة الصعبة والقوية على مساعده غضبة الليل ، فاجتمع به سرا ، وأطلعه على خطته المفاجئة والجريئة التي تتلخص بالسير برجاله إلى بلاد الرايات ، وهناك يقوم ثلاثة أو أربعة رجال بالغدر بالملك بأي طريقة أو حيلة .

فتفكر غضبة الليل بما كلف به ، ورد قائلا : مَن مِن الرجال يضحي بنفسه من أجلنا ؟!

فصاح الغضبان غضبا : ويحك !! يجتهدوا أن ينجحوا .. أريد ذلك هل تسمع ؟

فقال غضبة : إني أسمع لو اضطررت تنفيذ ذلك بنفسي .. وبعد أن يقتلوا ذلك الملك اللعين ؟

قال الغضبان : حينئذ سيضطرب وضع المدينة ، وستنشرون الخبر في جيش الملك القادم نحونا فيفت ذلك من عزمهم لغزو مملكتنا، وأنت وباقي القوم عليكم بالوصول للسيف والجواد ، فقد علمت أن الحراسة شددت عليهما .. لقد هزمني هذا الملك ، وأنت تعرف أنني لا أسمح لأحد بأن يقهرني وينتصر عليّ ، أكاد أجن يا غضبة الليل يا فارس الجبل ! ألستم رجال الشدة

كم من البلاد داهمنا وسلبنا ونهبنا ؟!

تنهد غضبة الليل وقال : يا ملك الجبل .. بلادهم بعيدة يا ملك الزمان .. مسيرة عشرة أيام حتى نصل إليها .

فقال الغضبان بقوة وصياح : غدا تحركوا ، سأرسل مـعكم غلامي ضرغام .. فاحذر أن يأتيني بضعف رجالك وتقاعسهم .

فأقسم غضبة الليل بالولاء والوفاء وتحقيق رغبة الملك ، ولما غادرهم الملك جمع غضبة رجاله وفيهم قيس الربيع وعبس مسعود ، وأخبرهم أن الملك كلفهم بمهمة شاقة دون أن يفصح لهم عنها ، وقال بسخط واضح للعيان : مع بواكير الفجر سنكون على جيادنا ونسير نحو الشرق أيها الـفرسان .

ارتبك قيس وعبس لهذه المهمة ، ولكنهما تظاهرا بالحماس لها، وأعلنا شوقهما لها ، وأنهما يريدان أن يثبتا لسيدهما الجديد أنهما عند حسن ظنه وثقته بهما .

ولكنهم قبل أن يصلوا لبلاد الرايات التقوا بالجيش الزاحف نحو وادي السرحان ، ولمحتهم طلائع الجيش فطاردوهم ، فسقط بعضهم وهرب بعضهم ، وهم أكثر من خمسين رجلا ، فلم يكن اختفاؤهم سهلا ، وممن نجا الزعيم غضبة الليل ، ولم يتمكن فرسان المدينة من الاستمرار في مطاردته ، فساقوا من وقع في أيديهم نحو خيمة رئيس الحملة الذي كان الأمير صقر بن غراب ، فأخبر الأمير صقر بوقوع عدد من فرسان ولصوص وادي السرحان بين يدي سرايا الطلائع ، فأمر بحبسهم ، وأمر الأمير مالك بسماع أقوالهم ، ولماذا كانوا بهذا العدد الكبير ؟ وهل هم مـقدمة لجيش اللصوص ؟ وإلى أي البلاد سائرون ؟ وبينما الأمير صقر يجلس في خيمته الكبيرة ومعه قادة الحملة يصطلون حول النار في جوف الليل البهيم قدم الأمير مالك عليهم ـ وهو الذي كلف بالتحقيق مع أسرى العصابة ـ هامسا بأذنه كلاما نهض الأمير على أثره جالسا على الفور بعد أن كان متكئا وهو يصيح : ويحك أمعقول هذا ؟!

فقال مالك هامسا من جديد : إي والله إنه الأمير قيس ؛ ولكنه أشار لي بأن أتظاهر أنني لا

أعرفه ، ومعه غلامه عبس .

فرك الأمير أذنيه وقال : ما العمل ؟ إنه لا يريد كشف سره .. حسنا .. ورفع صوته قائلا : وماذا يريد هؤلاء الرجال ؟ ومن يقصدون ؟!

فقال الأمير مالك بصوت مسموع للجالسين : إنهم من رجال الوادي ، وهم مكلفون بمهمة، لم يـفصح لهم عنها زعيمهم غضبة الليل .. وغضبة الليل لم يمسكه رجالنا فقد نجا وهرب .

فقال الأمير صقر ملتفتا لقاضي العسكر : ماذا يرى قاضي العسكر والجيش ؟؟

فتطلع قاضي الجيش الأمير هلال نحو أمير الجيش وقال : يساقون إلى بلاد الرايات ويحبسون مع باقي الأسرى السابقين حتى تنتهي هذه الحملة فننظر في شأنهم أيها الأمير .

فعلق صقر قائلا : نعم الرأي أيها القاضي !

وهمس في أذن مالك قائلا : هذه فرصة لتحضر قيسا وعبسا من غير أن يكشف أمرهما

وعاد مالك للأسرى ، وأخبرهم بفتوى القاضي هلال ، فسر قيس لفطنة صديقه صقر وقام مالك بترحيليهم مجموعات مجموعات .. مجموعة ثلاثة ومجموعة خمسة ومجموعة أربعة ، وجعل قيسا وعبسا مجموعة ، وتم الترحيل خلال الليل وعلى فترات ، ومع الفجر كان الأمير قيس بين رجال الخيمة الأميرية يـقص على القوم قصته وحكايته ، فتعجب الفرسان من شجاعة قلبه ومن رميه بنفسه بين رجال الوادي ، ولما انتهى كلامه ، قال : الآن أسمعونا حكايتكم وسر مجيئكم لهذا المكان ؟!

بعدما أكل الأمراء والقادة الطعام قال صقر : بعد سفرك المفاجئ أيها الأمير ! أرسلت الرسالة لوالدك الملك ، فحزن حزنا شديدا عليك ، وكاد يعلن الحداد عليك ، وأرسل خلفك العيون فلم يعرفوا لك خبرا ، وبعد حين أتانا الغلام جُبار ـ الفارس الذي أرسلته لوادي السرحان ـ فأنبأني بأن الأميرة سُلمى أسيرة عند رجال الوادي باتفاق بينهم وبين الأمير الغادر ماجد .. وأنها فتاة مسكينة وجريحة .. وأن الأمير ماجد احتال عليها ، وسار بها خارج البلد على أنها ذاهبة لمقابلة الأمير قيس خارج أبواب المدينة ، وبعدما مشى بها حين من الزمن هجم عليهم

اللصوص فساقوهما نحو وادي السرحان ، وهناك علمت الأميرة أنها مخطوفة باتفاق الأمير ماجد مع رجال العصابة ، فبكت ما استطاعت البكاء ، ثم عاد ماجد لبلاده بالقصة المعروفة لك ، وصدق الناس أنهما تعرضا لقطاع الطرق .. استطاع جُبار الاختفاء في كهوف الجبل قريبا من الأميرة وعلم بقصتها ، وبينما هو يفكر بإنقاذها أتى زعيم اللصوص المسمى الغضبان وأخذها عنوة من أبي الليل وتبعها جُبار بخبث ومكر ، ولما علم بمطالبها من شيطان اللصوص عاد إليّ فأخبرني بالأمر فاتخذت جانب الحذر من رجال الغضبان ، فلما أقبلوا فمنهم من قتل ومنهم من أسر ، وتركنا أحدهم ليخبر قومه ، ثم عادوا كرة أخرى ، فغضب الملك خصيب حينئذ ، وأمر قائد الجيش ووزيره غراب بإعداد جيش لمقاتلة رجال وادي السرحان وتأديبهم فأشرت على أبي بقيادة هذا الجيش للوصول للأميرة التي استنجدت بنا ، وقد تمنيت أن تكون معنا ، وها قد استجاب المولى سبحانه .

قال الأمير قيس : لقد صدق حدسي عندما قلت لكم إن في الأمر مكيدة ، إن عينيها الساحرتين كانتا تتكلمان في وادي الثعالب .. فماجد اللعين حارس لها وعين في آن واحد إنه ليطمع بنكاحها لينقل الملك إلى قبيلته .. أرجو أن لا ينتشر خبر وجودي في الجيش أيها الأمراء والفرسان .. سأبقى متنكرا ورجلا من رجال الغضبان ، وسأعود للجبل أنا وعبس متظاهرين بالهرب والنجاة منكم .. وأنتم تابعوا مسيركم لقتال هؤلاء المجرمين واللصوص .. فنحن لم نعرف الخطة من نزولنا عن الجبل رغم معرفتهم بخروجكم لقتالهم .. أظن أننا كنا سائرين لبلاد الرايات لفعل أمر كبير .. في الليل القادم سأهرب أنا وعبس ونمشي إلى الجبل بغير خيل والآن اسمحوا لنا بالنوم أيها السادة .



قيس و سُلمى

استقبل غضبة الليل رجليه الهاربين بفرح كبير ، وسر من نجاتهما وفلتهما من الجيش الغازي ، وعلم منهم أن بقية الأسرى ساقوهم زرافات زرافات إلى مدينتهم وبلادهم الرايات ، وأخبروه أن الجيش ما زال مستمرا في الحركة لقتال أهل الجبل ، وكان الغضبان زعيم الوادي قد تلقى فشل رجله القوي بالغضب الشديد ، ولكنه تحمل الفشل وأجل الحساب حتى انجلاء المعركة القادمة ، وقد أدرك أن الملك خصيب مصمم على تدمير الجبل وعصاباته ، وكذلك قد أدرك غضبة الليل أن حياته أصبحت مهددة بالموت ، وأن نجاح الملك في المعركة معناه القضاء عليه فأخذ يفكر بالهرب قبل المعركة لينجو من قبضة سيده الجبار ، ولما أخذ الغضبان يتجاهله في اجتماعاته واستعداداته للتصدي للغزاة أطلع غضبة الليل بعض رجاله برغبته بالهرب والانفصال والنجاة بأرواحهم وأنفسهم ، فانزعج قيس وعبس لهذا الانقلاب ، وأصبح وضعهم في خطر ، فالهرب فيه خطر على حياتهم إذا فشلوا بالنجاة من قبضة رجال الغضبان الآخرين ، وإذا عرف الغضبان سرهم أيضا قد يقتلهم قبل محاولة الهرب .. فافتعلوا معركة مع بعض رجال غضبة الليل ، وهربوا نحو رجال الزعيم الغضبان وطلبوا حمايتهم ، فقبل هؤلاء حمايتهم عندما عرفوا أن زعيمهم يفكر بالهرب ، فألقى بهم الغضبان في سجن المدينة ، وهم في السجن حاول أحد الرجال قتلهم فكتفوه وسلموه لحراس السجن ، فارتفع وزاد غضب الغضبان على غضبة الليل وجماعته ، فأصدر أمره بالقبض على غضبة الليل ، فأبى الاستسلام ، ودارت معركة بين رجال الفريقين ، مما دفع الغضبان بدفع المزيد من الرجال لمحاصرة قصر غضبة الليل وقد أهدر دمه ، وقد حاول بعض الزعماء الموالين لغضبة التشفع له ، ولكن الغضبان الغاضب أبى وأصر على الثأر لرجاله الذين قتلوا ، وكبر النزاع فانحاز بعض الزعماء لغضبة الليل ، فارتفع حنق الغضبان وأدرك أن سلطته قد ضعفت وتهاوت على هؤلاء اللصوص ، ومن شدة حقده وقهره أمر بحرق القصر ـ قصر أو بيت غضبة ورجاله ـ على من فيه ، فارتفع الصراخ والصياح والهرج والمرج ، فخرج غضبة الليل ورجاله على خيولهم فقاتلوا

قتال المستميت حتى فتحوا ثغرة في الحصار المضروب عليهم ، ولكن كثرة رجال الغضبان تمكنت منهم فسقط غضبة الليل جريحا ، فأمر الغضبان بشويه حيا ليكون عبرة لكل زعيم يتمرد عليه ، ولم تجدِ توسلاته وصراخه ، فحرقه وحرق قصره وفتك برجاله إلا من استسلم سابقا قبل المعركة الأخيرة ، على أثر هذا الحدث المرعب الوحشي أخذ كثير من رجال العصابات يهربون ويبتعدون عن وادي السرحان ، فقد عمت الفوضى في الكهوف والجبال لهذا الحدث المرعب ، وقد نسوا كم من القرى حرقوا وقتلوا ودمروا خلال حملاتهم وغزواتهم ! وقبل وصول جيش الأمير صقر الذي يزحف رويدا رويدا وجد الغضبان ملك اللصوص نفسه أنه وحيد في الميدان ، ولم يبق معه سوى مائتين من رجاله، وقد تفرق عنه زعماء اللصوص الآخرون ، وقد وصلت إليه الأنباء بدخول الجيش الغازي بداية وادي السرحان وجبل ضراب فأشار عليه بعض رجاله الأشداء بالانسحاب وعدم تحدي هذا الجيش الزاحف ، وبعد تردد وممانعة قوية استسلم لفكرة الهرب فأعد النساء والأطفال للمسير أولا ، واحتاروا في أمر الكنوز والأموال التي يسلبونها من القوافل والمدن ، فأخفوها في كهف عميق في جوف الليل ريثما يعودون ، ولما تم أمر دفنها في جوف كهف عميق أمر قسما من رجاله باللحاق بقافلة النساء وكان الأمير قيس وغلامه عبس قد استغلا الفوضى التي دبت في الجبل والوادي وهربا من السجن ، وسارا خلف قافلة النساء وبعد مسير مضن أدركا قافلة النساء ، ولكنهم وجدوها محاطة بحراسة مشددة ، فلم يتمكنا من الوصول إلى خيمة الأميرة سُلمى ، وذات صباح وهم ما زالوا يلتمسون حيلة يصلون بها للأميرة سمعوا صريخا وضجيجا في خيام النساء ، فأصغوا السمع فعلموا أن الأميرة سُلمى قد اختفت ، ولم تبت الليلة الفائتة في فراشها ، فأدرك الأمير أن الأميرة قد هربت أو تعرضت لسوء وغدر جديد ، ولاحظ أن القوم توقفوا عن البحث ريثما يصل ملكهم ، ولم يتابعوا البحث عن الأميرة الغائبة ، فقام الأمير وغلامه عبس بمهمة البحث وبعد يومين من تعقب الآثار أدركوا الأميرة في أحد الوديان مع غلامه جُبار ، ولما شاهدهم جُبار من بعد ظن أنهم من رجال الغضبان ، فاستعد للقتال فأشهر سيفه حتى اقترب منهما

الرجلان فصاح فيهما : لن تأخذوها حتى تقتلوني .

وكانت الأميرة منهكة القوى من كثرة المشي وفي وضع حزين ومؤلم ، وسمعت كلام جُبار للرجلين فاستعدت هي الأخرى للموت والقتال فأشهرت سيفها وتمنت لو أنها تركب جوادا ولكنها قبل اللحاق بـجُبار الذي كان يعترض الرجلين ويتقدمها باتجاه الرجلين بعشرات الخطوات فوجئت به يعانق الرجلين ، ويقبل يد أحدهما ، ولولا ثقتها بإخلاص الغلام لها ، وقد رافقها منذ شهور في وادي السرحان لظنت فيه المؤامرة والخيانة ، ولكنها لما أمعنت النظر في عيون القادمين عرفت من هو هذا الرجل ؟ .. فهذه عيون قد رأتها منذ سنة أو أكثر في وادي الثعالب فاهتز قلبها وخفق خفقانا شديدا وهمست : الأمير قيس !

فقال بهمس وهو يقترب منها : أجل أيتها الأميرة أنا قيس بن خصيب قد وصلت إليك أخيرا كيف أنت ؟!

فقال بذهول وخشوع : بخير .. إنني بشوق لرؤيتك أيها الشجاع !!

فقال : لا بأس عليك .. ها نحن التقينا كما تواعدت عيوننا !

وجلسا على الأرض يتحدثان ويتناجيان حتى سمعا عبس يقول : أيها الأمير .. أسمع حوافر جياد في قلب الوادي .

فقال جُبار : ربما كانوا من رجال الغضبان .. فإذا اكتشف الغضبان هربنا لابد أنه سيلحق بنا فهو لا يرضى بالهزيمة مرتين .

ولم يطل الانتظار فقد ظهر بضعة رجال يركبون خيولهم وجيادهم ، ولما لمحهم عبس جيدا عرف أنهم من رجال الغضبان فقال للأمير : تسعة رجال وتسعة جياد !

امتشق الأمير الفارس سيفه وهزه بضع مرات في الهواء حتى علا أزيزه ، وشاهدهم الفرسان من بعيد ، فاندفعوا نحوهم فرحين ومسرعين ، وكان بعضهم يعرف الربيع ومسعودا فدهشوا لوجودهم مع الأميرة ، ولما وصلوا إليهم فقال رئيسهم بصوت عال مخاطبا للأميرة : لقد جن الزعيم من هربك أيتها الأميرة ! .. أنت سبب كل هذه البلايا ثم تهربين ! وأنتم ما الذي

جمعكم بالأميرة ؟ ألم تهربوا وتخرجوا من سجن المدينة ؟!

فتقدم عبس مسعود منهم ووقف أمامهم وهو يصيح فيهم : أيها الرجال .. اهربوا قبل فوات الأوان .. فهذا الأمير قيس بن خصيب ، وقد أقبل إليكم لإنقاذ محبوبته الأميرة سُلمى ابنة جعد .

فتهامس الرجال بدهشة ورددوا : الأمير قيس !! الأمير قيس !!

فهتف قيس : نعم أنا الأمير قيس فارس الغبراء .. وأنا تركت الملك والديار والأهل للوصول للأميرة .. وها هو جيش والدي الملك قادم لإنقاذ الأميرة أيضا .. فالنصيحة أن تهربوا كما هرب أسيادكم .

فتناقش الرجال فيما بينهم وقال رئيسهم : أيها الأمير .. لا يمكن العودة بدون الأميرة فالقتل مصيرنا .. فلنتحارب فهنا موت وهناك موت .

فقال الأمير : أنا أعطيكم الأمان .

فقال رئيسهم : لا نريد أمانك ، نريد الأميرة الخائنة .



نشبت معركة شرسة بين الفرسان واللصوص ، وقد تمكن الأربعة من قتل خمسة وجرح أربعة فصرفهم قيس ، وبعدما استراحوا قليلا ركبوا جياد القتلى وأخذوا الجواد الخامس ، وساروا نحو بداية وادي السرحان حيث جيش بلادهم ، وبعد أيام من السير المتتابع وصل الأميران وعبس وجبار الجيش ، ففرح الأمراء بعودة قيس والأميرة معافيين ، وأرسل صقر بشيرا للملك خصيب ، وتابعوا المسير نحو مدينة اللصوص ، وقاموا بتدميرها ، وأعملوا فيها النيران ، ومكثوا هناك أياما ، ثم أخذوا بالعودة ، وبعد حين وصلوا لبلاد الرايات ظافرين منصورين فرحين ، وسر الملك خصيب بعودة ولده بعروسه من بين لصوص ومجرمي وادي السرحان ، وتقرر ذهاب الوزير غراب لبلاد أبي كبشة للاتفاق مع الملك جعد على زواج الأميرة سُلمى

وكان الوزير قد أرسل غلاما له ليبشر الملك بحياة ابنته ، ولكن الغلام رجع بأخبار سيئة ، فقد وجد أن الأمير نحاس قد طرد الملك ، وشرد عشيرته ، وحبس الوزير النبهان وكبار الخصوم وذلك بعد معارك دامية بين العشيرتين ، واستولى على الملك عنوة ، ولما علم الملك خصيب بهذه الأخبار غضب أشد الغضب واستاء منها وأصابه الضيق والغم ، وأخذ يفكر بغزو بلاد الأكباش ولكن الوزير غراب أمره بالصبر والتريث حتى يعلموا أين هرب الملك جعد ؟ وجاءت الأخبار بعد حين يسير ، فقد نزل ضيفا على أحد الملوك ، وأنه هلك في إحدى البلاد المجاورة تأثرا وحزنا ، وقد قتل كل أولاده وكثيرا من أمراء عشيرته خلال المعارك مع قبيلة نحاس ومن حالفهم ضد الملك جعد ، ومن تأثره بالحادث الصعب صدم ، وأصيب بموت مفاجئ ، فقال خصيب بغضب : لابد من قتل نحاس وأولاده .. كيف يهلكون ابن عمنا ونسكت على ذلك ؟!

فقال الوزير : بلادهم بعيدة عنا أيها الملك السعيد ! وعشيرة نحاس كثيرة الأفراد .. ولا وريث للعرش بعد مقتل أفراد وأسرة الملك جعد .. سأرسل بعض خاصتنا للاجتماع برجال الملك الميت ، ونرى رأيهم ، ثم نقرر الخطوة القادمة .

حزنت الأميرة سُلمى حزنا شديدا على موت والدها وأهلها واخوتها ، وحقدت حقدا عظيما على خالها نحاس وأمها ومقتتهم مقتا قاتلا ، وزاد حنقها على ماجد ، وصممت في أعماق نفسها على الثأر والأنتقام ، ووعدها الأمير قيس خيرا ، وأن يدعمها بجيش من جيوش أبيه حينما تأتي ساعة الثأر والإنقاذ وقال : ولكن علينا أن ننتظر عودة رجال الوزير غراب قبل الإقدام على شيء أو التسرع في الأفعال .

تأجل زواج الأميرين عدة أشهر حتى هدأت الأحوال وهدأت نفس الأميرة على قتلاها ، ثم عقد النكاح ، وتزوج الأمير قيس الأميرة سُلمى بنت الملك جعد ، وأسكنها في قصر الأقواس ورغم الاحتفال البهيج بالزواج كانت الأميرة حزينة جدا يوم فرحها ، ولولا المشقة والجهد الذي بذله قيس ورجاله ؛ لإنقاذها وإخراجها من وادي السرحان لربما عزفت عن الزواج ،

فقد كان قلبها أسود من الحقد والكره لـماجد وأبيه نحاس .



عندما علم الهاربون من قبيلة الملك جعد بحياة الأميرة سُلمى أخذوا يتوافدون على بلاد الرايات من كل حدب وصوب ، فكثرت أعدادهم في المدينة ، فأنشأ الأمير قيس مدينة جديدة بين بلاده وبلاد أبي كبشة سماها مدينة سُلمى على اسم زوجته ، وانتقل إليها وأخذ يحشد فيها رجال بلاد الأكباش ، وكان الأميران يتنقلان بين المدينتين ، وبعد خمس سنوات من الإعداد للمعركة دخل الأمير قيس على والده الملك يطلب منه قطعة من جيشه ، والإذن بمحاربة الملك نحاس ، وليسيروا إلى مملكة الملك جعد بن همام للثأر ، فبارك الملك الشيخ خصيب هذه الخطوة ، وأمر وزيره غراب ببذل الجهد المناسب لمساعدة الأميرة سُلمى باستعادة عرش أبيها ، وكان يرون أنه من حقها ومن حق أولادها من الأمير قيس ، وبعد أيام كادت مدينة سلمى تخلوا من الناس ، عندما خرجت القبائل الموالية للأميرة لمحاربة الملك نحاس وعشيرته ، وكان الملك نحاس وقومه على علم بتحركات الأميرة سُلمى ؛ ولكنهم لما رأوا تلكؤها ظنوا أنها قنعت بالحياة في بلاد الرايات ، وقد فكروا باغتيالها أكثر من مرة ؛ ولكن حذرهم من غضب الأمير قيس ووالده كان يمنعهم ، ولما علموا بقدومهم للثأر والانتقام ، تقرر أن يخرج عقاب أكبر أبناء نحاس لمحاربة جيش الأميرة قبل وصولهم للبلاد ، فهم لم يطمئنوا بعد للبطون والأفخاذ التي تقطن مدينتهم بعد ، فالتقى الجيشان على بعد مسيرة يومين من بلاد أبي كبشة ، ودارت المعركة العنيفة بين الفريقين ، وبعد أيام من القتال الدامي والشرس أخذت جنود الأمير عقاب تتقهقر وتنسحب ، فما هبط الظلام حتى خلت أرض القتال منهم فقد هربوا وتركوا جرحاهم وخيامهم وقدروهم وقفلوا عائدين لبلادهم ، فسر الأمير قيس لهذا النصر ، وأمر بإسعاف الجرحى وإرسالهم لمدينة سُلمى مع الأسرى والمستسلمين حتى تنتهي المعركة الفاصلة ؛ فينظر في أمرهم ، ودفن القتلى من الفريقين.

ولما عاد الأمير عقاب لوالده مهزوما قلق القوم ، وتعاهدوا من جديد على القتال والصمود ، بل أرسلوا رسالات لبعض الملوك المجاورين يطلبون مساعدتهم وتدخلهم مقابل الأموال ، وأكثرهم اعتذر ورفض التدخل في هذا الشأن؛ ولكن الملك جنيدة بن غالب ملك بلاد المر وافق على المساعدة مقابل ألف ناقة وألف جواد وألف سيف وألف رمح وعشرة آلاف قطعة من الذهب،وبعد تفكير بمطالب الملك جنيدة رضي الملك نحاس بذلك ، وتم الاتفاق على ذلك ، فأرسل لهم الملك ألفي فارس من أشد فرسانه، وذلك بعدما وصله جزءا من هذه القيمة ولم علم الأمير قيس بذلك التحالف كتب إليه كتابا يحذر فيه الملك جنيدة من التدخل ، فسخر منه وأهان رسوله ، فتوعده الأمير قيس توعدا شديدا ، وأرسل لأبيه والوزير غراب يعلمهم بذلك التدخل، فاشتد غضب الملك خصيب على جنيدة ، فأمر بإعداد جيش لجب لغزو بلاد المر ، وكان على قيادة الجيش الأمير الشجاع صقر بن غراب ، ولما وصلت الأخبار للملك جنيدة ندم على تدخله بين الفريقين عندما رأى أن الحرب ستنقلب على بلاده ؛ ولكنه أصر على التحدي والصمود ، وأعد آلاف الفرسان لملاقاة جيش بلاد الرايات .

ولما استراح جيش قيس من أثر المعارك تقدم بهم نحو مدينة الأكباش ، وبعد أيام أحاط بها من جهة الغرب ، وخرج لهم ثانية الأمير عقاب بن نحاس ، وخرج معهم جنود الملك جنيدة ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، بذل فيها الفريقان كل قوة وصبر وثبات ؛ ولكن بعد أيام من الصراع وضح للجميع أن فرسان الأمير قيس وفرسان الأميرة سُلمى أشد وأقوى ، وأن رجال جنيدة لم يفعلوا شيئا يذكر ، فازداد خوف نحاس وزعماء قبيلته من العاقبة ، فظهر فيهم الانقسام ، وأخذ الكبار يعاتبون نحاسا على إصغائه للصغار والشباب وحماسهم ، وطالبوه بإخراج الوزير النبهان والسادات من قبيلته وقبيلة الملك الراحل جعد ومحاولة الصلح مع الملك خصيب والأميرة سُلمى ، ومع اشتداد المعارك وكثرة القتلى في فريقه أمر بإحضارهم من السجن ، وحاول التفاهم معهم ، فأجاب الوزير النبهان : بعد كل هذه السنوات تريد التفاهم معنا يا نحاس ؟!

فصاح بعض الشباب : صهٍ أيها الحقير .. قل الملك نحاس .

ضحك الوزير المحبوس النبهان منذ سنوات وتمتم هازئا : الملك نحاس!.. يا الله ! .. دافعوا عن هذا الملك .. إيه لقد نسيتم عاقبة الظلم والافتراء ، وتحلمون بأمجاد قديمة نسيتم ما صنع آل جعد لهذه البلاد وللعباد !

فقال نحاس: أيها الوزير ! أنت رفضت وزارتنا وقبلت السجن وفاء لمولاك الهالك .. ولم نأت بك لنسمع مثل هذا الكلام .. رأى كبار قومنا أن يجعلوك شفيعا لنا عند الملك خصيب والأميرة سُلمى وستذهب رسولا منا ، وسيرافقك بعض سادة العشيرة ومن آل جعد أيضا .. فنحن نريد أن نسمع شروط الصلح .. فالحرب كما تعلم أخذت الكثير من الأنفس والشباب والرجال .. فالصلح سيد الأحكام أيها الوزير .

وبعد جدال وعتاب وافق الوزير بالسير لملاقاة الأمير قيس وزوجته الأميرة سُلمى ، ولما اجتمع الوزير بالأميرة وزوجها وعرض عليهم صلح نحاس قالت الأميرة هازئة حانقة : وعلى ماذا نتصالح ؟! على وقف القتال فحسب ؟!

فقال الوزير : على حقن الدماء وحل المشاكل بالكلام والسلام .

فقال قيس : لا كلام ولا سلام .. الحل الوحيد القتال حتى الموت أو الاستسلام ، ولا مكان لقبيلة نحاس وعشيرته في هذه المدينة .

فقالت سُلمى : وأن يسلم لنا الأمير ماجد بن نحاس ليأخذ جزاءه ، ثم يخرجون من المدينة من غير خيل ومال وسلاح .

ولما سمع الوزير شروط الأميرة للصلح ، قال النبهان لشيوخ عشيرة نحاس: ها أنا نقلت رسالتكم للأميرة ، فانصرفوا راشدين ، وأما أنا فسأبقى عند ملكتنا الجديدة .

وعاد شيوخ عشيرة نحاس فأخبروه بشروط الأميرة وتصرف الوزير النبهان ، فعض على أنامله من الغيظ ، فصاح ماجد : يا أبي ! علينا أن نقاتل حتى الموت .

فقال نحاس يائسا : هذا هو الحل .. سأخرج غدا للقتال بنفسي .

وتجدد القتال بين الفريقين ، وتمكن أحد قادة الأمير قيس من اقتحام المدينة أثناء القتال ، فدب الصريخ في المدينة أن جنود الملك خصيب دخلوا المدينة ، فانهار جيش نحاس وتفرقوا يمينا وشمالا ، وسقط نحاس جريحا ، فسيق إلى خيمة السجن ، وما أتى الليل حتى كان قيس والأميرة سُلمى يدخلان قصر الأمارة والسلطان ، ويعطيان الأمان للناس والجنود الهاربين ، وكانت سُلمى قد كلفت بعض رجالها وأقاربها بالبحث عن جثة الأمير ماجد ، فلما ظهر الصباح كانت المدينة قد بايعت الأميرة سُلمى ملكة على البلاد والعباد ، وأمرت الملكة الجديدة كل رجل من قبيلة نحاس قد اختبأ في بيته أن يخرج من المدينة ناجيا بروحه فقط ، ومن نجا من جنود جنيدة سيق للسجن ، ولم يجدوا ويعثروا على جثة الأمير ماجد ، فقالت الملكة لنفسها : لابد أنه هرب قبل سقوط المدينة !

وبعد أيام يسيرة عاد الهدوء للمدينة ، وجمعت الأموال والخيول ، فأمرت الملكة بإعطاء جنود الملك خصيب كل فارس وجندي جوادا وعدة حرب ومائة قطعة ذهبية ، ومن قتل خمسمائة قطعة ذهبية لأهله ، ونبذ نحاس في السجن ، ومعه كبار عشيرته وأبناؤه الذين لم يقتلوا اثناء المعركة الفاصلة .

ضياع الأمير

وبينما أهل مدينة أبي كبشة غارقون بالأفراح والليالي الملاح ، وقد أرسلوا البشائر للملك خصيب بن مرار ، جاءتهم أخبار مؤلمة خصوصا للملكة الجديدة سُلمى والأمير قيس دخل عليهم جُبار الخادم المخلص ليلا ، وأسر لهما خبر ضياع الأمير الصغير سيف الزمان .. ابنهما البكر ذو الأعوام الأربعة ، تفاجأ الأمير والملكة لهول الخبر ، ولما تماسكا أعصابهما التي اهتزت قال قيس : كيف ذلك أيها اللعين ؟!

فقال الخادم الأمين بحزن ودموع : لا ندري كيف غفلت عنه العيون يا سيدي الفارس؟! نحن نتابع أخباركم ورسائلكم ، وقد سررنا بانتصاراتكم ، وقبل أيام كانت الجارية نعمة تلاعب الأطفال الثلاثة في أطراف قصر الأميرة في مدينة سُلمى كما تعلم ، وعطش الأميران الصغيران فذهبت بهما الجارية لتسقيهما ، وتركت الأمير البكر سيف الزمان يلعب على الأرجوحة ، ولما دخلت القصر سمعت صرخة ؛ ولكنها لم تهتم بها ولم تكترث لها ، فلما أسقت الأمراء عادت حيث تركت الأمير الصغير فلم تجده على الأرجوحة ، فنادت هنا وهناك ولم تسمع ردا ، ولم تشعر بحركة فتذكرت الصرخة .. فتمشت نحو الأسوار ظانة أنه تسلق على السور وبحثت بين الأشجار فلم تجده ، فأسرعت إليّ ، فنهضت مسرعا أنا والغلمان الآخرون نبحث عنه ، فلم نعثر عليه داخل أسوار القصر ولا حول القصر ؛ ولكننا وجدنا خطوات غريبة وآثار أقدام تتجه ناحية السور القريب من مكان لهو الصبي ، أبلغت رئيس الحرس الفارس كراز فأمر بالبحث في أطراف المدينة وحول القصر، فلم نجد له أثرا ، فقد اختفى أو سرق الأمير ، ولما يئسنا من البحث جئت إليكما بهذا الخبر السيئ ..

وبعد صمت قاتل همست الأميرة قائلة : أتظن أن ماجدا اللعين قد فعلها ؟!

تطلع الأمير في عينيها وقال ببطء : أتظنين ذلك ؟! يا الله !! يا ويله !!.. سأقتله شر قتلة وأشرب من دمه اللعين .. هذا جبن ونذالة !! سأعود للبلاد يا ملكة سُلمى .. ابقِ هنا لترتيب أمر هذه البلاد وسأطلعك على الأخبار أولا بأول ..

ذرفت الملكة سُلمى الدموع الغزيرة وقالت من بين الدموع المنهمرة كالمطر : إنه حقود !! مجرم قاتل !! سأبحث عنه في كل بلاد الدنيا وأهلكه .

فقال الأمير قيس : سأرسل عبس الشجاع وراءه .. ابحث لي عن عبس يا جُبار وسنتحرك صباحا إلى المدينة .

أحضر جُبار عبسا، فأطلعه الأمير قيس على جلية الخبر فحزن وأسف ، ثم قال متسائلا : أتظن أنه استطاع الفرار والوصول لبلادنا بهذه السرعة ، وأن يـفعل هذه المكيدة إني أشك في ذلك ، فيوم المعركة الأخيرة كان ماجد هذا بين الفرسان ، فقد سمعت صوته وكنت قريبا منه قبل أن يتوارى عن الأنظار .

فقال قيس : ليس لنا أعداء إلا هو !

فقال عبس باسما : ويح الأمير!!.. فنحن لنا أعداء كثر ، كل قوم ماجد أعداء لنا ، ولا تنس الملك جنيدة .

فقال : ولكنه مشغول بالحرب مع بني قومنا .. وما الغاية من خطف ابني ؟! .. فـماجد هو صاحب المصلحة الأولى في إيذائي أنا والملكة أم سيف .. هذه مهمتك يا صديقي العزيز ؛ فأنا راحل مع الفجر نحو البلاد لأدبر الأمور ..

حزن الناس لما عرفوا بقصة اختطاف ابن ملكتهم ، وأصاب الملك خصيب حزنا شديدا على فقد الأمير الصغير ، وكادت تذهب روحه من الأسف والبكاء على الحفيد الغالي ، وانتشرت عيون قيس و خصيب في البلاد والأمصار ؛ ولكن لا حس ولا خبر ولا أثر هجر أكثر الناس مدينة سُلمى بعد رحيل قيس و سُلمى عنها ، واجتمع الوزير غراب بالتجار وطلب منهم البحث والسوأل عن ابن أميرهم أثناء رحلاتهم وتجاراتهم .. وأثناء البحث أخبر الأمير صقر الملك خصيب أن الملك جنيدة يرغب بالاستسلام والصلح ولقاء الملك ، فبعد تشاور أمر الملك خصيب القائد صقر بوقف القتال وإرسال الملك جنيدة وفدا من قومه لإتمام الصلح ، وبعد حين أقبل الملك جنيدة على بلاد الرايات يطلب العفو والسماح من الملك خصيب

بعدما قبل رأسه ويديه واعتذر وتأسف وندم لتسرعه بالتحالف مع الملك نحاس الغاصب لعرش بلاد الأكباش .. وبعدما تم الصلح كان من ضمن شروطه أن ينكح الملك جنيدة ابنته الوحيدة للأمير قيس ، فرضي بذلك النسب وتصالحوا على القتلى وجرى الصلح بينهم .. وعاد جنود الملك خصيب إلى البلاد ، وبعد ردح من الزمن تم زفاف الأميرة الشماء على الأمير قيس بن خصيب .

وكان قيس يقضي فصل الربيع في بلاد أبي كبشة عند زوجته الملكة ، ثم يعود لبلاده ثانية ، وحاولت الملكة أخذ أولادها عندها ، فرفض الملك خصيب ذلك حتى يكبروا ويصبحوا شبانا فالأمير مرعي أصبح ابن ثلاث سنوات ، والأميرة الصغيرة ابنة سنة ونصف واسمها الأميرة جميلة .. وكانت الملكة تتردد على مملكة خصيب في فصل الخريف فتمكث أسبوعين ثم تعود لإدارة شؤون مملكتها ، وسر الأمير قيس بابنة الملك جنيدة الشماء ، واكتمل فرحه عندما وهبهما الوهاب منها ابنا جميلا مثلها ، فعمت الأفراح في الممالك الثلاث ، ولكن الغصة بفقد الأمير سيف الزمان ما زالت في حلوق القوم ، ولكن الأيام تنسي وتضعف الذكرى ، ولم يتمكن عبس وجُبار وغيرهم من رجال وحاشية الأمير قيس من الوصول للفاعل والخاطف ، وفشل مثلهم التجار بسماع أي خبر يخص الأمير المخطوف ..

وأتت السنون وقضى الملك خصيب نحبه ، وأقيمت عليه الأحزان وأطعم الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ، وذبحت عنه الأنعام ، ووزعت عن روحه الأموال ، ثم بويع قيس بالملك وريثا لأبيه خصيب .. والعجب أن الفرس دموع فرس خصيب قد ماتت بعده بأيام قلائل فتعجب الناس من ذلك ..

حادثة في الغابة

نحن الآن بعد عشرين عاما مضت على ملك قيس على بلاد الرايات ، وقد أعلن الأمير مرعي ابن الملكة سُلمى الشاب الصغير ملكا على بلاد الأكباش ، فقد تنازلت والدته عن العرش ، وكثر ترددها على بلاد زوجها ، وأصبحت ابنتها جميلة شابة حسناء مطلب الفرسان والأبطال من أبناء الأمراء والوزراء في بلاد الرايات ، وقد ترك الملك قيس أمرها لنفسها لتختار من تشاء من الرجال بعلا لها ، فكانت تصدهم بلطف واعتذار مهذب .. وذات نهار ركبت جوادها وسارت معها ابنة الأمير صقر الأميرة عبلة ، وابنة الأمير عبس الأميرة حُسن وغيرهن من الفتيات الأميرات ، وخرجن على جيادهنّ نحو الغابة الكبيرة المحيطة بالمدينة من ناحية الشرق ، وكن سعيدات مرحات وهن يتراكضن على خيولهنّ ، ويسخرن من بعضهن البعض ، ويمزحن بصوت مرتفع ، والسرور يملأ وجوههن وعيونهن ، وعند العصر وبينما هنّ غارقات في اللهو والمزح والسرور والمرح والسعادة ظهر بينهن فجأة فارس على جواد أحمر شاب جميل الصورة ، وإن كان في وجهه كثير من الندبات وآثار الجروح ، وكانت الشجاعة تظهر على محياه ، وقد فوجئن به ، وهو أيضا قد فوجئ بهن ، ولكنه تمالك نفسه سريعا وقال صائحا محذرا : اركبن جيادكنّ أيتهنّ الفتيات واهربن بسرعة !



فتلكأن رويدا ثم قالت إحداهن بجرأة : من أنت ؟! ومن أنت لتأمرنا ؟ !وما الذي أتى بك إلى هنا ؟!
فتبسم الشاب لها وقال : خلفي رجال يطاردونني .. أخشى عليكن منهم ، فاركبن جيادكنّ وانصرفن قبل فوات الأوان .

فسخرن منه ومن تحذيره ، وإن أحسسن بالخطر من وجوده بينهن بهذه الصورة المخيفة ، وقبل أن يتمادين بالسخرية معه ظهر ثلاثة رجال على جيادهم كأنهم يطاردونه فداروا حوله ، وقال أحدهم بصوت عال : الزعيم يأمرك بالعودة .. ويحذرك من التمرد ومن غضبه يا سيد الفرسان

ثم انتبه الفارس المتكلم للصبايا فقال بدهشة : أوه ! من هؤلاء الجميلات يا سيد الصعاليك ؟
والتفت إليهن وقال : من أنتن أيتهن الفاتنات ؟ ومن أي البلاد أنتن ؟!
أخذت الفتيات يركبن ويعتلين جيادهن والقلق مرتسم على وجوههن ، فلما لم يسمع الرجل جوابا منهنّ ، قال للفارس الأول : من هؤلاء أيها الأمير ؟!
فهز الفارس الشاب رأسه قائلا : لست أدري .. إنهن يتنزهن هنا .
فقال الرجل المطارد مخاطبا الفتيات : هل أنتن من بنات بلاد الرايات ، فهي أقرب المدن لهذه الغابة ؟
فهززن رؤوسهن بـ نعم
فقال : يا أمير الفرسان ما رأيك بأخذهنّ للزعيم فسوف يصفح عن إهانتك وخروجك ؟!
فقال الفارس الشاب بجسارة : حذار يا قرادة من مس أي فتاة بسوء .. اذهبن بسلام أيتهنّ الناعسات .
فصاح المدعو قرادة : لا تتحركن قبل أن تنبذن الدمالج والأساور والأقراط والقلائد اللواتي تحلين بهنّ أنفسكن ..
فقال الفارس الشاب مرة أخرى بحدة وقوة : قرادة .. لا تدعني أقتلك ..إياك أن تأخذ شيئا من هؤلاء الحسناوات .
فصاح رجل آخر : لا داعي للتظاهر بالشجاعة والشهامة يا سيد الفرسان !.. ارجع للزعيم قبل أن يهدر دمك .. ودعنا نتصرف مع هؤلاء النسوة .
ولم ينتظر القائل ردا بل اندفع نحو الفتيات ، فأشهرن سيوفهن بلمح البصر وأردينه قتيلا ، فدهش الرجال لسرعتهن وشجاعتهن ، فأخذ سيد الفرسان يقهقه عاليا ويقول شامتا : أقدم يا قرادة .. جرب نفسك ها هو صاحبك ربع سقط مجندلا بدمه .
اشتد حمق وغضب قرادة لمقتل رفيقه ولسخرية الشاب منهم ، وأمر رفيقه بالمشاركة بالهجوم عليهن ، فتصدت الأميرات لهم ، وجرحن قرادة جرحا بليغا فسقط على الأرض يتلوى من

الألم والغيظ ، ثم تبعه صاحبه ..

فقال الفارس : آلله .. آلله .. آ لله .. !! لقد خلصتنني من شرهم ومن الفتك بهم .. وداعا يا قرادة .. لقد أشفقت الفتيات من قتلك .. وداعا ..!

وحيا الفتيات الثائرات بيده ملوحا بعد أن شكرهن على شجاعتهن ، وقبل أن يبتعد سمع إحداهن تصيح عليه : أيها الشاب الفارس .. لم نعرف قصتك ؟! واسمك ؟!

نظر إليهنّ وتبسم وقد أدار جواده ناحيتهنّ وقال بروية : نحن لصوص !.. وقطاع طرق ! .. لسنا من الأشراف ، فلا تشغلن أنفسكن لمعرفة اسمي ! وداعا يا بنات حواء .

واختفى في جوف الغابة ، وبعد زوال الدهشة عنهن قفلن عائدات إلى المدينة ، وهن غير نادمات على قتل هؤلاء اللصوص ، واتفقن على أن لا يذكرن هذه الحادثة لأهلهن خوفا من منـعهن من الخروج للغابة ثانية أو إرسال الحرس معهن ، ولكن قصة الشاب المطارد ما زلن يحلمن بسماعها،ومعرفة سبب هربه من هؤلاء ، وعدم طمعه بذهبهن وزينتـهن مع اعترافه بأنه لص وقاطع طريق ، وفي الصباح التالي لهـذه المعركة تـفاجأ أهل المدينة صباحا باختفاء فرس من جياد الملك قيس الفرس ورد ابنة الفرس دموع المشهورة .. فقد وجدوا الحرس والسائس نياما والفرس مفقودة .. كانت حادثة كبيرة جدا في المدينة والبلاد .. اصطبل الملك يتعرض للسرقة .. فتعجب الناس من جرأة اللصوص أو اللص ، وكانت الأميرة جميلة تتحدث مع الأميرة عبلة بنت صقر وحُسن بنت عبس ، وكان الاستغراب والإنزعاج مرتسم على وجوههن فقالت عبلة : هل ترين لما حدث معنا مساء أمس في الغابة علاقة في هذه الحادثة العظيمة ؟!

فقالت حُسن : ولكن هل يستطيع رجل واحد تخدير الحراس ويأخذ الفرس وحده وبدون مساعدة ؟!

فقالت جميلة : هل يا ترى للشاب الذي فارقنا يدا في الموضوع ؟! .. ولكنه مطارد ويدعونه للعودة إلى زعيمه وسيده المجهول .. ولكن لديّ إحساس أن للقاء البارحة مع هؤلاء المجرمين

يد في شأن الفرس ورد .. من تجرأ على إيذاء الملك قيس بن خصيب ؟!

فقالت عبلة : هل نصارح الآباء بحادثة الغابة ؟!

أجابت جميلة ابنة الملك قائلة : إنني حائرة لدرجة كبيرة .. أخشى أن لا يكون لحادثة الغابة شأن بأمر الفرس .. فلنصمت وننتظر تتطورات الحكاية فالأمر شديد الغموض!

تم إلقاء القبض على قرادة وسرماح جرحى في الغابة وبجوارهم القتيل ربع فاقتيدوا للمدينة وهم في آخر رمق من الحياة ، فقدم لهم الدواء وادعيا أنهما تخاصما مع القتيل فجرحهما وتمكنا من صرعه ، فأمر الملك بعلاجهم والعناية بهم حتى يتأكدوا من قصتهما .

مضت بضعة أشهر ولم يعرف الملك من سرق الفرس التي ورثها عن أبيه خصيب ؟ وكان الوزير غراب العجوز مستغربا للحادثة ، وتذكر أيام زواج الأمير قيس ومحاولة سرقة الفرس دموع من قبل رجال وادي السرحان ، فاجتمع بابنه الوزير عقاب الذي حل محله في الوزارة وتحدث معه في ذلك الماضي ، فتذكر الوزير عقاب ذلك ثم قال معقبا : الجبل !! .. تلك قصة قديمة يا أبتاه ! .. هل ظهرت أميرة جديدة تبتغي الفرس مهرا لها ؟!

فقال الوزير الشيخ الكبير : الفرس دموع وذريتها مطلوبة من الملوك والأمراء .. فابحث عن رجل شجاع نجيب عارف بحيل ومكر اللصوص ؛ وليرود لك جبل ووادي السرحان .

فقال عقاب بحيرة : يا أبتي! .. من الرجل الفطن الذي يحسن القيام بهذه الريادة ؟ .. لقد كبر جُبار .

فقال غراب : يا ولدي ابحث سوف تجد.. فالشجعان متيسرون في كل وقت وحين ، وليبق هذا الأمر مخفيا بيننا وبين رجلك أيها الوزير .

اهتم عقاب الوزير باستشارة أبيه ؛ ولكنه في قرارة نفسه كان يستبعد أن يكرر رجال الوادي غلطهم القديم ، ولكن الناس تنسى ، فلعل لهم زعيما جديدا قد نسي ذاك الماضي ، وكان يقول : لديّ ثلاثة رجال يمكنني أن أثق بهم في هذه المهمة المرعبة والقاسية ؛ ولكنهم شجعان ومضرب المثل في الشجاعة في بلاد الرايات .. أحدهم ابن الأمير عبس الأمير أشجع ، فهو

فارس بطل كأبيه ، وهناك ابن أخي صقر الأمير أسد بن صقر وثالثهم الفارس حازم بن حمدان الحملي ، وهذا الأمير أفرسهم وأذكاهم .. سأتحدث معه ؛ فإذا وافق وعاد سالما سأنكحه ابنتي رماح ، لا أظنه يرفض إذا سمع بهذا الزواج .. هل أصارح أبي بذلك ؟ سأفعل حتى لا يرفض هذا الاقتران إذا رجع سالما.. أبي يحب أن تبقى بناتنا في عشيرتنا .. ولكن الفارس حازم لا يفرط فيه ، فنعم الصهر ونعم البعل ، ونجاحه في هذا المهمة ستقر به أعين القبيلة وأبي قبلهم

وبعد أيام عاد الوزير عقاب للتشاور مع أبيه في شأن إرسال الفارس الذي وقع عليه الخيار حازم بن حمدان الحملي ولما سمع غراب بقصة الزواج تردد كثيرا قبل أن يوافق وقال : أنت تعلم يا عقاب أن بنات أرباح - عشيرة الوزير غراب ـ لا تنكح إلا لأبناء العشيرة أو عشيرة الملك .. وأما رجالنا فيتزوجون ممن يشاءون .. وهذا عهد سرنا عليه قديما ، ولم يشذ عنه إلا بعض الأفراد لأحوال خاصة .

فقال عقاب : يا أبتاه ! .. القوم يعيبون علينا هذا التعصب لهذا المبدأ ، ولن يضيرنا بين الحين والآخر لو تساهلنا في الالتزام بهذا التقليد العشائري .. الفارس حازم من خيرة فرسان البلاد ، وله مستقبل في حرس الملك الكبار، وكذلك لا تنسى أن والده قتل في معارك الشرف ، وعمه من السادة القضاة ، فلا ينقصه شرف .. والمسير لوادي السرحان فيه مخاطرة كبيرة ، وإذا لم يكن أمامه إغراء كبير لا أراه يندفع لهذه القضية ، فالأمير قيس والأمير عبس وجُبار لولا الملكة سُلمى ما انطلقوا إلى وادي السرحان في تلك الأيام .

فتنهد الوزير الشيخ تنهدا عميقا وقال مستسلما : إنك تقول الصواب يا ولدي ! لابد من المحرك والمشجع .. فهذه قصة خاصة .. افعل ما تراه صوابا ، والحق أنني فكرت بإلغاء هذا التقليد القديم في أسرتنا الكبيرة من أيام الملك خصيب ، فكثير من فتيات القبيلة تحرم من الزواج إذا طلقت أو ترملت أو كبرت سنها إن لم يرغب بهن أبناء العشيرة .. فبعد زواج حازم من ابنتكم الغالية وقدرت لي الحياة إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه من وادي السرحان سالما ظافرا بالأخبار سأفكر بإزالة هذا التقليد الأعمى والساذج .

انشرح صدر الوزير عقاب لكلام أبيه ، وسر لموافقته ، فقد كان يخشى تشدده وتزمته لهذا الأمر وسر أكثر لتفكيره بإنهاء هذه العادة التي تحرم الكثير من نساء القبيلة من الزواج ثانية وثالثة، وبعد أيام أسر الوزير للفارسحازم الغاية ، وبعد نظر وتفكير عميق وافق على هذه المهمة الدقيقة والخطيرة .. فخلع زي الفرسان ولبس لباس العامة والفقراء ، وخرج من المدينة متجها لوادي السرحان .. وبعد مسير ميسر كان يطرق وادي السرحان ، ويسكن في أحد الكهوف القريبة من مدينة ملك اللصوص الغضبان ، وبعد حين قبضوا عليه مختبئا في أحد الكهوف ، وهو في حالة سيئة ، فأخبرهم أنه قد قتل إنسانا في قريته ، وفر هاربا من أهل القتيل وبعد حبسه بضعة أيام ألحقوه بحلقة السلاح ليتدرب ومن ثم يصبح ابن جبل، فهم يسمون أنفسهم ابناء الجبل لحياتهم في جبل ضراب ، وما كاد يمضي عليه ثلاثة أشهر حتى أصبح من رجال الجبل ووثق به القوم ، وكان يحب ويسعى أن يسمع أخبار الغضبان الرجل العجوز سيد الوادي العظيم ، فعلم أن الغضبان أعمى البصر ، فقد ضعف بصره ولم يعد يرى الأشياء المادية ، وهو حبيس قصره بين أولاده الكثر وزوجاته وغلمانه وخاصته ، وعلم أن الذي يدير مملكة الجبل مساعده القديم أبو هند ؛ ولكنه ألعوبة بيد الفرسان الشباب من رجال الجبل ، ولكنه استطاع توحيد مملكة اللصوص في وادي السرحان والجبل ، ويساعده في ذلك سيد الفرسان ، ويسمونه بالأمير زوابع ، وابن الملك الغضبان كلب الليل وأخوه وعل الجبل ، وعلم حازم أن هؤلاء الثلاثة هم المرعبون في الجبل منذ سنوات .. وأن هناك تنافسا خفيا وحادا بينهم ، ويظهر ذلك بينهم بين الحين والآخر .. وعلم أنهم يعدون لغارة كبيرة على مدينة أبي كبشة ، فعجب حازم لهذا الاختيار ، فقال له أحد الرجال الذين قويت علاقته بهم : يقولون إن هناك حسابات قديمة بينهم .. فهم منذ شهور قد استولوا على جواد من جياد ملك بلاد يقال لها بلاد الرايات .

صعق حازم لسماع هذا الخبر ، وكاد أن يفتضح أمره لولا أنه تدارك نفسه في آخر لحظة وقال صائحا ومخفيا دهشته: الله .. الله .. الله !! .. أمعقول هذا يا سيدي البطل ؟!

فقال الرجل الكهل وقد رأى الدهشة والاستغراب على ابن الجبل الجديد : إيه والله ! .. أعرف

أن هذا يدهشك ، فسرقة ملك ليس كسرقة غني أو أمير .

فقال حازم : صدقت يا أخي .. سرقة ملك هذه قصة عجيبة! لابد أن تسمعني الحكاية بالتفصيل ، فقد شوقتني لهذه الشجاعة والجرأة .

فقال الرجل متحمسا ومعتقدا سذاجة وبساطة صاحبه : اعلم يا سعود الهنا.. أن الأمير زوابع فارس كبير !! لم ير مثله في وادي السرحان .. فكثيرا ما أرسله ملكنا الغضبان في مهمات صعبة بل طلبه بعض الملوك أصدقائنا ؛ ليساعدهم في قتل خصومهم ومغامراتهم .. وفي كل مرة يسير فيها يعود بطلا جديدا رغم أنه لم يبلغ الثلاثين سنة من العمر.. أنا أذكر الأيام الأولى له في جبلنا أتي به طفل صغير .. لقيه الغضبان فتكفله ، وصنع منه مجرما عنيدا شرسا ؛ كأنه ابن مجرمين متوغلين في الإجرام والسفك .

فتظاهر حازم بالسذاجة وقال : والله إن قصتك تفتح الشهية يا أبا السعد .. طفل صغير أصبح أميرا وفارسا مهابا رغم كثرة الأبطال الكبار في الجبل .

فقال أبو السعد مظهرا إعجابه البالغ بـزوابع : إي وربي ! إنه لفارس قوي مهيب! شاركت معه في عدة غارات ، فرأيت الشجاعة والإيثار وقوة القلب منه .. عندما تراه في المعركة تظن أنه الأسد قد فارق عرينه غضبا وزمجرة .. ولكنك عندما تعاشره تتمنى له الخير والسعادة والحياة في القصور بدلا من هذه الجبال والكهوف .. هذا هو الفارس الأمير زوابع .. فمنذ أتي به وترعرع هنا وشب أطلق عليه الغضبان لقب الأمير ، ومنذ صغره وهو يدفعه في كل الغارات والمعارك حتى صار البطل المرهوب والمحبوب .

فقال حازم : حدثني عنه فقد شوقتني لرؤيته والاجتماع به .

فقال أبو السعد بحماسه السابق : سوف تراه ..

كان حازم يستمع بإعجاب عن فارس الجبل زوابع ، وأبو السعد يتحدث عنه بحماس وإعجاب غريب ، ولما انتهى الكلام على شجاعة البطل زوابع قال وفي عينيه نظرة حزن : لكن الجبل ساكن على بركان هائل!! .. فأولاد الغضبان يحزبون الرجال سرا ، فكل واحد منهم

يجمع حوله الأعوان للاستيلاء على الملك .. ملك اللصوص والوادي .. والأمير زوابع طموح ويحب السيادة على اللصوص والجبل .. وقد غرس فيه الغضبان هذه الصفة ، وحدث من شهور خلت أن اشتد التنافس والصراع بين الثلاثة ، وأراد الغضبان الملك أن يحسم الصراع المخيف لرجال الجبل ، فاقترح عليهم أن الفارس الذي يأتي بفرس ملك بلاد الرايات المعروفة باسم ورد ، وهي من الخيل المشهورة بين الملوك والسراة ، يستحق أن يكون زعيم الجبل بلا منازع ، وهذه الحكاية لها حكاية قديمة جدا حدثت منذ ربع قرن .. المهم يا صاحبي سعود أن الملك اقترح على الأبطال الثلاثة التسابق على إحضار الفرس والسابق له الحق أن يصبح سيد اللصوص ، فوافق الفارس زوابع وكلب الليل على هذا التحدي ، ورفض وعل الجبل هذه الفكرة ، وعرض المبارزة حتى الموت ، فأبى الغضبان وأبو هند هذه المبارزة وحثا على سلب فرس الملك قيس ملك بلاد الرايات ، وتقاتل زوابع ووعل الجبل وتصادما ، وكاد يقتل ابن ملكنا الغضبان ، وخشي القوم أن يكبر القتال بين رجال الرجلين ، كل سيد في هذا الوادي له جماعة تعمل معه في قضاء المهمات المختلفة لسادة الجبل ، وتحيز الغضبان لولده وعل الجبل عندما رآه صريعا بين يدي الفارس .. فغضب الفارس ، فهو محسوب بأنه ولد للغضبان ، وإن لم يكن من صلبه ، فلما غضب زوابع ترك الجبل غاضبا ووعد الغضبان بفرس الملك قيس ؛ ليثبت له أنه سيد الجبل بغير منازع ، وانطلق لبلاد الرايات غاضبا ووحيدا ، ثم ألحق به الغضبان ثلاثة رجال ليردوه عن مهمته ، وأن الملك يرغب بمصالحته رغم معرفته بعناده ؛ ولكن فارسنا عنيد يا صاحبي سعود ! فسار إلى تلك البلاد وسطا على اصطبل الملك وأتى بالفرس ورد مما أدهش القوم .

وعاد حازم للتظاهر بالإعجاب والسذاجة معا فقال : والرجال الثلاثة الذين تبعوه ماذا فعلوا فقال أبو السعد : أخبر الفارس بأنهم قتلوا في إحدى الغابات .. ولما عاد بالفرس ورد أبـى أن يهديها للغضبان ، وإنما أراد أن يثبت للجميع بأنه أحق رجل بوارثة الغضبان ، ثم هدأ الصراع فكلما مرض الغضبان استيقظ الصراع الكامن ، فنحن مقبلون على أيام عصيبة يا صاحبي ..

فقال حازم متخوفا: إنك تثير وتهيّج الخوف في نفسي .. أنا لولا قتلي لقريبي اللعين ما خرجت لهذه الجبال المخيفة .

قال أبو السعد : معك حق ! لولا ظروف كل شخص منا لما سكن هذا الجبل إنسان ..لا تخف يا سعود مع الأيام ستتعلم وتتعود على قسوة حياة الرجال والجبل ، فلي أكثر من خمسين سنة أحيا ها هنا .

كان حازم جاسوسا ذكيا وفطنا في الجبل ، وكان يفكر ويرغب بالتقرب من سيد الجبل القادم الأمير زوابع ، فلربما تمكن من أخذ الفرس ورد ورجع ظافرا بها للبلاد.. ولكنه يخشى هذا التقارب لما هو قادم من صراع قاتل على سيادة وملك الجبل صراع تلوح آثاره من تصرفات رجال الجبل وتحزبهم وتعصبهم ، فالغدر من شيم اللصوص ، والشجاعة قد لا تنفع مع الغدر القاتل ، فكان يتظاهر بالبلاهة والسذاجة ، وأنه قتل قريبه في لحظة ضعف ودفاع عن النفس ، واستقر في العمل بالزراعة وسقي الأشجار في مدينة اللصوص والمراقبة عن بعد

وسمع حازم بالغارة التي قادها زوابع لسرقة أموال الملك في بلاد أبي كبشة ، وتعجب لنجاح اللصوص وهؤلاء الأشرار بسرقة دار الخزانة وجلبهم عدد من صناديق الأموال ، فهمس لنفسه : إن زوابع هذا مجرم عتيد وشجاع ! لقد سرقوا الخزنة ولم يصب أحدهم بأذى ، وقد أخذ فرس الملك قيس بدون أن يكشف أمره .. لابد أنه صاحب عقل ذكي نشط .

وهذه الضربة الجديدة لاحظ حازم أنها رفعت أيضا من قوة زوابع عند الأسياد القدامى في الجبل ، حتى أن الغضبان اعترف بتفوق زوابع على كثير من الأسياد وكبار اللصوص ، وقد اقتربت السنة أن تنقضي للفارس حازم وهو يقبع بين هؤلاء الوحوش في نظره ، فحينئذ فكر بالعودة لبلاده وقد علم الكثير من أسرار الجبل ، وقد عجز لحتى الآن عن مشاهدة ورد الفرس المسروقة ليتأكد من ذلك ، فكيف بسرقتها منهم ؟! فهو يفكر بالهرب والنجاة ، ثم قص ما جمعه من أخبار على الوزير عقاب ، والتنعم بالزواج من ابنة الوزير ؛ ولكنه خشي من افتضاح أمر هربه ، وأن سقوطه بين أيديهم هارب يعني إنهاء حياته وموته المحقق، فهو يفكر بطريقة وحيلة

يخرج بها من الجبل سالما ومن غير أن يهتم لغيابه أحد ولكن قبل أن يغادر الجبل بحيلة ما علم أن أحد الملوك أصدقاء الغضبان ـ وعجب لصداقة الغضبان بالملوك والأمراء ـ قد أرسل رسولا لغضبان ملك اللصوص يطلب منه ألف مقاتل ومحارب للمشاركة في تأديب وزيره الثائر عليه ، وأنه وعده بالأموال الكثيرة وثروة الوزير المتمرد ورجاله ، فاجتمع رؤساء اللصوص الكبار ، وبعد تشاور دام يومين وافق مجلس اللصوص على انتخاب ألف فارس كما يزعمون ، وتقرر أن يقودهم وعل الجبل أميرا عليهم ، وانطلق وعل الجبل بالألف فارس نحو مملكة أرمان لمساعدة ملكها جعلان على وزيره الثائر شمعار ، وقد قويت شوكة الملك برجال الجبل الأشداء ، وحميت المعارك بين الطائفتين ؛ ولكن الوزير لم ينقصه الرجال والموالين له من قبيلته وأبناء الشعب الناقم على الملك الظالم .. فلم يتمكن الملك جعلان من القضاء على ثورة الوزير، بل شعر بقرب احتلال قصره عندما بدأت أسوار المدينة تضعف أمام الحصار وقوة فرسان الوزير ، فطلب من وعل الجبل أن يضع خطة لصد الوزير وفك الحصار عن أهم الأبواب لوصول الإمدادات الغذائية لأنصار الملك ؛ وليستطيع التجار والقوافل الدخول والخروج ، فوافق وعل الجبل ورسم خطة قتالية هجومية ، ودارت معركة سقط فيها وعل الجبل وأكثر رجاله صرعى لها ، فحمل وعل الجبل ينزف دما إلى قصر الملك ، وهناك ذكر وصيته ولفظ أنفاسه الأخيرة ، فلما وصلت أخبار هذه المعركة وهذه الهزيمة لرجال الجبل كثر الصراخ والعويل ، واجتمع رجال الجبل في مجلسهم للتفكير في رد الاعتبار لفرسانهم وقتلاهم والثأر لابن ملكهم ، فكان الغضبان يقول لولده كلب الليل وربيبه الأمير زوابع : ها أنتم ارتحتم من خصم عنيد لكم !!.. أثرت شهية وعل للحرب .. هذا ما تريده يا كلب الليل !

صاح كلب الليل مدافعا ورافضا الأتهام : يا ملك الزمان ! .. لم يكن وعل الجبل ينتظر أن أثيره وأهيجه ليندفع لمساعدة جعلان .. إنما رسالة ابنة جعلان هي التي حركته ، فأسرع لطلب القيادة فها هو الفارس زوابع قد طلب القيادة .. أليس كذلك أيها الرجال ؟!

دارت همهمة اعترف الرجال الكبار على أثرها على صدق هذه المعلومة ، فعاد كلب الليل

يصيح : نحن لا نرى العشق والهوى مهما في حياة رجال الجبل .. ولكن الفارس المغرور عندما كنا في ضيافة جعلان قبل سنوات التقى بالأميرة الأرملة ابنة جعلان ، فحدثها عن شجاعته وبسالته ومقامه الكبير في الجبل ، ورغبها بحياة الجبل ، وربما أصبح ملكا للجبل في يوم ما .. وأصبحا عاشقين .. فلما جاءت رسالة جعلان وخصته الأميرة برسالة ظن أنها فرصة مواتية للزواج منها ، فهذا السبب الحقيقي لإقدامه يا ملك الجبل وليس كلام مني أو من غيري .

هز الغضبان رأسه الضخم ، وكأنه يتذكر قصة الأميرة سُلمى وقال : قصة جديدة!!.. ألا يوجد نساء عندنا لنعشق بنات الملوك والأمراء ؟!.. هذا هو سبب سقوطه إذاً.. الثأر يا قوم الثأر ..!!

فقال زوابع على حين غرة من جدالهم : لماذا يا سادة لا نؤازر الوزير شمعار ما دام أن كفته هي الراجحة ؟!.. وأن الملك غير محبوب من رعيته .

فثار الغضبان وهاج وصاح : ويلك يا زوابع .. أتستهين بثأري؟!

فقال زوابع : أيها الملك ! نحن أرسلنا البطل وعل الجبل ليقاتل من أجل المال والثروة فلو أرسل إلينا الوزير العرض قبل الملك هل نرفض عرضه ؟!



كثر الهرج والصياح في مجلس رجال الجبل وصرفوا الاجتماع إلى لقاء آخر ، كان حازم يتابع هذه الأحداث من خلال عمله في بستان قصر الملك ملك اللصوص أو قل ملك وادي السرحان .

وقبل أن ينتهي الحداد والحزن على ابن الملك الأمير وعل الجبل انتخب رجاله ابنه البكر زعيما لهم ، ولما تمت مبايعته طلب من جده أن يسيره للثأر لروح أبيه.. فاجتمع مجلس الجبل ، وبعد نظر في القضية رفض الزعيم أبو هند هذا الطلب وقال : نخشى أن تتعرض للقتل فتكون المصيبة شديدة .. إن كان لابد من الثأر والقتال مع جعلان فالأحسن إرسال زعيم غيرك .

فتنطحت ابنة وعل الجبل لقيادة فرسان الجبل ، وكانت هذه الفتاة كغيرها من فتيات الجبل من

الفرسان والشجعان ، وكانوا يدربونهن لحماية الجبل أثناء الغارات والحملات ، فبعد جدال عقيم مع أبناء الميت وعل وافق الغضبان على إرسال حفيديه للثأر لوالدهما ، ولم يصغ لاعتراض عمهما كلب الليل ، ولا لاعتراض الزعيم أبي هند ، فتشكل جيش من ألف محارب ، وفيه من الفتيات المحاربات ، وساروا نحو بلاد الملك جعلان ، ولكن قبل انفصالهم عن وادي السرحان اعترضهم الأمير زوابع وحث الفتيات على عدم المسير للقتال خارج الجبل، وأن لا يغيرن سنن وطرق الجبل ، فرفضت الأميرة غزاله ابنة وعل الجبل ، وأظهرت عيانا الكره والبغض للفارس البطل .. فتحمل الأمير شتمها وسبها واحتقارها وكر عائدا للجبل وخلفه حراسه السبعة ، رغم موافقة الغضبان على مسير أولاد القتيل فقد كان على خوف وقلق شديدين عليهما، وكان يبكي من القهر والعجز عن الثأر لولده المقتول ، وكان في قرارة نفسه يتمنى أن يتحرك زوابع لهذه المهمة ، ولكن أسياد الجبل يريدون إبعاده عن هذه المهمة خشية حسد كلب الليل وخشية ارتفاع شعبيته أكثر في الجبل ، ولم تطل الأخبار فقد جاءت بشائر انهزام الملك جعلان أمام الثائرين بزعامة شمعار ، وقد تم تنصيبه ملكا على المدينة أرمان ، وعلم أهل الجبل بقتل الكثير من رجالهم ، وأسر الكثير منهم ، وعلى رأس الأسرى الأميران ابنا وعل الجبل، فاستشاط الغضبان جنونا وغضبا وقهرا ومن هول الصدمة سقط ميتا ، فتم إعلان الحداد على روحه وجسده ، وشيد له قبر في المكان الذي عينه قبل موته بسنوات .. وتقرر أن يكون الحزن عليه ثلاثة أشهر تسعين يوما ، وخلال هذه الشهور أرسل أبو هند وفدا لمفاوضة الملك الجديد شمعار للصفح والعفو عن رجال الجبل وعلى رأسهم الأميرين ، ولم تمض هذه الشهور الثلاثة حتى عفا الملك شمعار عن رجال الجبل فرجعوا بالخزي والعار ، وكل هذه المدة لم يتمكن الفارس حازم من مغادرة الجبل إلى أن كان يوم فقد طلب منه زعيم الزراع في قصر الغضبان أن يسير إلى مكان لإحضار بعد الأعشاب العلاجية بناء على توصية طبيب القصر، ففرح حازم لهذه المهمة التي لم يكن يحلم بها ، ومشى إلى المكان المشار إليه ، ولما اقترب منها سار إلى المخرج من وادي السرحان ، فتيسر له ذلك ولم يعترضه أي أحد من رجال العصابات ، فهو يتزيا بزيهم

فظنوه بريدا مكلفا بمهمة خارج وادي السرحان ، وبعد أيام كان يخرج من وادي السرحان سالما نحو بلاده ، ولما وصلها دهش كل معارفه من عودته ، وكانوا قد ظنوا أنه قتل في الصيد كما أشيع في البلدة ، واجتمع بالوزير عقاب الذي آيس من عودته وكان نادما على إرساله ، فأطلعه الفارس على كل شيء علمه في وادي السرحان ، فتعجب الوزير مما سمع وقال : لابد أنها أيام قاسية عليك يا حازم ! ولكنك عدت بأخبار طيبة ، هل رأيت الفرس ورد ؟

فقال حازم: العجب كل العجب يا سيدي الوزير ! إنني لم أتمكن من رؤيتها طول هذه المدة ، فهي ملك لفارسهم الشجاع زوابع ، وهو الذي سرقها من اصطبل الملك ، وهو فارس قوي ، وأكثر رجال الجبل يحبونه أو يرهبونه ، وقد حاولت أن أعرف أين يخفي الجواد ؟ فلم يتيسر لي ذلك ، وهناك الغلطة يا مولاي تكلف الإنسان حياته ، وأصعب شيء عندهم الخيانة ، فالقتل عندهم بعجلة ومن غير تدبر وتروٍ، فكل الغارات التي تصيب المدن والبلاد فهي من رجالهم ، وهم الذين سرقوا خزنة الملك مرعي ابن الملك قيس ملك بلاد الأكباش

فقال الوزير : للحديث تتمة .. فسر لأهلك ، وأرح نفسك ، وانتبه لنفسك ، واحذر غدرهم سوف أتشاور مع الملك في أمرهم وفيما سمعت منك .

مشى عقاب لوالده وأخبره بكل ما نقله إليه حازم ، فهتف الوزير الشيخ : هذا ما توقعته أيها الوزير .. إذن لقد هلك الغضبان ملك الجبل ! .. إنه رجل مرعب ومخيف وفاتك لا يرحم يا ولدي !.. تكلم مع الملك قيس بذلك وسأفكر بالأمر المناسب .. اسمع لرأي الملك أولا .. فسوف يسر لهذه الأخبار رغم حزنه على جواده ، ثم أدخل عليه حازم يقص عليه حكايته في جبل ضراب ووادي السرحان .



جميلة وورد

ذهل الملك قيس وهو يسمع قصة رجال الجبل ، وتجدد حزنه لسرقة جواده ، وسر لموت الغضبان ، ولما انتهى الوزير من سرد القصة على مسامع الملك قال الملك : لابد أن هذا الفارس المسمى زوابع هو الذي التقى بالبنات في الغابة .. أتذكر لما حكم القاضي على الرجلين بالموت لقتلهما صاحبهما أو خصمهما ؟!.. رجلي الغابة .. يومذاك أتتني الأميرة جميلة ابنة الملكة سُلمى وحدثتني بقصة الفارس المطارد والرجال الثلاثة ، وأن البنات هن اللواتي قتلن الرجل اللص وجرحن الآخرين .

فهتف الوزير مصدقا: أجل أيها الملك أذكر ذلك! .. وحدثتني ابنة أخي صقر بذلك .. إذن لقد كان الفارس زوابع هو الذي قدم لسرقة الفرس ، وتخلى عن الرجال الجرحى .. ولكن للأسف لقد هلك الرجلان في السجن ! .. ولو بقيا على قيد الحياة لتأكدنا منهما وسمعنا منهم أخبار الجبل .. سيكون الفارس الشجاع حازم بين يديك يا مولاي ! ليحدثك بنفسه برحلته ومغامرته في جبل السرحان .

فرد الملك قائلا : لا بأس .. هيئوا حملة جبارة وقوية لغزو الجبل وتدمير مملكة اللصوص على أهلها مرة أخرى .. سوف يرون شدة بأسنا قاتلهم الله .

فقال الوزير : أمر مولانا الملك ؛ ولكن لديّ اقتراح إذا أحب مولانا سماعه .

فقال الملك : تكلم أيها الوزير!

فقال الوزير : نحن بالتأكيد وبعد مشيئة الله سبحانه سننتصر عليهم ؛ ولكن أخشى أن يهربوا كما فعلوا في المرة الماضية ، ولا نستطيع الاستمرار في مطاردتهم ؛ لتفرقهم وتشتتهم بين الممالك والمدن .. فأرى ـ يا مولاي الملك ـ أن نخاطبهم بالحسنى بأن يردوا ويعيدوا لنا الجواد .. وأموال الملك مرعي .

فقال الملك بعد تأمل : سأدرس ما تفوهت به أيها الوزير.. لو أنكم تزورون حضرة الأب الكبير وتسمع مشورته فهو وزير حكيم وبارع .

فرد الوزير : سأفعل أيها الملك الشجاع .

كان وقع رسالة الملك قيس على رجال الجبل كوقع السوط على جلد المجلود ، وتذكر الرجال القدامى غزو جيش ملك بلاد الرايات لجبلهم ، وتذكروا حرق غضبة الليل وتمزقهم وهربهم فأعاد الكبار القصة على مسامع الشباب والفرسان ، فاشتعل الغيظ في قلب زوابع وصاح قائلا بغروره المعهود : ومن هو قيس هذا ؟! .. ألهذه الدرجة تخشون جيشه؟!

فقال أبو هند مخاطبا زوابع : أيها البطل دعك من الـغرور..علينا أن نفكر بروية ، ونـعرف بماذا نرد على رسالته ؟! فنحن خبرنا الملك قيس وجيش بلاد الرايات .

فقال زوابع : ويلكم ! ألم أسرق وحدي جواده من اصطبله؟! .. أين جنده وحرسه ورجاله ؟!

فقال أحد الرجال القدامى : سرقة جواد ليست كما التعرض لغزو جيش مدرب وكثير الفرسان والرجال .. الشجاعة وحدها لا تكفي أيها الأمير.. ماذا حل بفرسانا عندما قاتلوا جيش شمعار أيها السادة ؟!

فقال الأمير غير مكترث لمَ سمع من اعتراض : لماذا ننتظر أن يغزونا هو ؟! .. لماذا لا نغزوه نحن في عقر داره ؟!

فأجاب أبو هند قائلا : مملكته بعيدة عن جبلنا أولا ، وثانيا جنوده كثر أيها الشجاع .. فدعونا نفكر بروية وهدوء قبل أن نحسم الرد .. فالأمر صعب ، وأنا كان رأيي من البداية عدم التحرش بذاك الملك ، ولكنك يا زوابع أصررت على التحدي رغم معرفتك بالخطر الجسيم ، وأنت بنفسك أخبرتني عن شجاعة فتياتهم وقتلهن لرجالنا ، فكيف رجالهم ؟! ولكن الأمر المهم أيضا أن نعرف كيف عرفوا بأن الجواد عندنا ، وأننا سرقنا أموال بلاد أبي كبشة .. فهذا يدل على أنه كان بيننا جاسوس لهم .. وإن لم يخب ظني قد يكون ذلك البستاني الذي اختفى من الجبل فجأة وظننا أنه سقط في بعض المغارات العميقة وهلك ..

ودار الجدال حول البستاني سعود يريدون أن يتذكروا له موقفا يدل على تجسسه ، فلم يجدوا دليلا واحدا يؤكد شكهم ، ورجح بعضهم أنه سقط في أحد الحفر والآبار المخفية ، فحسم أبو

هند أمره قائلا : ربما .. والأيام ستظهر الحقيقة .. المهم عليكم أيها السادة بالتفكير بالرد المناسب على ملك تلك البلاد .. نجتمع غدا ليلا لنسمع المشورة ثم نتخذ القرار الحاسم .. انصرفوا .

وتفرق أمراء الجبل والسادة والزعماء نحو بيوتهم ومنازلهم على أمل اللقاء غدا .

عندما اجتمع رجال الجبل الكبار مرة ثانية كانت الآراء كثيرة ، منهم من يرى رفض طلب الملك قيس وزاد بمهاجمة وغزو بلاده .. ومنهم من اقترح قتله غيلة لإثارة الرعب في قومه ومنهم من رغب في السلامة بإعادة الفرس وأموال ولده مرعي ملك بلاد أبي كبشة ، وهناك من أشار بعدم الرد وإهمال الجواب .. فأبو هند من دعاة السلم وإعادة الفرس والمال ، وكان زوابع من دعاة غزو بلاد الرايات وإثارة الرعب فيها ، وكان الأمير كلب الليل ابن الغضبان من دعاة غض الطرف وعدم الرد على الملك والاستعداد للدفاع والقتال ضد أي غزو ، ولما لم يجتمعوا على قول صرح لهم زوابع بأمر مثير وخطير وعجيب ، فقد عرض عليهم خطف الملك قيس وإحضاره للجبل والتفاهم معه ، واستعد هو لتنفيذ هذا الاقتراح الخطير ، فبعد زوال البغتة عن الجميع قال أبو هند : قبل أن نوافق أو لا نوافق أيها الاخوة على ما تفوه به زوابع علينا أن نفكر برد مناسب على الملك قيس.

فصاح كلب الليل : فأفضل رأي رأيي .. عدم الرد وإهمال الرسالة .

فتم الاتفاق على ذلك ، فأحضر رسول الملك قيس وأخبروه أنهم سيتشاورون في الأمر ويرسلون رسالة للملك قيس بعد التدبير والتفكير ، فانصرف الرسول راشدا بعدما أمضى ثلاثة أيام في وادي السرحان ينتظر الجواب .

كان الأمير كلب الليل يحث أبا هند بالموافقة على اقتراح زوابع بل قال : أعرف أنكم ستقولون أن هذه فرصة للتخلص من منافسي على زعامة الجبل ؛ ولكني أقول على رؤوس الأشهاد أن الفارس الكبير أمير الفرسان زوابع ربيب والدي الغضبان إذا رجع سالما وأحضر لنا الملك قيس حيا إلى الجبل ، فهو الملك المطلق علينا أيها السادة الكرام .. أنا ورجالي سنكون تحت أمره وقيادته وأطوع له من بنانه ، ولا نعصي له أمرا ، أو نتمرد على قراراته .

وجم القوم لهذا العرض ، وأخذت أبصارهم تتطلع للأمير زوابع سيد الفرسان ، فحملق فيهم الفارس بعض الوقت ، ثم هتف قائلا بحماسه المعهود وغروره المعروف : أترضون كلام الأمير كلب الليل ؟! وينتهي الصراع بين فرساننا ، وتقبلون زعامتي لكم راضين إذا أحضرت أنا الملك قيس إلى هنا حيا اسيرا ، ولا تنازعونني الملك .. ملك الجبل ووادي السرحان .. ثم تدافعون معي حتى الموت عن الجبل إذا أصر فرسان بلاد الرايات على القتال ولا تولون الأدبار جرت همهمة ولغط كبير في القاعة التي يتشاورون فيها ، فقد كانت كلمات زوابع قاسية وخطيرة ومرعبة ، فعاد كلب الليل يتعهد بالولاء والثبات والرضا عن طيب خاطر واقتناع بحكم زوابع إذا نفذ وأتى بـقيس للجبل ، ولما سمع أمراء الجبل وقادته كلام كلب وكلام أبي هند وافقوا على هذه المغامرة الكبيرة ولم يقدروا خطورتها بالقدر المطلوب ، فقال زوابع : وأنا إن نجحت في مهمتي في جلب الملك إلى هذا الجبل ، وفرضنا عليه شروطنا السلمية ووافق عليها وتوجت سيدا لهذا الوادي سأكون عند حسن ظن الجميع ، وسترون مني كل خير وولاء ووفاء لهذا الجبل ولرجاله الصغار والكبار الذكور والإناث ، وسأعرض عليكم خطتي التي رسمتها من أجل خطف الملك قيس بن خصيب .

ولما اجتمع السادة مرة أخرى ، عرض عليهم ربيب الغضبان خطة خطف الملك قيس ، فعجب الأمراء ورجال الجبل لخطته الجسورة وتمنوا نجاحها ، وعلى أثر سماعها كتبوا رسالة للملك قيس يخبرونه فيها برد الجواد ورد ، وتقدمهم الرسول بأيام ، وبعده سار زوابع وعدد من فرسانه لتنفيذ الحيلة والمكيدة ، ومعهم الهدايا للملك قيس وأعوانه ، ومعهم كذلك الفرس ورد ابنة دموع .. وكان الملك قيس قد استقبل رسول الجبل ورحب به ، ودخل قلبه الفرح لقرب عودة الفرس المسروقة بعد كل هذه الشهور والأيام ، ولما اقترب زوابع من بلاد الرايات نشر رجاله حول مداخل ومخارج المدينة واختبأ هو وباقي الفرسان في أحد الوديان ، وسار ثلاثة رجال ومعهم الفرس ورد إلى قصر الملك مع ضحى النهار وإشراقة الشمس الأولى ، ولما دخل القوم القصر كان في استقبالهم الملك قيس بنفسه ووزيره عقاب وكثير من رجال الحاشية والأهل

والأصحاب ، فعودة ورد لها معزة ومحبة عظيمة في نفوس القوم ..فتسلم الملك الجواد بشوق وحنان وعانقه وأخذ يداعبه ويتفقده ويذرف الدمع على عودته بعدما يئس من حياته ، وأخبره الرجال الثلاثة بأنهم سوف يردون الأموال التي سرقوها من مملكة أبي كبشة ، ثم ودعوه وانصرفوا وهو يحذرهم من التعدي على بلاده وبلاد ولده مرعي ، فوعدوه خيرا وغادروا المدينة وكان القوم سعيدين بعودة الجواد وظل الملك ومن معه يداعبون الفرس ، وقد لاحظوا توتره واحمرار عينيه الشديد ونسبوا ذلك لتعب الطريق وغربته ، وإن أحسوا بأنه غير تعب .. وفجأة قالت ابنة الملك جميلة : يا أبتي دعني أركبه وأدور به في ميدان القصر ، فهو صديقي العزيز .

وقد اقتربت منه وتحسست رأسه وعنقه وساقه ووضعت رجلها في الركاب ثم امتطه ، فأظهر الجواد الفرح ، فأمسكت بالمقود ودارت به عدة دورات في ساحة القصر سعيدة به.. ثم اندفعت به فجأة خارج القصر ، وانطلق بها الجواد مسرعا في نفس الدرب الذي أتى منه فصاح أحد رجال الملك: كأن الجواد قد هاج .. أدركوا الأميرة !

وقد أحست الأميرة أن الجواد الذي اعتلت متنه غير طبيعي الحركة ، فسايرته في الاندفاع ، وإن حاولت أن تلجمه ، فأصر على الانطلاق فسايرت نفسها معه .. فإذا هو يخرج من المدينة نحو الصحراء والجبال ، فكان يسير بقوة وسرعة عجيبة ، وشاهدها رجال زوابع الذين أسرعوا إلى زوابع في الوادي المختبئ فيه ، فانطلق هو ومن معه من الرجال خلف الجواد الهائج والثائر ، وكانت ورد أسرع من جيادهم ، وقد سبقتهم الأميرة بمراحل ، وظل الجواد يركض في الصحراء حتى تعبت الأميرة فسقطت عنه في أحد الحفر الرملية ، وظل الجواد منطلقا حتى هبط الليل فاصطدم بصخرة كبيرة فخر ميتا ، ولما أدركه زوابع ورجاله وجدوه ميتا ، ولم يكن عنده راكبه ، فانتظروا حتى الفجر وبحثوا عن الراكب ، فلم يجدوا أثرا للملك ، فهم كانوا يعتقدون أن الملك يركبه ، فقد أطعموا الجواد عشبة مهيجة له على أمل أن يركبه الملك بعد كل هذه الحنين فينطلق به الجواد خارج المدينة دون حرسه ، فيدركونه فيأخذونه أسيرا ، ولما نقل لهم عيونهم انطلاق الجواد كما دبروا ومكروا سروا لذلك ، وانطلقوا خلف الجواد الثائر والمتمرد ؛ ولكنه

سبقهم بساعات ، فلما أدركوه لم يجدوا عنده أحدا ، فأدركوا أن طلبتهم قد سقط في الطريق فعادوا القهقرى يبحثون عنه ، وبينما هما يسيرون أحسوا بفرسان الملك يتدافعون تترى تترى ، فتواروا عن أعينهم ، ولما ابتعد فرسان الملك تابعوا البحث عن الملك .. ووصل رجال الملك إلى حيث الجواد الصريع ، ولم يجدوا الأميرة عنده ، ووجدوا حوله آثار خيول وأقدام رجال ، ولما اقترب الليل قفلوا عائدين لبلادهم ، وقد شملهم وغمرهم الحزن والأسف والبكاء على الأميرة وعلى الجواد .



أما الأميرة جميلة بنت قيس عندما سقطت عن متن الجواد الهائج، وقد فقدت التوازن وأنهكها التعب المفاجيء ، فارتطمت بالأرض ففقدت الوعي على الفور ، ومن حسن حظها أنها لم تصرع من شدة الضربة ، وكان وقوعها العنيف على أرض رملية ، ولم تكن أرض صلبة وإلا قتلتها .. فبعد أن استيقظت وجدت نفسها في خيمة صغيرة ، فأخذت تتلفت يمينا وشمالا وشاهدت امرأة قريبة منها فهمست بضعف واستغراب : أين أنا ؟!

فقالت المرأة بفرح : حمدا لله على سلامتك أيتها الفتاة الشابة.. لقد وجدناك في الصحراء مطروحة في حفرة ومغمى عليك،وقد نزفت بعض الدماء من رأسك وفمك .

عادت جميلة تتذكر ما حدث ثم قالت : واه .. كيف أتيت إلى هنا ؟!

فقالت المرأة : ألم أقل لك أننا وجدناك في الصحراء ؟! .. أنا وزوجي كنا نحتطب فوجدناك فحملناك على حمارنا وأتينا بك إلى خيمتنا في هذه الصحراء الكبيرة .

فأغمضت جميلة عينيها ، وأخذت تتذكر ثانية ما جرى لها ، ركبت الفرس ورد ، ودارت بها عدة دورات في ساحة القصر ، ثم اندفع الجواد بها إلى خارج القصر ، فجارته في غضبه ، ثم انطلق مسرعا نحو الصحراء وهو يركض بقوة وسرعة.. ثم رأت نفسها تطير عن ظهره وتسقط

على الأرض ، فقالت : يا أمة الله .. ألم تكن بجواري فرس عندما التقيتم بي ؟!

فقال المرأة الصحراوية : لا يا ابنتي .. كنت وحيدة ، وقد ظننا للوهلة الأولى أن قوما قتلوك وألقوك في تلك الحفرة ، ولما تبين لنا أنك حية جئنا بك إلى هنا ، فأنت في خيمة خالتك أم النهار واحمدي الله أن قدر لنا رؤيتك وإلا مت في تلك الحفرة أو أكلتك السباع والذئاب والضباع .

فتمتمت الأميرة بالحمد والثناء على الله ، ثم راحت في نوم جديد .

حكاية عبسان

كان الملك وحاشيته في وجوم شديد وهلع كبير ، فلما عاد الرجال أخبروا الملك بموت ورد واختفاء الأميرة ، وأنهم وجدوا حول الفرس الميتة آثار أقدام بشرية وحيوانية ؛ ولكنهم لم يجدوا الأميرة ولا آثار أقدامها .

فهبط الملك على الأرض تضعضعا ووجعا وترك عرشه وقال : لم تجدوا آثارا لها ؟!

فرد أحدهم : بحثنا وفتشنا .. لا أثر لثياب ولا أقدام .

فقال الوزير عقاب : إنها مكيدة كبيرة من رجال الجبل يا مولاي ! .. والله أعلم إنهم كانوا يقصدونك أنت أيها الملك بهذا المكر الرهيب !

فأكد عدد من رجاله هذا الاحتمال الغادر ، فقال بحزن : وماذا يريدون مني ؟!

فقال الوزير : حياتك أيها الملك !

فقال الملك مهددا : حسنا يا زوابع ويا كلب الجبل أو كلب الليل ! حسنا يا أبا هند الأيام بيننا فليخرج رجالنا بكثرة للبحث عن جسد الأميرة ؛ ولتذهب طائفة لدفن الجواد الهالك وتتبع الآثار ، والويل لرجال الجبل مني .

وبعد تفكير ونظر تأكد للملك أنها حيلة من رجال الجبل ، وأن حياة الملك كانت في خطر ، فلو ركب هو الجواد الهائج لحصل له أمر سيئ ؛ ولكن لم يقدر له الضرر بهذه الحادثة ، ولكن الأميرة ابنته ، فكانت المصيبة كبيرة على الملك والدولة .. فمحاولة الغدر بالملك جريمة ، وهذا أمر خطير ، وفقد جميلة وورد كل هذا من الكوارث ، ولما رجع الباحثون من غير جميلة أقسم قيس أن يدمر الجبل على ما فيه ، وأن يطاردهم ولو لآخر الدنيا ، فأمر قائد الجيش بأن يعد جيشا لجبا لهذه المهمة ، وصمم أن يهلك كل من يجده في جبل ووادي السرحان ، وأن يثأر لابنته وجواده العزيز .

وقد علم رجال الجبل بفشل محاولة خطف الملك قيس، وأن ابنته هي التي ركبت الجواد ، وأنها اختفت ولم يعثروا عليها في الوديان والصحراء ، ودب الخوف في رجال الجبل ، ووصلهم قسم

الملك قيس ، وأخذوا يتعاتبون ويتلاومون ويتشاتمون ويتشاجرون ويشمتون ، فصاح كلب الليل : ويحكم كلكم وافقتم على خطة زوابع ولكن مشيئة الله غلبت مشيئتنا .. وركبت الأميرة الجواد ؛ ولكن أين سقطت ؟ أين ذهبت جثتها ؟ لو وجدناها لاستطعنا أن نساوم الملك عليها ونمنعه من الوصول لبلادنا وجبلنا .. فقد سمعت أنه أرسل للملوك من حولنا للتحالف معه ضدنا ، فهو يريد إبادة الجبل وساكنيه .

فران الصمت على الجميع فقال أبو هند: وما عسانا فاعلين أيها القوم ؟! .. فقد حكمنا على أنفسنا بالهلاك .. فهل نقاتل حتى الموت ؟! أم عندكم رجاء وحل ؟

فقال زوابع وكله ألم وضيق : كانت خطة قوية وجريئة ؛ ولكن كما قال أخي كلب الجبل كما يحب أن يسميه رجاله وأعوانه .. القضاء لم يحكم على الملك أن يركب على الجواد ، كان الأمل أن تدفعه اللهفة والاشتياق بعد كل هذه الشهور والأيام من الفراق أن يعلو ظهر الجواد لهفة وشوقا فيحدث ما حدث ؛ ولكن تلك اللعينة ركبت قبل والدها ، ورغم مطاردتنا للجواد الهائج مما أكل وأطعم ، ولكنه كان سريعا يسابق الريح العاصف فسبقنا بمراحل ، فهذا ليس بأيدينا فلا داعي للولولة كما تفعل النساء والبنات ، ولا ينفع البكاء اليوم فهي حرب مفروضة علينا من قبل أن نضع هذه الحيلة والمكيدة ، وأنا ورجالي مستعدون للقتال حتى آخر رجل وآخر نفس ، وسندافع عن مملكتنا بكل قوة وصلابة وعناد

فقال أحد الزعماء مبينا بعض الحقائق : نحن لم ندافع يوما عن هذا الجبل أمام أي جيش غزانا نحن دائما نكر ونفر ونغزو ونساعد ، فنحن لسنا العدد الكبير الذي يستطيع الدفاع والصمود أمام الفرسان الكثر والغزاة ، نحن قوم غارات وغدر ، فلذلك قررت أنا وأتباعي بعد تشاور معهم بالهرب والانسحاب ، فمواجهة جيش الرايات هو انتحار وجبن .

فضج القوم لهذه الإعلان الصريح ، وعلا الصراخ والشتم من جديد حتى عاد كلب الليل يقول : يا سادة .. كفى كفى .. فالذي قاله صاحبنا كلام مقبول .. فنحن أهل غارة واختباء .. ونحن منذ موت والدي الغضبان لم نستطع الاتفاق على ملك لهذا الجبل ، وأنا سأطلب مثل صاحبي

فأطلب من رجالي وأتباعي الخروج من الجبل قبل أن يتحالف الملك قيس مع من حولنا من الملوك والأمراء ، وينقضوا علينا انقضاض السبع على ضحيته ، وداعا أيها الجبل ! وداعا أيها الرفاق! ومن شاء منكم البقاء فليمت وليدافع عن هذه الكهوف والحجارة .

فصاح زوابع بغضب : ويلكم كلكم جبناء ! .. جبناء ! أتهربون مثل القطط ؟! وقد كنتم تدعون الشجاعة وتطمعون بالملك .

فصاح كلب الليل : لا ملك بعد اليوم ، اقذف واشتم كما تشاء ، ودعنا نسمع أخبارك يا ملك الجبل .

وخرج كلب الليل ساخرا هازئا من الشجعان ، والرجل الزعيم الآخر خلفه ، ودب الذعر والرعب في الجبل قبل أن تقبل جيوش بلاد الرايات ، ونتركهم يهربون ويتفرقون ، ونعود للأميرة جميلة في خيمة أم النهار .. علمت الأميرة أن ساقها مكسورة ومجبرة ، وكانت تحس وتشعر بألم عميق ، وقد أدركت بذكائها المشهود أنها كانت ضحية مكيدة كانت مدبرة ضد والدها من رجال الجبل ، ولابد أنهم أطعموا الجواد مادة حادة مهيجة.. فحمدت الله أنها كانت هي الضحية بدلا من والدها الملك .. ولم تذكر لأم النهار اسمها الحقيقي فسمت نفسها الغالية وأنها كانت تركب جوادا فجمح بها فطرحها أرضا وهرب ، وصدقت أم النهار وزوجها قصة الفتاة ، واهتما برعايتها والاعتناء ببدنها ، ولم يكد يمضي عليها الشهر حتى ملت الحياة ، وتمنت الهلاك .. فساقها ما زالت تؤلمها ، وأحست أنها مقطوعة عن الدنيا ، وعجبت لحياة هؤلاء في هذه البادية الخالية من الإنس والجن ، ولم تسمع صاحبتها تحدثها يوما عن حياتها الماضية وسبب نزولها هذا المكان المهجور ، ولم تحاول إشباع فضول جميلة بقصص الماضي .. فأدركت الأميرة أن لهذين الشخصين حكاية غامضة وكبيرة ، وقد فشلت كل محاولة لسماعها ، وتواسي نفسها قائلة:وأنا لي حكاية لا أستطيع مصارحتهم بها الآن وأنا ضعيفة..يا الله !! لليوم لم يصل رجال أبي إلى هذه الخيمة القديمة !

وتأخذ الأميرة بالبكاء والابتهال إلى الله أن ييسر أمر عودتها لديارها ، فهذا ما حدث مع

أميرتنا بعد انتقالها لخيمة أم النهار .. نوم أكل وتأمل وبكاء وخوف .



وتقدم الأمير صقر بجيش جرار نحو جبل السرحان للقضاء على كل اللصوص والمجرمين وأسر نسائهم وأطفالهم والاستيلاء على أموالهم وخيولهم ، وبعد مسير بطيء دخل الجيش وادي السرحان ، ولم يلتقوا برجل واحد ، فظن صقر والفرسان أن هناك مكيدة ، فشددوا الحراسات في الليل وإشعال النيران ، وبعد أيام وصلوا إلى جبل الرملي حيث مملكة الغضبان وقصره ، فوجدوه خاليا والقرية خالية خاوية على عروشها ، فتعجب القوم لهربهم العاجل ، وأخذهم أموالهم ، فقرر الأمير صقر الاستمرار في مطاردتهم حسب رغبة الملك ، وأرسل خلفهم الطلائع ، وبعد مسير دام شهر علم أنهم لجئوا إلى أحد الملوك الكبار ودخلوا في حمايته ، فأمر الجيش بالتريث ، وأرسل خطابا للملك قيس وأخيه الوزير يطلعهما على جلية الأمر .

فلما تلقى الملك قيس خطاب قائد الحملة العسكرية الأمير صقر بن غراب جمع مجلس الملك وتشاوروا في الأمر ، فاقترح القاضي ابن عدون مخاطبة الملك بهراما في شأنهم وتعديهم على بلادنا وعبادنا .. وقال : لابد أن هؤلاء اللصوص ورجال الجبل قد بذلوا له الأموال حتى يقتنع بحمايتهم ، ونحن بالتأكيد لن ندفع له أموالا ليسلمهم لنا .

وأكد أكثر السامعين أفكار ابن عدون ، فأصدر الملك لكاتبه أن يكتب رسالة يشرح للملك بهراما قصة سرقة الجواد والمكيدة التي دبروها ليهلكوا بها الملك قيس.. وأرسل رسالة أخرى للأمير صقر يأمره بالمكث في وادي السرحان ، وأمر بإرسال المزيد من الإمداد لهم من الطعام والأعلاف ، واقترح أحد الفرسان على الملك قيس إنشاء قلعة قوية في وادي السرحان ، ويمدها بالميرة والفرسان إلى حين من الأيام حتى لا يفكر اللصوص بالعودة لجبل السرحان ، فأعجب الملك قيس بهذه الفكرة وناقشها مع وزيره عقاب فقال : نبني قلعة حصينة على قمة جبل السرحان ، ونجعل فيها المخازن الكبيرة ، ونسير لها الماء الدائم ، ونجعل فيها حامية من

ألف فارس ، وكل بضعة أشهر ثلاث أو ست يتبدلون ويعود القائمون هناك للديار ، وهذا أيضا قد يغنينا عن الصراع مع الملك بهراما إذا رفض عرضنا وصداقتنا ، وأظنه سيرفض ، وأهم أمر أن ننظم أمر البريد بين هذه القلعة وبلادنا ، فمسيرة عشرة أيام ليست بالأمر اليسير ؛ ولكن بالصبر وطول الأناة نمنع المطاريد والمجرمين من الاستقرار في الجبل والعودة إليه ، ويمكن أيضا إنشاء حامية صغيرة أخرى بين القلعة وبلادنا للإمداد بالميرة والسلاح والجند عند الحاجة العاجلة أيها الوزير الفطن ، فكر ورتب هذه الأفكار واعمل على تنفيذها .

فأبدى الوزير تفهمه لمقاصد الملك قيس ، واجتمع مع فرسان وقادة الجند والتقى بمهرة البنائين في بلاد الرايات ، وبدأ الإعداد لإنشاء هذه القلعة المحصنة في جبل ووادي السرحان ، وقد جاءت الأخبار برفض الملك بهراما التعاون مع الملك قيس للقضاء على رجال الجبل بل هدد وتوعد من يتطاول عليهم ، فأمر الملك قيس قائد الحملة الأمير صقر بالمكث في جبل السرحان عدة أشهر حتى يرسل فريقا غيرهم من الفرسان ، وأعلمه بموضوع إقامة القلعة، وبدأت الإمدادات والعمال المهرة يتحركون أفواجا أفواجا إلى وادي السرحان ، وقد تم اختيار الجبل المناسب لبناء القلعة الكبيرة على متنه ، فبعضهم قام بتشييد القصر والمنازل ، وآخرون ببناء الأسوار العالية والأبراج ، ونتركهم قليلا ونعود للأميرة جميلة بعض اللحظات والأوقات ، بعد حين تحسنت ساق الأميرة ، وأصبحت قادرة على الحركة والقيام والقعود والابتعاد عن الخيمة بدون إرهاق ومشقة كبيرة ، وفرح أبو النهار وأم النهار بهذه الصبية الحسناء ، وجعلوا من أنفسهم لها أبا وأما ، وهي رحبت بذلك ولم تحاول كشف حقيقة نسبها لهم ، وبينما هي تقف يوما على تلة قريبة من الخيمة تنتظر عودة والديها من المحطاب وصيد الأرانب والطيور ؛ فإذا بها تلمح خيالا شخصا على دابة ، فتعجبت من وجوده في مثل هذه الصحراء القاحلة ، وتعجبت أكثر عندما شاهدته يتقدم نحو الخيمة كأنه يعرف المكان ، فبعد حين وصل إليها ، فتعجب هو الآخر من رؤيتها في هذا المكان ، فنزل عن الجمل بعدما أناخه وقال : أين أم النهار وزوجها ؟؟ بل من أنت ؟!

فقالت بابتسامة صغيرة : ابنتهما !

فضحك الرجل وقال : ابنتهما من أين جاءوا بهذه الابنة ؟!

فقالت : أتعرفهما يا هذا ؟!

فضحك من جديد وقال : كيف لا أعرفهما أيتها الفتاة ؟! ولماذا أتيت إلى هنا ؟! فأنا أخ لأم النهار أيتها الفتاة الجميلة !

فهتفت الأميرة بفرح : أخوها !! لقد خيل لي أن لا أحد لهما في هذه الدنيا فمرحبا بك .

وتقدما نحو الخيمة فألقت إليه وسادة وقدمت له الماء وقالت : يا أخا العرب من أين أتيت ؟

فقال : من بلاد الله الواسعة .. أخبريني أنت من أنت ؟ وما الذي أتى بك إلى هذا المكان المجهول في العالم ؟!

فقالت باسمة : عندما تعود أمي ستخبرك .

فقال بضيق : أمك ! من أمك ؟!

فقالت : أم النهار .

فقال وهو يهز رأسه ومنكبيه : سنرى كيف أتت بك هذه الأم ؟!.. أين ذهبا ؟

فقالت باسمة : إلى الصيد وجمع الحطب .

فقال بضيق: حسنا؛ ولكني لاحظت أنك تعرجين يا أمة الله..ولم تذكري لي اسمك ؟!

فقالت : اسمي الغالية ولعرجتي قصة ستذكرها لك أختك أم النهار .

وأحبتجميلةأن تستدرج الرجل في الكلام وتعرف منه أنباء عن صاحبي الخيمة، ففكرت قليلا وقالت : هل أتيت من أرض بعيدة ؟

فقال الرجل : لي يومان أمشي على ظهر هذا الجمل – سامحها الله أختي – لقد رضيت بالحياة في آخر الصحراء وآخر الدنيا ، ولولا محبتي لها وطاعتي لوالدتي ما زرتها قط .

فقالت الأميرة : عفاك الله وأحسن الله إليك.. فالإحسان للأخت من أعمال الخير العظيمة عند الله .. وفعلا الحياة في هذه الصحراء القاحلة موحشة ومخيفة ..لا أدري لماذا رضي والديّ بالحياة

هنا ؟!

فقال الرجل ضاحكا : والداك !..إيه يا غالية ! أتصرين على أنهم والداك ؟

فقالت باسمة : أصر على ذلك وبقوة..لقد أنقذا حياتي يا رجل من الهلاك المحقق ، كدت أن أموت لولا عثورهما عليّ .. ولكن كيف طابت لهما الحياة في هذه الصحراء المخيفة ..؟!

فقال وهو يفكر : القدر يا ابنة أختي .. سأقول لك ابنة أختي ما دمت رضيت بها أما .. قاتل الله الهوى يا غالية !.. الهوى والعشق سبب رضا أختي بسكنى هذه الصحراء الجرداء .. ولا أظن أن والديك قصوا عليك سبب حياتهم هنا .. فهم لا يستطعيون ذلك .

فقالت بدهاء : أهو سر ؟!

فقال مفكرا : سر !!.. أكيد هو بالنسبة لهما سر ..لا أدري !.. على كلٍ حاولي أن تسمعيه من أبي النهار .

فقالت : لا أظن أن أبا النهار سيحدثني بشيء ، فلي أشهر أحيا بينهم ، وأشرب وآكل وأنام ، ولم أسمعهما يتحدثان عن حياتهما الخاصة ؛ ولكني أدركت أن بينهما حبا عميقا وغراما كبيرا ..

فتنهد الرجل بعمق وقال : لقد حارب الدنيا عبسان ليتزوج من أختي .. كان يحبها ويعشقها من أيام الصبا ، ولما عرفنا ذلك غضبنا ، ووقفنا أمام هذا الحب العاصف ، واخترنا لها زوجا من أقاربنا ، ولكن قام عبسان اللعين يوم العرس بقتله..واختفى ، وحاولنا بعد حين تزويجها من شخص آخر فصنع به مثل الأول ، واختفى عبسان ثانية .. وابتعد الرجال عن الزواج من أختنا ثم علمنا بانضمام عبسان لرجال جبل السرحان ووادي السرحان مكان يأوي إليه لصوص الدنيا ، وأصبح من كبار المجرمين والقتلة ، وكان بين الحين والآخر يرسل رسالة يهددنا من تزويج أختنا، وبعد موت والدنا ، ولما رأينا تصميم ليمونة على الزواج من ذاك المجرم اللص الفتاك وافقنا ، واستسلمنا لرغبته ورغبتها ، وسمح له رجال الجبل بالزواج من محبوبته .. فأتى البلده ومعه رجال منهم ، وتم الزفاف قبل حضورهم ، فلما حضروا أخذوا العروس وانصرفوا للجبل أو لإحدى القرى .

فهمهمت جميلة : إيه إنها قصة جميلة !! ..أكمل يا سيدي .

فقال وقد عادت به الذكريات القديمة: وكانت كل سنة تأتي إلينا فتمكث بضعة أيام ، ثم تعود لبعلها ؛ ولكن قبل ما يزيد عن عشر سنوات أتت إلينا هي وزوجها ، وأخبرتنا أنها ستقطن الصحراء وتهجر الجبل ، وأنها لن تزور المدينة بعد هذه المرة .. ورافقتهم إلى هذا المكان يا غالية ولليوم لم أعرف سر بقائهما هنا وتركهم رجال الجبل ، وكذلك تركهم سكنى المدينة ، وإذا عندك زاد فقدميه لي فإني أحسست بالجوع ، وأنا أزورهم كل سنة مرة أو مرتين أطمئن على أختي وأحقق رغبة أمي .. فهذا بعض سر زواج أختي من عبسان يا غالية .

فنهضت الغالية وأحضرت الخبز وبعض اللبن للضيف.

وأخذ الرجل يأكل ويحاول معرفة قصة الغالية فترد عليه : ستحدثك أمي بالقصة اصبر.. اصبر أيها الرجل الطيب .

وبينما هم على ذلك الانسجام أقبلت أم النهار وزوجها عبسان ، وجرى العناق وأخذت ليمونة تسأل عن الأم والاخوة والأخوات ، والرجل عمران يخبرها ويطمئنها ، ثم تحول الحديث بين عمران وعبسان ، ثم نهض عبسان لشواء الصيد من أرانب البر ، وعلى رائحة الشواء سمع عمران قصة الغالية ، وأنها فتاة من بلاد الرايات كانت تتمرن على جواد جديد ، فجمح بها وهرب بها إلى الصحراء وطرحها واختفى حتى وجدها عبسان وليمونة ، وقاما بمداواتها والعناية بها حتى تماثلت للشفاء وقنعت بالحياة الهادئة معهما .

رجال الجبل

ترك كلب الليل واخوته وأولاد اخوته الجبل على أثر فشل خطف ملك بلاد الرايات ، وبعد مسير طويل تشاور كلب الليل ومن لحق به فاتفقوا على اللجوء لدى الملك بهراما، وهو صديق للغضبان ، وكان ذلك الملك يستعين به للفتك بخصومه ، فبينهم معرفة قديمة ، فساروا إليه على رأسهم غزالة ابنة وعل الجبل ـ المقتول في معارك الملك جعلان ووزيره شمعار ـ لطلب الحماية من مطاردة الملك قيس وتحالفه مع الملوك عليهم ، وكان بهراما شابا لم يبلغ الأربعين بعد

وكان يعشق النساء والجميلات ويحب الفواحش والموبقات ، فمن أول نظرة ألقاها على غزالة وقع في هواها ، وقبل أن تتكلم أدركت الصبية ذلك فاستغلت ذلك على الفور ، فأظهرت له ضعفهم ، وأنهم مطلوبون ومطاردون ، وأنهم بحاجة لحمايته ، ولبعد مملكته عن وادي السرحان فلم يحدث أن سطى هؤلاء على بلاده عدا صداقته للغضبان ، ومن حسن حظهم أن قوافل بلاد بهراما أيضا لا تمر قرب وادي السرحان وجبل السرحان ، فلم يحدث بينهم احتكاك عدائي ، فقبل الملك حمايتهم والدفاع عنهم ، وسيسمح لهم بالنزول في أطراف بلاده إذا وافقت ورضيت غزالة بالزواج منه ، فلما تشاورت مع اخوتها أولاد وعل الجبل وعمها كلب الليل قالوا : الأمر لك .. إن وافقت فنحن موافقون .

ولما اجتمعت بالملك مرة أخرى أبدت موافقتها على شرط أن لا يتزوج عليها ، ولا يبقي امرأة عنده غيرها ، وإذا تزوج من امرأة غيرها فيلزمه طلاقها ، فلما وافق بهراما المهووس بالنساء والصبايا على شروطها حصل النكاح ، وشهده الشهود ، وهجر نساءه الأخريات ، واحتفل الملك بزواجه من حفيدة الغضبان ، وأنزلها قصرا من قصوره الكثيرة ، ونزل قومها في منازل وخيم في طرف المدينة ، ووعدهم بالحماية وحذرهم من الغدر والسرقة في بلاده .

فلما أتته رسالة الملك قيس سخر منها ومزقها، ولم يكترث بها ، وغرق بغرامه وعشقه.. وأما زوابع فلما رأى تفرق رجال الجبل ولم يبق معه وحوله إلا رجاله ، وعددهم ما يقارب الثلاثمائة سوى نسائهم وأطفالهم فشعر بالضعف والهوان ، فهمس لنفسه : كيف كنت أحلم بأن أجعل هذا الجبل مملكة كبيرة ؟ ! وأن ندع اللصوصية والنهب وقطع الطرق والتعرض للقوافل والتجار .. ولكني فشلت في الوصول للملك .. سأتبع أبا هند فهو خير من كلب الليل اللعين ولما لحق بأبي هند وجماعته ، طلب منه أبو هند الابتعاد عنه ؛ لأنه هو طلبة الملك قيس فصرخ فيه من أعماق فؤاده : يا جبناء !.. قيس لا يعلم أنني أنا الذي دبرت المكيدة !

فقال أبو هند: هذا لا يهم .. ابتعد عنا .

فهام زوابع ورجاله على وجوههم بين الوديان والجبال والصحراء حتى ابتعدوا كثيرا عن وادي

السرحان .. وكان يقول لأحد رجاله المسمى ريحان : أترى يا ريحان ما حل بنا ؟.. إنهم جبناء ضغفاء.. لا أدري لما يخشانا الناس ؟!

فرد ريحان قائلا : نحن قساة على الضعفاء والبسطاء ! وعندما نصل للسادة والأكابر يظهر تمزقنا وضعفنا وجبننا .. فلننزل هذه الغابة ونأوي إليها ، فلا أظن أن فرسان الرايات يصلون إلى هنا لنا أكثر من عشرة أيام نقطع القفار والبوادي والوديان.

فتنهد زوابع الغاضب الناقم وقال : إنني أتمزق من الداخل يا ريحان ..إنني أكاد أن أتفجر من الغيظ .. زوابع المخيف يهرب كما يهرب الفأر من القط أو الثعلب الماكر من الكلب الصغير .. أين الشجاعة ؟! لعنة الله عليك يا غضبان .. قتلتني حيا وميتا .. اللعين كان يقول لي : أنت نقمتي .. لقد انتقمت بك من أناس.. فحرمتك من أمك وأبيك وجعلتك مجرما ذا قلب حجري مات اللعين ولم يذكر لي اسم أمي .. أخبرني اللعين أنه خطفني لينتقم من ضحاياه .. لا أدري يا ريحان لماذا أفكر بأمي الآن ؟ !.. هل اقترب الموت ؟ أم اللقاء بهذه الأم المفجوعة ؟ ..آه .. اللعين لم يخبرني ماذا صنعت له أمي ، وهو المجرم العتيد لينتقم منها ؟ إنني نقمة من نقمات الغضبان فهلك اللعين وتركني ضائعا تائها في هذه الوديان والجبال والغابات كان أولاده الجبناء يكرهونني بشدة ، ولولا أنه لا يريد قتلي لقتلونني قبل أن أشب ، ولكني شببت وركبت الخيل فأصبحت وحشا فارسا ماهرا رغم أنفهم .

فقال ريحان بذهول واضح : ألم تكن تحب الملك الغضبان ؟!

هاج زوابع ورد بعنف وحقد : لا .. لا .. كيف أحب قاتلي ؟!.. ولكني وجدت نفسي في جبل اللصوص جبل الموت .. خطفني وأنا طفل صغير ، حرمني من حضن أمي وأبي ، انتقم بي منهم فرضعت الإجرام والقسوة منه وفي جبله .

أحس ريحان المجرم القاسي بالحزن والشفقة على سيده أمير الفرسان وقال معبرا عن ذلك : إنك مأساة إذن يا صاحبي !

فقال زوابع : لقد منعني أن أعرف الحقيقة . . عندما كنت أسأله عن أمي ، كان يحبسني ويعذبني

ويقول : هذا سر لن أبوح لك به ، ولن أقتلك سأجعل منك نقمة سيفا أسله للثأر .. ممن يريد أن ينتقم ؟! لا أحد يعرف من أين اختطفني ؟! من أي البلاد أتى بي ؟؟ فكان عليّ أن أصير قاسيا مجرما لا أهاب المنية ، ولا أخشى أحدا .. فأصبحت سيد الفرسان وأميرهم رغم أنفه .. ملتصق به لأعرف سره وسري .. فلا سر ، مات فجأة قبل أن يتكلم ، لم يحاول أن يتكلم ..آه يا ريحان !!

فقال ريحان : إنك سيد الفرسان وأمير الفرسان ، وكنت سيد الجبل بلا منازع ، بل كنا نرى الرعب في عيني الغضبان منك ومن صوتك الشديد القوي .

فقال : كان يخشى أن أتمرد وأثور وأقتله فجأة .. ولكنه كان يعلم أنني لا أستطيع ذلك قبل معرفة السر الدفين بين جوانحه ، وها هو هلك قبل أن يتفوه به .. وها هو الجبل يتمزق يتشتت يا ريحان الشجاع .. قل لي ما العمل ؟!

فقال ريحان : لا شيء أيها الفارس .. علينا أن نرقد بضع ساعات ونصبر حتى ينسحب رجال الرايات عن الجبل .. فنعود إليه ، ولا نسمح لأحد من اللصوص في دخوله إلا تحت طاعتنا وحدنا .. لا يبقى إلا لرجالنا وأصحابنا هذا رأيي يا سيد الفرسان !.. ونمنع كل من خذلنا من الحياة فيه .

فقال زوابع : قول طيب .. فلنرقد ونستوطن هذه الغابة ونختبئ فيها إلى حين

أمر ريحان الرجال والنساء ببناء الخيام في هذه الغابة والحياة فيها حتى ينصرف رجال الملك قيس إلى بلادهم ، ورتب ريحان الحراسات حول الخيام والمعسكر ، وأخذ يرتب لإرسال الجواسيس إلى الجبل والعودة بأخبار الجبل .

هذا ما كان من زوابع و كلب الليل ورجال الجبل ، فقد تفرقوا أيدي سبأ ، كل زعيم وجماعته في ناحية .

هوى عبسان

مضت سنة قد تزيد عشرات الأيام على محاولة قتل الملك قيس بن خصيب ، وقد ذهل زوابع ورجاله لما علموا ببقاء الجيش في وادي السرحان ، وهم يشيدون قلعة ضخمة لنزول الفرسان فبدا لهم أنه من الصعب العودة إلى الجبل .. ، وكلب الليل صدم لما علم بالفكرة أيضا ، وسعى لإقناع غزالة ابنة أخيه بإغراء الملك بهراما على تدمير القلعة قبل أن تتم فرفض وزير بهراما الأمر وقال للملك : نحن نحمي القوم ، أما أن نذهب ونقاتل في مكان بعيد فهذا خطر على جندنا وبلادنا .

فلم تفلح غزالة بإقناع الملك بهراما في الغزو والقتال نيابة عن قومها ، فقد وجدته زير نساء ولهو فهو غير مهتم بالحرب والقتال ، فأحست بالندم على الاقتران به ، وفكرت بالهرب منه ، ولكن يذكرها قومها بحمايته لهم من جنود الأمير صقر بن غراب ، وأن الملك قيس ما زال يرغب بسفك دمهم وإذلالهم ، والحدث الأهم حدث في جوف الصحراء حيث استقرت الأميرة جميلة في خيمة عبسان وليمونة .. انطلق عبسان يوما للصيد وأبعد النجعة مم أثار الخوف عند المرأتين وجاء عند غروب اليوم التالي وهو يركب على ناقة .. وكن يعتقدن للوهلة الأولى أن القادم هو عمران أخو ليمونة .. فلما أناخ جمله ونزل فإذا هو عبسان ففرحن بعودته وعادت النضارة لوجوههن .. والأعجب من ذلك أنهن وجدناه مسرورا وفرحا على غير العادة ، ولما انتهى العتاب من ليمونة قالت : ما هذا الفرح الذي رسم على محياك ؟!

فقال : ابشري يا ليمونة ! .. خلاص انتهى اختفاؤنا ، سنعود للمدينة أو القرية .. فلقد زرت أحد الرجال ، فأخبرني بخبر سرني رغم حزني من الخبر ، ولا خوف على حياتي بعد اليوم ، فمضيت لمدينتنا وأتيت بناقة عمران..سنرحل .. سنرحل صباحا بعون الله .

فهتفت ليمونة : ما الأمر أيها السيد ؟ لم أفهم شيئا ؟!

فقال بفرح : لقد مات أعز الأصدقاء .. مات الغضبان يا ليمونة!

فقالت بدهشة وهي تحملق بزوجها : مات الغضبان !! .. الملك مات !

فقال بفرحه : أجل !!.. أجل فقد مات منذ أكثر من سنة ، مات ملكنا السابق يا ليمونة .. مات صديقي العزيز !.. إيه مات بعد فقده بصره ، وبعد مقتل ابنه وعل الجبل .. فلنفرح في هذه الليلة الأخيرة لنا في الصحراء ونودع الصحراء والأرانب .. مالك صامتة يا غالية ؟ ألا ترغبين بالسير معنا للمدينة ؟! سأزوجك من أجمل رجالها وخير رجالها .. تكلمي يا بنيتي ؟!

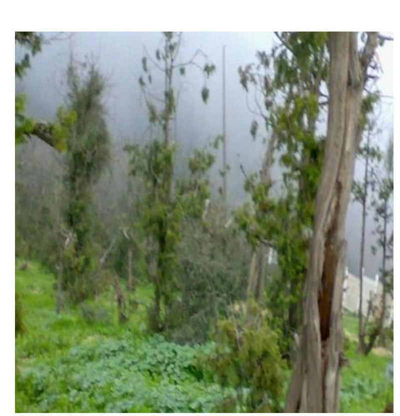
فقالت : يا أبتاه .. ماذا أقول ؟؟ إنني سعيدة بسعادتكم ؛ ولكني لم أفهم شيئا من كلامكم .. ومن الغضبان هذا الذي هو من أعز أصدقائك ؟! وهو سبب فرحك اليوم .. فهل موته يفرح لهذه الدرجة وهو صديقك؟!

تنهد عبسان وقال : أجل..أجل أيتها الفتاة الطيبة !.. سأحدثك الليلة ونحن نودع هذه الصحراء الجرداء بكل قصتي .. ستعرفين الأسرار التي كنت تحاولين معرفتها .. ستعرفين لماذا سكن أبوك عبسان في هذه الصحراء منذ سنوات وانقطع عن الخلق ؟ .. ستعرفين لماذا لم أحب أن أصارحك بأسراري وقصتي ؟ .. ستعرفين لماذا قبلت الحياة في هذه الصحراء ، وأنا الرجل المرعب الذي كانت نساء قريتي تخوف أولادهن به ؟.. ستعرفين كل ما أحببت أن تعرفيه عن سبب ابتعادنا عن الناس والبشر ..كل ذلك ستعرفينه بعد الطعام ، ستسمعين أنت وليمونة الكلام .. ليمونة امرأة صالحة ووفية رضيت بهذه الحياة ؛ لأنها اختارت عبسان وأحبت عبسان كنت شابا صغيرا لم أبلغ العشرين عندما التقيت بليمونة ، فخفق قلبي عندما رأيتها أول مرة عرفت الهوى والعشق ، وبادلتني هذا الهوى والغرام .. هي ابنة أسرة كبيرة في بلدة سبع عدسات ، عرف الناس بحبنا ، وانتشر بين الأهالي حبنا وغرامنا..أهلها رفضوا زواجنا، فكيف يقبل أبناء الأسر الثرية ابن الناس البسطاء ؟! لم نكن فقراء ؛ ولكننا لم نكن من أبناء الأسر التي تجلس مع الأمراء والملوك في السبع عدسات .. غضب أهلها لهذا الحب ضربوا الفتاة الصغيرة حسناء الحي وأتوا بزوج لها يا غالية .. في ليلة العرس طعنته بخنجري فأرديته قتيلا .. هربت إلى الجبال والكهوف القريبة من البلدة ..هناك وفي إحدى المغارات التقيت بشاب هارب مثلي مبتلى بدم إنسان من أهله .. تصادقنا وتعاهدنا على المحافظة على بعض .. هذا الفتى الشجاع

الهارب اسمه عشم فأخذنا نسلب المارة وندع لهم حياتهم .. نريد أن نعيش .. ندخل المدن لشراء الطعام ، ونعود للحياة في الجبال والأودية بين الكلاب والضباع والوحش ، ثم التقينا بمطاريد مثلنا ، فكونا نواة عصابة نحمي بعضا ونود بعضنا ، فبعضنا قد قتل، وبعضنا حاول القتل ولم ينجح ؛ ولكنه نجا بروحه ، كلنا متهمون ، كلنا أصحاب جريمة وحقد على مدننا وقرانا .. كنت أتسلل للسبع عدسات لأرى محبوبتي ليمونة.. كانت على العهد ، كانت تبذل كل جهد لتراني رغم الحصار المشدد عليها وعلى حركاتها.. ثم علمت أن زوجا جديدا قد تقدم إليها .. ولما كانت ليلة العرس صرعته وأعدمته الحياة ، أصبحت وحشا يا غالية لا تخافي مني خاف الناس من الزواج من ليمونة .. أقاربها هابوا الموت .. مات والد ليمونة يا غالية .. وبعد ذلك استسلم اخوة ليمونة لزواجي منها ، فطلبوا منها أن ترسل لي بموافقتهم ، ولما تأكدت من عدم المكيدة والكيد منهم اتفقت معهم ، وكان الزواج ، وفي ليلة العرس دخلت المدينة ومعي بعض الأصحاب وعلى رأسهم عشم صديقي ورئيس عصبتنا .. سكنت بها في الجبل ، جعلنا من أحد الكهوف عش الزواج ، سعدت بها وسعدت بي ، كانت تحبني وأنا كذلك وهكذا كان وكثرت غاراتنا على المدن وكثر مطاردينا ، فرحلنا لوادي السرحان وجبل ضراب ، وجدنا كثيرا من العصابات تقطن المكان ؛ ولكنّ عشما بوحشيته وقسوته المفرطة سيطر بعد حين على المنطقة كلها ، وأصبح الزعيم المهاب ، فأنشأ له قصرا ، وكبرت العصابة وكثر رجالها ونساؤها .. فأصبحت قرية .. وكنت من كبار أعوان الزعيم عشم الذي سمى نفسه بالملك الغضبان .. وكان غضبه على رجل من رجال الجبل يعني هلاكه وموته ، زادت أموالنا ودوابنا ، وكدنا نصدق أننا أصبحنا مملكة ؛ ولكن أعدادنا لم تتجاوز الألف رجل .. ثم كان حدث كبير في الجبال .. لقد علم الغضبان أن أميرة .. أميرة حقيقية محبوسة في الجبال عند أحد زعماء العصابات في الجبل الزعيم أبي الليل ذهبنا أنا والغضبان وبعض الرجال إلى مكان أبي الليل ورأى الغضبان الأميرة التي لجئت إليه وطلبت حمايته ، وهذه الأميرة كانت محبوسة بإسم قريب لها صديقا لأبي الليل ، وقد أتى بها الأمير هذا خوفا من زواجها من أمير غيره .. المهم أن

الغضبان عرض الزواج عليها فقبلت ووافقت ؛ ولكنها طلبت مهرا لها عجيبا عنا وعلينا ، وهذا المهر كان فرسا وسيفا لأحد ملوك بلاد الرايات التي ذكرت لنا أنك خرجت منها يا غالية .

فقالت الغالية : بلاد الرايات .. نعم إنها مسقط رأسي ومولدي .. أكمل يا أبا النهار إنني مصغية إليك بشغف وقوة .



فتابع أبو النهار كلامه ، وهو يعجب لشجاعتها وعدم رعبها منه رغم مصراحتها بأنه مجرم وسفاح وقاتل ، فتابع الكلام قائلا : لهذه الأميرة قصة لابد من سردها ، فهذه الأميرة لها قريب يحبها ، وكان يأمل بالاقتران بها ؛ ولكن سبقه إليها ابن ملك بلاد الرايات ؛ فاضطر لخطفها وأتى بها خدعة لأصحابه في وادي السرحان ، وكان والدها الملك قد طلب لها مهرا من الملك خصيب بن مرار صاحب بلاد الرايات ، وهذا المهر فرس أصيلة وذات قيمة كبيرة بين الملوك تسمى دموع ، وسيف يقال له سيف الفردوس يقال إنه من ملك الصين ، وافق الملك مرار على التنازل عن هذين الشيئين ، ولكن لما اختفت الأميرة أعاد والد الأميرة المخطوفة الفرس والسيف للملك خصيب .. فلما وافقت الأميرة على الزواج من الغضبان طلبت المهر السيف والفرس ، فوافق الغضبان وأرسل من يأتيه بهما ، فهلك الرجال أو أسروا ، وعرف الملك خصيب سرهم وحاجتهم ، وكرر الغضبان العنيد المحاولة وفشلت ، وفكر بغزو تلك المدينة ؛ ولكن رجالنا لم يكونوا بتلك الكثرة ، وأيضا بلاد الرايات تحتاج من المسير عشرة أيام من وادي السرحان ، وبينما نحن نفكر بالانتقام غزانا الأمير صقر ابن الوزير غراب بن عقاب وزير الملك خصيب فنحن في الجبل لا نستطيع مقاومة ومحاربة الجيوش القوية ، فأخلينا الجبل ، أثناء ذلك كان الأمير قيس الذي طلبها قبل قريبها قد تسلل إلى الوادي ، واستطاع أن يصل للأميرة التي يرغب بالزواج منها ، واستطاع

إنقاذها وعاد بها إلى بلاد الرايات ، وكانت بلاد الأميرة على اثر حادثة خطفها قد انقلبت على الملك جعد بن همام فتركها هاربا لخصومه ، ومات من الغيظ والقهر ، فلما علمت الأميرة الناجية ذلك حقدت على قومها وأخوالها ، وتزوجت من الأمير قيس الذي أنشأ لها مدينة صغيرة سماها على اسمها مدينة سُلمى وحشد لها قوات وجندا عدة سنوات ، ولما اكتمل الإعداد تحركوا نحو بلاد أبي كبشة لتحريرها من نحاس وأعوانه ، وكانت الأميرة سُلمى قد أنجبت للأمير قيس عدة أبناء ، وأثناء حربهم مع بلاد أبي كبشة – وهذا المهم في قصتي اليوم – صمم الملك الغضبان على الانتقام من الأميرة وزوجها ، فنزلت أنا وإياه إلى مدينة سُلمى وأثناء انشغال القوم بالحرب نصبنا كمينا ومكيدة لخطف ابن الأميرة سُلمى ، وفي غفلة من الحرس والخادمة خطفنا فتى صغيرا قدرنا عمره بثلاث سنوات أو أربع ، وهربنا به إلى الجبل ووادي السرحان – ونحن أكثر من محاولة للأنتقام بذلنا ، وتهيأت لنا الفرصة خلال حربهم – ولم يعرف سر هذا الغلام المسروق إلا أنا ، أي أعرف من هو أبوه وأمه ؟ .. والقوم في الجبل ظنوا أنا قتلنا أهله وأشفقنا عليه فأتينا به الجبل ، إذن انتقم الغضبان من والديه ، كان يريد أن يجعل من الأمير الصغير مجرما شرسا عنيدا فسماه زوابع ، وكبر الغلام وتوحش ؛ ولكنه كان يسأل عن أهله ، والغضبان يصارحه أنه خطفه لينتقم به منهم ، وخشي الغضبان صديق العمر أن أكشف السر أو يعرف الشاب أنني أعرف السر ، فصارحني قائلا : يا عبسان أنت صديقي وصديق العمر ، ومن بداية الدرب وأنا أحبك ، ولا أريد أن أخسرك ؛ ولكنك الوحيد الذي يعرف سر هذا الربيب ، وأنا لا أريد أن يعرف ، ولا أريد أن أغدر بك ؛ ولكنك شوكة في حلقي فاختفِ من حياتي ، ولا أريد أن أعرف المكان الذي تختفي فيه .. لقد كان تهديدا واضحا وصريحا فحملت زوجتي ليمونة وأتيت إلى هذه الصحراء منذ سنوات وسنوات ، ولم يكن يعرف مكاني أيتها الحسناء الشجاعة إلا أخو هذه المرأة عمران .. ابتعدت عن المدن والقرى خوفا من غدر الصديق القديم عشم ، وفي خروجي الأخير طرقت أحد الأصدقاء القدامى ، فأخبرني بهلكة الغضبان وموته ، فأتيت إليكم مسرعا لأخرجكم من هذه الصحراء القاحلة ومن الخوف

والموت ، فهذه قصتي وأسباب حياتي في هذه الصحراء يا ليمونة ويا غالية ، فغدا بمشيئة الله سنرحل إلى قرية قريبة من السبع عدسات نقترب من الأهل رويدا رويدا .

كانت الأميرة جميلة ذكية وفطنة رغم تلون وجهها أثناء سماع الكلام وتساقط الدموع بين الحين والآخر وهي تسمع القصة ، فقد أدركت أنها قصة أمها وأبيها الملك وأخيها الضائع ، فحمدت الله على حادثة الجواد ، وعلمت أن أخاها الضائع يحيا مع رجال الجبل ، ويحمل اسم زوابع ، وهو مجرم عتيد ، علمت كل ذلك وكتمته في قلبها ، وتمنت لقاء والدها الملك لتحدثه بذلك ، وفجأة سمعت ليمونة تقول لها : أين سرحت يا غالية يا ابنتي ؟!

نظرت إليها وقالت : إنني أفكر بكل ما سمعت من هذه القصص المتشابكة والغريبة .. هل نسيت يا أبتاه بعد كل هذه السنوات في الصحراء العصابة والجريمة ؟!

فقال بحزن : أنا لم أولد مجرما يا فتاتي .. الهوى والحب سبب اندفاعي وارتكابي للجرائم .. لو رحمني أهل ليمونة ما أظن أنني قتلت إنسانا وقتلت ؛ ولكن لا ينفع الندم ، وأنا سكنت الصحراء لأنني لا أريد أن أموت بيد صديق العمر ، وهو لم يشأ الغدر ليبقى السر سرا .. فها أنتم عرفتم كل أسراري ؛ لأنه لم يعد هناك سر ، فقد هلك الغضبان، وأنا لا أفكر بالعودة إلى الجريمة ووكر العصابة، فقد تفرقوا وهربوا ، فالملك قيس قد أرسل لهم من جديد الأمير صقر ليحاربهم ، بل أمر بإنشاء قلعة ضخمة في الجبل ليمنع اللصوص من التجمع ثانية ومن الحياة في وادي السرحان ، فأسأل الله أن يجنبني الجرائم ثانية.. فلننم بضع ساعات لنرحل مع الفجر ، فهذه هي الأسرار التي كنت ترغبين بسماعها يا صغيرتي ! وأعجب أنك لا تخافين رغم معرفتك من عمران أني مجرم عتيد ، وأزهق روح الإنسان كما نزهق روح الطير والحيوان

فقالت الغالية : حق أني عجبت منك لما حدثني عمران عن وحشيتك ؛ ولكن رقة ليمونة وحبها لك كان يثير عجبي أكثر ، فرأيت أن الظروف التي أحاطت بك أيام الصبا ، وطيش الشباب قد دفعا بك للحياة في الجبال مع الوحوش واللصوص ، وقبل أن ترد أيها الرجل الطيب .. أذكر أنك الرجل الذي أنقذ حياتي وعالجني وحفظ شرفي وعفافي ، فما رأيك بأن ترحل وتصحبني

إلى بلاد الرايات ؟ ولسوف يكرمك أهلي غاية الإكرام ، فهم من الأغنياء ، وسيسرون بك وبليمونة، هم بالتأكيد اعتقدوا موتي بعد أن يئسوا بالبحث عني ، عندما أكلم والدي بقصة حياتك سيتعاطف معك ويشفق عليك ويعذرك ويحميك .

أخذ عبسان نفسا عميقا وقال : آه ! كم تشأمت عندما خبرت أنك من بلاد الرايات ! لقد راودتني نفسي والشيطان بطرحك في الصحراء ؛ ولكني رفقت بك وعطف قلبي عليك وقلت إنك مسكينة مثلي ساقتك قدرة الله لهذا المكان .. أعرفت الآن لماذا لم أفكر بالوصول إليها إلى بلاد الرايات ؟ .. لقد شاركت الغضبان في خطف ابن مليكها ، وهي سبب خروجي من الجبل طريدا خفيا في هذه الصحراء .. فماذا سيحل بي لو عرفوا أنني من رجال الجبل ؟

فقالت الغالية : وكيف سيعرفون أنك من رجال الجبل ؟!

فقال : يا بنيتي ..أنا كنت من رجال الغضبان المعروفين والمرافقين له.. والأمير قيس قبل أن يصبح ملكا قد تحايل علينا ودخل الجبل وعاش فيه عدة أشهر ، ولابد أنه رأني برفقة الملك الغضبان ، ولا أظن أنه نسي سحنتي .

فقالت بعد صمت : أيها الرجل الطيب أحب أن أعوضك عما قدمت لي .. فأهلي الآن يعتقدون هلاكي وموتي ، فعندما يرونني حية سينسون ما فعلت مع الملك ، وسيشفعون لك عند مولانا الملك ، بل سيطلبون مساعدتك وإكرامك .. وأرى أن الملك قيس سيطلب مساعدتك في العثور على ولده الضائع الذي أسميتموه زوابع.. أليس كذلك ؟!

فقال : أجل أيتها العزيزة .. عميقة الفكر فطنة والله !.. ولكني أحب الحياة .. وأحب ليمونة

فقالت : أنت تريد أن تسكن بطرف مدينة السبع عدسات على أمل الاقتراب من المدينة، وتأكد أنني بعدما عشت كل هذه المدة معكم وفي رعايتكم فلن أغدر بكم ، وهذا عهد أقطعه على نفسي فسأدع أبي وهو من الأكابر أن يتشفع لك عند الملك ؛ فإن قبل الشفاعة أظهرتك ، وإن رفضوا فضلك سأخبرك بذلك ، وأدعك تبتعد ولن أنساك أبدا .. وإذا خشيت من غدرهم سأقتل نفسي قبل أن تقتل .. أريد لك السعادة والحياة الهادئة والبعد عن الجريمة والقتل والغدر

أخذ عبسان الرجل المجرم بالبكاء كالأطفال ، وهو يسمع كلام الأميرة وحنوها وشفقتها عليه وكانت زوجته الصامتة طول مدة هذا الحوار تشاركه الشهيق والزفير والدموع ، فلما اكتفى من البكاء ، وألقى المزيد من الحطب على الموقد نظر في عيني الأميرة على وهج النار وقال : يا غالية بالذي خلقك ابنة مَن مِن السادة في بلاد الرايات ؟!

فابتسمت الأميرة له ابتسامة رقيقة وقالت : أتسير معي إذا ذكرت لك اسم والدي ؟ وتثق بي وأنني مثل ابنتك كما عشنا خلال هذه الشهور الماضيات .

فقال: سأثق بك ! فأنا واثق بك أصلا ؛ ولكن لي حسابات قديمة في بلادالرايات ، وسأسير معك إذا كنت ممن يعرفون والدك وثقله ومكانته عند الملك قيس

فهمست بصوت هادئ : أنا ابنة الملك قيسيا أبي!

فغرعبسان فاه دهشا،وقال بدهشة غير المصدق وهو يقف : الله !! أيعقل هذا ؟! ابنة الملك تعيش سنة في هذه الصحراء وهذه الخيمة الخرقاء !

فقالت : أنا جميلة ابنة الملك قيس والملكة سُلمى .. الأميرة التي سكنت في جبل السرحان بين عتاة المجرمين ، وأنا اليوم أخت الأمير زوابع الذي خطفه ملكك الغضبان ، واعلم يا عبسان أنا إذا أمنتك فلن يمسك أحد بسوء ، وتأكد أن والدي لا ينسى المعروف والخير رغم ما فعلته بنا.. وما أنت إلا رجل من رجال الغضبان تسير بأمره وتعمل بأمره .

فعاد عبسان للجلوس ثانية وهو مازال يحدق النظر في الفتاة الشجاعة ويهمس قائلا : ابنة الملك قيس.. أمعقول هذا ؟!

فقالت : صدق هذا أيها الرجل ! وإذا وصلنا بلاد الرايات ستتأكد من ذلك ، وأقسم لك قسما عظيما إنني لن أغدر بك أو أسلمك للجلاد ، بل نحن بحاجة إليك ولحياتك لنصل لـزوابع ليعرف الحقيقة ليعرف أمه وأباه ، وقد ساقتني حكمة الله الجليلة إلى صحرائك؛ لنعرف هذه الحقيقة ، وننـقذ أخي من العالم الذي يعيش فيه ، نحن بحاجة إليك يا عبسان تعاون معنا يا أبي الطيب ! وستبتسم لك الدنيا وتنعم بالحياة الطيبة مع ليمونة .

كانت ليمونة مذهولة هي الأخرى من المفاجأة !

فقال عبسان : لم يبق لي كلام .. وكما قلت قدرة الله قد جمعت بيننا في هذه الصحراء لإنقاذ الأمير زوابع ما اسمه الحقيقي ؟!

فقالت برنة حزينة : الأمير سيف الزمان بن الملك قيس أيها الرجل! فرغم قسوة الفراق والجريمة فستكون ساعة اللقاء جميلة ومنسية للماضي وغمه وجرحه

فقال عبسان مستسلما : مع الفجر يا ابنة الكرام سنتحرك إلى بلاد الرايات ، ومهما حصل لي فأنا أستحق ذلك ؛ ولكن وصيتي إليك يا جميلة .. ليمونة ، فهي وحيدة في هذه الدنيا ، لا أهل لها ولا إخوة ، وعمران هذا إذا هلكت أمها فلن تراه أبدا ، وصيتي إليك ليمونة إن لم يقبل والدك الملك العفو عني .

فقالت : ويحك !.. أتظن أن الملك قيس شهيته الانتقام والثأر .. لا .. إن لم يعفو عنك سأموت معك يا عبسان .

فقال : إنني واثق منك ، ومن شجاعتك ، فكلما أراك تصطادين الأرانب والحبارى والقطا كنت أظن أنك رجل متنكر لولا تأكيد زوجتي لي أنك أنثى مثلها .

ضحكت جميلة حتى بدت أسنانها وقالت : أبي يحب الفروسية والصيد ، وكان يحب منا أن نكون فرسانا ومقاتلين ، فاعتنى بنا وأمر بتدريبنا ، وقد رافقته كثيرا إلى القنص .. فوالدي مغرم بالصيد من قبل أن يصبح ملكا ، بل تعرف على أمي الأميرة سُلمى الملكة فيما بعد في رحلة صيد بوادي الثعالب .. فلنرقد أيها الرجل الطيب ، ولسوف ترى من أبي الملك ما يسرك ولا يضيع المعروف عندنا .

المسافة بين صحراء عبسان وبلاد الرايات تحتاج مسيرة يوم أو أقل بقليل من الساعات وتحركوا مع بواكير الفجر ، فركبت المرأتان الجمل ، وركب عبسان الحمار ، وساقوا الغنيمات ، وبعد مسير مضن في حر الصحراء وبردها اقتربوا من بلاد الرايات ، ومع ظهور الصباح مشوا نحو المدينة ، وكل غارق في خواطره ، ومع الظهيرة وصلوا أحد أبواب المدينة ، ولما شاهد أمير الباب

الأميرة جميلة ، لم يصدق ما تراه عيناه فهتف مدهوشا : الأميرة جميلة ابنة الملك بعد كل هذه الأيام ؟!

فقالت باسمة: أجل ، وأسرع الآن وأخبر مولاك الملك بعودتي .

فركب الجواد مسرعا نحو القصر ، ولما رأى عبسان ذلك هم بتقبيل يدي الأميرة يبدو أن الشك قد زال من نفسه بصدق الفتاة ، فذعرت جميلة لهذه الحركة وسحبت يدها عجلة وقالت : لا تفعل أيها العم والأب العزيز .. أنا مدينة لك بحياتي أيها الرجل الطيب !

فقبلها من رأسها وقال: بل أنا مدين لك من اليوم .

وتقدمت جميلة وليمونة ويتبعهما عبسان على حماره وبين يديه الغنيمات .. تفاجأ أهل ديوان الملك بما يسمعون ، ودهش الوزير عقاب ، ودخل على الملك سريعا فأسر إليه بما قاله أمير الباب ، فصعق الملك ونهض مسرعا ، وخرجوا نحو الباب المذكور ، وأدركوا الأميرة في منتصف الطريق ، فنزل الملك عن حصانه الأدهم واعتنق الأميرة ، وهو لا يكاد يصدق ما ترى عيناه من حياة ابنته، وكان عبسان دهشا مذهولا للغاية مما يرى، ومن حب الملك ولهفته ، ومن صدق الفتاة وتواضعها معه في الصحراء ، ولم تحاول الظهور بأنها ابنة ملك عظيم وحفيدة الملك خصيب صاحب الصيت العظيم والمعروف ، وعبسان يعرف قيس حق المعرفة عندما عاشرهم فترة في وادي السرحان ، وتقدم الملك إلى عبسان المدهوش الحائر يصافحه ويباركه ويشكره على مساعدة ابنته في تلك الصحراء ، فتقدم الرجل الكهل يريد تقبيل يدي الملك ، وهو يبدي احترامه له وللأميرة ، وفعلت ليمونة المذهولة كما فعل زوجها ، فشكرها الملك ورحب بهم أجلّ ترحيب وألطفه ، وبينما القوم فرحين بعودة الأميرة سائرين لقصر الملك أقبل كثير من أهل المدينة يشاهدون عودة الأميرة التي يئسوا من حياتها ويرحبون بها ، وأمر الملك قيس بالأفراح والصدقات وفتح موائد الطعام للعامة والخاصة ، وأقبلت العواتق من خدروهن يسلمن على صديقتهن الجميلة جميلة ، وكان يوما كبيرا في بلاد الرايات ، وأرسل الملك قيس رسولا إلى بلاد الأكباش لإخبار الملكة سُلمى والملك مرعي بعودة ونجاة وحياة الأميرة جميلة

وكان الملك قد أمر بإنزال عبسان وزوجته في قصر الأقواس أحب القصور إليه وأمر بإكرامهم غاية الإكرام .

وسر وفرح أهل المدينة بحياة الأميرة ، وأحضر عبسان لقصر وديوان الحكم ، وقدم له الجميع التحية والشكر والهدايا ، ولما انتهى الناس من الفرح بعودة الأميرة جميلة سألها والدها : لماذا لم ترسليه إلينا يخبرنا بحياتك ونجاتك ؛ لنرسل إليك الخيل والجمال والرجال ؟

فقالت : هو لم يعرف أنني ابنة ملك إلا منذ ليلة مضت ، ولو طلبت منه ذلك لم يفعل .. وكنت في صحراء مخيفة فخشيت أن أكشف أمري له من أول يوم ؛ لإصابتي بالكسر أولا ولغموضه فقلت لنفسي لا يسكن مقطوعا عن الناس إلا رجل متهم أو هارب .. ألم تعرفه يا أبي ؟ ! فهو يعرفك .. فهذا وجه قد مر عليك

فقال قيس وهو يفكر ويتذكر : خيل لي ذلك .. ولكن لا أذكر اليوم شيئا .. فذكريني .

فقصت الأميرة على والدها قصة عبسان ، ولم ذكرت حياة أخيها كاد الملك أن يصيح من الفرح والبشارة وهتف قائلا : سيف حي .. سيف حي ! ما أعظمك يا رب الأرض والسماء ! رب ضارة نافعة ؛ ولكن للأسف والخسارة إنه يعيش مع المجرمين ، بل أراد قتلي زوابع هذا ، أتذكرين فارس الغابة يا جميلة ؟!

فتذكرت جميلة فارس الغابة فهتفت : أتعني أن ذاك الفارس كان أخي.. يا الله !! صدق يا أبي أنني لما شاهدته في ذلك اليوم خفق فؤادي لرؤيته ، وخشيت على نفسي من العشق والغرام الذي يتحدثون عنه ولما عرفت أنه مجرم ارتاحت نفسي إنه أخي سنبحث عنه يا أبي .

لقاء زوابع

رغم الغضب الذي أصاب الملك لما عرف شخصية عبسان ودوره في خطف ولده البكر ، وتذكره أنه رآه في وادي السرحان ضمن حاشية الغضبان ، مع كل ذلك غلب معروفه بالمحافظة على حياة ابنته وعفتها على سيئاته ، وبما أنه ذو قلب كبير فنسي كل الآلام التي سببها له ، وحمل الغضبان كل ذلك ، وعفا وصفح عنه، اكراما لابنته وتعهدها بحفظ حياته ومكافأة لمعروفه

معها ، وأبقاه حيث هو ، وطلب منه عدم محاولة الهرب ، وأنه آمن على حياته ، وأعلمه أنه ضيف الملك ، وأن وجوده مهم في البلاد حتى يأتوا بـزوابع أمير اللصوص ؛ ليسمع منه القصة ويصدق أنهم أهله،وبعد ذلك فهو بالخيار إن شاء البقاء في بلاد الرايات فله ذلك وعلى الرحب والسعة ، وإن شاء العودة لبلده فالملك سيتشفع له عند ملك تلك البلاد ، فسر عبسان غاية السرور بعفو الملك عنه ، وتعهد للملك قيس بالبقاء حتى يلتقي بولده المخطوف ، بل أبدى استعداده للبحث عنه .. وفرح عبسان بعطف الأميرة جميلة عليه وعلى زوجته ولكثرة ترددها عليهم وتفقد أحوالهم في قصر الأقواس .. القصر المحبب على قلب والدها الملك قيس .

وكان عبسان عندما فارق الصحراء قد كتب على شجيرة قريبة من الخيمة رسالة لعمران لأنه عندما استعار منه الناقة أخبره بأنه سينزل المدينة أو أطرافها ، ولما تغيرت وجهة نظره بعدما أباح بسره إلى الغالية، وعرف من هي الغالية ؟ فكتب رسالة قصيرة على الشجرة التي كان قد زرعها قرب الخيمة ، وفعلا لما تأخر عبسان قلق عليه عمران ، وأرسلته أمه إلى الصحراء ، فأتى المكان ووجد الخيمة فارغة ، ودار حول المكان عدة مرات ، فلم يجد لهم نارا وأثرا ، ولم يجد قرب الماء والثياب ، فأدرك أنهم رحلوا ، ثم رأى الخنجر مغروزا بالشجرة ، فعجب من ذلك وسار نحوه ، ولما أراد نزعه لمح الكتابة على جذع الشجرة نحن مشينا نحو بلاد الرايات عند الملك ، نزع الخنجر وفكر طويلا .. بلاد الرايات .. بلاد تلك الفتاة هل أراد أن يوصل تلك الفتاة لأهلها ثم ينكس نحو مدينتنا ؟ ولكن لماذا عند الملك ؟! وما علاقة عبسان بملك بلاد الرايات وبعد تفكير عميق صمم على الرحيل نحو بلاد الرايات وعدم العودة إلى مدينته قبل لقاء أخته وعبسان ، وبعد حين دخل بلاد الرايات ونزل في أحد الخانات ، وسأل صاحب الخان عن عبسان ظانا أنه ربما نزل هذا الخان الكبير مع اعتقاده أيضا أن أحدا لن يعرف عبسان ؛ ولكن ربما صدف وتعرف به صاحب الخان ، وما كاد يسأل عنعبسانويذكر وصفه حتى صاح الرجل صاحب الفندق: الرجل الطيب !!.. إنني أعرفه .. لقد أنقذ حياة أميرتنا المحبوبة . وأخذ بوصفه ، فدهش عمران لمطابقة الوصف لـعبسان فقال : كيف أنقذ أميرتكم ؟!

فقال الرجل : يا هذا قلت لي إن هذا الرجل زوج أختك .. سأرسلك لقصر الأقواس وستسمع القصة منه .. فأميرتنا جميلة فقدت منذ سنة، ولما تعافت أتى بها ذاك الرجل الطيب .. فالفتاة التي عاشت معه في الصحراء هي الأميرة جميلة ابنة الملك قيس بن خصيب .

فقال عمران لنفسه : أوه !! .. الآن عرفت سر الشجاعة والجراءة في تلك الفتاة .. لم أشعر لحظة أنها تخاف من عبسان رغم أنني حدثتها عن إجرامه؛ لتحذر لنفسها ، فقد قابلت ذلك بغير مبالاة ، ولم تحاول طلب أخذها معي ، والآن فهمت أيضا قوله عند الملك .. فقام عمران عندئذ بشكر صاحب الخان ، وهتف وهو ينقلب نحو قصر الأقواس : والله يا عبسان فتحت عليك طاقة السعد !

وسر عبسان وهو يرى عمران صهره ونسيبه ، وتعانق الرجلان وقال عمران مداعبا ختنه : والله هبطت عليك السعادة يا عبسان ! وأصبحت نزيل القصور بدلا من الخيم والكهوف .. هنيئا لك يا أم النهار ..

ولما علمت جميلة بضيف عبسان أتت بنفسها ترحب وتسلم عليه وتحييه ، فأراد أن يقبل يديها احتراما فاعتذرت وقالت ضاحكة: لا يا عمران ! فهل أنسى الأيام التي تسامرت أنا وإياك بها في صحراء عبسان.

فقال عمران : والله يومها عجبت من شجاعتك وثباتك! ولم يدخل الرعب قلبك وأنا أحدثك عن عبسان رغم أنك أنثى ، وتسكنين مع وحش رهيب قتل الإنسان عنده أهون من قتل حشرة ، فاعتقدت يومذاك أن الصحراء هذبته ولينته وحسنت طباعه وأخلاقه رغم وحشتها وقسوتها .

وتذاكرا الصحراء وأيامها ، وصنعت الأميرة وليمة كبيرة للسيد عمران ، وسمع عمران قصة عبسان والأميرة ومجيئهم لبلاد الرايات ، فقال لـعبسان : إنه السعد يا سعيد ، وإذا وجد الملك ابنه الضائع ستصبح من رجال المملكة الكبار يا عبسان .. فالأميرة مسرورة منك وتقدر معروفك وإنها تحب ليمونة الصابرة على هفواتك وعفراتك .

فقالت ليمونة : بل الملكة سُلمى ملكة بلاد أبي كبشة أقبلت بنفسها تشكر عبسان رغم ما فعله بابنها ، بل وهبته عقدا من الجواهر أغناه للأبد ، وكذلك فعل الملك مرعي ، وعجب عبسان لكرم هؤلاء الملوك ، وبكى من عظم كرمهم معه، ومسامحتهم لغلطته الكبرى في خطف الأميرسيف الزمان، ووعدته الملكة بالغنى الأبدي إذا اجتمعت بولدها سيف بعد كل هذه السنوات الطوال .

كانت الأخبار قد وصلت لوادي السرحان والفرسان بعودة الأميرة بنت الملك قيس سالمة فعم السرور القوم ، وانتشر الخبر عندهم أن الملك يريد لقاء المدعو زوابع حيا ، وأنه طليب الملك بل أتت الأميرة جميلة بنفسها لوادي السرحان وجبل ضراب، ورأت البنيان الذي يشيد ، وفرح الجند بوجودها واحتفلوا بنجاتها ، ثم ألقت خطابا فيهم ، وطلبت منهم عدم قتل أي لص يقع بين أيديهم قبل أن تراه ويعرض عليها ، وأن ربيب الغضبان زوابع شخص مطلوب للملك ، ويريده الملك حيا ، ولم تكشف لهم سر اهتمام الملك بشخص زوابع ، وهم فعلوا ذلك خوفا على حياته من غدر اللصوص والمجرمين .

ولما علم زوابع النزيل في الغابة من جواسيسه وعيونه في وادي السرحان ومن أهالي القرى التي تبيع بقولها ولبنها لجنود الملك قيس أنه طليب الملك قيس أدرك وزاد تأكده أن الملك قد عرف دوره الكبير في المكيدة التي دبرها لخطفه أو قتله غيلة، وعجب من قصة نجاة الأميرة التي قلب الدروب باحثا عنها يومذاك ، وقد انطلق يبحث عنها مع رجاله بعدما فشل في اللحاق بها ومطاردتها راكبة الجواد المتمرد ، وعجب من رغبة الملك والأميرة ببقائه حيا ويقول لنفسه : ماذا يعدون لي من الانتقام والعذاب ؟؟

وكان زوابع قد سمح لمن شاء من رجاله بالانفكاك والعودة لبلادهم ومدنهم أو أي قرى بسلام فلم يبـق حوله الكثير ، ونزل الكثير من رجاله القرى ، وقنعوا بحياة الفلاحين والبسطاء ، وأما زوابع فلما وصلته رغبة الملك والأميرة بالحفاظ على حياته قال لريحان : أريد أن ألتقي بهذه الأميرة يا ريحان .. أريد أن أعرف لماذا يريدون لي الحياة ؟!

فيقول ريحان بقلق : أنسيت ماذا فعلت بها عندما أطعمنا الجواد ورد العشب المثير والمهيج ؟ وكيف هرب بها الجواد ونبذها في الصحراء بعد مسير مخيف؟! .. إنها راغبة بالانتقام والثأر

فقال زوابع ضجرا: مللت النوم والكسل منذ هجرنا الجبل ضعف نشاطنا وحركتنا .. أفكر بلقاء الأميرة لترى من أنا، لن أغدر بها، ولن أمسها بسوء ، فقط سأثبت لها أنني أستطيع النيل منها ومن أبيها ، وأنني لا أخشاهم ، وإن كان في ذلك غرور يا ريحان .

فحاول رجاله ثنيه عن هذه المقابلة والمغامرة ؛ ولكن زوابع كما عرفناه يحب الطيش والمغامرات فقد سرق ورد ، وغزا مدينة أبي كبشة وسرق خزائنه ، وغزا كثيرا من المدن والبلاد ، وكاد يفتك بالملك قيس دون رهبة ووجل ، فلما علم أن الأميرة أتت واد السرحان للقبض عليه حيا ومقابلته ، فكر بلقائها وتحديها والاجتماع بها ثم الهرب ، فقال لرجاله : سوف أفكر بحيلة ألقى بها هذه الأميرة المدعوة جميلة ؛ لتعرف من هو الأمير زوابع ؟ أمير فرسان الجبل ، لا تخشوا شيئا على أنفسكم ، ها نحن لنا أكثر من سنة نيام .

بعد أيام يسيرة كان زوابع يضع خطة وحيلة للقاء الأميرة جميلة، وليعرف منها سبب حقدها عليه ورغبتها بلقائه ، وهو الفارس الصنديد ، فطلب من أحد رجاله الذين يترددون على جبل السرحان بصفة فلاحين يبيعون فواكههم وخضارهم للجنود أن يهمس للأميرة بأنه يعرف وكر ومقام زوابع.. واتخذ زوابع وكرا قريبا من جبل السرحان، وفعلا استطاع العين الفلاح العجوز أن يسر للأميرة بسره ، فتمعنت الأميرة بكلامه الخطير وقالت : أحقا أنك تعرف مكان اختفاء زوابع ورجاله ؟!

فقال الفلاح بثبات : أجل يا مولاتي ! إنهم يختفون بكهوف قريبة من قريتنا ، وذات مرة اعترضوني وسألوني عن أخبار الجبل وبناء القلعة ، فسمعت أحدهم – وقد ذكر اسم زوابع بينهم – يقول لآخر : إنه فلاح يبيع ثماره لجنود الملك قيس ، فاخلوا سبيلي ، ولما علمت أنك مهتمة به أحببت أن أسر لك هذا السر من غير أن يعرف أحد أنني كشفت لك سرهم وإلا أهلكوني كما تعلمين ، فهؤلاء قوم لا رحمة ولا شفقة في قلوبهم على بني الإنسان ، ولولا

حاجتهم لبضاعتنا لمابقوا علينا أحياء لليوم .

وأخذ يصف لها المكان الذي يختفون فيه ، فشكرته ووعدته بالجزاء الأوفى ، وقالت : استمر في عملك وبيعك وترددك علينا حتى أفكر بطريقة نصل إليه يا قمريني .

ولما انصرف الفلاح المدعو قمريني ، وركب حماره متظاهرا أنه كان يبيع الأميرة بعض الفواكه الجميلة والطيبة ، سعت الأميرة إلى الأمير صقر وتحدثت معه بشأن زوابع والفلاح .

فقال الأمير : هؤلاء الفلاحون لا يطمئن المرء إلى كلامهم كثيرا ، فهم يعملون مع جميع الأطراف ، ونحن لا نثق بهم كثيرا ، فهم يزرعون البساتين ويقطفون ثمارها لبيعها لنا ، وقد كانوا يبيعونها قبل مجيئنا لرجال الجبل ، وقد ابقوا على حياتهم لحاجتهم لهم ولزروعهم .. فهم يبيعون الزرع ويقبضون قطع المال ، والحذر من تعاونهم مع اللصوص مطلوب أيتها الأميرة

فقالت الأميرة : أنت تعلم أيها الأمير القائد أنني أريد مقابلة الأمير سيف أو زوابع فحتى لو كانت مكيدة منه ؛ فأنا أتيت ساعية للقائه ..

فقال : ولكننا نخشى على حياتك من لحظة غدر وخيانة .

فقالت بثقة وحماس : أنا إذا وصلت لـزوابع أرى أن الأمر انتهى ، فقد تقابلنا قديما في غابة بلاد الرايات – القصة التي تذكرها يوم سرقة الفرس – ولكن أخشى أن أقابل غيره فلذلك سأقبل المسير مع الفلاح لأعرف المكان ، وسيسير خلفي مائة فارس يجب أن لا أغيب عن ناظرهم ، وسيرافقني أيها القائد الكبير أشجع فرسانك ..

فقال : سأختار لك أشجع فرساننا ليرافقك ، ويتبعكم مائه أسرع من الطير في الخافقين ، وسيتبع المائة مئات ، فعسى أن نلتقي بأخيك أيتها الشجاعة ، ولولا ثقة الملك بشجاعتك لما أرسلك إلى هذا المكان المرعب البعيد عن العمران والمدن .

بعد حين أرسلت الأميرة للفلاح قمريني متظاهرة أنها ترغب بشراء ما يحمل من الفواكه ، ولما خلا المكان قالت : أنت حدثتني قبل أيام أنك تعرف مكان اختباء زوابع ورجاله ؛ ليفسدوا في الأرض، كم نحتاج من الوقت للوصول إلى مكانهم ؟

فكر قمريني قليلا وقال : نصف نهار على الأكثر .

فقالت : ألا تخشى أن يروك وأنت معنا ستذهب حملة معك ؟!.

فقال : أنا لن أذهب معك يا مولاتي الأميرة ! سأدلك على المكان ، وأهرب إلى قريتي ، والأفضل أن يذهب عدد قليل من الفرسان ؛ لأنهم إذا شعروا وأحسوا بكم سيختفون ولا يعترضونكم فهؤلاء اللصوص يخافون من الكثرة والجنود

فتظاهرت جميلة بأنها اقتنعت بكلامه وحرصه فقالت بدهاء : سأسير أنا وأحد الفرسان ؛ لنعرف المكان ، ثم نرتب لهم كمينا فيها بعد .. أليس هذا جميلا ؟!

فقال الفلاح بحماس : هذا عين الصواب ! وعندما نقترب من الوادي الذي يختفون فيه سأرشدكم وأختفي أيتها الأميرة ! وخذوا حذركم ، وعندما تفوزين وتتحققين من القبض على زوابع أرجو ألا تنسوا مكافأتي .

فتبسمت الأميرة وقالت : أبشر أيها الشهم .. الآن انصرف ، وعندما تأتي في المرة القادمة سأشترى بضاعتك ونتحرك سريعا .

وبعد أيام أتى قمريني ، فأخذت الأميرة منه الثمار وسارت معه ، وكانت على جوادها ، وهو على ظهر حماره ، ورافقها الفارس غالب ، ولما ابتعدوا سار خلفهم الفرسان المائة بخفة الطير وعلى شكل جماعات ، وكانت بينهم مسافة معقولة ، واستمر السير حتى دخلوا وادي النهر ، ثم صعدوا صعودا مرهقا ، وهناك أشار قمريني إلى صفحة جبل ومغارات يختفي فيها رجال زوابع ، ثم تابع ابتعاده وهربه عن المكان ، وهبطت الأميرة إلى أحد الوديان نحو المكان الذي أشار إليه البائع العجوز ، وبينما هم يقتربون من المكان المشار إليه ظهر عدد من الفرسان على خيولهم ، وبعد حين أحاطوا بالأميرة والفارس غالب اللذين أوقفا جواديهما متظاهرين أنهما متفاجآن ، ولما اقترب الفارس زوابع من الأميرة وراءها عرفها وتذكرها ، فأصابته الدهشة فصاح دهشا : أنتِ .. أنتِ ؟! فتاة الغابة !.. إنك لبوءة لقد رأيتك ذاك اليوم الذي لا ينسى ! أشار زوابع إلى رجاله العشرة بالنزول عن خيولهم وتقديم التحية للأميرة وفعل مثلهم ثم قال

: أيتها الأميرة .. أتذكرين يوم الغابة ؟! .. إنه يوم لا أنساه ! لقد شاهدتك والبنات تصرعن رجالنا ببارقة السيف ، فأكبرت شجاعتكن ، ولم أكن أعلم أنك أميرة أو أميرات ، وكنت في عجلة من أمري .. أتذكرين عندما قلت لك إننا لصوص ومجرمون ؟! فلا تسألن عنا ، ولم أذكر لكنّ اسمي رغم مناشدتكن لي بذلك ذلك اليوم .. فأنا الفارس اللص أمير فرسان الجبل زوابع، أمير الملك الغضبان– لعنه الله – ملك اللصوص وقطاع السبل ، أنا زوابع الذي ترغبين بلقائه حيا ؛ فأنا جئت ودبرت ذلك ؛ لأراك وأسمع الغاية من اللقاء بي .

قالت بثبات وهي ترسم على وجهها ابتسامة : أعرف أن قمريني جاسوس لكم.. وأنا جئت وأنا متأكدة أن في الأمر مكيدة وحيلة ؛ ولكني أنا فعلا بحاجة إلى لقائك .. أنظر ها هم فرساننا يا أميرزوابع قد ظهروا ؛ ولكن اطمئن ، نحن لا نريد رأسك ، ولا جسدك ، فرأسك ثمين لدينا نحن نريدك حيا لأن أمرك يهمنا ، وحياتك تهمنا رغم سرقتك للفرس ورد ، ورغم محاولتكم قتل مولانا الملك

فهمس زوابع متعجبا : إنك أشجع من رأيت أيتها الأميرة ! وإنك أذكى امرأة تمر بي ! وأنا كنت مدركا أن حيلتي لن تنطلي عليك ؛ ولكنني ظننت الغفلة قد تكون فيك ، ولا يكاد يخلو بشر من غفلة ، والآن وقبل نشوب المعركة ، ربما تكون الأخيرة في حياة زوابع ، أريد أن أعرف لماذا تريدون لقائي وحياتي؟!

نزلت الأميرة عن جوادها ، ولم تسحب سيفها من غمده وقرابه ، واقتربت من زوابع الذي احمر وجهه من الخجل فأعاد السيف إلى غمده ، وقال مرة أخرى وبعدم مبالاة : لماذا تريدونني حيا هل لأنني حاولت خطف الملك والدك ؟! ترغبون بتعذيبي ؟!

فقالت الأميرة وهي تقف أمامه وتحد النظر في عينيه : لا .. نحن نريدك حيا ؛ لأننا عرفنا سرك الخفي ، عرفنا أمك وأباك ..

فهتف دهشا : أمي .. وأبي !! أنتم تعرفون أمي وأبي ؟!

فقالت بشفقة وحنان : أجل أيها البطل !.. نحن نريدك ؛ لأن لنا أكثر من عشرين سنة نبحث

عنك .. ألا تريد أن تعرف أمك وأباك ؟

فكان الفارس مضطربا ، وهو يحدق النظر في الفتاة التي تتحدث معه بثبات وقوة أعصاب وعطف ، وهو الفارس الشجاع يرتجف أمام أنبائها وعاد يقول : تعرفون أمي وأبي ؟! .. أمي حية وأبي حي !.. لم تعد أعصابي تطيق وتحتمل أيتها الأميرة تكلمي بالله تكلمي ؟!.. إني أتمنى الموت على أن يكون بعد رؤيتها ولو لحظات .

فقالت : أحق ما تقول ؟

فقال : كدت أن أقتل الغضبان من أجل أن أعرف أمي وأبي ، وهو يدرك أنني في أي لحظة أعرف أسرتي التي سرقني منها سأضع خنجري في صدره .. أنت تعرفين أسرتي ؟.. ارحميني أيتها الأميرة .

فقالت : أحقا تحب أمك وأباك ؟ .. هل تعلم أن أباك هو من أردت قتله ؟ وأن أمك هي من سرقت أموالها ؟ فأبوك الملك قيس بن خصيب ! وأمك الملكة سُلمى بنت جعد !

لم يستطع زوابع الكلام ، وأصابه ذهول أو كأنه لم يصدق ، فهبط على الأرض ووضع رأسه بين يديه صامتا محدقا في الأرض ، فسمع الأميرة تقول : نحن عرفنا ذلك منذ عهد قريب من رجل ساعد في خطفك من قصر أمك وأبيك في مدينة سُلمى .

نظر إليها وقال : أنت إذن أختي ! أنت إذن أختي!

فقالت وقد طفر الدمع من عينها : انهض ..أنا أختك جميلة ابنة الملك قيس .

فصاح بصوت كالرعد : رباه !! رباه !! أنا ابن الملك قيس ! وخفض صوته وقال : آه !! أدركت الآن لماذا كان اللعين يدفعني لقتل الملك قيس أو يقتلني الملك إذا سقطت بين يديه ؟! يا لله ! إنه انتقام رهيب مرعب ! وقد دفعني لسرقة بلاد أبي كبشة .. اللعين قتلني ألف قتلة! أختاه !.

وفتح ذراعيه واحتضن أخته ، وأخذا يمسحان دموع بعضهما ، وهما يبكيان ، وكان فرسان الأمير صقر في دهشة من هذا الاحتضان ، وكذلك رجال زوابع ؛ فإذا صقر الأمير على رأس

الجند يهتف ليزيل الاستغراب واللبس : إنهما أخوان !! .. هذا ابن مليككم المفقود أيها الناس! فأجهش الجميع بالبكاء والشهيق والزفير لهذا اللقاء ، والأمير زوابع قد أصبح الأمير سيف الزمان، وقد استمع الحكاية حكاية خطفه ونقله إلى جبل السرحان ، وأمر الأمير صقر رجال زوابع بالالتحاق والمسير لجبل السرحان ، وأن الملك سوف يعفو عنهم جميعهم ويلحقهم بفرسان المدينة ، فأخذ الفرسان يعانقون الأمير صقر ويشكرونه ، وهم مندهشون لما آل إليه أمرهم من رجال فارين خائفين إلى رجال آمنين مطمئنين ، سار الأمير سيف معهم نحو الجبل وهو يكاد يطير من الفرح والسعادة ويقول بشوق ولهفة : متى أعانق أمي ؟ متى أقبل أبي ؟! .. متى أرى عبسان ؟ إنني أذكره .. لقد كان من رجال الغضبان من المقربين ؛ ولكنه اختفى فجأة وظننا أنه قتل أو مات ..

غزالة

كانت غزالة زوج الملك بهراما تـجلس في قصرها على فراش النعام والحرير ، وحولها إخوتها وعمها كلب الليل وأعمامها الآخرين ، عندما دخل عليهم الغلام ومخبرا لهم أن رسولا من أبي هند يقف بالباب ، ويرغب بالمثول بين أيديهم ، فأشارت للغلام بطرف حواجبها أن يدخله ، فدخل رجل شرس المحيا كثيف الشعر مخيف الهيئة ؛ كأنه لم يدخل حماما منذ سنة ، فألقى التحية باستعلاء وقال : أنا رسول الملك أبي هند إليكم ، وقد أتيتكم بخبر عظيم !

فقالت غزالة وهي ترمقه بسخط : اهدأ أيها النحس قبل أن تتفوه بالخبر العظيم .

فظل الرجل بانفعاله الظاهر عليه واستعلائه وقال : لقد جئتكم بخبر عظيم عن الأمير زوابع ربيب والدكم الغضبان !

فقطعت غزالة الكلام وقالت هازئة من اسم المذكور: هل قتل؟ هل أتيت تنعيه لنا يا رسول الشر ؟!

فقال الرسول باستهزاء وسخرية : لم يقتل .. أيها السادة ؟!

فقال كلب الليل ساخرا هو الآخر : إذا لم تأت بنبأ موته ، فما هو الخبر العظيم الذي بعثك به

ملكك أبو هند العجوز الميت ؟!

فقال الرسول : لقد وجد والديه!

ضحك القوم بصوت عال وقهقهوا ، وصاحت غزالة ساخرة : يبدو أن أبا هند رجل مخبول ، أرسلك إلينا لتقول لنا : إن زوابع اللعين وجد أبويه .. ألا لعنة الله عليكم ما أسخفكم ! وماذا يهمنا من معرفته لوالديه ؟!

فقال الرجل وهو يهز رأسه ومنكبيه مستهزئا بهم : اسمعوا الخبر كله، ثم علقوا واسخروا بعد ذلك كما تشاءون .

فعادت غزالة للشتم واللعن وقالت : ويلك من رسول تعس ! هل بـقي شيء من الخبر؟

فصاح الرسول والسخرية بين شفتيه وقال : ألا تريدون أن تعلموا من هم والداه ؟ .. ولم ينتظر الجواب ، فتابع قائلا : فأبوه أيها السادة هو الملك قيس ملك بلاد الرايات ، وأمه الملكة سُلمى ملكة بلاد الأكباش .

ولزم الرسول السكوت ، وصدم القوم لهول النبأ وسادهم الصمت والوجوم ، وقاموا عن مساندهم وأخذوا يحدقون في عيون بعضهم بعضا ، ولما زالت دهشتهم تمتمت غزالة بخوف: ويلك ! أهذا نبأ صحيح يا رسول النحس ؟!..إن هذا خبر لا يصدق .

فقال الرسول باسما وشامتا: نعم ، تأكد لنا ذلك.. بل انضم رجاله لجيش القائد صقر بن غراب وكثير من أتباعنا يفكرون باللحاق بهم وإعلان توبتهم .

فقال كلب الليل ساهما حالما : إيه يا ابنة أخي وعل الجبل !.. إني أكاد أن أصدق أن اللعين زوابع من نسل الملوك ، فسوى جبروته وعزته الغريبة فينا ، فقد كان كثيرا ما يردد أبي بعد انصرافه من مجلسه يا ابن الملوك ! صنعتك لصا وقاتلا جبارا ، وكان يحب أن يناديه بالأمير ، أتى الأمير ، وانصرف الأمير ، وكنا نظن أنه يقصد نفسه .. فهو إذن ابن الملوك وهذا السر الذي كان زوابع يسعى لمعرفته كان يتشاجر مع الغضبان ليعرف من أين أتى به الملك الغضبان ؟.. ولكن يا رسول النحس كيف عرفتم هذه الحقائق ؟

فقال الرسول : من الفلاحين الذين يترددون على الجبل لبيع الخضر والحب ، فقد احتفل القوم بلقاء زوابع وعودته لأهله ، فحدثوا رجالنا بذلك ، وأتت أخته الأميرة جميلة وعرفته بنفسها وأهلها ، وقد ساروا نحو بلادهم للقاء الملك الكبير .

فقالت غزالة : يا قوم أصبح وضعنا في خطر ! .. فهذا الشاب كان يكرهنا أيام جدنا فكيف اليوم ؟! عندما عرف ماذا فعل به والدكم الغضبان ؟ وحرمه من حضن والديه..فأخشى أن تراوده نفسه بغزو بلاد الملك بهراما للقضاء علينا والانتقام منا ، فهو شاب حقود دموي وحش هائل متعطش للدماء والانتقام ، ويبغض الناس ، عليكم بالتزام جانب الحذر والتربص به .

فقال كلب الليل مبديا قلقه هو الآخر : معك حق يا غزالة .. فالحرب ربما تستعر بيننا ، وهو عندما يرى والديه سيعدهم برؤوسنا وبكنوز الغضبان التي سلبها من خزائن أمه سُلمى ..

فقالت غزالة : الكنوز !!.. أجل يا عماه ، سيشتد الصراع من أجلها ، ولا يعرف نفق الغضبان إلا أنت .. والجبل أصبح ملكا لهم ، وهم يشيدون قلعة للبقاء فيه للأبد .. أيها الرسول انصرف راشدا إلى صاحبك أبي هند ، وسلم سلاما دافئا عليه وعلى رجاله ، ونحن سنأخذ حذرنا .. وأفضل أن تلتحقوا بنا ، وتخضعوا لزعامة كلب الليل بدلا من رئاسة ذلك العجوز ؛ لنقاوم انتقام زوابع سوية ، فأخبره أننا بانتظاره .

فقال الرسول وهو ينصرف : سلام وإلى اللقاء .

فلما غادرهم رسول أبي هند ، قالت غزالة : إنسان على صورة وحش !.. إنه يتشبه بوحوش الفلاة .. كان يطمع بالزواج مني !



وصرفت الأميرة الصبيان والنساء من مجلسها ، ولم يبق إلا الرجال الكبار فقالت لهم متظاهرة بالجد والقلق: كنوز الغضبان الآن أصبحت في خطر ! فزوابع ورجاله يعلمون أن جدنا يخفي أمواله في مكان خفي ؛ ولكنه مكان في وادي السرحان وفي جبل الرملي .. وأنت يا عماه كما علمت منك قديما تعرف

المخبأ الخفي لتلك الكنوز ؟.

فقال كلب الليل قلقا مما تبطن غزالة: تعلمون أنني كنت أرافق أبي إلى كهف الكنوز ، وكما تعلمين لم يكن أحد يجسر على متابعتنا أو اللحوق بنا ؛ لأن ذلك يعني موته .. ولكن زوابع كان أسدا بيننا ، وهو سيعتبر نفسه صاحب هذه الأموال الكثيرة ، وسيقلب الجبل بحثا عنها ، ونحن لا نستطيع المغامرة ودخول وادي السرحان ، فكيف بقرية والدي ؟! ولا

نستطيع أن نصل إلى الكنوز إلا بالعمل المدبر المحكم أو دحر جيوش القائد صقر.. والملك بهراما زوجك النحس ، لا يرضى قومه بالحرب نيابة عنا ، وأنت رضيت بحياتك خادمة عنده ونسيت قومك ، ولم تعودي تفكرين بقضيتنا وعودتنا إلى مملكتنا المسلوبة .

فقالت بحدة معهودة فيها : ويحك يا عماه ! .. إنني أبذل كل جهد ليبقى بهراما خاتما بيدي ؛ ولكن الحرب لا تقوم في هذه المدينة إلا بموافقة مجلس الأمراء والتجار والحكماء .. وهذا لا يجب أن يمنعنا عن حماية كنوز جدنا الغضبان ، وأنت إذا عجزت عن قيادة قومنا فأعطِ أخي شدادا الزعامة واعتزل الحكم والمشورة ..

فقال بحدة : ويحك إنك تغضبينني ! .. فهل عجزت وهرمت لتتكلمي معي بمثل هذا الكلام البارد مثلك ؟! .. واحذري أن أسمعه منك ثانية ؛ فإني قاتلك دون شفقة وهوادة ورحمة .

فقالت بغضب وسخط : على هونك أيها الزعيم النائم منذ جئنا هذه البلدة !.. على هونك.. أنا أريدك أن تتحرك وتفعل شيئا قبل عودة زوابع من مقابلة أمه وأبيه .

فأجابها بغضب أيضا : لن يصل زوابع لكنز الغضبان .. ولن أضع كنز الغضبان تحت رحمة بهراما زير النساء والخمر يا ابنة أخي الشجاع !

فقال أحد الجالسين راغبا في تخفيف التوتر الذي لمع على الوجوه والعيون : يا ملك كلب ! لا داعي للشجار الآن ، نحن اليوم بحاجة للاتحاد والقوة ، لا للتفرق والتمزق ..

فقال شداد مهدئا للجلسة : وأنا يا عماه ! لا أقبل أن أصبح ملكا عليك ، إنما غزالة تهيجك للدفاع عن ثروة جدنا وميراثنا لتلك الكنوز.. فكلنا شركاء في تلك الثروة .

فقال كلب : : لستم أحرص مني عليها ، ونحن لما هربنا لم نكن بحاجة لحملها معنا ، فبقاؤها في الجبل كان خيرا للجميع وءامن ، ونحن لم نكن نعلم أن الملك قيس سيفكر بالبقاء على جبل السرحان وأن يضمه لأملاكه .. وعلينا الآن التصرف بذكاء وفطنة ، ولا يجب أن ننسى حقد زوابع علينا قبل أن يحقد على أموالنا ! فنحن أبناء الغضبان ووراثه.. فثأره عندنا ، وبغضه لنا كلنا معروف .

لما تفرق الجميع ومشوا الى معسكرهم أرسلت غزالة سرا وراء أخيها شداد ، ولما خلت به قالت : يا أخي العزيز ! كان أبوك أحق بالزعامة والملك علينا أكثر من عمك كلب ، ولكن كان عمك هو بكر الغضبان ، فكانت خفايا الملك الغضبان عنده .. وكلب رجل متردد وغير حازم ويمكنك أن تصفه بالضعف .. وزوابع هذا خطر كبير علينا وعلى أموالنا ! واعلم أن كلب لن يفعل شيئا غير الثرثرة ، ولن يكشف لنا عن موضع كنز الغضبان .. فهو لا يثق بنا ، ويظن أنه أحق الناس بأموال الغضبان .. فعليك يا ابن أمي وأبي أن ترسل قاتلا جريئا وحشا إلى بلاد الرايات ، وليس له هدف إلا الفتك بـزوابع .. وإذا سقط وكشف أمره عليه أن يلصق التهمة بأبي هند .. زوابع يعرف أننا منقسمون ، وأن أبا هند مستقل عن أبناء الغضبان .. ثم علينا أن نعرف مكان الكنز من عمنا كلب بأي طريقة .

فقال بقلق : هذا أمر خطير يا أخية !.. نخشى أن نتصارع فيها بيننا ويدب الشقاق والقتل بيننا فأولاد كلب لن يغفروا لنا قتل أبيهم بأي حال من الأحوال .

قالت : أنا لم أقل لك بقتله.. نحن نريد معرفة كنوز الغضبان وتقاسمها أو على الأقل نأخذ حصة أبينا وعل الجبل سيد الأبطال في وادي السرحان . وتساقطت بعض الدمعات على ذكره

وبعد صمت قال شداد : نحن تحت أمرك ، ففكري ودبري لنا وعلينا نحن التنفيذ

فقالت بقوة : عليكم بالضغط القوي على عمك ، وتحريض الرجال على ذلك حتى يرشدكم للكنوز الدفينة من عشرات السنين ، ولا يبقى وحده حافظا ومالكا لها .. اذهب الآن .

وخرج شداد وهو حائر بأقوال أخته غزالة متضعضع الفكر ، ولماذا هي خائفة على الكنوز ؟!

وهي زوجة الملك بهراما ، ولديها كنوز المدينة كلها ، فذهب شداد إلى عمه كلب وصارحه بكلام غزالة ، وأنها أصبحت تشكل خطرا وجشعا على القبيلة ، فقال كلب بغضب : لقد جنت أختك ألا تشبع من الذهب والفضة ؟!.. إنها تفكر بالخلاص مني .. أشكرك يا شداد على حبك لي ، ونفذ أمرها في إرسال رجل للفتك بـزوابع.. نفذ ذلك ، واحذروا الفشل ؛ فإن حقد زوابع سيكبر ويتضخم ، إن كان في قلبه بعض الرحمة علينا ؛ فإن فشلنا ستزول هذه الشفقة والرحمة وأمر الكنز سأدبره ، وأقول لكم عن موضعه.. أو أكشف السر للبعض قاتلك الله يا غزالة تسعين لدمارنا وهلاكنا وامتلاك أموالنا .

أراد شداد أن يلعب على الحبلين كما يقال ، أن يكسب غزالة المستأسدة بزوجها الملك ، ولا يخسر عمه كلبا ، فهو يعرف بأس كلب وغضب كلب ، فأما غزالة فغرورها وتسرعها ونزقها لا يسمحون لها بالتفكير السليم الناضج .. وقد جرى اجتماع آخر للضغط على كلب ولكشف السر .. ولما أصر على عدم ذكر مكان الكنز ، فاشتد غضب غزالة عليه وهددته بالموت علنا وبدون مواربة .

فقال وهو يكظم ثورته : حسنا يا ابنة أخي ! فقبل أن تقتليني أمهليني يومين أو ثلاثة حتى أحسم أمري في ضغطكم عليّ ، سأتجاوز عن تهديدك أيتها اللعينة ؛ لأجل العائلة والقبيلة .

سرت غزالة لهدوء عمها ، وتظاهرت بالأسف والانفعال وقالت : فكر عشرة أيام .. فنحن شركاء في أموال جدنا الملك ، وليست هي ملك لك وحدك ، فوعل الجبل ابن أبيك يا عماه .

فرد كلب ساخرا : أنت لا تشبعين ، وهذه الجواهر التي تملأ عنقك ممن يا غزالة ؟! .. واعلمي أن قتلي والغدر بي سيبعدكم عن الكنز إلى الأبد ..

فقالت : يا عماه ! نحن لن نقتلك ، هي هفوة لسان خرجت من فمي في لحظة غضب وتسرع ، أنت تعرف اندفاعي وتسرعي ..إنما نحن نريد حصة والدنا القتيل ، ولا يجب أن يبقى السر عندك وحدك .. فأخي شداد أهل إلى أن يعرف السر فالموت يُقبل فجأة ..

فصاح قائلا وهو ينهض للأنصراف : حسنا .. حسنا يا ابنة أخي ! أيام وأحسم هذا الأمر الذي

شغل بالك منذ أيام ، وداعا أيها الرجال .

وأظهر كلب الاعتكاف في خيمته ، ولم يسمح إلا لغلام خادم واحد يدخل عليه بالطعام .. بل يضعه على باب الخيمة ويبتعد ، ولما اقتربت نهاية الأيام العشرة – المهلة التي منحتها غزالة لعمها بالتفكير – أرسل كلب قبل اليوم الأخير الغلام الخادم للخيمة لغزالة يطلب منها جمع الرجال ؛ ليكشف لهم مكان دفن وإخفاء أموال الغضبان .. فسرت غزالة لذلك ، وأمرت كبار قومها بالاجتماع مساء الغد ، ولما اجتمعوا تأخر كلب عن الحضور ، وطال انتظاره وتأخره ، فأرسلت إليه شداد يستعجله ، ولما دخل الخيمة لم يجده فيها ، فسأل عنه ، فأنكر الحضور رؤيته منذ دخل الخيمة ، فعاد شداد إلى أخته وأخبرها باختفاء كلب ، فأرسلت وراء الغلام الذي كان يمده بالزاد فقال لها : إنه لم يكن يسمح له بالدخول إلى جوف الخيمة ، إنما يأمره بوضعه أمام الخيمة ويبتعد ..

وهذا الغلام كان من جواسيس غزالة ، فقد أهدته لعمها منذ تزوجت بالملك بهراما ، وكان كلب قد أخبر أولاده الكبار الثلاثة بأنه سيختفي إلى حين ، وطلب من أحدهم أن ينوب عنه في الخيمة ويمثل أنه كلب ، وغادر كلب ليلا وخفية معسكر اللصوص ، ولما تأكدت غزالة من هربه وخدعته لها قتلت الغلام من الغضب ، معتقدة أنه متواطئ مع عمها، وقد خانها رغم خدماته الكثيرة لها خلال الأيام الماضيات ، وكلفت أخاها شدادا بمنع هرب أي شخص من أبناء كلب ، بل طلبت من بهراما أن يحبسهم ففعل ، وظهر الغضب والضيق في عشيرة غزالة من فعلها اللئيم ، بل شداد نفسه لامها على هذا التصرف الأحمق ، وزجرها وتوعدها وهاجمها بشدة ، فغضبت عليه هو الآخر ، وأمرت حرسها بأن يضعوه في السجن مع أبناء عمه ، وأرسلت الجند يحرسون معسكر عشيرتها وأتباعهم ، وبمنعهم من الرحيل والهرب، ولنترك غزالة وقومها في صراعهم حول أموال الملك الغضبان .

لقد غمرت الأفراح بلاد الرايات والأكباش مرة أخرى بعودة الولد الضائع منذ ما يزيد عن ربع قرن من الزمان ، ولما تمت أيام الأفراح طلب الملك قيس من ولده سيف الزمان بأن يجلس

مع حكماء البلاد سنة من الزمان ؛ ليتعلم القراءة والآداب والحكمة والشعر ، فوافق الشاب على ذلك ؛ ومع ذلك لم يستطع الصمود أكثر من أشهر ثلاثة ، فقد أرسل حكيم المدينة مدرسا على القصر يلقى على مسامعه الدروس في الحكمة والآداب والشعر ، وكان الفارس يقضي أكثر وقته مع أخته الأميرة جميلة، ويسيران معا للصيد ويتبارزان سوية ، وذات مرة عرضت عليه الأميرة الزواج من إحدى بنات الأمراء ، فقال باسما : يا أختاه ! لا أفكر بالزواج بعد..



فهناك دين بيني وبين كلب الليل، فأموال أخي مرعي لم تعد بعد ، وقد وعدت أبي بالبحث عنها ولكن الملك أمرني بالصبر والانتظار حتى يتم بناء القلعة ، فعندئذ سيسمح لي بالبحث عن كنوز الغضبان ، ولكني أخشى يا أميرة الدنيا أن يسبقنا كلب وغزالة إليها ، فهي قد أوقعت الملك بهراما في غرامها ونكحها ، ولا يرفض لها أمرا ، وكاد أن يشعل حربا بين بلده وبلدنا لولا رفض مجلس الحكم في بلده الحرب الخارجية ، ولا يعلم دفائن الغضبان سوى كلب ابنه .. لم نكن نهتم بذلك ، ونكترث لذلك ، فكل كان يأخذ نصيبه .. ولما تركنا الجبل كنا نظن أننا سوف نعود إليه قريبا كما حدث في الماضي القديم ، وذلك بعد انسحاب الجيش .. فكثير من رجال العصابات تركوا أموالهم دفينة في رؤوس الجبال والكهوف .

فقالت : يا أخي الشجاع .. أتريد أن تظل بدون امرأة حتى يتم بناء القلعة والحصن .. فابنة الأمير صقر فتاة رائعة الحسن وفطنة ، وهي ابنة صديق أبيك الأمير صقر ..

فقال ضاحكا : لقد رأيتها أكثر من مرة بصحبتك وفي سهرات القصر ، ولا أدري لماذا ليس عندي ميل للحسناوات لليوم ؟! فكأن قسوة الجبل وخشونة الحياة أضعفت رغبتي نحو النساء أو أنني لم اصطدم بالمرأة الفاتنة الجذابة ..

قالت : صدق لو تجلس مرة واحدة مع ابنة الأمير ؛ لسوف تترنح غراما ، وهي بها إعجاب بشخصك القوي وشبابك الحيوي .

فقال : صبرا يا أختاه !.. ما رأيك بالسفر إلى بلاد أخي مرعي الملك ؟ .. فأنا مشتاق لأمي فلي

أكثر من شهر لم أرَ وجهها وألمس حبها وحنانها .

فقالت : لا بأس بذلك .. وما رأيك بأن نصحب الأميرة عبلة معنا ؟ لعل الرحلة تغير أفكارك نحوها وتقترن بها ..

فقال: لا أفضل ذلك.. أنا أحب صحبتك أنت وحدك ، فلندخل على الملك ونستأذنه .

فدخلا على الملك قيس وبعد كلام ونصائح قال قيس : أتريد أن تهرب من دروس العلم والأدب يا ولدي ؟ .. إنما نفعل ذلك من أجلك ؛ لتكون الفارس الشجاع المتعلم ، فلربما تصبح ملكا مكاني يوما ما ، فلا يحسن بك أن تكون من أهل الجهل والسذاجة .

فقال سيف معتذرا عن ضعفه في تحصيل العلم: لقد كبر سني على التعليم يا والدي ! وعشقت الخيل والرماح ؛ ولكن سأبذل قصارى جهدي في تعلم بعض العلم ..

فقال الملك : الزواج ألا تفكر فيه ؟ .. أم أنت كأبيك في الماضي ، كان يكره فكرة الزواج والنساء حتى جرى ما تعرفه لنا .

فقالت الأميرة : إنني أحدثه كثيرا عن ذلك ، بل عرضت عليه الأميرة عبلة ابنة الأمير القائد صقر بن غراب ..

فهتف الملك مقاطعا : إي والله ، نعم البنية ، فتاة جميلة ورقيقة وشجاعة .

فرد سيف قائلا : سيدي الملك ! لست بعجلة يا أبي ، دع الأمر للخالق .

فقال الملك وهو يتذكر أباه عندما كان يضغط عليه للزواج ويرفض: كما تشاء .. فسلموا على والدتكم الملكة ، وعلى أخيكم الملك مرعي ، وعلى أولاده ، ولا تتأخروا في العودة إلينا ، وخذ معك عشرة من الجنود والحرس .

فقال سيف : لا داعي يا أبي .. سيرافقني غلامي وغلام الأميرة ، ولماذا نضع هذه السيوف على عواتقنا ؟!

فقال الملك : يد الـغدر لا ترحم يا ولدي .

فقال سيف : وماذا ينفع الحرس من يد الـغدر؟!

يد الغدر

لما اقتربسيف الزمان وأخته جميلة من مدينة سُلمى وأطلا على القصر ، قالت الأميرة وهي تشير بيده نحوه : ألا ترى هذا البنيان الجميل ؟.. من هذا القصر سرقك الغضبان وعبسان.. كان النصر في بلاد أبي كبشة ، وهنا كانت الجريمة .

فقال سيف : هنا ولدت إذن .. من هو أمير هذه المدينة اليوم؟

فقالت : على ما أظن الأمير جُبار ، وهو من رجال أبيك المخلصين ، وهو الذي ساعد أمنا كثيرا في وادي السرحان عندما خطفها ابن خالها المسمى ماجد وما هو بـماجد .

فقال سيف : سمعتك تتحدثين أنه لم يقتل في معركة الإنقاذ ، وقد نجا بريشه ثم انقطعت أخباره فقالت مفكرة متذكرة : احتار الناس في أمره ، قالت أمي : إنها لم تجده ، ولم تعثر على جثته ، واختفى أثره منذ ذاك الحين .

فقال سيف : ماجد .. الأمير ماجد ! .. لقد سمعت بهذا الاسم في الجبل ، وكان عندنا زعيم يدعى أبا الليل ، وعندما كان يحضر مجالس الزعيم الملك ، كان يرافقه في بعض الاحايين رجل أسمع القوم يقولون: أتى أبو الليل والأمير ماجد ، ولكنني يومذاك لم أكن أكترث للأسماء ، ولا اعيرها أي اهتمام ، ولما أصبحت فارسا من فرسان وادي السرحان لم أعد أراه أو أسمع به ، وبالأصح عندما هلك أبو الليل، وترأس ابنه جماعته لم نعد نرى ماجد في مجلس حكم رجال الجبل .. فلقد كان لهم ديوان كبير في قرية الغضبان يجتمعون فيه ويتدبرون فيه شأن الجبل أيتها الحسناء الشجاعة.. أي معلومات مهمة عن ماجد هذا أستطيع معرفتها من نائب الملك أبي هند لو أني أراه وألقاه سيدلني على ماجد هذا ومصيره ، حتى اليوم لا أدري هل سار رجاله اليوم مع غزالة وعمها كلب أم ظل وحده مع رجاله ؟ .. فنحن انقسمنا ثلاث فرق ، طائفة مع غزالة وكلب ، وطائفة مع أبي هند ، والآخرون معي ، والقليل انصرفوا لقراهم ومدنهم .. فأكثر هؤلاء اللصوص يأوون للجبل ؛ لأنهم هربوا من أوطانهم لارتكابهم جرائم قتل ، فيجدون في الجبل الحماية والرعاية وكل شيء لابد لي من زيارة وادي السرحان .

فقالت الأميرة : لا داعي للقاء أبي هند هذا ، ولا يهمنا مصير الأمير ماجد بعد كل هذه السنوات
فقال سيف : أليس هو سبب مآسينا وتعرف أمنا على الغضبان وعرقلة زواجها من أبي الملك ؟
فقالت : بل ظنوا لأول الأمر أن الأمير ماجد هو خاطفك ، وأنه كان قد دبر المكيدة قبل سقوط المدينة بأيدي فرسان الملك قيس ، ولم يخطر في بالهم الجبل ورجال الجبل .

ولما علم أمير مدينة سُلمى بوصول الأميرين خرج بنفسه يرحب بهم ويستقبلهم ، وأولم لهم الطعام وأمضى الأميران ليلة في ضيافة الأمير جُبار، وجلسوا في حدائق القصر يستمتعون بما فيها من الأشجار والأزهار والمياه ، وكان جل حديثهم عن وادي السرحان وضياع الأمير الصغير سيف ، ومع إشراقة الشمس استأذن الأخوان بمتابعة الرحيل والمسير لزيارة والدتهم وأهليهم في الأكباش ، ولما ابتعدوا عن المدينة بيومين شعر سيف الزمان بأنه متبوع ، فتنبهت أعصابه للقتال والدفاع عن نفسه وأخته وصارحها بذلك فقالت : أنا أحسست بذلك منذ فارقنا بلادنا ، علينا بلزوم الحذر، واعلم أن الذين يتبعوننا ثلاثة ملثمين ، ولم يبق للوصول إلا يومان ؛ فإذا كانوا يقصدوننا فسيتحركون ويمكرون بنا قريبا قبل دخولنا المدينة .

فرتب الأميران حيلة لكشف هوية متتبعيهم ، واختارا المكان المناسب لتنفيذ ذلك ، فقرب شجرة نزل الأميران والخادمان ، وخلعوا بعض ثيابهم ، وعلقوها بالشجرة ، وربطوا الخيل بالشجرة ، وصنع لهم الغلامان الطعام فأكلوا ، وجلسا تحت شجرة أخرى للنوم والراحة ، ثم وقفت جميلة بعد حين يسير على تل وحدها حتى ملأ الظلام المكان ، فانسحبت إلى غار صغير توارت فيه ، كان سيف ينتظرها فيه ، وأما الرجال الثلاثة المتعقبون القوم فلما اختفى جسد الأميرة تقدموا مشيا على الأقدام نحوهم ، فلما لمحوا الخيل قرب الشجرة ، ولمحوا الثياب المعلقة وكُومتين من الرمال المتمدد على الأرض عليهما عباءاتان يظنهما الرائي جسدين راقدين ظنوا أن الأميرين قد ناما ، فرقدوا ساعة من الزمان حتى اشتد الليل والحلكة ، وكان سيف وجميلة يتابعونهم من الغار ، فشاهدا رجلين يتقدمان نحو الشجرة ، والثالث تأخر ومعه الخيل ولما وصلا الشجرة شرعا خناجرهما وانقضا على الجسدين الرملين الوهميين ، ولما لم يسمعا صوتا

أو صراخا أو يريا دما رفسا الثياب ؛ فإذا هي مخفية أكوام من التراب ، فتطلعا حولهما فشاهدا سيفا وجميلة والغلامين ، وهم مشرعون سيوفهم ، فهجما عليهما بسرعة ؛ ولكن ماذا يفعل خنجر مع سيف ؟ فسقطا ميتين على الأرض ، وقفز سيف على جواده وانطلق سريعا خلف الرجل الثالث ، ولم تطل المسابقة ، فنزل الفارّ عن جواده وطلب العفو والصفح ، فساقه سيف حيث أخته والغلامان ، وكان الغلامان قد أشعلا النار في المكان ، ولما شاهد سيف وجوه القتلى قال للرجل الأسير : إنكم من رجال الجبل ووادي السرحان ؟! .. لا ينجيك أيها اللعين إلا الصدق .. من أرسلكم ورائي يا قتلة؟!

رد الرجل المرعوب : الأمان يا سيد الفرسان ! .. سأقول لكم كل شيء .. أبو هند يريد رأسك ونحن ننفذ أمره .

لم يرد سيف بل لزم الصمت حينا من الزمن ثم قال : أبو هند يريد رأسي ؟! .. وماذا بيني وبينه اللعين ؟ .. إنني لا أصدقك إنك تكذب .. ولماذا يريد أبو هند رأسي ؟!

فقال الرجل وهو يرجف : لا أدري ، ولكن أظن أن الأمر يتعلق بكنز الغضبان .. فهم خائفون على كنوزهم منك ومن رجالك .

فقال سيف بحدة وقوة وهو يضع طرف السيف على عنق الرجل وينخزه به : والذي خلقك إنك من رجال غزالة ، ولست من رجال أبي هند !.. صاحب الكنوز هو الغضبان اللعين ، وليس أبو هند إني قاتلك كصاحبيك إن لم تصدقني الحديث .

فقال الرجل وهو يلتفت نحو الفتاة ويبعد السيف عن عنقه: أنا دخيل عليك أيتها الأميرة ! أنا فعلا من رجال غزالة زوجة الملك بهراما .. سأقص عليكم الأمر .

وحدثهم عن صراع غزالة وكلب ، وهرب كلب من معسكرهم في بلاد بهراما ، وهم خائفون من ضياع الكنوز وأموال الغضبان على يديك ، فكلفتني الملكة وهؤلاء الرجال بالقضاء عليك وإذا وقعنا بين يديك أن نتهم أبا هند .

فقالت الأميرة بعد اعتراف الرجل : هذا هو الحق يا سيف ! فاعفو عن حياته ، ثم ليمشِ لأميرته

وملكته ويخبرها بمقتل رجليها ، وأن كنوز الغضبان لسوف يتم إخراجها رغم أنف الجميع .

فركب الرجل الجواد وانطلق هاربا يسابق الريح ، ويحمد الله بأن كتبت له الحياة ، بل فكر بعدم العودة للأميرة غزالة ، وأن يهيم في الأرض ، ويختفي في هذه الدنيا الواسعة ، وتابع الأميران والغلمان المسير بعدما واروا الجثتين ، وأمر سيف الغلامين أن يسوقا الخيل خيل القتيلين نحو بلاد الأكباش.

غمر وعم الفرح قصر الملك مرعي بمجيء أخويه سيف الزمان وجميلة ، وأقبل كل الأمراء والسادة للسلام والترحيب بهم ، وسعد القوم بوجودهم بينهم وزيارتهم ، ولما انتهى الاحتفاء بهم قالت الملكة سُلمى لولدها البكر يوما : كان أفرح يوم عندنا أنا وأبوك يوم مولدك ! آه ! كم فرح جدك خصيب ! وكم ذبح من النوق والخراف ؟! كاد أبوك أن يطير من السعادة والفرح ، لقد كنت الابن البكر الابن الموعود .. كان القوم يخشون أن لا ينجب أبوك لما حدث مع عمك الأصغر سعيد من عدم الانجاب ولـتأخر والدك في الزواج .

وأخذت الملكة تتحدث عن تلك الذكريات ، والأبناء يسمعون كلامها بشغف وحب ، ولما أنهت الملكة حديث المولود الأول والذكريات قالت : وأنت اليوم ترفض الزواج كما علمنا من أختك الحبيبة جميلة ، وها أنت تؤثر عليها لترفض هي الأخرى عروسا باسلا .

فقال ضاحكا: أوجدت عروسا لأختي الجوهرة ؟..إيه من هو الرجل الذي يليق بها ؟! .. إنك يا أمي أنجبت لبؤة مثلك !

فقال مرعي باسما : هي ابنة من يا أخي ؟ أمها الملكة سُلمى ووالدها الملك قيس بن خصيب !

وقالت جميلة مجارية لهم : وأخشى أنا أن لا أصلح للحياة مع الرجال ! فيكون زوجي معي مظلوما..

فقالت الملكة : بل أنت أرق من النسيم ، وأحلى من السكر رغم بسالتك وفروسيتك.. أبوك يحب الفروسية ، وأراد أن يكون الأبناء الذكور والإناث فرسانا وشجاعا .. وهذا لا يعيب المرأة عندنا ؛ فأنا مثلك يا جميلة لقد عشقت الخيل والسيف والرمح والصيد .

فقال الملك مرعي : وهل ينكر أحد شجاعتك يا أماه ؟! فيكفي أنك عشت في وادي السرحان مع عتاة المجرمين - وكأنه تذكر حياة سيف معهم ـ لا تغضب مني يا سيف .

تبسم سيف وقال : أبدا يا ابن أمي وأبي ، صحيح أن رجال الجبل قساة ؛ ولكنهم جبناء يتظاهرون بالشجاعة ، وهم كالضباع عندما تنفرد بفريسة ما ، وإذا وجدوا

ندا هربوا وغدروا ..لم تذكر لنا أمنا الملكة الزوج الذي اختارته لعزيزتنا جميلة؟

فقال الملك : أتدري يا سيف الزمان لو أنك لم تخطف لكنت الآن تجلس مكاني على عرش هذه البلاد ؟! .. فما رأيك أن أخلع نفسي وننصبك ملكا ؟ .

ضحك سيف وقال : هذا قدرك ونصيبك ، ولست حاسدا لك ، وأنا قد طاب لي العيش في بلاد الرايات ، وقد أكون الملك بعد حياة أبي الطويلة- إن شاء الله - هناك .. فلست طامعا بعرش أو ملك يا أبا قيس .

أثنى جميع السامعين على الأمير سيف ومرؤته ، وعانقته أمه مرة أخرى ، فهمس أثناء ذلك في أذنها : أخبرينا عن العروس الذي اخترتيه لأختنا العزيزة ؟

فهمست قائلة : أختك رفضت ، فلا داعي لذكره ولكن ..

فقال : ولكن ماذا ؟!

فقالت : اعلم أن له أختا بديعة الحسن ، وهي مضرب المثل في الحسن والجمال والكمال في بلادنا هذه .

والتفتت إلى الملك وقالت : يا ولدي ! .. ما رأيك بأن نزوج سيف الزمان بالأميرة حسناء بنت الأمير ضارب بن غانم ؟

فقال الملك مرعي مستبشرا : والله إن ذلك من حسن الطالع ! .. فهي الجمال العجيب في بلادنا، فكثير من الشعراء يمدحون جمالها وعذوبتها وأدبها يا سيف ! ولا أظن أن والدها يرفض سيف بن الملك قيس .

فقالت جميلة كأنها معترضة : فهذا سيؤدي إلى زواجي من ابنه .. أنا أرفض ذلك يا سيف ..

فالزوج الذي حدثتني عنه أمي ، هو ولد ضارب بن غانم الأمير براق .. وأنا سأرحل غدا يا سيف الزمان .

فقال الملك: مالك غضبت ؟!..ويحك ، هل نزوجك بالقوة والغصب يا ابنة الملوك ؟! .. اجلسي فلا يليق بك الغضب ..

فقالت جميلة: لأن الرجل إذا رفضتم تزويجه مني ، فلن يقبل بتزويج ابنته الحسناء الشاعرة من أخي .

فقال سيف : يا أختي ! لم أوافق بعد فاهدئي . وعودي للجلوس .

فاحتدت الملكة سُلمى على ابنتها ، وغضبت عليها وتوترت الأمور ، وقالت جميلة غاضبة : سأرحل الآن ، أنا لم آتي هنا للعتاب والزواج والسب ، سأرحل وأعود إلى أبي .. هيا يا سيف وإلا سأنصرف وحدي .

وزاد اللوم والقيل من الأم والحدة ، فتركت جميلة القوم مسرعة إلى الاصطبل ، وهي غاضبة بشدة ، وأمها غاضبة أكثر منها ، ومرعي يعتذر للجميع ولسيف خاصة ، ويحاول تلطيف الثوران ، ويترجى أمه بالهدوء والتعقل ، وأسرجت جميلة الجواد ، وخرجت من القصر ثائرة غير مبالية لغضب القوم ، فصاح الملك بالفرسان أن يمنعوها فقال أحدهم : حذرتنا من اللحاق بها ، وأنها ستصرع كل من يلحق بها .

وأسرع سيف بدوره إلى الاصطبل وأسرج جواده ، وتبع الأميرة فلم يدركها ، واحتار بالدرب الذي سلكته في ذلك الليل البهيم ، وكانت الملكة ما زالت تدعو وتغضب على ابنتها ، فهدأ الملك من انفعالها وغضبها ثانية وقال : سيغضب أبي جدا يا أمي !! .. أنت تعرفين حب أبي لـجميلة ، علينا أن نتدارك الأمر .. فأنت تعيشين بعيدة عنها ، فهي متعلقة بأهل أبيها أكثر منا فأخذت الملكة تبكي وتنشج وتقول : أنا أردت لها الخير ، ولم أزواج بين زواجها وزواج ابن ضارب، كان الكلام مصادفة ألا لعنة الله على ضارب وابنته .. سيغضب أبوك الملك إن جرى لـجميلة شيء .. لقد دللها كثيرا .. قد كبر سنها

فلما لم يدرك سيف أخته عاد للقصر ، وودع أمه وأخاه قائلا : سألحق بها على درب بلاد الرايات الأميرة اشتد غضبها الذي لم أتعود عليه ، فهذه أول مرة أراها ثائرة ، ولا أستطيع أن أسمح لها بالعودة وحدها .

فقالت الأم وهي تعانقه : افعل ما تشاء يا سيف ! وإذا أدركتها أرسل غلامك ليطمئننا عليها وأعلمها أنني غاضب عليها حتى تأتي وتعتذر لي عن هذا الحزن والدموع التي سببتها لي يا ولدي أسرع وراءها إنها مغرورة .

فقال سيف: هوني عليك يا أماه ! سأتدبر القضية إلى اللقاء .

وهبط الحجرة مسرعا ، وكان الغلامان في انتظاره ، فأمرهما باتباعه ، وانطلق سريعا نحو الدرب الذي يسير نحو بلاد الرايات ومع إشراقة الشمس أدرك الأميرة الغاضبة، فأرسل أحد الغلامين ليطمئن أمه وأخاه ، وأنهم سائرون لبلادالرايات .

وسمع الأميرة تقول : يا سيف أمك تريدنا أن نسكن في هذه البلاد .. لا تريد لنا البقاء عند أبينا الملك وزوجات أبينا الملك وأهلينا ، فزواجنا من أهل هذه البلدة يدفعنا للاستقرار في هذه البلاد .

فقال وهو ينظر ما سمعت أذناه : ويلك .. أتقصد أمنا ذلك ؟!

فقالت ونبرة الغضب في صوتها : فلما طمأنت مرعي على الملك وعلى عدم رغبتك به ، أحبت أن تدفعك للبقاء عندها بالزواج .. لقد دار بيننا حديث قبل تلك الجلسة ، فقلت لها بقوة وعناد أنا أحب البقاء عند أبي وقومي وقلت لها أيضا أنا رفضت العيش هنا وأنا طفلة صغيرة ، فهل أوافق وأنا شابة ؟ .. فحاولت عن طريقك ، فهذا ما هيج أعصابي وتوتري .

فأخذ الفارس يهز منكبيه مصدقا ويقول : أشهد أنك تقولين الصدق!.. فقد حدثني مرعي عن حسن البقاء عنده وبجواره ، وكنت أظن أن كلامه من باب المجاملة والملاطفة

موت غزالة

هرب كلب الليل من معسكره في بلاد الملك بهراما ، ومكر بالأميرة غزالة بالاتفاق مع أولاده ، وإنه لم يبعد بعيدا عن المدينة، لقد اختفى في أحد الكهوف والأدغال ، وكان على اتصال بقومه بواسطة غلامه المخلص زهران ، فكان زهران يتنكر وينزل المعسكر على صورة متسول ، فيسمع الأخبار ويعود لسيده في الليل المظلم ، ولما سجنت الملكة بسيف بهراما أولاد كلب الليل ، ثم اتبعتهم بسجن أخيها وبعض السادة من القوم .. فصمم كلب أن يمكر مكرا كبيرا وعظيما في غزالة ، فقال لخادمه زهران : سأمكر بغزالة مكرا تدوي له هذه البلاد عن بكرة أبيها ! .. فأريدك أن تعلم لي متى تقيم غزالة أو الملك سهرة كبيرة في قصر غزالة ؟ وعندما تعرف ذلك فأخبرني بالموعد ، وسوف ترى ما يفعل سيدك يا زهران ؟!



وحفلات الملك وغزالة كثيرة ، فلما علم عين كلب بحفل وسهرة ستقام في قصر غزالة أخبر سيده كلب الليل بوقتها، ولما سأله عما سيصنع ؟ فقال كلب الليل : أحضر لي ثيابا تشبه ثياب غلمان القصر .. سأذهب وأحضر هذه الحفلة ، وسوف تسمع بمكري يا زهران بابنة أخي اللعينة .

تسلل كلب الليل بزي الغلمان والخدم العاملين بقصر غزالة ، ودخل المدينة مع الظلام الدامس وسار نحو القصر المعروف له ، وطلب من زهران انتظاره مختفيا أمامه ، ولما بدأ ضيوف القصر بالانصراف بعد منتصف الليل ، دخل كلب القصر ، وظنه الحرس السكارى بأنه أحد غلمان القصر خرج لحاجة ثم عاد ، وكان الظلام رغم القناديل والشموع قد اشتد ، دخل كلب الليل مخدع الأميرة غزالة الذي لا يخفى عليه ، واختبأ فيه ، وبعد حين أتى الغلمان والخدم بالملكة وهي تكاد يغمى عليها من كثرة الشراب واللهو ، وقامت الجواري بخلع ثياب الحفلة عنها وإلباسها ملابس النوم ، ومددوها على السرير واستغرقت بنوم عميق وبعد حين قصير أتى الغلمان

والجواري بالملك السكران ، وأرقدوه على سريره بجوار الملكة ، واطفأوا المصابيح والشموع ، ولما سكن القصر وخفت الحركات ، ولم تعد تسمع سوى أنفاس السكارى والمخمورين من كثرة الشراب والسكر انتزع كلب خنجره المشحوذ وأغمده بصدر بهراما ، وغطاه ، وتسلل هاربا من القصر ، وقال لزهران : لقد قتلت بهراما ! لأرى ماذا سيحدث بغزالة اللعينة ؟! لقد ظنت أننا نسينا القتل والسلب !

فهتف الغلام مصعوقا : قتلت الملك ؟!!

فقال : أجل يا زهران ! .. ستشتعل البلاد لهيبا.. خذ حذرك وأنت تأتي إليّ في الجبل .. إياك أن تصل قومنا بضعة أيام ، هم لا يعرفون غضب كلب الليل بن الغضبان إذا غضب .. إنها تريد كنوز أبي .. تخوفني بـزوابع.. فمن أين له أن يصل لكنوز الغضبان ؟! .. كل شيء كان الغضبان يحب أن يفعله بيد غيره إلا المال فقد كان يخبئه بيديه.. المال هو العظمة والقوة يا زهران .. احترس أيها الرفيق وأنت تأتى بالأخبار .

وكما توقع كلب ، لقد قامت الدنيا ولم تقعد عندما اكتشف القوم مصرع مليكهم ، فهاج الناس وماجوا ، واضطربت المدينة لهذه الطعنة الغادرة ، والكل يسأل من هو القاتل ؟! من هو صاحب المصلحة في قتل بهراما ؟! وكانت غزالة واجمة باكية ربما حزينة ، وتقول : ما فعلها إلا عمي كلب ؛ ولكن كيف ؟! .. لقد هرب ولم يجده رجالي وأعواني .. سأقتلك يا كلب قتلة الكلب .

عجز الأمراء عن معرفة القاتل لبهراما ، وقاموا بدفنه وتنصيب أكبر أبنائه ملكا على البلاد والعباد الملك شهراتا ، ولما تمت بيعته ، فكان أول أمر أصدره هو طرد زوجة أبيه غزالة وقومها من البلاد ، واعتبرهم هم السبب وراء مقتل والده رغم عدم وجود دليل على ذلك الاعتبار ، فعادت غزالة تجر أذيال الخيبة إلى معسكر قومها ، ورأت الجنود وهم يضربونهم ويطردونهم شر طردة من البلاد وحيث يقطنون ، فأخذت بالنواح والبكاء ، وأرسلت إلى الملك تترجاه بالعفو عن أخيها شداد ورجال قومها الذين أمرت بسجنهم في حياة أبيه ، وأنهم سيغادرون البلاد كما

يشاء الملك الجديد .. فأخرجهم شهراتا من أجل روح أبيه ، فخرج الجميع هاربين يبحثون عن مكان جديد يأوون إليه ، ولما رأت شدادا قال لها بغضب : هذا ما جنيت على نفسك يا غزالة ؟! أصبحنا مطرودين ولا راعي لنا .. أنت سبب هرب عمنا وملكنا طمعت بالملك ..!

فقالت بحقد وغضب : أخبر الرجال بأنني سأعلن نفسي ملكة عليهم ، ومن يرفض ملكي فليهجرنا ويبتعد عنا .

فضحك ساخرا وقال : أنت تحكمين على نفسك بالموت .. فاحذري الغدر ممن يبايعونك .. فالمعركة قد بدأت .

فقالت : لا .. بل انتهت أيها الرعديد .. وأقسم بالذي خلقك إنه ما قتل الملك إلا عمك الجبان كلب .. ولكن لا أدري كيف دخل القصر ؟!

فقال شداد وهو ينظر للأفق البعيد : أمر وانتهى .. فلنحافظ على أنفسنا .

فقالت بحقدها وغضبها : لن يهدأ لي بال حتى أرى عمك صريعا مجندلا ، كما جعلني أرملة سأجعل بستونة أرملة .

فقال شداد : أين دم وعل الجبل الذي تعاهدنا على تحقيقه ؟!

بايع القوم غزالة الغاضبة ملكة عليهم رغما عن أنفسهم ، ولئن تفرقهم في هذا الظرف ضعف كبير لهم فوق ضعفهم ، ونصبوا خيامهم بين وادي السرحان ومملكة شهراتا بن بهراما .. وكانت هذه الأخبار تصل لكلب عن طريق غلامه المتسول زهران ، ولما استقر قومه وقد عزلوه عن الملك، قال كلب : هل سأبقى طريدة من غزالة الملعونة ؟! .. زاد تعديها عليّ .. لابد من قتلها ما تقول يا زهران الطيب الوفي ؟!

فرد زهران قائلا : لقد تنمرت يا سيدي !.. أصبحت نمرة قاسية الفؤاد ، والأمر لك ، وأنا عبدك وخادمك المخلص يا سيدي الملك .

ثم فكر كلب قليلا وقال : هل ترى أيها الخادم المخلص أن قتلها سيحل مشاكلنا أم ستزداد ؟

فقال زهران الخادم : ليس لها ولد يطالب بالثأر بدمها ، ولكن إخوتها كثر ، وأكثرهم لا يطيقها

ولكن الدم يفجر الدم ..

فقال كلب بحقده وجفائه : ولكنها تمردت وتمادت ، ونصيرها بهراما قد هلك كما تعلم .. عليّ أن ألتقي بكبار قومنا وعشيرتنا سلالة الغضبان وأنصارهم وحلفائهم .

فقال زهران : وعيونها ؟!.. ولا هدف لها إلا رؤيتك ، فلا تغيب خيمة زوجتك عن ناظريها .

فقال كلب : سأجد ثغرة أيها الشيطان وأصل إليها .. الأيام تضعف الأقوياء .. أريد أن أجتمع بابني الكبير يا زهران .. سأكون عند عين الشجرة .. فليكن هناك بعد يومين .. سأجعل منك ساعدي الأيمن يا زهران ! وأزوجك ابنتي زينة الجبل إذا نجحت وعدت ملكا على قومي بدلا من تلك الملعونة .

عند عين الشجرة التقى الأب وابنه وتشاكيا وتباكيا ، ثم قال كلب : يا ولدي قررت قتل غزالة كما قتلت زوجها بهراما !..لا تندهش أنا الذي غدرت به ، وأنا ابن الغضبان وابن الجبل ولو شئت يومها لقتلت تلك النمرة معه ؛ ولكن أحببت أن أعيد لها صوابها وعقلها وأذلها ؛ وها هي مصرة على معاداتي ، وتمردت على الركون إلى مخدع النساء وخدرهن .

فقال الابن : إنها تعرض عليّ نفسها ، تريدني زوجا لها ..

فقال كلب : زوجا لها ؟! يا لها من ماكرة ! عرفت من أين تؤكل الكتف ؟!.. تريد كشف أسرارنا وهل نحن على اتصال ؟ .. لا يا ولدي إنني قاتلها اليوم أو غدا .. أريدك أن تهيئ الرجال لعودتي فإني قادم إليكم قريبا .

استدعت غزالة ابن عمها رشق وقالت له : لم أسمع جوابك يا رشق يا عاشق الصيد ؟! .. ماذا صدت في خرجتك الأخيرة ؟.. ألست أهلا للزواج منك ؟

فقال رشق بخبث : إني حائر أيها الملكة !.. أترضين بي بعدما نكحت ملكا كبيرا ؟

فقالت بغرورها المعروف : نحن أبناء اليوم يا ابن عمي ، وأنا اخترتك دون رجال القبيلة والأقارب.. ليعرف والدك النذل معزتكم عندي ، ولا يـفكر بالعودة إلينا وطلب الملك .

فقال وقد تخابث أكثر : وهل إذا رفضت تبقين على حياتي ؟

فقالت بحدة : لا أظن ذلك .. سأتزوجك يعني سأتزوجك .. وغزالة لا يقال لها لا .. هل سمعت ؟

فقال بتخاذل : أنا رهن إشارتك .. أنا لا أحب أن أموت ، أرضى بأن أكون زوج الملكة .

فقالت ضاحكة : أحسنت يا رشق ! بدأت تفهمني الآن .. أخرج وأعلم أشياخ القوم وأتباعنا أن الزواج ليلة الجمعة .. ولتقم الأفراح والليالي الملاح على شرف الملكة غزالة .

وأخذت تضحك وتقهقه حتى ظن رشق أنها مجنونة !

وقامت الأفراح في معسكر القوم ، ونصب خباء كبير ليكون سكنا للزوجين ، ولما انتهت رقصات القوم .. تقدم رشق وأمسك بيد العروس اليسرى ، ورقصا عدة رقصات، ثم تقدم بها نحو مخدع الزواج ، وعند منتصف الطريق تراجع المحتفلون ، وابتعد الحرس عن الخباء والخيمة الكبيرة ، ولما وصل رشق الخيمة فتح بابها وهتف : ادخلي يا مولاتي الملكة إلى قصرك الجميل ! فقهقهت وهي تدخل وقالت : قصر !! .. ويلك يا رشق ! هذه خيمة جرباء ؛ ولكن للأسف لابد من الحياة فيها .

ولما استقرت بداخلها ، وتخففت من بعض ثيابها قالت : مالك أيها الزوج ؟! .. ما زلت بثياب العرس ؟!

وقبل أن يرد عليها الزوج رشق برز لها كلب الليل وهو مشهر خنجره قائلا هائجا : إني قاتلك يا غزالة !

فخافت من المفاجأة وقالت بصوت خفيض : عماه !!

فصاح : أجل عمك يا غزالة اللعينة !.. تريدين ثروة الغضبان .. فأعلمي قبل أن تموتي أنني أنا الذي قتلت بهراما .. وسأقتلك أيتها الملكة ..

وقبل أن تتكلم أو تصرخ أغمد الخنجر في صدرها ، فشهقت شهقة الموت وماتت ، وخرج فوجد رشقا قد قدم له جوادا،وظهر رجال ملثمون، فصاح فيهم كلب الليل : يا قوم .. استقيظوا من سكركم وخمركم .. أنا كلب الجبل .. كلب الليل .. لقد قتلت غزالة

أيها الجبناء كما قتلت بهراما الملك !

فهرع الناس من منامهم مذعورين مولولين قبل قليل كانوا يسكرون ويمرحون ، فطار السكر وطار المرح ، وسمعوا كلبا يعلن نفسه ملكا عليهم ثانية ، ويحذر أولاد أخيه من الغدر به ، وكان يهتف : غزالة لقد طغت وتجبرت علينا ! وحبست أبناءنا وتسلطت علينا .. وهذا عار كبير في حياتنا وتاريخ الجبل وحياة قومنا !! فأردت إنقاذكم من طغيانها وجبروتها .. هل سمعتم ؟!

فهجم عليه شقيق لغزالة وهو يصيح : كذبت يا غدار .. يا جبان يا هارب !

ورماه بخنجر حاد النصل ، ورغم الظلام فقد أصابه ، فدب الهرج والمرج والقتال بين القوم حتى الصباح ، ولم يمكث كلب إلا أياما ثم هلك ولحق بغزالة غريمته ، ورفض أن يكشف لهم مخبأ الغضبان في جبل الرملي، ودفنوا قتلاهم ، وداووا جرحاهم ، واتفقوا على أن يتفرقوا بين الناس وبين المدن ، ولا يتعرف بعضهم على بعض إذا رآه ، وهكذا اختفى قوم الغضبان ورجاله.

وانتشر خبر مقتل غزالة وكلب بين الناس شرقا وغربا حتى وصل مسامع الأمير سيف وأخته جميلة ، فقال : يا ترى هل أفضى بسر الكنوز لأحد ؟! .. أموال أمي ما زالت في نفسي وبالي يا جميلة.. ما رأيك بأن نسير لوادي السرحان ؟ لـعلنا نصل إلى كنوز الغضبان ونعيد أموال مدينة أبي كبشة وتسكن حينئذ نفسي وروحي .

فكرت جميلة قبل أن تجيب ثم ردت قائلة : ما رأيك بأن نزور عبسان في السبع عدسات ؟ فهو من أصدقاء الغضبان القدامى منذ خمسين سنة قد مضين ، بل بدآ معا .. فلعل عنده علما بمدفن الكنوز .

ضرب الفارس جبهته لفطنة أخته وقال : أحسنت يا جميلتي !.. أجل لابد من لقاء عبسان وليمونة ، فهم من أوائل من سكن في وادي السرحان .

كان الملك قيس لا يخشى على ولديه جميلة وسيف من قطاع السبل واللصوص ،

فسيف رُبي في الجبال وبين اللصوص ، وجميلة من خير النساء التي ركبت الخيل في بلادالرايات

وحياتها سنة في الصحراء زاد من ثقته فيها ، فلذلك لما طلبا زيارة عبسان للسؤال عن كنوز الغضبان أذن لهما بالرحلة بكل أريحية.. وكان الأميران سعيدين برفقة وصحبة بعضهما البعض كان سيف يحب أخته جميلة حبا كبيرا ، ويسر بالجلوس معها والكلام معها ، وهي أيضا تبادله هذه العاطفة النبيلة حتى أن الذي لا يجد جميلة في حجرتها سيجدها بالتأكيد في حجرة سيف والعكس صحيح .. وأخذوا هذه المرة معهم في رحلتهم غلاما واحدا ؛ ليقوم على خدمتهما ، ومشيا في اتجاه بلاد السبع عدسات ، وقد علما أن الرحلة تحتاج إلى سبعة أو ثمانية أيام .. واجتازوا دروبا مأهولة تسير عليها القوافل التجارية ، ودروبا مهجورة لقطع المسافات ، وكانا سعيدين بهذه الرحلة ، وكانت الأميرة مسرورة بحكايات سيف في الجبل، وقصص السطو والنهب وقطع الطريق ، وكانا أحيانا يدخلان قرى الفلاحين للتزود بالماء والطعام ، ثم يتابعون المسير نحو السبع عدسات ، ذات مساء وقبل الغروب بساعات انحرفوا نحو قرية وبساتين ظهرت لهم .. فقال سيف : فلنرقد الليلة قرب هذه البساتين .. يا عبشلي هات لنا الطعام .



فأشعل عبشلي الخادم موقد النار وارتفع الدخان ، وكان سيف قد صاد أثناء السير عدة أرانب بالسهام ، وملأت رائحة الشواء المكان وبينما هم مسرورون في الأكل والكلام ظهر أمامهم خيالة ثلاث ، وعدد من العبيد ، وهم يحملون العصي والفؤوس وأدوات الحرث ، ثم اقترب منهم الخيالة الثلاث ، ولم يظهر أبطال القصة أي خوف أو قلق بل قال سيف: انزلوا إلى مائدة الطعام أيها الأسياد ..

فنظر الرجال الثلاثة بعضهم إلى بعض بقلق ، وقال أحدهم : ماذا تفعلون قرب البستان ؟!

فقال سيف : كما ترون نشوي هذه الأرانب ونحاول بلعها.. وأنتم من أنتم ؟.. أأصحاب هذه البساتين والثمار؟.. بل هذه القرية لأي المدن تابعة ؟!

فقال آخر : بل من أنتم أيها السادة ؟

فقال سيف : عابرو سبيل.

فقال الرجل الأول : يبدو عليكم أثر النعمة ، فثيابكم جميلة وثمينة رغم التعب الظاهر عليكم ونحن من رجال صاحب هذه البساتين والجنات ، وهو أحد الأمراء .. وقد ظن هؤلاء العبيد أن حريقا شب في البستان ، وأن لصوصا يفعلون ذلك فهرعنا إليكم .. ولابد أن تأتوا معنا ليراكم الأمير قبل المغادرة .

فقالت جميلة وقد تركت الطعام : ما ذكرتم لنا اسم أميركم ؟

فقال أحدهم : عندما ترونه سيذكر لكم اسمه .

فقال سيف : الحق أيها الرجال نحن نريد الآن الاستراحة والنوم ، ولا حاجة لنا برؤية الأمير، وبلغوه السلام والتحية عنا، واعتذروا لنا عن هذه المقابلة واللقاء .

ولكنهم قبل أن يسمعوا الجواب سمعوا فتاة حسناء ظهرت على ظهر حصان أشهب تقول لهم : سلام عليكم أيها القوم .. من الضيوف يا شمو ؟!

أدى الرجال الثلاثة والعبيد التحية للأميرة وتمتموا : الأميرة !.. يا مرحبا بكِ !

وسمع الرجال سيف وأخته يرحبون بالأميرة الشابة أيضا .. كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها كما يبدو للناظر ، ذات جمال بديع وشعر طويل وعيون واسعة ، فعادت الأميرة تسأل: من هؤلاء القوم يا شمو؟

فقال شمو : أغراب يا مولاتي !.. عابرو سبيل جلسوا يستريحون هنا ولشواء الصيد كما يظهر وقد ظن الخدم والعبيد أنهم يحرقون البستان .

فقالت الأميرة : نحن نرحب بالضيوف ، والنوم في القصر خير من النوم في العراء وعلى التراب يا سادة .. وأبي رجل كريم ! ويحب إكرام الغرباء ، وسوف يسر برؤيتكم وضيافتكم

أثنى سيف على الأميرة ووالدها وقال : بوركت أنت وأبوك ! ولكن يا أخية .. نحن سنستريح ساعة أو ساعتين ثم نتابع السير إلى بلاد السبع عدسات ..

فقالت الأميرة مصممة على ضيافتهم : ولا أظن أن أبي سيؤخركم .

فقالت الأميرة جميلة : يا أختاه ! جزاك الله خيرا ، نحن لا نرغب بالنوم داخل القصر بل سنتابع

السير .. هيا يا أمير سيف .

فقالت الأميرة مستغربة : أمير سيف ؟!

فقال سيف باسما : نعم ، نحن أمراء مثلك أيتها الأميرة .. فهذه الأميرة جميلة بنت الملك قيس وأنا أخوها سيف الزمان ، ولولا زلة لسان أختي ما أحببت قول ذلك ..

ضحكت الأميرة وقالت : هذه حيلة ساذجة للفرار منا .. !

فظهر الغضب على وجه سيف وهو يقول : نفر منكم ! وماذا فعلنا لنفر منكم ؟!.. بل ويحك بقولك حيلة ساذجة ! ولماذا سنحتال عليك ؟! أتظنين أننا خائفون منك ومن رجالك ؟ .

فصاح شمو مظهرا حمية وقال : تأدب أيها الفارس .

واستل سيفه في وجوههم ، فكان سيفسيف أسرع منه ، وأطار السيف من يده فورا ، وقد احتقن وجه غضبا لتصرف الرجل ، ورفعه السيف في وجوههم

وقال : انصرفوا .. خذي رجالك أيتها الأميرة وانصرفوا ..

فقالت الأميرة متحدية: لا .. لقد أهنتنا أيها الغاضب..!!

فتدخلت جميلة قائلة: يا أميرة .. حرام عليك أن تجني على هؤلاء المساكين .

فقالت الأميرة بغضب : ولماذا هم يعملون عندنا ؟! .. إذا لم يستطيعوا أسركم .. هيا اهجموا أيها الرجال ..

بدأت معركة ، كل رجل نخزة في رأس السيف فيسقط مغمى عليه أو جريحا ، وخلال دقائق كانت الأميرة وحدها ، ورجالها الثلاثة صرعى على الأرض ، وعبيدها بين أنين وبكاء وألم ، فسقطت عن الجواد ذاهلة من فروسية الثلاثة ، وسحبت سيفها من الغمد ، وقالت بزعيق وحقد : فارس لفارس !

فقالت جميلة باسمة : دعها لي يا سيف .

لم تصمد الأميرة الغاضبة أمام جميلة سوى بضع حركات ، وفقدت سيفها ، فأخذت تبكي وتصيح وتقول : أنا القوية الفارسة أخسر سيفي بلحظات إنكم شياطين !

فقالت جميلة وهي تضع قدمها في ركاب الجواد لتركبه : هيا يا سيف ! .. وداعا أيها الصبية نحن سائرون لبلاد السبع عدسات ؛ فإن أحببت اللحاق بنا فاتبعينا يا أميرة .. ولكن لم نعرف اسمك بعد ولا اسم أبيك ؟!

فقالت من بين دموعها وغيظها : أبي لن يغفر لكم ذلك .. أنا الأميرة قمر بنت ماجد .

فردد الأخوان معا : ماجد !!

فهذا الاسم له وقع على أسماعهما ، فنظر الأخوان في عيني بعضهما ، وقالا : أمعقول أن يكون هنا ؟!

وتوقفت جميلة عن اعتلاء صهوة الجواد وقالت : من أي البلاد أنتم ؟!

فقالت الأميرة وهي تكفكف دموعها : أتعرفان أبي ؟!



قمر بنت ماجد

لما سمع الأمير ماجد صاحب البساتين والحدائق بالمعركة ، أتى مسرعا ومعه باقي رجال المزرعة وقصت عليه الأميرة قمر قصة المعركة فاستصعب الأمر وضاق بالحادثة، وقد خشي من معركة جديدة ، وكان يستمع لابنته والأمراء على خيولهم صامتين ينتظرون ردة فعله وينظرون إلى الأمير ماجد ، ويرون أن سنه ليس من جيل أبيها الملك وأمها الملكة سُلمى ، يبدو أنه في الثلاثين سنة ، فقال سيف لما خيم الصمت : أيها الأمير !.. نحن لا نحب الاعتذار ، ولا الاعتداء .. فقد اتهمتنا ابنتك بالحيلة والكذب عندما ذكرنا لها اسم والدنا وأسمائنا ، وأصر رجالك على قتالنا ، فما كان أمامنا إلا الدفاع عن أنفسنا .

فقال الأمير ماجد: وهل أنتم صدقا وحقا من أبناء الملك قيس بن خصيب ملك بلاد الرايات ؟!

فقال سيف : ولماذا نكذب ؟! .. بل قلنا لهم أن وجهتنا مدينة السبع عدسات ليزدادوا اطمئنانا

فقال الأمير : وقد تغلبتم على كل هؤلاء العبيد ؟!

فقال سيف : نحن حذرنا الأميرة الصغيرة من ذلك قبل المعركة ؛ ولكننا لم نقتل أحدا منهم .. إنما هو جرح بسيط ليكف عن القتال .

فقال الأمير فجأة : أتعلمون أنني غريمكم ؟!.. وكاره لكم وحاقد عليكم وقد ساقتكم الأقدار إلينا .

فقال سيف وقد استغرب لتغير لهجة الأمير الهادئة : ولِمَ أيها الأمير ؟! فما الذي بيننا وبينك ؟! وهذه أول مرة نراك فيها !

فعاد ماجد يقول : ولكني رغم ذلك خائف من قتلكم ، فأبي حدثني عن الملك قيس وزوجته الملكة سُلمى وجبل السرحان ..

فقال سيف دهشا ومتحديا: كيف ذلك ؟! ومن هو أبوك ؟! .. ولماذا تخشى أبانا؟! ومن سيعلمه بقتلك لنا أيها الأمير؟؟ فما نحن إلا ثلاثة ؛ فإذا قتلتنا ودفنتنا تحت الثرى .. فلا أظن أن أحدا

سيعلم بذلك إلا إذا خانك أحد رجالك ، وأحب أن يرث عنك هذه المزارع والبساتين ، فيذهب ويخبر الملك قيس بذلك القتل .

تنهد الأمير ماجد وهو يتطلع برجاله وللفكرة التي أوحى لهم بها ، فقال الأمير ماجد : نحن بيننا ثأر قديم ! .. وصدقوني أنني لا أحب حمله لو رضيتم بالمسالمة والمصافحة والثقة بيننا ، بل أهبك هذه الفتاة عروسا لك .

دهشت الأميرة قمر والأميرة جميلةوالسامعون لهذا العرض الغريب ، فقال سيف : رغم غرابة ما أسمع فإني أصدقك !.. وسوف أسألك سؤالين ؛ فإن صدقتني سأدخل معك القصر وأنا مطمئن .

فقال الأمير ماجد : إنك ذكي ! ولابد أنك تعرف الأسرار .

فقال سيف : هل عاش أبوك بوادي السرحان ؟

فقال الأمير : أبي اسمه ماجد كاسمي ، وله رفاق بوادي السرحان .. والسؤال الثاني ؟

فقال سيف : والدك من بلاد أبي كبشة ؟!

فقال ماجد : أجل !.. هو من بلاد أبي كبشة وقد جار عليه الزمان !

فقال سيف : أحيٌ والدك ؟!

فقال الأمير : لا .. ولكنه حملني ثأرا وحقدا على الملك قيس وأولاده ! .. وها أنتم بأرجلكم أتيتم إلينا .. فسبحان الخلاق العليم !

فقال سيف : ما دام قد مات أبوك ، فلا داعي لحمل هذا الثأر .. ولنتصالح .. والآن تطيب النفس للدخول إلى قصرك .. لتعلم أننا لا نحقد على رجل لم نعاصره

كانت جميلة مدركة لكل ما يتكلم به الرجلان .. فهذا الأمير ابن الأمير ماجد ابن خال أمهم الملكة سُلمى .. فأمر الأمير ماجد بنقل الجرحى الذين لا يستطيعون المشي إلى القصر والعناية بهم ، وتصافح مع الأمير سيف وحياجميلة وخادمها وقال سيف : أنا أعرف أباك .. لقد عشت في الجبل ما مدته العشرون سنة ، وكان يومذاك اسمي الأمير زوابع سيد اللصوص وأميرهم

فهتف ماجد قائلا : أوه ، إن هذا لشيء عجاب ! والذي نفسي بيده إن أبي حدثنا عنك، وإن زوابع هو ربيب الغضبان ، بل كان أبي يقول لي ولأمي لولا أن الغضبان غضبه الموت لظننت أن زوابع هذا ابن الملكة سُلمى المفقود ، للشبه الكبير كما بدا لأبي بينك وبين أمك الملكة فسر سيف وجميلة لهذا الكلام فقال سيف: أبوك قال ذلك؟!

فقال الأمير : أجل .

فقال سيف : الحمد لله أنه لم يقلها أمامه وإلا لقتله فعلا .. فأنا ربيب الملك الغضبان سيد وادي السرحان ، وقد رأيت والدك الأمير وهو برفقة أبي الليل في وادي السرحان ، وأنا عرفت أهلي منذ عهد قريب أيها الأمير .

فقال الأمير : أبو الليل هو صديق والدي ، وسأقص عليك بعد العشاء قصة أبي ماجد منذ نجا من معركة أبي كبشة ..

احتفى الأميرماجد بالضيوف ، وأمر بإعداد وليمة كبيرة للضيوف ولأهل المزرعة جميعهم ولما انتهوا من الطعام جلسوا في ديوان واسع لسماع قصة الأمير ماجد الهارب من معركة إعادة الملك لسلالة الملك جعد بن همام .

قال الأمير بعدما روى قصة خطف والده ابنة عمته والهرب بها لرجال الجبل : ولما بدأت آثار الهزيمة على رجال العشيرة ، ورأى أن القوم يستعدون للاستسلام أخذ أمواله ومجوهراته وزوجه وابنيه ، وأمر أحد غلمانه المخلصين له في انتظاره خارج أسوار المدينة في مكان معروف لهما ، ولما بدأت المعركة الأخيرة ورأى أن جند أبيه أخذ بالاستسلام وإلقاء السلاح ـ وكان متحسبا للهزيمة ـ فر هاربا ومبتعدا عن المدينة الساقطة لما بينه وبين الأمير قيس والأميرة سُلمى من أحقاد وثارات ، ولما التقى بغلامه وزوجه ساروا هاربين حتى أتوا مدينة الخان ، فسكنا منزلا مستأجرا وتظاهر أنه غريب ضاقت به بلاده ، وسمى نفسه محمود بن ناجي وعمل بالتجارة فترة من الزمن هلكت فيها أمي ، ثم تعرف على ابنة أحد التجار الكبار فتزوجها فانجبت له أختي ماجدة ، ثم لم تعد تنجب ، ثم مات شقيقي الأصغر قبل البلوغ ، وخلال عمل والدي

بالتجارة كان يتردد على جبل السرحان ، وكان طامعا بالانتقام والثأر من الملكة سُلمى ؛ ولكن لم يتيسر له ذلك بسبب سطوة الغضبان وجبروته ، ولما هلك أبو الليل ، ولم يتمكن من الانتقام ولم يصغ الغضبان لانتقامه عاد واستقر في المدينة ، وقد يئس من انتقامه ، وكنا نحن نظن غيابه عنا يا سيف ! للتجارة ، فلما وصل حد اليأس أتى هذه القرية واشترى هذه البساتين من ورثة أحد التجار ، وأنزلنا فيها ، وبعد حين من الزمن اعترف لنا بقصته وحبه للأميرة سُلمى ابنة عمته .. ثم ظهر الأمير قيس ابن الملك خصيب في حياتهم ، ووافق والدها الملك على اقترانها بـ قيس ، فاضطر للمكر بها ، وأخرجها بالحيلة إلى وادي السرحان عند أصحابه من رجال الجبل .. ثم عرف شيطان اللصوص الغضبان بوجود الأميرة في الجبل فاستولى عليها ، وأرادها لنفسه ، ثم ظهر الأمير قيس و صقر والباقي لابد أنكم تعرفونه .. ورغم الصورة القاسية التي التقينا فيها ؛ فأنا سعيد بوجودكم ، ونحن أقارب رغم العداوات بين والدينا ، ورغم الحقد والثأر الذي أوصاني به قبل أن يموت ، لم أهتم بوصيته ، ولم أسع في يوم من الأيام للشروع في تنفيذها .. فأنا ضعيف وعاجز عن ذلك ، ولا أريده ، ولا مطمع لنا في الملك والحكم ، ونحن سعيدون بالحياة في هذه القرية الهادئة .

وقص سيف قصته على مسامع الأمير ماجد وابنته قمر وبناته وأولاده ، مما أدهش السامعين وأثار دهشتهم حتى قالت الأميرة قمر : ابن الملك يعيش بين الوحوش أكثر من ربع قرن .. يا الله !!

فقال الأمير ماجد : كان انتقام الغضبان من والديك انتقاما رهيبا وقاتلا ..الآن فهمت لماذا كانوا يرفضون تحريض أبي للانتقام من الملك قيس والملكة زوجته؟! .. فهو قد انتقم منهم ، ولا يريد فضح سره خوفا من معرفة الملك قيس بذلك ، فيدمر الجبل والوادي على أصحابه وساكنيه والآن كيف عرفت أهلك ؟

فعاد سيف يقول : اللعين كان يريد مني أنا أن انتقم من والديّ ، حرضني على سرقة جواد الملك قيس بطريق ذكية بايحاء ، ودفعني لسرقة أموال أخي الملك مرعي ملك بلاد الأكباش

كبرت وكبر التمرد والإجرام والمغامرة في نفسي .. فسرقت فرس الملك قيس ورد ابنة الفرس المشهورة دموع ونجحت في ذلك ، ثم عرف الملك قيس بعد حين ذلك بواسطة أحد رجاله الشجعان الذي دخل علينا الجبل ، ومكث بيننا سنة ، فعرف الكثير من أسرارنا الخفية ، فصمم على غزونا ، ولكنه قبل الغزو أحب أن يحل القضية سلما ، فأرسل رسالة يطلب فيها الجواد والمال الذي سرقناه من خزائن الملك مرعي .

ثم تحدث عن محاولة خطف أبيه ، وكيف ركبت الأميرة الجواد الهائج ، ونجا الملك من الغدر ، ثم كيف اجتمعت الأميرة بـعبسان أحد رجال الغضبان القدامى ، واستمر الحديث للصباح ، فاستمع الأمير ماجد القصة ، وتعجب من شجاعة الأميرين ، ولما استيقظ الجميع من النوم كانت الأميرة قمر عاشقة ومحبة للفارس الشجاع ، وتتمنى أن يقبل بها زوجة لسماعها رفضه كثيرا من الأميرات في بلاده وبلاد أمه الملكة ، ولما تحدث والدها ثانية بذلك قال سيف : إنني شاكر لك ذلك الكرم ، ونأسف للعراك الذي جرى بيننا وبين رجالك وسيصفح الملك قيس عنكم ، ولا أظن أن أبي يحقد عليكم ، ولا حتى على والدك ماجد ، فإن أبي يعتبر ذلك ماض وقد انتهى ، فـعبسان الذي ساعد الغضبان في خطفي صغيرا عفا عنه والدي وصفح وأكرمه .. وأما بالنسبة للزواج من كريمتكم أيها الأمير الشهم فهذا يقرره الملك .. وتأكد أني سعيد بالزواج من هذه الأميرة الجميلة التي كادت أن تجن عندما هزمتها جميلة ، فأظن الآن أنه قد ذهب إحن قلبها علينا ، وإن كان هذا الزواج قد يغيظ أمي ؛ ولكنك كما قلت نحن بيننا صلة رحم وقرابة ، والصفح والعفو سيد الأحكام .. فلما أنتهي من قضية كنوز الغضبان ، ونعيد أموال خزائن أخي الملك مرعي التي سرقتها أيام وادي السرحان اللعين ، سأرسل لك هذا الغلام الطيب أو ربما غيره ؛ لتزور الملك قيس ، وتلمس عفوه وتسامحه ، وإن شاء الله نعود أهلا وخلان يا سيدي الأمير .. أنظر إليّ أين كنت قبل سنة ؟ وأين أنا اليوم ؟!

فقال الأمير ماجد بفرح : نحن في انتظار خطابك وغلامك أيها الفارس والأخ النبيل ! لقد كان والدنا – رحمه الله – يحدثنا عن شجاعتك رغم صغرك ، قبل أن يهجر وادي السرحان أو قل

قلّ تردده عليه.. فحيهلا .

وأمضيا ثلاثة أيام في ضيافته، ثم ودعوه وجميلة تقول لأخيها: لقد مات إذن ماجدعدو والديَّ وهل أنت مقتنع ومسرور بالزواج من تلك الأميرة المغرورة ؟!

فضحك سيف وقال : هي حقا مغرورة ! ولكنها فاتنة ، وما زالت طفلة يا أخت الملوك .. وتابع الحديث فقال : والزواج والمصاهرات – يا أميرتي– من الأشياء التي تزيل الأحقاد والضغائن ، ثم أن عشيرتهم قد تفرقت في المدن والقبائل.. ولا خطر على ملك أخينا مرعي منهم ، بل ربما كان هذا الاقتران منسيا الأحقاد والبغض والتفكير بإعادة الملك ثانية وثالثة ..

عندما شاهد عبسان الأميرين أمامه كاد يطير من الفرح والسعادة ؛ فكأنه كان على موعد معهم فالتزم الأمير سيف وعانقه ، وقبل الأميرة من رأسها وقال متحسرا : إيه يا جميلة يا غالية لقد كانت أيام الصحراء حلوة !.. لقد كانت تلك الأيام أيام سعادة ومرح .. يا أهلا ويا مرحبا بكم في بيت عبسان .

وعانقت ليمونة الأخوين عناق المشتاق والوفاء ، وصنعت لهما مائدة جميلة ، قرت بها عيون الضيوف وقال لهما عبسان: لقد كنت أفكر بالرحيل إليكم ، اسألوا ليمونة لقد خيل لي يا جميلة إنك ابنتي ومن صلبي ، دائما أنا وليمونة في ذكركم أيها الأحباب .

وقضى الأخوان ثلاثة أيام في ضيافة عبسان ، وتفرجا على مدينة السبع عدسات ، وقدمهما عبسان للوزير الأكبر ، فقد كان له عونا في مطاردة اللصوص ورجال الليل ، وأكد لهم توبته وحرصه على أمن المدينة ، وكان الملك قيس قد تشفع له عند الملك ، وقبل الملك شفاعته ومنحه بيتا جميلا ، وقام الوزير بإخبار الملك بزيارة ولديّ الملك قيس ، فاستقبلهما هو الآخر ، ورحب بهما وأهدى لهما ولوالدهما الهدايا.. ولما حدث عن شجاعة سيف قال له الملك : يا سيف بن قيس أريد أن أراك تبارز فرساننا ؟!

فابتسم سيف وقال : يا مولاي الملك .. أخشى أن أوغر صدرك ؛ فأنا ابن الجبل حيث القسوة والقوة الفردية ، وربيب الغضبان المشهور لدى الناس ..

فأقسم الملك على أن يرى مبارزة سيف لفرسانه ، فاختار الملك سبعة فرسان ، ونزل القوم للميدان ، وطلبت الأميرة جميلة من أخيها سيف أن يأذن لها بالمشاركة بالمبارزة ، ووافق الملك على ذلك وقد أوصى ألا يؤذوهما ، فارس لفارس ، فتفوق سيف على أربعة ، وجميلة على ثلاثة أمام دهشة الحاضرين ، فطلب الملك أن يهجم السبعة على الفارسين ، ومرة أخرى أثبت سيف وجميلة شدتهما وبأسهما .. فنزل الملك نفسه الميدان وقلد الأمير سيف قلادة عظيمة في بلاده ، ومثلها لـجميلة ، وأثنى على شجاعتهما وقوة قلبهما ، وقال ضاحكا : ما رأيكما أن تتبارزا ؟!
فضحكا وقال سيف: منذ التقينا ، ونحن نتدرب ونتمرن معا .. فالسيف يحتاج لعضل قوي ، وقلب أقوى أيها الملك.. وأرجو أن تقبل اعتذارنا لغلبتنا فرسانك الأشداء ، فهم نـعم الفرسان ولكن لابد من غالب ومغلوب .

وأقاما في ضيافة الملك ثلاثة أيام أخرى ، واتفقا على أن يذهب بصحبتهما عبسان إلى وادي السرحان للمحاولة وإخراج كنوز الغضبان وإعادة أموال الملك مرعي ، فأوصى عبسان عمران على زوجته ليمونة حتى تنقضي هذه المهمة الكبيرة ، وانطلق الأربعة نحو وادي السرحان في جبل ضراب .

قطعوا القفار والبراري والوديان وعند عين ماء أمر سيف الزمان بنصب الخيام ، فأناخ عبسان البعير الذي اشتراه من عمران ، وقاموا بنصب الخيمتين خيمة الأميرة وخيمة الرجال ، واستحم الرجال بالعين ، وقال سيف: هذا الوادي يكثر فيه الظباء يا عبسان ! قد ترددنا عليه أيام الجبل فلنقض فيه بضعة أيام نستمع بأكل الغزلان .. أليس هذا جميلا يا جميلة ؟!

فقالت الأميرة مبتسمة ومشجعة للفكرة : بالتأكيد .. فأكل لحم الظباء من اللحوم الطيبة في البراري .. والحياة في البراري جميلة وممتـعة !!

وفي الصباح ترك القوم الغلام الخادم عند الخيم ، وانطلق الأمراء وعبسان العجوز حيث تتجمع الظباء والوعول عند الغدران والأشجار الكثيفة ، وبالفعل ما كادوا يقتربون من سيل ماء عميق ومتسع حتى لمحوا الظباء الحسناء وحولها الكلاب والثعالب وبعض الطيور ترصد بعضها

بعضا .. فانطلقوا نحوها .. ولما شعرت بهم الحيوانات فرت مسرعة ، ولم تطل المطاردة فقد تمكن الثلاثة من محاصرة أحد الغزلان الصغيرة ، فسقط بسهم أحدهم فأسرعوا نحوه ، وقبل أن يدركوه ظهرت لهم لبوءة كامنة هناك ، ولولا سرعة سيف لانقضت على عبسان أقربهم للصيد ، فأصاب سهم سيف اللبوءة ، فزأرت وأبتعدت وهي تملأ المكان صياحا وزئيرا فقال عبسان : لولا سهمك لقتلتني اللعينة !

فقال سيف : لقد لمحتها تخرج فجأة عندما سقط الغزال صريعا ، كنت أظن أنها ستهرب عندما ترانا نركض نحو الصيد .. ولكنها اندفعت نحوك فما كان أمامي إلا رميها بسرعة ..

وأخذوا الغزال الميت وعادوا إلى الخيام، فلم يجدوا الغلام في انتظارهم ، ولا الجمل ، فقلق سيف وأخذ ينظر في الأرض ، ثم قال : لقد كان هنا رجال !.. اركبوا خيولكم .. إنهم ساروا بهذا الاتجاه – وأشار بيده لمكان سيرهم – وساقوا الجمل معهم فهذه آثار خفه .

وبعد ركض سريع سمعوا صوت رغاء ناقة، ولما وصلوا إليها لم يجدوا عندها أحدا ، فقال سيف : يبدو أنهم أحسوا بنا ، فنحن قريبون منهم .

وأسرعوا مجددا فلمحوا عددا من الرجال على خيولهم مسرعين وهاربين ، فصاح سيف : توقفوا أيها الجبناء ! .. توقفوا .

فتركوا الخادم وأسرعوا هربا؛ ولكن سيف لم يرض بذلك ، بل ظل يركض وراءهم ، ويتبعه عبسان ، وقد نزلت جميلة لتهتم بالخادم الجريح كما ظهر لها ، وأدركهم سيف وأشهر الجميع سيوفهم ، وقبل أن تبدأ المعركة قال الأمير وهو يخفف من ركض الحصان ويدور حول نفسه : من الرجال ؟!

ثم دار حولهم وسمع أحدهم يقول : لصوص .. رجال ليل .. قتلة .. سفاحون !

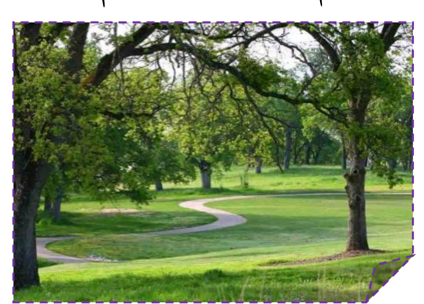
فقال سيف وهو مشهر سيفه نحو صدر أحدهم : ألم يخبركم الغلام بأنه غلام سيف بن الملك قيس؟!

فقال الرجل : بلى قد قال .. ولكننا طمعنا بالناقة وببيع المملوك .

فقال سيف : فأنتم لم تخشوا سيفي إذن ، من يريد منكم الموت أولا .

وأشار الرجل لرجاله بالهجوم.. فكان سيف يهاجم اللصوص ويدافع عن عبسان ، لا يريد أن يمس بأذى من أجل ليمونة ، وبعد قليل أقبلت الأميرة الشجاعة ، فهوى اللصوص بين جريح وقتيل ، وانصرف الأمراء وحملوا الغلام الجريح بذراعه إلى الخيمة ، فقد قام أحدهم بطعنه بذراعه ظانا بذلك إعاقة مطارديه عن المطاردة وإنشغالهم به ومعالجته، ولما وصلوا الخيمة وجدوا الوحوش قد نهشت الغزال ولم يبق منه إلا القليل ، فرماه سيف في الماء وهو يقول : لا نصيب لنا بأكل الغزلان اليوم .. ولكن لن أخرج من هذه الوادي قبل صيد غزال آخر!

وقاموا بمتابعة وإكمال إسعاف الغلام ، وصنعوا لأنفسهم طعاما مما يحملون من القديد .



دفائن الغضبان

سبحان الله ! اللصوص يقتلون ويسرقون ويجمعون الأموال ثم يهلكون ، فيأخذ هذه الذخائر والأموال غيرهم ، لما دخل الأمير سيف الزمان وأخته جميلة قلعة الجبل عمت فيها الأفراح ، وابتهج القوم بمشاهدة أولاد مليكهم بينهم ، وكان الأمير صقر قائد القلعة قد طاب له المقام فيها منذ بدأت الحملة منذ سنوات ، ومنذ بداية الإنشاء ، فبعد الترحيب الحار قال لهم : هذه المرة الثانية التي تزورنا الأميرة البطلة.. ففي المرة السابقة أتتنا الأميرة بسيف الفارس وهذه المرة ماذا تحمل لنا ؟!

فضحكت الأميرة وقالت : إنني مسرورة برؤياك يا عماه!..وتهديك السلام الأميرة عبلة والأهل كلهم ، وهم مشتاقون لرؤيتكم وينتظرون عودتكم .

فقال صقر : لقد أشرف البناء على الانتهاء ، فلم يبق سوى تضخيم الأسوار والأبراج وتأمين الممرات والطريق بين هذه القلعة والقلعة الأخرى .. لعلكم مررتم بها ورأيتم الأمير خزون .

فقال سيف : للأسف لا .. لم تكن طريقنا من جهتها ..جئنا من جهة السبع عدسات .. نحن كما قلت وأشرت قادمون لمهمة ، وهي تتلخص بإخراج كنوز الغضبان الدفينة في هذا الجبل في كهف من كهوف هذه الجبال .. وهذا عبسان كان أحد المقربين من الغضبان منذ خمسين سنة في هذه الجبال والوديان .

وحدثه عن عبسان بعض الحديث ، فقال الأمير صقر: على الرحب والسعة ، وإن قام رجالنا بإخراج الكثير من الدفائن .. بعضها بالتوفيق الإلهي ، وبعضها بسقطات المتسللين والمتنكرين فكل زعيم كان له مدفن خاص .

فقال عبسان: لأننا يا سيدي القائد عندما نهرب لا نأخذ شيئا ؛ لاعتقادنا أننا عائدون قريبا ولم يخطر على بالنا بناء مثل هذه القلعة في هذا المكان البعيد عن المدن العظام .. والحق أن الغضبان كان يترك كل شيء لرجاله ومساعديه إلا المال فكان يهتم به بنفسه ووحده ، ولقد قتل أكثر من ثلاثة أو أربعة صدفهم أثناء سيره لإخفاء المال ورغم قربي الشديد منه في السنوات الخوالي ، فقد

كنت من أزهد الناس في المال ، ولم أفكر يوما بمعرفة مدفن ومخبأ أموال الملك الغضبان .. ولكن لما أطلعني الأمير سيف على الغاية من زيارته لي في السبع عدسات ، فقلت لهم سأبذل قصارى جهدي في الوصول إلى مخبئه ، ولن نعجز في الوصول إليه .. فهو لم يكن أذكى وأفطن منا .

فقال صقر : صدقت .. فمرحبا بكم جميعا !.. وسوف أسمح لكم برؤية الأموال التي تمكنّا من الاستيلاء عليها في هذه المغارات والأنفاق ، لعل أموال الغضبان بينها.. ففيها كثير من المجوهرات والعقود والأساور والسيوف والخلاخيل والخواتيم ..

فقال سيف : لا بأس ، وإن كنت أظن أنكم لم تصلوا بعد لمدفن الغضبان .. فالشخص الوحيد الذي كان يعرف سره هو ابنه كلب الليل ؛ ولكنه قتل وهلك كما تعلمون وسمعتم .

فقال عبسان : وأنا أظن ذلك .. نحن لما نزلنا وأتينا وادي السرحان منذ سنوات وعقود كانت كل مجموعة من الرجال يُكونون عصابة .. وكنا زعماء كثر ، وكلنا أصحاب جرائم وجنايات اجتمعنا في هذا المكان البعيد عن المدن ، ومع الزمن قويت شوكة عصابتنا بهلاك كثير من الزعماء إما غدرا من رجالهم أو من حماة القوافل ، فأحيانا يتغلب حرس القوافل على اللصوص فبدأت عصابة الغضبان تكبر وتتضخم ، ثم سمح لنا بالزواج فدخلت النساء حياتنا ، ولقد كان كل زعيم مجموعة يموت يستولي الغضبان على أمواله وثروته ، وربما انضم بعض رجاله لعصابة الغضبان ؛ ولكن بعض الزعماء كانوا يصرون على البقاء وحدهم ؛ ولكنهم يخشون غدر الغضبان ورويدا رويدا أعلن نفسه سيدا كبيرا ومطاعا في جبل السرحان ووادي السرحان ، وقويت شوكته فكان يفرض على كل عصابة أتاوة تدفع له اتقاء شره ، وهذه الأتاوات تذهب لصندوق الغضبان وحده ، أما مغامرات عصابته فقد كان كريما معهم عندما تؤتى المسروقات يختار منها ما شاء ، ثم يبدأ الآخرون بأخذ ما يستحلونه من الحلي والذهب ، ثم توزع القطع الذهبية والفضية على المشاركين بالسوية ، وأصبح دينٌ أن كل من يموت فنصف ثروته للغضبان ، وكان كثير من الناس هنا هدفهم فقط الحياة ؛ لأن الطعام والنساء متوفرة ، وقد كانت علاقات الفلاحين وأهل القرى القريبة من بعض جهات الجبل طيبة ، ويدعموننا

بالخضراوات والحبوب ، وأشجار الفواكه تملأ الجبل والوادي ، ثم أصبح لدينا خدم وعبيد ومزارعون ، فقد كبرت مملكة الغضبان حتى خضع له في النهاية كل زعماء وادي السرحان من أوله لآخره ومن شرقه لغربه .. فأنشأ مجلسا لكبار القوم ، وحلقة السلاح لتدريب الأسرى الجدد ، أو المطاريد الجدد على آداب وقوانين الجبل .. فكنوز الغضبان كثيرة يخيل لي أن مغارة كبيرة تحتاج لها ، وقد يكون له أكثر من مدفن .

بعد هذا الكلام الكثير من عبسان قال سيف: أيها الأمير .. فعبسان يتصور أن الغضبان لم يكن يجد عناء ومشقة في إخفاء كنوزه وأمواله وما يستولي عليه ممن يموت أو سرقاته أو تآمره مع الملوك والطغاة .

فقال الأمير صقر: ما هو هذا التصور؟

فقال سيف : تحدثنا بذلك خلال هذه الرحلة إليكم من بلاد السبع عدسات إلى هنا .. فهو يرى أن نفقا كائن بين قصر الغضبان وأحد الآبار أو الكهوف .

فقال صقر باسما : لقد نقض رجالنا القصر حجرا حجرا ، واستعملوه في بناء الجدار الغربي ، ولم يبق من آثار القصر إلا القليل من الحجارة ، ولم نجد نفقا أو بئرا خفيا .

فقال عبسان: سيدي القائد ! فهم أثناء نقض الحجارة والقصر لم يكن جل اهتمامهم منصبا على مدخل سري أو سرداب خفي أيها الأمير .

فقال صقر مشجعا : ربما كان معك حق! غدا صباحا ابدءوا البحث .. فأنا سأرسل قريبا رسولا للملك قيس يعلمه بنقل كنوز هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق الجبناء ..

فقال سيف : إن شاء الله سأذهب بها أنا وجميلة، ومعها كنوز الغضبان وأموال أخي مرعي ؛ فأنا أريد رد تلك الأموال يا عماه .

ولما أراد القوم الخروج للنوم قال صقر: يا سيف كلمة وحدنا!

خرج جميع الجالسين ، وظل سيف وهو مستغرب لهذه الخلوة ، وسمع القائد يقول :اسمع يا ابن أخي .. أنت تعرف المعزة الجليلة بيني وبين والدك الملك ، وهو صديقي الأول في بلاد الرايات ، وأنا من الأوفياء لعرشكم العظيم .

فقال سيف وهـو أشد استغرابا لهذا الكلام : هذا أمر لا يحتاج لتدليل يا عماه ! .. فقد شغلت بالي وروحي ما الأمر ؟!

فقال صقر : لا تقلق!.. أنا أحببت أن أتكلم معك ؛ لأرى رأيك في قضية دقيقة في نظري

فقال سيف : تكلم يا سيدي الأمير ؟ أثرت الفزع في نفسي !

فقال صقر : لا تخف أيها الصديق !.. أنا أريد أن أكلمك حتى أسمع رأيك قبل أن أتحدث مع الملك قيس.. والأمر بشأن الأميرة جميلة .

تبسم الفارس وقال : زواج إذن!

فقال صقر: أجل أيها الفطن زواج ولدي عقاب .. له هوى بالأميرة الشجاعة جميلة ؛ ولكنه يخشى أن تصده كما صدت الكثير من أبناء الأمراء والقادة ، وإنها تزعم أنها غير راغبة بالزواج ومنذ أن عدت إلينا والناس يتحدثون عن تعلقكم ببعض ، فأريد رأيك ورأي أختك قبل الإقدام على ذلك الأمر الدقيق .

قبل أن يذكر سيف رأيه حدث الأمير صقر عن لقائه بابن الأمير ماجد ، وعرضه عليه ابنته ، وأنه يفكر جديا بالاقتران بها ، فدهش صقر وقال : ألم تجد غيرها ؟!

فقال سيف : لحتى الآن لا .. وأعلم أن الفتيات كثر ؛ ولكن الرجل يريد أن ينسى ميراث أبيه وثأره ، وأن يعيش بأمان ورعاية الملك قيس وحمايته ، وهو كما تعلم لا دخل له بماضي وجرائم أبيه ، وأنا كما تعلم عشت ما يزيد عن عشرين عاما في هذا الوادي ، بين عتاة اللصوص والقتلة فقد لا أحتمل أي امرأة تعيرني غدا بهذا الماضي ، فأفتك بها أو أشوهها ، أنت تعرف وتسمع عن غضبي وحدة طبعي .. فزواجي من ابنة أمير فيه رضا لشرف العائلة والملك ، والفتاة تعرف من

هو جدها ، فلا مجال لديها لتعييري وتذكيري بأي ماض .. وفوق ذلك فقد رأيت الفتاة واستحسنتها رغم غرورها ، ربما لتدللها الزائد .

فقال صقر بعد تأمل: كلامك معقول!.. ودائما تؤكد أنك من أذكى وأكيس الرجال وتنظر للأمام .. والإنسان لا يستطيع أن ينخلع من الماضي ، ونساء بلادنا فيهن مثل هذه الصفة الرذيلة من التحقير والتعيير والتفاخر.. فنساء قبيلتي من النادر أن يتزوجن من رجال القبائل الاخرى سوى قبيلة الملك قيس ، ورغم جهد الوزير عقاب واشهار والدي لبغضه لهذه العادة ما زال شيوخ القبيلة يعترضون على ذلك التغيير..إنك نعم الرجل والفارس والأمير!.. فأنا أول ساع لدى والدك لتحقيق غايتك من الزواج من قمر ؛ ولكن تبقى أمك الملكة

فقال سيف مـفكرا: لا أظن أن حقد أمي موجود بـعد كل هذه السنوات الطوال ، والرجل قد مات ولم يؤذِها بعد اندحاره في المعركة الأخيرة .. وأمي بعيدة ، لقد حاولت تزويجي من إحدى بنات بلادها للبقاء عندها ، فرفضت أنا وجميلة أيضا .. نحن هوانا في بلاد الرايات بكنف والدنا الحبيب .. وربما أفكر أن أسكن في هذه القلعة منزويا عن المدينة ، فهنا وديان وصيد غزير

فقال صقر: لا أظن أن يوافق أبوك على ذلك .. فهو يفكر بأن يجعلك وريثه على العرش بدلا من روح الزمان أخيك من الملكة الشماء .

فقال سيف : أنا قلت وذكرت له أنني راضٍ بحياتي وحيدا حرا غير مقيد بأدوار وأشكال ، وليبق العرش للأمير روح الزمان .

فقال صقر : إنك شهم وجبار يا سيف ! .. المهم أرجوك أن تنظر في أمر الأميرة .. جس نبضها فإن كانت مصرة على عدم الاقتران برجل .. سأجبر وألزم ولدي على أن لا يفكر فيها .. أتعرف الأمير عقاب أنت ؟..

فقال سيف : نعم ، وجلست معه عدة مرات ، وهو فارس أسد ، وهو شبيهك شكلا وصورة ولا أدري أيشبهك شجاعة وقوة ؟ ـ وتبسم ـ ..ولكن أختي الأميرة لابد أنها تعرفه !.. ولابد أن عبلة ابنتك قد حدثتها عنه .. فهي الصديقة العزيزة والاثيرة لدى الأميرة .

فقال صقر : ربما حدث ذلك .. أطلب مساعدتك أيها الصديق البطل .

فقال سيف : أبشر يا عماه بكل خير ومساعدة .. وسأحاول إقناعها به.. فالزواج لابد منه مهما طال الزمن .

وعندما دخل سيف حجرته وجد الأميرة في انتظاره ، لم تذهب لمخدع النوم ، فحياها تحية الليل وقبل أن ترد التحية قالت بجرأة وابتسام : من هو العروس من أولاد القائد صقر الذي اختاره لي يا ابن أمي وأبي ؟!

ضحك سيف، وهو يعلم ذكاء وشجاعة أخته ، فقال ضاحكا: وما أدراك أن هناك عروسا ؟!

فقالت باسمة : لو لم يكن في الأمر عروس؛ لأبقاني عمنا العزيز؛ ليسمع رأيي !

فقال: إنك أذكى مني !.. هناك رجل يريدك حليلة وأما لأولاده إذا قبلت به ، والأمير الباسل يريد أن أتشفع له عندك قبل أن يخاطر في الأمر الدقيق كما يراه .. فإذا كان عند أختنا العزيزة ميل في الزواج منه .. فسيتحدث مع الملك مباشرة ، وأما إذا لم يكن لديها ميل فكأن شيئا لم يحدث

فقالت: عقاب بن صقر؟!

فقال سيف دهشا : ويحك أكنت معنا ؟! .. أكنت تسمعين لحديثنا؟!

فقالت : لا .. ليست عندي هذا العادة .. أنا أعرف عمي صقر حق المعرفة ! وأعرف أدبه وشجاعته وصداقته لأبي .. فهو لا يحب أن يكسفه أبي لمَ بينهما من الصداقة والاخوة ، ولا يريد أن يحرج الملك الذي أطلق لفتاته الحرية في الاختيار.. والأخت عبلة سارتني بذلك ..

فقال سيف : وماذا قلت لها يومذاك؟!

فقالت : ما تظن أنني قلت لها ؟!

فقال : يا أختاه !.. إني ناعس.. ليس عندي وقت للتأمل والنظر ، هل رفضت كما تفعلين كل مرة أم ...؟!

قالت : لا .

قال : لا ! .

قالت : نعم ، لم أرفض الأمير؛ ولكني قلت لها عندما يتزوج سيدي وحبيبي سيف قد أوافق على الزواج من الأمير عقاب بن صقر.

فقال : سبحان الله !.. إذن يمكنني أن أقول للأمير صقر مبارك ، وتقدم بكل قوة .. فالأمير سيف قريب العهد من الزواج ، وقد حدثت عمي صقر عن قمر ، فأيدني وصوب اختياري .

فقالت باستغراب :صقر!.. صوب اختيارك.. ويلك ماذا قلت له؟! فالأمير صقر لا يؤيد قبل أن يسمع رأي وقول الملك قيس ..

قام عبسان إلى أطلال قصر الغضبان الذي هدم ونـقلت حجارته وأعمدته لتشييد الأبراج والأسوار في البناء الجديد.. نظر هنا وهناك ، ورفع بعض الأحجار المتبقية، فلم يجد شيئا تحتها أخذ يتحرك في حدائق القصر ، ويتذكر أماكن جلوس الغضبان ، ويتبعه سيف وجميلة وبعض الغلمان من الخدم والرقيق ، وقال لسيف : رغم ابتعادي عن هذا المكان أكثر من عشر سنوات أيها الأمير وعن الغضبان عشم ، لا أظن أنه غير مكان الكنوز ، لابد أنه استقر إلى مخبأ ما .. ولا أرى أنه من الأماكن المعقدة .. فالأموال كثيرة ، وتأتي بين كل فترة وأخرى من السطو ومن الملوك والتجار مقابل عدم تعرض رجال الجبل لقوافل مدنهم .. ويخيل لي أن الغضبان لحبه الجم للمال واللؤلؤ والياقوت أنه لا يطمئن على ثروته إلا برؤيتها في كل حين ووقت .. فهذه البساتين كانت ضمن قصره الضخم .. انظر إلى هذه الأشجار العالية كان الغضبان كثيرا ما ينام ويرقد عندها في النهار بل يتناول غداءه عندها فلنسير إليها ..

فقال سيف: أجل .. هذا العرائش كان يحب المكث عندها أيام الدفء والصيف.

ومشوا نحوها ، أشجار كثيفة عالية في السماء تشكل بتشابكها مكانا ظليلا ساكنا إلا من أصوات الطير الصغير .. وبدا الموقع مهجورا منذ موت الغضبان ، فحتى سرير الغضبان ما زال في مكانه ، وقد تراكم عليه الغبار والتراب ؛ كأن أحدا لم يجلس عليه أو يجلس في هذا المكان أحد منذ مات صاحبه ، ربما خوفا من صاحبه الهالك أن يراه فيه .. لقد كان وحشا رهيبا موغلا في سفك الدماء .

فقال سيف : هذا سريره ما زال موضعه مذ هلك ..

قال عبسان : هنا يجب أن نبحث عن سرداب أو حـفرة .

فقال سيف : هل نرفع السرير ؟!

رد عبسان : لا أظن أن شيئا تحته.. فالغضبان كسول ، ولا يثق بأحد .. ولا بأس من فعل ذلك فلربما ينشط عند إخفاء الذهب والفضة ..

قام الغلمان بتفكيك تخت الغضبان ونقله من مكانه ، وضرب عبسان بالفأس الأرض عدة ضربات هنا وهناك لعلها تصطدم بتجويف وفراغ ،ولكن لم يحصل ذلك .

فقال سيف : لم أكن أشعر يوما ما بذكاء الغضبان يا أبا النهار.. كنت أرى ذكاءه فقط في قسوته وسفكه للدم .

فقال عبسان: بل كان ذكيا وشجاعا ؛ وإنما أدركته أنت في شيخوخته واستقرار ملكه ، وإلا كيف تملك على هذه الجبال ؟ وعلى هؤلاء الوحوش الأشداء ؟!

قالت جميلة : صدقت يا أبا النهار ! مهما أوتي الرجل من قوة البدن ، لابد من رجاحة العقل والفكر .

أخذ عبسان يتنقل في المكان ويضرب بقدمه الأرض ، وأحيانا بالفأس ، ثم اقترب من شجرة ضخمة الساق ، وأخذ يتحسس ساقها بيديه ، ثم انتقل إلى الجهة التي لا ترى من مكان جلوس الغضبان أو من الاضطجاع على سرير الغضبان ، وهناك وجد قرب الساق فتحة مغلقة بقطعة من الشجرة وعليها اوراق كثيرة متساقطة.. وجد ثغرة ينفذ منها رجل واحد ، فأخرج الخشبة المغلق بها الثغرة وقال فرحا : ها نحن وصلنا للكنز تعالوا !

فأسرع القوم ودهشوا للباب الصغير المصنوع بذكاء قرب ساق الشجرة وجذع الشجرة الكبيرة ، والذي تخفيه سيقان الأشجار القريبة بحيث تخفيه عن أعين الناظرين ، وتخفي من يقف أمامه ، أدخل عبسان بدنه وقال : أريد مصباحا .. فالمصباح المعلق عند السرير على الشجرة تلك هو مصباح الغضبان .

فقال سيف : يا له من ماكر ! فهو عندما يقف أمام هذه الفتحة يرى من يتحسس عليه ، ولا يراه أحد ، فالأشجار تلفه بجذوعها الكبيرة ، والذي يجلس في مقعده وعلى سريره لا يمكن أن يرى هذه الطاقة إنه يرى جذع شجرة ضخم .

أتى أحد الغلمان بمصباح ، وتسلل عبسان من الثغرة ، ووراءه سيف ثم جميلة.. هبطوا سلما من عند جذع الشجرة الضخم يدخل في جوف الأرض ، مشوا تحت الأرض مشوا وقتا ليسا قصيرا ثم أصبحوا داخل مغارة .

فقال عبسان: لا أدري كيف صنع ذلك الغضبان ؟! لابد أن الرجال الذين حفروا هذا النفق قد ماتوا ..!

تطلع القوم في جوف المغارة ، ولم يطل بحثهم ، فقد وجدوا صندوقين كبيرين ممتلئين بالمال وبعض العقود والجواهر والخناجر الذهبية .

فقال عبسان: لا أظن أن هذه فقط ثروة الغضبان ! بل وضعت للتمويه والخداع .. فعندما يجدها المتسلل يظن أن هذه ثروة الرجل فيقنع بها وينصرف .. إنه صاحبي ، وكان من أخبث وأمكر الرجال يا سيف ..

فقالت جميلة : صدقت يا أبا النهار .. فعندما يقوم أحدهم بمكر ضده ، ويصل إلى هذا السر ويجد هذين الصندوقين يظن أنهما هما كل ثروة الغضبان ، لقد كان يحسب حساب الغدر والتآمر على شخصه ، وكما قلت لا يثق بأحد .

واستمر البحث فوجدوا بابا مخفيا في المغارة فكسروه وتابعوا المسير في نفق جديد حتى وصلوا إلى كهف آخر ، وهناك وجدوا صناديق الغضبان قل عشرة قل أكثر .. صندوق فيه جواهر اللؤلؤ وآخر العقيق والياقوت .. الذهب .. السيوف والمدى والعقود وغير ذلك من الأموال الثمينة والتحف النادرة ..

ولما تأكدوا أن لا مخرج آخر ولا منفذ كروا آيبين ، فوجدوا الأمير القائد صقر واقفا أمام الشجرة ومعه الفرسان وهو في دهشة وخوف ، فبشروه بالوصول إلى الكنوز والدفائن ، فأمر بحفر

النفق ، ثم تساقط الغلمان والخدم وقاموا بإخراج أموال وصناديق الغضبان ، فكانت ثروة مذهلة للجميع ..



الزواج الأخير

لما وصلت كنوز وادي السرحان لبلاد الرايات كان يوم مشهودا في المدينة ، وتعجب الناس من كل هذه الأموال والدفائن التي جمعها ملك اللصوص بالسفك والقتل والسطو، ثم أصبحت ملكا لملك بلاد الرايات ، فكان الملك يشارك الناس تعجبهم وانبهارهم ، ويقول لمن حوله : كم قتلوا وسلبوا ونهبوا واغتصبوا وأهلكوا من البشر حتى يجمعوا كل هذه الأموال ؟! ثم هلكوا وماتوا ولم ينتفعوا بها ، بل جمعوها لنأخذها في النهاية نحن ، ثم سنورثها لذاررينا .. لله في خلقه شؤون ! هم يجمعون ونحن نستفيد منها ونتمتع فيها ، هكذا حال اللصوص .

وقدم وفد بلاد الأكباش وأخذوا ما يتذكرونه من أموالهم ، وزادهم الملك قيس كثيرا وأمر ببيع المجوهرات والتحف النادرة إلى تجار الذهب والجواهر ، ثم أمر بتوزيع الأموال على الجنود والمحاربين والفقراء والأيتام في البلاد ، فنعم هؤلاء بخيرات وكنوز اللصوص ، وفرح الملك بموافقة الأميرة جميلة على الزواج من ابن صديقه العزيز الأمير صقر ، وأعلن النبأ في القصر والبلاد ، وكأن أحدا لم يكن يصدق أن الأميرة سوف تتزوج بهذه الطريقة البسيطة ، فكان يخيل إليهم أنها تنتظر الاقتران بملك كبير أو فارس نادر المثال ، وتأخر حفل القران حتى يأتي الأمير ماجد وابنته قمر ، فقد قبل الملك قيس اختيار الأمير سيف وأعلمه أنه ليس بينه وبين الأمير ماجد ثأر وحقد ، وأن قصة الماضي هي ماضي وأنه لم ير الأمير ماجد ذاك سوى بضع مرات ، إنما كانت مشكلته مع أمه الملكة سُلمى ولما علمت سُلمى بخطبة الأميرة جميلة أتت بوفد كبير من بلادها للتهنئة والتبريك ، ومعها الملك الشاب مرعي وتصافحت مع ابنتها ، وباركت لها هذا الاختيار والزواج ، وقالت : إن الأمير صقر رجل مقدام وكل أسرته ووالده من قبل كذلك وهو من خير الرجال ، لقد كان نعم الأخ والصديق لوالدك الملك ، فلا أظن إلا ابنه عقاب مثله مبارك لك أيتها الأميرة هذا الاقتران .

قبلت جميلة رأس أمها ، واعتذرت عما سببته لها من ضيق ذاك اليوم ، وقالت : أشكرك يا أماه ! مع معرفتي أن هواك كان أن أتزوج في بلادك ؛ ولكني متعلق بهذه البلاد .. وقد كلفني سيف

أن أحدثك عن عروسه .

فقالت الأم: هو الآخر وجد عروسا.. رائع هذا! أخبريني من هي عروسه الحسناء ؟ .. هل هي عبلة ابنة صقر؟!

فقالت جميلة : يا ليت ذلك كان! .. لا ، إنما هي قريبة لك .

فقالت الملكة بحيرة واستغراب: ويحك !! قريبة لي .. وهل لي أقارب سواكم ؟

فقالت جميلة : أتذكرين ابن خالك الأمير ماجد؟!

جفلت الأم وحملقت في عيني جميلة وقالت بعد صبر وذكريات : أو أنساه ؟! .. ألم يكن هو سبب عذابي ؟

فقالت جميلة: ولكن هذا العذاب جعلك ملكة يا أماه وأم ملك وزوجة ملك !

فقالت الأم : ويحك مرة أخرى !.. وهل أنسى روح أبي واخوتي ؟!

فقالت الأميرة : هذا ماض قديم .. والأمير ماجد نفسه قد مات وهلك .

تنهدت الملكة وقالت : خشيت شيئا رهيبا ..

فقالت جميلة: يا أمي عليك بنسيان الماضي .. فالرجل قد هلك وترك ابنا اسمه ماجد وبنتا .. ولما جدهذا ابنة جميلة ، وهبها والدها لسيف لينسى الجميع التاريخ القديم .. وقد رضي الأمير سيف الزمان بها حليلة لحاجة في نفسه ..

أظهرت الملكة الامتعاض والضيق ، وقامت جميلة بإقناعها بالرضا ، وأن سيف قبلها ، ويرى أن حياته وسعادته ستكون معها ، ولما جلست الملكة مع سيف حدثها بالكلام الذي ذكره أمام الأمير صقر، وذكرناه في وادي السرحان ، فوجدت الأم أن في كلامه كثيرا من الإقناع والصواب ، فباركت له ذلك الزواج .

وبعد أيام أتى الأمير ماجد وحاشيته وابنته العروس ، ودخلوا على الملك قيس وأبدى أسفه واعتذاره عن أفعال أبيه ، فعانقه الملك قيس وخلع عليه وقال : يا ولدي أنا لم يكن بيني وبين أبيك أي عداوة أو حقد .. نحن طلبنا الأميرة ذاك الزمان ، ووافق أهلها ، فكانت مشاكله مع

قومه ، وأراد منع هذا الزواج وجرى ما حدثك به ، وأنت الآن صهرنا ونسيبنا تعالي يا قمر فاقتربت قمر الحسناء من الملك وقبلت يديه ومسح على رأسها وبارك لها بعروسها سيف، وجرى الصلح بين الملكة سُلمى وابن ابن خالها ماجد ، وقالت الملكة : كما قالت ابنتي جميلة الماضي يبقى ماضي ، ولو رضي والدك بزواجي من الملك قيس ، ولم يخطفني ما جرت كل هذه الأحداث التي عايشناها ، وأنا لا أحمل لكم أي ضغينة والذي فات مات والله يغفر للجميع ! فانحنى الرجل مقبلا ليد الملكة وشاكرا لعطفها وحامدا لله على الساعة التي لقي فيها سيف وجميلة .

وكانت قمر تكاد تطير من الفرح لمَ تحقق لأبيها من العفو والصفح ، وهو البريء من أفعال أبيه وفرحت أكثر عندما تم عقد زواجها على الأمير الباسل سيف بن قيس ، وعلى أثر ذلك أعلن الملك الأفراح سبعة أيام في بلاد الرايات .

وتوافد الأمراء والفرسان للمشاركة في هذا العرس الكبير الذي أقامه الملك قيس لولديه الأمير سيف الزمان والأميرة جميلة، واحتفل الشعب كله بزواج الأمراء ، وأطعم الفقراء ، وكساهم الملك ، وتصدق بالمال والخير الكثير ، حتى أن أنباء الإحسان الذي بذله الملك في بلاد الرايات وصل للمدن والقرى المجاورة ، فهرع الضعفاء والفقراء إليها ، ثم تم زفاف العروسين بسلام وأمان وبهجة .

وبعد سنة من هذا الزواج السعيد كان الأمير سيف يجلس في حديقة قصر الأقواس وبين يديه طفلة جميلة ، ويقول لمن حوله : هذا عروس جميلة يا ابنة الملوك وأخت الملوك !

فترد الأميرة بابتسامة حسناء: لقد وافق الأمير عقاب على أن تكون هذه الجميلة لولدك أسد !

وأخذت تعانق وتقبل ابن أخيها الذي بين يديها بحب وسعادة ، ثم قالت : الصغيرة تنتظر هدية خالها .. فالملك قيس قد أهداها تاجا صغيرا من الذهب وحبات اللؤلؤ .

فقال سيف باسما ومداعبا : أنا سأهديها فلذة كبدي أسد الزمان .. ألا يكـفي هذا هدية؟!

فقال الأمير عقاب : إنه أجمل هدية يا أبا أسد! .. فـهند لكم إن رضي بها أسد عندما يصبح أسدا هصورا كأبيه .

فقال سيف بعدما أثنى على صهره الثناء الحسن : إننا زائرون لعمي ماجد، فما رأيك أبا هند بمرافقتنا في هذه الرحلة ؟ .. فالأميرة جميلة لها سنة لم تخرج من القصر منذ حملت بزوجة ابني وهي محبوسة في القصر.

فالتفت عقاب لزوجته وقال : الأمر لها .. فهي مليكتي .. فـجميلة كنز .. فكثير من الأحباب كانوا يتخوفون من زواجنا ، ويظنون أن مصيره الفشل ، فقد كانوا يرون في الأميرة رجلا بثياب امرأة وليست أنثى! ولكنها خيبت ظنون الجميع .

وأخذ الجميع بالضحك ، وقالت جميلة : ما دام أن الأمير الحبيب ترك الأمر لي .. فأنا أيضا أقول إذا وافق زوجي الحبيب على هذا السفر فأنا موافقة .. وأيضا لا تكـفي موافقته وحده بل يجب أن يوافق عمنا الكبير صقر فأنا أحبه وأحب موافقته .

فقال عقاب : ووالدي يحبك جدا ومعجب بك ، ولم يكن يصدق أن تكوني كنته لِـمَ اشتهر عنك من رفض الزواج والفتيان .. فهو يحبكم ويحب سيفا حبا كبيرا ، ويسر بالجلوس معه .

فقال سيف وهو ينادي على الخدم والمراضع : تعالوا خذوا هؤلاء الأطفال .. وهيا بنا نزور الأمير الشجاع صقر بن غراب .

سعد الأمير صقر بلقائهم وأظهر سعادته وسروره ، وقدم لهم أجمل العشاء ، وقال بعدما عرف سبب مجيئهم : بل سأكون أولكم في هذه الرحلة ؛ فأنا أحب صحبتكم وصحبة ابنتي جميلة الطيبة !

قبلت الأميرة رأس الأمير وقالت : نعم العم أنت يا عماه !

وبعد عشرين سنة أيها الاخوة الكرام تم زفاف الأميرة هند بنت عقاب وجميلة على الأمير أسد الزمان بن الأمير سيف الزمان وقمر .. وهذا آخر ما نعلمه من قصة الأمير سيف الزمان وأخته الحسناء جميلة بنت قيس ملك بلاد الرايات .

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز ووليدها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

سيف الزمان وجميلة



تزوج الأميرة المخطوفة بعد إنقاذها من عصابات جبل ضراب

وشرع معها من الانتقام من القتلة

ويوم تحقق النصر خطف ابنه سيف الصغير

وبعد ربع قرن عرفوا أين يعيش الأمير سيف المخطوف طفلا

فاذا هو كبير اللصوص في وادي السرحان

فكانت رحلة من الأميرة جميلة للسرحان

وعاد الأمير لبلاده أميرا وبطلا وشجاعا

وأعاد الكنوز المسروقة لأصحابها

وحققا الأماني التي حلم بها

تمتع بقصة سيف زوابع وشقيقته الفارسة جميلة!





حكاية

ريح البحر

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٦

جمال شاهين

٢٠١٠

حكاية

ريح البحر

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

حكاية ريح البحر


حكاية
تحت البحر

كشف السر

جرت أحداث مهمة قبل أن نبدأ في قص هذه الحكاية حكاية ريح البحر ، وسيأتي بيانها خلال الصفحات المقبلة ، ولكني أبدأ القصة عندما بلغ الأمير خالد أحد أبطال هذه القصة خمسة عشر ربيعا ، وأحس أنه أصبح رجلا يستطيع التدخل في تقرير مصيره واختياراته ، والسبب أنه في هذه السنة قد سمع بعض أحداث قصة أمه ، عرف أن أمه الأميرة طردت طردا من مدينة '' الماعز السمرة '' قبل عشر سنوات ، يوم كان طفلا صغيرا ذا خمس سنوات ، لقد كان يظن أن والده هلك في حرب من الحروب التي نشبت بين مدينتين ، وأن خاله الملك يقوم على رعايته عرفانا بمقتل أبيه من أجل بلادهم وديارهم ، هكذا كان يعتقد ، وهكذا كانت أمه تظهر ، أما أن والده حي وأمير كبير من أمراء الماعز السمرة فهذا لم يطلع عليه إلا من وقت حديث ، وقد ضاق ذرعا من فعل أمه ، ولامها في نفسه لإخفاء هذه الحقيقة .

قد استغرب من تصرف القوم ، وود لو ينصرف من الصيد قافلا لمدينة أمه 'القمحة' ليعرف صدق الحقيقة التي قيلت له همسا ، وهو يُسائل نفسه : لماذا أخبرني ذاك الرجل بهذا السر ؟!

كان الأمير الشاب مع بعض أقاربه وأولاد أخواله في رحلة صيد معتادة في وادي الصيد القريب من مدينتهم ، وعند عين ماء التقوا برجال من مدينة الماعز يتصيدون في نفس الوادي ، فهو قريب بين المدينتين يبعد عن كل مدينة مسيرة ثلاث ليال .. ولما عرف الرجل الكهل أنهم من أمراء مدينة القمحة ، وعرف أن خالدا ابن الأميرة صيد تذكر حكايتها التي دارت في بلاد الماعز وسمع الأمير ينسب لرجل من بلاد القمحة.. فأخبره أن أباه حي ومن بلاد الماعز فقال له همسا: أمك الأميرة كانت متزوجة في أرضنا ومدينتنا يا خالد ، وأبوك هو الأمير رضوان من أمرائنا .

فقال خالد مستغربا: لم أسمع بذلك أيها الرجل !.. أنا والدي مات في الحرب !

فابتعدا عن القوم وجلسا على تلة بحيث يراهم رجال المدينتين فقال الرجل الكهل : أين أعمامك في مدينتكم ؟ أين جدك لأبيك ؟ أين أقارب أبيك ؟ ألم تسأل نفسك مثل هذه السؤال؟ أكلهم ميتون ؟! أنت تشبه أباك رضوان فإذا قدرت لك رؤيته سترى أنك شبيهه.. وسوف أخبره بأنك

أصبحت شابا فارسا ليطلبك.. تحقق أيها الفارس مما قلته لك من أمك ولسوف تقر بها قلته .. هيا بنا نلحق بالقوم فهم يشيرون إلينا. عاد خالد ملبيا نداء رجال قومه وهو غارق الفكر بما سمع من كلام الرجل الكهل ، ولما وصل خيمة أمير الحملة وهو أحد أبناء أخواله قال ورآه مغضبا : يا خالد لماذا تجلس مع هؤلاء الأغراب ؟!

صمت خالد ولم يرد فهو مشغول الذهن بما أخبر .. ولما لم يرد أشار له الأمير بالجلوس مع أبناء عشيرته وفرسانهم ، وبعد حين يسير انصرف رجال مدينة الماعز وتركوا المكان لرجال مدينة القمحة وقد سقوا دوابهم وملئوا قربهم ، ولزم خالد الوجوم والصمت منذ سمع كلام رجل مدينة الماعز حتى قفلت الفرقة عائدة للبلاد ، فقد صدم بما علم من حياة أبيه ، ومن بعد أمه عن أبيه، هو كان يعتقد أن أمه أرملة .. لذلك كان يهمس لنفسه وهم يطاردون الصيد " أين أعمامي فعلا ؟! أين جدي لأبي ؟! أين أبناء عمومتي ؟.. لماذا لم أفكر بهذه الأسئلة ؟! لقد فهمت واستوعبت أن أبي غريب وحيد.. عاش في مدينتنا.. ليس له أهل هنا .. وأنه مات بعد زواجه من أمي .. وتركني أنا وأخي يزيد وأخي زيادا في رعاية جدنا ثم خالنا الملك .

وكان يتسأل الفتى : ما دام والدي حيا لماذا نحن عند أخوالنا ؟! لماذا تخلى عنا أبونا رضوان ..؟ هل صدق الرجل فيما أخبر؟! .. أبي اسمه رضوان وأنا شبيهه.. هل هذا الرجل صادق ؟! .. منذ وعيت وأنا أعتقد أني ابن قتيل المعارك .. وأني يتيم .

وأمضى الأمير خالد أيام الصيد وهو في شرود وغضب مكتوم من حاله ومما حدث ، وكان ينتظر بفروغ الصبر ساعة العودة ؛ ليعرف الحقيقة من أمه ويلومها على فعلها ، ويعرف أسباب كتمان هذا الأمر عنه.. ولماذا هي هنا وليست عن زوجها؟!هل أصابت شيئا قبيحا ؟ أمي طيبة عاقلة.. لعل الرجل مدسوس.. متى نصل لبلاد القمحة ؟ لماذا تخليت عن أمي يا أمير رضوان ؟!.. أبي حي يرزق ولا يهتم بنا ، ولا يسأل عنا ولا يكترث بنا.. خواطر سوداء ترتسم في الذهن.. لماذا يا أبي تركتنا كل هذا الزمن .. لماذا ؟!!

الأميرة صيد

أدركت الأم صيد أم خالد بحسها حزن ولدها البكر ، ولاحظت الهم الذي يكتنفه منذ التقيا، فقد كان من عادة الأمير إذا رجع من الصيد أن يدخل عليها فرحا جذلا ويحتضنها معانقا ، ويأخذ بالحديث عن تفاصيل تلك الرحلة والمغامرة ، وعن الحيوان التي تمكنوا من صيدها ، فتسعد بما تسمع ويغمر قلبها الحبور، وقد لاحظت عليه هذه المرة اختلاس النظر إليها بطريقة مريبة لم تعتادها منه، قالت لنفسها : حدث شيء للولد !

فلما عاد من الحمام ، وجلسوا على مائدة الطعام لزم الفتى الصمت على غير العادة أيضا ، فلما رفعت المائدة ، وأراد الفتى المغادرة قالت له أمه : اجلس يا خالد .

فعاد الفتى إلى مكانه وأشارت لولديها الآخرين بالانصراف وقالت: ما بك يا خالد ؟ أراك كئيبا هل ضايقك أحد من رجال الرحلة ؟ هل الأمير فواز أساء لك ؟!

نظر في وجهها لحظات ثم غض بصره وقال : إني في حيرة يا أمي !

صاحت بارتباك وخوف : حيرة !! ما الذي يؤلمك ويحيرك ؟!

ـ أتحبينني يا أمي ؟

بهتت الأم لهذا السؤال، وهل تسأل الأم عن حبها لولدها ، فهو حب فطري فقالت : ويك .. أتشك بحبي لكم؟!هذا والذي نعبده بحق سؤالك عجيب !.. أنتم قرة عيني وأنتم حياتي .. سؤالك خطير يا بني !

توقف لحظات عن الرد ثم قال: أمي أنا أحبك .. أحبك كثيرا .. وقلبي مليء بحبك ولكن.. أين أبي ؟ أأبي ميت ؟!

وجمت الأم وزادت دهشتها وبدت حيرتها ، وأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها وقالت مرددة : أين أبي ؟!

ـ نعم ، أحي أبي ؟

ـ حدثني بكل ما حدث لك في صيدك .. لعلي أجيبك عن سؤلك .

ـ أخبريني قبل أن أخبرك بما علمت أثناء الصيد .. هل أبي حي يرزق ؟!

ـ حسنا، أبوك على حسب علمي حي .

ـ حسب علمك .

ـ أنا لم أقل لك يوما ما أن أباك هالك.. وإنما شاع ذلك في بلادنا.. للعداوة التي بين قوم أبيك وقومنا.. فاعتبروه ميتا.. ولزمت السكوت لأنكم تعيشون في كنف أخوالكم وبغير أب..

ـ ولماذا نحن بدون أب ؟!

نهضت الأم قائمة تتمشى في الحجرة ، ثم نظرت لولدها قائلة : حدثني بما جرى معك بالصيد وبمن فتح معك هذا الحديث عن أبيك ؟.. حتى أروي قصتي مع والدك كاملة.. منذ عدت وأنت على غير عادتك ..كنت كلما عدت من صيد تقبل علي مخبرا لي بكل شيء يا خالد ! أأحد من قومنا أساء لك ؟

ـ لا .

تنهدت بفرح ظاهر ، ثم قالت : الحمد لله رب العالمين .

ـ التقيت بقوم من أهل أبي كما أدركت اليوم ..سارّني رجل من بلاد الماعز السمرة بحديث.. لما علم أننا من بلاد القمحة وأخبرني بأنني أشبه أبي الأمير رضوان.. ولابد أن أكون ابنه من الأميرة صيد .

ـ نعم ، لا أحد يقول غير هذا ، أبوك الأمير رضوان من أبطال وفرسان تلك الديار .. لكنهم طردونا طرد الكلاب الضالة.. فغضب جدك الملك أبي منهم غضبا شديدا ومن أبيك رضوان لرميهم لنا رمي الجيف .. عندما جئنا من بلاد الماعز كنت ابن خمس سنوات ، ويزيد يصغرك بعامين وزياد كان رضيعا على صدري بعد.. وبما أنك ترى من نفسك أنك رجل فاسمع حكاية أمك. قال: أرجو ألا يؤلمك الحديث .

ـ سيؤلمني؛ ولكن لابد لك من سماعه حتى لا تسيء إلى أمك وتظن بها الظنون.

ـ لا يمكن ذلك يا أماه ! ـ وسواس الشيطان أقوى منك .

زواج صيد

كان جدك والد أبيك الملك شامخ العسلاني ملك بلاد الماعز في ضيافة الملك نادر ملك بلاد الرمان في حفل زواج لأحد أبنائه ، وكان أبي الملك مدعوا أيضا ، فأبي صديق للملك نادر، وفي مثل هذه الأفراح يذهب وفد كبير من الرجال والنساء لمشاهدة العرس الملكي ، وصحبت أمي في هذه الرحلة وأنا ابنة ثلاث عشرة سنة يا ولدي.. جلسنا مع كثير من الحريم والنساء ضيوف الملك نادر.. وللقدر المقدر كانت في الحفل بعض زوجات الملك شامخ وتعرفنا علينا وبعد انتهاء الحفل بأيام حضر وفد من بلاد أبيك خاطبا لي من أبي الملك ، وحدثوا عن إعجاب إحدى نساء شامخ بجمالي وحسني عندما رأتني في عرس ابن الملك نادر .. مع أن تلك الجدة لك لم تحدث أمي عن زواج ومصاهرة .. ربما لم تفعل لتشاور بعلها الملك ..المهم أن أبي الملك رحب بذلك وأثنى على جدك شامخ الثناء الحسن أمام الوفد ، ووافق على اقتراني بالأمير رضوان .. ثم زارنا الأمير رضوان.. وبعد سنة من المراسلات والزيارات عقد الزواج وأصبحت زوجة للأمير رضوان ، ورحلت لبلاد الماعز.. وسكنت في قصر جدك شامخ مع زوجات الملك وزوجات أبنائه الأخريات.. وكنت سعيدة بأبيك الأمير.. وفرحنا معا بمولدك ، وسعد جدك الملك بولادتك وسماك خالدا آملا بطول العمر لك.. ولكن مكر القصور وحكايات النساء كثيرة لا تنتهي .. وأنا كنت في وسطهن غريبة، ليست من بلاد الماعز، لا رجال حولي من قومي ولا نساء أثق بهن وأتناجى معهنّ.. فاخترت العزلة قدر الإمكان.. وولد أخوك يزيد بفضل الله تعالى .. وبدأ وضعي يسوء في القصر، وأتهم بالكبر والدس والاستحواذ على أبيك، وامنعه من معاشرة رجال قومه.. وما كان لي صبر على الخلافات والمنازعات، فرجوت أباك أن يسكنني في قصر خاص به.. وكان لأبيك ولسائر أعمامك قصورهم الخاصة ؛ ولكن كان من سياسة جدك أن لا تسكن امرأة من نساء أبنائه إلا في قصره الكبير.. فإذا لم يرتح لها يطردها وزوجها إلى القصر الخاص بالأمير وتصبح منبوذة ومكروهة.. كان جدك يقدر أبي .. وكان يحب بقاءنا حوله ؛ ولكن لما أخبره أبوك برغبتي تلك أذن لنا بالرحيل لقصر الأمير رضوان.. فزاد عداء نساء الملك

لي بدل أن ينقص ويزول.. فحاولت بعض زوجات الأبناء تقليدنا وأن يفعلوا مثلنا ، فضاق قلب جدك وأظهر غضبه.. وظل القيل والقال عني .. وكان أبوك أحيانا كثيرة يغيب عن القصر في الصيد أو الزيارات أو المعارك التي يشنها جدك..

وصمت برهة أخذت فيها نفسا عميقا ومسحت دموعا سالت على وجنتيها وقالت : ولما ولد شقيقك زياد ..اتهموني بالفاحشة والزنا مع أحد حراس القصر.. أرأيت قسوة نساء جدك ونساء أعمامك ؟! .. وانتشر وشاع الخبر كالنار في الهشيم.. وأصبح الخبر كحقيقة ويقين.. فصعقت لهذا الاتهام الشنيع وزاد سقمي ومرضت.. وأبوك لم يسندني وخذلني ، وصدق الشائعات والدسائس التي أثيرت حولي ، ولم يدافع عن شرفه وشرفي.. وكان مصيري الطرد والإهانة.. ولكن أباك أرسلني لأهلي ومعي بعض فرسانه.. وكان أبي على قيد الحياة ، فأخبرته بحكايتي وبراءتي، ومما يشنع عليّ ، والظلم الذي وقع عليّ.. وكادت تنشب بين المدينتين حربا ولكني ترجيت والدي بأن يدع الثأر والانتقام لله سبحانه، ولا أحب أن تهرق قطرة دم من أجلي لأنهم سيبقون أباء أولادي.. فغير أبي اسم أبيكم وأشاع أن أباكم قد مات في إحدى المعارك في بلاده .. فيظن من يسمع ذلك ويعرف الأمير رضوان أنني ترملت وعدت للحياة في كنف أبي عليه الرحمات.. ورفضت الزواج من رجل آخر ، ونذرت نفسي لكم وللعناية بكم.. ومضت الأيام على ذلك يا بني .. وأنا أقسمت الأيمان المغلظة لأبي أنني شريفة وما كشف ستري إلا لزوجي الأمير.. أبوك.. وإنني طاهرة .. وبعد سنتين أرسلوا وفدا لردي إليهم ، فرفض أبي أشد الرفض ، وطرد الوسطاء ولا كرامة .. هذه قصة أمك يا أمير خالد.. أمك طاهرة عفيفة .. ولم يكن من المناسب مكاشفتك بهذه الأسرار وأنت صغير ، وأن أحدثك عن عشيرتك التي طردتكم معي ..هم طبعا لم يشكوا في مولدك ومولد يزيد، إنهم فقط يشكون بأني أنجبت زيادا وحده من الزنا.. وراجت هذه التهمة لأنه الوحيد الذي لم يلد في قصر جدتك .. وأبوك جاراهم في هذا الاتهام مسايرة لأمه وخوفا من والده الذي لزم الصمت في هذه القضية .. حتى لا يفسح المجال لخروج نساء أبنائه الباقيات من قصره الكبير وسكت أبوك كذلك طمعا بالملك من بعد

موت أبيه شامخ عسى أن يختاره دون إخوته وريثا.. فسكت ورضخ للاتهام ..وصدق أمه بتهمتها لي .. ولم يدافع عن شرفي وعرضي.. واعلم يا ولدي أن جدك أبي رعاك حق الرعاية ، وأوصى خالك الملك عدنان بكم خيرا .



خلوة الملك

خلا الملك عدنان ملك بلاد القمحة بابن أخته خالد بعدما روت له شقيقته صيد ما حدث لبكرها في واد الصيد ، فقال له: مالك مغضب أمك يا خالد ؟!.. وقد روت لك قصة زواجها من أبيك الأمير رضوان ابن الملك شامخ .. وقد روت لك قصة اتهام قوم أبيك لها بالفاحشة والخيانة.. وهي ابنة الأشراف والأطهار، ولم يعرف هذا الفحش فينا.. هل سمعت بأن أحدا من أخوالك غرر بفتاة وزنى بها ؟.. قد حفظنا الله من ذلك .. وأمك العفيفة رفضت الزواج مرة أخرى من أجلكم.. ولما مات أبي الملك وجعلت ملكا للبلاد مكانه قلت لأمك الطاهرة " إن الوالد قد مات إلى رحمة الله الواسعة لماذا لا تنكحين أحد الفرسان والأمراء؟.. فما زلت فتية تحسنين التبعل؟.. فقالت لي أنا ووعته أذناي " إنها لن تتزوج حتى ولو مات الأمير رضوان .. أنا نذرت نفسي للعناية بأولادي حتى يكبروا ويتزوجوا " واحترمنا قرارها واختيارها وصبرها.. ونشأتم في بلادنا كأبنائنا وتحت رعايتنا وحمايتنا.. وجئت أنت بلادنا وعمرك خمس سنوات .. ولم يحدث أن جرح أحد منا مشاعركم بكلمة.. أما عشيرة أبيك فقد طردوا أمك طردا طرد الكلاب الضالة.. مرة واحدة فكروا بكم .. بعد سنوات من طرد الأميرة صيد .. أرسلوا بطلبكم أنت ويزيد فقط .. أما زياد فلم يذكروه ، فهم ينكرونه ولا يعترفون بأنه ابنهم أتعي ما أقول يا ابن الأجواد؟!..أبوك الأمير منذ طرد أمكم لم يأت إلى هنا مرة واحدة بحجة رؤيتكم .. وهذا لا يضيرنا ولا يهمنا مجيئه .. لا تغضب أمك.. وتعظم الأمر بأننا أخفينا عنك حقيقة أهلك.. فها هم أهلك ليبعثوا إليك وليأخذوك إذا أحسست أنك مهضوم الجناح .. نحن من واجبنا أن نرعاكم ونحسن تربيتكم ..تكلم لمَ أنت متضايق من أمك الضعيفة المظلومة أتشك بأن أمك بغت كما أشاع قومك بأحد حرس أبيك؟.. يا ولدي لو شككنا بشيء مما تقوّلوه أتظن أن جدك أبقى أمك على قيد الحياة ؟..لسفكنا دمها جميعنا.

ـ يا مولاي الملك! ..كان يجب أن تخبرني من زمن بابن من نحن ؟.. لا أن تظل صامتة.. أن نظل معتقدين أننا أيتام ولا عشيرة لنا ولا قوم لنا .. أبونا حي يرزق ولا نعرف هذا .. هذا أمر

قاسٍ يثير الشجن .

ـ ها نحن أخبرناك.. ما عساك فاعل؟.. أتريد أن تذهب إلى أبيك؟ .. اكتب له ليأتِ لأخذك.. وإذا أحببت أن نرسلك إلى هناك فحيهلا يا بني.. نحن لا نطلب منك ألا تسعى لأبيك ..فأنت ستبقى ابن قومك وقبيلتك.. ولكن قدرك أن تربى هنا في قوم أمك .. وأمك ستبقى أختنا وشرفنا وكرامتنا .. نحن ما كتمنا الأمر عنكم لغاية في نفوسنا ..لا نريد من عشيرة أبيك شيئا أنتم أطفال ، وليس من الكياسة اطلاعكم على أمر نحن تناسيناه ..فلما جاء وقته حدثناك به ..لا تغضب أمك ، ولا تنس فضلها عليك .. واحذر أن تشك بشرفها وعفتها .. وأن قومك تخلو عنكم لشك في أبوتهم لكم .. فأنت لا تسيء لأمك وحدها بل تسيء لنا كلنا ..لا مانع عندنا من عودتك لبني قومك بلاد الماعز .. اذهب وتعرف على أبيك.. الذي لم يهتم بكم يوما بعد طردكم جميعا .. وصدق أن زوجته الشريفة أم أولاده تخونه في رجل حقير .. جندي يقف على باب القصر .. ليس بطلا ومغوارا لتهفو إليه أفئدة النساء .. بل قتلوه غيلة بعدئذ.. ليجعلوا من الأمر حقيقة .. وإنهم غاروا على عرضهم .. نحن موقنون من براءة أمكم اليقين كله .. ويا بني هذه البلاد بلادكم .. ومفتوحة لكم أبد الدهر .. وإن شئتم أن تسيروا لمسقط رأسكم فافعلوا وسيروا.. لا تتضايق من كلامي ربما الجارح القاسي .. ونحن لا نتمنن عليك وعلى إخوتك .. فأنت من لحمنا ودمنا ..فالخيار لك .. أرجو ألا تتمادى في غضبك وأفكارك .. ونحن ما أشعنا موت أبيك إلا صونا لشرفكم وشرف أمكم وحتى لا تلوك الألسن سمعة أمكم وإخوانك .

عاد خالد يقول : كان يجب أن أعلم من أمي قبل أن أعلم من الأغيار .

ـ ها أنت علمت ، وها هم أتوك لواد الصيد ليطلعوك على هذه الحقيقة .. على هذا السر.. وما هو بسر أصلا.. كل من يعرف أمك يعرف القصة .. ويعرف قدر تضحية أمكم من أجلكم .. فهي لم ترمكم .. لم تتخلى عنكم .

ـ يا مولاي! عشنا على أن أبانا هلك في الحرب .. هذا مؤلم ! وهو لا يبعد عنا سوى مسيرة سبع ليال ..

ـ لك هنا عشر سنوات يا ولد.. هو لم يهتم بك صغيرا .. أتراه يهمه أمرك اليوم؟ .. سر وزر قومك وعد وأخبرني بما تجد .

ـ سأفعل يا مولاي! إن شاء الله.. ولابد لي أن افعل .

ـ افعل ما يربو لك ؛ لكن لا تغضب أمك ، وتضايقها بالقيل والاتهام ..هذا غير لائق منك يا ولدي .



صديق خالد

كان لخالد صديق من سنه وجيله، شاب يتيم تعرف عليه في حصن التدريب ، حصن التدريب هو مدرسة يتدرب فيها أبناء الفرسان والأمراء على الفروسية ، ويتعلمون فيها أيضا تربية الخيول وصناعة أدوات الحرب ، ومن احترف الصناعة إذا شب يلحق بمصانع الصناعة كصناعة السيوف والسهام والرماح ، ومن أتقن الفروسية لحق بفرسان الملك وجيش البلاد ، ولما نضج الأمير خالد ونال قسطا من القراءة والكتابة انتقل لحصن التدريب كأغلب أبناء الأمراء والفرسان ، وبعض الأمراء يعقدون عقدا مع أحد المدربين فيقوم على تدريب أبنائهم داخل قصورهم

وكان الشاب الذي تعرف عليه خالد في حصن التدريب من أقرانه ، وهو ظاهر وبارز بشجاعته وتقدمه على أبناء جيله ، فرافقه خالد واتخذه صديقا واسمه غاضب ويلقبونه بريح البحر .

وأكثر فتيان حصن التدريب من أبناء الأمراء والفرسان ونبلاء البلد ، أما أبناء العامة فقليل من يسمح لهم بالتدرب داخل حصن التدريب ، لأن الأمراء والفرسان هم حماة البلد ، فأبناء التجار والزراع والرعاة يبتعدون عن الفروسية، فهم يتوارثون مهن آبائهم .

وريح البحر هو لقب الفتى " غاضب " وهو لم يكن من أبناء الأمراء ولا الفرسان ؛ ولكن كان والده غالب ـ وهو ابن فلاح ـ بصحبة أحد الفرسان الكبار في مهمة خاصة للملك والد الملك عدنان الملك براق ، وقتل الفارس ومرافقه غالب .. وكان الرجل غالب متزوجا حديثا قبل مقتله بسنة، ولم يولد له سوى غاضب ، فقام الملك جد خالد الملك البراق برعاية اليتيم وأمه ، وبعد نكاح أم الفتى وزواجها ثانية ، وقد شب الغلام أيضا وبلغ العاشرة ألحقه الملك البراق بمدرسة التدريب أو حصن التدريب كرامة لمقتله في مهمة ملكية ، واستجاب الشاب الصغير للتدريب واستهوته الفروسية ، فبرع فيها ومن أولى سنواتها ظهر وبرز على أقرانه بشجاعته وقوته وفطنته .. واستقرت حياته في الحصن تدريبا وخدمة .. وانقطع عن أمه التي انشغلت بزوجها الجديد وأولادها منه .

فكان من رفاقه في الحصن الأميران خالد ويزيد ثم تعرف على الأمير زياد ، وسمحت لهم صيد بمصاحبته والتعلق به ، لذلك كان تسمح له بالمجيء معهم إلى القصر الخاص بها وترحب به كأنه شقيق لأولادها وخاصة لما علمت أن أباه هلك بمهمة خاصة لوالدها البراق .

وكان ريح البحر كما كان يحب أن ينادى محبا للأميرة ولأولادها .. وشاكرا لعطفها عليه وسكوتها عن صحبته لأبنائها ، وهو ابن الفلاح ، وما هو بابن فارس ولا ابن أمير فكان يرى ذلك أمرا عظيما وكبيرا .

وكان الأمير خالد دون إخوته الآخرين قد اتخذه صديقا عزيزا ومحبا لصحبته ومعجبا بقوته وفروسيته ، وقد اعتبره أخا رابعا له ، وكان يعاشره على هذا الأساس وخاصة عندما لم يجد ضيقا وتبرما من أمه نحوه ، وكان ريح البحر يقدر له ذلك التلطف والإحسان، ويعتبر نفسه محظوظا بهذه الصحبة .

وكان لهم رفيق آخر، وهو من أبناء الفرسان ، وهو يشارك ريح البحر في اليتم اسمه هلال .. وقد هلك والده هو الآخر في مهمة ملكية .. وكان هؤلاء معروفين في حصن التدريب بالرفاق الثلاثة ..المدربون يعرفونهم بهذه الصفة .. دائما يأكلون معا .. يلعبون معا.. يتواجدون معا إلا في ساعات النوم .. فكثير من أبناء الأمراء والفرسان ينصرفون لبيوتهم في نهاية النهار.. وكان خالد ينام بعض الليالي في الحصن حبا بهم .. بل حاول مرات مصاحبتهم في رحلات الصيد مع أبناء أخواله .. ولكنهم كانوا يرفضون مثل هذه الصحبة .. فهم ليسوا من أبناء الأمراء .. ويعتبرونهم ما زالوا صغارا على رحلات القنص .

لذلك كان الأمير خالد يحلم يوما أن يصير قادرا على قيادة رحلة صيد ليصطحب رفيقيه إلى الصيد وخاصة الفارس الصغير غاضب بن غالب .

ومن حبه لهما كان يقاسمهم الهدايا التي تصل إليه من ثياب وطعام ، فلما عاد من الصيد في المرة الأخيرة وعرف أن أباه حي يرزق ، أطلع الشاب صاحبيه غاضبا وهلالا على قصة ذلك الرجل الذي التقى به في الصيد ونبأه خبر أبيه .. وتعجبوا لهذا الأمر.. وهم كانوا يعتقدون أن الأمير

يتيم مثلهم .. وصارحهم فيما بعد بلقائه بخاله الملك ، وقال لهم وهم يجلسون يستريحون تحت ظل شجرة عملاقة بعد أحد التمارين : أنا أحب أمي كثيرا.. ولا أسمح لخيالي أن يشك في عفتها وشرفها .. وهي التي عافت الرجال من أجلنا وصبرت على المحنة .. ورفضت التخلي عنا .. ولم تتزوج مرة أخرى من أجلنا.. ولكننا نبقى من أبناء بلاد الماعز .. وأنا أتعجب من تجاهل أبي نحونا.. ولم يسع لأخذنا حتى بعد أن كبرنا.. أو حتى التعرف علينا واللقاء بنا.. هذا ما يؤلمني ويحز في نفسي ..ألا يسعى أب للقاء أولاده ؟! لكني في شوق للتعرف عليه ورؤيته والحديث معه .

فقال ريح البحر : الأمر مؤلم يا صديقي الشجاع .. أبوك أمير في بلاده فليس من اليسير والهين أن يتنازل عن كبريائه للسفر إلى بلادنا بعدما صدق التهمة التي أحاطت بأمكم الشريفة العفيفة وأمك تعرضت لظلم قاس يا أمير خالد .

وقال هلال : أمك عظيمة يا خالد !.. ولولا عظمتها لأقامت الدنيا واشتعلت الحرب بين البلدين.. ولكنها صبرت حتى لا يكون بين البلدين دم ويؤثر ذلك عليكم ثم قبلت بالصمت وعدم الغضب من أجلكم .. والحق أن أباك أخطأ في حقها .. وفي حقكم .. وعندما حاولوا بعد حين أخذكم ظلوا مستمرين على الاتهام وأبوا أخذ زياد لتظل التهمة ثابتة على الأميرة .

فقال خالد بحدة : ولكنهم قومي وأهلي وأبي ..أنا راغب برؤية أبي .

فقال ريح البحر : هذا حق وحقك .. مهما أخطأ الأب فهو أب .. فمن حقك اللقاء به .. ولتسمع منه حجته في الصمت عن الدفاع عن أمك الأميرة .. لماذا لزم الصمت ؟!

ـ هذا ما أريد معرفته أيها الرفيقان ! .. أنا أعلم تقصيره الكبير نحونا وطردنا .. ولكن فكرت وفكرت فبدا لي أنه كان مصدقا للتهمة التي ألصقت بأمي .. عليّ أن أسمع منه أيها الرفيقان !

فسأل هلال : وهل يقبل الاجتماع بك إذا سعيت إليه اليوم ؟!

ـ بعد كل هذه السنوات لا يستطيع المرء الإجابة والتوقع .. ولكن إذا كان رجل وادي الصيد جاء قاصدا لقائي وتذكيري بأهلي وأن الأمر لم يكن صدفة .. فهم ساعون للّقاء بنا .

فقال ريح البحر فجأة ؛ كأن فكرة ضربت ذهنه : ما رأيك أيها الصديق بأن تكتب له رسالة تسأله اللقاء .

نظر خالد لحظات في عيني ريح وقال: فكرة !فكرة طيبة !.. وكيف ستصل الرسالة ؟!

فقال ريح بحماس وحب : أنا رسولك لأبيك ، وسيرافقني هلال إذا شاء ، وليبق الأمر سرا بيننا حتى نعود بالرد .. ولكن هل سيسمحون لنا بترك حصن التدريب ردحا من الزمن ؟

ـ لا أدري.. ولكني سأكتب خطابا لأبي .

فقال هلال: اكتب.. وسأرافق ريح البحر في هذه المهمة.. وعليك أن تدبر أمر خروجنا من مدرسة التدريب .

فنهض خالد قائما ، وفعل الاثنان نحوه ، وعانقهم وعيناه تذرفان الدمع وقال : إنهم قومي وعشيرتي .. وهذا جميل عظيم منكم نحوي!.. أرجو ألا أنساه في يوم من الأيام أيها الأصدقاء.



الرسالة

دفع الأمير خالد الرسالة للفارسين الشابين، ووضع بين أيديهما بعض قطع النقود ، واشتريا حمارا قويا وتسلحا بالخناجر، وتزودا ببعض الطعام ، وغادرا حصن التدريب دون علم أهله ، وكانت وجهتهما بلاد الماعز السمرة ، وفارقوا بلاد القمحة بدون أي اعتراض من أحد ، وكانت خطتهما السير على أطراف القرى التي تمتد بين مدينة القمحة والماعز.. وعندما يحتاجان الطعام يشتريانه من أهل القرى من الفلاحين والزراع ، وكانت طريقهم بعيدة عن طريق القوافل والطرق المطروقة .. وظلا يسيران حتى وصلا مدينة النور ، فهي تقع بين بلاد الماعز والقمحة من تلك الجهة التي يسيران فيها ، كانا يركبان الحمار سوية وأحيانا أحدهما ويمشي الآخر .

وكان نومهما في المغاير وأطراف الغابات ، ولما تزودوا ببعض الطعام من مدينة النور بعد أن قضوا يوما في المدينة يتعرفون على أهم أسواقها تابعوا المسير نحو مدينة الماعز، وبينما هما يجتازان أحد الأودية ، وكانت الشمس عند المغيب سمعا أنينا فهمس هلال : أسمعت ما أسمع يا غاضب ؟

ـ كأنني سمعت .

أوقفا الحمار وأصغيا آذانهما، فقال بحر: صوت أنين. وأشار إلى جهة قائلا : كأن الصوت آت من تلك الناحية .. عند تلك التلة التي عليها تلك الأشجار العالية .

ـ نمشي أم ...

ـ قد يكون الرجل بحاجة لمساعدة .

اتجها نحو التلة، فازداد سماعها للصوت كلما تقدما من التلة فقال هلال : كأن الرجل يموت!

صعدوا التلة وهم في قلق وتوتر.. ولما صارا فوقها همس ريح : إنه رجل مصاب

وكأن الرجل أحس بهما ، فرفع صوته صائحا من الألم.. فاقتربوا منه فكان رجلا شاحبا قد نزف الكثير من الدم فقال هلال: هل يمكننا أن نفعل من أجلك شيئا ؟

ـ إنني سأموت بل أحس أن روحي في صدري .

قال بحر : من أنت وما قصتك ؟!

فقال الجريح بصوت واهن : إنني أموت غدرا ، واسمي الرمح من بلاد الماعز .. كنت مسافرا في مهمة لسيدي الأمير بهاء ..

وضع أحد الشابين قطعة من القماش على جرح الرجل الغائر الذي قال : لا تفعل دعوني أموت لا يمكنكم الوصول بي إلى أهلي.. لقد طعنت بخنجر قد سحبته من صدري قبل مجيئكم.. أمعكم ماء ؟

ـ ها هي قربتك ؟

ـ قربوها إليّ .. ظننتهم قد أخذوها.. قاتلهم الله.. من القوم ؟

ـ نحن من بلاد القمحة ونحن في طريقنا لبلاد الماعز في أمر خاص .. هل نحملك إلى هناك ؟

ـ إني أحتضر أيها القوم ..لا أستطيع الركوب على حماركم هذا.. ولكن هل يمكنكم نقل رسالة ميت لأهله والأمير بهاء ؟

فقالا : نفعل أيها الرجل إن شاء الله .

ـ الحمد لله .. لقد أرسلكم الله لي في آخر ساعة لي من الدنيا .. لتصل وصيتي لأمي .. في قرية تابعة لمدينة الماعز اسمها قرية الفرس بلدة صغيرة شمال بلاد الماعز .. اسألوا عن عجوز اسمها سعدية أم الرمح فانعوني لها ولتغفر لي وأخبروها أن لي بعض المال عند أخيها سلمان فلتخذه وتنفقه على نفسها.. ولي مال آخر عند الأمير بهاء الذي أعمل عنده .. أنا أعمل في بساتينه وأرضه ..وأخبروا الأمير بمقتلي ، وأن الرسالة التي طلب مني توصيلها لم أستطع توصيلها وأن قتلي كان من رجال أخيه.. رجل اسمه فانوس أنا أعرفه جيدا رغم تنكره والسلام .

ثم شرب شربة ماء ولفظ أنفاسه مع آخر قطرة بلعها .

قام الفتيان بحفر حفرة له ، وقبل أن يدلوه فيها أقبل جواد نحوهم ، فأدركوا أنه فرس الرجل لأنهم وجدوا عليه طعامه ، فبدا لهم أنه هرب عندما انقض عليه القاتل أو القتلة ، فظن الجريح أنهم سرقوه ، وسقطت القربة عن الجواد أثناء عراك الرجل مع قاتله .. دلوه ودفنوه، وكان الليل

قد دخل ، فنزلوا عن التل متجهين لبلاد الماعز يجرون الجواد معهم ، وقد غمرهم الحزن على هلاك الرجل الغريب ، وصمموا على نقل رسالته مهما كلف الأمر .

ولما وصلوا بلاد الماعز استراحوا في أحد الخانات ، ثم مشوا إلى قصر الأمير رضوان شقيق ملك بلاد الماعز " الملك رياض والملقب بشرح " واستأذنوا عليه فرحب بهم الأمير ، وأخذ منهم رسالة ولده الأمير خالد ، وذرف الأمير الدمع لما مسك خطاب ولده ، وقرأ الرسالة وهو يبكي وقد رؤيت الدموع تتساقط على خديه، ثم أمر الرسولين بالنزول بدار الأضياف الخاصة به ، فاعتذروا له وأعلموه أنهم ينزلون في أحد الخانات ، ولما رأى رغبتهم بالبقاء في الخان شكرهم وقال لهم : قبل سفركم مروا عليّ .

فقال ريح قبل الانصراف: أيريد مولانا أن يرسل جوابا لولده الأمير معنا أم سيبعث رسولا ؟

نظر إليه رضوان متضايقا ولكنه قال: لم أفكر بشيء بعد .. إذا كتبت شيئا ربما أرسله عن طريق خاص.. المهم عند مغادرتكم لبلادنا مروا عليّ حتى أودعكم الوداع اللائق .. فأنتم قمتم بعمل كبير ..أتعرفان ما في رسالة الأمير؟

قال هلال : لم يطلعنا الأمير على فحواها يا مولانا الأمير.. ولكن فهمنا منه أنه راغب بلقياكم

ـ أجل ، أجل ! متى تسافران ؟

ـ سنستريح بضعة أيام ثم نغادر.. هل نعتبر أن مهمتنا انتهت ؟

ـ أنا سأرسل رسولا من طرفي ..فعلى الرحب والسعة .

وأمر الخازن الخاص به بأن يعطي كل منهما صرة من المال ، فحاولا الاعتذار ؛ ولكنه الرجل أصر ، وقبضا المال وغادرا قصر الأمير رضوان ، وهكذا انتهت المهمة الأولى لهما في بلاد الماعز وبقيت المهمات الأخرى ، وصايا الميت الذي صادفاه في الطريق .

الأمير بهاء

رحبت العجوز سعدية بغاضب وهلال ، ولما نقلا لها نبأ هلاك ابنها بكت الدمع عليه، ثم سكنت روحها، فقدمت لهما الزاد ، ثم مشت بهما إلى شقيقها سلمان ، ونعت له ابنها ، وأقر لها بدين ولدها عليه، ووعدها أمام الشابين بسداده حين تيسر الحال، ومشى معهما نحو الأمير بهاء شقيق الملك على بلاد الماعز السمرة، فاستقبلهما الأمير وأثنى على شجاعتهما ، ولما انتهت مهمتهما عند الأمير غادروا القصر، ووهبهما سلمان فرس الرمح على رغبة أخته سعدية ، فاعتذرا له عن قبوله لعجزهما على إطعامه والعناية به ، وعاد سلمان لشقيقته محملا بهدايا وأموال الأمير بهاء .

وفي الصباح التالي لقضاء مهماتهم في بلاد الماعز غادر الشابان تلك الديار بدون المرور على قصر الأمير رضوان ، وقد تزودوا بالطعام والشراب وقفلا عائدين إلى بلاد القمحة ، وقد أنجزا المهمة الخاصة على أحسن حال ، وعمهما السرور لما فعلا

وبعد مسيرة أيام بلياليها حلو في بلاد القمحة ، والتقيا بالأمير خالد الذي سر بعودتهما سالمين، وعمه الفرح بعد ذلك الغياب ، وعانقهما العناق الحار ، وعجب من عدم إرسال والده ردا معهما ولو كلمة تشجعه على الرحيل لبلاد عشيرته ؛ ولكنه سلم الأمر لله رب السماوات والأرض ، وأمل بوصول رسالة مع رسول من طرف والده الذي فرح برسالته كما نقل له الأخوان ، وبكاؤه لما سمع بخبره .

ولما علم قائد الحصن بعودتهما بعد ذلك الغياب بدون أذنه رفض لقائها ، وأمر بطردهما ، فكشفا لقائد الحصن عن سبب تغيبهما الخفي ، وأكد له الأمير نفسه هذا الأمر .. فاحتار القائد بما يفعل بعد سماعه حجة القوم وبقيامها بهذه المهمة الخطيرة .. فعندئذ غض القائد الطرف عن تصرفهما وخاصة عندما أكد له الأمير أنه أطلع والدته على فعله ورسالته لأبيه ..فلزم القائد الصمت أمام هذه الحقائق .

تبدد قلق الأمير خالد لما علم بوصول وفد من بلاد الماعز لمقابلة الملك عدنان ، وقرأ الملك

رسالة الأمير رضوان ، وأرسل وراء الأمير خالد، الذي دخل ديوان الملك فرحا ؛ ولكنه دخل متظاهرا بجهل الأمر، فعرفه خاله الملك على وفد أبيه المكون من ثلاثة رجال ، وبعد أن انتهى الترحيب والسلام ، قدم له أحد الخدم رسالة والده لخاله ، فقرأ فيها بعد التحية والسلام " لا مانع لديّ من زيارة ولديّ خالد ويزيد واستقبالهما في بيت والدهما " .

وضع الرسالة بعدما قرأها أكثر من مرة على مائدة في الديوان ، واختلس النظر لخاله الذي قال واجما : ها هو أبوك يرحب بك في قصره .. فاذهب لأخيك يزيد وتجهزا للرحيل .

قال الأمير بصوت منخفض : الأمير يزيد .. لا يريد الرحيل .

ـ وما أدراك بذلك ؟

ـ قد تحدثنا منذ حين بهذا الأمر ، فقد فقال " من طرد أمي ليس بأبي .. ومن شك في طهارة أمي ليس بأبي "

تبسم الملك وقال : هذا منا .. اذهب وحدك يا ابن أختي ..

ـ ألا تسمح لي بالنظر والتشاور مع أمي يا مولاي الملك ؟

ـ أنا تكلمت مع والدتك قبل حضورك مجلسنا هذا.. إنها لا تمانع برحليكم مع

وفد الأمير رضوان لرؤية والدكم حتى لا تلومونا في يوم من الأيام .. وعليك أن تجمع الوفد بأخيك يزيد حتى يتحدثوا معه ويقنعوه بالرحيل معكم .

ـ لن أنسى فضلك يا مولاي عليّ وعلى إخوتي .. ولكنه أبي يا مولاي الملك !

ـ نحن نعلم أنه أبوك .. وها أنت ترى أننا لا نحول بين تعرفك على بني قومك .. ونحن بلادنا ترحب بك وقتما تشاء .. فستبقى ابن أختنا .. فإذا لم يطب لك المقام .. فلا تنسى أننا نرحب بك من أجل اختنا الطاهرة .

ـ أترضى أمي ببقائي هناك ؟!

ـ أنا طلبت منها ذلك أيضا يا أمير خالد .

تقدم الشاب مقبلا يد الملك وقال ممتنا : أنا منكم يا سيدي ومولاي .. وهو أبي .. أبي !!

ـ افعل ما يطيب لك .. وها هو الوفد عندنا لثلاثة أيام .. ففكر أنت وأخوك ثانية وشاور .

أثنى الوفد على كلام الملك عدنان ، وشكروه على أريحيته ، ووعدوه برعاية الأمراء أحسن رعاية والمحافظة على حياتهم ، وغادر الوفد لديوان الضيافة على وعد أن يجتمعوا بالأمير يزيد والتخابر معه .

وانصرف الأمير خالد إلى قصر والدته الأميرة صيد ، وكلمها بكل ما دار في قصر الملك ، فردت بجملة واحدة : لقد وعدت خالك الملك أن أترك لك فعل ما تراه مناسبا .. اذهب يا ولدي لأهلك راشدا ..وإن طاب لك العيش هناك فاعلم أني سعيدة .. فكما أنا أمك فرضوان هو أبوك

ـ إنني أحبك يا أماه ! .. ولا يمكن أن أنسى فضلك وتربيتك لي .. ولا يمكن أن أنسى تعلقك بنا وتضحياتك من أجلنا.. ولا يمكن أن أشك في عفتك وشرفك يوما .. ولكنهم قومي.. إنهم آبائي.. وهل يمكن للرجل أن يهجر أباه يا أماه؟!.. لابد لي من رؤية هذا الأب.. ومعرفة أعمامي وعشيرتي أيتها الأم الحنون .

ـ لا حرج عليك يا ولدي.. افعل ما تراه مناسبا ، لا يجوز لي أن أحرمك من قومك .. ولكن أقسم أمامك مرة أخرى إنني لم أسمح لنفسي أن تخلو برجل غير أبيك يا خالد .. لا تصدق ما سيصفون به أمك من البهتان .. ولولاي لجرى الدم بين البلدين .. أنا لم أخن قومك ، ولم أخن قومي .

ـ أقسم لك يا أمي إنني لا يمكن أن أدنس فكري بالشك والريب في طهارتك وبراءتك .. الموت خير لي إن غيرت اعتقادي فيك .

الأب

كان الأمير خالد سعيدا ؛ لأنه سيلقى أباه الذي كان يعتقد موته كل هذه السنوات العشر ، وطلب من الملك عدنان أن يسمح بسفر رفيقيه هلال وغاضب معه ، فالتقى بهما الملك ، وتعرف عليهما الملك وأذن لهما بالسفر معه ، وصحبته في بلاد الماعز، وكان يزيد قد اجتمع بالوفد ، ورفض الرحيل ، ولم يقنع بوجهة نظرهم ، وباءت محاولات خالد نفسه معه بالفشل، وقد حاول عم لهلال صرف ابن أخيه عن هذه الرحلة ؛ ولكن الشاب أصر على مرافقة صديقيه خالد وغاضب .. وكان هلال قد قتل والده في مهمة خاصة كهذه ، وتقديرا لشجاعته أذن لولده بالتعلم والالتحاق بحصن التدريب.. كما حصل مع غاضب أيضا وقد اشرنا لذلك آنفا.. ولما علم العم برغبة الملك ورضاه اضطر أن يصمت.. وأم الأمير خالد استسلمت لرغبة الفتى ولزمت الهدوء ، وأمر الملك خمسة من فرسان المدينة بمصاحبة الوفد والأمير إلى أطراف بلاد الماعز .

وودع الأمير خاله الملك بالعناق والاعتذار من اختياره للحياة مع قومه ووالده ، وكان الوداع أليما على أمه وإخوته، وقال لها مودعا : أعلم أن هذا صعب عليك يا أماه .. ولكنهم قومي.. وأبي ! ولسوف أتردد عليكم كلما سنحت الأحوال .. لا يمكن أن أنساك.. سامحيني يا أماه .. لا تغضبي عليّ .. ولم اختر أبي تفضيلا له عليك .. أبدا بل أنت قرة عيني وتاج رأسي .

ـ رافقتك السلامة وصحبتك أبد الدهر .. لا تنسى أمك التي تحبك .. فأنت أول فرحة لها في الدنيا الماكرة .

رحل الوفد بصحبة خالد وصاحبيه إلى بلاد الماعز السمرة ، وقطعوا الطريق بين البلدين بدون حديث يذكر، ومضى القوم إلى قصر الأمير رضوان شقيق ملك بلاد الماعز، واجتمع الوالد بولده بعد غياب اختياري امتد عشر سنوات .. وتعانق الأميران ، وأعجب الأمير رضوان بوسامة ابنه وشبابه وصلابة عوده رغم صغر سنه ، وجاء الإخوة من زوجات أبيه الأخريات اللواتي نكحهن بعد طرده لصيد أم خالد .. وكن ثلاث فتيات وابن واحد اسمه ضرغام .. ولما

انتهى الاحتفاء بالأمير، قال الأب : سأرتب لك زيارة لعمك الملك.. وأعمامك وقومك.. وعماتك وجداتك أيها الأمير ، وأخبر الوفد الأمير برفض ابنه يزيد المجيء ، وأصر على البقاء عند أخواله .

وقال خالد: لقد رفض رغم الجهد الذي بذلته أنا وهؤلاء السادة ، وربما يلين بعد حين .

فأخذ الأمير الأب يلعنه ويشتمه وقال : أهلا بك يا ولدي ! .. والتفت لرفاق الأمير من بلاد القمحة وتابع قائلا : ورفاقك هؤلاء.. ماذا ستفعل بهم ؟ لقد التقينا بهم سابقا وتعرفنا وسافروا دون علمنا .

وقد تضايق خالد لعدم سؤال أبيه عن أخيه زياد ؛ ولكنه غض الطرف عن الغضب ورد على أبيه: سيبقون معي .

فاعترض وقال الأب: لا يا ولدي أنت أمير، وهما رعاع لا مكان لهم في القصر .

فقال خالد بضيق واضح : وماذا أفعل بهم ؟ هل أتخلى عنهم ؟!

ـ من الصعب يا بني أن يعيشوا بيننا.. فهؤلاء جواسيس عليك وعلى بلادنا .

هتف الأمير مستغربا اتهام أبيه لهم : جواسيس !! إنهم رفاقي عشنا معا في حصن التدريب يا أبي .. وهم الذين غامروا بحياتهم لنقل رسالتي إليك .

ـ أعرف ؛ ولكنهم من بلاد أمك المطرودة ، ولا يؤمن جانبهم .. فنحن في عداء دائم مع بلدكم دعهم ينصرفوا لبلادهم خير لهم ولنا .. وأنت ستسكن في هذا القصر .. فلا مكان لهم بيننا.. وعندنا نساء لا نسمح للأغراب والأعداء برؤيتهن.. فتخلص منهم بحيلتك .

ـ حيلتي !! ألا يوجد حرس لهذا القصر ؟ .. يكونون مع الحرس .

ـ قلبي لا يطمئن إليهم وهم صبيان لا يصلحون للحراسة .. إذا أنت مستحي من خطابهم فأنا أخطابهم أو حتى وكيل القصر يخاطبهم .

لم يكن الأمير خالد يتخيل أن تضيق بلاد أبيه بوسع رفيقيه ريح البحر وهلال .. ولم يخطر في باله أن يكون أصحابه جواسيس .. فهو قد خبر إخلاصهم له منذ سنوات منذ الطفولة ، ولا يمكن

لهم أن يعملوا جواسيس لخاله ؛ لأنه هو الذي اختصهم لصحبته ومرافقته.. ولكنه كان شجاعا ولا يريد أن يدع لأبيه حجة عليه ليسيء إليه ويرده لأمه، فكلم صديقيه بما ادعاه والده من خوفه من ناحيتهما ، وأبدى اعتذاره الشديد لهما.. وبعد وجوم وصمت قاتل بينهم ، قال هلال : نحن نستطيع العودة لبلادنا وأهالينا !

فقال خالد والحزن يغمره : لكنني سأجد صعوبة بالحياة هنا دونكم !

فقال بحر : سوف تتأقلم على العيش بعد حين يسير ..وأذن لنا بالرحيل .

ـ لا ..لا ..كيف آذن لكم وأنا أحبكم ..إني حزين !

فقال ريح بضيق مكتوم : أيها الأمير .. نحن سنبقى بقربك بعض الوقت .. حتى نطمئن عليك .. فأبوك يبدو أنه لا يحب أحدا من بلاد القمحة .. وقد وصتنا أمك كثيرا عليك .. سنسكن بيتا خاصا ..أو نعيش في أطراف البلاد .. حتى تستقر بين قومك ، وتقر نفسك .. فنعود لبلادنا ، ونطمئن أمك الأميرة على وضعك وحياتك مع بني قومك ..

فقال خالد دامعا : تعودت عليكم .. لا أتخيل كيف أعيش بدونكم !

فقال هلال معزيا له : سنة الحياة الاجتماع والتفرق أيها الأمير .. وقد كبرنا، ولم نعد أولئك الأطفال أيها الصديق الحبيب .. نتمنى لك إقامة طيبة مع والدك وعشيرتك .. وسنبقى على اتصال حتى نتأكد أنك بأمن وقادر على رعاية نفسك والثبات والبقاء في هذه البلاد .

ـ إني خجل مما يجري ..أأعجز عن الاحتفاظ بصديقيّ ؟!.. قصر أبي وملك عمي لا يتسع لصديقين ..

فقال بحر : هو يتسع ؛ ولكن الخوف منا والزعم أننا عيون لبلادنا هذا ما يريبهم .

فقال هلال : وهذا خير لنا ولك .. حتى لا يعتبرونا جواسيس حقا .



ودع الصديقان خالدا وغادروا قصر الأمير رضوان وهم في غيظ وغل وحيرة وألم ، وهاما على وجهيهما في ساحات وشوارع المدينة ، ثم مشيا لأحد الخانات يقضيان ليلهما، ويفكران بما يفعلان ، وقال بحر : هذا سيدفعنا على الاعتماد على أنفسنا ولا نركن إلى هؤلاء السادة .. وها نحن قد تحررنا من أي ارتباط بهؤلاء الناس.. سنقضي شهرا هنا لنطمئن على الأمير؛ لأنه صديقنا ومن أجل خاطر أمه التي اعتمدت علينا لحمايته والبقاء مع ابنها .. ثم نعود لبلاد القمحة .. فبلادنا خير لنا .. أو نهيم في بلاد الله الواسعة .

ولما لاحظ الأمير رضوان ثانية تردد الشابين على الأمير ، طلب منه أن يأمرها بالرحيل من البلاد ولا داعي لوجودهما وإلا رماهما في السجن .

ثم قال له غاضبا: عليك أن تصدق أنهم عيون عليك يا ولدي ..ونحن خائفون على حياتهما ..

وكان هذا الطلب بعدما أقام الأمير رضوان وليمة كبيرة دعا إليها الملك والأقارب ليتعرفوا على ولده العائد من بلاد القمحة ، وقد تعرف الأمير على الملك والأعمام الكثر وأولادهم وعلى زوجاتهم وعلى رأسهم جدته أم والده الملكة التي عادت أمه ، ولم تحترم حفيدها فأسمعته الكلام القبيح في حق أمه، وهو صامت لم يحرك ساكنا، وأدرك حقد الجدة الكبير على أمه .. وأدرك أيضا أنه ضعيف وعاجز عن الدفاع عن شرف أمه ..

فلما سمع مطلب والده أو أمره خاف حقيقة على اغتيال صديقيه ؛ ولكن صعب عليه أن يطلب منهم مغادرة البلاد ، وهو في حاجة إليهما في جواره ، وهو في هذا الخضم من الحقد والكره لأمه وقد بدأ له العداء سريعا من أخيه ضرغام ومن أمه.. فهو من سنه من زوجة أبيه التي تزوجها بعد زواجه من أمه بسنتين أو ثلاث ..وهي قريبة لأبيه .. واطلع الرفيقان على تحذير الأمير رضوان من أحد الخدم الذين وضعهم رضوان لخدمة الأمير .

فقال ريح البحر للأمير : يا صديقي .. ائذن لنا بالعودة لبلادنا .

تساقطت الدموع وقال : إني حائر.. وعزيز عليّ فراقكم .. فأنتم أعز الإخوة عندي .. ولكن حياتكم غالية عليّ .

فقال هلال : يا أمير لابد من الفراق .. فهم ينظرون إلينا كأعداء .. ولعلنا نستطيع أن نتردد عليك من حين لآخر . وودعهما الأمير والعيون باكية عاجزة .. وهو يعجب لبلد تعجز عن استبقاء شابين صغيرين في ربوعها بحجة واهية لا تقنع رضيعا .

وغادر الرفيقان المدينة ولكن ليس لبلاد القمحة ، إنما نحو القرى القريبة من المدينة ؛ ليعملا بالرعي ، وللبقاء حول المدينة ليظلا حول الأمير، ويغلب على ظنهما أنه في أمان واستقرار بين قومه وأهله . وفي إحدى القرى تيسر لهما العمل مقابل النوم والطعام عند أحد الرعاة الذي بين يديه ما يزيد عن ألف رأس من الغنم .. وقبلهم الرجل وهو فرح بشرطيهم .

وعندما كانا يعودان من الرعي بين الجبال والوديان يتسللان إلى المدينة يلتقطان أخبار الأمير مدعين أنهم يزورون بعض أقاربهم .

ودام هذا الحال عاما وقد رجع هلال يوما من المدينة بخبر مثير ومرعب ، ومفاد الخبر أن الملك قتل أخاه الأمير بهاء ، والغضب والفتنة تعصف في البلاد .

وعلم ريح من هلال أن صراعا كان دائرا بين الأمير بهاء والملك .. فبهاء يطمع أن يكون الملك بعد موت أخيه حسب وصية أبيه الملك شامخ ، ولكن الملك القائم يريد وضع ابنه ملكا ليبقى الملك في ذريته .. فكان الأمير بهاء يراسل بعض الملوك لمساعدته على الاستيلاء على الحكم .. وتكشف لهم أن الرجل الذي قتل في الغابة وقد التقياه قبل زمن كان رسولا من الأمير بهاء لأحد الملوك الذين يشجعون الأمير على التمرد وعزل شقيقه والتسلطن على المدينة.. ولكن أعوان الملك وعيونه كانوا يتابعون تحركات بهاء وأعوانه .. فتابعوا الرسول وقتلوه في الغابة ، ولم يجدوا معه جوابا .. ولما ضاق الملك بأخيه ودسائسه .. أرسل بعض أعوانه إلى قصره واغتالوه أمام الجميع .. وكبر الصراع بين الإخوة .. ورفضوا هذه الطريقة القاسية لحل المشاكل .. وأن اللجوء للقتل لحل المشاكل ليس الطريقة المثلى ؛ ولكن الملك هددهم وتوعدهم بنفس المصير .

بلاد الماعز

بلاد الماعز واسعة ، وتضم ثلاث عشائر كبيرة سوى القبائل الصغيرة والأحلاف ، واستقر الملك في قبيلة الوعل لأنهم أول من سكن الديار ، وعددهم كثير مما ممكن لهم الاستقرار حكاما على المدينة، وتوارث رجالها السيادة جيل بعد جيل ، والقبيلة الكبرى الثانية قبيلة الحمام ، وقد كانت في حلف مع قبيلة الوعل ، وأكثر رجالها في الجيش والشرطة ، ومنهم الوزراء أو وصلوا لكرسي الوزارة ، وأما القبيلة الثالثة قبيلة " العزام "، خاضت حروبا مع القبلتين ، وتعرضت لهزائم حتى رضخت في النهاية لحكم قبيلة الوعل والحمام .. ولها امتداد في المدن والقرى المحيطة ببلدة الماعز، وكما ذكرت آنفا هناك فروع وعشائر تحالفت مع هذه القبائل الكبيرة .. وتركوا أمصارهم وبواديهم وسكنوا الماعز نتيجة صراعات قبلية أو ضيق المكان .. ومع الوقت كبرت المدينة، واستقر الحكم في أسرة الملك شامخ والد الأمير رضوان وبهاء الذي كان في عصره زواج الأمير رضوان وصيد كما مر معنا في الصفحات السابقة .

وظل رجال قبيلة الوعل يحافظون على الملك ، ولا يتهاونون في الحفاظ عليه ، وكانت التحالفات تقوم بينهم وبين ملوك المدن الأخرى ، ولكن طبيعة الناس التنافس والصراع والدفع فتحدث الفتن والقلاقل بين القبائل بين الأمراء ..

وكان الملك شامخ ملكا قويا وشجاعا ومغامرا فقد خاض معارك شرسة مع ملوك المدن الأخرى حتى صارت له هيبة بين الملوك ، ويهادونه بالهدايا الثمينة من الجياد الأصيلة والسيوف المنيعة .. ولكنه لم يضم أي مدينة لمملكته .. يغزو ويقاتل ثم يكر راجعا لبلاده .. وكذلك كان يصاهر الملوك إما بنفسه أو بأولاده وأعمامه وأبنائهم ..ولقد حاول مرة ضم إحدى المدن بعد انتصاره على أهلها؛ ولكنه وجد مقاومة عنيفة فلم يكرر التجربة .. وكان تزوج الأمراء من عدد من النساء شائعا في البلاد .. وكان من عادة الملك شامخ أن يشيد لكل زوجة من زوجاته قصرا كبيرا تستقر به هي وأولادها وزوجاتهم .. ولما نكح رضوان ابنة الملك (البراق) الأميرة صيد سكن في قصر أمه .. ولكن بعد حين نتيجة بعض المنازعات انتقل رضوان بزوجاته إلى

قصر خاص به .. ووافق الملك الكبير على ذلك تخفيفا من مشاكل النساء ومنازعاتهن التي لا تنتهي .. وتكريما لملك بلاد القمحة أيضا سكت .. ولكن أم الأمير رضوان زاد حقدها على الأميرة صيد لانفصالها عن قصرها ، وعدت ذلك جريمة وإهانة لا تغتفر .. فأكثرت عليها الإشاعات والدسائس حتى اتهمتها بخيانة زوجها مع أحد الحرس وكشفت لهم ذلك إحدى جواري الأميرة .. التي اختفت من الحياة بعد إثارة تلك الشائعة .. وتبع ذلك قتل الجندي الحارس .. فترسخ في الأذهان أنهم فعلوا ذلك لإخفاء الجريمة .. وصدقت المقولة على الأميرة صيد .. وأمام هذه الاتهام عجز الأمير رضوان عن فعل شيء ، وأقنع نفسه بأن مولوده الأخير من الزنا تمشيا مع الاتهامات .. وأعلن انفصاله عن الأميرة ، وتبرأ من المولود المسمى زيادا.. وصمت الملك شامخ عن التدخل .. وأعادوا الأميرة المتهمة إلى بلادها ، ولم يقتلوها كعادتهم في إهلاك الزانيات ..وحتى لا يثيروا حربا بين البلدين ، ومن أجل خاطر الابنين خالد ويزيد .. وربما تركوا أمر العقاب للملك براق والد الأميرة .

هذا التفصيل علمه خالد بعد وصوله لبلاد الماعز.. ومن مصادر مختلفة .. وكان أشد الناس عداوة لأمه جدته أم أبيه ..فما تلتقي به مرة إلا وتحدثه عن فحش أمه .. رغم مرور كل هذه السنين على هذه الحادثة الكاذبة ..

ولما هلك الملك شامخ تولى الحكم ابنه الأكبر رياض ، وكان شامخ أوصى بأن يكون الحكم في أبنائه الأكبر فالأصغر.. ولكن الملك رياضا بعدما استقر في الملك أراد إلغاء هذه الوصية ، وعزل أخاه بهاء عن ولاية العهد .. وكان أخوال ابنه من عشيرته ، وهم معروفون بالفروسية والقوة .. وأيدوا هذا المطلب ودعموه ، فدار تنازع داخل الأسرة فبعضهم سكت عن طلب رياض ، وبعضهم أيد ولاية الأمير سيف .. وأما الأمير بهاء فرفض الانصياع والتنازل وتمسك بالوفاء بعهد أبيه .

ولما أعلن الأمير سيف وليا للعهد ، وبايعه المقربون من أبيه الملك ، فزاد التحزب بين القبائل ، وكان الملك رياض يرى أن ذلك أثبت للعرش والحكم .

وضيق الملك على أخيه الخناق ، ومنعه الخروج من البلاد ، وأصبح تحت عيون الجواسيس ، لما سمع أنه يراسل بعض الملوك الناقمين على بلادهم .. وقد قرأتم نبأ رجل الغابة الذي صدفه بحر وهلال في أول مسير لهم لبلاد الماعز .. وتبين لنا أنه من رجال الأمير بهاء، وقد كان مرسلا برسالة شفوية لأحد الملوك .. والأمير رضوان شقيق للأمير بهاء من أمه أيضا .. وكذا الأمير زيدان والأمير نشوان .. والأميرة سلمى وخولة وليلى .. كلهم من أم واحدة .. وغضبت أمهم " الملكة نعسة " غضبا شديدا على ابن زوجها الملك .. وشتمته أمام كل رجال حاشيته .. لما فتك بابنها بهاء .. ولكنه تمالك غضبه وأمر أولادها بسحبها إلى قصرها .

والحق أن إخوة بهاء طلبوا منه التنازل عن ولاية العهد ، والابتعاد عن الصراعات وعن المحرضين له على ابن أخيه الأكبر .. حفظا على قوة الملك وقوة العشيرة .. وتفويت الفرصة على الحاقدين والحاسدين .

ولكن الأمير بهاء أصر على البقاء وليا للحكم .. وأن الوفاء بعهد الأب دين ، وصدم القوم كلهم بمقتل الأمير علنا ومتهما بالخيانة والتواطؤ مع أعداء البلد ومراسلتهم للتحريض على غزو المدينة .

وتعرض الأخ زيدان للملك ، واحتج على فعلته، فطرح في السجن مع أفراد أسرته ، ووضعت قصور رضوان ونشوان تحت الحراسة من أعوان الملك الغاضب .. وتحرك زعماء القبائل للصلح بين الأخوة ؛ ولكن أولاد الأمير بهاء رفضوا الحديث في الصلح وطلبوا الخروج والرحيل عن البلاد .. فرفض الملك ذلك ، ورضي في شفاعتهم في أخيه زيدان ، ووضع كسائر إخوته تحت الحراسة .

وجرى تطور خطير في البلاد أن إحدى زوجات الأمير بهاء أرسلت رسالة لوالدها وهو أحد ملوك المدن المجاورة تعلمه بترملها ومقتل زوجها وترغب بالعودة إليه ..

وقد علم الملك رياض بذلك عندما تلقى رسالة من ذلك الملك يطلب إرسال ابنته معززة مكرمة لبلاد أبيها . فغضب الملك رياض وعاقب الحراس الذين سمحوا بخروج الرسالة أشد العقاب

وطلب من الأميرة برد مغادرة البلاد ، ومنع سفر أبنائها معها أشد المنع .. وأمرها بالسفر مع الرسول وبعض خدمها .. وخرجت الأميرة إلى أهلها بغير أولاد وحرس .



فلما رحلت الأميرة برد إحدى زوجات الأمير المقتول بهاء .. وليس بصحبتها إلا الرسول والخدم .. دخل بعض الأمراء على الملك رياض .. وطلبوا منه أن يرسل معها بعض الحرس والجند لبلاد أبيها خوفا من العاديات ولصوص الغابات ليوصلوها لبلدها كما كانت عادات الملوك والأحرار .. وأن سفرها بدون حرس سيكون عيبا وعارا في حقهم .

فرد الملك عليهم : أنا فعلت ذلك عمدا حتى تلين وترتد إلى أولادها وتستقر بيننا .. ولكنها ركبت رأسها وأصرت على الخروج .. وأنا لا أسمح لأحد مهما كان شخصه أن يرفض طاعتي ويتمرد على رغبتي !

فقال أحد الأمراء : أيها الملك .. هذه امرأة مفجوعة بزوجها .

ـ كان عليها أن تلزم بيتها كسائر النساء ، ولا تحشر نفسها في صراعنا .. مدينة برأسين لا تصلح ولا تقوم .. أين كانت عندما حذرت أخي اللعين من التمادي في تآمره وعدوانه ؟!. . لماذا لم تنصح زوجها بالطاعة للملك ؟!

ودار حديث حاد بين الرجال ، ولم يقتنع البعض بتفرد الملك برأيه ، وغادر بعضهم غضبا من بين يدي الملك .. وارتفع التحزب بين أهل المدينة ، وأخذ البعض يسعى لتهدئة البلاد وتسكين الأوضاع .. ولكن ازداد ملكهم طغيانا وعنفا وعتوا .. وبينما هؤلاء يتصايحون ويتجاذبون الاتهامات وصل إليهم خبر مصرع الأميرة برد قبل الوصول لديار أبيها .. فقد هاجمها قطاع الطرق ، واستولوا على ما معها من ذهب ومصاغ بعد أن رفضت تسليمهم ذاك ، وأعلمتهم أنها أميرة ، ولم يصدقوا طبعا ادعاءها أنها أميرة بلا حرس .. ولما نقلت هذه الأخبار للملك رياض صعب الأمر عليه وندم على تشدده .. وأدرك عظم غلطته في عدم إرسال بعض الحرس معها ..

وبينما هو يعض أنامله ندما وصلته رسالة من ملك بلاد الأميرة برد الملك الشيخ عزب يخبره فيها بالاستعداد للقتال ؛ لأن قومه غاضبون لم حل بصهرهم بهاء وابنتهم برد .

ولم تكد تصل الرسالة حتى علم الملك رياض أن جيوشهم على أطراف المدينة طالبون الثأر لمقتل ابنة ملكهم كما أخبر الرعاة .

فطلب الملك أخاه عامرا ، وكلفه بالخروج لصد الأعداء ودفعهم أو يقبلوا الدية .. ولما اجتمع الجيشان أرسل الأمير أحد الفرسان ليحاول التفاهم مع القائد حمد شقيق الأميرة برد وحقن دماء الرجال .. ولكن الأمير حمدا أصر على القتال أو مجيء الملك الرياض بنفسه للاعتذار للأمراء والملك عزب ثم يدفع الدية .. ويتعهد لهم بمطاردة اللصوص الذين اعتدوا عليها والقضاء عليهم .

ودارت رحى الحرب وسقط القتلى من الطرفين ، وبدأ لسادة الماعز ضعفهم أمام جحافل الملك الحصان(عزب).. واستعرت الحرب بوصول المدد لعساكر القائد حمد .. وانتهى الأسبوع الأول من المعارك الدامية .. وقتل الأمير عامر في رحى الحرب وأحد أبنائه .. فطلب من الأمير رضوان الالتحاق بالقتال والثأر لأخيه .. فمشى الأمير مكرها وبصحبته ولده خالد وضرغام ليقود الجيش في الدفاع عن المدينة ..وتمنى يومئذ الأمير خالد لو ظل عاكفا في بلاد أمه .. ماذا يجنون من مطاعم عمهم الملك؟!.. واستمر العراك وأصيب الأمير خالد وسيق أسيرا .. وتبعه والده رضوان وهرب أخوه ضرغام من آتون الحرب كان الجرحى والأسرى يسحبون من ميدان المعركة وينقلون إلى بلاد الملك عزب الملقب بالحصان .

وعرض الملك رياض الصلح ثانية على القائد حمد وحقن الدماء .. فكرر الملك الحصان شروطه.. ورفض الملك رياض وأشار إليه بعض حاشيته الخروج بنفسه لتقوى شوكة الجنود خاصة عندما علم بخروج الملك الحصان بنفسه للقتال .. فتردد الملك ورفض الخروج ، استمر القتال .. وبدأت القبائل تهجر المدينة .. ثم كثر هرب الجند .. وانتشر الرعب بين الأهالي .. وبينما الملك يفكر بالحل الملائم تقدم الملك الحصان وفرسانه نحو القصر الملكي .. فغادر الملك

البلاد هاربا ، وقد بدأ لقومه أنه قد استعد لهذه اللحظة الخطيرة.. ولجأ إلى أحد الملوك .. واستولى الملك الحصان على بلاد الماعز .. واستولى على خيل ودواب الملك وأمواله التي لم يحملها معه أثناء هروبه في جنح الليل .. واستقبل بعض سادة المدينة معلنين الانصياع له والاستسلام لجنده والقبول بشروطه .. فأمر الحصان جنده بوقف القتال والفساد في البلاد .. وبعد تشاور مع رجالات البلد عقد الصلح بينهم .. وأعلن عن تنصيب الأمير زيد بن بهاء والأميرة المقتولة برد ملكا على المدينة .. وأصبح عمه مخلوعا ، ولا يحق له العودة للمدينة ، ولا الجلوس على عرشها ووافق أهل المدينة من الأمراء والسادة على ذلك .. ووعدهم الحصان برد الأسرى .. ثم رتب أمور المدينة ، وهدد وتوعد من الغدر وعدم الوفاء بعقد الصلح .. وغادر الملك الحصان بلاد الماعز ظافرا منتصرا محذرا لهم الغدر وأنه إذا لم يستقر الملك لابن ابنته سيضمها لبلاده ويجعل عليها أميرا من أبطاله .



الصراع

ولما رجع الملك الحصان من غزو بلاد الماعز والثأر لمقتل ابنته برد وزوجها بهاء ومن تنصيب حفيده زيد ملكا عليها ..وقد جلس في قصره يتقبل تهاني وزيره والملوك الآخرين أتاه الخبر الصاعق باغتيال حفيده زيد .. فاستشاط غضبا ونقمة على بلاد الماعز .. فأمر أحد قادته بالمسير إليها بألف فارس ، والبقاء فيها حاكما حتى ينظر في أمرها وما يناسبها من حكم وملك ولما وصل القائد إليها جمع رجال الأسرة الحاكمة للتشاور .. وطلب منهم أن يختاروا ملكا منهم عليهم .. فاقترح بعضهم عودة الملك رياض والعفو عنه ليستقر حال البلاد والعباد .. وبعد مراسلات بين الملك الهارب والملك الحصان وزعماء المدينة تمت المصالحة على أن يحكم البلاد الأمير سيف بن الملك رياض سيد البلد الهارب .. وبعد أشهر وافق الملك الحصان على ابن الملك رياض على اعتلاء العرش الملك سيف ، وأن يبقى رياض في المنفى الذي اختاره .. وعاد كثير من رجال الملك رياض من منافيهم ، وأعلن سيف ملكا جديدا على بلاد الماعز السمرة .. وبعد زمن يسير تزوج الملك سيف ابنة عمه الأمير بهاء أخت الملك المقتول زيد .. أملا في تحقيق السلام في البلاد وبين العائلتين .. وانشغل الناس بهذا العرس ، واعتقدوا أنهم بهذا الزواج قضوا على الفتنة والفساد وزالت الأحقاد والإحن .

أما الأمير خالد فبعدما رجع من الأسر مع والده ـ وكان قد أصيب قبل أن يؤسر ـ فانشغل كل هذه المدة بمداوة جرحه الخارجي والداخلي .. وأخذ يحلم بالهدوء الذي كان يحياه في بلاد خاله عدنان .. ولما تماثل للشفاء من جرحه أعلمه والده برغبته بتزويجه من إحدى بنات أخيه الأمير بهاء .. ووافق أخوتها على اقتران أختهم بالأمير خالد .. وبهذا الزواج أصبح الأمير عديلا للملك سيف .. ومنحه والده أرضا ليشيد عليها قصرا خاصا به .. وكانت هذه الأرض المزروعة التي سيقام في وسطها قصرا في أحد أطراف المدينة .. فسر بها الأمير، وقام البناء ، وتم بالزواج من الأميرة ريم .

وبينما هو يتجول في أملاكه يوما أخبره أحد الخدم عن شخصين يسألان مقابلته ، فلما علم من

هما سر غاية السرور ، ورحب بهما معانقا لهم ، وهو يظهر سعادته بلقائهما .. وكان يظنهما قادمين من بلاد القمحة .. فأخبروه أنهما لم يعودا إليها بعد، وإنما يسيحون في الأرض .. فأخبرهم بخبره وأحواله .. وهما يعلمانه لأنهما لم يبتعدا عن بلاد الماعز بعيدا .. وفرح الصديقان لم حل للأمير من سعادة واستقلال .. وطمع ببقائهما عنده ، فاعتذرا عن ذلك خوفا من حصول أي مشاكل بينه وبين أبيه .. وهو في قرارة نفسه كان قلقا من ذلك وغير راغب ببقائهما..وبعد أيام قضياها في ضيافة الأمير ..أبديا رغبتهما بالعودة هذه المرة لبلاد القمحة ..وهما قد اطمأنا عليه .. وتمنى أن يرافقهما لتلك البلاد ؛ ولكن وضعه وزواجه لا يسمحان له بالسفر في الوقت الحالي وحملهما التحايا لأمه وأخويه وخاله الملك عدنان .. وكتب رسالة لأمه مخبرا لها بزواجه من ابنة عمه ، وأخرى للملك .. ولما غادر الشابان بلاد الماعز قال بحر لهلال : أعتقد يا هلال أن صداقتنا بالأمير انتهت .

ـ هذا قولي أيضا .. فما العمل الآن وقد اطمأننا على الأمير .. وهو الآن يعتمد على نفسه ، وليس بحاجة إلينا ولا لسيوفنا ..

ـ أجل ، أجل أيها الصديق .. بعد هذه السنوات من الغربة عن بلادنا فلن يقبلونا في حصن التدريب .. فأنا أفكر بأن نبحث عن أمير محارب نضع سيوفنا وأنفسنا في خدمته .. فالأمير خالد وجد عشيرته واستغنى عنا ..

ـ أين نضع سيوفنا وحياتنا ؟!

ـ عندما نصل بلاد القمحة ، ونوصل الرسائل لأهلها، ونطمئن الأميرة التي عهدت إلينا برعاية ابنها بحال ابنها نمشي في الأرض حتى نصل لسيد يقبل خدمتنا وبحاجة لسيوفنا .

****

ترك الصاحبان بلاد الماعز يحملان رسائل الأمير خالد لبلاد القمحة ، وفكرهما مشغول بأي طريق يسيران.. فها هو صديقهم قد تخلى عنهم منذ وطئت قدماه ديار أهله وعشيرته.. وتابعا المحنة التي دارت بين بلاد الماعز والملك الحصان .. وتابعا أسر خالد وجرحه ، ثم زواجه من

ابنة عمه المقتول الأمير بهاء .. فهو لم يعد بحاجة لصحبتهما وقربهما منه.. واقتنع بكلام والده بأنهما من بلاد القمحة ، وهم عيون أمه والملك عدنان عليه .. وحتى عندما أصبح رجلا وزوجا وصاحب قصر لم يضغط عليهما للبقاء معه ، وظل خائفا وقلقا نحوهما من ناحية أبيه .

وكان من عادة الفارسين أن يمشيان في الوديان وأطراف الجبال ويبتعدان عن طرق القوافل المعروفة والمطروقة .. ورغم المخاطر التي قد تعترضهما من اللصوص والحيوان ظلا على هذه العادة وهما سائران إلى بلاد القمحة .. ولما بعدا عن بلاد الماعز مسيرة أيام دخلا واديا سحيقا لا ماء فيه .. فهو يمتلأ بالماء في فصل الشتاء أثناء نزول المطر فقط.. وبينما هما يمشيان على أقدامهما.. وقد وصلا لجبل صغير مليء بالأشجار العالية.. يبتعد عن حافة الوادي .. فسمعا صوت خيل تركض .. فاختفيا بين الأشجار، وأخذا يتنصتان، وقبل أن يتسألا عن سبب هذه الضجة ، كان راكبا الجوادين يصلان إليهما ، ويقفان أمامهما، ويخفضون من ركض جواديهما ، ولما هدأت الخيل قال ريح البحر : ماذا تريدون أيها الرجال ؟!

فقال أحد الفارسين : ألستم خرجتم من بلاد الماعز ؟

ـ بلى أيها الفارس ؟ ما الأمر ؟!

ـ ألستم كنتم في ضيافة الأمير خالد بن رضوان ؟

ـ بلى ، .. فهل أصاب الأمير شيئا ؟!

ـ حسنا أيها الشابان .. هناك رجل يرغب بالحديث معكم قبل متابعتكم السير إلى بلاد القمحة ألستم سائرين إليها ؟

ـ بلى .. نحن من أهالي تلك المدينة

ـ بلاد أم الأمير خالد !

ـ نعم .

ـ هل أعطاكم الأمير شيئا ؟

ـ معنا بعض رسائله لأمه وأهله .

ـ رسائل لأمه!!..هيا بنا إلى عند تلك التلة ..فهناك رجل يهمه لقائكم .

ـ ولماذا لم يكن معكم ما دمتم تلاحقوننا منذ فارقنا دياركم ؟!

ـ لا أدري .. هيا !!

تطلع ريح في عيني صاحبه هلال للحظات وقال: هيا أيها الصديق لننظر ما القصة من وراء هذه المطاردة ؟!

مشيا أمام الفارسين حتى وصلا إلى مكان الفارسين الآخرين ، كانا اثنين لم يكن واحد كما فهما من كلام الفارس .. وكان أحدهما معروفا لهما وهو شقيق الأمير خالد الأمير ضرغام .. فبعد السلام والتحية أخذ أحد الفارسين يتحدث مع الأمير همسا بما دار بينه وبين غاضب من استفهام .

ولما انتهى الهمس التفت الأمير الصغير إليهما قائلا : أتعرفانني ؟

فتظاهرا بجهالته فقال هلال :لأ .. ولكنك من بلاد الماعز كما فهمنا من هؤلاء الرجال .

ـ ماذا كنتما تفعلان عند الأمير خالد بن الأمير رضوان ؟

ـ هو صديقنا وجئنا لزيارته ..ثم كلفنا بحمل رسائل لأمه في بلاد القمحة .

فقال الأمير: أرغب برؤية هذه الرسائل والاطلاع على فحواها ؟

فقال ريح : أولا لم تعرفنا بشخصك ، وثانيا الرسائل أمانة أيها السيد .

ـ ليس من المهم معرفة شخصي .. ومن المهم أن نستوثق مما في هذه الرسائل وهل أنتم ذاهبون لبلاد القمحة حقا ؟

قال بحر باسما: أتعتقدون أننا جواسيس أيها الناس ؟

ـ نحن لا نعتقد فحسب بل واثقون أنكم جواسيس لبلاد القمحة .. وخالد جاسوس مثلكم .

فصاح هلال غضبا : وخالد جاسوس مثلنا!!.. ألا تعلم أنك تهيننا أيها الإنسان بهذه التهمة الكاذبة .. ومن يخدم ملكه ليس جاسوسا .

قهقهة الأمير عاليا كأنه يسمع دعابة وقال : أهينكم !!أرأيتم يا رجال ؟!.. أأريتم وسمعتم ما

قالوا ؟! ..أأنا أهينهم ؟! .. هاتوا الرسائل قبل أن يثور غضبي وأسحقكّم وأدع جثثكم للغربان والسباع .

تبسم ريح وقلبه يغلي من الغيظ والقهر وقال: لقد علمنا أن الأمير خالدا دافع عن بلاده أمام الملك الحصان بكل قوة حتى أصيب وأسر .. فهل هذا جاسوس أيها الرجال ؟

فقال أحدهم : أطع الأمير .. لقد طال صبره عليكم ..

فتبسم ريح ومتظاهرا أنه للتو عرف الأمير وقال : أهذا أمير ؟!

فالتفت الأمير للرجل لما كشف لقبه كأنه غاضب عليه وقال : أمير أو حقير .. نحن نريد رؤية ما في هذه الرسائل .. طلب منا تعقبكم وأخذ الرسائل .

فقال له ريح بكل صراحة : أبوك بعثك !.. أنت الأمير ضرغام .. شقيق الأمير خالد؟ نحن نعرفك منذ رأيناك .

ـ آ ..أنا ضرغام بن الأمير رضوان .

فصاح ريح البحر: لماذا يكرهنا والدك ؟ ونحن الذين جعلنا من أنفسنا بريدا بينه وبين أخيك ؟

ضحك الأمير وقال: يكرهك! ومن أنتم حتى يكرهكم أبي ! أنتم حشرات .. صبري نفد .

قال ريح : يبدو أنكم لم تعرفونا جيدا أيها الأمير ..ظننتم أننا من الغلمان والخدم .. نحن يا سيدي من فرسان بلاد القمحة .. ونحن زملاء أخيك في حصن التدريب .. ولا يغررك أن معك هؤلاء الرجال ونحن اثنان ..أما الرسائل فلست أنت صاحب الحق في فضها .. ولا يمكن تسليمها ونحن أحياء ..وهذه الرسائل ليس فيها أمر يسيء لبلادكم .. هي رسائل خاصة لوالدته وإخوته .. ونحن في بلاد القمحة لا يهمنا ما يحصل في بلادكم من صراع وقتال فهذا شأنكم .. فدعوننا ننصرف بسلام .

فقال الأمير ضجرا : أوه!.. كلامك أكبر منك أيها الفتى.. أترفضون تسليم الرسائل ؟

فقال هلال متحديا وقد أخرج خنجره مستعدا للقتال: بالتأكيد نرفض أيها الأمير .. فهذه أمانة يلزمنا المحافظة عليها وتوصيلها لمن يستحق .. لأصحابها.. إلا إذا متنا كما قال صاحبي .

فأشار الأمير لرجاله بأسرهما وتجريدهم من أسلحتهم ، وكان الفارسان يقفان يستمعان لحوار الأمير ضرغام ببحر وهلال ، ولما سمعا الأمر الملقى إليهما وقبل أن يستجيبا لطم ريح أحدهما بقبضة يده على وجهه ، وثنى عليه باليسرى فطرحه أرضا يئن من قوة الضربة ، وفعل بالآخر مثل الأول قبل أن يفيق القوم من الصدمة والمفاجأة .. فنهضا وهما في أشد حالات الغضب ، وقد استلوا سيوفهم والدوار يعمي إبصارهم ؛ ولكن خناجر الفارسين كانت تستقر في أحشائهم .. ثم كان خنجر ريح حول عنق الأمير المطروح أرضا قبل أن يفيق من المفاجأة .. وهلال تفوق على الآخر ، وقد هاج الفارسان هيجان الأسود ، واحمرت عينا ريح وقال للأمير : أتريد أن تموت ؟

ولكن رفيق الأمير المبطوح كسيده: العفو .. العفو .. أيها السيدان !

فقال هلال : وأميرك ألا يريد العفو ؟

ظل الأمير صامتا مأخوذا مما حصل ، وأخذ رفيقه يطلب الصفح ويتوسل لهم والإقرار بنصرهم فرفس ريح الأمير بقدمه وصاح : قم للمبارزة إن كنت رجلا .. ألم تهرب من ميدان المعركة يا جبان يوم أسر أبوك وأخوك ..؟

جلس الأمير ولم يقف بل قال : لن اغفرها لكم إذا التقينا .

فقال هلال : تغفر لنا .. ومن أنت لتغفر لنا .. نحن الذين سنعفو عنك أيها الجبان لصداقتنا لأخيك فقط ..

فصاح الأمير بغيظ وقهر: أيها الحقير !

ورفسه بحر ثانية رفسة رفعته عن الأرض ، فقال رفيقه : دعنا ننصرف أيها الأمير.. اعف عنا أيها الفارسان.

فقال هلال : ألا تريد الانصراف أيها الأمير ؟

فقال بانكسار: سأنصرف ؛ ولكن حذار أن نلتقي ثانية .

فقال ريح هازئا متهكما : نحن أمامك سيف لسيف .. ألست تحمل سيفا وتركب جوادا ؟!

وبينما هم يتكلمون كان أحد الجريحين يتسلل ، وكاد يمسك بقدم هلال ؛ ولكن ريحا أحس به وهجم عليه وقتله بسرعة، فصاح صيحة وخمدت أنفاسه على أثرها وقال ريح الغاضب : أول قتيل على يديّ .. هلال خذ جيادهم الأربعة ..بل اثنان ودع لهم الآخرين .. ليصلا بلادهم ما زالت في قلوبنا الشفقة على بني الإنسان .

فأخذ هلال جوادين ، وركب أحدهما ، واعتلى ريح الثاني بعد أن استولى على سيفين، وجعب السهام وقوسين وقال : انصرفوا أيها الأوغاد ..لا .. ادفنوا صاحبكم أولا .

ولما باشر رفيق الأمير بالحفر .. ابتعد الفارسان عن مكان المعركة، وقد تغيرت الدنيا أمامها بعد هذه الحادثة .. فهذا أول دماء تراق من خناجرهما .. وأحسا بأنهما كبرا سنين وسنين .



هجر بلاد القمحة

كان لهذا الحادث العارض في حياة غاضب وهلال تغيير كبير في مسار حياتها ، وما أخذوه هو أول غنم يكسبونه بسيوفهم وخناجرهم ، وأصبحوا الآن مطلوبين في بلاد الماعز إذا عرف الخبر وانتشر .. والأمير خالد صديقهم لابد أن يغتاظ منهم إذا علم بالحادث وشوهت التفاصيل.. والأمير رضوان سيزداد حقدا عليهم وبغضا.. ولسوف تزيد العداوة بين خالد وأخيه ..وربما يطلبونهم من ملك بلاد القمحة في مقتل رجلهم والجريح الذي قد يهلك هو الآخر قبل أن يصل بلاده .

أدرك الشابان عظم الأمر، وهما سائران نحو بلادهم ، التي وصلوها بسلام .. ودفعوا الرسائل لأم الأمير ..وسعدت بما سمعت من أخبار زواج ابنها من ابنة عمه .. وسألتهم عن الحروب التي وصلت أخبارها إليهم ، فحدثوها بالصراع الناشب على تاج تلك المدينة ، وأنه استقر الآن على رأس الملك سيف بن رياض .. وبعدما زار كل منهما والدته ..غادرا البلاد قبل وصول وفد أو رسول من بلاد الملك سيف مطالبين بثأرهم .. واتفق الشابان على المسير إلى بلاد القنفذ .. ففيها أمير محارب يحب الحروب والمعارك ، ويبيع سيفه لمن يدفع أو يؤجر نفسه وفرسانه .. فأحيانا يستأجره أهل المدن لصد عدوان .. وأحيانا تستأجره قوافل تجارية لتصل إلى مكان ما أو لتجتاز دربا خطيرا .. وكان قطاع الطرق يهابون هذا المحارب هيبة عظيمة .. ويتحاشون الصدام معه .. لشدته وقسوته ..وكان أمير هذه البلدة الصغيرة يدعى المقدم هزيم الرعد .. وله شهرة يتناقلها الركبان وأهل الديار .. وهو يتقاضى أموالا كثيرة مقابل تأجير نفسه ورجاله.. وبلدته هي قرية وليست مدينة كبيرة أو مملكة ..فهو ليس بملك ..إنما هو محارب وسيد قرية ، وأكثر تجارتها بيع الخيل والسلاح .. وهذه البلدة هي التي يممم الفارسان سيرهما نحوها للانضمام لفرسان هزيم الرعد .. والحياة بكنفه .

وهذه القرية تسمى قرية القنفذ .. وهو حيوان شوكي صغير .. للقرية قصة طريفة .. ملخصها هي قرية ككثير من القرى القائمة حول المدن الكبرى والعيون المائية.. هي لم تكن تنتمي لمدينة

كبيرة لبعدها عن كثير من المدن الكبرى .. ولكن لها اتصال ببعض القرى القريبة منها والتي تتصل بالمدن الكبرى في ذاك الزمان ..

الفارس هزيم الرعد كان ابن هذه البلدة التي لم يكن عدد سكانها يتجاوز المائة إنسان .. يعملون في الزراعة لإعالة أنفسهم .. ويربون الماشية والحمير ، وما يفيض عن حاجتهم يبيعونه في المدن البعيدة عنهم أو لأهالي القرى المجاورة فمن عنده حصان زائد أو بقرة ..أو ثور أو خروف .. يبيعه ويشتري بثمنه طعاما وثوبا

دهمت عصابة لصوص القرية ذات يوم وعاثوا فيها الفساد .. ونهبوا ما استطاعوا أن ينهبوه ولم ينجو من عدوانهم إلا ما كان في البراري وشغاف الجبال .. وكان هزيم الرعد المسمى أحمد حمزة ابن عشر سنوات أو قريبا منها قد تألم من هذا العدوان الظالم على هذه القرية الوادعة المسالمة .. فهجر القرية نحو إحدى المدن وتعلم فيها استعمال السيف، وروح الانتقام ترفرف عليه.. وقضى عشر سنوات قبل أن يعود للقرية ، فوجد المزيد من الظلم والآلام ..فبدأ يختار بعض الرفاق المكلوم والراغب في الثأر .. وأخذ يعلمهم فنون القتال والطعن بالرماح والرمي بالنشاب .. ويأخذهم على الصيد لمزيد من التدريب والشجاعة .. وكانوا يعودون بصيد وفير.. فالتحق بهم فتيان أخر .. فأصبح بدون قصد سيد القرية بلا منازع .. وتعلق به الشبان وأحبوه وتزوج من فتيات القرية .. ولما سمع بوصول قطاع الطرق للقرى المجاورة .. صنع لهم كمينا وكان لهم بالمرصاد .. وفتك بهم فتكا شديدا مدويا .. وغزا مكان تجمعهم واستولى على أموالهم وبدأت العصابات تتساقط أمام رجاله وفرسانه الشجعان .. وتجمعت عدة عصابات للقضاء عليه فصدهم وكان لهم بالمرصاد .. فطار صيته بين رجال الليل واللصوص ومع الوقت زاد رجاله ومن لحق بجيشه من أبناء القرى المجاورة حتى وصلوا لخمسمائة فارس .. وابتعدت العصابات عن القرى التي يشملها بحمايته ..

ولما أدرك حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه .. اتخذ خربة ملاصقة لبلده وأنشأ عليها قرية جديدة لرجاله أو معسكرا لهم وظلت تسمى القنفذ .

وبدأوا يؤجرون أنفسهم للأفراد والتجار والملوك .. فأصبح لهم شهرة بين القرى والمدن المجاورة .. ويطلقون عليهم جيش هزيم الرعد .. وهكذا كان أمر هذه العصابة الرهيبة وكان من أخلاقهم عدم الاعتداء على القرى الآمنة .. ولما قصد ريح البحر وهلال بلاد القنفذ كان هزيم الرعد قد شارف على الستين عاما .. كان شيخا كبيرا .

رحب الفارس الشيخ بالفارسين الشابين وضمهم لرجاله كما يرغبون بعدما قاموا ببعض الاختبارات البسيطة.. ومنها اختبارات الأمان حتى يطمئنوا من جهتهم أنهم ليسوا عيونا لعصابة أو حاكم .. ويكون ذلك بإرسالهم في مهام خطيرة قد تكلف المخاطرة الشخص حياته



قد كانت قرية القنفذ ملاذ كل فارس ضاقت به بلاده ، فسعى الفارسان نحو تلك الديار بعد أن لم يجدا لهما مكانا في بلاد القمحة وكذلك في بلاد الماعز، ولم يعد الأمير خالد بحاجة لصحبتهما ، فرحب بهما زعيم البلدة ، وضمهما لفرسانه ، وبدأ يرسلهما في المهمات الخطرة لمرافقة القوافل التي تنشد حمايته للمرور في درب معين .. وبعد حين من الزمن أدرك أحمد حمزة الملقب بين رجاله بهزيم الرعد ..أنهما فارسان قويان ومدربان أحسن تدريب وأثبتا جدارتهما في المطاردات والحمايات ، بل وجد ولمس لديهما الذكاء للقيادة والسيطرة .. وحسن التدريب هذا لمسه منهما خلال سنتين من العمل معه ومع رجاله .. ولما اطمئن أنهما صديقان لهم وليسا عدوين أو متآمرين زادت ثقته بهما.. ولذلك تقدما على كثير من رجال وأعوان الأمير .. ولذلك لما ظهرت مجموعة من اللصوص في إحدى القرى واستنجد به أهل تلك القرية .. كانوا أيضا على رأس الذاهبين للبحث عن المعتدين مع رسول تلك القرية .. ومعاقبة أولئك اللصوص التي كانت من أهم واجبات هزيم الرعد صاحب الصوت المرعب وأعوانه .. وقد

تعرض صاحب مدينة القنفذ للغدر والاغتيال أكثر من مرة من قبل الكثير من رجال العصابات ولكن الله حماه ، وانتصر على الكائدين ، واستمر في أداء واجبه وحمايته للفلاحين وأصبح اسمه

مثيرا للرعب والوهن في أوساط المجرمين ، ويبتعدون عن القرى التي تمتد إليها حمايته ورعايته حتى أن بعض ملوك المدن يحسبون حسابه ويتوددون إليه بالهدايا والعطايا.. وقد استطاع بحر وهلال القبض على اللصين اللذين أثارا الرعب في تلك القرية وأسروهما ووضعوهما أمام سيدهم هزيم الرعد .. فازداد حب الرجل لهما وازداد ثقة بهما وبإخلاصهما.. وعمل على تزويجهما بأسرع وقت من بنات أعوانه ، وشيد لكل واحد منهما بيتا صغيرا يستقر به هو وزوجته وكانت منازلهم من الطين .. وبالزواج من نساء القرية أصبحا من أهالي هذه القرية بحكم هذا الزواج وهذه المصاهرة .. ولا يسمح لهما بالعودة إلى البلاد التي جاءوا منها ، وطاب لهم العيش في رحاب الأمير الشيخ .

وأصبحا من أقرب الرجال إليه في خلال زمن يسير رغم صغر سنهما بالنسبة إليه ولمن حوله من الرجال القدماء .. وبين لهما ذات مرة أنه نكح امرأة في بلاد القمحة وأنه قام بمهمة لملك تلك البلاد وذلك قبل وجودهما على الأرض .. وعلى أثرها تزوج فتاة منهم.. ولما أنهى تعاونه مع ذلك الملك طلق المرأة التي أنجبت له طفلا واحدا ، ثم هلك صغيرا .

لقد وجد الفارسان لهما مكانا طيبا في بلاد القنفذ ، وسكنت قلوبهما لتلك البلدة الصغيرة ، وبينما هم في سعادة ورغد من الحياة أتى القرية على حين غفلة رجل مستنجدا بسيد القرية من ظلم أحد الأمراء الذي خطف ابنته رغم أنفه ..فغضب الأمير هزيم لهذا الظلم والعدوان والاعتداء على الأعراض ، واستمع لقصة الرجل بالتفصيل وكانت ...

" أن أميرا من بلاد الماعز كان مارا من قرب قرية الرجل البلدة الصغيرة ..ينشد الماء ، فشاهد الفتاة ابنة الرجل ، فطمع بها وأخذها عنوة .. فهرعت أمها صارخة بين رجال القرية .. فأسرع الرجل خلفهم لتخليص ابنته وتبعه بعض الرجال بعصيهم وفؤوسهم ..وتوقف الأمير وهدد بقتلهم جميعهم ، وكان معه عشرون من الأعوان ..فخاف وجبن أهل القرية وخاصة من كثرتهم وتسلحهم بالسيوف والرماح والخيول ، وأن الرجل احد أمراء مدينة الماعز السمرة كما أعلن أمامهم.. وظل والد الفتاة يطاردهم خفية حتى عرف بلادهم ومن هم؟! .. ثم جاء مستنجدا

بشيخ القنفذ ".

ولما ذكر القروي اسم الأمير الخاطف فإذا هو ضرغام شقيق الأمير خالد صديقهم القديم.. فزاد حنقهم عليه ولوحشيته وتعجبوا من سوء أدبه ، وخطفه لبنات الناس .. وإن كان هذا الأمر شائعا بين الناس في القرى والمدن في تلك الأزمنة .. ولما انتهى القروي من مظلمته ، نهض الفارسان بحر وهلال وتعهدا للأمير بإحضار الأمير ضرغام بين يديه مكبلا أو قتله إذا شاء الأمير أحمد حمزة ، ومن ثم إعادة الفتاة لأبيها ..وقد بينا للأمير معرفتهما الشخصية بذاك الأمير فوافق الأمير على جلب الأمير مأسورا وإنقاذ الفتاة من بين براثنه.

تنكر الفارسان بصورة أخرى، ومشوا برفقة والد الفتاة لبلاد الماعز .. للبحث عن ابنة القروي ولسوف يلحق بهما عشرة فرسان بعد عشرة أيام ينتظرونهم عند قرية معلومة لهم .

قطع الرجال الثلاثة المسافات من الوديان والتلال حتى دخلوا بلاد الماعز التي يعرفها الشابان معرفة جيدة .. لقد عاشا بين سهولها ووديانها وجبالها عامين .. والذي فاجأهما بعد وصولهما إليها أن ملكها الملك رضوان الذي كانا يعرفانه قديما بالأمير رضوان والد صديقهم خالد .. وكان من أخبار ذلك أن الملك سيف قتل غدرا على يد زوجته ابنة عمه بهاء التي سقته السم انتقاما لأمها وأبيها ، وذلك تآمرا مع أخوتها، انتقاما من عمهم الملك الهارب رياض ..فجاء الملك الحصان مرة أخرى مصلحا للأمور، وعين الأمير رضوان ملكا على البلاد إرضاء لقومه لأننا قد ذكرنا أن الأمير بهاء كانت برد إحدى زوجاته وهي ابنة الملك الحصان .. وكان موتها على أيدي اللصوص سببا لتدخل الملك الحصان في بلاد الماعز .. ووضع رضوان أخ الملك رياض ملكا إرضاء لعشيرته الوعل لبقاء الملك في تلك العشيرة .. وعلموا أيضا أن الأمير خالدا في صراع شديد ورهيب مع أخيه ضرغام من أجل ولاية العهد .. وأن الوالد يقف مع ضرغام مع أنه أصغر من خالد بسنة قد تزيد قليلا .. وضرغام ما زال يسيء ويشنع لأم الأمير خالد رغم زوال عدد كبير من السنوات على تلك الفرية.. وقد علموا أن الأمير كاد يصرع أخاه أكثر من مرة من غضبه لأمه.. وعوقب بالسجن بضعة أشهر .. وضرغام ازداد حقدا على أخيه

بعد الإهانة التي لحقت به من ريح وهلال ..وقتلهما لأحد أعوانه .

هذا ما علم به الشابان وهما يبحثان عن ابنة القروي المخطوفة .. وأشفقا أسفا على وضع صديقهما وعداء قومه له.. وقد أبعد عن ديوان الحكم والسلطان ، وأن أخاه هو السيد الكبير في الديوان ، ويتدخل في شؤون الحكم والسيادة ، وصاحبهم في عزلة خوفا من الاحتكاك بأخيه .. فزاد حنينهما على صديقهما من بغض ضرغام في قلبيهما، واعتبرا في هذه المهمة التي جاءا من أجلها أن فيها خدمة لصديقهم الضعيف .

وعلما بعد البحث والتفتيش أن الأمير ضرغاما اتخذ من ابنة القروي عشيقة وخدن ، وأسكنها في بيت يخصه على أحد أطراف المدينة .. فصنعا له كمينا بالاتفاق مع الفتاة التي سعدت برؤية أبيها وذرفت الدمع بين يديه ورحبت بفرح بالهرب معهم .. وتم أسره بسهوله ، وهو قادم إليها لقضاء شهوته ذات ليلة.. وكماه وهو وأحد رجاله أو حرسه ، وساقوهما إلى المكان المتفق عليه بينهم وبين رجال هزيم الرعد .. وكان أسره سهلا بالنسبة للفارسين المتمرسين على المغامرات والأسر والخطف .

وظلا على تنكرهما، وعادا لمدينة الماعز ليرصدا ردة الفعل ، وتابع رجال القنفذ سيرهم بصيدهم لبلادهم بلاد القنفذ ونبذوهما أمام الأمير هزيم الرعد .



ضرغام

ذهب رفاق الأمير ضرغام إلى بيت ضرغام الذي يضع فيه أسيرته ، ففوجئوا بخلائه من الأمير والفتاة ، وهو قد واعدهم اللقاء في بيت الفتاة ، فاحتاروا بخطوتهم التالية ، فانسل أحدهم إلى قصره سائلا عنه ، فعلم من حرس القصر بأنه لم يبت الليلة في القصر ، فعاد لرفاقه مؤكدا لهم أن الأمير غير موجود في قصره .. ولابد أن شيئا عرض له .. لخلاء البيت منه وهم ودعوه ليلة أمس عندما اقترب من البيت .. فترتب على هذا الاختفاء إيصال الخبر للملك رضوان .. فدخلوا على الوزير عنان وأطلعوه على قصة الفتاة التي اتخذها الرجل خليلة ، بعد أن خطفها من والدها فانزعج الوزير مما سمع وخشي على حياة الأمير ، وصعد لديوان حكم الملك وساره باختفاء الأمير المفاجئ.. وروى له قصة الجارية المخطوفة .. فاستشاط الملك غضبا لفعلة ابنه وعدم إخباره بهذا الموضوع ، ولما صفا ذهنه قال لرفاق ولده : أنتم ترون أن أهل تلك الفتاة هم الذين خطفوه أو اغتالوه لاختفاء الفتاة من بيتها ؟

فقال أحدهم : هذا ما نرجحه يا مولانا الملك .

وأيد الرفاق كلام رفيقهم ، وفاجأهم الملك قائلا : أمتأكدون أن ليس للأمير خالد يد في هذا الشأن ؟!

فهتفوا في دهشة ؛ كأنه غاب عن بالهم العداوة بين الأميرين فقالوا معا : خالد !!

لقد أصابهم الذهول والتردد ، فهم ربطوا الخطف بأهل الفتاة لاختفاء الفتاة وقال أحدهم : ما علاقة خالد بالفتاة يا مولانا الملك ؟!

فلما رأى الحاكم استغرابهم قال : حسنا ! .. أتعرفون القرية التي خطفتم البنت منها ؟

ـ نعم ، نعرفها يا مولانا الحاكم .. ونحن نصحنا الأمير بترك تلك الحسناء، وأن نساء بلادنا كثيرات وأجمل منها .. ولكنها حسنت في عينيه .

ضحك الملك وقال : لا داعي للتبرير ..المهم نرجو أن يكون الأمير حيا ..أرسل أيها الوزير أحد القادة مع هؤلاء الأبطال لمنازل تلك الفتاة .

واستدعى الملك بعد انصرافهم الأمير خالدا ، فلما لبى النداء قال له الملك والحنق باد على محياه : أخوك اختفى يا خالد !

قال الشاب باستغراب واضح : اختفى !!

ـ ربما قتل أو خطف .

ـ قتل !! لا تتهمني يا مولاي بشيء .. إنه أخي .. لا علاقة لي بأمره يا مولاي .. وأنا منذ أخرجتني من السجن وأنا أتحاشاه .. وأقضي وقتي في مطاردة الغزلان والوحوش والطير في الوديان والغابات .

وغير الملك القضية فقال : ألا ترغب بزيارة أمك ؟

ـ أرغب ؟! .. ما الحكاية يا مولاي ؟! أتريد طردي ؟

ـ لا .. ولكني أفكر بإرسالك لزيارة أمك وأخوالك .. وأن تأتيني بأخيك يزيد .. لديّ رغبة برؤيته قبل موتي .

ـ أخشى أن افشل في هذه المهمة يا أبي الملك .. فأرسل الأمير ضمضما فهو أمير جليل ورسول وديع .

ـ ضمضم !! ابن عمي .. إنك تفكر جيدا أيها الأمير .. ضمضم رسول وديع .. وبعيد عن الحكم .. أيرضى أخوك بالمجيء ؟

ـ السنون تغير الناس ..هل تحب أن أشارك في البحث عن أخي المفقود ؟

ـ لا داعي ، لقد خطف اللعين فتاة من إحدى القرى التي مر بها، وهو يطارد الصيد وأسكنها في بيت عشقه .. فلابد أن أهلها مكروا به .. فهو يحسب أن كل صيد يكون سهلا .. وأن الكثير من الناس يحسبون لملك أبيه شيئا ..فأرسلت إليهم القائد عجاجا .. وأمرته بتدمير القرية على ساكنيها إن عادت الفتاة إليهم واختفى ضرغام.. ليت له صفاتك لجعلته وليا للعهد .. اذهب وأرجو أن لا يكون لك يد في الجريمة.

ـ اطمئن يا مولاي ..أنا أحببت العزلة والصيد ..لا أريد الحكم ولا السلطان .

ـ وهل أنا كنت أريد الحكم والسلطان يا خالد ؟! وأعرف أنك جبان وتخاف الصراع والقتال

وبالطبع لم يرد خالد ، لزم الأمير الصمت على تجريح أبيه لكيانه وطأطأ رأسه حزنا، وبعد أيام رجع رسول من القائد عجاج مخبرا للوزير عنان : إن الفتاة عادت لقرية أبيها ، وإن الأمير المخطوف حي وأسير في بلدة القنفذ لدى الزعيم هزيم الرعد .

وأصاب الملك رضوان الخوف والجزع على ولده ، فهو قد سمع بقوة هذا الشيخ ، واحترام الملوك له واستعانتهم بقوته وبرجاله الأشداء .. وعلم الملك من وزيره أن القروي بعد خطف ابنته ذهب مستنجدا بذلك الفارس ، فأرسل بعضا من رجاله

وخطفوا الأمير وبعض حراسه، وأعادوا الفتاة القروية لأهلها .

فقال الملك لوزيره : هذا رجل معروف بالشراسة ، إنني أذكر فعاله من زمن أبي شامخ ..لا أدري لماذا تهابه الملوك؟! أتدري أنت ؟

ـ أدري أيها الملك السعيد.. لأنه نصير الضعفاء من بني آدم.. ولا يتدخل في شأن الممالك .. ونذر حياته لمطاردة اللصوص .

ـ وهل أنا ظالم يا وزيري؟!

ـ لست ظالما يا مولاي .. ولكن ولدك لم يحسن اصطياد فريسته هذه المرة .. والأمير أصلحه الله يثير المشاكل والمنازعات ، ولا يهمه علاقات المدينة بالمدن الأخرى .

ـ رغم قسوة ردك يا وزيري .. أنا أقر بما تفوهت به.. وعجزت عن إصلاحه .. إنه ولدي .. وأحسد الأميرة صيدا على تربية ولدنا خالد .. لقد تربى في بلاد العدو ولكنه إنسان صالح .

ـ يا مولاي هم ليسوا أعداء ..نحن اتهمنا تلك المرأة .. وانتهى ما بيننا .

ـ إنك تقسو عليّ يا وزيري .. للصبر نهاية ..

ـ أنا لا أقسو عليك أيها الملك السعيد .. ولكني أحب الحق وإن كان قاسيا .. وأبوك الملك شامخ كان يعلم براءة تلك المرأة ، وحدث أبي بذلك، وحدثني بذلك .. فماذا ستفعل لإنقاذ الأمير؟

ـ ماذا تظن أنهم فاعلون به ؟

ـ أخشى على حياته .. فهذا الرجل عدو للظلم .. وحدثت عنه كثيرا .. وفعلة ابننا شنيعة لا تليق بأبناء السادة والملوك ..

ـ أنقبل الفدية ؟!

ـ أظن أنه سيقبل إذا أحسنا الاعتذار معه .

ـ ولماذا لا نرسل كتيبة تدمر بلاده على رأسه ؟! ..إنك تخوفنا منه أيها الوزير .

ـ نحاربه!! .. يا مولاي .. بلدته بعيدة.. وهو لا يملك جيشا كبيرا ، وليس بصاحب مملكة .. ولكن رجاله أشاوس يحبون القتال ولا يهربون .. ولهم قدرات على الاغتيال والمطاردة .. وها أنت علمت ما حل بالأمير ضرغام .. ولم يُشعر بهم .. سأرسل إليهم وفدا من سرية القائد عجاج بن رباح .. وأطلب منه مسالمة أهل القرية وتطييب خواطرهم .. لأنهم في حمايته .

ـ لقد جعلته ندا للملوك يا وزيري !

ـ إنه مخيف حقا يا مولاي .. وبلادنا في قلاقل لا داعي لدخول حرب وعداء مع هذا الرجل وأعوانه .

ـ حسنا أيها الوزير .. كلي ثقة بك وبعقلك ..افعل ما تراه مناسبا .. واعلم أن الأمير إذا أصابه موت .. عليك تدمير تلك القرية عن بكرة أبيها ..

ـ الأمر ليس سهلا يا مولاي .. قد حاول ملك أن يفعل ذلك .. فقتل وقتلت أسرته ورجاله من فرسان ذلك الرجل .

ـ أمعقول هذا؟! أأنت معنا أو معه؟!

ـ معقول يا مولاي .. فهذا الرجل اليوم ينوف على الستين ، وما زال رجلا شجاعا يهاجم ويطارد .. وسيرته تملأ الأمصار

ـ إنك تثير قلبي وحقدي عندما تتحدث عنه يا وزيرنا .. وتدفعني لشن حرب ساحقة عليه .

ـ هذا الحق يا مولاي .. أتريد أن أغشك وأداهنك؟

وفد الماعز

وصلت أوامر الوزير عنان لقائد السرية عجاج بن بلال ، فاختار وفدا مكونا من عشرة رجال ليذهبوا إلى بلاد القنفذ ، وكان قد أوفد رسولا لهزيم الرعد ممهدا للوفد .. وسار القائد بنفسه لبلاد القنفذ على رأس الوفد .

كان الأمير ضرغام ورفاقه الثلاثة محبوسين في أحد الكهوف .. وعلم بوصول وفد بلاده للمفاوضة بشأنه.. فسر لمعرفتهم بمكانه ومكان أسره .. ولما وصل الوفد المفاوض، وعلم هزيم الرعد الغاية من مجيئهم ، وأنهم يبغون السلام وليس التهديد والقتال ، طلب الأمير بإحضار الأسرى للخيمة الواسعة التي يتخذها أحمد حمزة للحكم والقضاء والتي أهديت له من أحد ملوك الأرض .. فأعجب بها وأصبحت مقرا للحكم والسلطان .. ولما أحضر الأسرى وكانوا في غاية الذل والامتهان قال هزيم : تكلم أيها القائد أمام ابن ملكيكم .

تنحنح القائد وسعل لحظات ثم قال : جئنا أيها الأمير إليك رغبة في السلامة والاعتذار عما فعل هذا الأمير الطائش .. واعلم أن الملك رضوان لم يعرف بفعلته إلا عندما اختفى الأمير.. ونحن مستعدون لكل عوض عما أساء به الأمير إليكم من إزعاج مقامكم ومن إساءة لوالد الفتاة وللفتاة نفسها .

فلما سكت القائد وأشهر اعتذاره قال أحمد حمزة : جميل أن تتكلم بهذا الكلام أيها القائد الشجاع ونحن نعلم أن الفتاة الطاهرة قد اغتصبت رغم أنفها ولن يفيد الاعتذار لم حل بشرفها وشرف أبيها.. وأنا كنت مصمما على قتل هذا الأمير .. للظلم الذي أحاق بالفتاة وأهل تلك القرية التي تشملهم حمايتي .. ولكن وضعت اعتبارا للملك رضوان وعدم الرغبة في نشر العدوان بين بلدينا .. وبما أنكم دستم ترابنا وأخذتم الأمان منا.. واعترفتم أن الفتى طائش لا يقدر قدر فعلته القبيحة .. وتحبون السلام مثلنا وتقرون أن هذا من الظلم والعدوان ونحن نصراء الضعفاء والمظلومين ..فسنقبل شفاعتكم ونعالج الأمر .

قال القائد عجاج : أمرني الوزير الأكبر في بلادنا في قبول كل شروطكم .. وما تقضي به علينا

أيها الأمير من العدل علينا أن نسلم به .

وكان الأمير ضرغام يسمع هذا الكلام من القائد وهو يتمزق من القهر والغل ، وفي نفس الأمر يعجب من قدرة هذا الرجل الجالس على الأرض في هذه الخيمة ، ويثير الخوف لدى وزير أبيه، وربما أبيه أيضا .. فهو أول مرة يراه منذ رماه في الكهف .. ولكنه كظم قهره ، وتذكر أنه ما زال مكبلا وبين يديه .. وسمع الأمير يرد على القائد : أهلا وسهلا بالقوم .. ونحن وأنتم نعلم ونقر أن الأمير ارتكب جريمة كبرى في حق هذا الرجل الضعيف الفلاح المسكين ـ وأشار إليه ـ وأن الأمير اتخذ الأسيرة عشيقة وخدنا له .. فأقضي بأن ينكحها الأمير علنا ، ويشهر هذا في بلادكم وفي قرية الفلاح .. فإذا وافقتكم على ذلك فاقبل العفو عن رجالكم

فأحنى القائد عنقه وقال متفاجأ: هذا الأمر ليس لي يا سيد الوادي .. فهو للملك رضوان ووزيرنا عنان والابن هذا .

نهض الأمير قائما ووقف جميع الحاضرين إلا الأسرى المكبلين وقال هزيم الرعد : يتزوجها زواجا صحيحا.. وتخطب من قريتها .. ويعرف القاصي والداني في بلادكم أنها أضحت حليلة للأمير ضرغام .. فانصرفوا لبلادكم متشاورين ومتناصحين .. ثم عودوا إلينا بما يناسبكم .

ـ والأسرى ؟

ـ سيبقون في المغارة ، ولن يضيرهم بضعة أيام أخرى.. وخذوا حاجتكم من الطعام ودعوا بلادنا قبل غروب الشمس .. ننتظر رسالة تأتي بالقبول .. فينصرف الأمير إلا بلاده .. وعندما تصلنا أخبار الزواج ينتهي الشر الذي نشب بيننا وبين بلاد الماعز السمرة .

أخذ الرجال الأسرى إلى الكهف مرة أخرى ، بعدما لم يتم الإفراج عن أشخاصهم ، وغادر الوفد بلاد القنفذ وهم في غم وهم ، وكانوا يظنون أنهم سيدفعون بعض المال للقروي ولهزيم الرعد وينتهي الخطب .. ويرجعون بالأمير .. أما الزواج فلم يخطر على بالهم .

موقف الملك

أدخل الوزير عنان القائد عجاجا على الملك، فقص عليه مطلب أمير بلدة القنفذ ، فلما سمعه استشاط غاضبا صارخا في وزيره : ابني الأمير!.. ابن ملك هذه الديار! .. ابن الأشراف يتزوج قروية .. فلاحة !.. لا يمكن أن يحدث هذا أيها الوزير .. هذا الرجل وقح ، ولابد من مسحه من الوجود ..لابد من قتله وسفك دمه ..

ولما انتهى الملك رضوان من السب والشتم واللعن تلفت الوزير يمنة ويسرة وقال : اهدأ أيها الملك السعيد .. ولا تنسى أن الأمير بين يديه ..سأحرك الجيش لغزو بلاد القنفذ .. لكن أحب أن أقدم لمليكي النصح والتذكير .. إن هذا الرجل له أصدقاء من الملوك فقد يحرضهم علينا .. وتكبر وتعظم المعركة هل نحن مستعدون لذلك ؟!

فعاد الملك للصياح والقذف: أتخذلنا بدل أن تشد عضدنا ؟

ـ يا مولاي الملك!.. أنا كنت أعتقد بأن ندفع بعض المال لهم .. وتنتهي الحكاية .. ولكن اعلم أن هذا الرجل قضى وحكم ولا يمكن أن يغير حكمه إلا إذا انهزم .. ومنذ بدأت أسمع أخباره ومغامراته وهو الفارس المنتصر

فعاد الملك يصيح ويصرخ في وجه وزيره ويقول: أمير ملكي يتزوج قروية! كيف نسلم بهذا ؟ الحرب أيها الوزير الخانع .

ـ حسنا أيها الملك ..سأدخل عليك قائد الجيش .. فاطلب منه ذلك .

ـ بل تبقى ـ وضرب على مائدة ـ فدخل أحد الخدم سريعا وهو يهتف : مولاي !

ـ قائد الجيش .. فليدخل .

بعد حين يسير وصل قائد الجيش وأدخلوه على الملك ، وصارحه الملك بما يطلب هزيم الرعد وختم كلامه قائلا : هذا الزواج لا يصح أيها الأمير القائد .

تطلع القائد بعيني الوزير للحظات ، ثم قال : معك حق يا مولاي أتريد أن نغزو بلاد القنفذ ؟

ـ أجل وبأسرع وقت.. وأن يؤتى بالرجل مكبلا بالقيود ليعدم هنا في بلادنا ليعلم اللعين كيف

يتطاول على أبناء الملك ..

ـ لا بأس أيها الملك ! ولكن الأمير أسير بين أيديهم .. فإذا سمعوا بزحف أبطالنا فسيقتلونه بلا هوادة .. لن ينتظروا حتى نصل إليهم .

وضع الملك الغاضب الساخط يده على رأسه وقال : القهر .. الغضب أنساني ذلك اللعين .. لقد ذلني.. ذل أباه .. ونظر للوزير وقال : ما العمل أيها الوزير؟

الوزير: ليس لدينا سوى تحقيق رغبته بزواج ابنكم من القروية .

فقاطعه غاضبا وصاح: موت الأمير خير من الزواج !.. اخرج أيها القائد وأتني برأس ذاك الصعلوك ..

وانتشر خبر الحملة التي سيقودها الأمير نعمان بن سعد إلى بلاد القنفذ لتدميرها .. وحاول الوزير بعد أيام ثني الملك عن خسارة ابنه .. فرفض وأصر على القتال ..

نقل الفارسان بحر وهلال خبر هذه الحملة للملك القنفذ .. فأمر رجاله بالاستعداد للقاء الحملة، وكلف الفارسين بصنع كمين لفرسان الماعز ، وأرسل إليهم مائتي محارب.. وطلب الأمير هزيم من بعض الملوك المتعاونين معه بمده بعدد من جنودهم .

وتقدم ريح البحر وهلال ورجالهم لملاقاة الأمير نعمان ، ورأوا أن يلتقوا بهم في واد حتى لا يلتقوا بسهل واسع ويستفيدوا من كثرتهم ..وفعلا التقى الجيشان في واد اختاره ريح للمعركة.. ودارت معركة فاجأت الأمير نعمان وفرسانه .. مما جعلهم في موقف دفاع وتقهقر وجرح قائدهم نعمان .. وظلوا في اندحار يوم وليلة .

ولما رأى الأمير ضعف رجاله وكثرة جراحهم أمرهم بالعودة للبلاد ..ولما دخلوا المدينة كانوا في حال يرثى لها .. وأصيب الملك بالذهول لمقتل عدد من فرسان المدينة وتألم لجرح الأمير نعمان وجاءته الأخبار بأن هزيم الرعد يتصل بالملوك ليغزو بلاد الماعز .

فلما أدرك الخطر المحدق بمدينته ، طلب من وزيره بالسعي بنفسه لهزيم الرعد لتصحيح الأوضاع ، وأنه سينفذ شرطه بزواج ابنه من القروية .

ساق الوزير وفدا من سادة المدينة بعدما أرسل رسولا يسبقهم لهزيم الرعد، وأخذ معه العطايا..

سر الأمير أحمد حمزة لهذه النتيجة وزاد اعتمادا وثقة بريح وهلال.

وصل الوزير عنان بلحمه وشحمه للاعتذار والصلح ، وأعلن لهم موافقة الملك على الزواج وعلى دفع الأموال لأسر الرجال الذين قتلوا من رجال القنفذ .. وقرأ على الملأ رسالة الملك رضوان التي يوافق فيها على شروط الأمير هزيم الرعد.. وجيء بالأمير الأسير ورفاقه.. وأطلق سراحهم وسلموا للوزير الأكبر.. وقال وهو يودعهم: أرجو أن نسمع أخبار هذا الزواج .. قبل أن يعود هؤلاء الجنود لبلادهم ومدنهم .

وفعلا قد وصل للبلاد ما يزيد عن ألف فارس أنجده بهم أصدقاؤه الملوك .. ولما انصرف الوزير أكرمهم بالهدايا والعطايا وصرفهم لبلادهم .. فإن بلاد القنفذ لا تستوعب كل هؤلاء الجند لفترة طويلة .. خاصة الأقوات اللازمة لهم .

وقد كان في هذه المعركة قد قتل زوج إحدى بنات الأمير هزيم .. الفارس ساب .. فلما هدأت الأحوال ، وعاد الصفاء للبلاد طلب الأمير من ريح البحر الزواج من أرملة ساب.. وهي تكبر ريح بسنوات ولها أولاد من ساب.. فقبل ريح الاقتران وقال: على الرحب والسعة .. وهذا شرف كبير يا سيدي الأمير!

وابنة هزيم الأميرة شام أنجبت لساب خمسة أبناء، بعضهم في سن الزواج ..وكذلك باقي الأرامل زوجت من فرسان الأمير.. هذه عادة متبعة عندهم من يقتل أو يموت تتزوج أرملته بأسرع وقت إلا إذا أبت هي نفسها ورضيت بالعيش بدون زوج .

وبعد زواج ريح من ابنة الأمير عرض عليه زيادة فرسان البلد .. وزيادة أراضي القرية أو إنشاء قرية أخرى.

وجاءت الأنباء بزواج الأمير ضرغام من ابنة الفلاح زواجا شرعيا .. وأصبحت تلك الفتاة

المظلومة أميرة من أميرات بلاد الماعز رغم أنف الملك رضوان بن شامخ ورغم أنوف كل قبيلته قام بحر بالبدء بإنشاء قرية جديدة سماها هزيم الرعد .. وانتقل للحياة فيها هو وهلال وبعض فرسان الأمير .. وبدأ يستقبل المزيد من شباب القرى المجاورة ويدربهم على الفروسية كما تعلم في حصن التدريب ، وكما فعل هزيم قبل العقود .. ونشطت الحركة في القريتين بتوافد الفتيان من القرى للخدمة في جيش هزيم الرعد .. وزاد عدد الأسر التي رغبت بالحياة في بلاد القنفذ ففي خلال خمس سنوات انقضت وصل رجال هزيم إلى ألفي فارس .. وقد ظهرت همة ريح البحر وهلال خلال هذه السنوات في تجنيد الشباب الصغير وتدريبه ..

وقد سعد الأمير هزيم بهمة صهره ، وأعجب به غاية الإعجاب وذكره بأيام شبابه ، ولذلك وهو على فراش الموت جمع قادة وعرفاء رجاله ونعى لهم نفسه ، وألزمهم بطاعة زوج ابنته شام أميرا عليهم ، وعليهم أن يسلموا إليه القيادة ويطيعوه كما كانوا يطيعونه .. وأثنى عليه الثناء الحسن وأنه أهل للقيادة والرياسة .. وذكرهم بمبادئه التي أقام عليها هذه القرى .. بنصر المظلوم والتعاون مع الملوك العادلين ومحاربة اللصوص وقطاع الطرق .. وحماية المستجير والضعيف ، وعدم الاغترار بالقوة وحدها ، فالعدل هو سبب النصر والحكم السليم



هزيم الرعد

هزيم الرعد أمير مدينة القنفذ .. منذ أن عاد للقرية حاملا لواء العدل ونصرة المظلوم ومطاردة اللصوص والمجرمين وهو يحقق ذلك ، وحقق انتصارات تروى في بلاده .. وزاد أنصاره وأعوانه والمهاجرين إليه.. واستطاع أن يصاحب الملوك والتعاون معهم في رفع الظلم ورد كيد الطغاة ، ومغامراته الجريئة كانت شائعة بين الناس ..وهو في نفس الحين رجل مسالم لا يحب الاحتكاك بالملوك والسلاطين خوفا من تقلباتهم وجورهم .

وكذلك كانت العصابات تبتعد عن القرى المشمولة برعايته وحمايته ..فلا تكاد تخلو قرية من القرى القريبة منه إلا وبعض شبابها ورجالها يعملون تحت زعامته .. فكل من أحب الفروسية والقتال لحق بجيش هزيم .. وقضى الرجل ما يزيد عن أربعين عاما في معاركه وتوطيد حكمه ورغم تزوجه بعدد كثير من النساء لم يعش له سوى ثلاث فتيات .. كلهن تزوجن قبل مجيء ريح وهلال للانضمام لجيشه الصغير ..ولما ترملت شام أنكحها لريح ، وأنجبت منه ثلاثة أطفال ولما أحس الأمير بالموت ودنت ساعة الرحيل عن ظهر الأرض والسكن في بطنها.. قدم بحرا أميرا وزعيما لقريته أو مدينته ..وبايع القوم ريحا أميرا عليهم رغم صغر سنه عن سن بعض رفاق هزيم .. ولكن وصية وعهد الرجل كانت دينا ، وكذلك لأنه زوج ابنة سيدهم .

وأظهر ريح وصاحبه هلال قدرة كبيرة على الزعامة منذ هبطا على القرية.. بإنشاء القرية الجديدة وزيادة عدد الجيش، وزيادة العائلات في القريتين ، وأصبحت بلاد القنفذ تشمل قريتين كبيرتين مما دفع أهل القرى المحيطة بها بإتخاذها مركزا لتبادل السلع والتجارة .. في المواسم والفصول .. وبارك الأمير خطوات ختنه وأعجب بطموحه وقرت عينه به .. وساره الأمير بإعجابه وحذره من الغرور ومن الحساد .. ونبهه على حسن اختيار حراسه ومعاونيه .. وحثه على إبداء محبته للجميع ..ونبهه إلى تقلب النفوس وغيرة الشجعان ..وبعد رحيل الأمير هزيم سمى أصحاب ريح البحر الأمير الجديد بالبحر بدون ريح .. وقبل منهم حذف جزء من لقبه .. فأصبح يقال " الأمير البحر" .. ووثق البحر صداقته بالشيوخ أصدقاء هزيم وقربهم من مجلسه وكذلك

الكهول .. وكان يقدمهم في المشورة ويتحادث معهم بشأن القوم والجماعة .. ويعمل بنصائحهم قدر الإمكان.. وكان يثير في الشباب روح المغامرة، ويرسلهم للصيد ومطاردة الحيوان .. وظلت قبضته قوية على اللصوص الذين حاولوا جس نبضه بعدما سمعوا بموت هزيم ، واعتقدوا أن خليفته لن يكون بعنفه وقوته.. ولكنهم وجدوه أشد بأسا من حميه .. وعادوا للابتعاد عن دائرة سيطرته .. وعدم التعرض للقوافل التي تلجأ لحمايته ويرافقها فرسانه .. وكان كلما زار قرية أو مرّ منها استقبله الناس استقبال الأبطال، وكما كانوا يستقبلون هزيم الرعد .. بل اعتقدوا أن هزيم الرعد لم يمت، وأنه ما زال على قيد الحياة .. وشكروا الله ﷻ لاختيار هزيم الرعد هذا الفارس زعيما عليهم .

وكان البحر لا يبخل بمد العون لملوك المدن الكبرى في تحقيق العدالة والأمان ورد المظالم إذا وثق من المقصد .

وأذن الأمير البحر لبعض رجاله بالعمل بالتجارة .. واتخذ مكانا وجعله سوقا تتوافد إليه التجار وسمح ببناء الخانات .. فبعد حين أصبحت هذه المحطة ممرا للتجار وتبادل السلع كان الأمير يسعى لأن تصبح بلاد القنفذ مملكة كسائر المدن المحيطة بها .. وهو لم يكاشف أحدا بهذا الحلم ولكن الأحداث تسير إليها .. وبعدما نجحت قريته التجارية .. اتخذ قرب أحد الأنهار قرية أخرى لتجارة اللحوم والأسماك ..وجعل لها ميناء للمراكب الصغيرة .. وكان يدير هذه الأماكن رجال مخلصون له .. وكثرت القوافل التي تدخل هاتين القريتين التابعتين لبلاد القنفذ وأهل قرية القنفذ نفسها وقرية هزيم لم يتأثروا بالمدن التجارية التي تم إحداثها فبقي أهلها على عاداتهم وتقاليدهم السائرة بينهم ..ونشط عمل الزراعة فيهما وامتد لأراضي أخرى .. وكبرت تجارة الخيول التي كانت تشتهر بها مدينة القنفذ ..ولكنه سمح بتحديث العمران في قرية القنفذ فظهرت البيوت الحجرية الكبيرة ..وأخذ الأمراء والسادة ينشئون القصور الصغيرة .. وشيد قصرا للحكم ..وترك الناس الكهوف والمغارات .. واتصلت القرى التي عمرها البحر ببعضها بالعمران ..وزاد أفراد العسس والحرس في المدينة لفض المنازعات والمشاجرات، واستحدث

نظام القضاة .. وزاد أعداد الجيش وعملت له نقاط كبيرة حول المدينة ..

كبرت البلاد على عيني ريح البحر ..ولاقى استحسانا من حاشيته وفرسانه ورجال هزيم الرعد الكبار ..فلمس أصدقاء هزيم قوة في صاحبهم وجرأة ، فكانوا يثنون على هزيم بحسن تسييده لهذا الشاب وهم الكهول والشيوخ ..وما انقضت عشر سنوات على موت أحمد حمزة حتى أصبح جيش المدينة يقارب الخمسة آلاف فارس .. سوى العسس .. وزادت الأسر والأولاد والأحفاد .. فشكر الرجل ربه على ما وفقه إليه .. وما زالت شجاعة الرجل تترك أثرها في القرى والملوك المجاورين .. وما زال الأمان والعيش الحسن يخيمان على البلاد والعباد حتى أصبحت خمسين قرية حول المدينة تخضع لبلاد القنفذ .. وحتى أصبحت بعض القرى الخاضعة لبلاده تلاصق مدنا كبرى وممالك أخرى ..

وظل البحر محافظا على تدريب الجند ، ويتعرضون لتدريب قاسٍ وحاسم .. ومن يلتمس به ضعف أخرج للعمل في التجارة أو الزراعة .. ودخلت صناعة السيوف والخناجر المدن التجارية وكذلك الحرف النجارة والحدادة كبرت وزادت في البلاد .. البلاد تسعى لتكون مدينة كبرى ومملكة ناشئة جديدة .

كانت العدالة سائدة في جميع القرى التي خضعت لحكم الأمير البحر ..وذات ليلة حدث حدث خطير في البلاد .



بلبل

كان لريح البحر مولودا من الزوجة الأولى التي اقترن بها عندما استقر به المقام في بلاد القنفذ بأمر من هزيم الرعد سيد البلدة ، وقد اقترب هذا المولود من العشرين سنة ، وكان فارسا شجاعا اسمه بلبل ، فهذا الفارس رافق جماعة من فرسان البلاد في مطاردة الوحوش في أحد الوديان القريبة من بلاد القنفذ ، وقد صحبهم في هذه المطاردة مدرب بلبل وعشرة رجال .

وبينما القوم على غدير ماء معروف لهم يستريحون من مطاردة الظباء والوحش أحاطت بهم على حين غرة عصبة من الرجال ، وسلبوا خيلهم وسلاحهم الملقى على الأرض ، وقتلوا واحدا منهم ، وأخذوا بلبلا أسيرا معهم ، واختفوا في الغابات المحيطة بالوادي .

ورجع الرجال الناجون وهم في وضع سيء لبلادهم ، وأخبر الأمير بالحادثة ، فاجتمع الأمير البحر بقادته الكبار وقال لهم مستنكرا : هل ضعفنا أيها القادة ليتجرأ علينا رجال العصابات؟!

بما أن بلبلا ابني أسيرهم سأخرج لهم بنفسي ، وسيكون نائبي على البلاد والعباد الأمير هلال ..

وعليّ أن أحضرهم ليصلبوا هنا ليكونوا عبرة لمن يتطاول علينا أبد الدهر .

وخرج الأمير بخمسين فارسا يتتبع أثر اللصوص ومعهم قصاص الأثر .. وهم لهم قدرة على المطاردة والتتبع .. فمضى الشهر الأول عندما علم الأمير أن بغيته نزلوا بلاد الماعز .. فعادت به الذكرى لتلك البلاد عندما وطئها أول مرة .. ثم تنكر الأمير على هيئة متسول ، ودخل المدينة متعسعسا .. واستطاع بحيلته وذكائه المتقد أن يصل إلى العصابة .. ويعلم أن الذي أرسلهم لبلاد القنفذ الأمير ضرغام .. فقد التقى هذا الأمير في إحدى مغامراته بعصابة سنج واجتمع برئيسها " برسوم ".. وعقد معه عقد تعاون .. وكلفه بغزو بلاد القنفذ .. ووافق برسوم السندي على خدمة الأمير ضرغام .. ولما صدف وأن حاصر برجاله فرسان بلاد القنفذ ووجد بينهم ابن سيد البلاد .. فرح بذلك واعتبره صيدا كريما فأسره .. وصرع رجلا منهم ونهب خيولهم وأموالهم ، وعاد بذلك لضرغام الذي كاد أن يطير من الفرح بهذا الأسير، ووهبهم المال الكثير .. وأحس أن ساعة الانتقام لأسره في بلاد القنفذ قد دنت .. وتمنى لو كان الأسير من

أبناء وذراري هزيم الرعد ..استطاع المتسول بحر أن يعلم هذه الأخبار بدهائه وفطنته.. ولما انتهى من معرفة ما يريد .. عاد إلى حيث ترك فرسانه ، وذكر لهم ما علمه ، وعقد مجلس شورى بينهم .. فوضعوا خطة لخطف ضرغام .. وخطة لإنقاذ ابن الأمير .. وخطة لخطف برسوم السندي .



دخل الأمير بحر بلاد الماعز مرة أخرى، وتبعه بعد أيام عشرة فرسان متفرقين .. وبعد أن استقروا في المدينة بدون أن يلحظ أحد دخولهم ، اجتمعوا وشروا بعض الخيول وهيئوها للخطة الأولى ..وذات ليلة والأمير ضرغام عائد لقصره من سهرة أو حفلة من حفلاته اعترضه ثلاثة رجال وقتلوا حارسيه أو جرحوهما وكمموا الأمير بسرعة البرق ، وسيق إلى بيت العصابة ، وخرجت به مجموعة ثانية إلى خارج المدينة .. ثم رُحل إلى بلاد القنفذ مخفورا .

ولما علم الملك رضوان بما حدث لولده أدرك أن الأمير رُحل لبلاد القنفذ، والسبب أن الوزير عنان أعلم الملك بفعلة ابنه بعد أن اطلع على قصة خطف ابن أمير مدينة القنفذ خليفة الأمير هزيم من قبل أعوان الأمير ضرغام ، وتألم الوزير لتجدد الصراع بينهم وبين بلاد القنفذ .. والملك نفسه انزعج ؛ ولكنه لما علم بهلاك هزيم الرعد ارتاح قلبه قليلا ، فقال لوزيره بفرح مشوب بالحذر: مات إذن ذلك الرجل المزعج ..!

فقال الوزير: ولكنّ خليفته أشد منه بأسا كما يقول الركبان والتجار الذين دخلوا بلاده ..

ـ عجيب أمرك أيها الوزير ! .. أما زال الرعب يملأ جوفك من تلك البلاد الصغيرة ؟!

ـ قد كبرت يا مولاي!! ..وعلمت أن جيشها زاد عن جيوش بعض المدن .

ـ أين ابن أمير هذه البلدة لنساومهم عليه ؟

ـ إنه تحت حماية رجل سندي يدعى برسوم السندي زعيم عصابة سنج استعان بها ولدك لخطف ابن الأمير البحر .

ـ واسم أميرهم الجديد البحر .. ذاك هزيم الرعد وذا البحر ـ أريد لقاء هذا المجرم برسوم هذا اللعين ما الذي أتى به لبلادنا ؟!

ـ ولدك !..يا مولاي ..وأنا سأطلب منكم اعفائي من الوزارة لم أعد أطيق مشاكل ابنك التي لا تنتهي ..وسأضع بين يدك بعض الأسماء ..لتختار من تشاء .

قال الملك رضوان حانقا : فعلا أنت كبرت أيها الوزير .. وحان لك الجلوس في بيتك وبين نساءك وبناتك .

ـ سأفعل يا مولاي !..

ـ أحضر الشاب الأسير .. لعلنا نساوم عليه الأمير البحر الفارس المزعوم .

ـ سأحضره هو واللعين برسوم .. وها هو الفارس المزعوم أسر الأمير ..ولولا وجود ابنه لدينا لخشيت على أميرنا من الاغتيال.

فهمس الملك قائلا : دم تلك القروية بدأ يثور .

ـ كان يجب أيها الملك ألا نسكت على مصرع تلك البريئة .

خرج الوزير من بين يدي الملك ليطلب من قائد الشرطة إحضار برسوم الهندي والأسير ، ففاجأه قائد الشرطة قائلا : هذا الرجل قد قتل فجرا مع عدد من أتباعه، وأن الأسير قد اختفى وقد تركتهم قبل قليل يبكون زعيمهم ..

صعق الوزير وهو يسمع أخبار قائد الشرطة : قتل برسوم!.. واختفى بلبل !.. يا ويلنا ماذا نقول للملك ؟! ..اصعد معي للديوان .

وعاد الوزير لديوان الملك ومعه قائد الشرطة في المدينة، وأخبروه بمصرع برسوم السندي وبعض أتباعه واختفاء الأسير ..فصعق الملك بدوره وصاح : ما هذا أيها السادة !.. يخطف ابني ابن الملك، ويقتل برسوم الهندي ويختفي الأسير .. أين الجند ؟ .. أين الشرطة؟! ..ألا يوجد

حراس في البلاد؟!.. عصابات تسرح وتمرح في بلادنا ..



عمت الأفراح والليالي الملاح في بلدة القنفذ ، وخرج الناس يرحبون بسيدهم لما وصلت البشارة بعودتهم ظافرين .. وزال القلق الذي أصابهم بغيبته عنهم كل هذا الزمن ..وقدم السادة الكبار لتحية الزعيم القائد .. ورويدا رويدا عاد الهدوء للقرى كلها.. وأعلمهم الأمير البحر أن بلادهم ستصبح مملكة تضاهي الممالك المجاورة ..

وبدأ الاستعداد لتتويج البحر ملكا على بلاد القنفذ.

وفي اجتماع شعبي كبير أعلن الأمير البحر نفسه ملكا على مدينة القنفذ ، وأعلن الأمير هلال الوزير الأكبر.. وعين أحد أحفاد هزيم الرعد قائدا للجيش .. وحفيدا آخر قائد للشرطة .. وعين البحر أحد أبنائه قائدا لحرس الملك البحر .. وكان أكثر رفاق هزيم الرعد الكبار قد أخذهم الموت الذي لا مفر منه .. وبايع الفرسان والأمراء الملك الأول لبلادهم ، وقد عمتهم الولائم والأفراح .. وكانت البلاد قد هيئت لأن تكون مملكة كما ذكرنا ذلك في صفحات سابقة وأمر الملك بإنشاء حصن ضخم على قمة جبل من جبال بلاد القنفذ ليكون مقرا للحكم والسلطان وحاشية الملك .

وبدأت الوفود تأتي بالتبريك والتهنئة لما يحدث في بلاد القنفذ ومن ميلاد مملكة جديدة ، واعترف بعض الملوك بالمملكة الجديدة ، والبقاء على الصداقة التي كانت قائمة بينهم .. ولما أشرفت مراسم تتويج الملك البحر على النهاية .. قدم وفد من بلاد الماعز مهنئا بما يحدث في بلاد القنفذ ويطلبون أسيرهم .. فأخبرهم الوزير هلال بأن ابن ملكهم أساء للملك البحر ولأهل بلاد القنفذ جميعهم ، وأن الأمير محكوم عليه بالموت والقتل ..لإرساله عصابة سنج لخطف الأمير بلبل بكر الملك البحر .. وهذه العصابة قتلت رجلا بريئا أيضا .. والرجل أقر أمام قضاة المدينة بالجريمة وإرساله لعصابة سنج .

وأخبرهم الوزير بأنهم علموا بأنهم غدروا بالفتاة القروية .. عندما طلب من أحد خدمه وغلمانه

بإسقاطها في بئر عمدا ..ولا مجال للعفو ..

بل خلال وجود الوفد تم تنفيذ حكم الموت بالأمير ضرغام .. وأعطوهم جثته بعد صلبه يوما واحدا .

ولما وصلت الجثة بلاد الماعز غمر الحزن والأسى والبكاء القصر الملكي وبعض الأحياء .. وأظهر بعضهم بغضه على مملكة القنفذ وتمنى زوالها.. واعتزل الوزير عنان الوزارة واعتلى أحد أبناء عمومته الوزارة .

وعندما انتهى الحداد الملكي على الأمير المقتول قال الملك لوزيره شداد وقائد جيشه الجديد الأمير صارم : كيف سننتقم لشهيدنا ؟

فاقترح القائد إرسال مجموعة فطنة لقتل ملك بلاد القنفذ غيلة.. ولكن من يلبي نداء القيام بهذه المهمة الخطيرة .. ثم كانت الدعوة لبقايا مجموعة سنج .. فتطوع ثلاثة للقيام بهذه المهمة الخطيرة ورافقهم رابع من أهل المدينة من أصدقاء الأمير المقتول .

وكانت خطتهم مرافقة القوافل التجارية ، ويدخلون بلاد القنفذ بهيئة التجار المتنقلين مع القوافل .. والتحرك مع التجار كان سبيلا يسيرا لدخول المدن والحركة بداخلها .. ومع ذلك ربما يقع الكثير من الماكرين في أيدي الشرطة إذا كانوا على قدر من النباهة ..ودسوا أعوانهم بين رجال القوافل خفية ، وأيضا بواسطة التجار الذين يعملون في التجارة .. هم تجار أمام التجار ورجال خفية أمام الأمن .. فمن اشتبه بدخوله للبلد كجاسوس وعين يعتقل فجأة ، ويجري معه التحقيق وهو وقوة أعصابه وشجاعته أمام المحققين .. وهذا سيعرض القافلة كلها للاختبار والابتلاء وربما المصادرة والمعاقبة القاسية ..ولكن استطاع الرجال الأربعة دخول بلاد القنفذ وهم يمثلون دور التجار وأبناء التجار .. وباعوا واشتروا في المدن المجاورة حتى غلب الظن على رئيس القافلة التي رافقوها لبلاد القنفذ أنهم تجار مخضرمون ..وعادة القوافل الكبيرة أنها يرافقها في المقدمة حرس وفي المؤخرة حرس .. وهؤلاء عادة يستأجرون من قبل رئيس القافلة وزعيمها وحسب طول الرحلة ومدتها ..وأحيانا يدفع للمدن التي سيمرون منها مقابل

حمايتهم إلى أطراف مدينة أخرى .. وأحيانا يدفعون للقبائل التي تمر من مضاربها وبواديها ليحموهم من قطاع الطرق واللصوص ..وتم التثبت من رجال القافلة التي دخلها رجال مدينة الماعز .. فنزلوا في الخانات الملائمة للقافلة التي يصطحبونها ..سيبيع القوم في هذه المدينة ما يناسبهم وسيأخذون ما يناسبهم لبلاد أخرى .

وأحيانا تدخل المدينة قافلة لا تحمل إلا صنفا واحدا أو اثنين ..كأن تحمل دقيقا أو شعيرا لتأخذ مقابله جلودا ..بهارات .. أو سيوفا ..أو أخذ خيول أو حيوان يكثر وجوده في بلاد القنفذ .. ودخل الرجال الأربعة كتجار خيل ..فاحضروا معهم بعض الخيل الثمينة ..فمشوا بها نحو سوق الخيل والبغال والحمير .. دخلوا لبيع عشر جياد قوية .. وكانوا يطمعون أن يصلوا بها للملك البحر أو حاشيته .. فالفرسان يحبون اقتناء الجياد الأصيلة والقوية .. للحرب وللصيد وفعلا وصل الخبر لبعض رجال الجيش بوصول هذه الجياد .. فذهب بعضهم للمشاهدة كسائر المهتمين بالخيل ..ولكن قدر أن يكون أحد الذاهبين لمشاهدة هذه الخيل أحد الجنود الذين تعرضوا للسلب في حادثة اختطاف الأمير بلبل ..التي أدت إلى مقتل برسوم وضرغام .. فعرف هذا الجندي أن أحد هؤلاء التجار من عصابة سنج .. فكتم الأمر وتصرف بذكاء وفطنة .. وبعد انصرافه عن السوق أعلم أمير الحماية الخفية .. الأمير أسعد بما فطن له .. فشكره الأمير على نباهته وحسن تصرفه وكلف أعوانه بمراقبة هؤلاء الوافدين والتعاون مع الجندي الفارس ومعرفة الغاية من دخولهم بزي التجار بلاد القنفذ وقال لمساعديه : هناك مكر وشأن خطير

تابع أعوان أمير الحماية الخفية منازل التجار بل تمكن أحدهم من أن يكون خادما لهم في بلاد القنفذ ، وأنه رجل معتوه يعيش على الإحسان وخدمة الناس ..

وكان الأربعة يعمل منهم اثنان في سوق الخيل والآخران يتجولان في طول المدينة وعرضها .. يبحثان على ثغرة يدخلون بها قصر الملك .. وبعد حين أقروا بصعوبة دخول القصر .. واستطاع الخادم الأبله اكتشاف جل أسرارهم والغاية القادمون إليها ووجدوا أنفسهم عاجزين من تنفيذ مأربهم والنجاة بجلودهم .. وقال أحدهم ذات ليلة : لا يمكن التسلل لقصر هذا اللعين

واغتياله .. لابد من قتله في اجتماع واحتفال عام .. أو تجنيد جندي وإغرائه وفي هذا مخاطرة كبيرة على أرواحنا .. ومن معرفتي برجال هزيم أو البحر فمن غير الممكن توريط أحد منهم .



اشتباه

لما علم أسعد أمير الحماية من جاسوسه بغاية هؤلاء الرجال اللصوص المتنكرين بزي تجار القوافل كاشف الملك البحر بالمؤامرة التي تدبر للانتقام منه من قبل بلاد الماعز، فسر الرجل من نباهة أعوانه وشدة ولائهم له، وحمد الله على ذلك الحفظ ، وأمر الأمير بالقبض عليهم والاستماع لأقوالهم ثم تقديمهم للقضاء .

داهم رجال العسس والحماية الخان الذي ينزل فيه الرجال الأربعة بالتعاون مع صاحب الفندق في ساعة متأخرة من الليل ، وأسروا الخادم الجاسوس معهم .. خداعا لهم ، وأمام التحقيق أقروا بأنفسهم وغايتهم من الوجود في بلاد القنفذ .. وأن قائد جيش بلاد الماعز الأمير صارم كلفهم بالقيام باغتيال ملك هذه البلاد ، وليس أمامهم إلا الطاعة وإلا القتل .. فأمر الأمير أسعد بحبسهم في أحد الآبار المهجورة حتى يقدموا لأحد القضاة وكبير قضاة الملك البحر وينالوا الجزاء الملائم

وقضى القاضي عليهم بقطع الأيدي وحسمها بالزيت الساخن وطردهم من البلاد .. وبعد عذاب شديد وصلوا بلاد الماعز يبكون وينوحون أمام قائد الجيش حظهم وتعاستهم .. وحذروه من الاعتداء عليه من قبل رجال الملك البحر.. فأصابه الخوف والهلع ، فهو يعلم ما يشاع عن شدة إخلاص رجال الملك البحر لملكهم .. ويعلم مكر هؤلاء القوم.. فقد عاصر خطفهم للأمير ضرغام مرتين .. وبعد تأمل وتدبر خاطب الوزير وعرفه بفشل المهمة التي كلف بها الرجال الأربعة وما جرى لهم .. وحثه على تشجيع الملك على الصلح والاتفاق على عدم الاعتداء على بلاد القنفذ ، والتعاون معهم على مطاردة العصابات ، وطرد من بقي حيا من عصابة سنج .

ودخل الوزير شداد بالرجال الأربعة على الملك رضوان ، وأمر أحدهم أن يحدث الملك بقصة قطع أيديهم الذي رعب بدوره من هيئتهم بأيدي مقطوعة ، ولما صرفهم الوزير أطلع الملك على اقتراحات قائد الجيش ، فغضب رضوان وقال : الملعون لو كان ابنه المصلوب أيقبل بالصلح؟!

فليجلس في دار أمه وبين نسائه وليعين ابننا خالدا قائدا للجيش، وليستعد لغزو بلاد القنفذ مهما كلف الأمر .. من مال وجند .

ولما علم خالد بالأمر حاول التملص من قيادة الجند ، وزعم أنما هو جندي من جنود الملك .. ولكن والده أصر على تحميله المسؤولية ، وأصبح القائد الأكبر لبلاد الماعز السمرة .. ولما انتهت مراسم التعيين والاحتفال بذلك كلف بوضع خطة لغزو مدينة القنفذ .. فالتقى القائد خالد بالوزير شداد الذي بين له صعوبة المسير لتلك البلاد، فالمسافة بين البلدين تحتاج لأكثر من عشر ليال للوصول إليها .. والملك البحر له أصدقاء من الملوك الذين سنمر من أطراف بلادهم .. فنخشى تآزرهم وتحالفهم على غزو بلادنا .. ونحن منذ احتلال الملك الحصان لبلادنا وجيشنا ضعيف لا يقوى على المعارك الخارجية فلا داعي لمعادة ملوك تلك المدن .

فعاد الأمير القائد يصارح أباه بوضع جندهم وبعد المسافة بين البلدين ، فرفض الإعفاء وأن دم أخيه لا يجب أن يذهب هدرا بدون انتقام وقال : هم الذين قتلوا أخاك، ولم يرعوا حرمة أبناء الملوك والحكام .. أليس عندك دم ؟! .. أم دمك أصبح ماء ؟

ـ لم أنس دم أخي .. ما رأيك بأن نستعين بالملك جاد ابن الملك الحصان ؟

ـ فكرة عظيمة ..نعطيه نصف مملكة القنفذ .. سأذهب لزيارته واطلب عونه .. فهو أخ لزوجة أخي بهاء .

صحب الملك رضوان وفدا كبيرا فيهم بعض أبناء أخيه بهاء لبلاد الملك جاد ، وبعد الوصول وتناول الطعام كاشف الملك رضوان الملك جاد بسبب مجيئه وطلبه العون منه لغزو بلاد القنفذ والثأر لمقتل ولده .

فلما استوعب الملك جاد كلام الملك الضيف قال : أيها الملك نحن غزونا بلادكم للظلم الذي أصابنا من شقيقك بقتله أخيه بهاء ، ثم طرد أختنا ليقتلها اللصوص .. ودعمناكم للثبات والاستقرار في بلادكم .. أما أن نرسل فرساننا لبلاد القنفذ للثأر لولدكم فهذا غير صائب، ولسنا بحاجة لعداوة تلك المدينة .. فلم نكسب عداوتهم ونقتل رجالنا ؟!.. فهذا شأنكم أنتم

وحدكم .

ـ أسندنا ببعض الجند .

ـ هذا إعلان حرب عليهم وعدوان غير مبرر.. أيها الملك.. لو أعطيتك مائة فارس .. أو ألف فارس فهذا العدد هل يكثر فرسانكم؟.. أتقبل مائة فارس مائتين أيها الملك .

فقال رضوان : أقبل بهما أيها الملك السعيد .

فقال الملك جاد: حسنا أيها الملك! لو كان الملك البحر هو الذي يغزو بلادكم وطلبت مساعدتنا ربما أرسلنا معك الكثير ..أرجو ألا يعلم أحد أننا أرسلنا معك مائتين فارس فهؤلاء ضيوف عندكم ..

ورجع الملك رضوان لبلاده قابلا مائتي فارس من الملك جاد ، وعاد مصرا على مقاتلة الملك البحر، ولما كمل الاستعداد تحرك القائد خالد بالجيش الغازي ، وأرسل الملك رسائل لملوك المدن التي تعترض طريقهم لبلاد القنفذ يتعذر منهم للمرور من أطراف مدنهم ..فسمحوا لهم بالمرور من خارج المدن وبدون أن يؤذوا أي من أهل القرى .. ويقع في الطريق مدينتين من المدن الكبيرة ..وهم بدورهم أخبروا الملك البحر بعدوان بلاد الماعز ونيتهم الزحف لبلاده .. وكانت عيون الملك البحر التي تتردد باستمرار على مدينة الماعز نقلوا إليه استعداد الملك رضوان لمحاربة بلادهم ..فأمر الملك البحر بتقدم ألف فارس يقودهم بنفسه لملاقاة حملة الأمير خالد ..صديقه القديم ..وجعل الوزير هلالا نائبا على البلاد ، وأمره بتهيئة ألف فارس آخرين ليكونوا على أهبة الاستعداد ، وكان على رأسهم قائد الجيش حفيد الأمير هزيم الرعد وقال الملك البحر لوزيره : سأعرفه بنفسي وأذكره بشخصي فإن رجع رجعنا .. ولسوف نسعى لعقد صلح بيننا وإذا اضطررنا للحرب سنقوم بأسره وأسر قادته .

استمر الزحف من الطرفين حتى التقوا في منتصف الطريق بين المدينتين ، طلب الملك البحر اللقاء بقائد الحملة .. ولكن الأمير خالدا والقادة رفضوا اللقاء للتفاوض وأصروا على القتال للزحف على بلاد القنفذ .

ودارت رحى الحرب .. وتجالد الفرسان بضعة أيام ، ولما رأى البحر أنهم مصرون على القتال وعدم التراجع وعلى غزو بلاده .. فعرض الصلح عليهم مرة ثانية ، وأبوا وأعلنوا أنهم جاءوا ليثأروا لقتيلهم ضرغام ..فطلب البحر إخبار أميرهم بأن قائد هذا الجيش صديق قديم له ، فلما سمع ذلك قال لمن حوله: كيف يكون هو صديقي ؟!

ـ يقولون إن الرجل البحر صديق طفولتك في بلاد القمحة .

ـ غاضب !!.. أمعقول أنه ملك هذه المدينة لم نسمع بذلك؟!

ـ كان اسمه ريح البحر قبل أن يصير ملكا .. ثم أصبح يقال له البحر بدون ريح .

كان خالد ما زال في دهشته وردد : صديقي غاضب ملك! .. لم اسمع بهذا ؟! ملك بلاد القنفذ هو صديقي ريح البحر ..إن هذا لشيء عجاب !

ـ هو أحب أن تصل إليك هذه الرسالة .. لتقبل اللقاء به .

التقى الرجلان فوجده فعلا صديقه القديم ورسوله إلى أبيه رضوان قبل ربع قرن من الأيام وتذاكرا أيامهما ، وسمع الأمير قصة ملك الملك البحر ، وبدا معجبا به غاية الإعجاب؛ ولكنه قال : ما دمت تعرف من هو ضرغام لماذا قتلته؟!

ـ لم اقتله يا سيدي الأمير! .. القضاء قتله .. فهو متهم بقتل رجل من بلادنا يوم خطفوا ابني بلبلا .. وأنت أعرف الناس بلسان أخيك وقبحه .. وقد قتل القروية التي خطفها أولا ثم قتلها بعد شفاعة الأمير الزعيم هزيم الرعد .. ثانيا وأنت تعرف عداوته وشراسته .

طأطأ الأمير رأسه خجلا من صفات أخيه وقال : لم أنس .. ولكنه أخي .. وكل هذه الحرب للثأر له .. صدق أيها الصديق أني أكره الحرب وأبغضها.. كرهتها منذ مصرع عمي بهاء .. ولكن أبي يصر عليها .

فوقف الملك البحر وقال : أنا أحببت هذا اللقاء حتى إذا حمي الوطيس وسالت الدماء الغزيرة لا تلوم صديقك القديم في بلاد القمحة وحصن التدريب وتقول لو علمت .. لو علمت .. ما استمرت الحرب .. فأنتم مصممون على القتال .

كان الأمير قد قام أيضا وقال : ليس الأمر إليّ يا صديقي القديم .. ألا ليت تلك الأيام تعود ..

ـ حسنا أيها الأمير أرجو أن لا نلتقي وجها لوجه أثناء المعارك .. فإني لا أغفر لنفسي أن تعلم أمك الأميرة صيد أني سفكت دمك .

ـ أمي !!

ـ لا يمكن أن أنسى أمك التي عطفت عليّ صغيرا ، وكانت تمسح على رأسي أيها الصديق أرجو أن لا تلتقي سيوفنا أيها القائد .



بعد انصراف القائدين من الخيمة، طلب الملك البحر من رجاله عدم قتل الأمير خالد، ووضعت خطة القتال موضع التنفيذ ، تقاتل مجموعة أول النهار لإنهاك العدو وإرهاقه ومجموعة أخرى تستريح حتى نصف النهار، ثم يتبادل الفريقان المواقع فإذا تحقق النصر كان بها ، وإذا لم يتحقق في اليوم الأول تكرر الخطة في الأيام التالية .. وتجدد القتال في الصباح التالي، ولما تقدم الفريق الثاني من جيش بلاد القنفذ ليتابع القتال.. تقهقر أمامهم جنود بلاد الماعز فعادوا للخلف في أول اللقاء رويدا رويدا ، ثم أخذوا بالفرار غير المنظم ، وتركوا خيامهم ومعسكرهم طالبين النجاة بأرواحهم .. ولما رأى أتباع الملك البحر.. انهزام الجيش المعادي .. تابعوا القتال وأخذوا في مطاردة الأعداء إلى عدة مراحل.. ثم قفلوا ولملموا الأسرى والجرحى وأموال القوم .. وكان من ضمن الجرحى الأمير خالد الذي أخذ بالبكاء على ما أصابه وما حل بجيشه من الهزيمة ، فأمر البحر أحد أطباء الجيش العناية بهم .. ومن ثم نقلهم إلى بلاد القنفذ .. ولما خلا المكان من الأسرى والجرحى طلب الملك من جيوشه دفن القتلى من الفريقين .

وبعد مكث الجيش ثلاثة أيام للاستراحة في ميدان المعركة .. أخبرهم الملك البحر بأنه عازم على المسير لبلاد الماعز وغزوها وفرض الصلح عليها جبرا وقسرا .. وكان قد أرسل مع القائد الذي

ساق الأسرى والجرحى للبلاد .. أن يأمر الألف فارس الآخرين اللحاق به لبلاد الماعز وتحرك الجيش نحو بلاد الماعز ..

ولكنه التقى بالطريق بوزير الملك رضوان عارضا السلم والصلح ..فتردد في قبوله قبل دخول بلاد الماعز .. فطالب بمجيء الملك للاعتذار له ولبلده .. وأن يغرم مال الحرب .. ويطلب السلم .

وبعد أيام جاء الملك رضوان ووزيره للقاء الملك البحر .. وسلموا عليه سلام الملوك المغلوبين، وطلبوا الصفح والاستعداد لدفع المال المطلوب وتعويض أسر القتلى والجرحى من بلاد القنفذ ولم يكن عددهم كثيرا.. ولما استلم رجال الملك البحر الأموال المقدرة والديات قبل الملك البحر الصلح .. وأمر بعودة الأسرى والجرحى إلى بلادهم .. وقفل جيشه المظفر عائدا لبلاده آملا بانتهاء الحرب بينه وبين بلاد الماعز ..

وارتفع من جديد صيت الملك البحر وجيشه في الأمصار والبلاد بعد هذه المعركة .. وجاءته التهاني والتحيات من الملوك والوزراء .. وفي الطريق التقى بصديقه خالد الجريح ، واطمأن عليه وحثه بالعودة لبلاد أمه .. حيث الحياة الهادئة والصيد .. وعاد الأمير لبلاده وهو في غاية السوء من الجراح التي ألمت به بدنيا، ومن نفسه المحطمة من سوء الهزيمة ، وكان لقاؤه بأبيه عاصفا وشديدا ثم قال : نحن قوم لا نصلح للقتال ..فهذا المغامر أقوى منا ألف مرة ..

فقال الملك : إنه دم أخيك ..

ـ دم أخي !.. قتل مئات الرجال من أجل دم أخي الظالم .. جيشك تركني وهرب ..لا يوجد عندنا رجال حرب.. وصمت لحظات ثم قال : أتعرف من هو الملك البحر الذي التقيت به أيها الملك ؟

فقال بحزن وأسف : جلست بين يديه كالعبد الذليل وأنا وسادة قومك ..وهو يشرط علينا شروط المنتصر !

ـ هل عرفته؟ وقد التقيت به قبل اليوم ؟

ـ ظننت أنني التقيته قديما؛ ولكن لم اذكره جيدا ..فلعمري والله ما وطئت قدماي تلك البلاد .. ولكني أحسست أني رأيت هذا الوجه .. لكن أين ؟!

فصاح خالد منفعلا : هنا التقيت به ..إنه صديقي .. الرسول الذي أرسلته إليك قبل ربع قرن من الزمان .

ـ الرسول .. أي رسول .. آه .. ذاك الفتى ..

ـ نعم ، ريح البحر .

ـ ذاك الشاب ..ذاك الجاسوس.. يا ويلاه!! .. يا ذلاه !..وأنا أنظر في عينيه قلت لنفسي إن هاتين العينين مرتا عليّ .. رهيب وكيف حصل هذا العز والملك؟!

قص الأمير على أبيه مختصرا قصة تملك ريح البحر وهلال بلاد القنفذ .. فقال الأب معجبا : رجل بطل! .. وللأسف نحن أعداء .. ولا يمكن أن يصفى قلبي له .. إنه قتل أخاك يا خالد كنت أظنه قادما إلينا من قبل أمك جاسوسا وعينا .

ـ ولكنه اليوم سيد مطاع .. وأمير تهابه الملوك .. وتقدم له الهدايا والعطايا .. وهلال صديقي الآخر وزيره الأكبر .. أرأيت الدنيا يا أبي ؟!.. بسبب الرسالة التي أرسلتها إليك معهم .. تغيرت أحوالهم وأصبحوا الملوك والوزراء .. ولكن هزيم الرعد أحسن الاختيار لخليفته.. هكذا يقول كل من قابلت من الشيوخ والسادة في بلاد القنفذ .

يزيد

بعد هذه الأحداث التي عصف ببلاد الماعز .. طمع الملك رضوان بعودة ولده يزيد إليه .. وكان قد كرر المحاولة ليعود إليه أكثر من مرة .. بواسطة بعض كبار قومه وبواسطة الأمير خالد ، ولكنه في كل مرة يرفض ويربط صلحه مع أبيه باعترافه بزياد مولودا له، وبالاعتذار لأمه الشريفة العفيفة، وتبرئتها على رؤوس الناس .

تلقت الأميرة صيد رسالة من زوجها القديم يخطب ودها، وأنه مستعد للزواج بها من جديد، والاعتراف بأن الابن زيادا ولده ومن صلبه ، والاعتذار إليها أبين الاعتذار ، وأنه بشوق لرؤية ولديه بعد كل هذه السنوات .

ولما استوعبت الأميرة رسالة زوجها الملك تعجبت من قلة عقل زوجها ، وتحدثت مع أخيها بأمر الرسالة، وبحكاية الاعتراف ـ وهو الأهم عندها ـ بابنه زياد الذي تزوج ، وأصبح له أولاد قد تزوجوا منذ زمن قريب.. وكان الرسول قد حدثها عن جراح ابنها خالد في معاركهم مع بلاد القنفذ .

فلما قرأ الملك عدنان الخطاب والرجاء والتوسل والاعتراف والزواج قال لأخته : أمجنون زوجك ؟!

ـ يبدو أن هزيمتهم أمام جيش الملك البحر.. أضعفت عقله.. وأنا لولا قصة الاعتراف وإظهار براءتي وطهارتي لمزقت الكتاب كل ممزق.. وما عرضته عليك يا أخي الملك .

ـ نحن نعلم طهارتك وعفتك .. وصبرك عن الرجال كل هذا الزمن ولا أظن أن بك رغبة للنكاح رغم كل العروض التي قدمت لك .. وأنك آثرت مصلحة أولادك على مصلحتك وشهوتك .. وفي اعتذار بعلك وندمه فضل آخر لك وكرامة .. وفي حق الأمير زياد .. وذلك عندما يشهر في بلاد الماعز.

ـ وأعود له زوجة بعد كل هذه العداوة والعذاب!!

ـ مصلحة الأمير التي ضحيت من أجلها اجعليها في المقام الأول .

ـ لا أتصور أن أكون زوجة بعد الظلم الذي ظلمت به وحاق بي من وراء الزواج .

ـ أنت طلبتي مشورتي ، والأمر في النهاية إليك وحدك .

وبعد تشاور مع أصحاب المشورة والأميرين يزيد وزياد ، وأنه من مصلحة الأمير زياد بعد كل هذه السنوات الطوال من اعتراف وإقرار أبيه بأنه من صلبه وافقت الأميرة على الصلح ؛ ولكن الأمير زيادا قال : يا أماه اعتراف أبي بي لن يضيرني ويرفع من مقامي بين الخلق.. والذي خلقني ما شككت في عفتك وشرفك يوما بل لحظة ..لا تظني أنني أحببت أبي يوما ..إني أبغضه يا أماه ومع ذلك أقول الأمر والشأن لك أيتها العفيفة.. ولا أدري ماذا يريد مني هذا الأب بعد كل هذه سنوات؟!.. ولا تطيب لي الحياة في بلاد الماعز .

أرسلوا للملك رضوان رسالة يخبرونه بالموافقة على تصحيح الأمور ، والاعتذار عن الزواج ، وأنها لا ترغب بالحياة الزوجية.. ولكن كانت المشكلة إذا لم يحصل الزواج كيف سيذهب الأولاد لأبيهم ويعيشون معه بدون أمهم؟ .. وهي لم تستحسن الحياة هناك وحدها .

لما نقلت رسالة الأميرة صيد بالرضا عنه إذا أعلن على الملأ اعترافه بولده زياد ستقبل رحيلهم إليه إذا شاءوا .

فبعث الملك ابنه المصاب رغم مرضه لبلاد القمحة للشفاعة له عند زوجه ، وأن زواجه منها سيعيد الأمور لنصابها ، وأنه أخطأ في حقها ، وأنه نادم أشد الندم ، وسيرحل الأولاد وهم في طمأنينة، وأنها ستنصب ملكة في بلاد الماعز .

وبعد تردد الشفعاء بين المدينتين سافر رضوان بنفسه وحاشية كبيرة من الأمراء ، وأعلن ندمه على ظلم زوجه وأولاده ، وأنه جارى أمه في تهمتها الشنيعة .. واعترف أن أمه اعترفت وهي على فراش الموت أنها اتهمت الأميرة كذبا وزورا .. وأبان أنه نادم أشد الندم معترفا بذنبه.. واعتذر لأولاده جميعهم ، ولإخوة الأميرة وعشيرتها .. وتم الصلح بين المدينتين بمشاعر الندم ومظاهر البكاء والأسف .. وأعلن الزواج من جديد .. ورحلت الأميرة لبلاد الماعز مرة أخرى، وهي تطمع بسيرة وحياة هانئة كما كانت في بلادها .. واستقرت الأميرة بين زوجات الملك

بعدما تم إعلان براءتها مما اتهمت به وما ألحق بها من عار .. ثم أعلنت ملكة على البلاد ، وهكذا ضحت صيد من جديد من أجل أولادها ، وسر الملك باجتماعه بأولاده وأولادهم ، وأخذ يرغبهم بالزواج من بنات مدينتهم حتى يحبوا الاستقرار والمكث فيها ، وقرت عينه بهم وبأمهم صيد .



وبينما الملك رضوان سعيد بعودة أولاده الذكور وزوجه إليه وتجدد حياته ، دخل عليه رسول من قبل أخيه الملك رياض بن شامخ طالبا منه ترك تخت الملك لحفيده ابن الملك سيف الذي اغتالته زوجته بنت ابنة الملك الحصان الأميرة (برد) ، وأنه جند جيشا ضخما للمطالبة بملكه المسلوب .

دهش أهل بلاد الماعز لهذا النبأ الخطير، واجتمع الوزير شداد بكبار رجال القوم ، والسؤال الدائر على فكرهم لماذا كل هذا الانتظار وبعد كل هذه السنوات ؟! وما الذي ذكرهم ببلادهم بعد العقود التي ذهبت ؟!

وذهب وفد من السادة إلى بلاد الملك دوان الذي قدم الحماية للملك رياض ، فوجدوه قد مات واعتلى عرشه ولده سعيد، فلما استقبل الوفد قال لهم : أهلا وسهلا بكم في بلاد الطير .. وحكايتكم حكاية قديمة .. لا دخل لنا فيها .

وعاد الوفد لبلاد الملك جاد بن الملك الحصان حاكم مدينة سلمي يطلبون مساعدته ضد الملك رياض .

فقال الملك جاد : هذه حكاية قديمة .. مضت عشرات السنين عليها ، وأختنا لها عقود ميتة وقد قتل عدد من فرساننا في معارككم مع ملك بلاد القنفذ .

فعاد الوفد بخفي حنين للملك رضوان الذي كان قد أمر الجند بالاستعداد للدفاع عن بلادهم وأدرك التململ والفتور بين القبائل .. وكذلك بروز الطامعين من أبناء القبائل من جديد فقدم

لأخيه الأكبر المال للعودة للسكون في منفاه ، ولما أبى إلا العودة لبلاده ..فوافق على العودة للبلاد مقابل الهدوء ..فجاءته رسالة تهديد ووعيد ويعيب عليه الاعتراف بابن الزنا من زوجه صيد فغضب الملك للرسالة ومزقها قبل أن يقرأها أحد غيره ..واستعد للمعركة القادمة .

وكان ذلك الملك الشيخ قد تحالف مع ملك قريب للملك سعيد بن دوان تقع مدينة ملكة بين بلاد الماعز وبلاد الطير ..فلما انتشرت عودة الملك رضوان لزوجته الأميرة صيد كما روينا ذلك سابقا ..أرسل الملك الشاب لمدينة غراب .. يخبر الملك الشيخ أن أخاه تصالح مع زوجه صيد ونفى عنها الفاحشة وجعلها ملكة .. وأنه لم يفكر في أخيه وأبناء أخيه ليعيدهم لبلادهم كما أعاد زوجه وولديه يزيد وزياد .

ولما استوعب الشيخ الوشاية ومصالحة أخيه من أبيه من زوجته التي طردت ذليلة من بلاد الماعز وأن أولادها على وشك أن يعتلوا عرش أبيه شامخ .. تظاهر بالغضب والأسف، وكذلك حثه بعض أبنائه وأحفاده بالعودة والمطالبة بالعرش والحكم ، وأنهم أولى من أبناء الملك في الملك والسلطان ، وأن أمهم متهمة بالفاحشة واعتبروا ذلك خيانة لأبيهم شامخ .

ووجد هذا الفعل تشجيعا من ملك البلاد الغراب ، وأنه على أتم الاستعداد للتعاون معه لاسترداد ملكه مقابل نصف ملكه إذا ظفروا بالحكم ، وكان ذاك الشاب محبا للمغامرات والتحرش في المدن باحثا عن الشهرة والعلو بين الممالك .. والظهور على أبناء أقربائه حكام بلاد الطير .

وبعد ضغط من أبنائه وأحفاده ، وافق الشيخ على المسير لبلاد الماعز طالبا استرداد عرشه وعرش ابنه المقتول .. ولما رفض رضوان التنازل عن العرش كما أسلفنا لكم تحرك الملك رياض والملك صخر بجيش يزيد عن الخمس آلاف فارس ومحارب .. واقترب الزحف لبلاد الماعز خلال شهر .

وقامت المفاوضات للصلح بين الأخوة من جديد .. وأثناء هذه المفاوضات التحق عدد لا بأس به من جيش الملك رضوان بالجيش الزاحف بعدما تم تقديم الإغراءات لهم ، وأيضا لمعرفتهم

بضعف جيش بلادهم ، فهم منذ موت الملك شامخ وصراع الإخوة قائم فيما بينهم ، والاحتماء بالغريب دأبهم .

ودارت المعركة بعض نهار واحد ، ثم رفع قادة الجيش في بلاد الماعز الرايات البيضاء ، وطلب الملك رياض من أخيه التسليم والإقرار بعودة الملك لأهله ، فرفض الملك التنازل عن عرشه، وغادر البلاد طالبا المنفى، واتجه بأسرته نحو بلاد القمحة ، التي فوجئت بوصول الملك رضوان والملكة صيد التي احتفلوا بتتويجها منذ أشهر.. فقدم لهم الملك الشيخ عدنان القصور اللائقة بمقامهم ومواسيا لهم بسقوط عرشهم .

بعد تلك الهزيمة المدوية حاول الملك رضوان الاستفادة من جيش بلاد القمحة ومساعدتهم باسترداد الملك ، ولكنهم اعتذروا له عن الدخول في صراعات بينه وبين إخوته، وحاول أن يوظف استعادته لزوجه بأنه سبب هذا الصراع، وتحدث عن مضمون رسالة أخيه إليه قبل الحرب التي فيها حجة لطلب العرش من جديد وهي عودته لزوجته المتهمة وتنصيبها ملكة فقال الملك عدنان بحزم : نحن لا ناقة لنا في هذه الحرب .. ومهما كان السبب وراء هذه الحرب فجيشنا لا يستطيع القتال إلا في حماية حدود البلاد ..وأهلا بكم ضيوفا مدى الحياة .

وامتعض الملك رضوان من هذه الصراحة ولم يعجبه الجواب الصريح ، فلزم الصمت على مضض، وبعد حين اتصل بأخيه طالبا العودة للبلاد، وأنه مستعد للتنازل عن العرش، وأنه لا مطمع له بالتاج والحكم.. ولما وثق الأمر .. أخبر الملك الملك عدنان بصلحه مع أخيه، وأنه قرر العودة ليموت في بلاده وبين أهله ورعاياه ..وأمر أعوانه وأولاده بالعودة للبلاد .. وبارك ملك بلاد القمحة هذه الخطوة الجريئة .. وأثناء الوداع ادعى أن أخاه شرط وطلب منه طلاق الملكة صيد ، وأظهر غضبه زاعما أنهم لو ساعدوه في تحرير بلاده من الغزاة لما اضطر لهذا الفعل ولكن جبنهم منعهم من الوقوف معه ، وأن ابنهم خالدا كان مهيئا ليكون ملكا بعده.

وأمام هذا المشهد الجارح أعلن الأمير زياد رغبته في البقاء في بلاد أخواله ، وفعل يزيد مثله ، فأظهر رضوان عدم اكتراثه بتمردهم ، وظن أنهم سيتبعونه بعد أيام ، ولكنه وصل البلاد التي

غادرها قبل حين ولم يصحبه من أبناء الأميرة صيد سوى الأمير خالد فقط ، وكانت المفاجأة بعد رحيل زوجها رضوان أن اكتشفت الأميرة صيد أنها حامل منه ، فأنجبت فتاة في بلاد الأخوال وسمتها أسماء .. وهكذا ترك الملك المخلوع رضوان ابنته تربى من جديد في بلاد الغربة

****

حرم على الملك المخلوع رضوان الخروج من المدينة إلا بإذن من أخيه الأكبر ، وكذلك ولده خالد ، وأحيطت قصورهما بالجند الخاص من قبل الملك ، فمنعوا من السفر والصيد إلا بسماح الحاكم عن ذلك ، أي حبسوا في منازلهم .

ولما وصل المدينة نبأ ولادة أم خالد لابنتها أسماء فكر خالد بالرحيل لزيارة أمه فرفضوا طلبه .

وبعد حين أدرك الناس في المدينة بأنهم محتلون من قبل نائب الملك صخر الأمير مجد.. وأيقنوا أنهم أصبحوا عبيدا لمملكة الغراب ..وأموالهم تذهب لتلك المملكة .. وأن ملكهم ألعوبة بيد نائب الملك مجد ..فتأمر مجموعة من أبناء القبائل واغتالوا الملك الشيخ رياض .. واعتلى العرش مكانه ولده فراس الذي قام بمجزرة رهيبة في القبائل انتقاما لمصرع لأبيه بمساعدة جنود الملك صخر ، وهو صديق له في بلاد المنفى.. وفراس عرف بشراسته وحقده على مدينته.. فأساء لأهل البلاد رغم أنهم عشيرته وأقاربه.. وحدثت ثورات ونزاعات حادة داخل البلاد بسبب مجزرته في حق بعض القبائل.. حتى أن ثورته كادت تصل لعمه الشيخ رضوان .. ثم تراجع عن ذلك الدم ..

وقدم الملك صخر بنفسه للبلاد لتثبيت الملك فراس وشد أزره ..وأخذ عددا من الرهائن من سادات الأمراء والقبائل، وساق الأموال والأنعام ومهددا القوم وأهل المدينة بضمها لملكه للأبد ..إلى مملكته التي تكبر يوما بعد يوم .. فهدأت البلاد بعد مقتل الملك الشيخ رياض وبعد العنف الذي غمر القبائل.. وهدأت الثورات قليلا.. ولكن أبناء القبائل الذين تمكنوا من الهرب أصروا على معادة الملك فراس .. وظلوا يتصلون بالناس ويحثونهم على الثورة والتمرد ورفض الذل والهوان .. وحاولوا إقناع الأمير خالد بمؤازرتهم .. ومشى بعضهم لبلاد القنفذ وطلبوا

مساعدته في تحريرهم من الملك صخر .. فاجتمع الملك البحر ببعض زعمائهم .. وأسف لم حل برضوان وولده خالد من الهوان والحبس ثم قال لهم بعدما أظهر تعاطفه معهم وحزنه لحالهم : ماذا نستفيد من بلادكم ؟!

عرضوا دفع المال له لمدة عشرة سنين ، فأجابهم : لقد خبرت بلادكم أنها كثيرة التقلب.. ولكني راغب في مساعدتكم ..إذا قدمتم لنا كل عام عشرة آلاف قطعة ذهبية ..وأشرط موافقة الأمير خالد على هذا الشرط ، وأيضا سيكون هو الملك عليكم ..وسأفعل ذلك إذا رضي للصداقة التي كانت بيننا قديما أيام الصغر .. والمال الذي عرضتموه علينا هو ثمن للحرب وللجنود الذين سيبقون في بلادكم للمحافظة على السلم ، ومنع الغزاة من المسير إليكم.. شاوروا شيوخكم والأمير خالدا ، ثم عودوا إلينا بكتاب من الأمير راضيا بما تفاوضنا عليه .

وللجروح والنكبات التي أصابتهم من فراس وصخر ومجد رأوا شروط الملك ريح أخف وطأة من احتلال صخر لمدينتهم .

ولما علم الأمير خالد بموافقة الملك البحر على التعاون معهم للقضاء على فراس الوحش كما يسميه أهل المدينة لوحشيته معهم بعد مقتل أبيه وإسرافه في الانتقام دون التروي فيمن له يد في مصرع أبيه ، وافق الأمير على المؤامرة .

ولما جاءوه برضا الأمير على شروطه قال لهم :اعلموا أيها السادة أنه إذا حدثت فتن بعد تمكين الأمير خالد في الحكم ببلاد الماعز سأقوم بضم بلادكم لمملكتنا رغم أنوفكم ..فنحن سنسعى لاستقرار البلاد .

وبعد تشاور الوفد من جديد سلموا للملك البحر بهذا الشرط ، وتعهد الوفد على الوفاء بتعهداتهم للملك البحر ، وأنهم ينشدون السلام والاستقرار في مدينتهم كما كانت في عهد الملك رضوان وشامخ من قبله .

أعلن النفير في بلاد القنفذ ، وأعد الملك البحر جيشا يتكون من ثلاثة آلاف فارس للزحف في الحملة الأولى ، ولسوف يتبعهم جيش آخر مقداره ألفان من الفرسان .

ولما وصل الفرسان قرب بلاد الماعز كتب الملك البحر رسالة للملك فراس، وأعلمه فيها بأنه يغزو بلاده رغبة عن طلب الأهالي من قومه ، ويحثه على الاستسلام وخلع نفسه ، وأنه يتعهد له بحفظ حياته وحياة من شاء من أسرته وأبنائه أو يخرج إلى حيث كان منفيا مع أبيه .

كان الملك فراس يعرف كره الناس له ولأسرته منذ طردهم من البلاد على يد الملك الحصان .. وأن الجند الذي يحيط به لا يصلح للقتال ..وليس له إلا الاعتماد على جنود الملك صخر والذين يقودهم الأمير مجد ..فتشاور مع مجد الذي رغبه بالدفاع ريثما تصل النجدة من الملك الغراب . فطلب من أكبر أبنائه الخروج لقتال الملك الغازي ، وهو خرج هاربا نحو صاحبه صخر ، فهو يعلم لو قبض عليه أبناء القبائل التي سحقها سيشربون من دمه ويمثلون بجثته كما فعل بأبنائهم ليقذف في قلوبهم الرعب .

ولما التقى به الملك صخر قال : لقد ندمت على تحريض أبيك على الطلب بملك سكت عنه عشرين سنة .. إنكم مكروهون من الأهالي وهواهم مع غيركم .. ولكني سأصر على القتال معكم والدفاع عنكم .

وجاءت الملك صخر رسالة خطيرة من الملك البحر يطلب منه سحب جنوده من بلاد الماعز ، وإذا قاتلوا مع جيش بلاد الماعز سيحتل مدينتهم ويدمرها .

فاغتاظ الملك لهذا التهديد ، وكان قد أعلم قادة جيشه بالاستعداد للعودة لبلاد الماعز والدفاع عن نصف ملكهم لها فقال للرسول : اخبر مولاك بأننا قادمون للقائهم ودحرهم والقضاء عليهم .

وبينما الجيش يزحف متجها لبلاد الماعز التقوا بالطريق ببقايا جندهم وأنصار الملك فراس الذين أعلموهم أن البلاد أصبحت تحت سيطرة جيش الملك البحر.. وقد نصبوا ابن الملك رضوان ملكا على البلاد .. فهو صديق للملك البحر في طفولته .

توقف الملك عن متابعة الزحف، ورأى أن مؤازرة الملك فراس معركة خاسرة ، فهذه بلاد تمزقها القبائل وتتقاسم سيادتها ومن الصعب تغيير التقاليد والعادات التي درجوا عليها من مئات

السنين .. ولكن كبرياءه وهيبته أمام جيشه والمدن التي تغلب عليها وضمها لملكه تؤرقه لم تسمح له بالتراجع فأمر بمتابعة الزحف قائلا : لا تحلو الحياة إلا بالمعارك والمغامرات .



الحرب

واصطدم الجيشان على أطراف بلاد الماعز من جهة بلاد الغراب، ودارت رحى معركة قوية لا ينساها من خاض غمارها ، وبعد أيام من القتال المستمر أخذت جنود الملك صخر بالتقهقر والرجوع لبلادها.. يتحركون في الليل نحو مدينتهم.. وفي النهار تتبعهم جنود وكتائب الملك البحر.. وظلت الجيوش تزحف وتطارد حتى دخلت مدينة الملك صخر ..واحتلت قصر الملك صخر نفسه ، وصادرت الكثير من الأموال والخيرات من إبل وأنعام وسلاح .. وخلال هذه المصادرة أرسل الملك البحر الرسول الذي أرسله من قبل للملك صخر يطلب من التسليم والخضوع ، ويأتي طالبا العفو من الملك البحر.. فرفض الملك صخر العرض، وأخذ يلملم فلوله وأنصاره في إحدى القرى ، ويستعد لجولة جديدة من القتال حتى الموت .. فرخص الملك لرجاله لما جاءه الرفض بسبي نساء وبنات الأمراء واتخاذهن جواري وزوجات واتخذ الملك نفسه أم الملك صخر الأرملة زوجة له ، وجرى الاحتفال بزواج الملك البحر في قلب مدينة الغراب ، ولما علم الملك صخر بهذا الزواج حنق على نفسه وعلى أمه ، وتمنى قتلها بنفسه .

وقال لرجاله وكله غضب : لن أخضع له ولو تزوج حتى بناتي .

وهمس بعض أعوانه في أذنه أن يستغل زواج أمه للغدر بالملك البحر .. ويعلن الاستسلام ويـتظاهر به، وأخذ يفكر هو وأعوانه بحيلة لتحقيق ذلك الهدف ..

وأتته رسالة من الملك البحر يخبره بزواجه من والدته دون إكراه، ويحثه على الخضوع والعودة ليبقى ملكا على مدينته .

وقد قام عدد كثير من الجند والقادة بالزواج من أميرات المدينة سواء المترملات أو العزباوات وقد أدرك الملك البحر أن عند الملك صخر قسوة وكبر وعناد .. فقرر الانسحاب من بلاد الغراب بعد أن أصبحت خرابا ، وعاد لبلاد الماعز التي أقام عليها صديقه خالدا ملكا وقد بايعه الناس .

وأما الملك صخر فعاد لبلاده باكيا حزينا لما أصابها من دمار وحرائق ، وتذكر ما كان يفعله في

المدن التي كانت تجتاحها جيوشه عندما تنتصر على مدينة أو جيش .. فبعد بكاء تعهد أمام رجاله على الاستمرار في القتال وقتل الملك البحر رغم تزوجه أمه ، ولن يثنيه هذا الزواج عن عداوته واغتياله ..وأخذ يرمم ما دمر من القصور والأملاك .. ولما بدأت الكارثة تخف على نفسه دعا خادما خاصا اسمه سمر ، وكلفه بالسعي على اغتيال الملك البحر .. فوافق الخادم على ذلك الطلب وسعى إلى رفيقين له وغادروا بلادهم .. وهذا الخادم مشهور بالقسوة والشجاعة وسيف سيده ، وكان مكلفا بالمهمات الخطيرة والخفية .

دخل سمر العبد الشجاع ورفيقاه بلاد الماعز .. وعلم أن الملك البحر اتخذ قصرا من القصور التي هجرها أصحابها إما بموت أو هرب ..وعلم أن مكثه هنا لحين من الزمن حتى تستقر الأوضاع في البلاد ..

وعلم أن الوفود والأعيان ما زالوا يتوافدون عليه للتهنئة بالانتصارات والتبريك بالزواج من أم ملك بلاد الغراب .. وأنه الآن الملك الحقيقي في البلاد ..وأنه طلب من قادته تأسيس جيش جديد من الفتيان والشباب الصغار ..

ورأى تزلف الأمراء والسادات له بالهدايا والهبات ، فلم عرف هذه الأشياء أخذ سمر ورفيقاه بالبحث عن حيلة ماكرة يغتالان بها هذا الحاكم القوي .

ووقع في نفسه الاتصال بالملكة الأم " ربى " أم الملك صخر ..ولكنه خشي أن تفضل زوجها الجديد على ولدها وتفضح أمره .

وذات يوم وهو يراقب القصر لمح خادما يعرفه من خدم الملكة الأم خارجا من القصر فسر من ذلك الاكتشاف وقال : لابد من الاتصال بهذا الخادم ..أنا كنت أعرف الكثير من خدم الملكة وهذا أحدهم .

فتبعه في رحلته ، وفي مكان بعيد عن القصر اعترضه مدعيا أنه التقى به فجأة قائلا : ويك !.. ماذا تفعل هنا ؟ ألست من خدم الملكة الأم ربى ؟!

ـ أجل ، وألست من خدم مولانا الملك صخر ؟!

ـ بلى ..ولكني هنا لقتل زوج سيدتك الملك البحر .

انتفض الخادم وقال مرتعبا: ويحك أتخسر حياتك من أجل ماذا ؟!

ـ أريد مساعدتك ؟

ـ لتصبح مولاتي أرملة مرة أخرى .

ـ أسعيدة مولاتك بزوجها البحر؟

ـ إنه ملك شريف وقوي .. ولو صرعته أتظن أنك تنجو بفعلتك؟! إن رجاله مخلصون محبون له .. وهو لم يعتد على بلادنا إلا لاعتداء ملكنا على هذه المدينة .. والملك خالد صديقه .. وهو ملك ليس من سلالة ملكية .. ابن رجل مثلنا ..

قطع سمر على خادم الملكة استرساله في مدح الملك البحر وقال : المهم أريد مساعدتك في الانتقام ..فقد قتل أولادي وزوجتي ..أريد أن أنتقم لنفسي .

فكأن الخادم تفاجأ بمأساة سمر فهتف: أمات أهلك؟ رحمهم الله ..ولكن يا صاحبي قتل الملك في أجناده ليس بالأمر المتيسر أيها الصديق .. ومن يضمن لي روحي ؟

ـ ومن يضمن لك حياتك بعد أن كشفت لك سري وغايتي من الوجود هنا ؟

ـ أعاهدك على الصمت وألا أتحدث لأحد .

ـ قتلك هو الضمان الحق لقتل سيدك الجديد ..فصمتك الأبدي نجاحي .

ـ سيعرفون قاتلي خلال ساعات .. للملك البحر رجال أمن أشداء وأذكياء .. وهم يعرفون أن الملك صخرا غاضب وناقم عليهم .. وهم على علم بأنه أرسل جماعة لقتله .. ولم أكن أعلم أنك أحدهم .

ـ إنك تكذب لتنجو من بطشي .

ـ اقتلني ولسوف ترى .

ـ أنا لا أريد قتلك أيها الأحمق .. أريد مساعدتك وتعاونك معي ..ولسوف تستفيد .

ـ قلت لك إن الملكة أخبرتني أن ابنها أرسل جماعة لقتل زوجها .. أقسم لك على ما نطقت به

إذا كنت أحد الجماعة فانج بروحك .. الملك البحر يعلم بذلك وقال لها : إذا جاء القدر ذهب الحذر يا أم الملك صخر .. هو ما زال يناديها بأم صخر .

قال سمر بغيظ : لا وفاء عندهن .. لقد نسيت الملك والد ابنها وبناتها .

ـ لم تنسه يا أخي .. وهذا ملك طلبها وتزوجها ..وبعض بناتها تزوجن من أمراء بلاد القنفذ ورحلن إلى هناك .

ـ ألا تريد التعاون معي لأشفي غليلي ممن أهلك أولادي وامرأتي؟

ـ يا أخي كيف سأساعدك؟

ـ أن توصلني حجرة الملك .

ضحك الخادم وقال متهكما: وهل يسمح لي بالوصول لحجرة الملك؟!..أنا الملكة لا أدخل حجرتها، وهي ملكتي منذ عشرات السنين.. اقتلني اليوم قبل أن أقتل غدا ..هذا صعب فرجال الملك يحرسونه ، ولا يسمحون لشخص مجهول بالدخول إلى مخدعه ولو كان وزيرا يا هذا .

ـ ألا طريقة ألا حيلة عندك؟

ـ نحن لنا معهم بضعة أشهر ..هات طريقة من عندك ..وإذا ساعدتك وانكشف أمرك إياك أن تذكرني بشيء .. عدني بذلك .

ـ الآن عدت لأصلك وجنسك.. أعدك إذا قبض عليّ ألا أتحدث عنك بشيء .. واعلم أنك إذا وشيت بي أن الرجال الذين يساعدونني في انتقامي سيقضون عليك .. وسوف أخبرهم عندما ألتقي بهم بعد ساعة من الزمن .. سوف ألقاك بسوق النحاس بعد يومين .

اختفى الخادم وكذلك سمر، وبعد يومين سعى خادم الملكة لسوق النحاس للقاء الرجل فاقترب منه وحياه، فأشار له أن يتبعه .. فسار خلفه على بعد عشرين خطوة .. حتى خرجا من المدينة إلى القرى والصحراء ، ولما صارا في الخلاء وبين الجبال قال سمر للخادم : إذا نجحنا في قتل عدونا البحر، ونجونا يا سعد سيكون لك عند الملك صخر مقام كبير .. تسعد به أنت وذريتك للأبد .

ـ أنا خادمك المطيع .. ولن أنسى أفضال الملك الوالد ولا ولده الملك صخر .

ـ والآن كيف يمكنك مساعدتنا ؟

ـ قلت لك أنا لست بصاحب حيله مثلك ..أنا أخبر بأمر فأنفذه .. واعلموا أن الملك قد يرحل قريبا إلى بلاده .. وقتله هنا بالتأكيد أسهل من بلاده حيث الفرسان والحرس .

ـ معك حق ..ولم يهن عليك ما فعل بي اللعين .. ولا بأهل مدينتك ..وأنت الآن زدت ثقتي بك وخشيت أنك حضرت وخلفك عيون الملك؛ فلذلك أبعدت بك النجعة ..وأقسم لك إننا إذا فزنا ستكون من المقربين ومن حاشية الملك صخر .. وستدع العبودية والهوان وتصبح حر نفسك ..حدثني عن تحركات الملك ، ومتى يدخل جناح الزوجات والحريم .. وهل معه حليلة غير أم صخر ؟

ـ نعم .. معه الأميرة شام ابنة سيده هزيم الرعد الملك الذي ولاه من بعده.

ـ أخبرني متى ينامون ؟.. متى يأكلون ؟.. كيف هي حياتهم داخل القصر ؟ وكيف يمكنني الدخول يا سعد ؟

ـ اعلم أن كل رجاله من بلاد القنفذ .. ولا يوجد في قصر الملكة الأم من بلادنا سواي وثلاث جاريات رافقن الملكة أثناء رحلينا لبلاد الماعز .. ولكن هناك حفلة ستقام للتشهير بالملك خالد ملكا على البلاد والعباد .. قد تجدون في هذا الاحتفال الكبير ثغرة وفرصة .

ـ وهل سيكون البحر في الحفل ؟

ـ الأكيد نعم ..فالملك خالد كان صديقا للملك البحر في طفولته ..وروى له شيئا من قصة خالد وريح البحر .

ـ هذا البحر لم يكن ملكا بالوراثة كما أشرت إلى ذلك في المرة السابقة .

ـ نعم ، هو الذي صنع مملكة بلاد القنفذ .. وصار ملكا عظيما تلجأ إليه الملوك للمساعدة في تثبيت حكمهم وملكهم .

ـ حسنا يا سعد .. فلنرجع للمدينة الآن .. وليكن لنا لقاء في سوق النحاس بعد يومين للتشاور

وتبادل الأخبار والأنباء .

*****

الملكة الأم قد لاحظت هي وجواريها الثلاث كثرة خروج الخادم من القصر دون إذن، وكانت لا تظن في ولدها خيرا ، وتعلم حقده على بعلها البحر ، وهي أدرى الناس بخلق ولدها صخر وأن حقده وكرهه كبير، وأنه لن يغفر لملك البحر الزواج منها .. فتوجست خيفة من فعل الخادم الوحيد الذي جاءت به معها من بلادها ، ورغم ثقتها القديمة به ، فقد تضايقت من خروجه بدون علمها .

وهي خبرت الملك البحر وقوته وشدة إخلاص رجاله إليه، فإذا تعرض لحادث فربما يضطر لقتل ولدها الوحيد ، ويفني عشيرتها وقومها ..فهمست بأذن بعلها البحر شكوكها حول الخادم قائلة : أخشى أن يتصل به أعوان ولدي ، ويغرونه بالتعرض لك .. فأنا أعلم الناس بحقد وبغض ولدي ..فالكبر قاتله .. فيحتاج لزمن طويل حتى يتغير للأحسن أيها الملك العظيم .

شكر لها الملك إخلاصها وخوفها عليه وعلى ولدها ، ثم قال باسما : اطمئني يا سيدتي الكريمة واعلمي أن خادمك قد خاننا ، وهو على اتصال بعبد من عبيد الملك صخر اسمه سمر .

ذعرت الأم لسماع هذا الاسم وقالت : ويلاه !! .. إنه وحش في صورة إنسان .. هذا الوحش ورثه صخر عن والده ..وهو سيف ويد الملك ..ومن أخلص رجاله وأعوانه ..لا تتهاون معه وما أتى إلا لأمر كبير أيها الملك المبجل ! .

ـ بوركت همتك ..وجفلك منه يدل على خطر كبير منه ؟

ـ إنه يا مولاي عبد لئيم ..وأنا يا مولاي لا أحب أن يصيبك شيء على يد ولدي ورجاله .. ولا أحب أيضا أن يصرع ولدي على يديك ويد رجالك .. فحياتكم حياة لي .. ولا أريد أن يكون بيني وبينكم دم أحدكم ..وولدي أعرف كبره وشهوته للقتل والحرب ..ولا يعرف عاطفة وقلب الأم .

ـ لا تجزعي عليّ، ولا على ابنك سنعامله بالحسنى ..وأما هذا العبد فهو يخطط لهلاكي يوم حفل

إشهار الملك خالد على الملأ باحتفال مناسب .. ورجال الحماية والخفية يقومون بواجبهم وهم من أفطن وابرع فرساننا .. وبعد إعلان هذا التتويج سنغادر المدينة إلى بلادنا العامرة ، وسنجد الأمان فيها أكثر ..فنحن هنا نعرف أن لنا الكثير من الأعداء والحساد ..هذه طباع الناس وأخطر الخطر أن يشترك رجال الملك وحاشيته بالتآمر عليه ..فهذا الخطر الداهم والخطير يا أم صخر أما الغدر من الأباعد والغرباء فهذا وارد ومتوقع .. وعلينا الحذر.. والعبد سمر فهو تحت المتابعة والسيطرة ..وصدقي أيتها الملكة العزيزة على قلبي أنني منذ سكنت بلاد القنفذ واجتمعت بسيدي ومولاي هزيم الرعد لم أجد بينهم غادر.

فقد كشف أمر سعد وسمر بسرعة لعيون الحراسة ، وهم يعلمون ويدركون أهمية المحافظة على جسد الملك البحر من أيدي الماكرين والغدارين .. وكان البحر قد أمرهم بالقبض على سعد وسمر ليلة الحفل لإرباك الأعضاء المستورين ، فهم من متابعة سعد عرفوا سمرا ؛ ولكنهم مدركون أن لهم أعوانا آخرين .

فهم وصلوا لمسكن سمر؛ ولكنه كان يعيش فيه وحيدا ، وكان أمير الحماية الأمير أسعد يصعب عليه تصديق أن سمرا جاء من بلاد الغراب ليغتال الملك البحر وحده .. بل عيونهم التي قبعت في بلاد الغراب أعلمتهم أن مجموعة من ثلاث رجال خرجت لارتكاب جريمة في بلاد الماعز .

ورغم قناعة سعد خادم الملكة بضعف الوصول للملك البحر والنيل منه ؛ ولكنه بعد سماعه كلام سمر والأحلام التي وضعها بين يديه من السيادة والحرية والزواج وافق على التعاون مع سمر ونسي الملكة .. ورغم عيشه كل هذه الحياة بدون طموح والرضا بما هو فيه استطاع سمر إغرائه وقلبه على مولاته الملكة ..وقد كان سعد يعلم من هو سمر عند الملك صخر مع كونه عبدا مثله ..كان كأنه وزير غير متوج .. فطمعت نفسه لأن يكون مثل السيد سمر .. فسقط في براثن الخيانة .. لذلك تابع الاتصال والاجتماع بسمر متوهما أنه ذكي وأن القوم يجهلون ما يمكر به .

وقبل يوم المهرجان الليلة السابقة للاحتفال عندما أراد الخروج من القصر المقيم فيه الملك البحر

أراد سعد الخروج كالعادة التي دأب عليها حديثا فمنعه رجال القصر وحاول أن يقنعهم برغبته بمشاهدة الاحتفال .. فوعدوه عند ساعة الاحتفال أن يسمحوا لك بالمغادرة لبعض الوقت .. فعاد لمقر نومه مرتبكا وقلقا وحزينا ، وأن سمرا سيظن به الظنون .

وسمر فعلا ظن به السوء عندما لم يحضر إليه للاجتماع الأخير قبل الاحتفال فلعب الوسواس في عبه وصدره .. وانتظر لليل ولم يحضر الرجل فازداد حنقا وخوفا .. وجلس في مسكنه حائرا من تأخر سعد.. وعند منتصف الليل سمع طرقا على الباب فظن للوهلة الأولى أن سعدا قد حضر، فبعد أن جفل نهض قائما ـ وهو معروف بالشجاعة في بلده ـ وابتعد عن الفراش وقال باضطراب: من يطرق الباب ؟!

ـ افتح أرسلني سعد إليك .

ـ من سعد؟! هو قد سمع صوتا ضعيفا .

ـ ألا تعرف من سعد؟

ـ من سعد ؟

ـ ويحك ألا تعرف من سعد ؟ .. افتح الباب لأقول لك من سعد؟ ولماذا أنت ترتجف خوفا؟ أتظننا لصوصا وقطاع سبل .

فانتفض سمر وقال: ويلك أأنا أخاف ؟!.. وفتح الباب فرأى شبحين في ظلام الليل فقال : ما الخطب ؟

فقال أحدهم : ألا تعرف سعدا خادم الملكة ربى ؟ .. ألست أنت العبد سمر خادم وسياف الملك صخر أبي رشوان؟

لم يعقب بشيء فهو ما زال قلقا منهم فقال : ماذا تريدان ؟

ـ صديقك سعد هل عرفته ؟

ـ عرفته .

ـ ما دام قد عرفته فأعلم أنه أصيب باعتداء وهو في الطريق إليك وهو راغب بلقائك الآن .

ـ مصاب ويرغب بلقائي ، كيف أصيب ؟!

ـ تعرض له خلق فأصابوا منه وهو نزيل إحدى أماكن العلاج ..والتقينا به هناك فترجانا أن نبحث عن بيتك بعد أن تعب وهو يصفه لنا ..وبالإمارة ذكر لنا سوق النحاس ، مكان تلتقيان فيه .

ـ حسنا .. إني سائر معكم .

وأغلق الباب ، ومشى معهم ، وبينما هم في الطريق أحاط بهم عدد من الفرسان والعسس ، ثم ساقوهم إلى سجن المدينة ، وحاول سمر رشوة حراس السجن للسماح له بالخروج لحضور حفل التتويج الملكي ، ولم يوفق في ذلك ، وظل الرجلان اللذين أسرا معه معه في السجن ، وهما من رجال الأمير أسعد.

****

بدأت الوفود المشاركة في الحفل تتوافد منذ الفجر إلى الميدان وساحة الاحتفال ، ويؤشر لهم القائمون على ترتيب الاحتفال بالجلوس في الأماكن المخصصة لهم .

وقد وفدت أم الملك خالد لحضور الاحتفال بتتويج ابنها البكر ملكا على بلاد الماعز السمرة ، ومعها أشقاء الملك خالد وبعض أقاربها ، وامتلأت الساحة بالضيوف وأهالي البلد ، وأحاط الحرس والجند بمكان الاحتفال بشكل جيد ، وكان أغلبهم من جيش بلاد القنفذ ..وتكلم الخطباء بما يليق بالملك الجديد، وقدم بعض الشعراء قصائد المدح في الملك البحر والملك خالد وتمنوا دوام العز والصداقة بينهم ..ورحبوا بالحلف القائم بين المدينتين .

وكان الملك البحر يجلس في وسط القوم ، ويهنئ الناس الملك خالدا ثم يحيون الملك البحر ، وكان بعضهم أو جلهم يرى أن الملك الحقيقي للبلاد هو الملك البحر ..ولما انتهى الخطباء والشعراء قدمت الهدايا للملك الجديد .

ودعوا الناس للموائد التي أعدت للجميع من سادة وساقة ، ثم قام بعض الفرسان بالتبارز واللعب أمام الملك وضيوفه ، ثم أخذت الجموع تنسحب رويدا رويدا ، وأخذ الأكابر والأمراء

يتفرقون ، ولما لم يبق إلا القليل من الضيوف ـ وقد كان أحد الشعراء يهتف بقصيدته مادحا للملك البحر في تحقيقه الأمن والحياة لبلاد الماعز ـ حصلت في إحدى النواحي ضجة لفتت أنظار الملكين والوزراء .. ثم تبين أن رجلين كانا قد اندسا بين الحرس بزيهم المميز كانوا يحاولون الوصول لمنصة الملكين .. ولكن أحد الحراس انتبه لهم وأدرك أنهم ليسوا من الحرس الملكي ومنع أحدهم من تصويب سهمه جهة الملوك فأصاب السهم المنحرف أحد الجنود .. وكان السهم الغادر مسموما ، فصرع الجندي بعد وقت يسير .. وقبض على الجاني وشريكه .

ولما انتهى الحفل غادر الملك خالد الساحة لقصره ، وفعل مثله الملك البحر وحاشيته ..واطلع على تفاصيل حادثة محاولة الاغتيال من الأمير أسعد قائد الحماية والخفية ، فكلفه بسماع أقوالهم بالتفصيل ، ولم قدمت له أمر بقتل الرجلين اللذين قتلا الجندي ، وأمر باستمرار حبس سعد وسمر في بلاد الماعز ..وأخبر أعوانه بالاستعداد للرحيل والعودة إلى بلاد القنفذ ، وترك حامية من خمسمائة جندي لحماية الملك خالد حتى ينتهي العهد الذي تعهد به سادة بلاد الماعز للملك البحر .. وكذلك يتكّون الجيش الجديد .

وبعد أيام ثلاثة خرجت الجنود والملك البحر من بلاد الماعز ، وكان الملك قد أوصى صديقه بالعدل والابتعاد عن الظلم ، وحثه بالشدة على المعتدين وتقوية الجند وحسن انتقاء أفراده .. ولما وصلت الجنود بلاد القنفذ خرجت الناس لاستقبال مليكها المظفر وفرسانها وأبطالها ، وقد جاءوا بالأموال الكثيرة والسبايا والرقيق .. وأطعم الناس والفقراء ، ووزعت الهدايا على القادة والأمراء ، وزوجت الأرامل من الفرسان والأبطال كعادة أهل البلد منذ عهد الأمير هزيم الرعد .

وبعد حين يسير جاءت الرسائل السرية مخبرة للملك أن بعض رجال الملك خالد يتذمرون من الجزية المفروضة عليهم حسب العهد القائم بينهم ، ويحرضونه على عدم دفع المال المعقود بينهم وأن على صديقه البحر التخلي عن هذه الطلب ما دام يدعي أنه صديق عزيز لك .

فطلب الملك البحر من رجاله وقومه الصبر حتى يأتي موعد القبض المتفق عليه بين أهل المدينتين

وأعلمهم أن هذه مدينة يعشق أهلها الفتن ، ويكثر فيها المستشارون للحاكم ، وأعلمهم أنه لو حصل أي خلل في تحقيق الشروط التي قاتل عليها سيضم بلاد الماعز لبلاد القنفذ ، ويضع عليها ملكا من بلاده ، وأمرهم بالصبر والتحمل حتى يحدث الله أمرا .

ثم جاءه خبر مفاده أن بعض حاشية الملك خالد تحثه على وضع حرس من بلاده ويبعد رجال الملك البحر عنه ، فأرسل الملك البحر رسالة تقرأ أمام حاشية الملك يحذرهم من الغدر برجاله والعصيان، وأنه إذا اضطر للمجيء إليهم سيحكم البلاد بنفسه وبجيشه وأنصاره ، وسيضمها لبلاد القنفذ رغم أنوفهم .



أبناء ريح البحر

يعرف القارئ الكريم أن الملك البحر قد تزوج أول مرة بعد دخوله بلاد هزيم الرعد امرأة اسمها سلمى وقد ولدت أكثر أبنائه .. بلبل ، وحسن ، وزيد ، وعامر ، وسيف ، وعندما تزوج ابنة الأميرة هزيم الرعد بعد ترملها على بعض الأولاد ولدت للبحر ولدا واحدا سماه ليثا وبنتا اسمها شهر ، والملكة ربى أم الملك صخر كانت كبيرة في السن ، وربما تقارب في العمر الملك البحر ، وقد تزوجها لإخضاع ابنها صخر ، ودفعه لعدم التدخل في شأن بلاد الماعز ، ولكن الملك صخرا اعتبر هذا زواج الغالب رغم معرفته أن أمه تزوجت برضاها ودون ضغط للحفاظ على حياته هو ، وعلى ملكه وحقن دمه ، وهذا ما حصل طبعا .

ولما انتهى الاحتفال بالنصر في البلاد ، وعم الفرح بلاد القنفذ ، أخبرته الأميرة سلمى زوجه الأولى التي زارته في بلاد الماعز بعد عودته من بلاد الغراب ، وكان عدد من أبنائها الكبار قد شاركوا في هذه الحملة الكبيرة ، وسافرت لتشارك في الحفل الكبير الذي أحب الملك البحر تقديمه لصديقه القديم ، وعرفانا لأمه صيد التي أحبها صغيرا كأم له .. فقد التقت هذه الأميرة بنساء الملوك والوزراء الذين دعوا لهذا الحفل الكبير.. وسبق أن ذكرنا أن أم خالد صيدا حضرت هذا الاحتفال الخاص بتشهير ولدها البكر ملكا على بلاد الماعز ..وكان من ضمن نساء بلاد القمحة بعض شقيقات صيد أي خالات الملك خالد .. وهؤلاء من عادتهم إذا دعوا إلى مثل هذه المواسم أن ترافقهم بناتهم الشابات .. فرأت الأميرة سلمى فتاة أعجبتها جمالا وأدبا اسمها زهرة .. وهي ابنة ثلاثة عشر عاما .. ومالت إليها ورغبت بتزويجها لأحد أبنائها المحاربين في جيش أبيهم .

أخبرت الأميرة زوجها بهذه الحسناء زهرة ، وأنها تصلح زوجة لولدها حسن أو زيد ، فهما لم يتزوجا بعد ورغم تجاوز سنهما العشرين سنة .. وأعلمته أنها حدثت حسنا بهذه الغاية .. فلم يرد عليها فصلا إلا بعد سماع قول أبيه الملك .

ففكر الملك بهذا الزواج وهذه العروس قريبة الملك خالد والملك عدنان.. فهو يعرف أخوات

الملكة صيد أيام صداقته لخالد في تلك المدينة .. ورأهنّ أكثر من مرة أثناء وجوده مع خالد في قصر أمه ..فكن يترددن عليها للزيارة والسمر ، ولكنه لا يعرف زهرة هذه ؛ لأنه كما يعلم القارئ الكريم غادر تلك البلاد منذ زمن بعيد ، وكذلك لم تكن الفتاة قد خلقت بعد .

فقال لزوجته : إني أعرف هذه الأم ..فقد قضيت مطلع عمري في تلك البلاد .. بل أعرف بعض أبنائها الذين تدربوا معنا في حصن التدريب ..وأن زوجها هو ابن عم لها على ما أذكر ، وهو الأمير حسان ، وهو رجل شجاع ، وقد التقيت به كثيرا في حصن التدريب وفي المهرجانات وزوجه الأميرة امرأة فاضلة أذكرها الآن بشكل جيد .. هل فاتحتيها بالأمر ؟

ـ سألتها فقط هل ابنتها متزوجة؟ .. " فقالت تنتظر الفارس الجميل بعد" .. "وقالت والدها لا يرغب بتزويجها ، فهي ولدت في سن متأخر عن أخوتها .. فكل أبنائه متزوجون .. وهي ترفض الزواج كما يرفضه والدها ..وهي متعلقة بالفروسية والصيد مع والدها .. فلا يخرج أبوها للصيد إلا وتصحبه الأميرة زهرة ".

ـ يعني أنهم لا يرحبون بزواجها ؟!

ـ ربما لم يتقدم إليهم الفارس الجميل كما قالت أمها ..يريدون الكفء لهم .. أو إنهم يرونها صغيرة على الزواج وأمامها بضع سنوات أخرى للهو والصيد .. فقد رأيت ألا أكلمها عن الزواج حتى أشاورك في الأمر وريثما نعود لبلادنا هذه .

ـ أحسنت الفعلة!.. أنا نشأت في تلك الديار أيتها الأميرة كما تعلمين.. ابن رجل فقير أشفق عليه والد الملك عدنان وصيد.. ولأنه قتل في خدمة الملك عنان ألحقوا ولده في حصن التدريب مع أبناء الأمراء والأشراف .. وذلك كان لما ترملت أمي وكنت يومذاك وحيدها.. وقدر لي مصاحبة الأمير خالد وأشقائه .. فتقربت من الأسرة المالكة أنا وصديقي هلال .. ثم تزوجت أمي فابتعدت عنها كثيرا .. ولما استقررت هنا علمت بموتها من أحد الأصدقاء القدامى .. ولما صرت سيد هذه المدينة أرسلت رسولا لأخوتي من أمي ـ وهم سبعة بين ذكر وأنثى ـ ودعوتهم للحياة في بلادنا فاعتذروا جميعهم .. وهم مرتاحون في تلك البلاد، ويخصهم الملك بعنايته بعدما

ظهر أمري للعلن ، وهم في وئام وسعادة في بلادهم وذلك بفضل من الله وحده .. والحق كان زوج أمي طيبا وسخيا .. عرض عليّ الحياة بين أولاده من زوجته الأولى.. ولكن لما وجدت راحتي نوما وأكلا في حصن التدريب اعتذرت له وشكرته .. وكنت أتردد عليهم كلما أتيح لي ذلك .. فأجد منه حسن الاستقبال والإكرام ..بل قدم مع وفد بلاد القمحة ليسلم عليّ ، ويشارك في حفل الملك خالد .. ودعوته لزيارتي في هذه البلاد والحياة هنا.. فوافق على الزيارة فقط ..هو ابن تلك البلاد من عدد لا يحصى من الأجداد كما يقول ، فلا يستطيع الحياة في غيرها من البلاد وأهل البلاد لما عرفوا بأن الملك البحر ابن مدينتهم ، فيكرمونهم غاية الإكرام ويراعون شأنهم.. بل سمحوا لبعض أحفاده بالتدرب في حصن التدريب ؛ ليكونوا من الفرسان في مستقبل الأيام ولابد أن بعضهم تحقق له ذلك .. أما الزواج أيتها الأميرة .. لا أدري هل يقبلوننا أم ينظرون إليّ بأني ذاك الشاب اليتيم الفقير؟!

فقالت وهي تدرك الحقيقة التي همس بها زوجها الملك البحر: فلنحاول أيها الملك العزيز .

فضحك للحظات وقال : يجب أن نحاول .. فملكنا اليوم بفضل مولانا سبحانه أكبر من ملكهم ، وفرساننا أكثر من فرسانهم ..حسن أو زيد .. أنا لا أدري لماذا يمتنعان عن الزواج لليوم ؟! فابني من الأميرة (شام) قد تزوج وصار له ذرية .. بل بلبل يرغب بالزواج ثانية ولكنه لا يريد أرملة ..كسائر فرساننا ..

ـ حسن ترك الأمر لك ..فأي عروس نختارها سيقبل بها .

ـ سأفكر في الخطب جديا ، ثم أجد وسيلة للاتصال بهؤلاء الناس .. فالأمير زياد والأمير يزيد ما زال ودهما لي كبيرا هم أشقاء الملك خالد ..فهم من أصدقاء الحصن ..ولما التقينا في بلاد الماعز عانقاني بفرح غامر ، وسعدا بما وهب الله لنا من الملك والتاج ..وتمنيا لي كل خير وسعادة ودعواني لزيارة مدينتهم إذا تيسر لي ذلك .. وهذا زياد له قصة غصة في بلاد الماعز

ـ كأنك تحدثت أمامي عن بعضها ؟

ـ ظلم الرجل من قومه وحمولته ، أجل فهو لا يحب بلاد الماعز ، وعاش في كنف أخواله ،

وظل وفيا لهم ، وتزوج منهم ..فأبوه رضوان الملك المخلوع من قبل أخيه رياض ..وهو اختار العيش مع أمه رغم اعتراف أبيه بنسبه قبل سنوات .

ـ هل تعلم ـ أيها الملك العزيز ـ أن الملكة صيدا قد ولدت من زوجها بعد أن عادت إليه ردحا من الزمن ..

ـ ولدت له .. يا الهي !

ـ والغريب أنه طلقها ثانية وولدت في بلاد أخيها الملك !

ـ حظ هذه المرأة عجيب !.. لقد رفضت النكاح أثناء طلاقها من زوجها من أجل أولادها .. وكرهت الرجال للتهمة الشنيعة التي ألصقت بها من قبل أهل زوجها

ـ لها بنت طفلة اسمها أسماء .. رأيتها معها أثناء وجودنا في بلاد الماعز ..

ـ امرأة صابرة على قدرها .. كانت رغم أنها ابنة ملك تحترمني أنا وصاحبي هلال وتسمح لنا بمشاركة خالد طعامه ..ولم تعترض على صحبتنا لابنها وأخويه الآخرين .. كنا نحبها ونشعر بأنها أم لنا جميعا .



كانت المصاهرات في القديم من وسائل تقوية الأواصر والعلاقات بين الملوك والقبائل والبلدان وتنتج تحالفات تدعم الملوك في دفاعهم عن بلادهم أو هجومهم على غيرهم .

ويدرك الملك البحر فوائد مصاهرة الملوك جيدا ، وقد رأى ما فعل الملك الحصان في بلاد الماعز على أثر اغتيال كريمته بتهاون الملك رياض ، وذلك مما شجعه للقتال وتنصيب أبناء ابنته ملوكا وسادة على تلك البلدة .

فتشاور مع وزيره العتيد الأمير هلال صديق العمر، وقد أعطى ابنته من الأميرة شام زوجة لأحد أبنائه ، فقال له الوزير: إن ذلك شأن مقبول وطيب وتحبه الملوك وشجعه الوزير هلال

على هذه المصاهرة ، مما دفعه ليسير وفدا كبيرا لبلاد القمحة لتحقيق تلك الغاية النبيلة ؛ وهي شرف مصاهرة الملك عدنان .

وبينما هو يوافق على مسير الوفد كانت قصة الملكة صيد تتخايل له ، وقصة زواجها في بلاد الماعز ثم قال لنفسه : أنا لست الملك شاتخا لأسكت على ظلم ..

استقبل الملك الشيخ عدنان وفد الملك البحر ، وهو له معرفة سابقة بالوزير هلال أيام كان رفيقا لابن أخته وسفرهم برسالة خالد لأبيه .

وأنزلهم قصر الضيافة ، وقدمت لهم الأطعمة والأشربة والعلوفات ، ولما اطلع الملك على الغاية النبيلة من زيارة هذا الوفد فأصابه وجوم أزعج الوزير وقال : عجيب مجيئكم لطلب يد ابنة أختي وابن عمي حسان !

فلما استفسر الوزير عن سبب هذا العجب ، قال الملك : منذ أيام قلائل كان بضيافتنا وزير مدينة سعادة مملكة على ساحل البحر يخطبون لأمير من مدينتهم قد رأى الأميرة زهرة يوما ما والتفت الملك إلى وزيره همام بن علي قائلا : ما اسم الأمير؟

ـ سن اللؤلؤ ..وهو ابن أخ الملك سالم ملك مدينة سعادة .

فقال الوزير هلال : هل أنكحتموه ؟

قال الملك : لم نحسم الأمر أيها الوزير الشجاع .. لأن الفتاة نفسها لم تبد رضا مع معرفتها ومقابلتها لذلك الفارس وتذكرها إياه .. لقد التقيا في رحلة صيد قريبة من تلك البلاد .

فقال هلال : أنتم بالتأكيد لا تعرفون الأمير حسن ابن الملك البحر ..هو فارس المعارك شديد البأس .. وشارك بقوة في إقرار ملك ابن أختك الملك خالد وفي دخول بلاد الملك صخر .. وربما يكون هو الملك بعد وفاة ملكنا البحر أطال الله في عمره .. رغم أنه ليس البكر لمولانا الملك .. ولكنه أشد مراسا وذكاء من أخيه كما معروف لدينا .

فقال أحد الجلساء : لقد تعرفت عليه يا مولاي الملك ونحن في ضيافة ابن أختك الملك خالد وهو بطل وكريم كما تكلم الوزير هلال .. وهو أيضا فصيح الكلام والخطاب .

فتبسم الملك وأدرك أن هوى القوم مع الملك البحر فقال : سأكلم ابن عمي حسان وأختي الأميرة وردة ..فنحن لا نفكر بإغضاب أحد الملكين ..فكلكم أصدقاؤنا .. وتجارتنا قوية أيها الوزير مع بلاد سعادة .. والفتاة هي صاحبة الشأن والقول الفصل أيها السادة والأمراء .

ورجع الوزير هلال لقصر الضيافة وقد انشغل باله بفشل سفارته ، ثم قال للوفد : أيها القوم الأمر لله فلا تحزنوا ولا تغتموا .

ولما أخبرت زهرة بخبر وفد بلاد القنفذ ، تذكرت هي وأمها لقاءهم بأم بلبل الأميرة سلمى زوج الملك البحر ..وعادت الذكريات بالأميرة وردة إلى عهد بعيد حيث كان الفتى الصغير غاضب يتردد على قصر أختها صيد هو وخالد وهلال وهمست لنفسها وهي تستعيد صورة ذاك الشاب الصغير : سبحان الله .. يعز من يشاء ويذل من يشاء .. خالد ملك في بلاد الماعز وغاضب ملك في بلاد القنفذ .. وهلال وزيره ..إن هذا لأمر عجب !

فقال الفتاة : أين سرحت يا أماه ؟!

ولما كررت الفتاة الاستفهام أكثر من مرة قالت الأم وردة : نعم ، لقد عدت لأيام زمان .. عندما كان ابن أختي خالد فتى صغيرا يلعب بالقصر مع غاضب وهلال

- من غاضب يا أمي ؟

- غاضب هو الملك البحر .. وهلال هو الرجل القادم لخطبتك لابن صديق عمره .. قد كثر خطابك يا بنتي الصغيرة .. وهم من أبناء الملوك .

- إني أكره الزواج ..لا أريد هذا ولا ذاك .

- وهل الرفض يا فتاتي يكف ويمنع الخطاب ؟.. ألم تخلق النساء للرجال؟! ..هذه سنة الحياة الزواج كائن اليوم أو غد ..إلا إذا مات الإنسان أو أصبح غير صالح للزواج .

- ألا تستغني المرأة عن الرجل يا أماه ؟

- إلى متى ؟! فالرجل يحتاج للمرأة كما تحتاج إليه ..الأولاد من أين سيأتون يا زهرتي الجميلة ؟ ألا تحبين أن تسمعي قول صغير وحتى كبير .. أمي .. أمي ؟

ـ وأنت يا أمي من تختارين لي ؟

ـ أبوك ترك لك الخيار يا زهرة .. وأنت قدر لك أن تلتقي بسن اللؤلؤ بن غاشم شقيق الملك سالم ...

ـ نعم ، رأيته وهو فارس شاب قوي البنيان ورام ماهر يحسن الإصابة وقادر على مطاردة الصيد على ساقيه .. وعرفت من نظرته الطويلة إليّ أنه معجب بي أي إعجاب! .. ولكني لزمت الصمت طول ذلك اللقاء الخاطف في مكان الصيد .. وطوال حديثهم مع أبي .

ـ لقد استحسنك الشاب ؛ لذلك ما كدتم تعودون من الصيد حتى أرسل رجالا من قومه خاطبا لك ..ونحن قبل أن نحزم أمرنا في الرد جاءنا الوزير هلال خاطبا لابن الملك البحر .

ـ أعود سائلا من اختار يا أماه ؟ أم نرفض الاثنين وأتزوج من أبناء العمومة ؟

ـ استشيري أباك .. ما دمت موافقة على الزواج .

ابتسمت وهي تقول خجلا : أنا لم أوافق بعد يا أماه .

ضحكت الأم لحياء ابنتها وقالت : لكنك تسألين عمن تختارين ..فهذا علامة القبول بفكرة الزواج .

احتضنت الفتاة أمها وهي تقول : أنا أتسأل يا أمي الحبيبة ؟..وإذا أردتم حريتي لا هذا ولا ذاك دعوني حرة بغير زوج .. آه كم أسعد بمطاردة الغزلان والظباء في الوديان والغابات عندي مطاردة غزال أجمل من معانقة بعل .

قبلتها من جبينها وقالت وهي تبعدها عن صدرها : وهل يمنعك الزواج من الصيد ومطاردة الظباء .. زوج يحبك .. يذهب بك للصيد .. فكل الفرسان في أوقات السلم يحبون الصيد .

ـ والحمل والولادة والرضاعة .. والتربية .

ـ هذا ليس كل الحيوات ..فالرضاعة قد تقوم بها الأخريات ..وكل الذي ذكرته هو حياة المرأة مذ خلقها الله سبحانه .. الأمومة أنبل أهداف المرأة يا فتاتي الحسناء

الخيبة

عاد الوزير هلال إلى صديقه الملك البحر بدون جواب حاسم ، ولكنه وجده مهموما مشغول الفكر ، فلما سرد عليه نتيجة سفارته سأله عن سبب همه فقال : يا وزيري بلاد الماعز مرة أخرى

ـ هل حدث خطب أيها الملك ؟!

ـ قتل أربعة فرسان من فرساننا غدرا .. وأرسل الملك خالد كتاب اعتذار وأسف ، وهم حائرون فيمن تعرض إليهم واغتالهم ..فهل قتلوا من أهل المدينة أم من رجال صخر أبي شروان؟! .. وكذلك أخبرني الأمير أسعد بأنهم لم يحددوا الجهة الفاعلة للجريمة .. فهذا ما يشغلني ويملأ قلبي هما وحزنا .. يبدؤون بصيد رجالنا فردا فردا .. ما الحيلة المناسبة أيها الوزير الهمام ؟ لقد فكرت بسحب رجالنا والتخلي عن بلاد الماعز.. ولكن كل الجهد الذي بذلناه سيذهب هدرا والأموال التي طلبناها سيمتنعون عن إرسالها بسحب جيشنا ..أم نغزو بلاد الملك أبي رشوان وندمرها من جديد .

فكر الوزير قليلا ثم قال : الانسحاب كما قلت سنخسر كل جهد بذلناه لدعم الملك خالد وسنترك البلاد فريسة سهلة لصخر وأعوانه من أهل الماعز .. واستقرار الملك يحتاج لزمن حتى تتعود عليه الناس .. ويضعف أعداؤه ويقوى جيشه .. يمكننا زيادة الجند للألف مقاتل ونضع مدخلا محروسا بجندنا من جهة بلاد الغراب .. يخضع لفرساننا .. فإن عاد السكون فنعما هي وإلا نقوم بحملة جديدة للقضاء على الملك صخر .

ـ إقامة بوابة للدخول لن يمنع التسلل لبلاد الماعز ..

ـ يخفف منه .. ويحصر الدخول بالعامة والتجار ..

ـ أنا تشجعت للزواج من أم صخر لتهدئة الوضع ولاستقرار بلاد الماعز وإضعاف الرغبة لديه بالحرب ..وليعود صاغرا مسالما ولكنه حقود شرير ..قلت لي إن الملك سالم خطب الفتاة لابن أخيه سن اللؤلؤ .. وليس لابنه .. والفتاة لا ترغب بالزواج من كليهما .. هل اختارت التبتل ؟!

ـ لم تختر التبتل .. تزعم أنها غير راغبة بالزواج هذا الحين حتى تكبر بضع سنين أخرى .. لقد سمحوا لي بالحديث معها أمام خالها الملك .. فهي فتاة جميلة المحيا .. وقوية البدن لأنها تركب الخيل ، وتمشي للصيد ، وتتحدث كالرجال ..وزعمت أمامي أنها لم تتهيأ لأن تكون امرأة .

ـ ولماذا خلقت إذن ؟

ـ وأبوها لأنها ولدت على كبر دللها كثيرا كما بدأ لي .. فهذا سبب رفضها .

ـ هل أصدق يا وزيرنا أنها كارهة للرجال ؟ .. إنها تفكر بعقل طفل ..لها هوى والله أعلم بذاك الشاب .. فهي منذ رأته تعلق قلبها به وستسمع بزواجهما غدا .. وهم لا يريدون إغضابنا لما بيننا من روابط بعد تنصيب خالد ملكا .. وبارك الله في جهودك ..والأمر كله لله ..

تمتم الوزير بكلمات شكر ، وأدرك هو ما أدركه الملك البحر من هوى الأميرة زهرة ، ثم لاذ بالصمت فقال الملك : رأيك أن نزيد المزيد من الفرسان ونرسل معهم عائلاتهم هذه المرة ليطول بقائهم هناك حتى إذا عجزنا عن تحقيق الهدوء والأمن في تلك البلاد يكون حكمنا لها جاهزا دون عناء .. فأنا لا أقبل بموت أبطالنا سدى وكالعصافير ..اطلب من قائد الجيش أن يرسل نصف الألف بأسرهم .. واكتب لخالد بذلك .. وأن يرسل الأموال المتفق عليها لهذا العام لنرى ما يكون من رد القوم .

خرج الوزير لتنفيذ الأمر ورغبات الملك البحر ، وانصرف الملك نفسه للحديث بشأن سفارة الوزير الفاشلة .

ولما سمع جنود الملك خالد بأن جيشا من بلاد القنفذ قادما للاستقرار في بلادهم عادوا للهدوء والانكماش والخضوع .. بل شجعوا الملك ليرسل المال المتفق عليه للملك البحر .

أرسلت بلاد الماعز الدفعة الأولى من الأموال لبلاد القنفذ حسب اتفاق رؤساء العشائر مع الملك البحر .. ومع الوفد رسالة من الملك يخبره فيها بأنه سمع بوفادة وزيره هلال لطلب يد ابنة خالته وردة ..وأنه مسافر إليهم ليرى أمه صيدا وخالته وردة ليشفع عندها لابنه ، ويرجوه ليخفف عنهم الضريبة التي فرضت عليهم أو يعفو عنها .. لأنها تثير الشبهات حوله عند العامة ..

ويتهمونه بأنه مندوب عنه في بلاد الماعز وأنه لعبة في يد الملك البحر ..

قرأ الوزير الرسالة بعدما اطلع عليها الملك فقال الوزير : هذا المال يا مولاي يجهلون أنه ليس حقي ولا حقك .. هو حق للبلاد كلها .. فالجنود هم الذين ضحوا من أجل تحريرهم أليس كذلك يا مولاي ؟

أخذ الملك بالضحك وقال : وهو كذلك يا سيدي الوزير !.. هم يظنون أن أموالالمملكة لنا خاصة كما ينظرون للمال في مملكتهم ..

ـ اليوم المال وغدا سحب الجند .. والعودة للقتال بين القبائل الثلاث .. لدي فكرة رهيبة يا مولاي إذا عادت القلاقل في بلاد الماعز ..

ـ ما هي أيها الهمام ؟

تبسم الوزير لحماس الملك لسماعها وقال : تشتيت قبيلة الملك خالد .. ونفيها بين المدن المختلفة

ـ ولكنهم أكثر الناس هناك.

****

اضطر الملك البحر أن يكتب للملك خالد معتذرا عن مطلبه برفع المال المضروب على بلاد الماعز، وأبان له أن هذا المال يذهب لخزانة المملكة والجند ، وهناك وزير مال ينفقه على مصالح البلاد كسائر الأموال التي تنفق في البلاد ..وأنه لا يملك إلا ما خصص له كمحارب وملك على البلاد ، ثم شكره على عرضه للتوسط لزواج ولده من ابنة خالته ، وطلب عدم شفاعته في هذه القضية .

فلزم الملك خالد الصمت ، وإن ظل الأمل يراوده بالخلاص من شروط الملك البحر التي قبلها أيام ملك الملك فراس ..الذي تنازل يومذاك عن نصف المملكة للملك صخر .. وقال مواسيا نفسه: ستذهب السنوات العشر .. وتتحرر البلاد من هذا العبء المالي ..أهل هذه المدينة كانوا يدفعون نصف أموالهم للملك صخر أيام عمي رياض وابنه فراس ، واليوم يعيرونني بأنني ذليل وأجير عند صديقي البحر .. قاتلكم الله من جبناء ..

وخطر وفكر الملك بأن يتزوج من ابنة خالته زهرة ليغيظ الملك البحر ووزيره هلال .. ولكنه بعد تفكير ونظر هاب تلك الخطوة ..وجبن وقال : غاضب فارس شجاع منذ صغره وكذلك هلال الوزير .. وعليّ ألا أنسى علاقة خالي الملك ببلاد سعادة ..فأنشط تجارة قائمة بين تلك المدينتين ..فيضيقون عليهم موارد رزقهم ..فكظم سره وأمانيه في قلبه .

ولكنه كشف همسات قلبه لإحدى زوجاته ، وهو زائر في بلاد القمحة ..وأنه يفكر بأن ينكح ابنة خالته ..وهذا الهمس وصل للملك البحر بعد حين .. لأن الكلام إذا خرج من الفؤاد مشى وسعى في الأرض .. ولكن الملك لم يعلق على هذا الكلام .. لأنه علم أنه لم يحدث زواج بل تيقن له نفور الأميرة من الاقتران بأحد أو لأن الملك خالدا رجل كبير عنها في السن وجاءه تصور أنهم لا يريدون مصاهرة بلاد الماعز .. لمأساة الملكة صيد أم خالد ؛ ولكنه استدرك فقال : ولكنه قريبها أبناء الخالة .

وبينما هذه الخيالات تراود خيال صاحب هذه القصة، جاءه الركبان بخبر نكاح الأميرة زهرة من الأمير سن اللؤلؤ، فكظم غيظه بعد أن صدق حدسه بهواها لذلك الشاب .

وعلم أن الملك عدنان أجبر ابن عمه على تزويج ابنته للشائعات التي أخذت تتردد حول الأميرة من هواها للأمير سن اللؤلؤ والالتقاء به في غابات الصيد ، وسمع تعليلا لهذا التصرف من الملك أنه وافق على هذا الزواج حتى لا يزعل الملك البحر ولا الملك خالد ، وقال البحر لوزيره : أرأيت أيها الهمام ما لمحت لك به عقب سفارتك خاطبا؟.. أيوجد امرأة شابة تكره الزواج ؟ لابد من فيها هذه الصفة أنها مجنونة .

وتزوج الأمير حسن من بنات صديقه هلال ، وكان فرحا تحدثت به البلاد والعباد ، ولم يدع إليه الملك خالد ، ولا أحد من بلاد القمحة ، ورغم هذه الجفوة التي كانت واضحة للعيان أرسل الملك خالد جوادا قويا هدية للأمير حسن .

والحقيقة التي تسجل هنا أن الأميرة زهرة لم تكن على قصة عشق وهوى للأمير سن اللؤلؤ ، وكلما كرر الطلب كررت الرفض ؛ ولكن الأمير المذكور أخذ كلما علم بخروجها للصيد

يتظاهر بأن جاء صدفة لمكان الصيد ، والتقى بها صدفة وليس عن قصد .. ولما تكرر هذا الأمر أخذت الشائعات مجراها ..فألزم الملك والدها بهذا الزواج منعا لكثرة الأقاويل ، فوافقت على مضض وكره ، وما كادت تغيب بضعة أشهر في بلاد سعادة حتى عادت تحمل ولدا على يديها فقد مات زوجها في رحلة صيد بعيدة عن البلاد ..فقد عرضت له عصابة لصوص فقتلوه وكل من معه من الرجال والصيادين والخدم .. وخيرها الملك سالم بعد انتهاء الحداد بالبقاء أم العودة لأهلها .. فاختارت بلاد القمحة ..وشعر الملك عدنان بالندم لإجبارها على الزواج .. وانشغل بالبحث لها عن قرين تقر به عينها ..ولما نقل الخبر للملك البحر تعجب من تصاريف القدر .. وأشفق على الفتاة ولكنه قال لرسول الملك عدنان السري : سبق السيف العذل .. لقد تزوج الأمير حسن ابنة وزيرنا الهمام هلال .

بعد هدوء يسير أخبر الملك البحر بزحف الملك صخر نحو بلاد الماعز ، وقد تحالف مع عدد من الملوك على قسمة ثروة بلاد الماعز ونهب خيرتها وضمها لملكه ، وذلك بطلب من بعض أهالي بلاد الماعز الموتورين والناقمين على الملك البحر والملك خالد .

فطلب الملك من زوجه أم صخر بالكتابة لابنها تحضه على السلام والرضا بما يملك والبعد عن العدوان والظلم ، وأن الملك البحر راغب في الصلح والسلام ، وترجوه على عدم التدخل في بلاد الماعز ، وأن يلزم حدود ملكه ، فكان رده على توسلات أمه ورسالتها أن سفك دم الرسول على غير عادة الملوك حتى الطغاة بعدم التعرض للرسل والبريد .

فلما وصل خبر مقتل رسول الملكة للملك البحر ، غضب أشد الغضب لهذه الإهانة التي لحقت بمملكته .. وأقسم أمام جيش المدينة وأهاليها بالثأر لمقتل الرجل المسكين .. وجهز جيشا قوامه خمسة آلاف محارب .. وزحف بهم اتجاه بلاد الغراب من طريق لا يمر على بلاد الماعز .. وبعد عشرة أيام وصلوا أطراف مدينة الغراب الذي منذ سمع بزحف الملك البحر حتى ترك بعض جيشه يناوش جيش بلاد الماعز ، وعاد بأغلب الجيش لملاقاة الملك البحر .. ولكنه قبل أن يصل بلاده علم أنها استسلمت للملك ورحبت به ، وأعلنوا خلعه ، ونصب عليها ملكا نائبا عنه

الفارس جلال ابن الرسول الذي قتله صخر.. والتقى الجيشان خارج المدينة ، وكانت جيوشه منهكة من المسير فلم تصمد زمنا يذكر أمام جيوش البحر .. فمنها من هرب ، وتشتت شرقا وغربا ، ومنها من رفع الراية البيضاء معلنا الاستسلام .. والملك صخر هرب كغيره من الفرسان ..وعاد الملك البحر للمدينة معلنا ضمها لبلاد القنفذ وأنها جزء من مملكته ..ولما كملت السيطرة عليها سيطرة كاملة خاطب الملوك الذين عاونوا صخرا على غزو بلاد الماعز أن يقدموا للاعتذار والصلح ، وطلب العفو ودفع الأموال المترتبة على عدوانهم .

فمن قدم ورضخ أقره الملك على ملكه ، ومن رفض أرسل إليه القادة من أبطاله الشجعان ، وخلال سنة واحدة تهاوت مدن وأصبح ملوكها وأمراؤها ضحايا الحروب أو أسرى في سجن الملك البحر .. وأقبلت الأموال الكثيرة لبلاد الغراب حيث استقر الملك البحر يدير الحروب ونصب على الممالك المقهورة أمراء من جنده .. وتابع جيش صغير مطاردة الملك صخر وأفراد أسرته حتى تمت محاصرته في بلدة صغيرة .. وحاول أن يخوض معركته الأخيرة بمن بقي معه من جند ؛ ولكنه سقط أسيرا هو ووزيره وبعض قادة جيشه المقربين ..وسوقوا إلى مدينة الغراب حيث وزعت بناتهم وزوجاتهم اللواتي رافقنهم في رحلة الهرب سبايا على الجند .. ثم قتلوا وصلبوا أمام أهل المدينة ثلاثة أيام ثم وريت أجسادهم الثرى .. وأعلن الأمير بلبل ملكا على المدينة وتوابعها.. وكان الفارس جلال ابن الرسول المقتول الذين كان نائبا للبحر قبل المعارك الدامية قد عين أميرا على مدينة قريبة ..ولما ثبت الملك الملك بلبلا ملكا عليها ، وترك من جنده ألفين محارب .. أخذ يستعد للعودة لبلاده بعد ثلاث سنوات من الحرب والقتال .

ولما عاد لبلاد القنفذ استقبلته البلاد والأهالي كعادتهم ، وقدم إليه السادة التهاني بالنصر وباتساع المملكة ..ولكنه لم يكد يستقر بضعة أشهر حتى جاءه نعي ولده بلبل مصروعا بيد الغدر من أبناء الملك صخر الذين نجوا من الهلاك والأسر.. فأراد إرسال الوزير هلالا ملكا على تلك البلاد ، فاعتذر هلال عن الملك ورغب بالبقاء بجواره ، فسر البحر من إخلاص صديقه ـ الذي لم يشك فيه يوما ـ مع أنه أحب تكريمه غاية الإكرام ، فأرسل ابنه حسنا ملكا آخر على بلاد

الغراب ، ورافقه هلال لتأديب القتلة والمتآمرين ومطاردتهم حيثما كانوا .

وكان الذي قتل الملك بلبلا أحد أبناء الملك صخر الذين تم العفو عنه ، ولم يؤخذ بجريرة أبيه، ولشفاعة الفارس الذي نكح أمه له .. واسم هذا الشاب الأمير عفرا ورتب هذا الأمير لمصرع الملك بلبل نائب الملك البحر مع العبد الشرير سمر

والعبد سعد الذين هربا من سجن بلاد الماعز ، ولحقا بسيدهما ، ولما سقط الملك صخر قتيلا صمم العبد سمر على النيل من الملك بلبل ..

ورتب الأمر مع الأمير عفرا ، ووافق على الاغتيال معهم قائلا : أنا أحق بالانتقام لموت أبي منكم وأثنى على إخلاصهما ، وقد استعانوا بجارية من اللواتي تخدم في قصر الملك بلبل وقامت هذه الجارية بإدخالهم غرفة نوم الملك .. بعد أن استطاعت إخفاءهم في القصر بضع ساعات ..وفي لحظة ظن الحرس أن أصحاب الحاجات قد غادروا القصر، ولم يبق فيه إلا أهله تسلل الثلاثة إلى حجرة النوم بمساعدة الجارية الخائنة ..وقتلوه هو وزوجه وهربوا ؛ ولكن العبد سعد الذي كان يتسلق الشجرة ليقفز على سور القصر ومنها إلى الخارج .. سقط على الأرض قبل أن يصل السور .. فأدركه الحرس وقبض عليه .. ثم تبين لهم مقتل الملك بلبل .. وأقر سعد بالمؤامرة .

وأما عفرا وسمر فقد تجاوزا السور ، ولما أدركوا أن شريكهم قبض عليه ركبوا جيادهم وغادروا المدينة بسرعة الريح .

بعد معرفة تفاصيل المكيدة أعدم العبد سعد الحياة وكذلك الجارية المتآمرة معهم، وطردت كل الجواري العاملات في الخدمة .. وأعلن الأمير حسن ملكا على المدينة بدلا من أخيه القتيل ، وعين الأمير سعيد ابن الوزير هلال وزيرا له .. وقام أمير الحماية أسعد الذي رافق الوزير لمعرفة تفاصيل حادث الاغتيال والغدر.. بتشكيل فريق الحماية والأمن المحيط بالملك الجديد ، وجعل قائدا له من أعوانه النبهاء والفرسان .

وطلب الوزير هلال من عبديه ليل وعمر بأن يتعقبا الأمير عفرا وصاحبه سمر ، ووعدهما المكافأة الحسنة إن قتلاهما أو أتيا بهما حيين ، وقبل أن ينطلقا لتنفيذ أمر الوزير طلب الأمير حلم

بن الملك البحر المشاركة في مطاردتها ، فبعد شد ورخي وافق الوزير له على هذه المغامرة وأمرهم بالعمل بسرية تامة لينالوا مبتغاهم .



مطاردة

أول مشكلة واجهت حلم شقيق بلبل القتيل أنه وصاحباه عمر وليل لا يعرفون صورة عفرا ، ولم يروا سمرا ؛ ولكنهم عرفوا أوصافه من الأمير أسعد لالتقائه به في بلاد الماعز ، عندما ذهب إليها ليغتال الملك البحر كما يعلم القراء .. ولكن الوزير هلالا استطاع الحصول على أوصاف عفرا البدنية من بعض الأمراء الذي سلموا أنفسهم للملك البحر، ورضوا بالحكم الجديد .. ونقل صفاته البدنية للأمير حلم ورفيقيه .

وتنكر الرجال الثلاثة على هيئة عوام الناس في تلك البلاد والديار، وساقوا حمارة عرجاء يتنقلون بها بين الأحياء والمدن ، وهم يعلمون من رجالهم أن الرجلان خرجا من بلاد الغراب نحو بلاد الطير ؛ لأن ملكها قريب للملك صخر المقتول ووقف على الحياد ، ونصح ابن عمه بعدم العدوان على بلاد الماعز ..وأعلن حياده للملك البحر .. فلم يتحرش به الملك البحر وأقره على ملك بلاده ..فكانوا يتنقلون بين المدن والناس بحثا عن الأمير عفرا.. وقد وقع في ظنهم بأنه ربما يلجأ لملك أو أمير .. وكانوا يتحسسون الأخبار من خلال التجار والقوافل بذكاء وفطنة فكان حلم يتظاهر أمام التجار أنه كان في بلاد الغراب عندما اغتيل ملكها الجديد .. وأنه سمع أن الذي صرعه أمير يقال له عفرا وهو ابن للملك المصلوب صخر فيحدثهم بهذا الخبر كأنه ينقل خبرا مهما بغير مبالاة وهو حقيقة مهم .. ثم يستمع ردهم على الخبر عن هرب الأمير في بقاع الأرض.. فيقول إنه في بلاد كذا .. مستدرجا للسامعين بذكر معلومة أو إشاعة ..وبمثل هذه الحيل والاستدراجات يلتقطون الأخبار من السامعين فيقول أحدهم : سمعت أنه مر في بلدة كذا .. وخرج منها إلى بلدة كذا .

ويزعم بعضهم أنه قابله ، وبعضهم رآه حتى سمعوا أن له أختا متزوجة في بلدة ما .. فمشوا إليها متلصصين .. ولكنهم لم يجدوا له أثرا في تلك البلدة .. بل سمعوا أنه ما زال مختفيا في الغراب متنكرا ليقتل الملك الجديد حسن .

ومرة وجدوا لصا جريحا وهم يمرون في إحدى الغابات المطروقة ، وقاموا بإسعافه دون

علمهم بلصوصيته ، ولما سمع منهم اسم سمر قال لهم فجأة : أتعرفونه ؟!

قال العبد ليل مستدرجا الجريح : سمعنا بشجاعته ، وأنه كان من رجال الملك صخر أبي رشوان ملك بلاد الغراب .

فقال اللص الجريح متأوها : صدقت أيها الرفيق !.. وهو صديق لزعيمنا ..أنا كما صارحتكم لصا .. وابن عصابات تعيش في هذه البلدان ..هو صديق الزعيم الذي غدر بي ، وتركني مصابا هنا لأموت .. ولولا التقاؤكم بي وإحسانكم لي لهلكت .

فعاد ليل متحايلا على اللص : إذن أنت تعرف العبد سمر؟

ـ لقد رأيته مرارا يلتقي بزعيمنا اللعين .. نحن كما لا نرحم الناس ..فعندما يحدث بيننا صراع ونزاع لا أحد يرحم الآخر ..وكل يظن أنه الناجي والباقي .. الزعيم عندما علم أن إصابتي عميقة وشفائي صعب تخلى عني ..هكذا نعيش .

وأخذ يحدثهم عن إجرامه وحياته الوحشية في خدمة الزعيم ، وهم خائفون أن يموت قبل أن يحدثهم عن سمر اللعين ..ثم صارحهم بأن الزعيم "غصب" زعيم لصوص في ناحية الصوان ثم قال أخطر ما يبغونه : قبل شهور أقبل إلينا الرجل أو العبد كم قلتم المسمى سمرا وبرفقته فارس آخر .. وسمر هذا كان في أول شبابه لص شرس ووحش في صورة بشر وعاش بيننا فترة أيام صباه .. ثم اختفى من بيننا .. ترك الجبل فكنا في أول الأمر نرى أنه قد هلك في إحدى غاراته .. ثم علمنا أنه عبد لعين عند الملك رشوان والد الملك صخر ..

ولما سكت اللص الجريح قال عمر: ما اسم رفيق العبد سمر ؟

فرد اللص قائلا : كنت أسمعهم ينادونه أبا الكلب .. لا أعرف اسمه .. وكان زعيمنا اللعين مسرورا بصداقة سمر ، وكان معجبا بصاحبه .. فلم علم بأنه قد يمكث معه بضعة أشهر أظهر سعادته به .

وعرف الرجال رويدا رويدا منه موقع جبل الصوان حيث يختفي غصب وعصابته ، وبعد حين أشرف اللص الجريح على الموت.. فقالوا له إن كان له حاجة أو رغبة أو وصية ينقلونها لأحد

فقال : لي أهل في قرية بعيدة عن هذه الغابات .. ولكنهم نسوني منذ عهد بعيد .. لا أعتقد أن أمي على قيد الحياة .

الوصول إلى عقر العصابة في جبل الصوان فيه مخاطرة عظمى ، والثلاثة لا تنقصهم الشجاعة فلهم خبرة في مطاردة العصابات واللصوص ، وهي أول خبرة يكتسبها الفارس في بلاد القنفذ كما يعلم القارئ الكريم .. وهم خرجوا لهذه المخاطرة الكبرى بكل طيب نفس ، فكانت الخطة بعد دفنهم للص الميت الذي قدم المعلومة المهمة قبل رحيله هي أن يدسوا أحدهم في عرين الأسد .. يدخل الجبل المذكور .. وعليهم أن يكونوا قريبين من الجبل ..ووقع الاختيار على ليل بدخول الجبل خشية أن يكون العبد سمر قد رأى حلما وعمرا أثناء وجوده في مدينة الماعز لاغتيال الملك البحر؛ لأنهما مكثا وقضيا زمنا في بلاد الماعز أثناء حربهم الأولى مع الملك صخر ولما اقتربوا من ناحية الصوان بجبالها وتلالها ووديانها ، ولم يبق إلا نصف نهار للوصول لقلبها اتخذ القوم كهفا في سفح جبل ليكون مقر الاختباء والالتقاء وقال الأمير مخاطبا لليل : سنمكث في هذا الجبل وبجوار هذه الغابة وغدير الماء .. وسنترك لك الحرية بضعة أيام داخل عرين العصابة .. وبعد أيام ثلاثة سيقترب الفارس عمر إلى قرب الجبل لمعرفة أخبارك إن استطاع .. وستترك لنا علامة سيصل إليها عمر للقاء بك .. وإذا لم تلتقيا بعد الأيام الثلاثة .. سنغير من أشكالنا وندخل عرين الأسد .

فقال ليل : سأعلق قطعة قماش على شجرة ، فتعرفون أنني ما زلت حيا ، وتكمنون بالقرب منها حتى أوافيكم .

مشى عمر معه إلى مكان اتفقا أن يكون لقاؤهم قريبا منه بعد أيام ثلاثة .. وعاد عمر إلى كهف الغابة حيث الأمير .. وتابع ليل السير في جبل العصابة ، وهو يعتقد أنه سيكون في قمة جبل أو تلة عالية ، وكان يحمل خنجرا حاد النصل ، وثيابه رثة كما يعرف القراء منذ خرج من بلاد الغراب .

شيخ الجبل

لما بزغ الفجر أخذ عمر القربة لملئها من ماء الغدير القريب منهم ، وجلب بعض أثمار الشجر الناضجة ليأكلاها سوية ، فلما هبط من المغارة سائرا إلى عين الماء رأى أغناما كثيرة ترد مصدر الماء ، وشاهد راعيين عندها ..وتابع عمر سيره نحوهما وحياهما ، وفي أول الأمر وجلا منه عندما رأياه قادما إليهما؛ ولكن بعد السلام عليهما ارتدت لهما أرواحهما، ولابد أنهما توقعا أن يكون أحد لصوص هذه الجبال ، فلما سلم عليهما بسكينة ارتدت لهم نفوسهم وقال أحدهم : كيف شيخ الجبل ؟

فرد وهو يضع القربة في نبع الماء: بخير .. وأنتم كيف حالكم ؟

فقال أحدهم : بخير .. لم نرك من قبل هل لحقت بهم حديثا ؟

ـ أوه .. أتعرفون كل رجال الجبل؟!

ـ أغلبهم .. فبعضهم من أبناء قريتنا تلك ـ وأشار إلى جهة ما ـ .

فقال عمر: قريتكم ؟

ـ نحن قريتنا تبعد عن هذا الشجر وهذه العين بضع ساعات ..فبعض رجال القرية يعملون في طائفة الشيخ غصب ..لابد أنك فارس جديد في الجماعة هنا ..

تبسم عمر لوصف الراعي لرجال الجبل اللصوص بالفرسان فقال عمر : أنا ذاهب إليهم برسالة .. فاضطررت للمبيت هنا ـ وأشار لمجموعة من الأشجار ـ ولما صحوت قلت أملأ قربتي بالماء ، وأتعرف عليكم وأتابع السير لرجال الجبل .. فأنتم من رعيان تلك القرية .. ولأن بعض رجالكم من أعوان الشيخ غصب يسمحون لكم بالرعي .. ها هنا !

ـ أجل أيها الصديق .. وأحيانا نقدم لهم بعض الجديان .

وسامرهم وعرف كل ما يعرفونه عن أهل الجبل بدون أن يفطنوا لغايته ، وملأ القربة خلال الحوار بينهم ، ثم ودعهم ، ولما ابتعد بعيدا عن أعينهم مختفيا في الأشجار .. انحرف إلى الكهف وقدم الثمار والماء للأمير ، وروى له كل ما تذكره من حديث الراعيين ، وختم الكلام قائلا :

يقولون أحيانا ترد السباع هذه المسيل ولكنها ضئيلة .. وعلى بعد ميلين من هنا توجد عين ماء أكبر كالبحر .. فعلينا بتوخي الحذر أيها الأمير .

ضحك الأمير وقال : أنا الآن لست أميرا .. فمنذ خرجنا وأنا جندب وأنت طبع وصاحبنا حية.. أتظن لو وصلنا القرية التي تحدث عنها الراعيان نستطيع تلقط أنباء عن سمر وعفرا ؟.. ما دام عدد من أهل القرية يعملون مع الزعيم غصب .

ـ والذي يثير الحيرة لديّ أيها الفارس أن هذا الأمير كيف يعيش مع هؤلاء اللصوص والوحوش؟! .. فهؤلاء جل حياتهم البحث عن بيت يسرقونه ..عن قافلة يعترضونها ويسلبون بعضها .

فقال حلم : ألم يقل لنا لص الغابة أن سمرا ذاك قد بدأ حياته مع هؤلاء اللصوص قبل أن يتصل بالملك صخر أو أبيه.. وهم يعلمون شدة بأسنا ، ولن نتهاون في ثأرنا وحقنا ..فاعتقدوا أن الحياة بين هؤلاء اللصوص لحين ما أمان لهم أكثر .. فحياة الجبال للهارب يرى أنها أكثر أمانا من حياة المدن والقرى ..فهم يعلمان لو أنهما لجآ لملك من الملوك الدنيا لابد أن يصل خبرهم إلينا آجلا أم عاجلا .

وفي الصباح الثالث مشيا معا إلى الموعد المضروب بينهم وبين ليل أو حية .. فوجدا الخرقة على الشجرة المتفق على اللقاء عندها.. إذن فقد نجح ليل في الدخول بينهم ، فهو واسع الحيلة ، وله مخاطرات سابقة في الحياة مع اللصوص قبل أن يصير رجل الوزير الأول هو وعمر .. وهو كاتم أسرار الوزير هلال ، وقاضي الحاجات الخطرة .. فلبدا في مكان خفي ريثما يأتي صاحبهما وبعد انتظار لأيام أقبل الرجل ، فناداه عمر من مكمنه، وجره إلى الشجرة التي اختفيا قريبا منها وبين أوراقها الكثيفة ، فلما سلم على الأمير قال : وصلنا فعلا أيها السادة .. فسمر والأمير موجودان مع رجال الجبل منذ ارتكاب جريمتهما .. ولقد رأيتهما بعيني هاتين .

ولما سئل عن الحيلة التي دخل بها ، رفع ثوبه عن صدره ، فرأيا جرحا يظن من يراه أنه عميق وحقيقي فقال : جرحت نفسي هذا الجرح وعفرته بالتراب .. وألقيت نفسي في بطن الوادي

وبينما أنا أسير التقيت برجل .. حزن عليّ وأخبرته أني تشاجرت مع قريب لي ، وطعنته بخنجر وهربت من الحمولة .. فأنزلني في كهف على أني جريح هارب ، ربما ينتفعون بي إذا لم أمت من أثر الجرح .. وكان يقدم لي الطعام والشراب ..وعندما يبتعد عنى أتسلل طول الليل في المكان وأتسمع .. وجئت ليلة ووضعت العلامة على الشجرة لتعلما بأنني ما زلت حيا .. وتركت رفيقي اليوم عائدا لقريتي لاستمع لما جرى من أخبار قريبي المطعون .. هل مات أم ظل على قيد الحياة ؟.. ووعدته بالعودة والالتحاق برجال الجبل .

أثنى الرجلان على الفارس ليل وعلى شجاعته وقوة أعصابه، ثم قال : وقد استطعت معرفة وجود عفرا وسمر منه .. ولقد شاهدت من كهفي ذات صباح بعض القوم يركبون الخيل خارجون في مهمة كما أخبر صاحبي ..وبينهم كان الزعيم غصب وسمر وشخص هو لا يعرفه ولكني خمنت أن يكون عفرا ..لأنه قال هذان الرجلان جاءا إلينا من عهد قريب .. ولما انصرفوا في مهمتهم .. انصرفت إليكم بالكلام الذي زعمته للرجل .. ووافق رئيسه على مغادرتي ثم العودة إليهم .. وشاهدت نساء في الجبل فأخبرني صاحبي : إنهن سبايا للزعيم غصب .. بل حدثني بأمر أدهشني هو أن ابنة تاجر كبير من بلاد سعادة مخطوفة ، وأصبحت عشيقة للزعيم وأخبر أن هناك أميرة مسروقة منذ عهد بعيد ، ولها أولاد من غصب .. ثم قتلها هي وأولادها عندما اكتشف أنها أصبحت تخونه مع بعض رجاله فقتلها مع أحد عشاقها .

فقال حلم : إنهم بعيدون عن بلادنا وإلا لقضينا عليهم، كما قضينا على الكثير من العصابات التي تعيث فسادا في الأرض، وتأوي المجرمين والقتلة .. ما الفعل المطلوب منا الآن ؟

ـ سأعود إليهم بعد أيام متظاهرا بأن قريبي قد مات ، وأن أهل قريبي يطلبون دمي ، وشكوني لملك المدينة التي أعيش تحت رعايتها.. والشرطة تجد في طلبي.

ـ ثم ماذا ؟!

ـ سأقتل في الأول سمرا ، ولن أدعهم يعرفون القاتل .. وعندما يحس الأمير بالوحدة وفقد النصير، فلن يطيق الحياة هنا بدون سمر ..وإذا كان سمر مسيطرا على إرادته سيحس بالموت

والرغبة بالخروج من الجبل .. وربما أجعلهم يشكون فيه إذا استطعت ذلك ويتهمونه بمصرع سمر .

فضحك عمر : عندك مكر شديد ! ـ إنه قاتل يا سيدي ابن ملكينا المحبوب!

****

فلما سمعوا خطة ليل غادروا المكان نحو أقرب مدينة لهذه الجبال والغابات ليقضوا فيها عددا من الأيام ، ثم يعودوا لتحقيق مأربهم في القضاء على سمر وعفرا .. وفعلا بعد مسير يوم وجدوا أنفسهم في بلدة صغيرة استطاعوا أن يكسبوا من أهلها بضع أرغفة لاكتها ألسنتهم وأفواههم وأرشدوهم للطريق الموصلة للمدينة الكبيرة التي يتبعون لها .. وبعد يوم آخر وصلوا المدينة التي اسمها قمر، ونزلوا أحد الخانات بعدما أكلوا لحما من بعض أماكن شوي اللحم .

وقضوا ليلة هادئة في الخان ، وفي الصباح خرجوا يبحثون عن مكان للأكل فيه من جديد .. وبينا هم يزدرون الطعام سمعوا أحد الناس في السوق يصيح : ابنة الملك تتمشى في السوق !

فترك أصحاب الحوانيت دكاكينهم وخرجوا للفرجة على ابنة الملك التي تتجول في سوقهم ، وفعل الشبان مثلهم ، وسمعوا صاحب الطعام يقول : الأميرة تغريد .. تحب التفرج على الناس وتسمع شكواهم بنفسها ..فهي تخرج بين الحين والآخر تتمشى في الأسواق وتسأل عن أحوالهم وأخذ الرجل يكيل لها المدح ، ويزعم أنها امرأة لطيفة، وتحب الشعب .

وكانت الأميرة تعتلي صهوة جواد ، وخلفها عشرة فرسان يبتعدون عنها عشر خطوات أو أذرع وكانت تحيي الناس بالإشارة بيدها اليمنى ومرة باليسرى ، وتبتسم في وجوههم ، ويحيونها، وتشير إلى أحدهم فيتقدم منها المشار إليه ، وتتكلم معه وتسأله عن أحواله وهمومه ، ثم تنتقل إلى غيره ثم تتابع المشي .. وأحيانا يقدم لها أصحاب المحلات بعض الحلوى فتقبلها منهم شاكرة حتى وصلت لمطعم الرجل الذي يأكل عنده الشبان .. فرحب بها الرجل ، ودعاها لتناول الطعام في مطعمه ، فلما اقتربت منه كثيرا قال : أسنبلة هؤلاء ضيوفك ؟ وأشارت للشباب الثلاثة .

فهتف مسرورا لفطنتها بمعرفة الأغراب وقد أحنى رقبته قليلا : تفضلي يا مولاتي!! .. هؤلاء زبائننا أيتها الأميرة الطيبة .. ولكنهم أغراب ضيوف دخلوا البلاد مساء أمس.. فهم عابرو سبيل.

فابتسمت لهم وقالت : منذ نظرت إليهم عرفت أنهم أغراب .

ـ لا أحد ينتقص من فطنتك أيتها الأميرة .

وحيا الشباب الأميرة باسمين ، وقالت الأميرة وهي تشير لحلم : أيها الغريب من أي البلاد أنتم؟!

رد حلم المشار إليه : نحن من بلاد بعيدة .. من مدينة يقال القنفذ .. وبعضهم يسميها بلاد المحبة

ـ اسم رائع! ..أيحب الناس بعضهم بعضا هناك ؟

ـ إنها كسائر المدن أيتها الأميرة .

ـ على كل سمعت بها من التاجر قدوم .. لقد ردد اسمها أمامي أكثر من مرة ..أهلا بكم في بلادنا .. ما تحترفون في بلادكم ؟

ـ أنا جندي في جيش البلاد .. وقد خرجت فارسا وحارسا في قافلة يا مولاتي الأميرة .. ثم ضللت أنا ورفاقي عنها .. وكان يشير لصاحبيه ليل وعمر .

ولم تسكت الأميرة وتكتفي بما سمعت بل قالت : وكيف ضللتم ؟

أحس الأمير أنه تورط في الكذب ، فأسرع بالرد للتخلص مما ورط نفسه فيه قائلا : تركنا القافلة وهي تكاد تمشي ، وذهبنا إلى زيارة شخص صديق لنا ، فأصر على غدائنا ، وظننا أن قافلتنا لن تتحرك بدوننا .. ولكن القافلة تحركت دوننا ..كأنهم ظنوا أننا مع القافلة .. أو تعمدوا تركنا للإساءة إلينا عند عودتهم عند قائد الجيش الذي كلفنا بمرافقة هذه القافلة .. فأخذنا نسأل في الدروب والمدن ..فوصلنا ليلة أمس هنا فقلنا نستريح بضعة أيام ثم نعود لبلادنا أو نتابع البحث عن تلك القافلة

ـ أأنتم من حراس القوافل إذن ؟

ـ لا .. نحن جنود في جيش البلد ؛ ولكن خرجنا بصحبة هذه القافلة كحراس ، وفي نفس الوقت نتفرج على العالم والناس .

فكرت الأميرة بكلام حلم قليلا ، ثم خاطبت سنبلة فقالت : يا سنبلة .. استلطفت ضيوفك ولو أكرمتهم بزيارة مولاك الملك .

ـ أمرك يا مولاتي .. أسمعتم أيها الفرسان ؟ .. أنتم أصبحتم ضيوفا عند مولاتنا الأميرة .. ومدعون للعشاء في قصر الملك وعلى مائدته الليلة .

فقال حلم : يسرنا هذا الإكرام أيتها الأميرة .. والشكر الكبير لكم .

وحيتهم الأميرة وتابعت جولتها في السوق ، تتفقد أحوال الرعية ، وفي الليل بعد صلاة العشاء المفروضة على المسلمين ، أوصى سنبلة عماله على الحانوت ، وانطلق بزبائنه إلى قصر الملك ، وهم يلبسون ثيابا جميلة تدل على ثرائهم بعد أن طلب منهم سنبلة فعل ذلك قائلا : لا يحسن بكم مقابلة الملك بهذه الثياب البالية .

فسنبلة معروف للحرس الذين على أبواب القصر ، ولابد أنهم أكلوا من طعامه المشهور في مدينة قمر .. وساقهم أحد الجند إلى غرفة الطعام حيث يقدم يوميا لضيوف الملك وبعض الفقراء من أهل المدينة .. الذين يتعشون على مائدته كالعادة الجارية عندهم .. وبعد العشاء الطيب .. ساقهم أحد الخدم إلى قاعة كبيرة تكتظ بالرجال والضيوف الذين يسمرون مع الملك وهذه عادة أخرى.. وكان بين يديه الشعراء والخطباء والظرفاء والكتاب والقصاص والعلماء كم سر حلم من هذا الاجتماع بحضرة السلطان .. ورأوا الملك يجلس وبجواره ابنته الأميرة تغريد .. وخلفهم بعض الحرس من الجند .. وبينهم الخدم .. ولما لمحتهم الفتاة يدخلون تبسمت لهم ، مما لفت نظر بعض الحاشية والناس فأخذوا يتابعونهم بعيونهم .. فتحدثت مع أبيها يسيرا والناس ينظرون إليهم .. فأشار لهم أحد الخدم بإشارة من السلطان أن يتقدموا لمصافحة السلطان فتقدمهم سنبلة المعروف في المدينة.. فحيوا الملك وصافحوه .. وعاد حلم وقص عليهم قصة القافلة التي أضاعوها لانشغالهم بزيارة صديق لهم .. ولما علم أنهم من بلاد

الملك البحر بش لهم وقال : لقد سمعنا الخبر الكثير عن هذا الحاكم .. وهل هناك أحد لم يسمع بهذا الفارس ؟!

وكان حلم طول السهرة القائمة بحضرة السلطان يختلس النظر إلى الأميرة التي أعجب بها وطمع بها قرينة ، فقد خفق لها القلب كما يقال ، وتخيلها حليلة له ، وأعجب بحسنها وقوامها وشجاعتها بتفقد أحوال الخلق بدون خوف من اغتيال واعتداء .. وأثناء اختلاسه النظر إليها يجدها هي الأخرى تنظر إليه ، فيغير اتجاه نظره ويقول: أيكون عندها ما عندي من الهوى؟.. أيرضى أبي بزواجي منها ؟ ولماذا لا يرضى ؟! هي أميرة طيبة كما يقول أهل البلد ؟

وأحيانا عندما تتلاقى العيون يلمح ابتسامة خفيفة على وجهها كأنها تقول له مشجعة : الذي عندك عندي؟

فمال على سنبلة هامسا : يا أخ سنبلة .. الأميرة هل هي ذات بعل ؟

فتبسم سنبلة له وقال بخبث : لعلك عشقتها أيها الشاب! .. احذر لنفسك .. فالحب قتّال كما يقال .. واختلس سنبلة نظرة اتجاه الأميرة وهمس في أذن صاحبه : الأميرة ليست ذات بعل .

فهمس حلم : ألا يزوجني هذا السلطان المحبوب من شعبه كما يبدو لي إياها ؟

ـ ويحك .. ما هذا الكلام ؟!

فكأن الملك والأميرة وبعض الحضور لحظوا الهمس فقال الملك لسنبلة كأنه مؤنبا : بماذا تتهامسان يا سنبلة ؟!

تبسم سنبلة وقال : العفو يا مولاي .. يبدو أن صوتي علا .

ولكنه أمام استمرار نظرات الملك قال بشجاعة : ضيفي يسألني هل الأميرة ذات بعل ؟.. يبدو أن ضيفنا استحسن مولاتنا الأميرة .. فأحببت أن ألزمه حده .. حتى لا تطمع نفسه يا مولاي الملك .

تبسم الملك والتفت إلى الشاب الذي غرق بالاحمرار والقلق فقال : أحقا هويت الأميرة يا جندب ؟!

ـ أنا سألت ـ يا مولاي ـ ولكن صاحبنا سنبلة حرف الكلام عن مقصده .

فقال الملك : هي أميرة ابنة ملوك أيها الفارس جندب .

فكاد حلم أن يصيح بقول : وأنا أمير ابن ملك .

ولكنه تماسك عن هذا التصريح ، وتذكر أنه في مهمة انتقام وقال : أنا لا أتطاول على المقام العالي يا مولاي .. ما أنا إلا عابر سبيل .. أرجو المعذرة من جميع السامعين .

ـ أحسنت الآن يا جندب.. انصرف بضيوفك يا سنبلة .. متى سيغادرون البلد؟

رد حلم ببطء وفهم لمغزى سؤال السلطان : غدا يا مولاي ..وأنا معجب بكرمك وفتحك ديوانك لهؤلاء الناس .. وشكرا على مائدة طعامك العامرة للضيوف والفقراء .. وسأطلب من وزير ملكنا البحر الوزير هلال أن يحاكيكم في هذه العوائد .. ونشكر الأميرة على لطفها معنا نحن الغرباء .

ونهضوا مغادرين مجلس الملك ، وفي الصباح تناولوا الإفطار الأخير عند سنبلة ، واتجهوا من جديد ناحية جبل الصوان لتنفيذ خطة الفارس ليل .. وكان حلم يخاطب صاحبيه أثناء الطريق: إن قدرت لنا الحياة بعد هذه المغامرة والعودة لبلادنا .. سآتي هذه البلاد خاطبا ومتزوجا هذه الأميرة الشجاعة .

فضحك الفارسان وقد أدركا منذ أمس تعلق الفتى بالفتاة ، فتمنيا له السلامة والزواج القريب

حلم

حدث في نصف الليل السابق قبل رحيل الفرسان من بلاد قمر، ومن بعد انصراف القوم من مجلس السلطان أن أتى غلام للخان الذي ينزل فيه الفرسان، وسأل حارس الخان رغبته بمقابلة جندب ، ولما تقابلا قال له :هناك امرأة ترغب بالحديث معك .

على الفور أدرك الفارس حلم من هي المرأة ، فقد توقع ذلك، توقع خطوة الأميرة هذه ؛ لأنه عندما سألهم الملك سنبلة عن وقت رحيلهم ، هو أجاب على سؤال الملك لتصل الرسالة للأميرة إن كانت لديها رغبة بالاجتماع به .. فمع مجيء الغلام قد زاد تيقنا أن الفتاة تهواه كما هويها .. لقد فهمت الأميرة رسالة الشاب .. فتبع الغلام وطلب من صاحبيه ألا يقلقا عليه .. فساقه الغلام إلى غابة في طرف البلدة ـ غابة تخص السلطان ـ فوجد الفتاة في انتظاره ، ومعها جارية لها ..فأشارت الأميرة للجارية أن تبتعد .. وأشار الغلام لجندب على الأميرة .. ومشى نحو الجارية .. فلما وصل جندب إلى مكان الأميرة ألقى السلام ، وكانت الأميرة مقنعة لا يظهر منها سوى عينيها اللامعتين رغم حلكة الليل والشجر ..فقالت: مرحبا بفارس الملك البحر جندب أنت شجاع لم تتردد في المجيء ، ولم تخش الكمين.. وأنت شجاع عندما عرفت أنكم أغراب، ودعوتكم لقصر السلطان ، فلم تتردد أيضا بقبول الدعوة ..فأنت سيد وصاحباك أتباع أليس كذلك؟!

لمعت أسنان الشاب وهو يضحك بصوت خفيض : جميل منك هذا التوفيق ! .. أنت ذكية يا مولاتي .. ومجيئك إلى هنا أيضا شجاعة .. وفهمك لرسالتي فطنة وشجاعة .. بصراحة إنني معجب بك للغاية .. منذ رأتك عيناي .

ـ ماذا تأمل مني بعد إعجابك بي ؟ وسؤالك عن أني ذات بعل ؟

ـ الزواج كسائر خلق الله ..على سنة الله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ـ أنت أدهشتني حقا ، كنت جريئا أمام السلطان ورسائل عينيك وصلت إلى قلبي أيها الفتى .. ولكن الزواج أجابك عنه مولاي الحاكم .. فأنت قضيت طول الجلسة تختلس النظر إليّ .

ـ وكلما أختلس نظرة أجد بريق عينيك يتأملني .

ورنت بينهما ضحكة خفيفة وقالت : أنا لا أدري لماذا فعلت ذلك ؟!

ـ القلوب والأرواح أيتها الأميرة .. وأنا لا أدري ما الذي أتى بي لهذه المدينة دون غيرها من المدن؟!

ـ القلوب والعيون والأرواح !! .. عندما نظرتك أمام حانوت سنبلة ..كانت نظرة غريبة على قلبي يا جندب .. ولكن ثيابك الرثة أزعجتني ..فبريق عينيك بريق رجل مقدام .. ولم تكن نظرتك إليّ نظرة رجل لامرأة نظرة عابرة ..كانت نظرة مفتون .

ـ إنك ساحرة يا مولاتي !..صدقت لا أدري ما الذي حدث لي ؟! ..وأنا لما أخبرت والدك الملك بأني مغادر غدا لأرى ما لي عندك من لوعة الهوى .. وقد فهمت الرسالة .. وها نحن نلتقي لنرى مصيرنا.

ـ جميل أيها الفارس ..ألديك أمل بالاقتران بي؟

ـ سأكشف لك سرا ما دمت قبلت بي بعلا ؟

ـ وكيف عرفت بأني غير ذات بعل ؟ أأخبرك سنبلة ؟

ـ أخبرني سنبلة بعد انصرافنا من مجلس السلطان ، وأنت أخبرتيني أيضا .

ـ أنا وكيف أخبرتك ؟!

ـ مجيئك إلى هنا في جوف الليل يدل على أنك بغير زوج ؟

ـ غلبتني بالذكاء أيها الفارس .. وما السر الذي سيجعلني أقبل بك زوجا ؟ .. أتريد أن تقول إن والدك هو الملك البحر ؟

ـ صدقت مرة أخرى ، أنا والدي ملك بلاد القنفذ .. أنا أمير مثلك .. أنا أحد أبناء ذلك البطل الكرار والفارس المغوار .. أنا اسمي حلم .. وأما جندب فهو في مهمة قاسية وخطيرة ..وإذا امتنعت عن الأزواج بضعة شهور سأكون بإذن الله صاحب الحظوة لديك .

ـ نعم ، أنت ابن ملك إذن ..وقع لي هذا الحدس عندما رأيتك عند سنبلة تحدق بي .. قلت هذا

إنسان متنكر .. فالناس يختلسون النظر في وجه الأميرات .. لا يبحلقون كما فعل جندب الذي صار حلما الآن .

ـ أنا أدركت قوة فؤادك وذكائك .. وأنا لا أكذب أيتها الأميرة .. قليل من الصبر والحين .

ـ إني مصدقة ، وعندما خاطبك والدي بأني ابنة ملك .. ليضع حدا لجسارتك ، لقد هممت أن تتفوه بشيء .. ثم أمسكت نفسك .

ـ فعلا كدت أن أرد على أبيك وأقول وأنا ابن ملك .. ولكني تذكرت أنني في مهمة خطيرة .

ـ وجلوسك مع الوالد وتمتمتك مع سنبلة دل على أنك سيد متعود على الجلوس مع الأمراء والأكابر .. وليس التجار كما زعمت .

ـ ما شاء الله !!..بدأ ذكاؤك يخيفني .

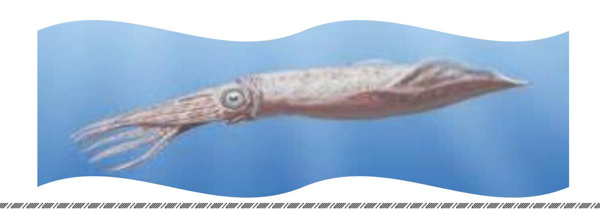
ـ وأنت أذكى مني .. إلى متى انتظر الفارس حلم ؟!

ـ مهمتي قريبا ستنتهي .. وبلادنا بعيدة عن هذه المدن ، فأقل من سنة سيلتم شملنا بإذن أحد أحد .. اعذريني بعدم إفشاء سر مهمتي ..والمهمة خطرة قد أموت فيها ..عندما أنتهي منها إن لم آتيك بلحمي وشحمي .. سيكون أحد الرسل بيننا .

ـ قبلت بك.. فأبي ترك لي شأني .. وبيني وبينك عام أيها الفارس النبيل .. واعلم بأنك لو لم تكن أميرا لقد كنت أعول على هذا اللقاء كثيرا ولأمهد لك طلب الاقتران بي عند أبي .. فأنا الابنة الوحيدة لأبي .. لا أخوة ولا أخوات .

ـ اتفقنا أيتها البطلة ..فأنت أول أنثى أعرض نفسي عليها .. ما زلت بكرا مثلك .

غادرت الأميرة المكان ، وهي تعجب لتصاريف القدر ، ولما اختفت انصرف الأمير إلى الخان حيث الرفاق وكان بادي السعادة والحبور .. انتقام وحب .



جبل الصوان

عادوا أدراجهم جهة جبل الصوان ، وروح المغامرة تستهويهم وتسيرهم ، ودخلوه وهم على حذر شديد، ولما حلوا بالشجرة التي ربطوا الخرقة عليها وجدوا الخرقة ما زالت على تلك الشجرة .. وكان الرفاق قد تصدقوا بالثياب الجميلة بأن تركوها عند صاحب الخان ، ولبسوا ثياب التنكر الثياب البالية لإتمام المهمة .

وهذه الثياب تترك لدى الفقراء والعامة الأثر الملائم ، فهي تدل على الضعة والفقر، ودخل ليل أو حية عرين الأسد من جديد ، وظل يمشي حتى وصل كهف صاحبه الذي تفاجأ بعودته ودخوله عليه في جنح الليل ، فقام معانقا ومرحبا والذي قال : والله وقع في نفسي أنك لن تعود بعد أن شفيت وعدت لقومك ، وظننت أنهم صرعوك .

ـ كيف لا أعود أيها الصديق؟ وابن العم لفظ أنفاسه، والشرطة تبحث عني بعد أن شكوني للملك والقاضي .. ولكن عملت على لقاء الزوجة والأولاد وودعتهم الوداع الأبدي ..وقلت لهم سأسافر إلى أقاصي الأرض ..وإذا قدرت لي النجاة عدت إليكم .. ولما نجوت من عين الرقيب أتيت إليك لأصير من رجال الجبل حتى تذهب هذه الصفحة ، وأشار إلى عنقه .

وسكت لحظات ثم قال لما رأى صاحبه ساكتا : وأثناء مسيري إليك أيها الصديق الطيب تدحرجت عن صخرة كبيرة فالتوت قدمي من أثر الوقعة .

ورفع ثوبه وأراه مكان الرضّة ، وقال الرجل وهو يتظاهر أنه رأى الورم :لا بأس عليك أيها الصديق .. في الصباح أقدمك لنائب الزعيم ..والآن علينا أن نرقد .. وسأجد لك دهنا يخفف عنك الآلام .

وأخذ ليل يكيل المدح لصاحبه كأنهما أصدقاء منذ عشرات السنين، ولما أشبع غرور نفس الصديق قال : هل رجع الزعيم من مهمته التي ذهب إليها ؟

ـ أما زلت تذكر أيها الصاحب؟.. فهم منذ خرجوا في مهمة كما أعلمنا نائب الزعيم لم يرجعوا لليوم .. فأحيانا مهماتنا يطول العهد بها .. تأخذ منا سبعا عشرا شهرا أشهرا .. عندما يقبل

مظفرا سأشجعه على قبولك رجلا منا ..أنت بعد أن تخليت عن قومك أصبحنا نحن قومك .. وعندما تشاركنا عملا ستصبح نعم الصديق .. ونعم الأخ .. وستحصل على الهبات .

فعاد ليل يثني ويمدح أخوة الرجل ومساعدته في محنته ، وأخذ يده ولثمها مظهرا شكره واستسلامه ، فانتشى الرجل وظن نفسه زعيم الجبل غصب .

وكان ليل يحتال بين رجال الجبل وغابة الأمير ، والكل ينتظر عودة الزعيم ورفاقه ، وجاء بعد حين غصب ورجاله ، ولم يكن معهم عفرا وسمر .. وكان معهم صيد كبير من مال ومجوهرات وخيول .. ولما سأله أحدهم عن ضيوفه ظهر الحزن على وجهه أو تظاهر بالحزن وقال : ركب المسكين على أحد هذه الجياد فجمح به ورماه أرضا فأصيب برأسه وكسرت ساقه ، فتركناه في (قرية ناو) يداوي نفسه ، وظل معه صاحبه الذي يزعم أنه أمير، ورجلان منا سيعودون بهم إذا شفي سمر .

نقلت هذه الأخبار لليل ، وبدوره نقلها لحلم وعمر ، فطلب الأمير منه البقاء هنا ، وهما سيذهبان للقضاء عليهما ، ثم يعودون إليه إذا تحقق الظفر بهما ليعودوا

لبلادهم .. وفعلوا ذلك خشية فشلهم في قرية ناو، فيبقى ليل بينهم لمتابعة الخطة .

ومشى الصاحبان إلى البلدة التي ذكرها لهم ليل ، وبعد أيام وصلوا إليها .. فهي قرية صغيرة واستطاعوا معرفة البيت الذي ينزل فيه الأمير عفرا وسمر .. ووجدوا أن الرجال يتركون سمرا في النهار ، ويسعون لصيد الطير والحيوان للأكل .. فتسلل الأمير إلى العبد سمر .. ولما رآه سمر ظنه أحد الرجال اللذين تركهم غصب معهم فقال : مالك عدت مبكرا ؟!

ثم تبين له أنه غريب عنهم فقال بذعر: من أنت ؟! وذعر عندما شاهد الخنجر يلعب في يده وصرخ والخنجر يوضع على صدره فقال حلم : أتخاف الموت يا قاتل ؟ لا تصرخ أجلك على وشك الانتهاء أيها الرجل اللعين .. أنت الذي يغدر بالملوك يا سمر .

وغاص الخنجر في صدره ، فتحشرجت روحه وسمع قاتله يقول : أنا شقيق الملك بلبل يا سمر اللعين ..فلتمت أيها الغادر .

فصرخ مرعوبا ثانية ؛ ولكن الخنجر مزقه شر ممزق حتى خمدت أنفاسه ، واستولى الأمير على السكاكين الموجودة ، وعاد لصاحبه عمر الذي كان يقف مراقبا للمكان خشية عودة الصيادين ولما عاد عفرا بن صخر ورجلا غصب ، ووجدوا صاحبهم مقتولا شر قتلة ، صاح عفرا رعبا: لقد وصلوا إلينا !..لابد أنهم من رجال الملك البحر ..هذه طعنات منتقم ..علينا بالرحيل أيها الرجال ..إنني أرى الموت يرفرف على المكان .

ـ ألا ترغب بدفن صديقك؟!

صاح بخوف : دعوه للكلاب .. فعلينا بمغادرة المكان قبل فوات الأوان .

ـ هذا جبن أيها الأمير .. فهذا الرجل كان يعزك ويهتم بشأنك .. سنبقى هنا ونبحث عن القتلة

فصاح عفرا : هذا حمق .. الخطر حولنا .

فضحك أحدهم وقال : الخطر دائما حولنا أيها الأمير المزعوم .

فقال الأمير : أنا سأغادر الآن .. ولم يكن قد خلع سلاحه بعد .. فخرج واعتلى صهوة جواده وهو يقول لنفسه : أين أذهب؟ أأذهب إلى جبل الصوان لقضاء العمر بين اللصوص والقتلة ؟ أم إلى مكان آخر؟ .. ماذا أقول لشيخ الجبل ؟ .. فسمر صديقه هو وليس صديقي ..وبينما هو يفكر بما سيفعل .. ويمشي به الجواد خببا خببا سمع أحد الرجلين وهو يقف أمام البيت صارخا: ارجع أيها الأمير .. غدا نرحل .. لابد من دفنه .. فهو صديق الزعيم .. فلن يغفر لنا الزعيم تركه دون دفن.

فلم يرد عليهم .. وسمع أحدهم يصرخ فيه : يا رعديد .. يا جبان .. أنت نذل .. لا أدري كيف كان يرعاك الفارس سمر؟! ..ارجع لبلادك حتى لا يبطش بك الزعيم يا جبان .

سمعها الأمير وهو يرتجف خوفا ، فازداد رعبا ووهنا، وسمع الأمير حلم وعمر الحوار وهما يراقبان البيت ، فقال عمر : الأمير يهرب .

ولما دخل الأمير الغابة سمع خطواتهما خلفه فظن لأول وهلة أنهما رجلا الزعيم ، وكان يسمع حفيف أوراق الشجر وتطاير العصافير ..وظل يسير وهما خلفه حتى ابتعدوا عن القرية ، فسمع

أحدهم يأمره بالوقوف ـ وهو ما زال يعتقد أنهم اللصان قد غيرا رأيهما وتبعاه ـ فلما سمع الأمر بالوقوف توقف واستدار بجواده نحوهما ، ولما اقتربا منه .. قال جندب : أيها اللص ؟

استغرب مناداته بهذا الوصف وقال : ومن أنتم إذن ؟!

فقال الأمير حلم : أمير ولص .. ابن الملك صخر يعاشر اللصوص ورجال الجبل

ففطن أنهم ليسا بصاحبيه ، وأنهم من رجال الملك البحر فهمس بصوت مبحوح مرعوب: من أنتم ؟!

فقال الأمير: أنا حلم ابن الملك البحر .. أخو الملك بلبل . فصرخ وقال : يا ويلاه !! هلكت .

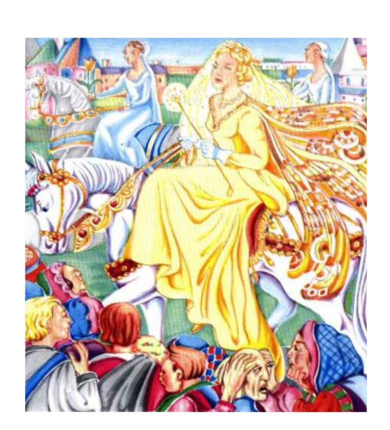
أمسك به عمر وأنزله عن الجواد وقال لهم متوسلا: العفو .. العفو !!

وبينما هو يردد هذه الكلمة كان خنجر الأمير يغوص في أحشائه ، ثم في صدره حتى حشرجت الروح وصعدت لباريها .. ولما هدأ الأمير رويدا رويدا ..قام عمر بقطع رأسه ، ولفه ببعض ثيابه، وغادروا الغابة ومعهم جواد الأمير الميت نحو جبل الصوان ..ولبثوا في انتظار ليل حيث الشجرة التي علقت عليها الخرقة ، وكان ليل يتردد إليها بين الحين والأخر .. ولما وصل خبر موت سمر للجبل ضج الجبل بخبر مصرعه ..فأسرع الفارس ليل إلى موعد اللقاء ، فوجد صاحبيه في انتظاره .

ولما مشوا نحو بلادهم قال ليل : لقد سعد القوم بمقتلهم ..فلما جاءه نعي سمر والأمير قال : الحمد لله ارتحنا منهم .. كانوا غصة في قلبي أيها الرجال .. كان اللعين سمرا يظنني عبد مثله وذاك الأمير يظن نفسه ما زال في قصر أبيه المقتول .. إلى الجحيم كليهما .

وكانوا يتبادلون الركوب على الجواد حتى وصلوا إحدى القرى، واشتروا من أهلها دابتين وواصلوا المسير حتى دخلوا بلاد الغراب ، ودخلوا على الملك حسن الذي فرح بعودتهم مظفرين ، وعلق رأس عفرا في وسط المدينة .. وفرح الملك البحر لما وصلته أخبار عودة الأمير حلم .. وشكر الله أنه أنجب أولادا يعتمد عليهم في المحافظة على الملك الذي ورثهم الله إياه ولما وصل حلم وصاحباه لبلاد المحبة وسمع الملك البحر بقصة فتاة مدينة قمر .. أرسل وزيره

هلالا لتلك البلاد بوفد كبير يحرسه ألف فارس .. ورحب والد الأميرة تغريد بمجيئهم ، وأحسن استقبالهم ، ولم يتردد في تزويج ابنته من ذلك الفارس المزعوم جندب .. وعمت الأفراح المدينة .. وبعد شهر أخذ القوم عروسهم وقفلوا عائدين لديارهم .. وأقيم فيها العرس.. ووزعت الهدايا وأطعم الناس الطعام ، ودامت الأفراح عدة أيام .. عرس ظلت الأجيال تذكره لعدة سنين .



لما انتهى الاحتفال بزواج الأمير حلم ، أخبر الملك البحر بأن وفدا من بلاد القمحة على رأسه الأمير يزيد بن رضوان قادمون للتهنئة بزواج ابن الملك ، ولهم رغبة في لقائه، فرحب الملك بهم واستقبلهم في ديوان الحكم وتقبل هداياهم ، وأهدى لهم ، وأنزلهم في قصر الضيافة ثم علم أن الملكة صيد ترغب في الحديث معه على انفراد ومعها ولدها يزيد، فوافق على ذلك، وأخلى الجميع المكان قال لها الملك باشا في وجهها : هل من حاجة أقضيها لك أيتها الأميرة ؟

قالت : أنا أعلم أنك شجاع ومقدام يا مولاي الملك !.. والذي صنعته قليل ما يصنعه الرجال.. وأنت رجل الوفاء وصديقنا العزيز ، ولا أعتقد أنك نسيت نشأتك في بلادنا .

ـ كيف أنسى ذلك يا أم خالد؟! .. ولم أنس للأبد حنانك وعطفك علينا .. وحسن استقبالك لنا عندما كنا نرافق الملك خالد إلى القصر .. لقد كنت أما لنا جميعا .. وإنا ـ إن شاء الله ـ من أهل الوفاء والعهد .. اطلبي مني ما شئت .. وهذا يوم وفاء وبر .

ـ إني الآن عاجزة عن شكرك يا مولاي الملك!.. والفضل لله يؤتيه من يشاء من عباده .. ولا أنسى جهدك في اعتلاء الملك خالد كرسي الحكم في بلاد أبيه .. البلاد التي بغضتها منذ طردت منها كما تعلم يا مولاي .

ـ أجل إني أعلم يا مولاتي الأميرة .

ـ ولكن ولدي خالد ما زال حسب ظني صديقك وأخوك قد ابتلي بحبها وبقومه .. فقد طلب مني التشفع عندك بأن ترفع عن بلاده الضريبة المضروبة عليهم .. فهي تنغص عيشه مع سادة قومه وعشيرته .. زارني وبكى بين يدي من أجل فعل ذلك .

خيم الصمت عليهم بعض الوقت ثم قال الملك البحر : أنا أعلمت صديقي الملك أن هذه الأموال تؤخذ للبلد عامة ، وليست لثراء الملك .. وهي تدفع أجورا للجنود الألف المقيمين في بلاده ..وأنا أقدر دخولك عليّ ..ولا أنسى المعروف الذي كان بيننا ..وبقي لنا خمس سنين لينتهي العقد بينا .. وبما أنك تشفعت لهم بذلك .. سأتكفل بدفعها لخزينة المدينة من مالي .. ولكن سنضطر لسحب جنودنا .. ولن نتدخل في شأن بلاد الماعز أيتها الأميرة.. وإن غدر هؤلاء بولدك فلن نساعده بدماء أبنائنا وأموالهم ..هل أنصفتكم ؟

قال يزيد : نحن نعلم مشقة ذلك على أهل بلاد المحبة ..ونشكر لك كرمك أيها الملك الكريم وسننقل شرطك لشقيقي الملك .

أثنت الأميرة صيد وهي تبكي عند الملك البحر ثم قالت من بين دموعها : أنا أعلم أني ربما قسوت على جندك وأبطالك بهذا العرض ..وأنا مقابل ذلك على استعداد لتزويج ابنتي أسماء لأحد أبنائك أو من تشاء من الأمراء .

ـ بارك الله فيك !..فأنت أم لي أيتها الملكة ..وسأقبل هبتك إذا وافق والد الفتاة والملك خالد أيضا .. وعليكم التشاور مع الملك خالد ..وإذا وافق على سحب جنودنا فلن نتدخل في مشاكل البلاد التي لا تنتهي .. سأتكفل أنا نفسي بدفع الأموال للبلد .. هذا هو النظام عندنا خزينة الملك غير خزينة الشعب ..وأنا أقدر شجاعتك أيتها الملكة.. وأنتم نعم الأخوة والأهل كنتم لي ولوزيرنا هلال .

واستدعى الملك وزيره هلالا الذي رحب بالأميرة من جديد ، واستمع لشفاعة الأميرة ورأي الملك البحر ، فقال الوزير الشيخ : شفاعة الملكة على الرأس والعين

ونهضت الملكة فجأة وأخذت يد الملك وقبلتها ، وفعلت ذلك مع الوزير ، وغادرت الملكة وابنها

الديوان ، وغادر الوفد بعد هذه الوساطة ، وخلال شهر أقبل وفد من بلاد الملك خالد يشكرون تسامحه معهم ، ويلغون العهد الذي قدموه للملك البحر ليساعدهم في القضاء على الملك فراس الوحش .

وبعد مجيء وفد بلاد الماعز وانصرافهم ، أرسل الملك وزيره هلالا لطلب يد الأميرة أسماء لأحد أبنائه مقدرا للأميرة رغبتها بمصاهرته ، فعادت الأفراح من جديد على قصر الحاكم ، وفرح الملك فرح يعم كل الشعب ولمحبة أهل القنفذ لمليكهم العادل ، وحضر الحفل ملوك القمحة والماعز والغراب وغيرها من الممالك التي انضوت تحت ملك الملك البحر ، وحتى والد الأميرة تغريد جاء بوفد كبير لحضور الاحتفال بزواج أحد أبناء الملك ، وغضت البلاد بالوفود والأصدقاء والذي ضاق وامتعض من هذا الزواج الشيخ الملك رضوان ، وأبدى اعتراضه في البداية، ثم وافق على مضض، ولم يحضر الاحتفال بزواج ابنته؛ ولكن لم يأبه له أحد فبعد عزله عن الملك أصبح وحيدا لاهيا بصيده وزوجاته .

وأثناء احتفال الملك البحر بزواج ولده من أسماء ، كان جيش الملك البحر يغادر بلاد الماعز إلى بلاد الغراب للالتحاق بجيش الملك حسن .. وجرى لهم هناك استقبال ليذهب ما في نفوسهم من غيظ أو حقد .

ولما انتهى حفل الزواج وأخذت الملوك تودع الملك البحر ، كان من ضمن المودعين الملك خالد .. فشكر الملك على قبوله شفاعة أمه ، وبارك له بزواج ابنه من شقيقته أسماء ..فحثه الملك البحر على العدل بين الرعية ، وأن العدل هو قاعدة الملك ..وأعلمه أن جنوده قد رحلوا لبلاد الغراب وتمنى له التوفيق والسعادة في مملكته .

ولما وصل لبلاده وجد جندا من جنده يطلبون منه العودة من حيث أتى .. فتحادث مع بعض قادة الجيش الآخرين ، فأخبروه أن الأمر خرج عن أيديهم .. فبكى الملك عندما سمع هذا الجواب ، وقال لمن معه من أولاده وحرسه : من أجل هذا كانوا يلحون عليّ بالتخلص من جند الملك البحر .

فكتب رسالة قوية لقادة التمرد بأنهم إذا لم يعودوا لمعسكراتهم وحصونهم سيهب البلاد والعباد للملك البحر ويخلع نفسه عن الملك للملك البحر.

فانقسم المتمردون لهذا التهديد إلى فريقين .. ولكن الرافضين لحكم الملك خالد أصروا على طرده واستدعاء أحد أبناء الملك فراس للحكم .

ولكن الملك دخل البلاد وأدار حوارا مع المتمردين المصرين على خلع نفسه وخروجه من البلاد والرحيل لبلاد القمحة .

فكاد الملك أن يفقد صوابه من غدر هؤلاء ، وعجب من وقوف أكثر الشعب معهم ، ويرفضون بقاءه حاكما عليهم .. وندم أشد الندم على قبول ضغطهم عليه لينسحب جنود الملك البحر .. مما اضطره للبكاء بين يدي أمه لتساعده عند الملك البحر .. ولما تحقق لهم ذلك ها هم يرفضون ملكه ؛ كأنهم هم الذي نصبوه ملكا .. فتبين له كرههم لشخصه ، وهانت عليه نفسه وضعفه ، ولما اجتمع ثانية ببعض العصاة قالوا : نحن لا نخاف الملك البحر .. وإن كان البحر يحكمهم بشخصه .. ولو عادت جنود الملك البحر سيقاتلونهم ويطرونهم من البلاد .

فاقترح أن يتنازل لأحد أبنائه عن الحكم ، فأصروا على مغادرته بلادهم إلى بلاد أمه ، وأنه خائن للبلاد ، ومتعاون مع أعداء البلد ، ومضت شهور والبلاد في فوضى واضطراب .. ولما رأى تأزم الأمور ، والقوم مصرون على تنازله عن الملك ، تنازل لهم الملك وطلب منهم السماح له بالبقاء في قصره وبينهم ، ولكن زعماء التمرد زعموا أن بقاءه سيبقي القلائل في داخل البلاد وذكروه بموقف الرافضين لحكم الملك فراس كيف استعانوا به للقضاء على الملك فراس وبعد طول جدل ورجاء غادر البلاد مطرودا فاختار بلاد القمحة .. حيث حضن أمه باكيا بدمع غزير على ما أصابه والتي شاركته الحزن والبكاء وقالت : آه يا ولدي ! .. بلاد كرهتنا منذ زمن بعيد .. قومك قوم بهت لا يرحمون .. من شيمتهم الغدر ..الحمد لله أنهم ابقوا على حياتك .. لا تأسف على شيء من هذه الدنيا ..ملك أعطاك الله إياه ثم أخذه .

كفكف دمعه وقال : إنهم قومي وأنا منهم .. يا ترى لو عشت طفولتي بينهم أكنت مثلهم ؟!

أحب الغدر ونكران الجميل .

ـ أتحب أن أعود لصديقك الملك البحر .

ـ لا يا أمي .. من أسباب نقمتهم عليّ أنهم اعتبروني نائبا له في حكمهم .. نسوا الرجال الذين مشوا إليه يترجونه لمساعدتهم وتخليصهم من الملك فراس الذي ذبح أبنائهم ورمل النساء ويتم الأطفال ..سأبقى عندكم أقضي ما تبقى لي من عمر .. أنا كرهت الملك وما سعيت له يا أمي .. كل هذا بسبب مقتل عمي الملك رياض لعمي بهاء ..سأشيد قصرا بما تبقى معي من أموال.. لم يستولوا عليها ..وأراقب الأزهار والأطيار .. وأصطاد الظباء في الوديان خير من ملك متعب للروح والبدن .. بلادكم عظيمة يا أمي منذ وعيت على هذه الدنيا لم أسمع بقتال وحروب نشبت بينكم وبين الأعداء .

ـ لقد ابتليت ونحن أطفال بمثل هذه الحروب.. أيام شباب والدي ، ثم هدأت وتصالحنا مع مدن الجوار .. وهذا من فضل ربنا على هذه البلاد ..ونحن أهلك يا ولدي ..ولن يضايقك أحد من أهل البلاد .. فها هم أخوتك لم يشعروا يوما بغربة وشكاية .. ولكن أولادك ونساؤك أيطيب لهم المكث في بلادنا والمجيء إليها ؟

ـ نحن أهل .. ومن رضي بالعيش فحيهلا يا أمي .. ومن لم يعجبه الحال فليغادر إلى حيث أتى.. فها هو والدي بقي قابعا في قصره .. ورفض الرحيل ولو قتلوه .. وهم لا يخشونه لأنهم يعرفون توتر علاقته بالملك البحر .. إنهم غاضبون عليّ لصداقتي للملك البحر ويزعمون أني نائب له مع أنهم هم الذين تفاوضوا معه للقضاء على الملك صخر وتفاوضوا معه على المال وهو اختارني ملكا لصداقتي القديمة معه ولمساعدتهم .. وهم يعيروني بحياتي هنا أيام صغري قاتلهم الله أنى يؤفكون .

وبينما الملك خالد منشغل ببناء قصره قصر نهاية العمر ، جاءه الخبر المؤلم بسفك دم من أصر من أولاده وزوجاته على البقاء في بلاد أهليهم ، فقد قتل المتمردون كل من بقي من ذريته وأحفاده وزوجاته .. فاغتم كثيرا لهول الخبر، وقال لأمه : أرأيت يا أماه جنون القوم ؟! .. حتى أولادهم

الذين ولدوا في بلادهم ومن بناتهم أهلكوهم ، ولم يحتملوا بقائهم.. أي حقد هذا ؟! خشوا أن يطلبوا العرش في يوم ما .. لقد نصحت لهم بالخروج معي .. نصحت لهم ولزوجاتهم .. ولكن قالوا كما قلت قديما أهلنا يا أبتاه ..ها هم أهلنا يا أبتاه .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

ـ عليك بالزواج من جديد ..فمن بقي من نسائك لم يعدن يلدن ..فتزوج لعلك ترزق بذرية أخرى ..وأنت بحاجة لامرأة شابة ترعاك ..تزوج الأميرة زهرة ابنة خالتك وردة فهي ما زالت أرملة منذ موت سن اللؤلؤ .

ـ ألم تتزوج بعد ؟!

ـ تزوجت ؛ ولكنها لم تطق معاشرة زوجها لكثرة نسائه وطلقت ..فسأطلبها لك فهي شابة بعد

بلاد الماعز

وصلت أخبار التمرد وطرد الملك خالد من بلاد الماعز للملك البحر، وعلم الادعاء والحجة التي اتخذها الثوار للتخلص من الملك خالد بزعمهم أنه صنيعة للملك البحر، واستاء جدا لما علم بمقتل أفراد أسرة الملك الذين لم يخرجوا مع أبيهم ابتداء والذين عادوا بعد حين .

فكتب رسالة عزاء للملك خالد ، ثم سأله أله الرغبة في العودة لبلاد الماعز ، فاعتذر له، وأنه يحب البقاء في بلاد أمه ليقضي شيخوخته وأيامه الأخيرة في مدينة القمحة ، وأنه بغض الملك والحكم .

فجهز الملك البحر جيشا لغزو بلاد الماعز ، وطلب من ولده حسن أن يرسل جيشا آخر من جهته ، ومشى الملك البحر بنفسه لغزو بلاد الماعز .

وسمع أهل الماعز بهذا الغزو ، واستعدوا لملاقاة الجيش ، ولكنهم لما سمعوا بقدوم جيش الملك حسن دب في قلوبهم الوهن ، وأخذ المتمردون الذين يحكمون البلاد يهربون ، ويتركون البلاد خوفا من الأسر والقتل .

سيطرت الجيوش الغازية على البلد بمجرد وصولها.. واجتمع بعض السادة ودخلوا على الملك البحر يسألونه عن سبب غزوهم .. فقال لهم بكل صراحة إنه جاء لينتقم لصديقه الملك خالد ومصرع أهل بيته .. وعلم كل أسماء المتمردين والقتلة لأسرة صديقه ، ووضع جوائز لمن يقتل شخصا منهم .. وشتت من تبقى من جيش المدينة إلى مدن أخرى .. وأخبرهم أن بلادهم لا يصلح أن يكون لها جيش لأنه جيش فتنة وصراعات .. وبعدما انتهت السيطرة على مقدرات البلاد .. أخذ الوزير هلال يفرق القبائل إلى مدن أخرى ..وخلال سنتين فقط .. قل عدد سكان المدينة .. فأمر الملك بدك قصورها ..ومنازلها .. وما مضت سنتان أخريان حتى أصبحت المدينة خاوية من السكان .. وحولت إليها مياه النهر ..فأغرقتها .. واختفت مدينة الماعز من الأماكن، ولم يبق إلا أشجارها ومزارعها ..فأصبحت تنتشر فيها سبخات المياه والحشرات ..وقد اختفت المنازل كلها ..ولم تعد مناسبة للحياة البشرية .. وكان الحرس يمنعون الناس من العودة إليها

بحد السيف .. ومع الزمن نسي الناس هذه المدينة التي أصبحت خاوية على عروشها بفضل خطة الوزير هلال .. واختفت صراعات أهل المدينة على الحكم والسلطان .. وتفرق أهلها بين القبائل الأخرى في بلاد أخرى .

وكان الملك خالد عندما يسمع بهذا يقول لأمه الملكة صيد : هذا أحسن حل لمثل هذه البلدة الظالم أهلها .

وكان الملك البحر الشيخ يقول لصديق عمره الوزير هلال : لنا أكثر من عشر سنوات لم نحمل سيفا ولم نغزُ بلدا .. كانت بلادا فاسدة ..أيها الوزير؟!

فرد الوزير : كان لابد من هذا الحل المؤلم .

قال الملك : لقد دنا الأجل أيـ ...

تمت بفضل الله تعالى حكاية ريح البحر



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

حكاية ريح البحر







الملك

ابن الراعي

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٧

جمال شاهين

٢٠١٢

الملك

ابن الراعي

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

الملك ابن الراعي


الملك
ابن الراعي

الملك مطر

فُتح باب القصر للأمير طل ، ولما دخل من الباب أخذ أحد الخدم الجواد للاصطبل بعد أن نزل الأمير عنه ، وكان يبدو للحرس والخدم والناظر أن الأمير شديد الغضب ، وفي حالة غضب وثورة ، وكان خادم آخر أعلم سيد القصر بمجيء الأمير طل لمقابلته ، فالتقى الرجلان في منتصف الدرب ، فرحب سيد القصر بزائره قائلا : أهلا بابن أختي الأمير طل .. يا مرحبا بكم مالي أراك غاضبا ؟!

قال الأمير بصوت ثائر : يا خال أريد رؤية الأميرة سيرة حالا .

هتف المنادى بالخال الأمير الشيخ : ويحك! تريد الكلام معها في مثل هذه الأيام .. ألا ترى كل هذه العيون ؟!

"نعم ، عندي كلام خاص بيني وبين الأميرة .. أرجو أن تسمح لي بذلك "

احتار الأمير الشيخ بالجواب ، ثم حسم تردده فالتفت لأحد الخدم الذين بين يديه " خذ سيدك للأميرة سيرة ، لابد أنها تحت إحدى الخمائل "، ولوح بيده إلى أحد الأماكن في حدائق القصر ، ثم استدار داخلا للقصر ، وقد كانت حليلته ترقب القوم عند الباب الداخلي ، فلما سار بجوارها وقد أحمر وجهه ضيقا فقالت بصوت واهن " ماذا يريد الأمير طل ؟!"

"يريد لقاء الأميرة سيرة .. وهو يعلم حق العلم أن الملك شقيقه خاطبني بشأنها .. وأنا أعلم أن بينهما بعض اللطف ؛ ولكنها لم تفكر به كزوج .. وأنا اليوم أرى النار تحت الرماد يا أم العماد"

قالت بوجل وقلق "منذ هلك الملك همام الرعاد ، والبلاد تشهد صراعا يثور ويكمن .. ربنا يستر"

" نعم ، ربنا يستر يا أم العماد ، فالملك ساخط جدا على شقيقه طل ، ويزعم أنه يراسل ملوكا لخلعه أو اغتياله ؛ ولذلك يريد أن يستفزه بالزواج من ابنتنا سيرة .. وأنا لا أستطيع رفض طلب الملك مطر .. "

"وهو في الحق خير لها ، وخير للبلاد والعباد من الأمير طل "

تنهد عميقا وقال: " إنهم أولاد أختي وأبناء الملك الهالك ابن العم "

فلما وصلا للكراسي الموجودة في البهو الكبير جلسا وقال الأمير الشيخ : الملك مطر يعلم هوى الأمير بالأميرة سيرة ، قلت له إن أختها كاملة جميلة .. قال "أريد سيرة حليلة لي " وكأنه أدرك مغزى الإشارة لأختها فقلت " سأفكر أنا وزوجي والبنت ".. فتذكرت حينئذ أن لا أولاد ذكور لي فدمعت العيون .. وتذكرت مهلكهم جميعهم .

همست : البركة يا سيدي في أبنائهم .

ـ ولكنهم صغار يا أم العماد .. من أمس وأنا أفكر بالحديث مع سيرة برغبة الملك .. وها هو الشقيق الأصغر جاء ليتحدث معها في نفس الأمر ، فقد كان راغبا بالزواج منها أيام حياة أبيه الملك الرعاد ، فقلت له حدث أباك برغبتك ، " فقال يا خالي النفس تهواها ، ولكنها هي مترددة غير متحمسة لي" ، فلزمت الصمت .. لو حدث هذا الزواج في عهد الملك الرعاد ، لما حدث هذا الصراع على البنت .

فقالت الأميرة: كان ابن أختك هذا هواه مع سيرة ابنتا ، وعقله مع ابنة الوزير بدر الزمان.. الوزير سيوصله لتخت الملك والعرش.. وها هو أخوه مطر سبقه إليها وتزوجها قبل وفاة الملك بأيام .. ووصل مطر للتاج بمشاورة الوزير والقادة.

رحبت الأميرة سيرة بالفارس طل ابن عمتها ، وشقيق الملك مطر ، فطلب منها صرف شقيقتها الصغرى والجواري ، فانصرفت الأميرة كاملة للقصر أو خميلة أخرى تصحبها خادمتها ، وابتعدت كذلك جواري سيرة بحيث يرينها ، ولا يسمعن حديثهما ، فلما عاد الصمت للمكان وقد كان الأميران يتبادلان النظر فقالت الأميرة : نعم ، ماذا يريد الأمير ؟!

قال بحدة واضحة في صوته : الملك يريدك زوجة .. هكذا كلم أباك ليلة أمس .. أقال لك خالي الأمير شيئا ؟

هزت رأسها بالنفي ، ثم أكدته بالقول : لم نجتمع بعد.. ولكني عرفت من الجواري والخدم .

ـ أنا أريدك يا سيرة حليلة دون أخي الملك .

تنهدت الأميرة الشابة وقالت : والملك !

ـ سأعترف له بحبي لك .

ـ وهل يصدق ؟! فقد رفضت عرض أبي وشاع ذلك .. وتطلعت إلى الأميرة بدر قبل وفاة أبيك الملك .

ـ كنت أفكر فيها كزواج مصلحة يا سيرة .. أنت تعلمين أنني أحبك وميلي لك

ـ لا أنكر هذا الميل .. ملت لي قديما .. ولم تر الزواج مني ذا فائدة لك .. وهمسك به دفع الكثير من الشبان للابتعاد عن طلب يدي.. وضعتني على الاحتياط .. أرجو أن لا تنسى هذا .

ـ تريدون الزواج من الملك ؟ .. فأنت تريدين أن تكوني ندا لابنة الوزير الأميرة بدر !

ـ لم أتخذ قرارا ، ولم يخطبني الملك لاتخذ القرار أيها الأمير .

قال بحزم وشدة : لن أقبل الكلام هذا.. أنت لي شئت أم أبيت .. صحيح أنني ترددت في الزواج منك .. كانت عيني على التاج قبل النساء .. كنت أريد أن أكون أنا الملك .. ارفضي ستكونين ملكة معي .

ـ اسمع إذا طلبني الملك كما تقول ، لا أستطيع أنا ولا أبي الرفض ، وأنت تعلم هذا .. فالرفض معناه إهانة للملك .. والإهانة مصيرها السجن أو الموت .

ـ مهما يكن من تخوف لديك ، ولو قلت لا سينتهي الأمر .

ـ بل سيغضب ، وأنت أعلم الخلق بغضب الملك وقد خبرته، ولولا شفاعة القادة لك لربما أنت اليوم تحت الثرى يا طل .

ـ أنت لي يا سيرة .. لا أريد أن أخسر كل شيء .. فإذا تزوجت الملك مطرا ، وصرت ملكا ، ستكونين خادمة لنساء الملك طل .. سأسترقك ولا أقبل شفاعة أحد فيك أبدا.

ـ أهذا هو الحب الذي تزعمه لي ؟! استرقاق

ـ هذا ما عندي .. ولسوف أصير ملكا رغم أنف الجميع .. لن تطول .. به الحياة .. لقد اتخذته عدوا .. إنني اكرهه ، وأحقد عليه الحقد كله .. سيموت أحدنا .. سلمي على خالي

ـ أنا أعرف عظم حقدك يا أمير طل منذ عهد بعيد .. تأكد أن الأمر كله بيد أخيك الملك وبيدك لا بيدي ويد أبي ، تحدث مع شقيقك.. هل يستطيع أبي الشيخ أن يرفض طلب الملك وهو خال الملك؟! .. وهل يصدق الملك أنني أرفضه ؟! فإذا كنت محبا لي كما تزعم دافع عن حبك أمام الملك ليس أمامي.. عندما كلمك خالك في شأني قلت تمهل يا خال نحن مقدمون على أيام عصيبة .. كنت أنت وأخاك تتنافسون أو تتصارعون على التاج حتى مات الملك الرعاد دون أن يختار أحدكما لاعتلاء عرش المدينة .

ـ أبوك لم يكن معه سلطة لأستقوي به في معركة العرش .. أبوك ضعيف .. ومعركتنا لم يكن فيها محل للجبناء .. فيها قتال وموت

ـ أبي فارس عظيم ! ولكنه كبير في السن .. كان خالك من سادة الفرسان في المدينة

ـ كان ، ولكنه اليوم شيخ هرم ربما لا يثبت على الجواد .

ـ وهو ابن عم الملك الرعاد .. أنت تحملنا فوق طاقتنا يا أمير طل .. تصالح مع أخيك .. تفاهموا على إدارة المدينة..

ـ لا داعي للنصائح .. أحببتك يا سيرة.. ولنتزوج قريبا ، ولو خفية ، كوني معي ، وستكونين ملكة

ـ ماذا أفعل؟! إذا رفضته ، سيهدر دمك الملك ودمنا جميعنا

ـ لديّ من الفرسان الكثير.. ووقت خلع الملك لم يحن بعد ، وإنما هو قريب .



نودي في المدينة خطبة الملك مطر للأميرة سيرة بنت غزال ، وأخذت المدينة تتزين وتستعد لهذا الزواج ، وغضب الوزير من فعلة الملك ، وطلب الإعفاء من الوزارة احتجاجا على هذا النكاح المفاجئ له ولابنته ، والملك لم يشاوره في هذه الزيجة ، وأظهر الملك عدم اهتمامه بهذا الضغط من قبل الوزير فخاطبه بقوله: هل الزواج على ابنة الوزير حرام ؟

قال الوزير بضيق بين : ليس حرام يا مولاي الملك .. وإنما زواج الملوك ليس كزواج السوقة .. ابنتي لم تلد بعد حتى تتزوج عليها .. يظهر أنك نسيت الجهد الذي بذلناه ؛ لتكون ملك المدينة والعباد دون أخيك طل .

قال الملك متصنعا الصبر: أنا لا أنكر أن زواجي من الأميرة بدر الزمان دفعك لتقف في صفي لأكون ملكا ، ثم لتصير ابنتك ملكة عندما تلد الذكر .. ولكن لها أكثر من سنة في قصرنا ولم تلد .. وأنت تعلم أيها الوزير أن ملكي سيبقيك وزيرا كما كنت لأبي الملك .. فالأمير طل يكرهك ، ويكره كل قبيلتك ، فمن مصلحتك قبل مصلحتي أن أكون ملكا .. إياك أن تنكر هذا .. لست غرا أيها الوزير .. وإذا كنت ترهب أن تلد الأميرة سيرة قبل ابنتك ولي العهد .. فهذا أمره إلى الله تعالى .. وليس ضرورة أن يكون البكر وليا للعهد .. فكر أيها الوزير ، ولا تتعجل بترك الوزارة .. فالكثير يشتهيها .

ـ ولماذا اخترت سيرة بنت غزال دون بنات الأمراء ..ألأنه عدو لي ولأسرتي ؟!

ـ لم أنظر هكذا يا وزيرنا .. أنا اخترتها لأنني لا أريدها لطل فقط

فكر الوزير قليلا وسأل: ولماذا كل هذه العداوة لطل ألأنه نافسك على اعتلاء سدة الحكم ؟!

اغتصب الملك بسمة سطحية ورد : هذا أحد الأسباب .. والأهم أنا لي هوى في ابنة خالي .

ـ ولماذا لم تنكحها في حياة أبيك؟! لأنك لن تصل للتاج لو تزوجت منها.. فتزوجت ابنة الوزير بهلوز لتصل للتاج .. دعني أقر لك بالذكاء والفطنة يا ملك مطر .. ولكنك تجهل قوة أخيك وحقده .

ـ لا يجب عليّ أن أنسى حقده وحسده وبغضه لي .. فهو يعتبرني الابن المدلل لأبي .. وأعلم أيها الوزير أن أبي الرعاد اكتشف تآمره على حياته قبل سنوات

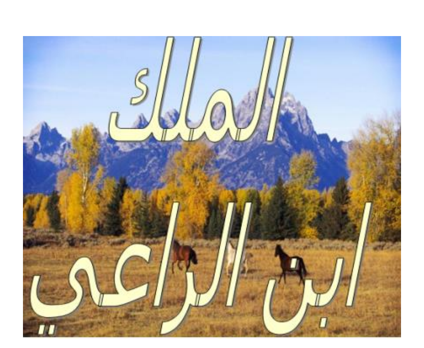
تظاهر الوزير بالدهشة وهتف : أكان يريد اغتيال الملك الكبير ؟!

ـ أجل أيها الوزير، وإن لم يشهر الأمر .. واعتبر فعله عارا كبيرا.. ونفاه بضع سنين .. ولولا توسلات أمي الملكة لما سمح له بالعودة للمدينة .

ـ كنت أظن أن ذلك تبريرا من الملك لنفيه .

ـ لقد كانت المحاولة الغادرة حقيقية .. وقتل فيها اثنان من الحرس المتآمر واعدموا في إحدى الغابات .. أراد أبي الملك كتم الأمر عن الجميع .. فهذا أول مرة يحدث أن يتآمر ابن على أبيه في تاريخ أسرتنا .. وأخي حي يرزق تستطيع أن تسأله عن صحة ما أخبرتك به الآن .. فكر جيدا بأمر وزارتك .. فالطامعون فيها كثيرون

ـ لا أريدها يا مولاي! كبرت سني ووهن عظمي .. ومكثت فيها طويلا .



هجرة الوزير

قد مضت أيام ثلاث ولم يصعد الوزير بهلوز ديوان الملك ، فحنق عليه السلطان مطر ، وأعلن خاله غزالا وزيرا للبلاد ، فضاقت وغضبت ابنة الوزير الأميرة بدر لعزل أبيها ، وطلبت الانفصال فلبى الملك رغبتها سريعا ، وسرع بزواجه من الأميرة سيرة ، وكان ذلك في ظروف غاضبة عاصفة .. وأثناء الاحتفال بالزواج خرج خفية من المدينة الأمير طل حانقا غاضبا ، وتضايق الملك من هروبه ولام الرجال الذين وضعهم لمنعه من الهرب بحجة حمايته .. ولكن الأمير لما أعلنت الخطبة في المدينة رتب مع أعوانه أمر الاختفاء ، فلما تيقن للملك هرب شقيقه من المدينة أمر بمصادرة أمواله وقصره وبيع خدمه وعبيده ، ثم جاء الخبر الصاعق باختفاء الوزير المعتزل بهلوز وابنته وسائر أسرته .. واضطربت المدينة مما دفع الملك لإجراء تغييرات في القادة والعرفاء والحراسات ، وساد شعور بأن البلاد مقبلة على صراع داخلي بين العباد .. فهم يعلمون أن للوزير قبيلة وأعوانا ، وأن لأخيه أيضا مناصرين وأعوانا .. فوزيره المعتزل قضى جل سنوات عمره وزيرا فهو قد ورث الوزارة عن أبيه .

ولكن الملك مع الوقت نسي المخاطر المحدقة بعرشه ، وكان يقضي أكثر وقته ـ بعدما أعاد ترتيب الأجناد والحرس والولاءات ـ بين قصر النساء حيث زوجته سيرة ، وبين وديان الصيد في أطراف المدينة ، واعتمد كثيرا على وزيره غزال وقائد الجيش الفهر في حكم وإدارة المدينة .

ولدت سيرة في السنة الأولى من زواجها مولودا ذكرا ، سعد به الملك والأصدقاء وسماه ضرغاما وخلال أسابيع من بعد الولادة توجت الأميرة ملكة على المدينة ؛ لأنها أنجبت الولد الذكر للملك .. وزاد حب الملك لها ، واتخذت مكانا في ديوان الحكم .. وهي قد ارتفع حبها للملك بعد ولادتها لولي العهد .. وأخذت تظهر بديوان وقصر الحكم أكثر من الملك لغرامه الثاني بالصيد في الصيف والشتاء .. وقد اختلطت بقادة وأمراء الحكم ، ووجد القوم أن الملكة قديرة على إدارة الأمور وفهم الناس .. كان مطرا سعيدا بها يسمع عن رجاحة عقلها وحبها للناس والأمة ، وإنها أعطته بفضل الله وريثا للعرش وامتدادا لعمره وحكمه .

قد اعتادت الملكة سيرة قبل زواجها أن تخرج لأطراف المدينة حيث المراعي الكثيرة والخصبة والممتدة ، حتى أن الرعاة من المدن المجاورة يترددون عليها في موسم الصيف والخريف.. فقد كانت تذهب لتلك المراعي صيفا وشتاء .. وكانت تذهب بصحبة جواريها ، فينصبن له عريشا تجلس بها وقتا يسيرا ، ثم تقفل عادة لقصر والدها قبل الغروب أو معه .. وخلال ترددها لتلك الجبال والغابات الخصبة كانت تلتقي برعاة من مدن أخرى ، تتسامر معهم وتعرف أخبار ملوكهم ومدنهم .. وتهديهم الطعام والفواكه ..وأحبها الرعاة للطفها وسماحها لهم بالجلوس معها .. وكان راع اسمه جدي من أفضل أصدقائها الرعاة ، وهو شاب دون الثلاثين ، وكان يفرح ويسر بقدومها ومصادفتها ، ويقدم لها وصحبتها اللبن وأحيانا اللحم المشوي .. ، ويُكن لها الاحترام والشكر والحب ويتكلم عنها بكل تقدير وإعجاب .. وهو راع لمدينة تبعد مسيرة يومين عن بلاد الملكة سيرة .. ولم يكن بين المدينة التي يعمل لأهلها راعيا ، ومدينة الملك مطر صراع وقتال ليخشى على نفسه وأغنام الناس الذين يرعى لهم .

ذكرنا صداقة الأميرة سيرة للراعي جدي لأهمية هذه الصداقة فيما بعد في سياق هذه الرواية .

وذكرنا أن الملك مطرا استقر له التاج ، واختفى الوزير بهلوز الذي ساعده في أن يكون ملكا دون أخيه لأن الملك الرعاد لم يعين خليفة له ، ولا وليا للعهد ، وقد تزوج مطر ابنة الوزير لتحقيق هذا المأرب .. وذكرنا اختفاء طل غاضبا حاقدا على شقيقه ، وكل من ساعده للبقاء ملكا وسيدا للمدينة الكبيرة ..

عاد الملك مطر لصيده وقنصه لما غمر الهدوء البلاد .. ولما توجت سيرة ملكة أصبحت هي التي تدير أمور المملكة برفقة والدها وقائد الجيش الفهر .. واستمرت حركة التجارة من المدينة وإلى خارجها دون عوائق.. ونعم الناس بفترة راحة وسكون ..

وكانت رحلات صيد الملك تقصر وتطول ، فأحيانا يخرجون لأماكن الصيد مع الفجر ويعودون مع هبوط الليل .. وتارة يبتعدون في صيدهم يوما كاملا أو أكثر ، ويصحبه في الصيد

البعيد خواصه وأصدقاؤه قبل اعتلاء العرش ، ويصحبهم الطهاة والخدم والجواري للتسري .. فقد كان ساريا بين الأمراء التسري بالجواري ، ولا ترى فيه الأميرات والملكات غضاضة من قدرهنّ عند أزواجهنّ وأهليهنّ .. وكانوا يتجنبون ولادتهنّ .. فهم يأنفون أن يلدن لهم بنين وبنات ويستعرون من ذلك .

وكانوا يصحبهم في الرحلات الطويلة سوى فريق الصيد والكلاب المغنيات من الجواري ؛ ليقضوا سهرات ممتعة بعد عودتهم من مطاردة الظباء والوحوش في البراري والغابات .. ولقد كان من الأماكن المفضلة لصيد الملك غدير يسمى غدير الدم ، زعموا أنه سمي بذلك الاسم لمقتل عدد كثير من الناس عنده قبل عشرات السنين .. وهو يبعد عن بلاد الملك مطر مسيرة أربعة أيام .. فكان الملك يطيب له الصيد عنده قبل تملكه العرش ؛ لأنه محاط بغابات من جهة وصحراء قاحلة من جهة أخرى .. والغدير الغزيز بالماء بينهما .. وكانت الوحوش تزور مكان الغدير للشرب والاستراحة في ظلال أشجاره ومسيل مائه .

قضى الملك والحاشية عشرة أيام في تلك الأرض ، فصادوا وطاردوا وأكلوا وسمعوا الشعر والغناء ، واتفقوا على العودة خلال يومين أو ثلاثة .. فقد كان المكان جميلا وشهيا .

وكان في وسط الخيام والمعسكر الصغير خيمة كبيرة للسهر والسمر وأكل الشواء .. وقبل العودة والقفول سمع صوت نباح الكلاب بشدة ، واستمر النباح عاليا دون رؤية وحوش تقترب من الغدير .. وتحدث أحد الأمراء : أيعقل أن الصيد علم بموعد رحيلنا واقتربوا من الغدير لتهتاج الكلاب الصيادة ؟!

فقال آخر مجيبا أو مبررا : قد يكون صيادون يقتربون من المكان ، وهم زاحفون نحو الغدير ، فالكثير من أمراء وسادة الصيد يحبون هذا الغدير .. وهل هؤلاء أصدقاء أم أعداء ؟

فقال الملك : أو لا يعرف هؤلاء أننا نخيم هنا ؟!.. فلنا أكثر من عشر ليالي نرتع بخلينا وكلابنا هنا .

فقال أحدهم : أنبعث طلائع أيها الملك ؟

فرد آخر : لم يبق إلا ساعات ، ونغادر المكان أيها السادة .. اقترب الفجر .. ألا تنامون ؟

ـ سوف ننام ، والكلاب لا تريد النوم ، ويزداد نباحها ..

ـ هل نوقظ المغنيات لإكمال السهرة حتى الفجر ؟

فقال الملك : لا داعي لذلك فقد تعبن أول الليل ..وإن قد يخففن عنا من نباح هذه الكلاب فليعد شاعرنا ينشد لنا أشعار الفوارس العرب

استدعي الشاعر من خيمته من جديد ، واخبروه برغبة الملك .. فعاد ينشد أشعارا لفارس الجاهلية عنتر بن شداد ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ودريد بن الصمة .. حتى غلب القوم النوم فانسل الشاعر إلى خيمته .. ونام الملك في خيمة السمر والطرب .

ولما هجم الفجر أحاطت بمعسكر الملك جنود إحدى المدن ، وقتلوا الكلاب والحراس ، وهجموا على المعسكر يفتكون بكل شخص وجدوه فيه .. ولم ينجُ من المذبحة سوى بضع جوار كن خرجن لقضاء الحاجة بعيدا عن المعسكر .. فلما سمعن الصياح والصراخ وصهيل الخيل أدركن أن خطرا داهم المعسكر فرعبن واختبئن حيث هنّ ، وشاهدن آثار المأساة القاتلة.. ولما أشرقت الشمس انسحب المهاجمون ، وقد استولوا على أموال المعسكر من خيل ودواب وسلاح ولما اختفوا تسللت الجواري للمعسكر المهدم .. ورأين بعض الجرحى يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، ولم يستطعن تقديم شيء لهم .. ولما وصلن لخيمة الملك وجدنه مضرجا بدمه ، وقد قطع رأسه هو ومن معه في الخيمة الملكية .



إخفاء الأمير

وصلت رسالة من الأمير الهارب طل للوزير غزال يخطره فيها باغتيال الملك مطر وكل من كان معه في غدير الدم ، وأنه زاحف للبلاد لاستلام كرسي الحكم سلما أو حربا ، وعليهم الخضوع حقنا لمزيد من الدماء والقتلى .

صعق الوزير للخبر ، وأرسل الخطاب لقائد الجند الفهر ، فاسترجع القائد واستعاذ من الفتن وأرسل حملة إلى غدير الدم ، ولجلب الجثث خاصة جثة الملك

ولما علمت الملكة سيرة بالجريمة المرعبة أغمي عليها لهول الخبر ، ولما أفاقت من شدة الصدمة واستوعبت الكارثة أمرت خدمها بتجهيز جوادها ، وزعمت لهم أنها ذاهبة لقصر الحكم .. وخرجت من القصر ، وقد صحبت خفية طفلها الصغير الذي لم يبلغ سنتين .. ولم تذهب لديوان الحكم مباشرة إنما مشت نحو المراعي حتى وصلت إلى الراعي جدي وحسب خطة بينتها له.. فكلفته بأخذ الطفل ابنها ورعايته والمحافظة عليه والزعم أمام الناس بأنه ابنه .. وعليه أن يتزوج في إحدى القرى ويدعي للخلق أنه ترمل ، وتركت له الميتة ابنا ، فهو بحاجة للزواج .. ودفعت له صرة من المال والذهب ، ورسالة كتبتها لابنها إذا كبر .. ولما استوعب الشاب الراعي القضية .. تعهد لها بفعل ما طلبت منه ، وأن يرعى ابنها حق الرعاية ويفعل ما فصلته له ، وأقسم لها على ذلك ، وغادر المكان على أن لا يعود إليه قبل أن يشب الطفل .. وألا يكشف أمره للناس إلا عند موته وعند قدرة الطفل على تحمل المسؤولية .. وظلت تراقبه حتى غادر المكان بالطفل والأغنام .

ولما اختفى الراعي جدي قالت وهي تعود أدراجها " سلمت أمري لله .. حفظك الله يا ولدي يشهد ربي أنني لم أتخل عنك إنما حياتك في خطر شديد أنا أعرف الناس بعمك الخائن الغادر " دخلت الديوان وجلست مع الأمراء والسادة ، تتقبل تعازيهم ومواساتهم ، وهم يعتقدون أنها أقبلت من قصرها بعد أن هدأت نفسها ، ودار الحديث حول رسالة التهديد المرسلة من طل .

أحضرت الجثث بعد أيام ، ووصلت معها الجواري الناجيات ، وتحدثن عن فظاعة الحادثة

والجريمة الغادرة ، وإن جنود إحدى المدن هم الذين قاموا بالغدر بمعسكر صيد الملك مطر في آخر الليل .. وصدمت الملكة والأمراء بالجريمة من جديد .. وارتفع البكاء بين النساء والرجال وزاد التوتر والاضطراب والسخط ، واشتد الغضب على الأمير طل .. وتعهد عدد من الفرسان بقتله والانتهاء منه .. وأعلن استمرار الحداد.. وصمم الأمير الفهر على القتال حتى الانتقام والثأر للأمراء وعلى رأسهم الملك البطل مطر .

دفن الملك في مشهد حزين باك حيث دفن آباؤه وأجداده ، وأخذ قائد الحرب يستعد لملاقاة الأمير طل ومنعه من الاستيلاء على كرسي الحكم .

وورد لهم خطاب آخر يخبرهم فيه أنه أصبح على طرف البلاد بجيش عرمرم يقوده (الملك شجاع) وعليهم الاستماع لصوت العقل أو الحرب .

فقال قائد الجيش الفهر : علينا أن ننصب ابن الملك ملكا للبلاد .

فقال غزال : إنه وليد رضيع أيها القائد !

ـ أعلم هذا ، ننصبه ملكا ليلتف الناس حوله ، ونشكل مجلس حكم نائبا عنه لإدارة المعركة .. لأننا لو وضعنا سيدا من غير أبناء الملوك قد يفترق الناس عنا ويضعف حماسهم لتحمل تبعات الحرب والدماء .. والملك كما تعلمون لم ينجب إلا من الملكة سيرة ابنهم ضرغام .. وملكنا الرعاد لم يترك لنا إلا الملك المقتول مطر والأمير طل ..

فاقترح أحدهم تنصيب عم الملك مطر الأمير "سباق".. ولما احضروه للمشورة اعتذر بكبر سنه ، وعدم رغبته بهذا المنصب .. وبعد تشاور جديد رأوا الأخذ بكلام قائد الحرب الأمير فهر ولما ذهبوا لقصر النساء علموا أن الأمير قد اختفى منذ أيام .. وأنهم يشكون بأن إحدى الجواري الخاضعات للأمير طل هربت به .. وبحثوا عنه دون فائدة .. واستغرب غزال ذلك ، وتحدث مع الملكة سيرة عن صمتها بالإخبار عن اختفاء وليدها .. فقالت بغموض : لما نقل لي خادمك خبر الفاجعة أغمي علي لساعات ، ولما أفقت جئت للديوان ، ولما عدت أخبرت باختفاء الأمير فبكيت كما تبكي النساء على فقد ابنها .. ووجدت جارية قد اختفت

ـ لم يفعلها إلا طل حتى يسلم له العرش .. عوضك الله خيرا .. مصيبتك بالملك أصعب من ضرغام .

وشاع الخبر أن الأمير طل وراء الخطف للأمير بمساعدة الجارية المختفية .. وأنه الآن في عداد الموتى .. وشاع أيضا أن الملكة سيرة أخفته في مكان سري خشية على حياته .. كثرت الإشاعات لأن الجارية التي أشيع هربها به .. قتلت في حادثة غدير الدم.. ولم يهتم الأمراء بقضية اختفاء ضرغام لهول مصيبة مصرع الملك ، وانشغالهم بالحرب القادمة .. وبعد تفكير جديد ألزموا الوزير غزالا خال الملك وابن عم الملك الرعاد ملكا على البلاد لحين انتهاء القتال والانتقام .

وأخذت الرسل تتردد بين الأمير القاتل ، وقادة المدينة ، وجرت بينهم معارك لم تحسم الأمر لأحد الفريقين.. ثم استعان طل مرة أخرى بجيش أحد المدن لمؤازرته مقابل أموال سيدفعها لهم بعد النصر .. واستطاع بمساعدتها السيطرة على البلاد وأن يعلن نفسه ملكا بالقوة والغصب وقد اضطر سادة المدينة التفاوض والاستسلام وطلب الأمان من الملك الحليف شجاع .. لعجزهم عن الدفاع عن مدينتهم أمام تكالب الخصوم .. وكانت المفاجأة لأهل المدينة عودة الوزير الهارب بهلوز وابنته بدر للمدينة متحالفين مع الملك طل .. ثم إشهار زواجهم بعد أيام من استلامهم الحكم .. وعادت سيرة لبيت والدها ، وقد حصلت مثل سادة المدينة الآخرين على الأمان من الملك شجاع .. وتفاجأ الملك طل بضياع ابن أخيه يوم مصرع أبيه أو بعده بأيام وأنه المتهم بخطفه ، لم يعر القضية اهتماما كثيرا ، وبعد وقت يسير نسي الطفل المفقود.

الراعي جدي

تربع الأمير طل ملكا على البلاد بعد تحالفه مع الملك شجاع ، وقد حالفه الوزير بهلوز ، وتزوج الملك من ابنته التي طلقها أخوه المقتول .

انزوى الوزير غزال في قصره مع ابنته سيرة وكاملة التي كانت تزوجت من أحد الأمراء بعد زواج الملك من شقيقتها ، وأحفاده من أبنائه الذي ماتوا قبل أحداث هذه السيرة ، .. نتركهم يعيشون حياتهم ونتحرك إلى الطفل الرضيع ضرغام والراعي جدي .. وابتعد كثيرا عن مدينة الملكة سيرة .. ووصل أطراف إحدى المدن ، واتصل ببعض الرعيان الذين يعرفهم في أيامه الماضية ، وأخبرهم أنه ترمل، وتركت له زوجته رضيعا ، فيسعى للنكاح من أخرى من أجل ابنه الرضيع .. فتطوع أحد الرعاة إلى إرشاده إلى رجل فقير الحال ، لديه صبايا يصلحن للزواج وساقه إلى تلك القرية التي يعرفها ، ورحب بهم الفلاح الفقير ، ولما فهم الغاية من مجيئهم إليه ازداد سرورا بهم ، وقد أشفق على الطفل الذي ماتت أمه ، وتحمس لتزويج إحدى كريماته للراعي جدي ، وعرض الرجل المزارع الأمر على بناته ، فقبلت به فتاة اسمها " جديلة " .. وتزوجها على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .. وتقبلت جديلة الطفل بصدر رحب وحنان فياض.

وتركها الراعي بعد حين لرد الأغنام لأصحابها ؛ ليعود للبقاء معها في تلك القرية .. وكان له عدد من الأغنام تجمعت له خلال سنوات الرعي ، فتركها عندها وعند والدها وأشقائها حتى يعيد الأغنام لأهلها .. فغاب أشهرا وهو يفرقها على أصحابها .. ولما رجع عاد بقطيع منها ، وهبه إياه أصحاب تلك الأغنام الذين اثنوا على أمانته وحسن خدمته لإنعامهم.. ولما دخل القرية وجد امرأته قد وضعت له طفلا ، فغمرته السعادة ، فسماه محسنا ، فهو قد أصبح والدا حقيقيا .. واشتغل بالزراعة ورعي غنيماته .. ومع الوقت أصبح من أهل القرية .. وولدت له جديلة طفلة سماها سيرة على عجب من زوجته وأهل القرية ، فهذا اسم غير شائع في قريتهم والقرى التي حولها .. فظنوا أنه اسم لأمه أو قريبة له .. وظنت زوجته أنه اسم أم الطفل وليد

ولما بلغ الطفل خمس سنوات تعلق بحب الخيل .. وركوبها .. فعجب جدي لهذه المحبة ، واشترى له فلوا صغيرا من أحد رجال القرية الذين لهم عناية بالخيل .. ففرح به وليد ومحسن ، وهجروا اللعب على الحمار الصغير .. وكان وليد محبا لأخويه حبا كبيرا رغم صغره .. فلما رأى الجدي حب الولدين للفروسية أرسلها للمدينة للتدرب في مدارس الفرسان .. فتكفل بهما المدرب نهمان بن زولان ، وهو من أهالي القرية قبل الرحيل للمدينة والعمل مع جند الملك فلما كبر سنه ففتح مدرسة لتدريب الفرسان .

وأخذ يربيهم ويدربهم مع فتيان المدرسة .. فتعلما ركوب الخيل بشكل جيد ومقبول بالنسبة لسنهما الصغيرة.. وعلمهم قبض السيف والرمح واللعب بهما .. وقضى ولدا جدي أربع سنوات في التردد على المدينة في التعليم والتدريب حتى بلغا خمسة عشر عاما.. فعادا للقرية للاستقرار الدائم ، وأصبح لكل واحد منهم جواد .. فكانا يقضيان يومهما في المسابقة على الجواد واللعب بالسيف والطعن بالرمح ، واشتد عودهما وعضلاتهما .. وأحبا الصيد في أطراف القرية كسائر الفرسان الذين يعشقون الصيد ومطاردة الطير والوحش .. وأثناء وجودهما في المدينة تعلما بعض الكتابة والقراءة .. ولما بلغ جدي الخمسين سنة بقليل ، ووليد عشرين سنة .. شعر بأن الوقت قد دنا لاطلاع وليد على سر مولده .. فتشاور مع زوجته جديلة وكشف لها السر الخطير ، فدهشت الفتاة لهذا السر الخطير ، وعجبت أن ربت ابن ملك في حضنها وبيتها .. وبعد هذه الاعتراف الخطير بسنة مات الراعي جدي ، وحزن عليه القوم ، وذرفت جديلة الدمع على بعلها الذي قضت بصحبته أكثر من عشرين سنة .



أخبر وليد زوجة أبيه جديلة أن والدها يحثه على الزواج ، وقد كرر ذلك مرات فقالت له : وأنت أراغب بالنكاح ؟

فقال : إني حائر يا أمي ! لا أدري لماذا يضيق صدري عند ذكر الزواج ؟! ولا أجد تعليلا لذلك ! مع أن ذلك مهوى الشباب والفتيان من قبل هذا السن .

قالت : أحب يا ولدي أن أراك زوجا ؛ ولكن والدك كان يحمل لك سرا كبيرا.. هل تستطيع يا

ولدي أن تحمله أم أنساه ؟

ـ لم أفهم يا أمي ؟!

ـ حملني زوجي قبل موته سرا وحملا ثقيلا لك ..أتحب أن تسمعه أم تصبر لحين آخر ؟

ـ شغلتي قلبي وفؤادي يا أماه !

ـ حسنا ، يا ولدي يبدو أن الوقت حان لأكشفه لك .. لتجري حياتك بها تختار ويقدر لك .. غدا سأخرج معك للمرعى لنتكلم في الخلاء .. كن في المرعى وسألحق بك بالزاد ..

ـ الخطب كبير يا أماه !

ـ نعم ، بل كبير جدا .. أمانة تركها في عنقي زوجي جدي .. كن رجلا يا وليد .. فأنت اليوم أهل لتحمل الأخطار والأعباء.. وبعد معرفة السر العظيم المحيط بك تفكر بالزواج بقوة .. أريد أن يكون كلامنا في الفضاء الطلق .. سأرسل محسنا للمدينة غدا .. وسألقاك حيث تحب الرعي .. فمولدك يحمل خبرا هائلا .

نظر في وجه أمه قلقا وهمس : سر مولدي .. وهل لمولدي سر يا أماه ؟

ـ أجل ، غدا ستعرف المخفي يا ولدي .. اذهب ونم .. قبل رجوع محسن وسيرة من بيت خالها اذهب ستبدأ حياتك منذ سماع السر .

غادرت جديلة منام الأمير الذي يجهل أنه أمير وابن ملك ، مشت لحجرتها ، وهي مشغولة في الخطر الذي يخيم على ولدها وليد الذي احتضنه صغيرا ، واهتمت به وربته على أنه ابن لزوجها وفجأة وجدت نفسها قد ربت أميرا وابن ملك مات غدرا وغيلة .. فقال لها والدها الذي يعيش بجوارها .. وينام في بيتها بعد ترمله : أكنتم تتحدثون عن الزواج ؟

ـ مسكين ولدي وليد !.. أمامه حمل ثقيل يا أبتاه ؟

ـ مسكين كيف مسكين ؟!

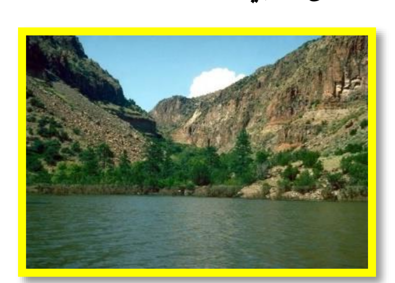
ـ قريبا ستعلم لماذا هو مسكين؟ .. حدثني أنك ترغبه بالنكاح من بنات القرية

ـ ذكرت له ابنة شقيقك جمل .. فهي فتاة أهل للزواج والحمل .

ـ حمامة ؟ كنت أفكر بتزويجها لمحسن يا أبي فقد حدثتني أمها بذلك .. ومحسن يرفض الزواج قبل أخيه الأكبر .. غدا سيكون تغيير في مجرى حياة وليد .. وربما حياتنا كذلك يا أبي!

ـ أنت تخفين سرا خطيرا ؟

ـ أجل يا أبي .



أرسلت جديلة ابنها محسنا للمدينة ليبيع السمن والجبن واللبن لأهل المدينة ، ويبتاع لهم بعض المواد ، وهذا كان أمرا معتادا بين الحين والآخر .. وأحيانا يمر عليهم تجار لشراء هذه المواد .. وعند الظهيرة أخذت جديلة صرة طعام إلى المرعى الذي يرعى به وليد ومحسن عادة .. وهو قريب من أرض تملكها جدي ليزرعها بالحبوب والأشجار .. ووجدت وليدا متكئا عند شجرة وحوله أغنامهم .. رأته وهو ينظر في عنان السماء .. فلما اقتربت منه سلمت عليه ، وجلست قربه وفتحت له الصرة ، ودعته ليأكل طعامه وقالت : كل قبل سماع الكلام .

أخذ بالأكل ما أحضرت له زوج أبيه ، وهو صامت ، وكان متشوقا لمعرفة سر مولده والكلام الغامض الذي باحت به أم محسن ليلة أمس .. أكل بعض الطعام وتوقف عن الباقي ، وشرب ماء ، وأغلق صرة الأكل وقال : النار تشتعل في قلبي يا أمي !

ـ اعلم يا ولدي الحبيب .. أن زوجي جدي ليس بأبيك .

ـ أدركت ذلك ليلة أمس .. من يكون أبي ؟!

ـ أبوك يا وليد ملك عظيم ! مات مقتولا وغدرا .. فاضطرت أمك التي لا أدري أهي حية ترزق أم ميتة تحت الثرى ؟!.. أن تدفعك للراعي جدي ، ويزعم أمام الناس أن أمك ماتت وأنه ترمل.. وجاء قريتنا بهذه الصفة وهذه الحكاية .. وتزوجني وأنت ابن سنة وشهور .. وصدقنا أنك ابن الراعي .. وعشت بيننا على أنك ابن الراعي من امرأة هلكت ، وقبل أن يموت بسنة اخبرني أنك ابن الملك مطر ملك مدينة (همام الرعاد) وأن أمك ملكة تلك البلاد اسمها الملكة

سيرة ، ومن أجل ذلك سمى شقيقتك على اسم أمك الملكة .

بعد صمت قد طال بينهما قال: أعلمت من قتل أبي ؟

ـ عمك.. عمك قتل أباك ، وصار ملكا على البلاد والعباد كما أخبر أبوك بالرعاية جدي ، وظل مولدك خفيا لأنك الابن الوحيد للملك مطر .

وقصت عليه قصة غدير الدم كما أخبرها بها جدي ، وكما سمعها من الملكة سيرة .. وسمعها فيما بعد من الرعاة والركبان .

ـ عمي القاتل !

ـ نعم ، عمك غدر بأبيك .. فلما علمت أمك بالخبر خشيت على حياتك ، وكلفت جديا الذي كانت تعرفه راعيا قرب بلادكم بتربيتك والاعتناء بك حتى تبلغ مبلغ الرجال وتختار ما يناسبك .. وكان جدي لا يرغب لك بالزواج حتى تعرف نسبك وأن الأمراء ينكحون الأميرات وبنات الملوك .. فهذا الذي كان لا يشجعنا على تزويجك من بنات القرية في حياة أبيك الراعي ، وبعدما حملني الأمانة والعهد

أخذ الشاب يد أمه وقبلها بامتنان وقال: أنا مدين لك ولأبي جدي .. كنت وأنا صغيرا ألمح في عينيي أبي جدي كلاما يكاد أن يهم بنطقه ثم يقف.. وأرى حزنا .. كنت أعجب منه وأقول لنفسي .. لما الحزن في عينيي أبي عندما يرقبني .. رحم الله والدي جديا ..

ـ تركت أمك لك مالا ورسالة .. وشجعك جدي على الفروسية ، وحببها إليك على قدر الإمكان حتى لا يلفت إليك الأنظار ..

ـ رحمه الله .. عليّ الآن البحث عن أمي ..

ـ أخبرني والدك أنه لم يسمع أنها ماتت .. ولم يسع إلى لقائها لأنها هي طلبت منه ذلك .. وإنها عندما تريدك ستبحث عنها .. وذلك إذا زال الخطر

ـ سأجد أمي بإذن الله تعالى

ـ أو أن تبقى معنا حتى تجدك أمك ..

ـ لا يا أماه ! .. لا تهمني الحياة بعد اليوم .. عليّ أن أجد أمي وأنتقم لدم قتيل غدير الدم .. هل بقي ذلك العم على قيد الحياة لليوم ؟

ـ لا أعرف ، أخبر والدك أن صراعا عنيفا جرى على كرسي الحكم

ـ عليّ بالرسالة ..

ـ نعم يا ولدي.. وأعلم أنك كنت تسمى بالأمير ضرغام عند أمك

ـ أمير ضرغام .. سوف أكون ضراغما يا أماه! .. حانت ساعة الثأر لدم غدير الدم .. وليبق ضراغما مخفيا .. أنت أرضعتيني يا أماه ..

ـ قليلا ، رضعت من لبن الشاة ، عندما جاء بك جدي كنت رضيعا من أمك الملكة .. لأنني لم أكن ولدت بعد ، والرضاعة تأتي مع الولادة .. لكن مع ولادة محسن كنت أسمح لك بمص الحليب في بعض الأحيان .. أختي سهيلة أرضعتك مرات عندما جئت إلينا رضيعا .

كتاب الملكة سيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

ولدي قرة عين أمك

إذا عشت لتقرأ هذا الخطاب فاصفح وأعفو عن أمك

كان لابد يا ولدي أن أتخلى عنك لتحيا ، وأخفيك عن الخطر المحدق بحياتك ، ولا تفعل الأم ذلك إلا مكرهة مضطرة .. فحياتك هامة بعد مجيء خبر مقتل أبيك غدرا في غدير الدم .

بعدما أفقت من صدمة تلقي الخبر أدركت أن حياتك في خطر ، لن يبقي عمك عليّك حيا .. فتذكرت صاحبي الراعي جديا ، وأنه خير من يحفظ حياتك في هذا الحين .. فقد عرفته قبل زواجي من أبيك عندما كنت أذهب للتنزه حيث المراعي القريبة من مدينتنا ، وكان شابا شهما طيبا وشجاعا.

فعندما ذهب الخدم لإعداد جوادي لأذهب إلى ديوان الحكم حيث إني ملكة للبلاد .. كتبت لك هذه الرسالة .. ووضعت بعض الجواهر والمال في جراب .. وأخذتك خفية عن أعين أهل

القصر تحت عباءتي السوداء الفضفاضة.. وذهبت بك للمراعي .. وحمدت الله أن وجدت جديا ما زال هنالك ، لم يغادر المراعي بعد.. فكلفته بمهمة رعايتك بالخطة التي تفتق ذهني عنها .. وأن يزعم أمام الخلق أنك ابن له ماتت أمه ، وتركتك عنده حتى لا يفتش أحد عن الحقيقة .. لأن عمك سيعمل على قتلك ، ما دام قتل أباك ويطمع بعرش المدينة .. وهو ليس من رعاة بلادنا ليشك فيه ، ويؤتمن على ابن الملك الميت ظلما .. ولما تكبر وتعرف حقيقة مولدك عليك أن تسعى لمعرفة الحقائق ، وتسعى لأن تكون ملكا .. لأني أرى أن عمك بمعاونة الخونة سيكون ملكا للمدينة الحائرة .. وعليك بالثأر من قتلة غدير الدم .. فإذا كنت باسلا ومحبا لوالدك فلا تنس دمه .. الثأر .. الثأر .. أنت صاحب العرش حقا .. عمك مغتصب .. فإذا وجدته حيا عندما تبلغ مبلغ الفرسان فأنت الملك الحقيقي لنا .. عليك أن تكون ملكا .. كما كان أبوك ملكا وجدك ملكا .. أمك المحبة لك ولحياتك .. عسى أن نلتقي يا ولدي إذا مد لنا في العمر .. قد فرق بيننا عمك المجرم القاتل الغادر اللئيم .. قتل أباك وهو نائم في الصيد .. قتله كما يقتل الجبناء خصومهم .

بكى وذرف الدمع خلال القراءة وبعد القراءة وقال " أرجو أن يبقى الأمر سرا يا أماه .. سأخبر أخي محسنا فحسب حتى يعرف سبب فراقي لكم ، ولا يتشتت ذهنه .. فنحن أخوة يا أماه .. سأنتقم يا أمي لك ولأبي "

اطلع محسن على النبأ بدهشة ومفاجأة وقرأ الرسالة واحتضن أخاه وقال " سنبقى أخوة يا أخي الأكبر وأنا شريكك في الانتقام ، ولن أتخلى عنك حتى تحقق ثأرك أيها الفارس الشجاع

ـ لا أعرف كيف سيكون انتقامي يا أخي الشجاع ؟ .. وأحب أن تبقى عند أمك وجدك حتى ارجع من زيارة تلك البلاد .. لقد فكرت بشيء لأنظر تلك البلاد .. سأجعل من نفسي راعيا صغيرا كما فعل أبي جدي ـ رحمه الله ـ والدك العزيز البطل الشجاع .. فهو عندما قبل حضانتي كان شجاعا ، وكانت حياته على كف عفريت لو تسرب خبر ولو كان كذبا لصرعوه

فقال الجد الذي أيضا كان ذاهلا من حقيقة وليد : دم الملوك يسري في دمك يا ضرغام .. كانت

نشأتك لا توحي بأنك ابن راع .. سبحان الله ! .. الانتقام يا ولدي يحتاج لذكاء .. كنت عندما أحدث والدك بعد عودتك من المدينة ، وقد نلت حظا من الكتابة والفروسية قائلا حان موعد زواجه يا جدي .. فيبتسم ويجيب " ليتني أستطيع ذلك ، أمامه شأن كبير ".. اليوم فهمت هذا الشأن الانتقام .. فكرة الرعي قرب بلادكم فكرة بريئة فعليك بها .. والزم الحذر فأنت لم تخبر الحياة والقتال .

أقسم محسن على مرافقته في حياته ، الحياة معا أو الموت معا .. فباركت الأم شهامة ونخوة ابنها وقالت " هذا قدرنا .. فاقبل صداقة محسن يا وليد يا ابني "

عاد وليد يقبل أمه وقال: " هذه تضحية كبيرة يا أماه "

ـ توكل على الباري في علاه

ـ اكتموا الأمر .. إنما نحن أبناء جدي ذهبنا في مهمة رعي لمناطق أبعد .

بعد عشرة أيام من المسير بمائة رأس من الغنم وصلا أطراف المدينة .. وحيث المكان الذي عرفا أن جديا كان يرعى فيه وضعا رحالهما .. فكان واديا خصبا وجبالا مليئة بالغابات الخضراء .. وعيون المياه متوفرة في المكان .. وعدد كثير من الرعيان والغنم والإبل والثيران يعمرون فيه .. كانت المراعي عامرة .. وخلال أيام قضياها في الودي أصبحا على معرفة بالمكان والرعيان أو عدد منهم .. بل وجدا راعيا يعرف أباهم الراعي جديا منذ أكثر من عشرين سنة .. وما زال يذكره .



سعد الراعي الشيخ بأولاد الراعي جدي ، وترحم على صديقه الذي عرفه واتخذه رفيقا وأخا في هذه المراعي الشاسعة قال: عدت لديرتي لقضاء موسم الصيف والشتاء معهم .. ولما عدت علمت من الإخوة الرعيان أن جديا عاد لقريته .. ثم سمعنا أنه تزوج ، وسكن بلدة حليلته ، وهجر الرعي خارج البلدة .. وها أنا اليوم أسعد بريح صديقنا جدي رحمه الله .

وشرع الرجل يتحدث عن تلك الذكريات والأيام بحنين ولهف وقال : هذه السنوات مضت كأنها يوم واحد ، لقد كان والدكم من أعز الإخوة والرفاق في هذه المراعي الشاسعة .. كنا أحيانا نقضي الربيع والصيف والخريف قبل أن نرتد لأصحاب الأغنام .. ومرات نقضي موسمين كاملين الصيف والشتاء هنا .. رحم الله الأخ جدي .. البركة فيكم اليوم .. لكن أغنامكم قليلة ذكرتم أنها لكم ، لا تعملون عند أحد .. وأنا تعودت على الترحال بين الوديان والمراعي حتى استقر بهذا المرعى الكبير.. رحم الله الجدي.. ما شاء الله كان أجدع مني وأشجع وغامر بالزواج وها هو أنجب شابين .. حاولت الزواج أكثر من مرة ، والنساء لما يعلمن أني راع رحال يعتذرن عن الزواج ..هل حدثكم عن الراعي جندوب ؟

قال محسن : حدثنا عن هذه المراعي وخصبها وكثرة خيراتها ومائها .. ولم يحدثنا عن أسماء ، ربما لصغرنا يا عم جندوب .. مرحبا بك يا عمنا الوفي .

فقال وليد : علمنا من أبي ـ رحمه الله ـ أنه كان محبوبا من أميرة مدينتها قرب هذه المراعي .

ضحك الراعي جندوب ملء شدقيه وقال فرحا: أذكر تلك الأميرة .. كانت صغيرة تتردد على المراعي كثيرا لترى الأنعام التي تملأ هذا الوادي .. فهي كانت فعلا رفيقة بجدي وتعطف عليه وعلى غيره من الرعيان ؛ ولكنه كان المقدم عندها .. إذن حدثكم عنها الراعي جدي .

خفقت قلوب الشباب وتابع جندوب الكلام : هي صارت ملكة قبل زمن بعيد .. وظلت تتردد على المراعي هذه .. وتجلس معنا ، وتأكل طعامنا ، وتهدينا المال والثياب .. ولكن لما عدت آخر مرة ولم أجد والدكم هنا .. علمت من الرعيان .. أن الملكة ترملت لقتل شقيق الملك زوجها أخاه ، وجلس على تخت الحكم مكانه .. ثم ضعفت جولاتها لهذه المراعي ، فربما شاهدتها بضع مرات خلال هذه السنوات الطويلة .. الدنيا تتغير يا أولاد .. ربما تأتي المرعى هنا ، واعرفها بكم وتحظون برؤيتها كما حظينا نحن بهذا الشرف الكريم .

ـ ألم تسألكم عن والدي لما بدأت تتردد عليكم ما دام والدي كان رفيقا لها ؟

ـ اسمها الأميرة سيرة بنت غزال .. الحق أنها كانت كلما تزور المرعى تسأل عنه .. خاصة عندما

تلتقي بي .. فتقول أين أراضي صاحبك جدي يا جندوب ؟ قد كنت أقرب الناس إليه من بين الرعيان .. فأقول لا أدري يا مولاتي نحن أصدقاء وأخوة هنا ، فكل واحد منا يتبع لمدينة ، وأصحاب وملاك هذه الغنم من مدن مختلفة.. ولما سمعت بزواج جدي بعد حين وصدف وسألتني هذا السؤال أخبرتها بما سمعته .. فقالت : إذا علمت في أي البلاد استقر فاخبرني ؟ ولسوف أكرمك فهو صديق عزيز عندي .

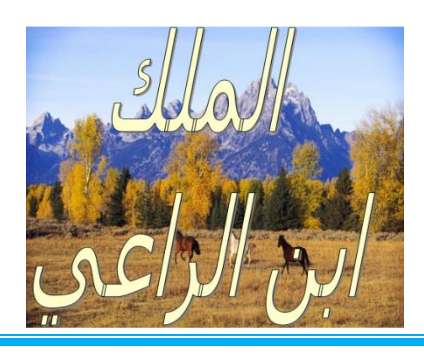
فقال محسن : أتتردد هذه الأميرة هذه الأيام هنا ؟

ـ قليلا ، ربما تمر السنة أو السنتان ولا تأتي ، وحتى عندما أتغيب عن المكان .. يقول الرعيان لم تحضر ، فوجودها في المرعى خبر مهم يتناقله الرعيان .. علمت أنها ترتاد سهل العوف حيث الغزلان والظباء للصيد مع زوجها .. وسهل العوف هو مرعى خاص لأهل المدينة مدينة الرعاد كما يغلب عليها هذا الاسم ، ويجري فيه سباقات للخيل .. إنها أميرة طيبة وتتواضع للحديث مع الرعيان .. ورأيتها بعد ترملها من الملك مطر ، فكانت دائما حزينة ؛ ولكنها تحب الهواء الطلق والمراعي ورؤية آلاف الأغنام والإبل .. لان رعاة الإبل يأتون بكثرة في بعض المواسم ..

قال وليد : وسهل العوف أين يقع ؟

قال جندوب الراعي : بعد هذه المسافة وتلك التلال ـ وأشار بيده جهة المدينة ـ يأتي واد يسيل في الشتاء والمطر ، ويجف في الصيف .. يبدأ سهل العوف حتى أطراف المدينة مدينة الملكة سيرة بنت غزال .

قال محسن : شوقتنا لرؤية هذه الأميرة الشجاعة يا عم جندوب .



اللقاء

استشف الشابان من مجمل كلام العم جندوب سعي الأميرة الخفي لمعرفة مصير ابنها ضرغام ، وأدركا أن الخطر ما زال محدقا به ؛ لأنها تبحث عنه باستحياء وخوف ، وقضوا ثلاثة أشهر في وادي الظباء وجبال فيلان ، ولم تظهر الأميرة سيرة في الوادي ..

فقال وليد لمحسن: أعتقد أن القوم هنا اعتبرونا رعاة مثلهم ، بعد قضاء هذه المدة بين ظهرانيهم.. ولننزل المدينة أمامهم لشراء بعض الثياب لأخذها للأهل عند العودة إلى قريتنا .. ونتعرف على المدينة ونسأل عن تلك الأم .

ـ نعم الحيلة ، وسنترك غنمنا لدى جندوب .

ـ الرعيان بدأوا بالرحيل كما رأينا لأن الشتاء اقترب على هذا المكان .. فإذا العم جندوب يرغب في البقاء والانتظار نترافق يا آخي الشجاع .

ـ قدمي على قدمك أيها الشجاع .. أوصتني أمي أن لا أفارقك.. نحيا معا ونموت معا

ـ أنا ممتن لأمك العظيمة .

لما تشاوروا مع جندوب قال: على الرحب والسعة .. ومن الجميل أن تهبطا المدينة والتعرف عليها وشراء الهدايا والهبات فهي مدينة كبيرة .. وأنا لا أغادر المكان حتى يدخل الشتاء الغزير.. ولكن احذروا الإطالة فيها فالفتن كثيرة.. كما يحدث رعيانها ، والرعيان الذين مثلنا يزورنها لشراء الهبات لأهليهم .

فقال وليد : لم نفهم ما تعني بالفتن ؟!

ـ علمنا من رعاة المدينة أن الفتن والقتال بين القبائل والناس كثيرة خاصة بعد مقتل الملك مطر زوج الملكة التي كانت صاحبتنا أنا ووالدكم جدي .. نشبت حرب أثر مقتله .. ثم هاجمت جنود من مدن أخرى المدينة وعاد الأمير طل .. شقيق الملك المقتول حاكما عليها ، وكان ذلك بعد صراع بين أنصار الأخوين .. ولكن الصغير تمكن من الكبير وقتله عند غدير الدم .. وكان الوزير بهلوز قد تحالف مع الأمير الصغير ، وكافأه الملك الجديد بالعودة للوزارة والزواج من

ابنته التي اسمها بدر .. ولما استقر الملك الجديد على تخت البلاد هجر الأميرة ؛ لأنها لم تلد له الابن الذكر ، وأخبر الرعاة أيضا بهمس بينهم أن الملك طل اغتال والدها بالسم حتى لا يثور وينقلب عليه كما انقلب على شقيقه ؛ لأن الوزير بهلوز شارك في التآمر على الملك مطر لأنه طلق ابنته بدر .. وحاولت الأميرة بدر النيل من الملك ، ولم ينجح مسعاها ، وكشف أمرها وحبسها في قصر مهجور ، ثم هربت منه واختفت ، ولليوم لم يعرف أحد أين اختفت ؟ .. وبعضهم يقول همسا "إنها قتلت واختفت جثتها" .. وبعضهم يقول: "لما هربت من القصر المهجور أكلتها الوحوش في تلك الصحراء الجرداء من البشر ".

ـ أكمل أيها الراعي الخبير ..

تبسم الشيخ وأجاب: عندما يجلس الرعاة في الليل كما نجلس الآن أيها الشبان ليس لنا سوى نقل القصص والحكايات ، وأهمها أخبار الأمراء والأميرات .. وكل من عنده خبر وحكاية يرويها .. كان الملك شجاع الملك الذي ساعد الملك طل في اغتيال شقيقه الملك والاستيلاء على حكم هذه المدينة يأخذ الجزية والمال من الملك طل .. فبعد سنوات ضجر طل الملك من دفع الجزية المضروبة عليه .. فغضب عليه الملك شجاع وعزله ، وسمعنا من الرعاة أنه سجنه في سجن ، ولا أحد يدري أين هذا السجن؟ .. بعضهم يقول في المدينة هذه وآخرون في بلاده .. وعين الملك حاكما من مدينته يجمع له أموال المدينة ..

فقال وليد بحنق : وهل الملك الظالم هذا حيا لليوم ؟

ـ لم ينقل لنا موته .. ولما اعتلى هذا الشجاع عرش بلاده ولج إليه طل وبهلوز وطمعوا في عونه للقضاء على الملك مطر .. فوافق كما قلت لكم مقابل مال يدفع له ، ولما تقاصر ملك المدينة عن الدفع .. غزى المدينة وأخذ طل .. وقادته .. ولما تحركت بعض القبائل ضد حاكمه .. أخرجهم من المدينة .. والمدينة اليوم مستسلمة لقدرها ومصيرها فلم نسمع أن أحدا طالب بالعرش ؛ لأنه بعد ذهاب طل ، لم يبق وريث لهذا العرش ..لأنه انقطع نسل الملك الرعاد ..

ـ كيف ؟

قال جندوب مسرورا لأنه وجد من يصغي لحكايته باهتمام : تحبون سماع أخبار هذه المدينة .. الملك الرعاد لم يخلف إلا ولدين ، هما الملك مطر والملك طل .. ومات فجأة بدون تعيين خليفة له .. فصار صراع بين الأخوين ، ورجحت كفة الملك مطر ، فنصب ملكا ، ومات مقتولا بعد زواجه بسنين قليلة ، ولم يكن له ذرية ، قيل إن له ابنا كان عند موته رضيع ، وقيل إنه اختفى ، بعضهم قال قتله عمه طل بعد خطفه ، وبعضهم أشاع أن جارية هربت به بأمر من الملكة أمه ، وقيل إن أمه أخفته .. والله تعالى أعلم

فقال وليد : والملكة سيرة ووالدها ألم يفعلوا شيئا بعد مقتل الملك طل ؟

قال جندوب وهو يتذكر الأحداث : ماذا ستفعل والبلاد قد انقسمت إلى فرق ؟!.. سمعنا أن الملك شجاعا منحهم الأمان ، واعتزل الوزير غزال الحكم في قصره وبساتينه وكذلك فعلت الملكة .. وقد علمنا أنه هلك بعد حين ، والملكة بعد زمن نكحت رجلا من أقاربها ، وابتعدت عن الحكم .

قال محسن : بارك الله فيك يا عم جندوب .. سنأخذ جانب الحذر .. ولا أظن أن يعتدى علينا ونحن بثياب الرعيان هذه .

ـ الأشرار موجودون يا ولدي .. خاصة في المدن .. حفظكم الله .. في زيارتكم هذه ..أرجو أن لا تنسوا أنفسكم في المدينة ..

ـ أبعيدة المدينة ؟

ـ الحمار يحتاج لربع يوم حتى يصل قلبها ..

فقال وليد : أتشتهي شيئا نجلبه لك من المدينة ؟

ـ بعض الحلوى .

ـ أبشر بأفضل حلوى في المدينة

ـ كم يناسبنا من عدد الأيام فيها ؟

ـ حسب همتكم .. ثلاثة أيام

فقال وليد : هل نسعى لمقابلة الملكة سيرة ونذكرها بأبينا جدي ؟

فقال الشيخ : خيرا تفعلون .. هي بشوق ولهفة لسماع أخبار الراعي العزيز جدي رحمه المولى تعالى.

سار الشابان مع الفجر باتجاه المدينة التي ولد فيها وليد قبل ما يزيد عن عشرين سنة ، وكان من عادة الرعيان ارتداء جلد خروف وصوفه أعلى الجسد والظهر فيعلم الرائي له أن هذا راعي .. بعد نصف يوم من السير على الأقدام والمشي الخبب دخلا من أحد أبواب المدينة مع الداخلين والخارجين .. تجولا في شوارع المدينة وبعض أحيائها ، ومشيا في الأسواق بمختلف مسمياتها وأنشطتها .. كأسواق الثياب والحرير .. أسواق الذهب .. أسواق الجلود .. أسواق الخضار والطعام.. أسواق النحاس .. والحديد .. والفخار .. تناولا طعامهما عند مطعم في وسط المدينة وعند الليل سكنا خانا ينزل فيه الغرباء والتجار المسافرون .. ولما رأى المال صاحب الخان رحب بهم وأنزلهم مع عدد من النزلاء .

كانا يفكران بحيلة يعرفان بها قصر ومسكن الأميرة سيرة بنت غزال ، وفي الصباح سألا سيد الخان عن خياط ثياب مشهور ، يخيط الأغنياء والسادة ثيابهم عنده .. وذكروا له أنهم رعاة في وادي الظباء سوف يعودون لبلدانهم، وهم بحاجة لهدايا تستحق الحمل والإهداء .. فدلهما الرجل على سوق الخياطين وأنهم سيجدون هناك بغيتهم .

دخلوا السوق وبعد حين أرشدهم الناس إلى أهم رجال الخياطة في البلدة ، فدخلوا أحدها فرحب بهم الخياط ، وذكرا له الغاية من زيارته ، فدلهم على متجر بجواره يبيع القماش .. فاشتريا قطعتين ، وعادا للترزي الذي أخذ مقاسهما ، ووعدهم خلال ثلاثة أيام بإنهاء وإنجاز المهمة .

ولما انتهى القياس والاتفاق ودفعوا المال فقال له وليد : تعرف والدي قبل عشرين سنة على أميرة تسمى سيرة أين قصرها فنرغب بنقل تحية لها ؟

تطلع فيهما الخياط لحين وقال: أميرة تعرف الرعيان قبل عشرين سنة .. سيرة بنت من ؟

ـ سمعنا أن والدها الأمير غزال .

ـ الأمير غزال .. هذا يا سادة كان ملكا للبلاد ولكنه هلك .. أنتم تتحدثون عن ابنته الملكة سيرة تذكرتها .. نعم كانت ملكة شعبية وطيبة .. وتعطف على الناس وتنزل الأسواق ..

ـ كانت زوجة أحد الملوك .

ـ أجل ، أجل الملك المقتول مطر .. رحمه الله .. أتريدون قصرها ؟

ـ نعم ، حدثنا والدي أن زوجها الملك قتله شقيقه .. فكانت تذهب للنزهة عند المراعي الغربية وتعطف على الرعاة ومنهم والدي .. فطلب منا لما علم بسعينا للنزول للمدينة والتعرف على أهلها أن نمر على قصرها لنقل سلامه لها .

ـ الملكة طيبة .. وتعطف على الناس الضعفاء مثلنا .. لقد اشتغلت لها ولخدمها عددا من الثياب نعم ، هي قد تزوجت بعد ترملها

ـ سمعنا هذا أيضا .

ـ جميل فعل والدكم نحوها ، ووصيته لكم بالسلام عليها .. هي تسكن في قصر يسمى قصر الأسد

ـ قصر الأسد !

ـ نعم ، وهو خارج أبواب المدينة .. هناك قصور للأمراء حيث أملاكهم وبساتينهم ورياضهم وكلها خارج المدينة .. ستذهبون للباب الجنوبي باب العصفور وتخرجون منه ، وبعد مسير أربع خمس ساعات ستجدون قصرا على أسواره عددا من الأسود الحجرية .. فذاك هو قصرها هنا كل أمير أو كبير يتخذ طيرا أو حيوانا يجسم على أسواره .. شعار للعائلة .. واذكروني لها وسترحب بكم ..

ـ يعني من السهل الوصول إليها

ـ نعم ، الأميرة يوميا تستقبل الفقراء والمحتاجين وتوزع عليهم الطعام والتمر والزبيب .. بعد أيام ثلاثة تكون الثياب جاهزة

فشكر الشابان الخياط العجوز ، وانصرفا للغداء وبعد الغداء سينطلقون إلى قصر الأميرة سيرة



قطعا الدرب مشيا على الأقدام ، وخلال بضع ساعات كانا يقفان أمام قصر الأسد الذي يقع ضمن بساتين عديدة وأشجار باسقة.. وأسوار عالية ، وكان القصر ضخما وقديما ، فلما رآهما أحد الحراس أمام البوابة سألهما عن غايتهما .. فلما عرف الجواب لم يستغرب من علاقة الأميرة بالرعاة ، فهذا معروف عنها منذ عقود ، ومن أيام حياة والدها الملك والوزير غزال .. فقدم لهما الماء ، وقد رأى التعب والجهد عليهما ، وقال لأحد الخدم " قل للأميرة هنا راعيان راغبان بالحديث معهما ، أحدهما اسمه وليد والثاني محسن من رعيان وادي الظباء "

كانت الأميرة تجلس في ديوان البيت مع بعض النساء الزائرات، فهمست جاريتها بأسماء الراعيين الراغبين بلقائها ، فدهشت فهي لم تعرف هذين الاسمين من قبل ، وبعد تفكير سريع أمرت الخادمة أن تقودهم إلى غرفة الطعام التي تستقبل بها الفقراء والمساكين ، وليضع لهم الخدم الطعام والشراب.. فقد كانت في القصر قاعة خاصة بالولائم .. فأمرت الخادمة الرسول بنقلهما لغرفة الطعام .. فساقهما الرسول بعد إدخالهما إلى قاعة الطعام ، وقدم لهم الخدم الطعام رغم أكلهما قبل مجيئهم أخذا بالأكل حتى لا يلفتا الأنظار أنهم قدموا لغاية سرية وخطيرة .. وقدم لهم الخدم الشراب من العصائر والماء فهمس محسن " أمك كريمة يا أخي "

تلفت وليد يمينا ويسارا " احذر من الكلمات الخطيرة ولا تنسى أنها تركتني كل هذا الزمن "

" احذر الإساءة لأمك .. لولا فعلتها الشجاعة والتخلي عن الأمومة ؛ لكنت من الهالكين .. رغم هذه القسوة نحوك كان همها حياتك ، وقد أدركت بسرعة الخطر المحدق بك لا تنسى هذا يا أخي "

" ولما زال الخطر نسيتني "

" لم تنساك .. وما كانت تذهب للمراعي إلا للتحسس عن والدي .. ما يهما بجدي إلا أنت اضبط نفسك أمامها .. قد يكون للحاكم عيون في هذا القصر .. من هؤلاء الخدم "

" أنت تعذرها يا محسن "

" أنا كنت أخشى أن تكون أمك ميتة أو مقتولة .. ولن يعترف بك أميرا أحد من الناس .. فاحمد الله على بقائها .. هل سيعلم الناس أنك أمير وابن ملك إلا من أمك ؟ .. وعليك أن تكتم الخطب حتى لا تتعرض للقتل "

" يجب أن أطالب بعرش آبائي "

" ليس الآن .. لذلك لحظة مناسبة .. وأمك دفعت بك لتطالب بهذا العرش .. وذلك في الزمن المناسب .. وذلك عندما تجتمع بأهلك وأنصار أبيك .. اسمع لأمك لا تتحدث بعاطفة "

" إنك فطن يا محسن وذكي "

" أشكرك .. لا تنسى أن هذه البلاد يحكمها العدو لأسرتك ولأهل المدينة .. فالأمر يحتاج لفطنة وحنكة وتدبير "

" كلامك رائع وشجاع "

" نحن أخوة أيها البطل الشجاع "

اقترب أحد الخدم نحوهما وقال " أتريدون رؤية أم البرق أم أخذتما حاجتكما ؟

قال وليد : من أم البرق ؟!.. نحن جئنا للكلام مع مولاتنا الأميرة سيرة .

ـ ألا تعرفان أم البرق ؟!

قال محسن : نحن رعاة من البلاد المجاورة ، ولسنا من هذه الديار .. نحن أبناء الراعي جدي قل للأميرة هذا ، وستقبل بمقابلتنا .

فعلا نقل الخادم للجارية الخاصة بالأميرة سيرة رسالة الراعيين .. فخفق فؤاد الأميرة وخشيت على نفسها وقالت لنفسها" ولدي!! .. أقدر لي رؤيته أخيرا .. عشرون عاما يا ولدي"

تدثرت بثياب دافئة وعادة تستقبل بها الرجال ، وأمسكت بيدها الخادمة التي قالت " مالك يا سيدتي ؟"

مشيتا نحو قاعة الطعام ، فلما دخلت القاعة وقف الشابان ، واضطرب وليد والمرأة تتقدم

نحوهما ببطء وجهد .. عرفته فور حدقت به وقالت " إنه ابني صورة أبيه يا الهي! لو يخلع ثياب الرعاة لظن من يعرف أباه أن الملك بعث حيا "

همست وقد أمرت الخادمة أن تتأخر عنها " ولدي ضرغام "

" أمي الملكة .. أمي الأميرة "

التزمته دقائق معدودة أمام دهشة الخادمة .. ولما ابتعدت عنه ، كان زوجها الأمير يدخل القاعة ورأى الانفعال ودموع زوجته فقال بدهشة " سيرة .. من هذا ؟!"

التفتت إلى زوجها الذي لم تشعر بدخوله ، ومسحت دموعها وهمست بصوت ضعيف" إنه ابن الملك المقتول غدرا أيها الأمير .. ابني يا زويد "

قال زويد بانفعال ولهفة: ابنك المفقود .. تعال يا ولدي لنا سنوات نبحث عنك البلاد تريدك !

ردد وليد : البلاد .

واحتضن زويد الراعي وليدا ، وقبله على خديه ، وهو يقول بصوت هامس : ولدي ولدي مرحبا بك .. أين كنت ؟!

ـ أين كنت ؟!.. كنت عند أبي جدي رحمه الله

صاحت المرأة : مات جدي ؟

ـ نعم ، مات جدي يا أمي .. وهذا ـ وأمسك بيد محسن ـ فلذة كبده وهو يصحبني منذ قرأت رسالتك .

قبلت المرأة الشاب .

زواج ضرغام

بعد تعارف القوم ساقت الملكة سيرة وزوجها الشابين إلى حجرة خاصة ، وأمرت الخادمة التي شاهدت هذا اللقاء الدقيق بمنع أحد إن يقرب إليها ، ولما جلسوا وكررت الملكة تقبيل وحضن ولدها قالت : كلي شوق إليك يا حبيبي ، وكان من الضروري إبعادك عن الخطر والغدر.. واعلم والله يشهد أني فعلت ما فعلت لأن حياتك كانت مهمة لي وللبلد .. فأنت أول ذكر حفيد للملك الرعاد .. هل فصل لك أبوك جدي قصة مصرع أبيك ؟

ـ علمته من أمي أم محسن .. فوالدي جدي مات قبل أن يكشف لي سر مولدي .. ولكن الراعي جندوب حي ، فقص علينا قصة الغدر في غدير الدم ..

قالت بحزن واضح : لم ينجُ من حادثة الغدير إلا ثلاث جوار ، لم يكنّ في الخيام ساعة الغدر .. جرح البعض ولكنهم ماتوا من جراحاتهم .. فكان من الحكمة والإلهام تلك الساعة القاتلة المحافظة على حياتك ..

كان ضرغام يسمع الكلام وينظر بطرف عينه إلى محسن.. تابعت فقالت : أسرعت بجوادي حيث الراعي جدي ، وقصصت الأمر عليه ، وكان شجاعا فقبل المغامرة الخطرة ، ولما اختفى عن ناظري عدت لديوان الحكم ، ثم اكتشفوا بعد يوم أو أكثر اختفائك ، فظنوا أن عمك خطفك ليتخلص من الغد المجهول .. ولما تسلطن عمك ملكا بعد الخيانة ، كان هو أول من سأل عنك ؟ لخنقك والخلاص منك .. ورحم الله العم جدي فقد نصح لك ورعاك .. وتحرى عنك عمك المحبوس اليوم في سجون الذين تحالف معهم .. ولم يجد ثمرة لبحثه .. وضغطوا على الجواري بحثا عنك ، والكل شهد أنك اختفيت فجأة.. وعجبوا كيف تخليت عنك ؟ حتى تيقن لهم أنك ميت .. وستبقى ميتا إلى حين ..

ـ إلى حين ؟

ـ نعم ، أعطانا شجاع الملك الأمان ، وخلعت نفسي عن العرش لعمك الخائن .. فقد غدر بالوزير بهلوز الخائن مثله .. وانتقم من زوجته ابنة بهلوز ، ورماها في سجن صحراوي .. كان

كل أسبوع يذهب إليها خدم بطعام لمدة أسبوع ، ولما راحوا في إحدى المرات لأداء المهمة ، وجدوا القصر فارغا ، واختفت الأميرة بدر .. مات والدي بعد حبس عمك بقليل ، وتزوجت من هذا الرجل ـ وأشارت لزوجها الذي ابتسم لضرغام ـ وهو من أقارب والدك الملك وابن خاله ، وولدت له ثلاث بنات وذكرا واحدا سميناه البرق .. وأخذت أتردد على وادي الظباء لعلي أسمع بشيء عن العم جدي ، وبحرص شديد ؛ لأن عيون الملك شجاع لم تضعف عن أمراء البلد.. ولم حسبت أنك قربت من العشرين بحثت عنك أكثر لكن دون جدوى .. كانت بي لوعة وشوق لرؤيتك خشيت أن أموت قبل أن تكتحل العين برؤيتك يا قرة العين ونسل الملوك الكرام .. كان أبوك شجاعا مقداما في حياة والده وبعده.. والبلاد بحاجة لك اليوم كما سيخبرك الأمير زويد المقداد.. ففي القوم رجال يسعون لتحرير المدينة من الغرباء وإعادة الملك للأسرة ؛ وهم يريدونك .. فقد فكروا بنقل الملك إلى الإناث من سلالة الرعاد .. فلجدك خمس بنات ، وكلهن متزوجات ولودات ، لهن مواليد ذكورا وإناثا .. فكشفت للأمير مقداد قصتك وأنت لابد ما زلت حيا في ذهني .. ففرح للخبر .. وسعوا للوصول إليك دون فائدة .. فقلت لهم إذا كان ولدي حيا سيأتي .. وها أنت أقبلت كالأسد الرئبال ..

واحتضنه وأخذت بتقبيله ، وهي تذرف الدموع وقالت : أنت أمل المدينة اليوم .. وانتظرت هذا اليوم السعيد بشوق كبير.. وسعيدة برؤية محسن معك.. حبيبي يا محسن !

ـ شكرا لك يا مولاتي يا أم ضرغام .. هذا شرف لي أن أتربى مع أبناء الملوك

وقص ضرغام ما يعرفه القارئ عن حياته في تلك القرية ، وعجب لاهتمام والده جدي بتعليمه الفروسية في المدينة ، وتخلفه بكثرة في المدينة خلال فترة التدريب .. وأعادت الملكة الدعاء للراعي جدي الذي نفذ طلبها بكل اهتمام .. ولما ذكر قصة حياته قال : إني اغفر لك يا أمي التخلي عني .

وتابع القول : وصدق أخي محسن عندما التمس لك العديد من الأعذار.. أين إخوتي ؟

فقال زويد مقداد : ستبقى لهم جاهلا إلى حين .. فهم أطفال صغار .. ولو سألهم جواسيس

الحاكم شاقور هل رأيتم أخاكم ؟ .. سيقرون بحسن نية .. وستبقى الراعي وليدا حتى أخبر الرجال .. رجالنا الساعون لعودة الملك لأهل المدينة .. فقد اقترب الفرج إن شاء الله .. واعلم أنك الذكر الباقي من سلالة الملك الرعاد .. لذلك اقترح عليك أن تتزوج في تلك القرية .. لتنجب لنا ابنا أو أكثر .. لأنك عندما تظهر ستكون في خطر وخطر شديد .. والحروب ضروس فعندما تلد الولد الذكر يمكنك أن تظهر وتنتقم لأبيك من شاقور ومن شجاع .. يا ضرغام معركتنا كبيرة .. وإذا خسرناك ستكون نهاية المطالبة بالحكم .

قالت سيرة : والدك مقداد يتكلم كلام الحكماء .. أليس هذا صحيحا يا ولدي محسن ؟!

قال محسن : نعم ، إنها أفكار تخرج من فم حكيم .. جيل يسلم لجيل

ضرغام : سأؤخر الانتقام .. وكيف أتزوج ؟

فقال مقداد جذلا : إذن صوبت خطتي .. وإن امتداد الدم الملكي بك لابد منه .. اعلم شوقك وأنت نسل الملوك العظام بالثورة والانتقام .. لكننا نحتاج للصبر .. والتدبير .. والتبصر .



لما استوعب الأمير ضرغام دوره والحاجة إليه قالت أمه: إني احبك يا ولدي .. وإنما مطلوب منك دور كبير ، وقد صبرنا سنينا ، فلنصبر سنينا أخرى قبل أن تأخذ حقك ، وتجلس على عرش أبيك .. ستبقى وليدا لحين من الزمن خشية على حياتك بداية ، ولأن رجال مدينتك يريدونك حيا .

فقال زوج أمه : أنت الأمل أيها الأمير الراعي .. فالرجال والقوم ينتظرونك بفارغ الصبر لأنك البقية الباقية من سلالة الملك الرعاد الأحق بالحكم ، والذي يستطيع المطالبة بعرش البلاد دون منازع .. ستعود أنت والشهم محسن للمراعي .. وبعد أيام سأراكم في المراعي ، وقد يكون معي سيد من سادة المدينة المتحالفين معنا ليتعرف عليك ، ويؤكد للرجال حياتك وأنك ابن الملك مطر.

وقال ضرغام : وهل الزواج ضرورة ؟

ـ هذا مهم لتبقى القضية مستمرة ، ولو مائة سنة يا ولدي .

ـ وقد لا تنجب الزوجة الولد المطلوب .. وقد يموت قبل أن يشب ..

قالت الأم : نعمل بالأسباب والأمر لله وحده

وقال مقداد : نعم ، قد لا تنجب المرأة الولد الذكر .. ما تقول أم الملك ؟

ضحكوا على مداعبة الأمير فقالت الملكة: ما رأيكم بالجواري؟.. أن أهبه جاريتين فيتسرى بهما

فقال مقداد بعد تفكير : لكن نظام الملك لا يقبل اعتلاء أبناء الجواري سدة الحكم

ـ إنها ضرورة يا سيدي الأمير .. وإذا حققنا مرادنا بضرغام لن نحتاج للملك الوريث .. أنا أحب لك نكاح بنات الأمراء والملوك .. وإنما الحال الصعب والظرف لا يسمح لنا بكشف شخصك للأنام .. لأنك ستبقى راعيا أمام الخلق .. عليك أن تتحمل ذلك من أجل قضيتنا بعودة الملك لأهله .. عليك أن تختار مكانا في البوادي بعيدا عن المراعي ، وتبني لك ولصديقك خيمة .. وسيقدم عليكم العم مقداد بسريتين لك ، وثالثة لمحسن ، وتعيشان في البرية حتى يتحقق المراد ويأتي الابن الذكر ..

قال ضرغام : أخشى أن يطول الأمر ، ولا يأتي الذكر يا أماه .. وأنا في رأسي مهمة

قالت بدهشة : مهمة ؟!

ـ نعم ، سأذهب لبلاد الملك شجاع الغادر وأنال منه وأشفي غليلي .

فقال مقداد : وهل قتله يحرر المدينة وينهي المعركة ؟.. لو كان ذلك يحقق المراد لسعينا إليه .. بل سيزيد الحقد والقتال بيننا .. نحن نريد إعادة سلالتكم للحكم والامتداد إلى ما يشاء الله .. فنصف أموال البلاد تجمع وترسل للعدو الغاصب .. نحن بحاجة لملك وتدبير عميق ليبقى الملك في الأسرة .. لأن تلاشي أسرتكم يعني تلاشي الحكم .. وإذا أنشأنا جيشا قويا شجاعا نغزو أولئك ، ونأخذ بثأرنا ونسترد أموالنا أيها الباسل ، ونحكم تلك البلاد لحين من الزمن ، ثم نتخلى عنهم بإرادتنا حتى لا يفكروا بالانتقام منا كما انتقمنا منهم ، وتبقى الأمور بيننا سجال .. لأن المدن تقوى وتضعف .. فلولا الانقسام الذي حصل بعد وفاة جدك الرعاد

لما غزونا وأذلونا .. لقد دافعنا بقوة عن العرش والملك غزال ، لكنهم تكالبوا علينا وعلى نهب خيراتنا.. وكرسي العرش فرغ قبل وضع الأمير غزال ملكا مؤقتا للقيادة والحرب حتى أن القوم أردوا جعلك ملكا وأنت طفل رضيع ، ووضع أمراء وصاية عليك .. ثم اكتشفنا لحظتها اختفائك الغامض .. فصعق القوم .. لقد كتمت أمك الحقيقة ، وكانت شجاعة وما زالت سيدة قوية .. فلما تزوجنا ، وعلمت حيرة الأسياد في أمر الملك الوارث .. كشفت لي الأمر .. فكدت أطير من السعادة .. وكذلك الإخوان .. عليك بنكاح السريتين .. وبعد ولادتهما افعل ما تفكر وتدبر من الانتقام .. سأرافقكم لموقع بناء الخيام ، وعمل الرعي سيخفي ما ندبر ونفكر .

مع شروق الشمس كان وليد ومحسن يسيران نحو المراعي حيث جندوب ، وقد حملا معهم بعض الطعام والفاكهة ، ولما التقوا أخذهما بالعناق ، وسعد بها احضرا له من طعام الأميرة سيرة ، ولما علم أنهما تركا عند الخياط ثيابا وعد بالانتظار أيام آخر فقال : كنت أجهز نفسي للرحيل بمجرد عودتكما .. فقد جاء مرسال من أصحاب الغنم يطلب العودة في أول الشتاء .

فقال ضرغام : لا حرج عليك أيها الوالد العزيز .. ارحل .. فسيذهب أحدنا للخياط .. وشراء بعض الأشياء من المدينة .. ونحن بعد رحيلك سنتحرك جهة بلادنا ونخيم في الطريق بينهما وقضاء الشتاء فيها .

فلما سمع جندوب هذا الكلام شكر الشابين ، وتمنى اللقاء بهما في المواسم القادمة .. واستدعى معاونيه من الرعيان ، وعند آخر النهار تحركت قطعان الشياه التي تزيد عن ألفي رأس ، ومئات من النياق الأصيلة نحو مدينة جندوب .. وفي العادة يقل عدد الرعاة في وادي الظباء مع قرب حلول الشتاء حتى يقبل موسم الربيع فيبدأون بالتوافد بأغنامهم ومواشيهم ودوابهم .

جاء مقداد ومعه الثياب التي أخاطوها بالمدينة ، وصحبه رجل كبير في السن ، فلما رأى ضرغاما عانقه عناق الغياب والأحباب والتزمه ، ثم عانق محسنا وقال لضرغام : رحم الله الملك مطرا

شبه أبيك يا ولدي .. حياك وبياك .. إننا سعداء بحياتك وظهورك .. كلنا في شوق إليك .. كنت كبير القادة في القصر يا ولدي القائد الفهر.. لكن الخصم كان عمك وابن عمنا .. حدثني الفارس زويد المقداد زوج أمك العظيمة البعيدة النظر بما دبروه .. وهو نعم التدبير .. فبقاء نسلكم يعني بقاء المطالبة في العرش المغتصب .. فسيبارك الرجال هذه الخطة والتدبير ، وقد صبرنا سينينا لهذا الوقت .. فسيزداد نشاطنا وهمتنا .. بحثنا عن ذلك الراعي الشجاع في السنوات الأخيرات لنعرف منه أخبارك .. تعسعسنا في القرى التي حولنا دون أثر بارك الله في والدك يا محسن .. وربت على كتفه ، ثم عاد القائد الفهر للمدينة يحشد الشباب والموالين للعرش كبارا وصغارا .

ورافق مقداد الشابين إلى المكان الذي سيكون مخبأهما، ومكان رعيهما ، ومكان زواجهما .. وقضى معهم أياما ، وهو مكان يبعد مسيرة ثلاثة أيام في القفار والوديان عن وادي الظباء .. وغادر للمدينة وقد تركهم في وجار أبي أشجع .. وقضى ردحا من الزمن يعد العدة بحيطة وحذر .. ولما جهزت الخيام ساق الجواري الأربعة إلى وجار أبي شجاع ، وقد ترك المدينة عند منتصف الليل .. وبعد مسير ومسير وصل للشابين .. ونصب الخيام الأربع .. فخيمتان لضرغام وجاريتيه.. وأعطي محسنا خيمة وجارية يتسرى بها.. والرابعة كانت له وللجارية الخادمة للشابين .. ووعدهم بعد حين بإحضار خادم يقوم على خدمتهم .. وعليهم أن يبقوا متخذين لصفة ومهنة الرعاة ..

وكانت الجواري ممن يحسن العمل والطهو وحلب الغنم .. وعمل الخبز .. وتحقق الجزء الأول من الخطة .. ولم تمض عدة شهور حتى ظهر الحمل على الجواري الثلاث بإذن الملك الوهاب.. وقدم الخادم سهام واستقر في خيمة خامسة .. وكان مقداد يتردد عليهم بين حين وآخر .. بصفة راع من رعيان الملكة سيرة .

رأس شجاع

ولما مضت الشهور واقتربت السنة على الزوال ولدت النساء الجواري تلو بعضهم البعض ، وذلك كله بفضل ومَنّ من رب السماوات والأرض ، وولدت جارية محسن في أول الأمر فوضعت ولدا سماه عطية ، وجارية ضرغام الأولى ولدت ذكرا سماه عمرو، وكني به (أبو عمرو) ، والجارية الأخرى وضعت ذكرا جميلا سماه عثمان تيمنا بخليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان .



وبعد وضع الجارية الثالثة بأيام أقبلت سيرة لزيارة وجار أبي شجاع محملة بالهدايا والطعام.. وكانت زيارة خفية تحفها المخاطر ، واحتضنت حفيديها عمرو وعثمان .. وقضت بينهم أياما ، وعند الوداع قال لها الأمير ضرغام : لقد حققت لكم مطلبكم الأول ، والله يسر الحال بكرمه وجلاله، والله الذي يعطي الأعمار والحياة .. والآن يا مولاتي الملكة .. سأمضي بما فكرت به من انتقام ..

ـ وما الذي فكرت به من انتقام ؟

ـ سيقوم أخي محسن بنقل الذرية والأمهات إلى قرية أمي جديلة أم محسن، ثم سأذهب للانتقام من الملك شجاع وأمرائه الجبناء .. دم استيقظ من سباته، وحان له أن ينام قرير العين يا أماه .. سأرحل لتلك المدينة وافعل ما هو حق للوالد المظلوم على ابنه

ـ والناس في مدينتنا الذين ينتظرون ظهور ابن الملك ليطالب بعرش الآباء وليقود مسيرة تحرير المدينة

ـ اخبرني العم مقداد أن الأمور لم تجهز بعد لإظهاري أمام العامة والخلق .. سيسافر الفارس محسن بالأطفال والجواري إلى تلك القرية ويصحبه الخادم سهام ليعرف المكان .. وأنا سأسبق محسنا جهة بلاد اللعين شجاع ، وقد وافق الأمير زويد على مخاطرتي ومسيري .. وإذا تمكننا من

تحقيق المراد وشاع خبر هلاك الظالم .. فهذا سيسهل أمر عودتنا في المدينة .. وظهور ابن الملك مطر

ـ تحدث مقداد بشيء من هذا.. وحدثني أن نائب الملك في المدينة شاقور أنه جمع التجار والصناع وحذرهم من إثارة الفتن والإشاعات ومن عودة ابن مطر

فقال ضرغام : وحدثني أنه دس عددا من الفقراء يترددون على قصرك بكثرة بحجة الأكل والمعونة ويتحسسون الأخبار عن ابن الملك مطر من الملكة سيرة .. عليّ أن أكون أهلا للمسؤولية يا أماه .. والجبن لا يؤخر الأعمار ولا يقدمها .. ولماذا الإنسان يكون جبانا وضعيفا وخاصة عندما يكون ابن ملك مقتول ظلما ؟ وعليّ أن أرى قاتل أبي الحقيقي .. الرجل استغل ثورة العم طل وشجعه على قتل أخيه ليستولي على البلاد والعباد .

قالت باستسلام: افعل ما يطيب لك.. فأنت رجل وسيد ، وعليك أن تتحمل مسؤولياتك ما دمت ترى أنك أهل لها .. إذن إلى اللقاء .

بعد سفر الأم بيوم رتب ضرغام مع صديقه محسن أمر ترحيل الجواري والأبناء ، وتحركت قافلة محسن وسهام نحو بلدة أم محسن ، ولما وصلت القرية غمر الفرح جديلة ووالدها والأهل .. وذبح محسن لهم من بعض الشياه التي جلبها معه .. ودعا زوج أخته سيرة وخالاته للوليمة .. وبعد حين فارقهم للقاء صديقه الراعي وليد الذي كان يقود الغنمات الباقيات إلى مكان سيلتقيان فيه ، وهو مكان في وادي الظباء ، وهو يوصل ويمتد لبلاد الملك شجاع .



لقد شاع في مدينة الملك مطر أن ابنه الذي فقد صغيرا ، قد ظهر في المدينة وشاهده الناس ، ورآه بعضهم يتمشى في الشوارع ، ويشيع بعضهم أنه سيعود لتحرير المدينة من نير الاستعباد والظلم

وصلت هذه الإشاعات لقصر الحاكم شاقور نائب الملك شجاع ، ودس جواسيسه بقوة على قصر الأميرة سيرة ؛ لأنها أم الولد المفقود .. وكان الرجل متشككا من صدق هذه الشائعات،

وإنما أحس أن وراءها شيئا خفيا يدبر في المدينة بعد هذه السنوات الطوال من السكون الحذر.. ونقلت له كل العيون بعدم وجود حقيقي لهذا الأمير المختفي .. فاجتمع الحاكم بكبار التجار والرؤساء للمهن والحرف وحذرهم من جديد من خطر التآمر على الملك ونوابه ، وحادثهم بالشائعات المنتشرة فوجم القوم ، وردد بعضهم أنهم سمعوا كما يسمع غيرهم .. والحقيقة أن بعضهم على اتصال بالحزب السري ؛ ولكنهم تظاهروا بالمفاجأة ، بل قام أحدهم أمام الحاكم ليقول : أيها النائب الكريم .. هذا الطفل علمنا قديما أيام الشباب أنه قتل على يد عمه الملك طل بعد قتله لأبيه .. خطفه واختفى صغيرا .

فقال الحاكم : هذا ما شاع .. ولكن الحقيقة التي أذكرها عندما غزونا هذه البلاد بالتحالف مع الملك المخلوع طل والوزير المقتول بهلوز أن الطفل كان مجهول المصير .. اختفى دون وجود جثته .. والملك طل لم يذكر أنه خطفه أو قتله .. ورجال ونساء القصر يجهلون مصيره .. عندما علمت أم الطفل الخبر سعت لديوان الحكم .. ولما عادت لقصرها علمت باختفائه واختفاء إحدى جواريه .. وبعضهم زعم أن الجارية المختفية أنها من قتيلات غدير الدم وهلكت هناك منذ خرجت لخدمة الملك .. لذلك لا عجب أن تظهر مثل هذه الشائعات في مثل هذا الوقت فالطفل أصبح شابا.. وأكرر أنه من يتآمر على سيادة الملك وعلى استقرار المدينة ، فلا يلوم إلا نفسه ، وجزاؤه الإعدام في السوق أمام كل البشر .

وكتب الحاكم رسالة للملك شجاع بهذه الإشاعات المزعجة .. والذي كان يجلس في ديوانه يتسامر مع الخلان والأصدقاء ، وقرأ الكاتب الرسالة على مسمع من أهل الديوان والحاشية ، فقرأ بعد التحية والتبجيل للملك "يسري في المدينة إشاعات مزعجة أيها الملك تقول " إن ابن الملك مطر كبر وأصبح شابا عنيفا غاضبا ناقما ..هذا الذي اختفى في حربنا مع بلاده .. فبعض الناس يزعم أنه رآه في المدينة يتمشى ، ويحرض الناس على حربنا .. ولما حركنا عيوننا ودققنا في الخطب لم نر أحدا أقر أنه رآه بعينه كلهم سمعت سمعت .. فلان قال.. فلانة قالت وراقبت أم الطفل المفقود دون جدوى هي كما عهدناها عندما تسلمنا حكم البلاد منها ومن أبيها .. فهي

ما زالت تطعم وتسقي الفقراء والمرضى .. اطلب المشورة والنصح .

حاكم المدينة شاقور النسر

فلما سكت الكاتب من القراءة للكتاب قال الملك موجها كلامه لأحد المخلصين له : ألم تتحقق من هلاكه يا سريان ؟

فرد سريان وتلفظ بسرياني أو سريانو: أجل يا مولاي .. لما سمعنا أن القوم كانوا يسعون لتكوين مجلس وصاية على ذلك الطفل الباقي من سلالة الملك الرعاد.. وصل رجالنا الخفيون إلى القصر ، ثم علموا أن الطفل خطف ، وأن إحدى الجواري الحواضن اختفت فجأة .. أثناء انشغال الناس وأهل القصر بموت الملك مطر ، وكانوا ينتظرون العودة بجثة الملك وحاشية الصيد التي رافقته إلى المصير المحتوم.. وزعم أهل القصر أن العم طل وراء حكاية الخطف .. وطل أنكر هذا الحادث .. ثم نسي الأمر ، ولم نعد نسمع عن هذا الطفل إلا بهذا الرسالة .. ولماذا تشاع هذه الأخبار؟ والبلاد مستقرة .. ولم تحدث حركة تمرد منذ عهد .. بل سعد الناس بتولينا مقاليد الحكم بدلا من المخلوع طل .. فقد كان في نظر الأسر الكبيرة قاتلا ومجرما لابن أمه وأبيه فقال الملك حاسما القضية : اذهب لتلك المدينة وتتحقق من حياة هذا الطفل ومن دقة الإشاعة ولماذا تشاع هذه الإشاعة ؟ ومن ورائها ؟!.. ودس جارية فطنة على الأم سيرة .. فالولد اليوم مبلغ الرجال فإن كان حيا فلابد أن يتقابل معها .. وإذا وجد من يحمسه على الاستيلاء على العرش فسيتحمس .. وأن قوما يسعون لإحداث فتنة وطرد رجالنا .. أنت رجل المهمات الشجاعة .

دخل الراعيان وليد ومحسن مراعي مدينة الملك شجاع ، واستوطنوا مكانا للرعي ، وقد كان بين أيديهم خمسمائة رأس من الغنم ، وعشرة من الإبل ، وحماران وجياد وعدد من الكلاب ، وفي زمن سريع تعرفوا على رعيان تلك المدينة والقرى التي تحيط بها .

وتعرف الرعيان على بعضهم يكون أكثره عند ورودهم لعيون الماء لسقي الأنعام والدواب، فيجري بينهم التعارف وسماع أخبار بعضهم البعض ، ولمن يرعون أي ملاك الأنعام؟ ولأي

المدن والقرى يتبعون .



قضوا شهورا بين الرعيان يسمعون ويلتقطون أخبار المدينة (قدم الغزال) بلاد الملك شجاع ، بعد قضاء تلك المدة أخذوا يمشون للمدينة لبيع بعض الخراف للجزارين وشراء أشياء من ثياب وطعام .. ويدعون أنعامهم تحت وصاية أحد الرعاة .. ومرات يذهب ضرغام وحده يقضي في المدينة أياما بحجة البيع أو الشراء.. وقد عرف الشابان بهذا المدينة الأسواق الحفلات الجند العسس .. واستمر دأبهم هذا لمدة عام ؛ فأصبحوا كأنهم من سكان تلك المدينة .. قال ضرغام : الآن حان وقت العمل يا أبا عطية .. علينا وضع الحيلة لأسر أو قتل صاحبنا اللعين فقد عرفنا البلاد أرضا وماء وهواء .. علينا أن نختار الأفضل لتحقيق مبتغانا.. كيف نصل إليه ؟ .. أنا لي عنده ثأر، ودم أبي في عنقي وكرامة بلادنا .. فكرت بأسره وإذلاله .. ولكني وجدت هذا صعبا .. فهو حوله الحرس والجند .. فلاح لي أن قتله أسهل وأنجى لنا ، لنستمر في القضاء على القتلة .. والقصاص من جلودهم .. وتحرير بلادنا من تسلطه وظلمه .. ألديك شيء آخر ؟

قال محسن : منذ رافقتك في قضاء هذه المهمة النبيلة والعظيمة ..وأنا مثلك أفتش عن حيلة ماكرة تحقق مبتغانا.. وكيف نصل إليه في عقر داره؟.. ومهمتنا ليست سهلة وهينة.. فاغتيال ملك ليس كاغتيال راع مثلنا.. وفشل حيلتنا يعني موتنا.. ونحن ما دام قد قبلنا بهذا المهمة النبيلة لا تهمنا الحياة الذليلة .. وكلانا لا يخشى الموت.. فقد عشنا في الوديان والكهوف والقفار والغابات والصحارى وصارعنا الوحش والذئاب والضباع والثعبان خلال هذه السنوات .. والأسر كما قلت يحتاج لجيش يحمي ظهورنا ويحمي بدن الملك .. والقتل غيلة هو الأسرع والأنجع لنا .. وقومه هل يصمتون على مصرعه ؟

ـ لو فكرنا بهذا أو هكذا لما تحقق لنا شيء .. الخطر موجود .. والثأر لابد منه .. وهم الذين بدأوا بظلمنا ، وعشت مظلوما ويتيما بغدرهم ومكرهم .. مع أن عمي كان معهم وشجعهم ولولا

مساعدتهم وجشعهم ما استطاع عمي طل من فعل شيء ، وقد كانت الأمة مع أبي الملك الشرعي للمدينة .. سنقتل الملك ونؤسس جيشا قويا لغزو هذه البلاد وإذلالها كما أذلتنا والدنيا دول .. والفارس مقداد حوله جيش صغير كنواة لجيش الغد كما أخبرني .. فلحظة قتل الملك تعيد لبلادنا الهيبة والعودة للمجد.. وسنغزو بإذن الله هذه المدينة رغم ما سمعنا عن قوة جيشهم والأيام دول .. مهمتنا الأولى هنا اغتيال الملك شجاع حتى لو قتلت وبعدها يفعل الله ما يشاء

ـ أعلم ، وكيف الوصول لهذا الملك ؟

ـ تكونت عندي فكرة .. فكما غدر الرجل بأبي في رحلة صيد .. سنرقبه حتى يتحرك لرحلة صيد .. فنغتاله بين رجاله .. هو أرسل عدد كبيرا من الرجال لقتل والدي .. وسنقتله فقط أنا وأنت .. وأمل بقائنا على الحياة ضئيل .. وقومنا كما تعلم بحاجة لحياتنا .. وعمرو وعثمان ما زالوا أطفالا .. هل ينتظر الناس عشرين سنة أخرى ليسعوا للتحرر من نير وظلم شجاع وشاقور ؟ .. علينا أن نقتل الملك ونحافظ على حياتنا ليعلم الظالم أن الظلم عاقبته الموت والانتقام .. ولا يذهب دم الملك مطر هدرا .

ـ نرميه بالسهام عن بعد .

ـ وكيف نختفي ؟ هل يمكننا الاختفاء في الصحراء؟

ـ وبماذا تفكر ؟

ـ فكرت بالسم ؛ ولكن كيف نحقق ذلك القتل ؟ .. مع أنه لا يشفي الغليل !

انتقل ضرغام ومحسن إلى أكثر مكان صيد يتردد عليه الملك شجاع للصيد والنزهة .. أرادوا قتله عند غدير ماء لذكرى حادثة غدير الدم .. ليكون انتقامه مثيلا لذلك اليوم .. والإنسان سمي إنسانا لكثرة نسيانه .. فمع الأيام نسي الملك جريمة قتله للملك مطر غيلة وغدرا.. وجرائمه الكثيرة وتحرشه بالملوك وزعماء المدن ، ربما أنساه حادثة غدير الدم .. والصيد كان قديما من أفضل هوايات الملوك والأمراء .. وهو وسيلة لهو ولعب وصيد .. وفروسية .. فصيد البراري من الظباء والأرانب والثعالب والطيور يكثر في آخر فصل الربيع وأول الصيف .. ربض

ضرغام ومحسن في خيمة في تلك المناطق بزعم الرعي والبحث عن الكلأ والماء .. وتنقل الرعاة بين المراعي والجبال والوديان شائع ومتكرر ولا يثير الخوف والقلق عادة لدى الحكام والأمراء فهم يعتبرون من الطبقة الدنيا في أغلب المدن والقرى .. وبعد حين من الترصد وطول الانتظار وصلت الخيام الملكية والخدم والسقاة وأهل الطرب ، وأقاموا معسكرا للملك القادم .. وقدم الراعيان شاة كضيافة لهم ، وقبل الطهاة الشاة المشوية وأكلوها قبل قدوم الملك وحاشية الصيد، بل سر القوم من فعل الرعاة .. وابتعد الراعيان بغنمهم عن غدير الماء .. بحجة البعد عن الملك وحاشيته .. ولكنهم يذهبون كل يوم بشاة كهبة للقوم .. فصارت بينهم وبين المعسكر صلة مقبولة واطمأنوا لهم .. وأصلا من يهتم لراعيين شابين ؟ .. ولما وصل الملك شووا ثلاث شياه ولما نضجت قدموا بها لمعسكر الملك ، وقدموها لسيد الطهاة الذي شكر اهتمامهم بضيافة الملك ووعدهم بمقابلة الملك ليشكرهم فسعد الملك وحاشيته من ضيافة الراعيين ووعد بلقاء الرعاة لشكرهم واجزائهم بالهبات الملكية ..



والليلة الثانية قدما بثلاث شياه أخرى .. وقدمها سيد الطهاة للملك الذي صافحهما ورحب بهما ، وتعرف عليهما فذكروا بلدة يعيشون فيها ، وربما هي غير موجودة في المنطقة .. وهما تحدثا مع الملك بشجاعة ومكر .. ثم أخرجهما رئيس الطهاة وهو يثني عليهما ، ودفع لهما هدايا الملك .. وعلموا من الطاهي أن الملك شره في تناول اللحوم .. وفهما مغزى هذه الإشارة فهم يريدون المزيد .. وعلموا منه أن الصيد لم يكن كبيرا وكثيرا هذه الأيام بعد .

وذهبوا بشياه في الليلة الثالثة مشوية .. وسر الملك أيضا من صنيعهما وكرمهما .. وفي الليلة الرابعة دسوا السم القاتل الذي وفروه من عند العطارين وجربوه على بعض الحيوانات .. وغامرا بدسه في الشياه بعد نضجها تحت النار .. ولما أخذها منهما كبير الخدم والطهاة أهداهما جوادين صغيرين ..

وكان الشابان قد تأخرا تلك الليلة في إرسال الطعام بعذر تأخر نضج الأكل ليقدم إلى الملك فور وصوله .. وفعلا لما وصلت الشياه المشوية استلمها الخدم ووضعوها أمام الملك وحاشيته فور وصولها .. وانصرف الفارسان على ظهر الجوادين الصغيرين بسرعة لا توحي بالهرب .. لأن السم لا يظهر مفعوله بسرعة يحتاج لساعات .. وغرق القوم بالأكل والمرح والمزح .. والثناء على طهي الرعاة بشير ومبشر .. وكيف تعلموا هذه المهارة وهم رعاة ؟! .. وضرغام ومحسن أسرعا بالابتعاد بغنمهم إلى البراري والوديان .. وابتعدوا مسافة بعيدة عن غدير الماء يتربصون الأخبار .. وكان عادة يقدم الطعام للملك ورجاله أولا وبعد شبعهم ، يقدم ما بقي للخدم والجواري .. وفي الصباح أصبح القوم هلكى موتى إلا القليل لم يمت ، ربما لأنه لم يأكل الكمية الكافية لصرعه .. ولما استطاعوا العودة للمدينة وطلب النجدة من أهل المدينة .. كانت جثث القوم قد دهمتها الحيوانات التي أقبلوا يصيدونها .. فنهشت تلك الجثث من الطيور والضباع والكلاب .. وأدرك سادة المدينة أن الملك تعرض لمكيدة محكمة .. وبحثوا عن الراعيين الذين تحدث عنهم من نجا ولم يمت .. وأما الراعيان فقد باعوا إبلهم وغنمهم وخيولهم في مدن شتى وقد علا الصياح في مدينة قدم الغزال ، وأعلن الحداد أربعين يوما ، وعين ابن الملك ملكا جديدا واسمه دغفل .

خلع وليد ومحسن ثياب الرعيان ، ولبسا ألبسة الشحاذين والمتسولين ودخلوا مدينة قدم غزال على أنهم أبناء التسول .. ومن يراهم يدرك أنهم من سادة المتسولين.. الذين يتنقلون بين المدن طلبا للحياة والدراهم.. وكان ضرغام يتظاهر بالعمى ومحسن بالعور .. وعرفا بكل أخبار المكيدة وأن البحث جار عن الراعيين الخائنين .. وتمنى ضرغام لو استطاع أن يقف أمام الملك شجاع وهو يموت ليقول له متشفيا " قتل بقتل " "أتذكر غدرك بالملك مطر؟! "

وصلت أخبار مصرع الملك شجاع لمدينة الرعاد التي كانت تحمل اسم مدينة ضبعة ، وسماها الملك الرعاد مدينة الرعاد باسمه .. وصل الخبر إليها بأن راعيين قاما بالغدر بالملك ورجاله على غدير ماء ، فقالت سيرة لمقداد " أتراهم وفقوا بما شاع إلينا ؟"

" أظن أنهما وصلا لقتل الملك .. ولكن لم نعلم بنجاتهما أو موتهما .. سأرسل رسولا خفيا يسمع الخبر اليقين "

وعم السرور عند أهل المدينة بهذا الخبر ، وتمنوا اغتيال الحاكم شاقور .. وبدأ أعوان الملك مطر بالاستعداد لإظهار ابن الملك مطر مطالبا بتاج البلاد .

أخذ رجال الأمير مقداد والقائدان الفهر وابنه فوزان يستعدون للحظة التاريخية بإعلان البدء بتحرير البلاد بالقوة والسنان والانقضاض على الحكم .

مدينة شجاع

قضى الشابان شهرين في مدينة قدم غزال ، ولاحظا الصراع الخفي على السلطان ، فبعد الفشل في العثور على الراعيين نسي أمر اغتيال الملك ، ولم تعرف الجهة التي كانت وراء القتل .. فأعداء الملك كثر .. فقد قتل كثيرا من السادة والأمراء ورؤساء وتجار المدن .. وكيف تمكن هذان الراعيان من خداع الملك ورجال صيده ؟! وهم أهل الفكر والفطنة والقوة ، واشتهر قول الوزير (صندوق) : إن أعداءنا لا يحصون ؛ فإذا لم يعلن القتلة عن أنفسهم فلن نعرفهم .

فلما فهما المدينة وأهلها ومشاكلها ابتاعا جحشين ، ومشيا بهما نحو بلادهما ، ولما استقرا فيها ليلة واحدة مشيا مع غروب اليوم بزيهم إلى قصر الأسد ، وطلبا الطعام فأدخلهما الخادم بعد موافقة الأميرة إلى قاعة الطعام ، وقدم لهما الخدم الطعام ، وبينما هما يبلعان الأكل والطعام قال ضرغام للخادم " أين الأميرة ؟ نرغب بنقل رسالة لها "

قال الخادم بدهشة وعجب : أنتما المتسولان ترغبان بنقل رسالة للأميرة ! ما هي الرسالة "

ـ قل لها رسالة من الراعي وليد .

نقل الخادم الرسالة للأميرة ، وتفاجأ وزادت دهشته أكثر عند طلب الأميرة منه البحث عن زوجها وألا يسمح للخدم من دخول قاعة الطعام ..

واجتمعا بالملكة والأمير زويد المقداد بالحجرة السرية ، وسرت الأم من انتقام الأمير لأبيه، وطال احتضانها له ، وكانت تبكي وإياه على روح الملك مطر ، وقالت : نعم الابن يا ولدي .. لقد أثلج صدري نجاحك بالثأر لأبيك .. ونجاتك .. فأنت الملك اليوم .

وقال مقداد : أنت بطل البلاد! .. وهذه جسارة وذكاء منك يا ولدي! لا عدمتك الأمة.. بوركتم والبلاد تستعد للثورة على نائب الملك .. فما العمل أيها البطل ؟

ـ كم لدينا من الجيش الذي هو مستعد للضربة الأولى؟ .. ولإعادة المملكة الأولى .. التي قتلت قبل عشرين سنة .

ـ لدينا من الرجال الخلص ما يربو على خمسة آلاف بطل .. وهناك مثلهم متعاطفون معنا ؛

فإذا نجحنا في الضربة الأولى سيتشجعون للوقوف معنا وسيلحقون بنا عند التغيير ..

فقال ضرغام بحماس: جميل هذا ! بعد صلاة الجمعة سنزحف لقصر الحاكم .. في قصر الإمارة ونقتل الحامية عن بكرة أبيها.. وعلى بعض الأفراد أو المجموعات الصغيرة .. إعاقة القادة خارج قصر الحكم .. وليكن الدم هو الحكم بيننا .. لأننا إذا فتكنا بكل هؤلاء الأنذال دون هوادة.. سيقذف الرعب في جند مدينة قدم الغزال .. لأننا سنهاجمها فور انتصارنا هنا .. حتى لا يتمكنوا من الكرة علينا .. لابد من الإقدام .. فهل هذه الآلاف مستعدة للثأر؟ .. لأننا يا أمير مقداد إذا عفونا عن هؤلاء سيقاتلوننا .. الحياة أو الموت ... سنزحف إليهم ليكون بيننا لقاء فاصل .. لن نترك لهم فرصة التدبير بهدوء .

قال الأمير جذلا : يا الله يا سيرة ! إني أسمع كلام جدك الرعاد أيها الملك؟ وأخشى أن لا يقبل رجالنا بهذا العنف والدم ..

ـ وهل ننتظر حتى يلملم الملك دغفل فلولهم ويغزوننا في عقر دارنا ؟ .. ألف فارس يكفون للزحف لتلك المدينة .. ألف يحبون الموت على الحياة .. ألا يوجد ؟

ـ يوجد ، وهل تآمرنا وصبرنا من أجل الحياة يا ضرغام ؟! الذي كان ينقصنا الرأس الذي تخضع له الرجال والفرسان .. فلو وجدنا رأسا من أسرة ملكينا الرعاد لحصلت الثورة قديما ؛ ولكن لكل أجل كتاب .. الجمعة موعدنا ستظهر للقوم عند انتهاء صلاة الجمعة .. وسيكون جواديكما معدين .. لإظهارك للناس والأعوان ..

فقال ضرغام بحماس : الجمعة أمام المسجد الكبير .. رتب الأمور مع الأعوان والمناصرين للثورة إما الحياة السعيدة وإما الموت الشريف . فاحتضنه المقداد وعانقه وقال سعيدا : عنفوان جدك أراه فيك! .. كان جدك الرعاد يحب الحسم في الخطب .. فقد أدركت جدك وأنا في مقتبل العمر إما الحياة الكريمة العزيزة وإما بطن الأرض .. الحياة بذل كارثة أيها البطل ستبقى مختفيا هنا إلى يوم الجمعة .. وثياب الملك بين يديك خلال الأيام التي تفصلنا عن الجمعة .. نحيي أم الملك البطلة الشجاعة التي ولدت لنا هذا الإنسان الشجاع .

فقالت لزوجها وهي تبكي : كنت نعم الزوج .. والأخ الشجاع .. وهذا ما كنت انتظره من قدر الله .. أن يعود الملك لابن الملك وأن ينتقم لدم غدير الدم ..احتضن الأمير زوجته شاكرا

كان رجال الحامية والحاكم يحكمون المدينة بسيف الملك شجاع، ومكر الجواسيس والخونة ضعاف النفوس ، وهم منذ سنوات يشعرون بمكر يجري في قلب المدينة منذ ظهور إذاعات عودة ابنة الملك مطر.. وبحثوا وقلبوا وسألوا وأتى سريان أمير الملك شجاع وفتش وتحرى دون فائدة.. وبعد مقتل الملك شجاع غيلة.. زادت الإشاعات دون أن يظهر شخص أو زعيم يطلب شيئا .

كان مهمة الحاكم الأساسية جبي المال من التجار والأغنياء وإرساله للملك ، أما الشرطة والقضاة فهم الرجال السابقون من عهد الرعاد ومطر وطل .. ولا يتدخل الحاكم إلا عن الضرورة أو دخول أحد أفراد الحامية بقضية مالية أو أخلاقية كاعتداء أحدهم على أنثى فيضطر لإنقاذ رجله .. فهم لم يكونوا قوة كبيرة فهم أقل من مائتي رجل .

وخلال اليومين السابقين للجمعة أحس رجال الحامية بشيء مثير وكيد في المدينة ولكنه غير واضح مبهم .. لا أحد يطلب ملكا .. وكانوا متوترين دون تحديد سبب حقيقي .. وكانت حركة الثوار تسري بسرية أربكت العيون وأعوانهم .. ولما سلم الإمام من صلاة الجمعة في مسجد المدينة الكبير ، وقف شاب ذا صوت جهوري وخطابي معروف لأهل المدينة ، وأعلن بصوت جهوري للناس أن الملك ضرغام ابن الملك مطر وصل المدينة وأنه أصبح ملك البلاد والعباد.

ووقف ضرغام بثيابه الملكية وبرز أمامهم ، وقد أزال العباءة عنه ، وأعلن نفسه أمامهم بأنه ابن الملك مطر وحفيد الملك الرعاد ، وأنه صاحب الملك الحق لهذه المدينة ، وأمرهم بالزحف إلى قصر الحاكم .

وارتفع الهتاف والاحتفاء بالملك الجديد . ولم يكد يخرج من المسجد ، ويركب الجواد حتى زحف الفرسان على قصر الحاكم من عدة جهات .

اقتحم أهل المدينة الحامية بعد قتل الحرس بسرعة الريح ، ودب الصراخ والعويل وقتل الرجال والشباب ، وجمعت النساء والأطفال خارج المدينة ، ولم يأت الليل حتى كانت الحامية في خبر كان ، ولم ينجُ من الانتقام إلا من كان في تلك الساعة خارج المدينة .. وقتل أكثر الجواسيس المعروفين للناس ، وكذلك الأسر الخائنة تعرضت لمثل ذلك.. وفي الليل على ضوء المشاعل دخل الملك ضرغام قصر الحكم .. وقد أخرجت الجثث من القصر وقلعة الحكم .

وفي الصباح أمر الملك نساء وأطفال الحامية بالعودة لبلادهم ، وإخبار ملكيهم بما حل برجاله.. وبعد تطهير المدينة من الدم والخونة الذين تعاونوا مع الخونة في ظلم المدينة .. أمر الملك بالاستعداد للزحف إلى بلاد قدم الغزال لاسترداد الأموال والانتقام للأمراء والناس الذين قتلوا خلال سنوات حكم الظلمة .

وفعلا كان الملك دغفل قد أمر أحد أشقائه بالإسراع للثأر من مدينة الرعاد ، والتقوا في الطريق وهجم فرسان الملك ضرغام المتحمسون للنصر ، فقتلوا حملة الأمير سري ومن هرب تبعه الفرسان بكل حماس وفرح ، وجمع الملك ضرغام جيشه ومن تبعهم بعد انتهاء معركتهم مع فرسان الأمير سري الذي هلك أثناء القتال وخطب الملك فيهم خطبة حماسية وأهمية إذلال الأعداء الذي نهبوا أموال البلاد مدة عشرين سنة فقال : لابد من متابعة القتال فمن يطمع بالحياة فليستقر هنا أو يعود.. أما أنا وأخي محسن وزوج أمي مقداد سنتابع الحرب ، وسنقاتل حتى نملك بلادهم كما ملكوا بلادنا.. ونجلب عمي الغادر طل من سجنهم ليموت في سجننا وسيحاكم على جرمه من جديد .

فلم ينسحب إلا عدد يسير ووصلت دفعات جديدة متحمسة للقتال والثأر ، وزحف بهم نحو بلاد قدم الغزال .



تقدم الجيش المتحمس نحو بلاد الملك دغفل واصطدم الجيش بشرذمة من جنودهم لم يثبتوا سوى سويعات ، وفروا مندحرين لمدينتهم التي أرسلت وفدا للتفاوض مع الملك الناقم .. فلما جلسوا في خيمة المفاوضات قال لهم ضرغام : أنتم قتلتم أبي غدرا وتآمرا بذريعة معاونة عمي المجرم اللئيم الخائن لدم الأسرة.. ثم استوليتم على البلاد ، وسرقتم أموالها منذ أكثر من عشر سنوات .. اسمعوا بعد هذا الكلام شروطي لوقف الزحف وقبول الصلح .

فقال الوزير : نحن نعترف بحقكم علينا.. وخطأنا نحو بلادكم .. وأعتقد أن قتلكم للملك شجاع وابنه سري والأمير شاقور ورجال الحامية كفاية لإراقة الدم ، ولنسع للصفا والوئام ، ونضع معاهدة تبقى لكل الأجيال، تنص على السلام بيننا وعدم الاعتداء على بعضنا البعض ما دامت ممالكنا قائمة

تبسم الملك ضرغام وقال: هذا الكلام لو قيل قديما لربما قبله سادة وأمراء المدينة .. أما اليوم ونحن نتكلم بلسان المنتصر لابد من تحقيق شروط الصلح والسلام .. لست طامعا بحكم بلادكم .. لم اشف غليلي من الانتقام لدم أبي ورجال حاشيته الذين قتلوا معه على غدير الدم غدرا وخيانة .. فاسمعوا شروطي حتى لا أدخل المدينة فاتحا ، وإذا رضيتم بها أوقفنا القتال وسفك الدماء .. فأنا منذ عرفت من أنا ولهيب النار يغلي في قلبي ؟! الشرط الأول تسليم العم الخائن ، والثاني أن تعاد الأموال التي نهبت من بلادنا على مدار هذه السنين ويمكنكم دفعها على بضع سنين .. وعليكم إيفاد مائة أمير ولو بعائلاتهم ليكونوا كرهائن في بلادنا لمدة عشر سنوات وأي غدر وخيانة يطيل مدة حجزهم .. وألف جواد ومن الدواب الأخرى مثلها ومن السيوف والرماح وديات قتلانا طول هذه السنوات كلها .. ومائة فتاة كزوجات لشبابنا العزاب.. أو الحرب ، فهذا شروطي أنا أيها الوزير وإذا نسيت منها شيئا بعد ثلاثة أيام فهي الحرب .. وغادروا فورا أيها الأسياد .. والقتال يفصل بيننا .

حاول رئيس الوفد أن يتكلم ، فمنعه رجال الملك من الكلام ، فخرجوا مسرعين مولولين .

ولم علم أهل المدينة بشروط الصلح منهم من رفض وبعضهم قال " نخسر القليل خير من

الكثير وكل البلد "

وفي نهاية المطاف أرسلوا موافقين على كل شروط الملك ضرغام ، وقبلوا بشروط الغالب .

ولما وصلت الأموال والعم الأسير الذي رفض ضرغام رؤيته واللقاء به ، وطلب نقله مكبلا ذليلا لمدينة والده ، ووصلت النساء المائة وأسر الأمراء الرهائن ، وعقد الاتفاق بعد ذلك .

رحل ضرغام عن المدينة بالجيش ودخلوا البلاد سالمين غانمين، واستقبل الجيش المظفر بالأفراح والاحتفالات، وتوج الملك ضرغام ملكا على مدينة الرعاد، ووضع الرهائن في قصور تحت حرس من الجيش بقيادة القائد الشيخ الفهر وأبنائه.

وزعت الأموال على أهلها من الجنود والأسر التي فقدت الأبناء .. وأخذ الهدوء يعود لبلاد الرعاد بعد عشرين سنة من الاستعباد للطاغية شجاع .

عين الأمير محسن أميرا للحرس الملكي ، والسيد زويد المقداد زوج أم الملك وزيرا لإدارة البلاد والعباد.. ووزعت المناصب والرايات عن طريق الوزير مقداد



قلعة الملك ضرغام

لما رأى الملك ضرغام وأمير حرسه استقرار البلاد أخذ الملك يفكر ببناء قلعة حصينة للحكم ، وسعى باحثا عن المكان الملائم ، فوجد جبلا عاليا شامخا في السماء ؛ ولكنه خارج أسوار المدينة القديمة ، يبعد عنها بضع ساعات فقال له الوزير مشجعا "بعد حين سيمتد إليه العمران "

ولما بدأ البناء والإنشاء طلب الأمير محسن من الملك زيارة قرية جديلة لإحضار أسرهم ، فقد حان الوقت لإحضارهم والعيش بينهم فقال ضرغام : أحسنت أيها الأخ الشجاع .. وأعلمهم أن المملكة ترحب برحليهم لمدينتنا .. واعرض عليهم عرضنا أيها الشجاع .. وأقنع أمي بالمسير إلينا على الرحب والسعة ..

صحبت الأمير كوكبة من الفرسان الذين ظهرت شجاعتهم في المعارك الأخيرة للمدينة ، وكان الأمير في أول الأمر رفض أخذ رفاق إلا ثلاثة قائلا : يكفي ثلاثة يا مولاي ولن تطول رحلتنا كنا نجوب الأرض جبالا وديانا قفارا براريا دون خوف إلا من الله وحده .

" أنت اليوم قائد معروف للأعداء والماكرين والمتربصين لنا خصوم قبلوا الهزيمة على مضض " أسراهم هنا "

" الأمر تغير أيها الشجاع .. إذا لم تقبل الأم المجيء ، فقدم لها تحياتي وشوقي الكبير إليها.. وأختي سيرة عليك بتشجيعها مع أسرتها للحياة في ظل ملكنا .. فلن أنسى عشرين سنة عشتها بينهم.. فقد شاركتك لبن أمك.. رافقتك السلامة والحماية الإلهية "

وكان الملك أمر أمين الخزانة الملكية بتجهيز عدة بغال بالثياب والطعام لأهل قرية جديلة ، وقبل محسن هدية الملك شاكرا عطفه ووفائه .. وفي لحظة الوداع أعطى الملك لصديقه عقدين من الجواهر واحد لأمه وآخر لأخته سيرة .. ولما مشى الأمير لأم الملك مودعا أعطته بعض الهدايا النفيسة لأمه وشقيقته وجده ، فهي التي ربت ولدها ، وصنعت منه رجلا فارسا عفيفا شريفا شجاعا، ورغبته بدعوتهم للانتقال إليهم ، لتقوم بإكرامها وإظهار شكرها ومنّها لها ..

فقال " كلفني الملك بهذا ، وسأسعى إليه .. أمي لا تحب الخروج من البلدة البتة يا أماه "

استمرت القافلة تسير وتسير حتى حطت رحالها في قرية جديلة القرية التي ترعرع فيها الملك ضرغام بين جبالها وسهولها ومياهها ، واحتفل الناس بالقافلة ، وكانت الناس تتسمع أخبار الملك ضرغام وانتصاراته على مدينة قدم الغزال ، وقد سارت الركبان والرعاة والقصاص بأخباره بين القرى والمدن والبادية ، وخطب الأمير محسن بجموع المستقبلين والمتجمهرين ، وذكر لهم دعوة الملك لهم للحياة في مدينة الرعاد تحت كرم وحماية الملك ضرغام الذي عاش بينهم لظروف خطيرة أحاطت به ، وهو يعتبرهم أهله وعشيرته ، ومملكته مفتوحة لهم .. وحث الشباب إلى الالتحاق بجيش الملك ضرغام ، ومن وجد في نفسه رغبة فليستعد للذهاب معه بعد أيام .. ووزع عليهم هدايا الملك من ثياب وأطعمة من زيت ودقيق وبهارات وملح .

غمرت الفرحة أم محسن وطال عناقها لولدها ، وذرفت دموع الفرح والحب ، وفعلت سيرة بشقيقها ما فعلت أمها .. وذكر لهم بعدما أعطاهم عطايا الملك وأم الملك دعوة الملك وأمه بمسيرهم إليه والحياة في كنفه .

أولم أهل القرية للأمير وحاشيته وليمة كبيرة ، وهو في الأيام التالية أولم لهم وذبح لهم بعض البعران التي صحبها معه محملة مع البغال بالطعام والهدايا الملكية، وعمت الأفراح والخيرات القرية الصغيرة التي لا تزيد عن ثلاثمائة نفر.. فهم أهل الملك في فترة طفولته واختفائه .



قضى محسن خمسين يوما في قريته الصغيرة ، وجند ما يقارب خمسين شابا دون العشرين للسفر معه والانضمام لجيش الملك ضرغام ، ووعدته أمه بالسفر للمدينة حيث الملك عندما تتحسن صحتها العليلة تلك الأيام، ويصعب عليها ركوب الدابة لسفر طويل .

ودع القوم فارسهم بكل حب وفخر، وتحركت القافلة مسافرة وبصحبتها الشباب المتحمس للالتحاق بجيش الملك، وكان محسن قام بإعطائهم التدريبات الأولية .. وصحب القافلة أيضا الجواري أمهات الأولاد ، وكانت إحدى جاريتي ضرغام قد ولدت له أثناء انشغاله بالانتقام ،

فقد تركها حاملا ، فوضعت له طفلا لم يسموه بعد لانتظارهم سيدهم ، وكان أثناء هذه الرحلة قد أصبح قادرا على المشي وبينما هم في الطريق خرجت عليهم عصابة كبيرة فأعلمهم الفارس أن هذه القافلة

تخص الملك ضرغام صاحب مدينة الرعاد ، فأصروا على الاستيلاء على الأموال والنسوان ، فاحتار محسن في حل هذه المعضلة فالذين معه شبان صغار وفلاحون ورعاة صغار ، وهؤلاء من عتاة اللصوص وقطاع الطرق ، فتشاور مع القوم والفرسان المرافقين للقافلة فهم حوالي عشرة فرسان ، فقال " لو قاتلناهم سنخسر البعض ، فهم يركبون الجياد وفرسان ولصوص متمرسون على الفساد في الأرض .. والاستسلام لهم مهانة وذلة .. أشيروا عليّ أيها القوم "

فقال أحد الفتيان: لو قاتلناهم وخسرنا البعض منا فهل يسلم الآخرون وننتصر عليهم ؟

ـ النصر أولا بيد الله وحده .. ثم عزيمتنا وصبرنا يحقق لنا النصر على الظالمين .. هم مسلحون بكل السلاح .. ولكننا نستخدم الحجارة لإعاقتهم ، ولا وقت لطلب النجدة

واستمع لأقوال الفرسان ، وسمع الأقوال المتضاربة ، بعضها يشجع على القتال وبعضهم يشجع على التفاوض وتسليمهم الدواب ، ومتابعة السير على الأقدام فقال أحدهم " وجواري الملك "

فقال محسن بشجاعة واعتداد نفس : أنا الموت خير لي من الاستسلام والخضوع لهؤلاء الأنذال ولكن حياة النساء والشبان مهمة لي أيضا .. سأطلب مبارزة رئيسهم ؛ فإن قتلته ضعفوا وهربوا وإن قتلني فافعلوا ما ترونه مناسبا .

ثم عرض على العصابة المبارزة فرفض زعيمهم هذا القول وقال " نحن نقاتل جميعا "

وشكلوا قوسا واستعد الفرسان للقتال ، وبعد حين نشب القتال وقاتل الفرسان ببسالة، وقام الشبان برشقهم ورمي الحجارة على العصابة بقوة وحماس ، وحمي الوطيس، وفجأة ظهر في الميدان فارس يصيح بقوة " أنا الفارس دعسان عيار الملك ضرغام .. يا ويلكم .. الفرسان ورائي " ، وخاص فيهم يضرب عن اليمين وعن الشمال ، وتبعته مجموعته من العيارين ..

فهؤلاء الرجال أمرهم الملك بعد رحيل محسن برصد الدرب بين المدينة والقرية .. فالملك ضرغام فعل ذلك عن مشورة الوزير مقداد.. فظلوا يتنقلون بين المكانين حتى علموا بخروج الأمير من قريته .. فسبقوهم بأيام .. وتأخر بعضهم لمتابعة القافلة .. ولما رأى ما تعرضوا له من قطاع الطرق أسرع إلى أميره دعسان ونبهه للخطر المحيط بمحسن .. فأسرعوا بالعودة حيث الحصار .. وفتك دعسان وجنوده باللصوص فتكا ذريعا ، وشكر محس للملك فطنته.. وقد تعرض محسن لبعض الجروح الخفيفة ، وكذلك بعض الفرسان ، وأبلوا بلاء حسنا أثناء المعركة وانتهت المعركة بمقتل عدد من اللصوص وهرب الكثير منهم.. وأمر محسن بدفن الجثث، وشكر دعسان على شجاعته وشجاعة رجاله الذي قال : معذرة أيها الأمير نحن تبعناكم منذ خروجكم وكنا نتابعكم.. ثم تقدمنا عنكم بيوم أو يومين .. خدعتنا الظواهر .. وقد تأخرنا في نصركم ..

وتابعوا المسير إلى البلاد.. وحمد الملك ربه على نجاة شقيقه في الرضاعة محسن ، وطلب الملك من العيار دعسان معرفة مستقر هؤلاء المجرمين ؛ ليخرج لهم بنفسه ليقضي عليهم لعدم اهتمامهم بشخصه والاعتداء على أطفاله وأهله .. ومحاولة سلبهم ، وهم ذكروا لهم أنهم من أعوان الملك ضرغام .. وأمر طبيبه الاهتمام بجروح شقيقه وسائر الفرسان .

وخرج دعسان عيار الملك ببعض رجاله يبحثون عن وكر العصابة، وأعداء الملك فهذا من مهمات العيارين في تلك الأزمان مطاردة اللصوص وتعقبهم وإفشال أحلامهم .

وسعد الملك بزوال الغمة ، واطمئن على حياة الفرسان، وأن الجروح لم تكن قاتلة وعميقة .. وسعد بذريته عمرو وعثمان ، وسمى ولده الذي ولد أثناء عراكه مع الملك شجاع وشاقور عمر وهو أحد الخلفاء الأربعة الأوائل للأمة المحمدية .. والتسمي بأسماء الصالحين من دأب الأمم ولما تعافى محسن من جراحه أمر الملك الاحتفال بعودة أبناء الملك وأخيه محسن .

حكم ضرغام

ثم ما لبث أن عادت الحياة لطبيعتها في بلاد الرعاد.. ودخلت الملكة الأم من جديد على ولدها تحثه على الاقتران بأميرة من الأميرات بنات الأسر العريقة ؛ لينجب وريثا حقيقيا للعرش يجمع شرف الأب والأم ، وليعزز استقرار الملك في أسرته فقال الملك رادّا على اقتراحات أمه : يا أماه عندي جاريتان حسناواتان ولودتان .. أنت وهبتيني إياهنّ، وهما من أفضل جواريك كما أخبرني العم مقداد ، ووهبني الله منهما ثلاثة ذكور .. فسلامة ولدت عمرو وعمر ، وجمالة ولدت عثمان .. فلماذا المزيد من النساء ؟! أليس هم أبناء لي ويحملون اسمي أمام الخلق والبشر ؟ ونحن أمامنا بعد عشرين عاما من الأسر تنظيم المملكة من جديد ..

فقالت سيرة معقبة : كأنك ولدت ملكا يا ولدي رغم حياتك في قرى الفلاحين .. إنك مثل جدك الرعاد الذي حملت هذه المدينة في آخر عهده اسمه .. فقد كان حكيما في إدارة الحكم ورعاية الخلق ، وكان حازما عند الحاجة للحزم .. رحم الله والدك كان قويا وملكا ؛ ولكنه كان يميل للهو والصيد كثيرا ، ويترك الحكم لأمك الضعيفة، وجدك غزال الشيخ الكبير .. ورغم وجودي في ديوان الحكم فقد كان الرجال يتحرجون من الإفشاء إليّ بالأخطار مباشرة ورغم هرب عمك والوزير بهلوز وابنته وأفراد عائلته لم يكترث والدك كثيرا للخطر الذي يشكلونه على الحكم والملك.. وكنت أنبهه للتخفيف من الابتعاد عن المدينة بصيده .. وأن الأعداء يتربصون به، فلا يسمع ويظن أن ذلك مبالغ فيه .. ومن خوفي الزائد عليه .. الإنسان البسيط له أعداء وخصوم في حياته فكيف بالملك ؟! فمهما وصل الأمان لابد من الحيطة والفطنة .. فأهل الحقد والحسد والشر موجودون ويمكرون .. والملك من أبناء الأشراف له أثر في غابر الأيام ولاحقها .. الأسر العريقة في الشرف تحترم الشرف والنسب .. فعندما يكون الملك شريف الأبوين يرون طاعته دينا .. وابن الجارية سيبقى يعير بها .. رغم أن هذا من فعل الجاهلية لكن الفخر بالنسب ما زال ..

فقال متنهدا بعمق: عندما يكبرون نزوجهم من بنات الأشراف يا أماه .. فيحرزون الشرف

الذين تشرين إليه .. فأخشى أن يتجدد الصراع بين الأخوة إذا ولدت لنا أميرتك ذكرا ، وصار ملكا، فسيجد الرجال الذين حول عمرو من ذلك فرصة للدس والطعن .. فبعد حين ستتغير النفوس .. ويظهر الفساد في رجالنا وأبنائنا .. لا أريد أن يبرز الصراع على العرش.. إني أفكر بنظام محكم يبعد الصراع بين الأخوة على التاج .. الملك من بعدي سيكون الابن الأكبر عمرو الذي يزيد عن أخيه شهرين أو ثلاثة .. والذي يعيش سيكون سيد المدينة الأول.. وسيعلن عمرو وليا للتاج قريبا يا أمي .. أرأيت عندما لم يعين جدي الرعاد وليا لحكمه أتاح المجال لالتفاف الناس حول الأخوين ليكسب كل منهم صحبة الملك ؟ .. وهذا صراع كما فهمت من العم زويد المقداد بدأ في حياة الجد .. والسادة الكل يقامر ويريد أن يكسب .. وقد أتاح هذا التجاهل أن تضيع البلاد والعباد بين أبي الملك مطر وذاك الخائن طل .. فالمرأة الأميرة التي ترغبين بتزويجي منها مهما كانت طيبة ستسعى ليكون ابنها الملك ، وستجمع حولها من السادة من يشجعها على السعي بوصول ابنها للحكم بزعم أن أمه أميرة وشريفة .. وهو الأحق بالعرش .. وسيبدأ الصراع خفيا ثم يشتد.. وعمرو سيقول أنا الأول أنا الأكبر .. إذا أحسنت ترتيب أمور ولاية الحكم .. سأتزوج أميرة من أجل خاطرك يا أمي

ابتسمت سيرة لهذا الوعد فتابع الملك : سمعت بأميرة وأنا أهاجم مدينة شجاع تتحدى الرجال والشباب وأنها لن تتزوج إلا من يهزمها ويقهرها في السيف والمبارزة .. فأفكر بالمسير إليها خفية والنيل منها ونكاحها

ضحكت سيرة وقالت : ما هذا الكلام يا ولدي ؟ أنت اليوم ملك وسيد تفكر بالزواج من مغامرة .. أي زواج هذا ؟! وهل تختلف النساء ؟ تتخفى وتبارز فتاة !

ـ أحب المغامرات ؟

ـ نسيت خطر مدينة شجاع .. لابد أنهم يستعدون لحرب جديدة .. ولو بعد حين

ـ لا أتصور أن يرفع لهم رأس قبل خمس سنوات على الأقل

وبعد صمت قصير تابع قائلا : فالصدمة ما زالت تسيطر عليهم .. الصراع مستمر ؛ ولذلك

رغبت بأخذ رهائن.. ولكن الوقت ينسيهم إياهم ويعتبرونهم أمواتا .. لذلك لابد من تقوية الجند ، وإظهار قادة جدد له .. فسيظهر أجيال في مدينة غزال يرون أننا ظلمة.. وعلينا أن نبني أجيالا هنا لمثل هذه اليوم.. وأنا بعد عشر سنين بإذن الله سأنهي ما بيننا من ضغائن وأكون خيرا منهم .. يجب أن يشربوا من الكأس التي شرب منها أهل مدينتنا ..

ـ المهم عندي أن لا تفكر بأميرة تتان .. إنها أنثى لا ترغب بالزواج .. إنها رجل بثياب أنثى .. وهل خلقت المرأة إلا لتكون امرأة وزوجة وأما ؟ .. لذلك اختلقت تلك الأنثى ذاك التحدي وربما هي أكبر منك سنا

ـ نحن قريبان في السن .. أنا فكرت بالسير إليها بعد استسلام الأعداء .. فهل ترغبين بإنكاحي فتاة تعرفينها يا أماه ؟

ـ الأميرات كثيرات .. فعماتك ست ، وكلهن لديهنّ أميرات صغيرات يصلحن لك .. وأختي لديها بنات .. وعماتك بعضهن تزوجن خارج مملكة جدك .. فلن نعدم أن نجد أميرة عندهنّ.. أو أكثر ليكن نساء لك .. فأنت الباقي من أحفاد الملك الرعاد .. نسيت أن أسئلك عن أخيك محسن .

ـ هو بفضل رب البرية تماثل للعافية .. إنها جروحه كانت كثيرة .. فهو شجاع كان يصارع ليموت .. خشية أن تقع الجواري والأبناء أسرى للعدو الغادر .. والحمد لله أني وفقت بإرسال العيار دعسان عن مشورة الوزير أبي حسن مقداد .. وضحك .

فقالت أمه : الوزير معجب بك للغاية، ويراك شجاعا وحكيما رغم حياتك في الريف والقرى فيراك ذكيا ومقدما وهو محب لك ..

ـ وأنا أراه نعم الوالد ..وإن جلوسي على هذا العرش بعد فضل الله بشجاعته واستمراره بنشر العداء للحاكم شاقر أو شاقور كما يحب أهل مدينتا تسميته .. ونعم القرين لأمي .. وقد أرسلت الدعسان لمطاردة اللصوص .. وقد تحدث القائد نصر بن فوزان ودعسان مع الجرحى منهم .. فهم من مدن وقرى مختلفة تجمعهم الجريمة والعصابات.. وفيهم عدد من مجرمي مدينة

قدم الغزال .. ومعهم قائد كبير ممن هربوا من تلك المدينة اسمه سريان ، وقد علمت أنه شارك في قتل أبي قبل أن يتحول للص .. وطالبت بتسليمه ؛ ولكنه قد هرب قبل معاهدة الصلح بيننا وهو من رجال الملك شجاع .. وأكد دعسان الذي سأل العم المجرم عنه أنه قال له " إنه هو الذي رتب لجريمة غدير الدم .. وهو وقائد آخر اسمه سعدانو .. هم جاءوا المدينة وتعرفوا على تحركات الملك مطر .. ورتبوا لحادثة الغدير المشؤومة " .. لذلك أكد لي الوزير الشجاع أن حادثة اعتراض محسن كانت مدبرة ومكيدة.. فكان لابد من متابعتهم للقضاء عليهم.. فهم يعملون الآن وحدهم كما هو الظاهر لنا .. وأرسلت رسالة حادة للملك دغفل بأن يجري تسليمهم فور عودتهم للمدينة.. حتى لا يذهب العهد بيننا وبينهم سدى.. وأرسل الفارس دعسان عيونا له في بلاد شجاع ..

ـ إذن لم يكن الأمر مجرد قطاع طرق

ـ هم قطاع طرق استغلهم سريان وسعدان أو هم يعملون لهم .



كان الملك ضرغام قد استطاع معرفة الكثير من الأسماء المتآمرة على قتل أبيه من رفاق عمه طل أو الوزير بهلوز .. وفتك بأكثرهم إلا من هرب واختفى .. وكان الملك شجاع قد أرسل سريانو وسعدانو بجيش لاغتيال الملك مطر ونجحوا .. لذلك بعد تلك المذبحة عند غدير الدم تقدم الرجل الصفوف، وأصبح رجل الملك المقدم والمكلف باغتيالات خصوم الملك في الداخل والخارج .. واستلم قيادة أمن الملك والبلاد ويساعده سعدانو ورجاله المقربون .

ولما رأى أن الهزيمة ستلحق ببلاده ورأسه مطلوب هرب قبل أن يصبح قتيلا للملك الذي أهدر دمه .. وكان هذا الرجل بعد مقتل مطر أحد أصدقاء الملك طل وكثيرا ما زاره ، ولهى معه وشرب الخمر وزنى في قصر الملك طل .

لذلك لم علم العيار دعسان بوجوده مع اللصوص أدرك أن المكيدة مدبرة ومقصودة، ولم تكن

صدفة وعفوية ، وتحرك باحثا عنهم حسب أخبار طل وجرحى اللصوص ، وأن الرجل يسعى للغدر وإفساد الصلح بين المدينتين ليعيش .. فلابد إذن من أسرهم أو قتلهم .

العصابة لم تعترض محسنا فجأة دون تخطيط وكيد كما بدا لنا في البداية .. فالحرب الخفية قائمة سريانو وسعدانو .. يريدان الانتقام لمليكهم قتيل غدير الماء.. والحرب الخفية تذكرون أنها بدأت عند خط الحاكم شاقور رسالة يخبر الملك شجاعا عن الشائعات بظهور ابن للملك مطر المختفي عند مقتله .. وقبل ظهوره علنا أي ضرغام كان من الصعب الوصول إليه .. وجاء سريانو وتحرى وفتش ، وعاد لمليكه خائبا ومطمئنا له من حال مدينة الرعاد .. والأمير ضرغام لم يكن له أصدقاء ورفاق في مدينة الرعاد ؛ فكان من الصعب التعرف عليه والتخلص منه .. واستطاع الشاب الوصول لمبتغاه والقضاء على شجاع وحاشيته أثناء الصيد كما حصل مع أبيه وقد قام والد محسن برعايته وكتم سره حتى وافته المنية ، وقد أرسله ليتعلم السيف وركوب الخيل على أنه ابن راعي ، فصعب معرفة سره لأنه هو عاش لا يعلم إلا أنه ابن راعي .. ونفذ الراعي وصية الأم وتعاليمها على أحسن وجه .. فصعب على سريانو التحقق من حياة ابن الملك العدو المجهول .

اختفى خصوم ضرغام خشية الهلاك ؛ ولكنهم لم يصمتوا ، فهم يريدون إشعال النار والحرب فبقاء الملك ضرغام فهذا يعني هلاكهم وموتهم ولو بعد حين .

وظهر محسن بالصديق المخلص والوفي للملك.. وقد شاركه بالقضاء على شجاع .. فكانت فرصة لقتله عند عودته من قريته التي بدا اسمها يظهر.. وأن الملك عاش فيها كابن راعي .. فأرسل سريانو بعض أعوانه للتجسس في بلاد الرعاد .. يذهبون كتجار كرعاة .. وعرفوا بخروج محسن إلى جهة ما .. وهو رجل ظهر اسمه أثناء فترة التحرر من الاستعباد .. وهو سيف الملك وقائد الحرس .. هم طبعا لم يعرفوا إلا أنه ذاهب في مهمة ملكية .. وتبعته العيون حتى رجع بعد حين.. فرتب سريانو وبعض رجاله الكمين الذي أرادوا أن يبدو بين الناس وللملك ضرغام والملك دغفل أنه كمين قطاع طرق ولصوص.. فاستعان بعصابة لصوص له معرفة

بزعيمها .. وإذا اكتشف الجريمة .. عصابة تسعى لأموال ودواب القوم .. فلا تتهم مدينة دغفل بالحادثة ويقتل الرهائن.. ولم تجر الأمور كما خطط سريانو وسعدانو.. ظهر العيارون في الميدان في الوقت المناسب، وقاوم محسن وفرسانه ببسالة وشجاعة ..

هرب زعيم اللصوص وسريانو ومن نجا .. وعلموا أن الملك ضرغاما أرسل الدعسان لتعقبهم ومطاردتهم وقتلهم والقضاء عليهم .. والدعسان لم يكن مجهولا لدى العصابات، فهو اسم يتردد في الوديان والجبال ، ومغامراته في مطاردة اللصوص يتناقلها الركبان منذ عهد الملك الرعاد .. الذي كلفه بمحاربة لصوص القوافل وتأمين الطرق لها .. لتصل لبلاده سالمة وقد كان هو نفسه في مطلع حياته لصا كبيرا قبل القبض عليه في زمن الملك الرعاد ، وتاب على يديه، وقد عفى عنه وكلفه بهذه المهام .. فاتصل بأعوانه ودعاهم للتوبة والخدمة مع الملك الرعاد.. وكان صديقا للملك مطر.. فلما قتل ابتعد وعاد لبلدته حتى سمع بعودة ابن الملك ضرغام فلحق بجيشه وفرسانه وعرف بنفسه وعرفه مقداد وتذكره .. وأحبه الملك ضرغام ، واتخذه صديقا له ولمحسن .. وطلب منه العودة لوظيفته كعيار وحماية الطرق من اللصوص، وقد منحه الملك لقب حارس الملك .. وصار اليد الخفية للملك .



الحرب الخفية

بعد شهور قاربت السنة تعافى محسن من جروحه كلها ، وأصبح قادرا على اعتلاء الجواد واللعب بالسيف والطعن بالسنان، وبينما هو سعيد بعافيته جاءته رسالة عن أمه فيها خبر بزواجها من العبد سهام الذي وهبه لها الملك ضرغام على لسان محسن نفسه ، عندما مشى محسن قبل سنة لجلب الجواري والنساء أمهات الأولاد

فتضايق وتألم محسن لسماع هذا الخبر ، وقال متضايقا للرسول " ألم تجد سوى العبد ؟! .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. وولدت منه يا الهي ! لابد من زيارة أخرى للبلدة ومعرفة تفاصيل حكايتها مع العبد "

ودخل على الملك وساره بهذا النكاح، فاستغرب الملك مثله ، فالعبد له بينهم سنوات ، وقال مستغربا " ألم تجد رجلا حرا تنكحه ؟!.. لابد أن أمرا مرا اجبرها على ذلك "

ـ مهما يكن هذا الأمر ، فنحن هذه الأيام سادة وأمراء ولسنا سوقة.. وهي لم تكن بحاجة للنكاح أمي نسيت أنها أم أخرى للملك ضرغام .. سأسير للبلد خفية أيها الملك .. أنا لم أنس الحرب الخفية بيننا وبين أتباع الملك شجاع الموتورين.. وإذا تحركت بسرية أو أكثر سأكون مكشوفا .. سأتنكر أيها الملك الكريم وعليك أن تزعم أمام الأمراء والحاشية بمرضي أرجو أن لا تكون أمي انزلقت للغواية مع ذلك العبد .

قال الملك : لا أعتقد أن تهوي أمنا لهذه الفاحشة .. الوحدة لها دورها أيها الأمير .. عليك بالتروي .. إنها تعيش مع الخادم .. فقد تركناها وحدها وقد مات والدها بعد أيام من رحليك بأمهات الولد.. واذكر أن أمك صغيرة في السن .. وحياتك في هذه الرحلة ألا تخشى عليها فالعدو يتربص بنا ؟

ـ القلب يشتعل أيها الملك لهبا.. عليّ أن أسمع أمي وأعرف لماذا هذا الزواج ؟! فكأنها تزوجت بعد مفارقتي إياها، فهي قد وضعت طفلا

ـ محسن احذر أن تمسها بسوء .. فهي أمي كما هي أمك .. لا تعجل بالغضب .. عليك مشاورتي

حتى لو أخطأت، وأنا أربا بها أن تفعل ذلك السوء.. لا تمسها بسوء .. هي أمي كما هي أمك والعبد سهام لا تمسه بسوء أيها الأمير هو اليوم زوجها وقرينها، ولابد أنها حررته قبل زواجها منه .. فقد خدمنا بإخلاص في وجار أبي شجاع .. هناك شأن خفي وهو أبو أخينا .. انظر في أسباب هذا النكاح ، وتصرف بالحكمة التي أعهدها فيك لا تنسى وصاياي يا أخي الأمير .. كن محسنا كاسمك

ـ العار هل يغسل بغير الدم ؟

ـ أي عار ؟!

ـ الزنا

ـ لا أعتقد حدوثه ..أمي شريفة نقية .. والولد أخ لنا شئنا أم أبينا .

صحب محسن أحد رجال الدعسان الأشداء والذي يسبق الجواد ، واسمه عامر وهو من أبرع العيارين الذين يعملون مع الدعسان.. ولم يحمل محسن معه شيئا حتى لا يثير شهية الأعداء واللصوص وجواسيس سريانو العاملين في بلادهم دون شك .

خرج من المدينة نصف النهار مع الناس وبأثواب بالية والتقى بصاحبه العيار عامر في أحد الوديان، وكان معه جوادان قويان وسيف الأمير .. وبعد أيام وصل القرية بسلام حتى أن أمه تفاجأت به ، ولم ينزل بيتها، ونزل في بيت شقيقته سيرة ، فعلمت الأم أنه غاضب وأن أحدهم وشى له بزواجها من العبد سهام ، ولما مشت للسلام عليه وتعرف سبب مجيئه قالت : الحمد لله على السلامة أيها الأمير .. سمعنا أنك تعرضت للصوص وأصبت بجراح شفاك الله منها .

ظل نظره إلى الأرض وقال بغضب وحدة: ما دمت راغبة بالرجال لماذا لم تحدثيني بذلك ؟ .. أتنكحين العبد يا أم الملك ؟

فقالت بغضب واضح وضيق : يبدو أن الأمير محسنا نسي أن أباه راعي وأجير عند الناس .

ـ لم أنس يا أماه ذلك الراعي؛ ولكننا أصبحنا أمراء وسادة.. أترضين أن يقال إن أم الملك ضرغام نكحت عبدها ؟

ـ لقد حررته يا ولدي قبل النكاح .. لم يبق رجال في البيت ، خشيت من القيل والقال.. والرجل شريف ، ولم يطلبني أحد للزواج منذ ترملت .. فعرضت نفسي عليه ، وبعد تردد وخشية قبلني.. وهو رجل حر مثلك ومثل أبيك من قبل .. وأنجبت لك منه أخا .. هل كنت تريد أن آتي إليك قائلا يا محسن أريد زوجا ؟!.. هذا كان واجبك أنت دون أن أقول .. مات أبي الذي كان يؤنس وحدتي وحياتي .

قال بعد تردد قصير : أمي ألم يحدث بينكم أمر مشين قبل الزواج ؟

ـ رغم قسوة الكلام والاتهام .. أقسم بربنا أنه لم يحدث بيننا شيء مريب .. لكن لما خلا عليّ البيت من الأطفال والنساء ، وجدت نفسي مع هذا الرجل .. وحنت نفسي للأطفال .. عليك ألا تسيء الظن بنا ، ولا إلى زوج أمك .

ـ أوصاني الملك على حياتك وحياة العبد والطفل

ـ ما هو بعبد .. هو حر .. والحمد لله لم يذهب لبني فيه خسارة

ـ نحن لم نعد أبناء الراعي جدي.. فلو كان حيا لصار سيدا وأميرا .. أتريدين مني أن أبعد عن الملك والحكم والسلطان وأعود راعيا ؟!



لم يدم مقام الأمير محسن في قريته طويلا ، فعاد ودخل على الملك وقص عليه قصة زواج أمه من العبد فقال الملك : الحمد لله أن الظنون الرديئة ذهبت .. نحن قصرنا في حق أمنا يا محسن .. نسينا في غمرة الأحداث الأم الأرملة منذ عشر سنوات.. رحم الله العم جديا .. لِمَ لم تحضرها معك ؟

ـ أبت يا مولاي الملك .. أصرت على البقاء في قريتها لتدفن فيها ..لا تحب حياة المدينة ورفاهيتها

ـ وذلك العبد ؟

ـ تركته سقيما عليلا قد هده المرض .. عجز عن المجيء لبيت شقيقتي للسلام عليّ .. وعند مغادرتي مررت على أمي لوداعها فرأيته بتلك الهيئة الضعيفة على فراش السقم .. وقلت لأمي

" قد لا أعود لهذه البلدة مرة أخرى.. فارحلوا معي "

ـ وما أجابت أمنا على قسوة كلامك ؟

ـ لزمت الصمت .. وخرجت وأنا فعلا أحس أن هذا آخر العهد بهذه القرية أيها الملك الشجاع

قال الملك بتمنٍ : كنت أود أن تأتي لتعيش معنا هي وبعلها وولدها .. لا يمكن نسيان معروفها نحوي يا محسن .. كانت أما عظيمة بالنسبة لي، عشت معها أكثر من أمي التي ولدتني.. كنت ضعيفا عندما اعتنت بي ، فإكرامها واجب علينا

ـ أبت الرحيل ، تريد أن تموت في بيت وقرية عاشت فيهما.

ـ دع ذلك للزمن لعلها تغير رأيها .. لابد لي من زيارة القرية ، وتقديم الشكر لأهل القرية .. أيام لا تنسى أيها الشجاع في تلك القرية الوادعة

ـ هذا من كرم السيد أيها الملك السعيد

ـ والأخت النفيسة سيرة ألا ترغب برؤية أخيها الملك ؟

ـ زوجها عاجز عن السفر، فهو يبر والدين شيخين أيها الملك الشجاع

ـ حق لهما البقاء ما دام الشاب بارا بوالديه راعيا لهما .. إني بشوق لرؤيتها والحديث معها .. فمنذ خرجنا نطالب بحقنا لم نرهم ولم نمزح معها .. لو لم تزوج لزوجتها أميرا من أمراء مدينتنا لتستقر معنا .. لعلها هي الأخرى تشتاق لنا مع الأيام .

غمر المكان صمت لدقائق ؛ كأن الملك ذهب بخياله لتلك القرية الصغيرة الهادئة ثم قال : عيارنا الدعسان يبدو أنه اقترب من اللص الغادر .

انتبه محسن من سرحانه هو الآخر وقال : حقا !.. كم أنا متعطش لذاك الخائن وصلبه على باب المدينة؟!.. لم يرحم ضعفنا ؛ لكن طال البحث عنه

ـ هؤلاء الملاعين لا مكان واحد يثبتون فيه .. فهم يتحركون لممارسة بغيهم .. العجيب من أمرنا أننا مع كثرة تنقلنا بين المدن والقرى لم نصدف لصا أو عصابة

ضحك محسن وقال : كان حظنا حسنا يا مولاي .. حتى قريتنا لم تعان منهم كما تذكر رغم

سماعنا عن اعتداءات لهم على القرى من حولنا .. فهم يهجمون على القرى أحيانا لنيل الطعام والاستيلاء على المواشي وبيعها في المدن .. ويأخذون الأعلاف لخيولهم .. فأهل القرى مسالمون يدفعون للصوص مقابل ترك حياتهم وبعض طعامهم لهم .

ـ ولماذا يسرق هؤلاء الناس ؟! هل هم جوعى ؟

ـ لا أعتقد هذا أيها الملك .. هؤلاء في الغالب استهوتهم المغامرة والكسل عن العمل .. وبعضهم لص ومجرم في بلدته، وابتعد عن شرطة بلدته .. وبعضهم ارتكب جرما قاتلا فهرب وانضوى تحت تلك العصابات طمعا بالحياة والعيش بسلام مع تلك العصابات

ـ عندما يعود الدعسان سنرى ما سنفعل بهؤلاء الملاعين؟ .. فقد أخبرني الوزير كما أخبره قائد الشرطة أن لصوصا اعتدوا على بعض الفلاحين خارج أسوار المدينة .



أميرة تتان

وبينما الملك يشكو لصوص الليل لأمير الحرس أخبره الحاجب بأن رسولا يحمل رسالة خاصة فاستقبل الملك الرسول في ديوان الحكم ، وأمر الكاتب بفض الرسالة ويقرأها فقال الرسول :

إنها رسالة خاصة لكم مولاي الملك من أميرة تتان الأميرة نهيلة بنت الملك حس غاب

أخذ الملك الرسالة من يد الكاتب وقرأ فيها بعد التحية والسلام

" علمت يا ملك الزمان من بعض الشعار أنك ذكرتني ورغبت بالزواج مني ، ولولا مقامك بين الأنام لسعيت لمبارزتي لتحضى بي قرينة لكم ، فسرني وأسعدني ما سمعت يا ملك الزمان، وفرحت به ، وأنا مثلك تمنيت هذا اللقاء.. فأقبل إلى الميدان ؛ لترى حسن وشجاعة الأميرة نهيلة بنت حسن غاب سيد بلاد تتان والسلام "

دفع الرسالة لوزيره زويد المقداد وقال للرسول : أنت رسول الأميرة فحسب أم خادم خاص لها ؟

ـ نعم ، يا مولاي أنا خادم لها كلفت بنقل الرسالة ، فهي تهديك السلام وتطلب اللقاء في ساحة الميدان ، وترحب بك ضيفا على بلاد تتان .

انتهى الوزير من قراءة رسالة الأميرة وأعطاها بإشارة من الملك للأمير محسن قائد حماية الملك ثم أمر بصرف الرسول لبيت الضيافة ..ولما انتهى منها محسن أخذها الكاتب وقال: عندما اعترض الرسول خشيت أن تكون رسالة مسمومة ، فبعضهم يغرق الورق بسم قاتل ويجففه لحين فينتقل السم لقارئ الرسالة شيئا فشيئا عن طريق الامتصاص والتعرق

ـ أشكرك أيها الكاتب الشجاع.. نظرت في عيني الرسول ، ثم ذكرت أنه لا عداوة بيننا وبين تتان

وتنهد الملك وقال : أيها السادة إنني وأنا أحارب كما تعلمون عند أسوار قدم الغزال دخل علينا ذات ليلة شعراء كرام يمدحوننا ، فوصف أحدهم أميرة تتان وشجاعتها، وطمع الملك شجاع بها وسار إليها وهزمته، واستسلم للهزيمة ، فطمعت نفسي بها والفوز عليها.. وأنا محارب ؛

ولكني لست بالفارس ذي الشهرة الكبيرة ، إنما أحسن القتال والدفاع عن النفس ولست جبانا.. وهل تستحق امرأة أن أقاتل من أجل نكاحها حتى ولو كانت ملكة؟! فأمي الملكة قالت لي كلمة عظيمة "النساء كلهن واحد في أمور النكاح والجماع" .. ولا أنكر أن حسنها كما قال الشاعر يفتن الألباب والحجا.. وإنها مضرب الجمال في تلك الديار

قال الوزير مقداد مبهورا : كلامك كلام ملك عاقل!.. ملك عظيم! .. النساء شهوة يا مولاي والنساء كثير .

ـ إنها تتحدى أيها الوزير العاقل

فعاد الوزير يقول : إنها أنثى، ولا فخر بالفوز على أنثى .. اطلبها للزواج وعندما تستقر بيننا ادعها للمبارزة .. فلا نريد أن نخسرك أيها السلطان وتتعرض لغدر من الأعداء الماكرين المتربصين

ـ هذا ما أفكر فيه حقا .. نحن ما زلنا في حال قتال مع مدينة الملك شجاع .. وكما استيقظ فرساننا ورجالنا فلسوف يستيقظ رجالهم وشبانهم بعد أن تذهب سكرة الضعف والذل .. وتعود الحرب .. فرغم أخذنا مائة رهينة لضمان الوفاء بالعهد والاتفاق.. فها هم حاولوا النيل من القائد محسن غدرا وبالتعاون مع اللصوص ، وبعضهم كان من رجال شجاع .. وفارسنا الدعسان يتعقب جحورهم دون فائدة تذكر .. سنبعث رسالة لتلك الأميرة أعرض نفسي زوجا بدون مبارزة كما قال وزيرنا الشجاع .. إن قبلت مشى إليهم وفد لطلب يدها من أبيها وسادة مدينة تتان وإلا انتهى الأمر .

وكتب الكاتب رسالة بهذا المعنى وبعد انتهاء الأيام الثلاثة دعي الرسول وأعطي الخطاب، وسار به لبلاده ، ولما قرأت الأميرة الرسالة صعقت بما فيها ، وظهر غضبها وسخطها، فلما قرأها الملك حس غاب أخذ بالضحك عاليا ثم قال شامتا : هذا ملك حكيم يا بنية!.. النساء بين يديه كثيرات، فلماذا يجازف بنفسه للمجيء هنا للمبارزة ؟ مبارزة الأميرة التي لم تلد النساء مثلها غرورا ووهما .. فإذا كان لك فيه هوى ، فها هو يطلب الاقتران ببدنك وروحك فاقبلي عرضه

ـ بعد أن هزمت عددا من الأمراء والفرسان أأقبل الزواج بدون أن أهزم ؟.. هذا لا يكون أبدا

ـ دعك من الغرور فقد كبرت سنك.. النساء اللواتي في عمرك قد ولدن الكثير من الأبناء .

ـ لا يا أبي لن أتزوج إلا من يتغلب عليّ في ساحة الميدان ويهزمني

ـ الغرور قاتل ويورد المهالك.. وقد صبرت عليك كثيرا ، وهذا ثاني ملك يطلبك حليلة.. جاءك شجاع طالبا الزواج ، وأصررت على المبارزة وهزمتيه وقبل الهزيمة لما بيننا من الدم والقرابة .



بعد حين يسير عاد رسول الأميرة يحمل كتابا جديدا للملك ضرغام تعير فيه الأميرة الملك بأنه ضعيف ، ويهرب من لقاء امرأة بارعة في السيف والقتال ولولا ضعفه لما فر من لقاء امرأة .

فقهقه الملك عاليا ، وقال الملك الذي كان قد أخرج الرسول قبل فتح الرسالة : هذه الأميرة تكاد تقول تزوجني .. وغرورها وكبرياؤها يمنعانها من قبول طلبنا والاستجابة لرغبتنا باتخاذها حليلة.. اكتب أيها الكاتب ردا مستفزا ، وخذ مني هذه العبارات " لو كان الفوز على امرأة في معركة مفخرة لكثرت الفارسات في التاريخ .. فالحرب خلقت للرجال.. وأكثر من يموت في المعارك هم الرجال .. ونساء الخاسرين تصير سبايا وخادمات للفرسان المنتصرين.. فليكن زواجنا على سنة الرحمن "

فلما قرأت الأميرة نهيلة تلك العبارات أصابها الجنون وكادت تفتك برسولها، ووعت أن استفزازها للملك ضرغام غير مجد .. وأن الرجل لا يُكنّ لها هوى إنما يشتهيها كما يشتهي الرجل جاريته وزوجته.. ولم علم الملك حسن غاب برسالته الجديدة ازداد إعجابا بهذا الملك الشاب ، فقال مرة جديدة : أراك تراسلين هذا الملك الشاب فإن كان لك هوى به لشجاعته وحكمته ؛ فلنسع في ذلك على سنة الرحمن كما كتب لك .. فهو ليس أحمق كالذين بارزوك.. وليس مفخرة للفارس الشجاع أن ينتصر على أنثى .. وها هم الذين فزت عليهم تزوجوا النساء ونسيهم

الناس .. إنه ملك وأنت ابنة ملك فهذا هو الشرف .. هذا هو الشرف .. الناس لا تهتم لهزيمة رجل من قبل امرأة .. يشهد لك الفرسان بالقوة والشجاعة .. وماذا بعد؟! وكما أخبر خادمك الملك الضرغام لم يتزوج من الحرائر بعد .. فأنت أول حرة وأميرة يعرض عليها النكاح .. وقد تتوجين ملكة إذا ولدت له ذكرا كما هي عادة الملوك الكبار.. والرجل راغب بك زوجة وعرض نفسه زوجا لك

ـ آه! يا أبي كيف سأنظر إليه وأنا أراه رجلا عاديا؟!.. أنا أريد رجلا مميزا أفخر به على نساء العالمين أنه هزمني في الحرب .

ـ الملك ضرغام من أبطال هذه الأيام، وقد استرد ملكا ضاع منذ عشرين سنة وانتقم لأبيه من الملك شجاع .. فهو بطل وشجاع .. وأمه بطلة كذلك قد سمعت قصتهم من الرواة .. استطاعت حفظه وظهر كبطل من أبطال الأساطير.. فهذه هي البطولة الحقيقية .. فكل فارس يهزم ببعض المعارك لا ينتصر دائما، ولا يقلل ذلك من فروسيته .. كل فارس يكبر سنا مع الأيام ويضعف .. ومن حظك أن الرجل له رغبة فيك .. فهو لم يعش في القصور عاش في الوديان والجبال والقرى.. إنه صنع لنفسه مجدا بنفسه.. راجعي أفكارك فقد قل خطابك.. والرجال تنفر من المرأة المترجلة .. ماذا يعني فارسة ؟! المرأة حياتها أن تبقى امرأة حسناء متبعلة لزوجها قولي لي ما يعيب أمك الملكة .. وعمرها ما ركبت جوادا لقتال ؟!

جاءت البشرى من الدعسان بأسر زعيم العصابة وأنه في الطريق للمدينة ، فغمر الفرح قلب الملك وقال للوزير مقداد : سنة ونصف وهو يطارده .. دعسان فارس مغوار وصبور.

وصل الدعسان ورجاله بعد أيام يسوقون زعيم العصابة وثلاثة من أعوانه مكبلين بالقيود والحبال على متن الجياد.. فخرج الناس للفرجة على عصابة اللصوص ، وأمر الدعسان بصلبهم في ساحة المدينة؛ ليكونوا عبرة وذكرى لمن يحاول الاعتداء على أهل المدينة .

ذهب محسن بنفسه لرؤيتهم والحديث معهم ، وخاطب زعيمهم بشماتة وكره، فقد كاد يفقد حياته على أيديهم قبل زمن يسير "أعرفتني أيها اللعين ؟"

فقال الزعيم " وهل أنساك ؟ وما أنا هنا إلا بسببك ؟!"

ـ أنت جنيت على نفسك تعرضت لنساء الملك ضرغام، وعملت كأنك لم تسمع .. فالاعتداء على الملوك ليس كالاعتداء على العامة .. الملوك لا يتنازلون عن غضبهم وإلا زالت هيبتهم من قلوب السوقة أيها اللص وذكرت لك أني قائد حرسه ولم تبال.. فكم دفع لك الأمير سريانو ؟

ـ أي سريانو ؟!

ضحك محسن وقال : أنت تمكر بي ! أتنكر أنك كنت مدفوعا ؟ فرجالك الجرحى يعرفون سريانو وسعدانو

ـ أنا اعمل لنفسي .. قافلة وقعت في طريق عصابتي ..

ـ عندما تقف أمام الجلاد ستقر بمن أرسلك أيها اللعين .

وغادره والتقى بالدعسان ، وسمع منه قصة مطاردته للعصابة ، والقبض عليه فقال : ظللنا يا مولاي الأمير نتتبع الأخبار حتى تمكنا منهم في النهاية ؛ وذلك في معركة قصيرة .. فقتلنا منهم عددا وهرب بعضهم وأسرنا الهدف .. وأخذنا بالتنقل خفية ومن طرق غير مطروقة حتى وصلنا إلى هنا

ـ أحسنتم ، وبارك الله في شجاعتكم .. ولكنه ينكر علاقته بسريانو وسعدانو

ـ كذاب يا مولاي الأمير ، فهو يعرف شدة العداء بيننا وبين سريانو فيريد التنصل من معرفته آملا بالنجاة .. أخبرني أحد رجاله أن أميرا دفع له مبلغا كبيرا من المال ليقوم باعتراض قافلتكم والنيل منها وخاصة أنت .. والتظاهر بأنهم لصوص التقوا بكم صدفة دون متابعة ورصد حتى لا تتهم مدينة قدم الغزال بالجريمة .. ولسوف يقر أمام القاضي بجريمته وسيلقى جزاءه

بعد الصلب والعرض أمام الناس لمدة ثلاثة أيام اقتيدوا للسجن ليعرضوا على القاضي بجريمة قطع الطريق ومهاجمة رجال الملك ونسائه ، حقق معهم أحد رجال القاضي ، وأصر الزعيم على الإنكار على أي تعاون مع أمراء الملك شجاع فأمر السيد القاضي بحبسهم حتى يقبض على سريانو وسعدانو .. وأن يبقوا بالقيد الثقيل داخل الحبس حتى لا يفكروا بالهرب.. فقال الملك

لمحسن :أيعقل أنهم ليسوا من أعوان سريانو اللعين ؟

فقال محسن : الأعوان سمعوا باسم سريان وأولئك لم يروه .. وزعموا أن معهم رجالا من مدينة الملك شجاع ..

فقال الملك : السجن خير لهم حتى نرى سريانو بينهم .



مكر سريانو

جاءت رسالة ثالثة من الأميرة نهيلة بن حسن غاب وقد جاء فيها " ... نعم ، أعترف أنك هزمتني أيها الملك ، وكنت بشوق للقائك في الميدان .. وفكرت أن آتي مدينتك لهزيمتك بين أعوانك؛ ولكن والدي الملك رفض هذه الخاطرة وقال: " إذا كنت تريدينه بعلا لك فأرسلي رسولك إليه معلنة الموافقة لهذه المصاهرة ".. فإذا كنت تراني مناسبة للزواج منك أيها الملك المبجل.. فأرسل واصنع ما يفعله السادة في الزواج من بنات الملوك.. فأنا معجبة بك منذ سمعت بمعاركك مع الملك شجاع .. أحببتك حق الحب .. وكنت أطمع أن أكون عندك جارية ولكن شرطي كان يحجزني أيها الملك المبجل ..إني في انتظار ردك الكريم .. العاشقة للبطل ضرغام بن الشهيد مطر نهيلة بنت حسن غاب "

سر الملك وهو يقرأ رسالة الأميرة التي أعجب بجمالها وحسنها من وصف شاعر أحسن الوصف أمامه ، وها هي قد استسلمت للزواج دون قيد أو شرط .. وسر لتعلقها به ، وهو أدرك ذلك من أول خطاب نقل إليه .. فهام الملك بها هياما ، فهو قد عشقها منذ وصفها له أحد الشعراء أثناء الحرب التي قادها إلى بلاد قدم الغزال .. عشقها على السماع .

تشاور وتحاور الملك مع وزيره وأخيه محسن بهذا الزواج .. وكان الكل يحب أن ينكح الملك أميرة سواء من أميرات البلاد أم من أميرات وبنات الملوك .. لأنهم كانوا يرون من كمال الرجولة الزواج من الأميرات وترك السراري .. وكان لفارسهم هوى بتلك المرأة على السماع والوصف فتقرر أن يرسلوا وفدا بقيادة الشيخ حمزة بن ناهد كبير قضاة المدينة لتحقيق هذا المأرب.

وقد دبج الكاتب خطاب السفارة الملكية ، ولما جهز الوفد المكون من خمسين رجلا مضوا لبلاد حسن غاب ، وقد حملوا الهدايا على البعران والبغال ، وصحبهم مائة فارس على أن يتبعهم عشرون عيارا سرا .. وكان الرسول قد أبلغ الملك حسن غاب بأخبار الوفد الملكي ، فطفقوا يستعدون لاستقبال وفد بلاد الرعاد ، تقع بلاد تتان جهة قدم الغزال ، وكلا المدينتين غرب مدينة الرعاد ، الشيخ حمزة القاضي كان قد زاد سنه عن الستين عاما وهو قوي البنية .. ولما غادر

الوفد المدينة أخذ أهل البلاد بالاستعداد والتهيؤ للاحتفال بزواج الملك من ابنة الملك حسن غاب .

خرج الملك حسن غاب بنفسه في استقبال الوفد على مدخل المدينة، وبعد التعارف والعناق ساقهم إلى بيت الأضياف ، ثم أعلن الملك نكاح الأميرة نهيلة من الملك البطل ضرغام بن مطر وشرعت المدينة تحتفل بزواج ابنة مليكها.. فأقيمت الحفلات العامة والخاصة في شرق المدينة وغربها ، وتخللتها الولائم على نفقة الملكين .

ولما تجهزت قافلة الأميرة تحركت القافلة لبلاد الملك ضرغام تصحبهم العروس وبعض جواريها وخدمها ، وكانت الأميرة داخل هودج ، ومعها جارية صغيرة في السن .

ولما اقتربت القافلة من طرف مدينة قدم الغزال للتحول جهة مدينة الرعاد أحاط بها أعداد من الفرسان ، وعملوا غارة سريعة على القافلة ، ونشبت معركة دامية بين الفرسان وحماة القافلة.. واستمر القتال حتى اقترب فرسان من هودج الأميرة وساقوها إلى مكان مجهول.. وكان القاضي قد قتل أثناء المعركة مع عدد من فرسان الملك ضرغام .. ولما وصل الخبر المفزع للملك حسن غاب اشتد غضبه وفزعه، وأرسل جيشا يبحثون عن الأميرة المخطوفة ، وإسعاف الجرحى ونقلهم للمدينة للمداواة .

وغضب الملك ضرغام للغدر والخيانة واستدعى الدعسان ، فأخبره الدعسان بالكمين الغادر ورأى أنه من سعي وتدبير سريان وسعدان وقال : لن يهدأ لي بال حتى أضعهما أمامك أيها الملك الشجاع .. لقد سعى أحد رجالي لحماية هودج الأميرة ولكنه قتل .. وقد خسرت فرقتي أيها الملك الشجاع ثلاثة من فرسانها ..

ترحم الملك عليهم ، وأوصى بأسرهم وقال : اهتم بالأمر بكل قوة.. سنشيع مولانا القاضي والقتلى بمشهد جليل ومهيب .. انصرف واعمل سريعا يا أمير دعسان ..

ـ الحرب سجال ، سننال منهم بمشيئة الرب العظيم .. سأخرج لهم بنفسي .

وشيع أهل المدينة قتلاهم، كما قال الملك بمشهد عظيم، حضره كبار السادة والأمراء وأبناء

الشهداء، والكل يتوعد ويهدد بالنيل من الغادرين الخائنين .. وجاء خبر بعد حين أن الأميرة المخطوفة تنزل في وادي السبع .



أرسل الملك بعض العيارين لوادي السبع يتحرون الخطب ، ورجع بعضهم يخبر الملك أن الأميرة مكثت فيه فترة ثم اختفت .. واستمر الحال في ضباب وتعمية حتى تلقى الملك رسالة من الأميرة المخطوفة تتهمه بالجبن والتخلي عنها، وأنها قضت أسابيع بين قطاع السبل، ولم يحرك ساكنا ، وتسأله الطلاق، وأنها الآن مستقرة في موطنها تتان .

ولما شاور الملك الحاشية والقضاة أعطى الرسول رسالة يعلمها فيها بطلاقها ، ولا حاجة له بأميرة جلبت مأساة لقومه ، وأن كل الأموال التي أكرمها بها هدية منه لها ولقومها، وذكر لها أن رجاله دخلوا وادي السبع بحثا عنها ؛ ولكنهم وصلوا بعد اختفائها .

ولما تلقت الرسالة أخذتها موجة من النحيب والبكاء الحاد ، فقالت لوالدها الملك : كنت أظن أنه عاشق ولهان .. كنت أظن أنه سيحرك جيش بلاده لتحريري وإنقاذي من اللصوص والعصابات .. كنت أظن أنه سيهرع إليّ مسرعا رافضا الطلاق .

قال أبوها: نحن سعينا في البحث عنك.. ولم نعرف أين ساقك الرجال ؟.. ويبدو أن رجاله أذكى من رجالنا فقد وصلوا لوادي السبع ثم توقفوا.. وإلى أين يتحرك القوم ؟ لقد عجلت بطلب الطلاق .. فهم خسروا القاضي حمزة الشيخ الشجاع في هذه المعمعة .. لليوم لم تشرحي لي كيف حررت من الأسر ؟!

ـ أنقذني قريب لأمي .

قال دهشة واستغرابا: قريب لأمك كيف ؟!

ـ وأنا في الأسر .. التقى رجال العصابة بالأمير سريانو رجل الملك شجاع قريب أمي .. ولما علم من أنا أمرهم بالعفو عني ، وأنه سيدفع لهم فدية .. وهكذا تحررت يا أبي .

فكر الملك قليلا وقال: سريان رجل القتيل شجاع .. هل تعلمين أن الملك ضرغاما يطلب حياته لمشاركته في قتل والده الملك مطر ؟! كيف اجتمع بهذه العصبة المجرمة ؟! أم أنه أحدهم وهو وراء هذا الكمين الغادر؟

ـ لست أعلم .. المهم أنني نجوت منهم بفضله .. ولم علم بأنني سائرة للزواج من الملك ضرغام قاتل زوج خالتي .. إحدى نساء الملك شجاع كما تعلم غضب غضبا شديدا وقال" يقتلوننا ويتزوجون بناتنا" وقال الحقي بأهلك، واطلبي الطلاق فهذا الرجل سيقتل قريبا .. يقال طلقت ولا يقال ترملت .. ووعدني بالزواج من أحد أبناء الملك شجاع .

قال الملك بسخط وحقد: هذا السريانو إبليس الرجيم .. سيظهر أنه وراء هذا الكمين الخبيث يا ابنة الملك حسن غاب.. أسرك ولعب تلك اللعبة الشيطانية ، ربما اعتقدوا أن الملك أحد أفراد القافلة متخفيا.. وأحس أن هناك تواطأ من حرسك .. فهم الذين ابعدوا فرسان الملك ضرغام عن هودجك بحجة أنهم أولى بالحماية منهم.. مكر .. خبث.. لعبة تتفكك .. لقد حدثني أحد الفرسان أن الخطف مريب .. أخشى أن تكون لك يد في الحيلة والمهزلة .

ـ خطفي مهزلة يا أبي !

ـ سمعنا كثيرا عن اللصوص وقطاع الطرق ، ما سمعنا أنهم أسروا عروسا تساق لزوجها .. قد يطمعون بالذهب والمال ولا يخطفونها .. ويتركون الموكب سائرا

ـ هذا كلام خطير !

ـ خطير لظهور سريان الشيطان في الأمر.. هذا الرجل أبغض الناس إلى قلبي .. ما حل في مكان إلا ساده الشر والموت .. شيطان رجيم .

أتت رسالة من الدعسان عيار الملك ضرغام يعلمه أن سريان وسعدان ينزلان المدينة قدم الغزال بسرية وخفية .

فكتب كاتب الملك رسالة خطيرة للملك دغفل يتهدده بالحرب وغزو البلاد إذا لم يسعى لأسرهما وتسليمهما للملك ضرغام ؛ ليقتلهما لمشاركتهم في دم الملك مطر .. وفيها أنه سائر

إليهم بجيش لاحتلال المدينة لنقضهم العهد وإيواء المجرمين .

وأمر الملك باستعداد الجيش لحملة عسكرية لمدينة دغفل .



وانتشر الخبر وشاع بأن حربا جديدة ستنشب ، وخرج الجيش من المدينة إلى خارجها للانطلاق جهة تلك البلاد .

ولم يطل الانتظار فقد أقبل وفد من قبل الملك دغفل يؤكدون وفاءهم للعهد ، وأن الرجل المطلوب يدخل خفية دون علمهم ومنتحلا لشخص آخر، ويخرج كذلك وأنهم يسعون بكل جد للقبض عليه وعلى أنصاره.. وأمر القبض عليهم ليس سهلا لسعة المدينة ، وكثرة الداخلين من المدن والقرى المجاورة إليها.

فتشاور الملك بعد سماع تلك الأعذار مع قادة المدينة ، فطلبوا تسليم أسرتي سريانو وسعدانو كرهائن عندهم حتى يقبض عليهما فيسمح لهم بالعودة.. فرضخ الوفد لهذا الطلب .. وبعد وصول زوجات وأبناء سريان وسعدان الذين تمكنوا منهم لأن أبناءه الكبار مثل والديهم هاربين عاد الجيش الملكي إلى معسكراته يتابع تدريبه.. وعاد السكون للمدينة بعد تلك الزوبعة .. واستقرت طائفة من العيارين في مدينة دغفل لمراقبة الأمر.

ولما هدأت العاصفة أيضا في بلاد دغفل .. أشهر زواج الملك دغفل من الأميرة نهيلة طليقة الملك ضرغام ، وزفت إليه بحفل بهيج .

وهذا أثار دهشة الدعسان ورجاله وحتى أن الملك ضرغاما تضايق لهذا الحدث ومن هذه الفعلة واستغرب هذا النكاح والمصلحة منه لبلاد قدم الغزال.. فهو يعلم أن كل أنثى خلقت لتكون زوجة لرجل ولتلد البنين والبنات.

ثم كانت المفاجأة عندما علم بصلة القرابة بين الأميرة والملك دغفل .. فهي ابنة خالته.. فالملك شجاع كانت إحدى نسائه خالة للأميرة نهيلة ؛ ولكنها ماتت في سن مبكرة بعد ولادتها لعدد من الأبناء والبنات.. لذلك لما ماتت سعى للاقتران بنهيلة ابنة الملك.. وها هو ابنه ينال الزواج

منها .

فخشي الملك أن تكون متآمرة على الغدر به، وهاهم يكافئونها بالزواج من ملكهم .. فكلف الدعسان ببحث هذه القضية الشنيعة والمزعجة لكرامته .. فكتب دعسان لمولاه" شككت بشيء عندما بدأت المراسلات بينكم، وكان الحال طبيعيا، ولن نعرف الحق إلا منها ، أو من سريان الذي علمت أنه وراء هذا النكاح ، علمت ذلك من بعض جواريها.. وعلمت أنها خطفت لأن حرسها لهم دور في اللعبة، وقد منعوا رجالنا من المشاركة في حماية الهودج .. وقد علمت أن والدها عجب من عودتها بعد ذلك الغياب ، فأخبرته أن سريانو ساعدها في النجاة من رجال العصابات .. وستكشف الأيام الدواهي ".

فعلق الأمير محسن بعد قراءة رسالة الدعسان : الحمد لله ، رد كيدهم في نحرهم أيها الملك.. أنا منذ دخل علينا وفد الشعراء عند غزو تلك البلاد وقد انقبض قلبي أيها الملك .. يبدو أنها كانت مكيدة كبيرة دبرها سريانو اللعين

ـ كيف أيها الشجاع ؟

ـ كنا في حرب وقتال ، وقد هزمنا جيشهم وطلائعهم .. وفجأة جاءوا ومدح أحدهم الملك ، وأثنى على شجاعتكم وبطولتكم بقتل الملك شجاع وسري بن شجاع ، ثم نهض الشعراء الآخرون للحديث عن النساء والجمال والحسن ووصف الأميرة نهيلة بنت حس غاب.. بطريق أثارت انقباضي .. خاصة لما لاحظت تعلقك بتلك الأميرة ، وأخذت تسأل عن والدها وقومها وفكرت أن يكونوا دسيسة وعيونا .. حتى أكد لي الدعسان أنهم شعراء فحسب ، يترددون على الملوك والأمراء لنيل المال ..

ـ أنا أكد لي الأمير مقداد زوج أمي .. أن من عادات الشعراء مدح الملوك في الحرب والسلم.. وليس لدي خبرة في آداب الملوك.. والحرب حرب ماذا يفعل جاسوس عند التقاء الجيوش؟!.. فلا يهم وجود عين بيننا .. والعيون موجودة بين الفريقين المتقاتلين.. لكني لم أكن أعلم أن بينها وبين شجاع قرابة ، ولم يذكر ويشير أحد لذلك.. بل عجبت من عدم إجباره والدها على

إنكاحه إياها عندما هزمته .. اليوم وضح لي ذلك الغموض .. فقد عرفنا أن شجاعا مجرما سفاحا غادرا .. فهو قد نكح خالتها من زمن بعيد.. ولما سمع بحسن ابنة أختها رغب فيها زوجة ثم تفاجأ بشرطها ولم يفز عليها .. كانت المبارزة حقيقية

ـ سمعت الأمير الدعسان يؤكد صحتها .



كيد

وبعد استعادة قصة نهيلة مع الملك ضرغام، وبعد تفكير عميق قال الملك لقائد حرسه : هل ترى أنها ماكرة وكانت تلعب دورا خبيثا مع سريانو ؟

ـ فكرت كثيرا في علاقتنا بها .. فإما إنها ماكرة ، وكانت تعمل مع سريانو .. وإما سريانو ورطها دون علمها معنا.. كان يعمل خفية ويحركها بأعوانه.. لأنني علمت بأن لها شقيقة مشهورة بالمكر والكيد .. فخبر وجودها بوادي السبع ربما كان طعما لنا وإغراء لنا لنذهب إلى هناك ثم يحدث أمر ما .. أرى أن المعركة لم تنته حتى يقتل سريانو وعصاباته.. فرغم احتجاز أسرته ، فهو يعبث بملك تلك البلاد وحكامها .. فهو يعلم مصيره ؛ فلذلك عليه أن يقاتل لآخر لحظة ولو صرعنا أهل مدينته كلهم قتلا لا يكترث.. والدعسان عاجز عن القبض عليه .. وبما أنه منقذ للأميرة سواء علمت أم لم تعلم فهي لعبة بين يديه .. وهو وراء زواجها مكافأة لها على دورها في اللعبة ، فهو يدبر للمكر بملك قدم الغزال .. إني أفكر بمكر رهيب مولاي الملك .. سأتبعه بنفسي ، وقد فهمت مكره ، فأذن لي بذلك .. لابد من صيده وإنهاء حياته .. لعلنا بإعدامه الحياة ننعم بالسكينة والحياة وبناء البلاد

ـ حياتك ثمينة أيها الشجاع ..

ـ أخشى أن يصيبك شيء من حقده ومكره .. أرجوك أن تسمح لي بالتحرك مع الدعسان ورجاله في مطاردته والفتك به.. سأعرف إذا كان بينه وبين تلك الأميرة مكر .. فسأقترب منه.. هم فعلا لا يعلمون مكانه أعني أهل قدم الغزال.. لكنهم يخافون منه .. الناس تحب السلام والسكينة .

ـ وبماذا تفكر ؟

ـ أفكر بأن أجعل من نفسي طعما له مرة أخرى كما طمع فيها من قبل كما تذكر

ـ والد الأميرة الملك حسن غاب متورط معهم ؟

ـ لا أعتقد ، فهو كان سعيدا بزواجها من الملك ضرغام وإلا لماذا قال كيف لها نجوت ؟.. فلو

كان يعلم بحيلة ما ما سألها مثل هذا السؤال ؛ لأنه يكون على علم بكيف نجت ؟

ـ صدقت أيها الشجاع، لو كان عالما ما نقل عنه هذا الاستفهام .. أتعرف الأميرة مكان اختفاء سريان ؟

ـ لا أعتقد أن يجعل روحه بين يدي امرأة .. الأرجح أنه استغلها .. فأرسل إليك الشعراء ، ثم ذهبوا إليها بعد رؤيتهم لك ليصفوك لها كما وصفوها لك، وذكروا لها إعجابك ومدحك لها وطمعك بها فالذي أصابك أصابها وجرى ما تعرفه يا مولاي الملك .. بدأت أو فهمت هذا الشيطان .. فاللعبة كبيرة ، وهي بدأت بعد مقتل الملك شجاع .. لقد جاء الرجل إلى هنا يبحث عنك عندما جئنا إليها أول مرة .. هكذا أخبر أعوانه الجرحى عندما جالستهم.. وعندما قتلنا الملك كانوا يرون أن القتلة رعاة ، ثم لما انكشف الأمر ، وظهر الملك ضرغام منتقما أرسلوا الشعراء للفت نظر الملك لتلك الأميرة الجميلة التي يتغنى بجمالها وحسنها الشعراء وعن فروسيتها ..

ـ نعم ما تقول أيها الشجاع .. فهو الذي خطط لجريمة غدير الدم كما أخبر شقيق أبي للدعسان جلس الأمير محسن بن جدي الراعي يفكر بالطعم الذي سيضعه أمام سريان ، ثم تذكر أن سريانو لا ينفذ خططه بذاته إنه يجلس في مكان خفي يحرك رجاله وأعوانه ، والذين يقبض عليهم يسمعون اسمه يتردد بينهم ، ولا يرونه ، ويختفي كالظل .. فزعيم العصابة الذي قبضوا عليه زعم أنه يعمل وحده ، ولكن ترتيب المكيدة ومراقبتهم يدل على عمل مدبر ومنظم .. فسأل نفسه " الرجل له جواسيس في المدينة .. هل أعيد الكرة وأنشر نبأ بسفري لقريتي لزيارة أهلي ؟..الأم التي تحمل لقب أم الملك والأخت أخت الملك .. أيصلح هذا طعما لصيد سريان؟.. احتاج لمساعدة الدعسان .. لو قبض اللعين على أحد أعوان سريان المقربين لوصلنا إلى اللعين.. لو نتواجه فأنا مستعد لمبارزته.. ولكنه جبان ماكر لا يظهر كما يظهر الفرسان.. رحلة صيد كطعم .. الملك لا يحب الصيد كوالده الملك مطر لنصطاده في ميدان الصيد .. هذا طعم مغرٍ لكن حياة الملك أهم وأخطر .. كم فارس تحتاج هذه الخطة ؟.. مخاطرة كبيرة .. كما

نفكر فهم يفكرون .. غدير الدم بعيد عن مدينتنا.. أربعة أيام من المسير.. البلد بحاجة لأعمار قبل القتال .. سأرسل فرسانا لجهة غدير الدم خفية ، وعلى دفعات ثم أخرج جهارا نهارا في رحلة صيد للغدير.. سينقل له جواسيسه رحلة صيدي، وسأشيع أن الملك خرج معنا متنكرا هل يفوت اللعين هذه الفرصة ؟ لا أعتقد .

قال الملك : آه أيها الشجاع هل وجدت حيلة لتمكر بالرجل ؟

بين محسن للملك حيلته فسر بها الملك وقال : إنها حيلة ذكية! .. أنت داهية أيها الشجاع .. سيغتنمون هذه الفرصة .. وأنا سأعتكف عند خروجك في البيت ، ولا أخرج للديوان ليثبت أني خرجت للصيد خفية .. وسيجلس الوزير مكاني لسماع الأخبار وشكايات الناس .

ـ أحسنت يا مولاي !

اختار قائد الجيش فوزان الذي استسلم القيادة لجيش البلاد بعد وفاة والده الفهر مائة فارس ممن له دراية بذكائهم ، وهم أشداء الرجال وأخلصهم لسيد البلاد.. وخرجوا من المدينة بدون خيل ومظاهر عسكرية إلى مكان في الطريق حيث سيجدون خيلا وسلاحا .. وكل مجموعة تسبق التي قبلها بيوم وعليهم التجمع عند غدير الدم والاختفاء حوله ريثما يأتي القائد محسن ، وخلال أسابيع اختفى الجنود المائة ، وجاء الدعسان قادما من بلاد دغفل ، وأطلعه محسن على المكيدة فأعجب بها، وأثنى على الأمير الثناء الطيب ، وهو أخذ يرسل عياريه خفية لقرب المكان والاختفاء في الغابات وكلمة السر بينهم وبين الفرسان.. محسن .. ثم انتشر خبر رغبة الملك برحلة صيد لغدير الدم حيث استشهد أبيه ..

وبعد أيام خرج محسن برجال الصيد وهواة الصيد ، وقد أشيع أن الملك بينهم متنكرا .. واختفى الملك بدور النساء ، ولم يعد يتردد على الديوان .

وصل فريق الصيد إلى غدير الدم، ونصبوا الخيام واشتعلت النيران، واشتعل الصيد والركض واتصل الدعسان بالعيارين والفرسان وأخبرهم أن يبقوا في أماكن اختفائهم، وأخبر العيارون أنه ربما بلع القوم الطعم ، فهناك نيران تظهر في بعض الجبال والتلال .. وفي الليلة الرابعة من

وصول محسن لغدير الدم ازداد عواء الكلاب، وكان محسن يجلس في خيمة السمر فقال: الكلاب نباحها على غير العادة الليلة .. فليجتهد كل منكم ألا ينام .. فهؤلاء غدروا بالملك مطر قبيل الفجر بزمن يسير عندما يغلب السهران على نفسه

وعند الفجر أحاط عشرات الرجال بمعسكر الأمير محسن زاعمين أنهم رجال صيد مثلهم ويرغبون بالسلام على الملك ضرغام .

فقال أحد الحرس: وهل الفجر وقت لزيارة الملوك؟! .. عودوا في الظهر أيها الأضياف .

أبعده أحدهم عن طريقه واندفعوا نحو الخيمة الملكية، ولكنها كانت فارغة من الرجال .. وبدأت المعركة وسقطوا كالغزلان بين أيدي رجال الأمير محسن والعيار الدعسان ، ولم ينجو منهم أحد .. فمن حاول الفرار قتل فورا .. وكانوا قريبين من المائة .. فلما ظهرت الشمس مشرقة خرج الأمير محسن يتفرج على الوجوه ذهابا وإيابا وفجأة وقف وأشار لأحدهم وقال : أنت سعدانو ..؟

رد الرجل وقال : لست سعدانو .. أنا أحد الناس.

صاح محسن فيه : أحد المجرمين .. كيف رأيت كيدنا ؟ أمر محسن بحرقه أمام الأعوان فتقدم أحد رجال الدعسان بمشعل مشتعل وقربه من وجهه فصاح: اقتلني بالسيف ، ولا تعذبني بالنار .

وضع العيار النار على ظهره فصرخ ألما ، فقال محسن : من أنت ؟ أين سريانو وسعدانو ؟

ـ لا أدري .

قال محسن بغضب : احرقهم فردا فردا ، فهؤلاء لا يستحقون الحياة .. لابد أن في أعناقهم الكثير من الأرواح .. فهؤلاء من قتلة الملك مطر رحمه الله ..

جمع الجند الحطب واشتعلت النار في حفرة عميقة قال محسن : من دل على سريانو وسعدانو لا تلقه في النار.. وسأعفو عنه.. ومن أصر على الكتمان فاقذفه فيها ..

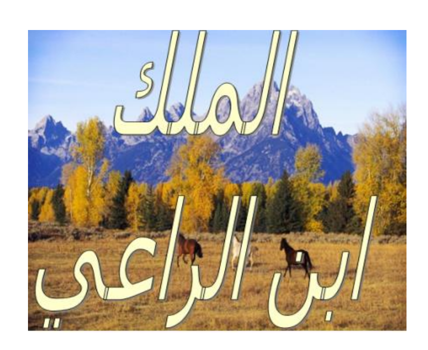
وابتعد الأمير محسن والدعسان عن المكان ، وبدأ الصراخ والصياح.. وكان محسن يقول

لرجالهم : جاءوا متلهفين لقتل الملك .. وقبل أن يلقي الرجل الرابع في النار صاح : أنا سأعترف أيها القوم

فنظره ورمقه الرجال وقال لهم : علينا أن نعترف بالهزيمة وننقذ أرواحنا .. فالملك شجاع مات وشبع موتا.. أنا مولاي الأمير سأعترف لك بمكان سريانو وسعدانو .. فسعدان موجود بيننا أما سريانو فهو مختبئ بمدينة قدم الغزال .. هذا هو سعدانو ؟

وأشار لرجل فصاح الرجل المشار إليه: كذب أيها الأمير ما سعدانو إلا هو يريد أن يضحي بي للنجاة

ـ أقسم يا مولاي الأمير أنه هو سعدانو .. وهو قد شارك في قتل الملك مطر .. وسعى للفتك بك وأنت عائد من قرية جديلة .. وهربنا لما هجم علينا العيارون ..



خطف أم الملك

اعتنق الملك ضرغام الأمير محسنا وقبله من رأسه وقال مادحا : بطل الميدان يا أخي الشجاع ! سقط أحدهم وسيسقط الآخر .. بارك الله في همتك .

قبل محسن يد الملك ووجنتيه وشكره ، وانتقل الملك يعانق الدعسان وباقي الفرسان ، ويثني عليهم الثناء الكبير، وقال لدعسان مهيجا : عليك أن تكشف لنا الشخصية التي يتخفى خلفها سريانو في بلاده .

قال الأمير دعسان : سنصل إليه أيها الملك الشجاع وبهمة الأمير القائد محسن

عرض الأميران الرجلين على عم الملك المدعو طل ، فنفى أن يكون أحدهما سعدانو وأخذ يصفه لهم ، فدهش الأميران لكذب الرجلين ، فاضطر الدعسان لإحضار زوجات وأبناء سعدانو لمشاهدتهم ، وعرض الأسيرين عليهما فأكدوا كلام الملك طل ، فأصدر الدعسان الأمر بقتلهما وصلبهما لخداعهم لهم، وأدرك أنهم لعبوا لعبة لإنقاذ السعدان ، وقتلا بعد موافقة الملك.

وعرض الأمير محسن جميع الأسرى على الملك طل ، ورغم علته وضعف بصره استطاع معرفة السعدان من بين الأسرى ، فهو شارك معه في قتل شقيقه وحاشيته ، ولما عرض الرجل المختار على الزوجات والأولاد أقررن أنه الرجل المطلوب .. ورفض الرجل تقديم أي معلومة عن صديقه سريان .

فحبس عنه الطعام عدة أيام، ورفض الاعتراف بشيء عن سريان، فقضى الملك بإعدامه أمام العامة والانتهاء منه، فهو أحد قتلة أبيه وتم ذلك بأسرع جهد .. وأخذ الدعسان التحقيق مع باقي الأسرى، ومن وجد منه تعاونا نقله لحبس آخر ، ومن لم يجد منه تعاونا أرسله للقاضي ليحكم عليه بما يراه من عظم جرمه .. وأمر القاضي الجلاد بقتلهم لدورهم في القتل والفساد في الأرض.. وثبتوا عند الموت، ورفضوا الدلالة على سيدهم سريان .. فتسأل الدعسان : هل حقا سريانو في المدينة متنكرا ؟! ذهب الدعسان للأمير محسن وأخبره بمصير الأسرى وأن بعضهم أخبر أن الأمير متنكر داخل المدينة .. ولا علم لهم بشخصيته المتنكر بها .. وهؤلاء كلهم شارك

في جريمة قتل الملك مطر .. وارتبطت حياتهم بسعدانو وسريانو .. فلا تشفق عليهم ولا تحزن والقاتل ظلما يقتل ولو بعد حين .

ـ أترى أن ذاك القاتل متنكر في المدينة كما همس من لم يقتل منهم ؟

ـ ظهر لي خلال هذه السنوات أن الرجل قوي ومرعب، وله اليد الطولى في البلاد أيام الملك شجاع .. فله أعوان وأنصار .. وهو ذكي ويعمل بذكاء ودهاء.. فربما يتنكر من العامة ، أما علية القوم فهم يخافونه ويعلمون بطشه وسطوته .. فهو قد كان رجل شجاع القوي .. وها هو قد جعل الملك الشاب ينكح طليقة الملك ضرغام.. رغم ما يعرف أن هذا مزعج للملك ضرغام.. ما زال قويا داخل المملكة .. وعلمت من هؤلاء الأسرى أنه نكح إحدى بنات شجاع وقد هلكت بحادث غرق.. ولكن بماذا سيتنكر هذا الشيطان ؟ أمهلني أيها الأمير أياما أفكر بما يمكنه أن يتنكر هذا الرجل.. فقد جاءنا سعدانو بدون تنكر قائد يقود سرية للحرب .. ورأيت أنت كما رأيت أنا كيف حاولوا الاحتيال علينا بزعم أحدهم أنه سعدانو ؟ وكيف الآخر زعم ذلك ؟ ولم يكن كلاهما بسعدانو ؟!.. تضحيات كبيرة .. وعم الملك نفى وجود سريان بينهم فهو رغم سجنه الطويل ما زال يذكر شركاءه في الجريمة.. فقد صحبهم وعاشرهم عندما سار ملكا ، وسكروا معه وعربدوا معه .. وهما كما قال رسما مكيدة التخلص من الملك مطر عند غدير الدم



كان الأمير محسن يرى أنه بموت سريان وسعدان قد تهدأ المنازعات الخفية والثارات لحين ، وقد يستمر السكون عشر سنين عشرين سنة .. قضي على أحدهم .. والسؤال الذي سأله الدعسان عن الشخصية المتخفي وراءها سريانو .. هل حقا الرجل متنكر ويسكن في المدينة ويثير هذه الحرب الخفية ؟! وتابع أفكار نفسه: أنا مدرك لشراسته وقوته وسيطرته الشديدة على أعوانه ، وهو مخيف لقومه ومزعج لهم ، وأغلب الناس تحب الدعة والسكون .. وأتخيل أنهم مرعوبون منه ، ويتمنون مثلنا الخلاص منه ما دام أجبر الملك على الزواج من طليقة الملك .

ولكن من يجرؤ للخلاص منه والقضاء عليه، فله أتباع ساروا على مدار الزمن سادة وقتلة ، وكانت لهم اليد الطولى أيام الملك شجاع .. فإذا صدق تفكيرنا فإن الأميرة متعاونة معهم ، وحاولت المكر بالملك وجره لمدينة تتان لاغتياله .. فلولا رعاية المولى سبحانه ..وحفظه لتعرض الملك للكيد والمكر.

وبينما أميرنا يبحث عن ثغرة يتوصل بها لسريان للقضاء عليه وعلى باقي أعوانه جاءه طارق ، فأدرك أن الملك يريده ؛ لأنه لا يطرق بابه في مثل هذا الوقت من الليل إلا الملك أو رسوله أو الوزير أو الدعسان أو نائبه على قيادة الحرس الملكي .

فاستقبل الرسول الذي يعرفه حق المعرفة خشية المكيدة ، كما هو متفاهم مع الملك والدعسان بالنسبة للرسل بينهم .. لبس ثيابه وأيقظ حرسه وسار بكوكبة منهم نحو قلعة الملك الجديدة التي انتقل إليها منذ أيام .. وسينتقل للحياة فيها الأمير عندما يجهز قصره فيها .. فلما كمل تجهيز قصر الملك رحل إليها ..

دخل مجلس الملك في القصر الجديد فشاهد زوج أخته سيرة .. وبعض أهل قريته فرحب بهم ، وعانقهم وأحس أن كارثة حلت بهم أو أن أمه ماتت ، فحدق النظر في وجه صهره ونقله للملك : أنا في حيرة يا مولاي !

قال الملك بغصة : نكبنا أيها الأمير!.. لقد تمادى اللعين ـ وأشار الملك لزوج سيرة أن يتحدث ـ فقال الرجل بعدما مسح عينيه : جاءتنا عصابة زعموا أنهم عابرو سبيل .. ومكثوا بينا ضيوفا أياما .. ثم جمعونا أمك وزوجها سهام وأخويك فقد ولدت أمك أخا آخر لك وزوجتي والأولاد وقالوا : هؤلاء رهائن لدى الأمير سريانو حتى يفرج الملك ضرغام والأمير محسن عن نسائنا وأولادنا والأمير سعدانو والأسرى، ثم ساقوهم إلى حيث لا نعلم ، وأرسلوني رسولا إليكم أنا وهؤلاء الرجال من القرية لننقل الرسالة لكم .

وخيم الصمت على المجلس، وبعد لحظات فرك محسن لحيته وشفته وقال : إذن سيبعث لنا رسالة يبين لنا فيها كيف نسلمه الأسرى ونسترجع أسرانا ؟

فقال صهر الأمير : كأنني سمعتهم يقولون ذلك .. قال أحدهم عندما تكون أمام نسيبك سيكون رسول بينكم .

فقال الأمير : حسنا

وأمر الملك بقيادة أهل القرية لدار الأضياف وقال : سأنتظر رسالته أيها الأمير .. وتنهد وتابع قائلا : لن تنتهي الحرب إلا بقتله وكما صدنا سعدانو سنصطاده أيها الأمير

قال الأمير : قبل مجيء رسولك كنت أفكر بالصفة والهيئة التي يتخفى بها اللعين ونتشاور في الحيلة التي نصطاده فيها .. وتركني الدعسان وكنت سهرانا أشرق وأغرب في الطريقة التي سنصل فيها إليه .. وهو في فعلته هذه يغريني بالبدء بمطاردته بنفسي وسيفي .. عندما نقابل الرسول لعلنا نجد وسيلة للقبض عليه وسيقع بإذن الأحد الصمد .

عاد الأمير لقصره في داخل المدينة ، وعاد يفكر بسريانو وهمس لنفسه " كنت أتوقع هذه الجريمة هذا الانتقام .. هم خاصرة ضعيفة أعلم هذا .. ولكنهم رفضوا الرحيل .. لم تعد بلدتنا بلدة مسالمة .. صرنا أمراء ولنا أعداء وهم بعيدون .. وقد صار لنا أعداء وخصوم .. وأولئك لن يتنازلوا عن عرشهم بسهولة .. وهم أشداء يا محسن .. فسريانو كان الحاكم الفعلي بين يدي الملك شجاع .. فهو الذي كان يؤمن له الخليلات ويحافظ على أمنه.. الخليلات .. الخليلات .. عظيم يا محسن! .. رجل كهذا لا يخلو من العشيقات.. النساء.. الباب هن الباب .. الدعسان لم يتحدث عن عشيقات .. له ثلاث نساء بين أيدينا .. الحديث معهن قد يفيد .. سأرسل الدعسان إليهن لمعرفة أشهر خليلاته .. وإن فشل سنحتاج لامرأة تسلب المعرفة منهم.. لقد شجعت أمي وأهل القرية بالرحيل لمجاورة الملك ضرغام كنت أخشى عليهم مثل هذا الظلم والاعتداء .. وها هو حدث .. فكما نمكر هم يمكرون .. ونحن في زمن قوة ، وهم في فترة ضعف .. فكيف نستفيد من قوتنا ؟ هل نستطيع عن طريق الرسول الوصول إليهم ؟ لابد أنهم ذو فطنة .. وحذر .. علينا متابعة الرسول ومعرفة مكان استقراره قد تصل الرسالة عن طريق سلسلة من الرسل للتمويه والخداع .. عليّ بالدعسان لمتابعة هذا الخيط لعلنا نصل لشيء ..

الرجال مصممون على الانتقام لملكهم الهالك .. يبدو أن الرجل لم تصله أخبار موت سعدانو أو الذين ذهبوا للقرية يجهلون ذلك ..

أرسل وراء الدعسان وحدثه عندما التقيا عن حادثة القرية وأسر أمه وأخته من قبل سريان ، فاستشاط الدعسان غضبا ونقمة على سريانو .. وحثه على متابعة الرسول ، ونبهه على التسلسل الذي قد يكون يتبعه سريانو .

جاء الرسول بعد أيام وقدم الرسالة للملك ضرغام الذي لم يأمر بفضها حتى مجيء الأمير محسن الذي ساق معه الدعسان ورجل آخر لينظر هيئة الرسول خفية ، وكان فيها الذم واللعن لتعجلهم في قتل السعدان ورجاله .. وفيها الدعوة للسلام والأمان والعفو عن نسائه وأولاده ونساء سعدانو وإنهاء حال الخوف والإرهاب .. وطالب بترك أخذ أموال البلد ، وأن يتسامح بدم الملك مطر بمن قتلوا خلال هذه السنوات ، ويعتبر موت ملك بملك .

قال الوزير مقداد: أتراه في موقف قوي بعد أسر أم الملك وأخته ؟

قال محسن : لقد سعيت لنقلهم هنا وتشجيعهم بدون إيضاح الخطر المحيط بهم .. حتى لا أثير الخوف في القرية ؛ لكنهم لم يهتموا بدعوتي .. قلت لهم حالنا اليوم ليس كالأمس .. قلت لأمي أنت أصبحت أم الملك وأم الأمير .. لم تبال أصروا على البقاء والحياة في القرية .. لقد خشيت مثل هذا الخطر .. لم يفهموا مخاوفي .. أما بالنسبة للعفو عن حياة سريانو مقابل حياة أمي وأختي وأولادهما فلن أكون عاقا لها ولأختي .. فهذا يرجع للملك .. وهذا الرجل ماكر لئيم شيطان فلن تهدأ الحال إلا بموته صدقوا هذا .. فهو لا يأمن لنا ، ونحن يجب أن لا نأمن له ..

فقال الوزير : لا وفاء عندهم

قال محسن : نعم ، فأبناء الملك شجاع لم ينهضوا للثأر منا بعدما وضعت الحرب أوزارها؛ لأنهم يعلمون ظلم وبغي أبيهم للعباد والبلاد فسلموا بالواقع .. وقام الرجل اللعين بحمل العبء عنهم لأنه يدافع عن نفسه .. وأنا أرى أيها الملك أن تكتب له " ومن يضمن لنا حياة الناس الذين بين يديك ، وأنك لا تعاود الغدر بنا وكيف نثق بك؟ " .. سيتبع رجال الدعسان الرسول

وسأسعى لمطاردته .. ولتطل بينكم المراسلات.. ونحن خلال هذه الفترة سنصل إليه .. سأتنكر بزي بائع متجول ، وأذهب لمدينة قدم الغزال .. وسيتبعني الدعسان متخفيا لنعرف أين يختبئ اللعين ؟ .



مطاردة

رتب دعسان العيارين بحيث يقتفون أثر الرسول بمهارة ودون أن يشعر بهم ، فتنكر بعضهم على هيئة الشحاذين ، وبعضهم على هيئة عامة المسافرين ، وكان الكاتب كتب رسالة كما أشار لهم محسن .

دخل الرسول قصر الملك دغفل ، ولم يخرج حتى هبط الليل ، ثم خرج بثياب غير التي كان يلبسها .. وتبعه رجل الدعسان حتى دخل منزلا في المدينة ، وهو تحت العيون المتعلمة على حسن المراقبة .

وظل يقبع حول البيت حتى زاد الوقت عن نصف الليل فانصرف إلى بيت العيارين الخفي في مدينة قدم الغزل .. لقد اتخذ العيار الدعسان ثلاثة منازل يعمل به عياروه خفية في المدينة ، ويمتهنون حرفا تخفي أعمالهم الحقيقية .

وقبل ظهور الفجر أخذ العيار رفيقا ومشيا إلى منزل الرسول كما اعتقد العيار المراقب ، وفي الصباح الباكر خرج الرسول إلى بيت آخر، ومكث فيه ردحا من الوقت .. ثم خرج رجل آخر من البيت ، وسار خارجا من المدينة ، وتبعه أحدهم فسار باتجاه مدينة تتان مدينة والد الأميرة نهيلة .. فاحتار العيار حينئذ هل يتابع أم يرجع ليخبر سيد العيارين ؟

وصل الدعسان والأمير محسن متنكرين لمدينة دغفل الأمير بائع متجول على حمارة عرجاء يضع عليها خرجين ممتلئين بالبهارات والكحل والأمشاط والعطر وفي صوته بحة ينادي بها على بضاعته.. ويتبعه الدعسان على هيئة رجل أعمى يرتدي ثيابا لا يلبسها إلا متشرد .

سمع الرجلان من العيارين أخبار الرسول وغيرها من الأنباء، وسرا لاستمرار المتابعة وقال محسن للدعسان : أعتقد أن لسريانو أعوانا داخل القصر دون علم الملك .

ـ قد تكون الملكة الجديدة تعمل معه !

ـ فكرت كثيرا بقصة الأميرة نهيلة .. فما الفائدة من الزواج من الملك والعمل لسريانو؟ .. أعتقد أنه زوّجها منه مكافأة لها لدور قامت به دون فكر منها؛ لكن كيف قبلها الملك هذا السؤال ؟!..

لقد تحدثت مع نساء سريانو مستعلما منهن عن خليلاته، فبعد تردد ذكرت واحدة منهن أن عشيقاته لا عد ولا حصر لهن ، لا هو ولا الملك شجاع .. فجل حياتهم الفجور واللهو والشراب وواحدة زعمت أن زوجها لم يعرف العشيقات إنما كان يساعد الملك في ذلك، وأنه لم يعرف الخيانة الزوجية .. والثالثة قالت سمعت أن له عشيقة واحدة .. هجرها الملك فاتخذها من بعده خليلة اسمها قرنفلة وهي مشهورة في المدينة .

فقال الدعسان : عجيب ! .. هنا بغي مشهورة تحمل هذا الاسم لعلها هي ؟

وأمر أحد عياريه بمراقبة بيتها ، ووجد العيار أن العشاق ما زالوا يترددون على بيتها خاصة بالليل .

دخل عليها الدعسان في أول النهار وزعم أنها على اتصال بسريانو ، وأنه يتردد عليها سرا ، فأقسمت بكل عظيم أن علاقتها بسريانو انتهت قبل مقتل الملك شجاع ، فقد هجرها سريانو بعد انتهاء علاقتها بالملك بزمن يسير ؛ لأن الملك اعترض على علاقته السرية بها، وذكرت له اسم فتاة أخذته منها .. واستطاع الدعسان معرفة أكثر من عشر عشيقات للرجل داخل المدينة لم يكن يقضي معهن إلا زمنا قصيرا ، ثم يهجرهن بزعم أن الملك حذره من ذلك ، ووجد عند إحداهن خبرا يفيد أن مرضا أصابه ، فابتعد عن النساء والزنا، وذكرت اسم عشاب كان يعالجه فزاره الدعسان ، وأكد له العشاب أن الرجل أصابه مرض منعه من معاشرة النساء.

فعقب الدعسان قائلا على نتائج هذه الأخبار : نعم ، ليس لسريانو أولاد دون العاشرة .. ونساؤه لم يشرن لهذا المرض أيها الأمير

ـ لا ، لم تذكر إحداهن عجزه عن إتيان النساء .



استمرت خلال الأيام مراقبة البيتين اللذين دخل فيهما الرسل ، وعاد الرجل الذي خرج من المدينة في اتجاه مدينة تتان إلى بيته بعد أيام ، ولما دخل الليل مشى إلى بيت الرسول الذي زار مدينة الرعاد.. وذهبا إلى أحد إسطبلات البريد ، وركب الرجل على بغلة بيضاء ، والآخر ركب جوادا

فالأول صاحب البغلة اتجه نحو مدينة الرعاد ، والآخر اتجه نحو مدينة حسن غاب .

ولما أمسى الرسول خارج مدينة قدم الغزال هجم عليه ثلاثة رجال ، وأخذوا بغلته وما معه من مال والرسالة ، وتركوه مثخنا بالجراح موهمين إياه أنهم لصوص طمعوا فيه ، فترجاهم أن يدعوا له فقط الرسالة ، وكل ما أخذوه حلال عليهم فرفسه أحدهم قائلا " لمن هذه الرسالة المهمة لك؟.. افتحها يا غصن لعلنا نجد فيها شيئا مهما لنا "

صرخ الرجل ، فانهالوا عليه ضربا من جديد حتى فقد وعيه ، وابتعدوا نحو الوادي القريب منهم يراقبونه .. ورأوه قد فاق وأخذ يمشي نحو المدينة التي وصلها آخر الليل مهشما باكيا، ولم يمش لبيته إنما سار نحو القصر الملكي .. وبعد حين خرج من القصر فارسا على جواد ، وكانت طريقه إلى جهة بلاد تتان .. فأدرك المقدم الدعسان أن سريانو منزله الخفي في جهة تلك المدينة فوضع خطة تحرك في تلك الجهات ، وظلوا يرقبون عودة فارس القصر الليلي .. فقال محسن : هل الملك متواطئ معهم خفية ، ويسهل تحركاتهم ليحقق مأربه في الانتقام لوالده كما فعل ضرغام الملك .. أو أن لسريانو أعوانا مهمين في داخل القصر ؟

وعاد الفارس الليلي يصحبه فارس آخر.. وعرفت المنطقة التي يخرجون منها فهي تقع بين المدينتين .. شعب يصعد إلى غابة جبلية .. ترك الرجلان يسيران نحو المدينة .. وتحرك ثلاثة أعوان في الشعب ، وقد سلكوا دربا غير مطروق وبعد مسير مضن لاح لهم قصرا في إحدى الغابات فقال أحد الأعوان : يبدو أن هذا القصر المختفي في هذه الغابات هو قصر الشيطان سريانو

وقفلوا أدراجهم عائدين إلى مدينة شجاع ، وأحيط الدعسان ومحسن بالقصر الخفي في غابات شيخ عسير.. فقال محسن : هذا تقدم عظيم أيها الرجال!.. كيف نصل لهذا القصر خفية دون أن يحس بنا أحد ؟

ـ الفارسان دخلا القصر أيها الأمير .. الحمد لله أن جهودنا بدأت نتائجها تبرز .. هل من حيلة يا أميرنا ؟

ـ وماذا فعلا في القصر ؟

ـ أخذوا الجريح وسعوا إلى قتله ، فأنقذه رجالنا وساقوهم إلى محبس سري .. وحاول أحدهم الهرب ، فرماه أحد رجالنا بنشاب فأرداه ميتا .. والرجل الآخر قبع ساكنا بين رجالنا .. والجريح لزم الهدوء .

ـ من الذي قتل ؟

ـ فارس الغابة .

قال محسن : بعد حين سنسهل هرب فارس القصر لنعرف مع من يتعاون داخل القصر .. لنتأكد هل الملك على علم بما يجري داخل قصره أم جاهل بذلك ؟ يبدو أنه ملك ضعيف .. ثم على رجالنا الاختفاء في مدخل الغابات .. لنرتب لاقتحامه والتسلل للقصر الخفي .. سيكتب سريانو رسالة جديدة للملك ضرغام بعد ضياع رسالته الأخيرة .. سندخل نحن القصر ، ونقضي على الرجل ، ونريح العباد من شره وبغيه .

وأثنى الأمير على فرسان مقدم الأعوان الدعسان ، وبارك جهودهم وشجاعتهم ، وأعلمهم أنهم بعد القضاء على سريانو سيعودون جميعهم للبلاد ، وسيتركون هذه المدينة آملين أن تنتهي الحرب إلى حين بعد مقتل سريانو وأعوانه .

قال محسن : الأميرة نهيلة أظهر منها شيء بعد زواجها ؟

ـ هي زوجة الملك، ولا أعتقد أن سريانو يا مولاي القائد يأتي إلا هنا لمقابلتها .. إنها امرأة تعيش بين نساء الملك.. الملك له ثلاث زوجات معها.. لم يخبر صديقنا في القصر أن لها نشاطا مثيرا .

استطاع الأسير أن يهرب من محبسه ليلا ظانا أنه استغفل الحارس.. وكان هربه جهة الغابة.. ومنها اتجه نحو المدينة ، وفي الصباح كان يطرق باب القصر الملكي، ولمعرفتهم بشخصه سمحوا له بالدخول، وكان رجل الدعسان في القصر في انتظار متابعته، وعرف المكان الذي يرقد فيه ومع من يجتمع ، وبعد مكث لم يطل خرج الأسير الهارب راكبا جوادا في اتجاه مدينة حسن غاب ودخل الشعب فأدرك رجال الدعسان أنه ذاهب لقصر الغابة الخفي .. ولم يخرج ذلك الرجل

تلك الليلة.

رتب الأمير محسن خطة جريئة لاقتحام المكان السري.. فأرسل عشرة من رجالهم فرادى وأزواجا ليختفوا بقلب الغابة، وبعد يوم وليلة وصل محسن والدعسان لقلب الغابة ، فقال لهم أحد الرجال : رجل القصر لم يخرج بعد .

فعقب الدعسان قائلا: إما أن يكون قد قتل ، وإما لم يكلف بشيء بعد كم نحن في هذه الغابة ؟

ـ نحن عشرة وأنتم اثنان .

ـ وبعد حين سيتبعنا سبعة .. حتى يساعدونا إذا أحس بنا هؤلاء الملاعين ..

وقال محسن : ثم سيتبعهم خمسة بعد ثلاثة أيام.. وكلمة التعارف على بعض "مت في سبيل الله " .. قد نحتاجها في ظلام الليل .. سأتقدم أنا والدعسان وجود نحو القصر .. وإذا كشفنا أحدهم سنزعم لهم بأننا صيادون ـ وكانوا يلبسون ثيابا توحي بأنهم من أهل الصيد ، ويحملون شباكا تستخدم للصيد والفخاخ ـ وإذا لم نرسل لكم جودا فاعلموا أننا أسرى بين أيديهم.. فلا أتصور أن يقتلونا فورا ربما قتلوا أحدنا .. فإذا لم يعد إليكم جود فتصرفوا بالذكاء الذي تتصفون به .. وليبق أحدكم منتظرا للطائفة الثانية ..

قبل شروق الشمس تحرك محسن والدعسان وجود نحو القصر وكما يفعل الصيادون يتحركون بخفة ، اقتربوا من القصر دون رؤية أحد فقال محسن همسا : هذا الرجل لا يثق بأحد .. لا حرس ولا رجال في الطريق، كنت أتوقع أن نجد عددا كثيرا من الحراسات في الطريق .. أو نقاط مراقبة .

فقال الدعسان : أو عنده ثقة تامة أنه لن يدخل أحد هذه العرين .. فهذه الغابات الجبلية تكثر فيها الوحوش .

ـ لم نصدف إلا بعض الأفاعي والثعالب .. والماء شحيح في طريقنا .

ـ لابد من عين ماء أو أكثر .. هذا الوادي الأسفل منا كأنه سيل شتاء

وصلوا أسوار القصر من جهة لا يوجد فيها أبواب.. واختفوا في جوف كهف وأرسلوا جودا

يستدعي الفرسان .. وصلوا آخر الليل على ضوء المشاعل .. ووجدوا الدعسان ومحسنا يقبعون في مدخل كهف في صفحة الجبل يصطلون حول النار ، ومعهم أرنبا سمينا قد صادوه داخل الكهف.. وكانوا قد صادوا أثناء النهار بعض الطيور الكبيرة ليظهروا أمام العدو المفاجئ أنهم فعلا صيادون ..

وفجأة سمعوا صوتا ، ثم سمعوا أحدهم ينادي.. فصاح الرجل من بعيد: من هناك ؟

فقال محسن وهو يظهر أمامهم : صيادون .. ألم تشم رائحة الشواء ؟ تعال فلحم الأرانب طيب عند الفجر

كان محسن أمر رجاله بالاختفاء في جوف الكهف ، فلما اقترب الرجل رأى محسنا والدعسان وجودا فقال : ما الذي أتى بكم إلى هذا المكان ؟

فقال الدعسان : كنا نطارد فهدا .. ثم شاهدنا هذا البناء في وسط الغابة .. رغم كثرة صيدي في هذه الغابات فهذه أول مرة أراه .. هل بني حديثا أيها الحارس ؟

فقال الحارس وهو يرى النار الخافتة تهمد: هذا قصر قديم ؛ لكنك أعمى فهو هنا منذ عشرين سنة أو أكثر.

قهقهة الدعسان وقال : عشرون سنة ولم أره إلا الأمس فعلا أنا أعمى .. ربما هذه أول مرة أقترب منه يا صاحبي.. فهو على جبل وأشجاره عالية وضخمة وكثيرة ، نحن من أهالي مدينة تتان التي يملكها الملك حسن غاب بلاد قريبة من هذه الغابات الشاسعة .

ظهر الانبساط على وجه الحارس وقال : أنتم من بلاد الملك حسن غاب.. قدم جود فخذ أرنب للرجل وهو يقول " معذرة يا أخانا لم يبق غيرها .. لم نصطد كثيرا منها .. لم تقل لنا من سيد هذا القصر الخفي ؟"

ـ نحن لم نركم ، شممنا رائحة الشواء.. فقال رفيقي " رائحة شواء انظر من أين تأتي هذه الرائحة ؟ يبدو أن صيادين قريبون منا .. فتمشيت باتجاه الرائحة .. ثم سمعت أصواتكم ، فسرت إليكم .. أرجو منكم مغادرة المكان بأقصى سرعة .. فسيد القصر نائم ، لو كان مستيقظا

لأصابكم منه شر ، فالأمير لا يحب أن يقرب أحد من القصر .. أرجوكم انصرفوا قبل فوات الأوان .

فقال محسن : لم تقل لنا لمن هذا القصر ؟

ـ ألم يبق شيء من الصيد لصاحبي ؟

ـ لدينا طائر لم يشوَ بعد ..أنشويه لكم ؟

ـ عجلوا بذلك ، وستجدوننّا عند الباب .. رائحة الشواء لا تقاوم .

وابتعد الحارس فقال محسن : الرجل يشعر بالأمان في هذا المكان.. أين يخفي أسراه أمي وأختي



سريان

شوى الدعسان ما تبقى من الطيور، ولاك بعض الفرسان شيئا منها وقال محسن : سأمشي إليهم أنا والدعسان بالطير هذا ـ وأشار للطير المشوي ـ ليأكلوه .. وسيقف جود على زاوية القصر بحيث يرانا ويراكم .. فإذا رفعت أنا أو الدعسان يده فوق رؤوسنا مقبوضة فاقتربوا منا .

لما رآهم الحارس مقبلين نحوهم ، أقبل نحوهم جريا ، وتناول الطير وهو يقول : ابتعدوا بسرعة قبل أن يستيقظ الأمير ويصيبكم سوء .. فالأمير لا يرحم .

فقال محسن : ويحك !.. نريد ماء ، هذه قربتنا فارغة ـ وكان يحمل بين يديه قربة ماء صغيرة ـ ألا يوجد لديكم ماء ؟

فأخذ الحارس القربة الصغيرة على مضض ، ورجع لصاحبه وأعطاه الطير المشوي وقال بضيق : خذ هذا .. سأملأ لهم هذه القربة .

ولما رجع بالماء وجد الرجلين عند الباب ، ولم ير صاحبه فقال : أين ذهب ؟

ـ ذهب إلى هناك لقضاء حاجة

وقبل أن يرد تلقى ضربة قوية من الدعسان ، ثم أغلق فمه ، ونقل أسيرا للكهف .. وزحف الفرسان ، وقدم للكلاب اللحم لحم خروف صغير ، وانشغلت بالأكل وقذفت بسهام مسمومة وصاحت فجأة ثم خمدت أنفاسها .. ولم يحدث شيء ، لم يطل شخص على الضجة ونظر الرجال في بعضهم .. فقال محسن : هل هناك كمين ؟

رد الدعسان : إنهم غارقون في النوم .. واقتحم الرجال القصر باتجاهات مختلفة .. ووجدوا غرفة فيها رجالا مستغرقين في النوم فقال أحدهم" إنهم الحرس " همس الدعسان " أغلق عليهم الباب .. وابق عند الباب "

وصعد محسن والدعسان وآخرون للطابق الثاني.. ولم يجدوا إلا رجلا واحدا وامرأة معه في حجرة .. وكانا مستغرقين في النوم.. ولما فتح الباب عليهما ظنت المرأة أن أحدهم يريد الأمير .

ووجد رجال الدعسان رجلا وامرأة في غرفة أخرى في الطابق الأول فعرفا أنهما خادم وزوجته

استيقظ سريانو والمرأة على صوت الرجال يقتحمون الحجرة ، وكانا يبدوان مخمورين هو والمرأة.. قامت المرأة تلبس ثيابها.. وتم تجميع أهل القصر في ساحة القصر .. ولم يكن فيه إلا من ذكرنا .. فقال الدعسان للمرأة التي وجدت في غرفة من اعتقدوا أنه سرياني : من هذا الأمير؟

فقالت بحنق : من أنتم ؟

فقال الدعسان متهكما : لصوص كنا في الطريق لسرقة قصر فوجدنا هذا القصر

فصاحت : إلى أي البلاد تنتسبون ؟!

فقال الدعسان بنفس السخرية: كل البلاد بلادنا .. اللص لا بلد له .. لمن هذا القصر الذي كلفنا بسرقته ؟

فردت بجنون : هذا قصر الأمير جعفر .

ـ من جعفر ؟ إلى أي البلاد ينتسب جعفر هذا ؟

قالت صائحة : حل وثاق فمه ليجيبك الأمير جعفر .

أشار الدعسان لأحد رجاله بفك فم الأمير : افعل ما طلبت المرأة .

حل الرجل الحبل عن فم سريانو فتنفس الصعداء وقال : من أنتم ؟!

ـ ألم تسمع ما قلنا للمرأة ؟ هل هي زوجتك أم عشيقتك ؟

فصاح الأمير بغيظ : كلاهما ، إلى أي البلاد تنتسبون أيها الصعاليك ؟

ـ كما أخبرت قبل قليل ، طلب منا سرقة القصر هذا وأسر من فيه .

ـ ومن طلب منكم هذا ؟

ـ لا يهمك هذا .. نحن قبضنا ثروة كبيرة لاقتحام هذا المكان وأسركم ، وقد نجحنا بفضل الله هل ستسيرون معنا بكل هدوء أم ... ؟

ـ إلى أين ؟

ـ هذا سرنا يا أمير جعفر .. لماذا أنت تعيش هنا ما دمت أميرا ؟ وأنت أمير في أي البلاد ؟ وهل هؤلاء حراسك وخدمك فقط ؟

لم يتكلم فقال الدعسان ساخرا متهكما: أصبحت اخرس ! حسنا أيها الأمير .. جئنا لصيد الأمير المسمى سريان من أمراء بلاد قدم الغزال .. لقد خطفوا ناسا يخصون الملك ضرغام .. يبدو أننا أخطانا الهدف .

فقال محسن الذي استمر يسمع الحديث : يبدو هذا .. فلنقض عليهم قبل أن يكشف أمرنا .. نتخلص منهم ونبحث عن قصر سريانو اللعين .

فقال المدعو جعفر : ولماذا تريدون التخلص من سريانو ؟

فقال دعسان : قالوا لنا إنه مجرم عتيد .. خطف أم وأخت الملك ضرغام .. ولم نجدهم في هذا القصر كما قيل لنا .. وهل يفعل ذلك الأمراء؟!

فعاد محسن يقول بحدة وغضب: اقتل الجميع .

فصاحت المرأة : لا تفعلوا أنا أميرة وأبي ملك ؟

قال الدعسان متظاهرا بالدهشة: أبوك ملك ! أي ملك والدك ؟

ـ أنا ابنة الملك حس غاب أتعرفونه ؟

فقال محسن بدهشة صادقة : ابنة ملك مدينة تتان! وماذا تفعلين في هذا القصر السري ؟.. هل يعقل أنك ابنة ملك وتعيشين عشيقة وخدن كما يبدو لنا ؟!

صاحت : أقسم لكم إنني ابنة الملك حسن غاب واسمي درة .. فابعث رجالك ليتأكدوا من ذلك .

فقال الدعسان : وهذا زوجك ؟

فقالت : ليس زوجي .. هو خطفني فخضعت له .. أنا مخطوفة !

ـ إذن هذا الأمير جعفر يخطف بنات الملوك .. وزوجك ؟

ـ قتلوه .

ـ ومن جعفر هذا ؟

فصاح جعفر : أنا جعفر ، ولا تصدق ما تحدثت به هذه الغانية .. صحيح هي ابنة ملك وهي

عشيقة لي .. هربت إليّ لأنها تبغض زوجها.. لم اخطفها لا هي ولا أخت الملك ضرغام ولا أمه وأنا أمير من بلاد الملك دغفل بن شجاع واسمي جعفر بن سعد ، والملقب بسريانو الذي تبحثون عنه

فقال محسن : جميل أيها الأمير! .. وأنا الأمير محسن ابن المرأة المريضة التي خطفتها ، وشقيق المرأة التي خطفتها، وقريب أهل القرية التي أسأت لها .

فقال الدعسان : أنت سريانو الشيطان .. الذي خطط ودبر لقتل الملك مطر .. وأنت الذي خطف الأميرة نهيلة شقيقة عشيقتك هذه .. لتستدرج الملك ضرغام إلى وادي السبع ؟

ـ نعم ، فعلت هذا وغيره .

ـ شجاع ! .. وهي التي ترتب لك الأمور من قصر الملك ؟

ـ نعم ، وإلا لماذا أقنعت الملك بالزواج منها ؟

ـ أين أخفيت ضحاياك ؟ فتشنا المكان ، ولم نجد أحدا سوى أنت وهؤلاء ؟

ـ حياتي بحياتهم .

ـ ألا تريد أن تذكر أين أخفيتهم ؟

ـ ولماذا أقول ؟!

فقال الأمير محسن : وأنت أيتها الأميرة ألا تعرفين أين أخفى ضحاياه ؟ أم قتلهم السفاح ؟

صاح سريانو : لم اقتلهم بعد .. إنهم أحياء ، حياة بحياة .. فإذا قُتلت فسيُقتلون

التفت محسن للأسرى الآخرين وقال : من منكم يعرف مكان إخفائهم ؟

صمتوا .. فالتفت الأمير بغضب إلى الدعسان وقال : اقتلوهم ، فبطن الأرض خير لهم ..

فقال الدعسان : والمرأة ؟

ـ لا ، المرأة لا ، سنعيدها للملك حسن غاب ، ونرى صدق ادعائها .

قدم سريانو للموت وقال بتحد : لن تعرف مكانهم ، وستكون أنت القاتل لهم .

ضحك محسن وقال : كما عرفنا مكانك سأعرف مكانهم .. وما دام لن يخرج أحد منكم من

هنا حيا ، فلن يقتلوهم ، وسأضع فرساني في أول الشعب وكل من يدخله يهلك .

ـ العفو أيها الأمير!

ـ لم يبق في قلبي بعد غدرك بأهل القرية المسالمة مكان للعفو

وأشار الدعسان لرجاله بتنفيذ الأمر .



سفح رجال الدعسان دماء الذكور ودفنوهم في تلك الغابة ، وأخذوا رأس سريانو معهم ، واستولوا على الأموال الذهبية والدواب ، وأمرهم الدعسان بعد تشاوره مع الأمير بتفريقها على فقراء مدينة دغفل ، فلما خرجوا من الغابات ، وصاروا في درب القوافل والمشاة المطروقة ، قال الأمير للمرأة : أيتها الأميرة ألا تعرفين مكان الأسرى ؟

فقالت مرعوبة : مولاي الأمير الرجال الذين سفكتم دماءهم لا يعرفون ، فكيف أعرف أنا ؟ سرياني أخبث رجل في العالم ..

ـ أتحبين العودة إلى والدك الملك ؟

ـ لا أحب ذلك، سوف يقتلونني لأنهم اتهموني بقتل زوجي .

ـ أو لم تعيني على قتل زوجك؟.. فجريمتك واضحة.. وإلا لما لحقت بسريانو في هذا القصر الخفي .. رأيت جزعك وأنت ترين تطاير الرؤوس.. إلى أين تحبين أن نأخذك ؟

ـ إلى الأميرة نهيلة .

ـ الأميرة نهيلة بنت حسن غاب عليّ مقابلتها لعلها مطلعة على سر سريانو سأعفو عنك أيها الأميرة درة .. وذلك بعد مقابلتك لأختك زوجة الملك .

ـ لعلك تعفو عني ، وتدعني أذهب لأي مكان بنفسي .. أنا سأذهب إليها مكرهة .. لأنها كانت السبب في زواجي من ذلك الأمير المقتول .. وكانت تعلم أنه زير نساء .. فلما التقيت بسريانو في قصرها قبل زواجها حدثته بحكايتي.. فأمر رجاله باغتيال زوجي وإرسالي إلى قصره السري.. وأعتقد أن القصر كان عش عشق لأحد الأمراء ، وقتله سريانو في تاريخه الحافل

بالإجرام والمغامرات، واحتل مكانه .. ولما استقر فيه اتخذني خليلة، وخضعت له ليس أمامي إلا الرضا، وقد قبلت بقتل زوجي.. فهو رجل قُد قلبه من الحجر.. لا رحمة ولا شفقة لا تظن أنني حزنت على قتله.. ربما سر فؤادي .. فهو الشر مجسم في بدنه وروحه .. وأخشى أيها الأمير أن يكون قد تخلص من أهلك .

ـ لا ، لم يفعل أيتها الأميرة.. كانت بينه وبين الملك ضرغام مراسلات لإنهاء الخطف والكف عن مطاردته والنيل منه، فهو الذي قتل الملك مطر والد ملكنا .. فكان لابد من قتله لنعيش بسلام وراحة بال .. ستمكثين معنا ريثما نقابل الأميرة نهيلة ثم ندع لك حريتك وتذهبين إلى حيث شئت .. نحن لا نقتل النساء إلا اضطرارا أو خطأ .. فأختك تآمرت علينا .

ـ أختي لم تتآمر عليكم، إنها مكرهة ومستغلة من الأمير سرياني ..

ـ هذا ما نراه نحوها .. لكن لابد من الحديث معها .. لعلها تعلم مكان المخطوفين من أهلنا .

قالت : لا يسلم سريانو سره لأحد .. خاصة النساء .. فهو من الدهاة ..

ـ كان الرسل يمرون عليها ويخرجون من قصرها .

ـ الخدم الذين معها كلهم عيون لسرياني.. وأحدهم من أكبر أعوان الأمير .. ومن أخطرهم.. أنا لا أحبها هي التي ورطتني بجريمة القتل.. أنا قلت لها إني أبغض زوجي .. فقال لها ولي سريانو " اعتبري نفسك حرة .. وأرملة " ظننته مازحا، ولما جاء رجاله لأخذي ، أدركت أنه قتله، وليس أمامي إلا الهرب فكل أهل المدينة يعلمون كرهي لزوجي .. وأبي يرفض طلاقي منه ..

استيقظ أهل مدينة قدم الغزال على رأس سريانو مرفوعا على رمح أمام أحد أبواب المدينة ، وتجمع الناس فرادى وزرافات وحلقات يتفرجون على رأس الرجل الذي كان يرعب أهل البلدة والأمراء والوزراء والقضاة والسوقة ، وانتشر الخبر خلال سويعات في جميع المدينة وقراها.. وزعم بعضهم أن هذا الرأس ليس لسريانو .. وأن مكيدة تحاك وتدبر في المدينة، عند العصر دخل الأمير محسن ومعه الدعسان على الملك دغفل وحاشيته يعلمونهم أنهم تمكنوا من

قتل جعفر بن سعد الملقب بسريانو.. وأعلمهم أن الرجل قد خطف أمه وأخته وبعض أهل القرية ، وأعطاه الخطاب الذي أرسله للملك ضرغام يساوم عليهم.. فدافع الملك ومن حوله عن نفسه وأنفسهم أن لا علم له بهذه الجريمة الأخيرة لسريانو.. وأنه يعمل وحده.. فذكر له الأمير تعاون امرأته الأميرة نهيلة وحاشيتها معه ، وأن المراسلات كانت تمر من داخل القصر.. فلما حاول الإنكار والتنصل احضروا الرسول الجريح ، واعترف الرجل أنه رسول سرياني للملك ضرغام، وأنه أحد رجاله ويعمل في قصر الأميرة .. وأن الملكة فقد كانت تساعدهم بتوفير المكان لهم ، وتسمح لهم بدخول القصر والاجتماع مع سيد خدمها، وهو أحد المقربين من سريانو .. وأنكرت الأميرة علاقتها بسريانو أمام القاضي.. ولما اعلموها بمصرعه على يد رجال مدينة الرعاد.. قالت " هو فقط ساعدني بالزواج من الملك .. لأنه أفسد عليّ زواجي من الملك ضرغام .. سعى لاستغلال ذلك الزواج لاستدراج الملك ضرغام لوادي السبع .. ولم يكن أمامي إلا الموافقة على شروطه .. فكلكم تعرفون قوة وخطر سريانو منذ عهد الملك الراحل شجاع.. قال " فليمض الزواج كما اتفقت مع أسياد مدينة الرعاد .. ثم رتب خطفي إلى وادي السبع .. ماذا أفعل أيها القاضي؟ .. لقد قتل زوج أختي درة لمجرد أن شكوت له أن أختي تبغض زوجها فقتله .. وطلب مني بعد زواجي من الملك أن أسمح لرجاله بالبقاء حولي .. وها هو كبير خدمي عبد له فاسألوه "

فلما لم يظفر الأمير محسن بشيء عن مكان إخفاء أهل القرية غادر قصر السلطان، واجتمع برجال الدعسان فقال بعضهم " سمعنا من بعض رجاله قبل قتلهم يخبرون أنه أخفاهم في إحدى القرى "

أمر الأمير بإنزال رأس سريانو وحمله لمدينة الرعاد والملك ضرغام ، وانتدب الدعسان أحد رجاله لأداء المهمة .

وأما الملك دغفل فقد استاء من أفعال الأميرة نهيلة ، وتعاونها مع الأمير سريانو بالتجسس عليهم ، فقالت له برجاء : كان يزعم لي يا مولاي أنه ينتقم لدم أبيك .. فسايرته .

ـ كذاب ، إنه ينتقم لنفسه .. هو الذي ساعد الأمير طل في قتل شقيقه الملك مطر والد الملك ضرغام .. لقد كانت كارثة عظيمة ومروعة ، وقد قتلوه غدرا وغيلة على غدير الدم .. فاضطر أبي في الاستمرار في الحكاية معهم.. ولما ضاق الناس من الملك طل أزاحه وأرسل حاكما منا ليحكم البلاد.. ونحن اليوم ندفع ثمن تلك العداوات والحروب .. وأعلن أمامكم جميعا أنني تزوجت هذه المرأة خوفا من سريانو اللعين .. زعم لي أنك أفضل وأجمل النساء .. أجبرني على الزواج منك .. وأنا أخافه وأرتعب منه منذ أيام أبي الذي سلطه على رقابنا.. وأنا سعيد بموته أيها الرجال .. والآن أنا أصبحت ملكا حرا لكم أيها الأسياد .. وأعلم أن الكثير منكم يشاطرني هذا الإحساس .. وأول الأعمال بعد أن حررت .. اشهدوا بأني طلقت هذه الأميرة فالحقي بأهلك .



النصر

استدعى الملك دغفل الأمير محسنا لمقابلته وذلك بعدما طلق زوجته نهيلة، وأمرها بمغادرة البلاد ولما دخل الأمير القصر يصحبه الدعسان وبعض حرسهم اعترضه شخص محاولا اغتياله ، فأمسكه رجال الأمير بسرعة الريح ، وحالوا بينه وبين تحقيق مأربه ، وأمر الأمير الرجال بأخذه لمحبسهم؛ ليسمع إلى دوافعه إلى هذا الاغتيال .

استقبل الملك الأمير، واعتذر له عن الإساءة التي أصابتهم من زوجته، وأعلمه بأنه سرحها إلى أهلها ،وهي تستعد للرحيل.. فذكر له الأمير الحادث الجديد ، فاستغرب الملك لهذا الاعتداء وأسف له وقال معتذرا ومبررا : الرجل أيها الأمير لم يكن سهلا .. فهو لم يكن صديقا لي .. إنما عار ورثته عن أبي ..

فقال الأمير : أنا أسلم بما تقول ..

ـ أتعلم لماذا دعوتك اليوم ؟

ـ لا .

ـ طلبتك لأعرض عليك أن تكون زوجا لإحدى بناتي؛ لتثق أنني صديق لكم ومحب كذلك.. وإنني لست متواطئا مع أحد ضدكم .. نحن نريد السلام .

وكان من عاداتهم لإظهار السلام بينهم أن يتزوج الرجل القاتل في الحروب زوجة القتيل أو أخته أو ابنته لبيان الرضا والإقرار بالهزيمة، وأن الحرب خطب مؤقت والسلام هو الدائم .. لذلك قبل الأمير هذه الخطوة وقرنها بموافقة الملك ضرغام عليها ، وقدم الشكر للملك على شجاعته بهذه الخطوة الجريئة .

ولما جلسوا في بيتهم قال الأمير : الخوف من سريانو أخذ يزول من نفوس القوم والملك .. كان اللعين مرعبا لهم ..

ـ لقد كان سيف الملك المقتول .. ألا تريد أن تسمع لأسيرك؟ .. فهو ابن لسرياني

أظهر عجبه الأمير وقال: أوه !! أراد أن ينتقم لأبيه .. هاته

جلب الأسير للمثول بين يدي الأمير محسن ، ولما تقابلت العيون قال الأمير: أتريد أن تعدم الحياة كأبيك الخائن يا ملعون ؟

ـ لم يعد للحياة طعم بوجودك أيها الشقي .

ـ أنا شقي ! من بدأ الظلم أيها اللعين ؟ .. أنحن ذهبنا لغدير الدم وغدرنا بالملك مطر ؟!.. أنحن أشعلنا نار الحرب بين البلاد يا غادر؟! .. هل اعتدى عليكم الملك مطر وقتل رجالكم وسبى نساءكم ؟!.. نحن سيوف العدالة والقصاص يا غادر .. نحن ولدنا لننتقم لهم .. وليدور الزمان دورته .. ألم يخطف والدك الشرير أمي وأختي وأهل قريتي أم تزعم أنك لا تدري؟ .. أبوك اتخذ السلطة والحكم للعب والقتل للأحرار والعيث فسادا بالبلاد والعباد .. لم يتخذ السلطة والحكم للعدل والمساواة بين الناس ، وأنت هربت عندما أسرنا أباك أو قتلناه .. هل تحب العفو أم تفضل الموت ؟

ـ سأقتلك .

ـ ستقتلني يعني أنك لا تريد السلام والعفو .. أتريد أن تبقى مجرما مثل أبيك ؟.. ضعوه في السجن حتى يموت جوعا .. لا أريد أن أغمس يدي بدمه النجس ..

ساقوه إلى غرفة في البيت تستخدم كسجن صغير .. وبعد يومين من مكابدة الجوع طلب العفو والصفح ، فأمر الأمير بإدخاله عليه ثانية، فهجم مقبلا لقدمي الأمير ويقول : العفو أيها الأمير .. أحسن إليّ

قال الأمير : ضعفت سريعا أيها الثائر .. دعك من الكلام الأكبر منك .. أنا عندما أعود لمليكي بعد عودة أسرتي التي سرقها أبوك سأعفو عن أهلك وأمك بينهم .. وسأتزوج ابنة الملك .. التي قتلت جدها على غدير الماء انتقاما لمقتل الملك مطر .. الملك دغفل سيزوجني ابنته لتذهب الأحقاد والثارات .. أرأيت المسامحة ؟ .

قدموا له طعاما، ولما أكل وشبع قال : أيها الأمير ، وأنا سأدلك على أهلك أمك وأختك .

ـ أنت ؟!

ـ نعم ، أنا يا مولاي ! أنا كنت الحارس عليهن ، ولما علمت بمقتل أبي جئت لأنتقم منك .. ولكني أدرك الساعة أني مخطئ .. ما كان على أبي خطفهم ، كان عليه أن يرضى بما رضيه أهل المدينة وسادتها .

ـ هذا هو الكلام الجميل.. يا أمير زيد .. ستقابل الملك، وتعترف أمامه بأنك أسأت لنا، وتطلب منه العفو ؛ ليحفظ لك هذا المعروف .

وبينما الأمير محسن يجلس بين فرسانه في مدينة قدم الغزال دخل عليهم رسول من بلادهم ، فلما رأى الأمير هتف والجزع باد على محياه: مولاي الأمير! السلطان يدعوك للعودة عاجلا لا آجلا في اللحظة التي أكون بين يديك عليك أن تعود.

جزع الأمير والدعسان للخطب وقال الأمير : الِشأن خطير! .. ما الأمر لقد وهنت قلوبنا .. أأصاب الملك مكروه ؟!

بكى الرسول وقال من بين دموعه : حياة الملك في خطر .. يا مولاي الأمير .. أصيب الملك وأرسلني الوزير زويد المقداد لترحل على أسرع جواد .. عندما كانت المدينة تحتفل بموت سريانو تعرض الملك للسعة حية سامة .

ـ كيف ؟!

ـ كان يا مولاي.. كان يتجول في حدائق القصر الجديد.. وهو في أحدها دعس بقدمه على ثعبان قاتل .. فلسعه في ساقه .. وعجز الأطباء عن معالجته وتوفير الترياق المفيد .. وهو يحتاجك خلال وقت قصير .

كانوا يخرجون من المدينة إلى بلاد الملك الرعاد ، وقد رافقهم بعض الرجال ، وأمر جود بزيارة القصر وإخبار الملك بسفرهم العارض .. والذهاب مع الأمير زيد لإحضار والدة الأمير وشقيقته..

ولما وصل الأمير القصر الجديد في القلعة كان الملك ضرغام يكابد الألم والموت ، فلما رأى الأمير تهلل على وجهه الابتسام والفرح وقال : الحمد لله أنني رأيتك في ساعاتي الأخيرة .. وقبل أن

تخرج الروح لبارئها .. إنها أيام قاتلة .. ولعل أدوية الحكماء هي التي أخرت مفعول السم ..
عانق الأمير الملك ، وبكى على صدره ، وفعل الدعسان مثله وقال الملك : أخي محسن .. صديق العمر .. أوصيت لك بالملك ، حتى يكبر ابن أخيك عمرو ويصبح في مقام الرجل .. فتجعله وريثا للعرش عرش الآباء والأجداد .. وسلم لي على أمي الحبيبة ، وأختي سيرة ، وأحفظ حقهما وشأنهما يا أخي الشجاع .

ـ إنهم في الطريق إلينا يا مولاي .. وأنا أعاهدك على الوفاء بما عهدت إليّ .. وأن يكون عمرو ملكا على البلاد .

ثم بعد حين شهق الملك شهقة الموت، وخرجت الروح السر الإلهي لبارئها إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء .

وأجهش الأمير والحاضرون بالبكاء والشهيق والزفير والدعاء بالمغفرة والرحمة على روح الملك ضرغام .. وغرق القصر بالبكاء والدموع .. وانتقلت الدموع والحزن لأهل المدينة .. صغارا وكبارا ذكورا وإناثا .. فالكل يعتقد أنه فقد رجلا شجاعا بطلا ، حررهم من نير الظلم والاستعباد ، ورفع رؤوسهم إلى السماء .. الكل حزين يبكي ويدعو للشاب الشجاع بالرحمة والسلام ..

تقدم الأمير بعدما تمالك حزنه وهمه من أم الملك الأميرة سيرة وعزاها بولدها الملك ، وشاركها الحزن والنشيج.. فقبلته من رأسه.. وقالت : إنك نعم الأخ والصديق يا ولدي.. وأعاد الله لك أمك وأختك وأهلك بسلام .. وسرني ما سمعتك تقوله أمام الملك من عودتهما

وقدم الدعسان والأمراء العزاء لأم الملك .

وقبل الأمراء جبين الملك الميت ، وتركوا أمه والنساء يدخلن عليه، وخرج الوزير مقداد لإعلان وفاة الملك على الملأ الذين كانوا يعرفون ذلك قبل إشهاره .. وانتقل السادة إلى ديوان الحكم .

وفي اليوم التالي سمح الأمير محسن للعامة بالدخول إلى حجرة الميت لإلقاء نظرة إليه والدعاء له والصلاة عليه .. وعصر اليوم وبعد غسله والصلاة عليه دفن في مقابر أجداده وأسرته .

وغمر الحزن المدينة فهم لم ينسوا شجاعته وكرمه وحبه لهم ، لم ينسوا إنقاذه لهم من نير شاقور وشجاع .. كانت سنوات قليلة .. ست سنوات غمرهم فيها الإحسان والعدل والسلام ..

والتقى محسن بعد أيام بقيم القصر، واستوضحه قصة الأفعى القاتلة ، وكيف استقرت في حدائق القصر وبساتينه ، فقال القيم : العمل كما تعلم أيها الملك لم ينته كليا في القلعة.. فالملك ضرغام ـ رحمه الله ـ كان متعجلا للحياة في هذا البناء الشامخ .. وجهز قصره قبل كل شيء .. وانتقل إليه مع الحرس ، وأصبح المكان مقر الحكم وديوان الحكم .. والحدائق لم تجهز بشكل دائم .. وقصر سيادتكم ما زال العمل جار فيه .. ومباني الخدم والحرس كذلك .. فلا أعتقد أن أحدا أدخلها القصر .. ولماذا قرصت الملك دون غيره ؟! .. لو وجدت في غرفته في قصره ربما قلنا إنها مدسوسة ومقصودة .. فالخدم والجند يتمشون في أرض القصر .

ـ معك حق .. القضاء والقدر الذي حكم .

ـ أجل يا مولاي الملك إنما هو الأجل !

لما بايع الأمراء الأمير محسنا ملكا تنفيذا لوصية الملك الأخيرة أبقى الوزير مقدادا زوج أم الملك مكانه وزيرا على البلاد، والقائد فوزان قائدا للجيش، وجعل الدعسان مقدم الحرس الملكي.

ثم استقبل أمه وأخته وأهل القرية المحررين من خطف سريانو، وعلم أن زوج أمه سهام مات في الأسر ، فعزى أمه بزوجها ، وعزاها بموت ابنها الملك.

ومشت أمه وشقيقته سيرة لقصر الأميرة سيرة ، وقدمتا لها العزاء بوفاة ابنها الملك ، وبكوا الملك الميت من جديد ، وقالت الأميرة : مصابنا واحد، فأنت أمه التي أرضعته وحضنته سنوات عمره، وعاش عندك أكثر مما عاش عندي .. وأنا مدينة لك بكل الفضل..

واحتضنت سيرة الباكية على أخيها الملك " تعالي يا حبيبتي .. كان أبوك وفيا لنا .. وسماك على اسمي .. يا مرحبا بكم جميعا "

ولما جلسن قالت الأميرة الأم : رحم الله العم جديا ..إن البلاد تسعد بوجودكم فيها ..أرجو أن تبقوا معنا .. فمحسن اليوم ملك البلاد وسيدها.. كان الملك يحبه كثيرا يا أم محسن .

ذرفت الأم وابنتها الدمع على روح الملك، وتقبلت عزاء الملكة سيرة بوفاة زوجها سهام .. ثم زاروا قبر الملك ، وترحموا عليه ، والسلام عليه وعلى أموات الأسرة المالكة .

ووهبتهما سيرة قصرا مهجورا بعد أن كمل تنظيفه وتجميله، ولما جهز رحلت إليه أم الملك وولداها اللذان ولدتهما من سهام.. وسكنت سيرة وأسرتها في نفس القصر.. وشجع الملك أهل قريته الناجين من أسر سريانو بالمجيء بأهليهم والحياة في مدينة الملك ، فوعدوا بالتفكير في ذلك.

ولما انتهى الحداد على سيد البلاد الراحل ، كشف الملك للوزير حكاية زواجه من بنت الملك دغفل.. فسر الوزير من هذه الخطوة، وشجع الملك على الوفاء بها .. وقال : لو كان الملك حيا لبارك فيها .

ورحبت سيرة أيضا بهذا الزواج .. لذلك أخذت الوفود تتحرك بين المدينتين، ولما عقد الكتاب أمام القضاء احتفلت المدينتين بالزواج .. ورحلت الأميرة شفق إلى مدينة زوجها الملك محسن.. حيث كانت تحتفل المدينة بتتويج محسن ملكا .. واكتمل التتويج بزواج الملك .

وسيرة الملك معروفة لأهل المدينة .. فهو الذي انتقم لموت الملك مطر، وشارك في حرب التحرير.. وأسر سعدانوا .. وسريانو .. فهو البطل الشجاع .. الفارس المقدم على الفرسان ، وهو ملك البلاد .

ورأى الناس أن هذا الزواج قد أنهى العداوة والبغضاء بين المدينتين.. وأمر الملك بمناسبة هذا الزواج العفو عن الرهائن ، ومن بقي حيا من أسرى المعارك .. واتبع الوزير بهذه المصاهرة قرارا بوقف أخذ الأموال من بلاد قدم الغزال .

وقدم الملك دغفل بشخصه ووفد كبير لتهنئة الملك محسن بتتويجه ملكا لبلاد الرعاد ، والتهنئة بزواجه من ابنته شفق ، وإعلان عودة السلام والصفاء بين البلدين.. وتأكيد عدم تدخل أي بلد في شأن البلد الآخر.. والاتفاق على حل العقد والصراعات بالعقل وحده دون العاطفة .

كانت عروس الملك شابة صغيرة نالت قسطا من العلم ، فوجدت قبولا لدى نساء البلاط

الملكي.. وأحبتها الملكة سيرة .. وأم الملك جديلة وأخته سيرة .. والكل تجاوز المآسي.. فهم جميعهم بين قاتل ومقتول .. فعليهم نسيان التاريخ الأسود .. وكمل فرحهم بولادة الأميرة لمولودها الأول ، وكانت أنثى فسماها الملك سيرة لبيان حبه لوالدة صديقه ضرغام .. وكلنا يذكر أن لمحسن ولدا من إحدى جواري الملكة سيرة سماه عطية .

وبعد حين يسير من ولادة شفق مرضت أم الملك مرضا منهيا حياتها بعد انقضاء الأجل المقدر من رب الحياة والموت.. ولم ينفع الدواء ولا الطب في إنقاذها من ساعة الموت .. وقامت لها جنازة تليق بالملك الشاب ، وسمح الأسياد من أسرة الملك ضرغام بدفنها بمقابرهم الخاصة ، فهم يعتبرونها أما للملك ضرغام .

وكان الملك قد وعدها وهي على فراش الموت برعاية ولديها من العبد سهام، فهم إخوته ، وسيهتم بهم الاهتمام اللائق بإخوة الملك ، فماتت قريرة العين تدعو له بالسلام والحياة السعيدة واستمر الملك على خطى أخيه الملك ضرغام بتحديث المدينة وتوسيعها وتشجيع الصناع للبقاء والمقام فيها.. ويشجع أهل القرى على الزراعة والاعتناء بالمواشي والأنعام .. واهتم أيضا بتوفير الأمان والحماية للتجار والقوافل ، وكان لا يتهاون مع اللصوص وقطاع الطرق وضبط الأمن والطرقات .. وفي عهده بدأت المدينة تكبر وتتسع .. وينتشر البناء خارج أسوار المدينة القديمة وامتد إلى القلعة التي اتخذها ضرغام مقرا للحكم ، وصدق ما توقعه الملك الراحل والوزير مقداد .

وبينما الملك في مصلاه يصلي الفجر دخل عليه أمير الحرس الملكي الدعسان هامسا في أذنه أن والد الأميرة شفق قد اغتيل في بلاده .

فصدم الملك للخبر فقال الدعسان : هذا ما نقله لنا رجال الخفية من بلاد قدم الغزال .

وبعد أيام جاء بريد للملك فيه نعي الملك دغفل ، ورسالة عزاء للأميرة شفق.

قتل الملك دغفل

طلبت الأميرة شفق من الملك الذهاب لزيارة مدينة أهلها والتعزية في أبيها المقتول .. فجهز لها الملك عربة ملكية وطائفة من الجند والحرس تصحبها في تلك الرحلة ، وأتبعهم الدعسان بفوج من أعوانه لمراقبة ومتابعة القافلة.. ولمعرفة ملابسات الجريمة ، وصحبت الأميرة ابنتها الرضيعة معها ، ورافقها الملك لأطراف المدينة .

ولما قفل عائدا قال للدعسان : ألا تعلم تفاصيل القتل أيها القائد ؟

ـ سيصل قريبا تفاصيل مفصلة .. فنحن كما تعلم منذ قضينا على اللعين سريانو لم يبق إلا العدد اليسير من رجالنا .. ربما ثلاثة أو أربعة .. فقد ضعف العداء بيننا كما تعلم .. إنما بقي هؤلاء من باب الحذر.. فهم أصهار الملك ..ـ وابتسم وابتسم له الملك ـ.. وأيضا أولئك الأعوان يهتمون بالأحداث الجسام، ولابد أن أخبارا مفصلة سترد .. فقد طلبت من الرجل الذي نقل لي الخبر معرفة أسرار الحادث .. الحادث كان مفاجأة للجميع بعد عموم السلام بيننا.

وصل صاحب الخبر بعد أيام من هذا الحديث .. فاغتيال ملك ليس كاغتيال رجل من العامة فالملك محاط بالحرس والحماية .. والعامي غير محاط بحماية .. قرأ الدعسان الرسالة ثم أطلع عليها الملك.. وعجب الملك منها ، فقد كان الجاني الأمير زيد بن جعفر المعروف بسريانو .. فقد عرف جيدا صاحب هذا الاسم ، فقد حاول اغتياله ، ثم عفى عنه بعد حبسه عدة أيام .. وفهم من الرسالة أن الملك نفاه خارج المدينة ؛ لأنه سعى لأحياء نشاط والده ، وإظهار نفسه بالفارس القوي كأبيه.. مما أدى لغضب وسخطة الملك عليه.. ورفض الملك والوزير ظهور سريانو جديدا.. ويبدو من الخطاب أنه نفي لمدينة تتان حيث الملك حسن غاب والأميرة نهيلة طليقة الملك.. وأن الأميرة المطلقة التقت به أثناء وجوده في بلادها ، وشجعته على الانتقام وقتل الملك دغفل لأن اسمها تردد على لسانه كثيرا أثناء فترة الاعتقال ، واعترف بالمؤامرة الكبيرة على حياة الملك .. فقد استغلوا طرده ونفيه فهيجوه على الجريمة والقتل.. وذكر مرسل الخطاب أن الأميرة وعدته بالزواج منها إذا نجا من الجريمة.. وهي منذ تركها الملك بغير زوج زاد فسادها في البلاد

وكثرت حفلاتها ومجونها.. فلما تعرفت عليه وعلى قصة نفيه.. رحبت به في مجالسها وحفلاتها، وطمع بنكاحها فاشترطت عليه الانتقام لها ولنفسه.. فتسلل للمدينة متنكرا ، واستطاع إقناع بعض أتباع والده الذين عادوا للبلاد بعد مصاهرة الملك للملك محسن بمساعدته للوصول للملك ، والتآمر معه لكرههم للملك الذي همشهم في حياة البلاط ومنع أعطياتهم .. ونقموا على الملك ظاهرا لتزويجه ابنته للملك محسن .. ورأوا ذلك عارا واستسلاما كاملا .. فصنعوا كمينا للملك في أحد قصوره، وطعنه زيد الطعنة القاتلة..، أمسك به الحرس ومعه رفيق له فور الحادث الغادر .. وأمام سيف الجلاد كشف كل الحقائق والكيد .. وفي الرسالة أن رجال الملك يطلبون الأميرة نهيلة التي اختفت من مدينتها .. ووافق الملك حسن غاب أمام الحقائق على حبسها دون قتلها .. والأمور تسير للأسوأ بين المدينتين ، وقد تثار الحرب بينهم .

ولما رجعت الزوجة شفق من بلادها قصت على الملك نفس الكلام الذي جاء برسالة صاحب الخبر ، وتظاهر الملك أنه يسمع الكلام لأول مرة .. والجديد الذي أضافته الأميرة أنهم اعدموا زيدا وجميع رفاقه الذين قبض عليهم في المدينة الحياة.. ونفوا ذريته من المدينة .. وهم يطاردون الأميرة الجانية الهاربة .. فهي المحرضة الحقيقية للقاتل المجرم ابن سريانو .

فقال الملك " هل مات سريانو الآن ؟ "

فقالت " الله أعلم يا مولاي الملك! "



نصب الأمير زاهر ابن الملك دغفل ملكا مكان أبيه على بلاد قدم الغزال ، ولما انتهى الحداد المعلن دعي الملوك والأمراء للمشاركة في حفل تتويجه ملكا جديدا على المدينة .. وكان يلقب الشاب بزاهر الراهب .. فقد كان هذا الفتى معروفا في بلاده من العباد .. فهو لا يشرب الخمر، ولم يتزوج مع أنه الابن البكر لأبيه ..

وجاءت رسالة للملك محسن تدعوه لزيارة البلاد والمشاركة بحفل تتويج الملك زاهر الراهب.. وتطلب منه شخصيا المساعدة في البحث عن الأميرة الهاربة ليستقر الهدوء والسلام في البلاد ..

فأهله غاضبون على الملك حسن الغاب .

فضحك الملك وهو يتلقى هذا الطلب وقال للدعسان : ما رأيك ؟

فقال الدعسان : قد تكون مختفية في ذلك القصر في تلك الغابات التي تذكرها يا مولاي .

ـ ممكن

ـ سأرسل بعض الأعوان دون علمهم لذلك الوكر الخفي.. ما دامت لها علاقات برجال سريانو أظن أنهم يعرفون ذلك المكان الخفي، وهو نعم المخبأ .

ـ ولا تنسى أن أختها درة عاشت فيه مع عشيقها سريانو .

ـ صدقت أيها الملك الآن زادت ثقتي أنها تختفي فيه .. أترى أن لأختها سعي في قتل من كان زوج أختها ؟

ـ إذن انتقام !

ـ قد يكون ، فقد كانت الأميرة درة تحقد على أختها لدورها في قتل زوجها زير النساء .

ـ إنها بعيدة عن الحكم والسلطان، ومتهمة بقتل زوجها .. ربما شملها عفو وشفاعة من أهل القتيل .

بعث الدعسان مجموعة من رجاله الذين شاركوا معه في القبض على سريانو لذلك المكان الخفي وكتب كاتب الملك رسالة للملك زاهر الدين يعلمه فيها القبول بمهمة البحث عن الأميرة الهاربة لمنع الحرب بين البلدين .

استقبل الملك القائد جودا ورجاله كلهم ، وقرأ رسالة الملك محسن على رؤوس الأشهاد الذين سروا لتدخل الملك محسن في النزاع القائم بين المدينتين ، وأثنى الملك على زوج أخته الثناء الحسن ، وشرح لهم القصة والمؤامرة .

وأسكنهم في جناح قصره ليستريحوا من وعثاء السفر عدة أيام ، فشكروه على اهتمامه .

وهم بعد استراحتهم قد طلبوا من الملك مجموعة من الفرسان يثق بهم، فطلب من قائد الشرطة تحقيق رغبتهم.. فأمن له الرجل عشرة فرسان يقودهم شاب من أشقاء الملك زاهر ..

وساق القائد جود رجاله ورجال الملك إلى غابات شيخ عسير المعروفة له، فقد خاض في غمارها مغامرة قوية ومثيرة .

وبعد يوم رجع الرجل مخبرا للملك أن القصر مهجور ، لم يجدوا فيه إلا الكلاب ، وهو على ما تركوه عليه قبل سنوات .. وفكروا بالرحيل لمدينة حسن غاب للقيام بمهمة البحث عن الأميرة الهاربة .

وبينما هؤلاء يفكرون بالذهاب لتتان كان الملك محسن في بلاده، ويجلس في ديوانه ، ويعلمه الحاجب أن امرأة من غير أهل المدينة تزعم أنها تعرفه حق المعرفة ، وتريد مقابلته شخصيا ، فنظر الملك باسما لوزيره الشيخ وقال : امرأة غريبة أيها الوزير ترغب برؤيتنا .

فخرج الدعسان لينظر تلك المرأة الساعية لمقابلة الملك في هذا الصباح ، فلما كشفت عن وجهها عرفها الدعسان على الفور، فهي آخر عشيقة لسريانو وشهدت مصرعه درة ابنة الملك حسن الغاب المتهمة بقتل زوجها، فمنذ أيام كانوا في الحديث عنها، وما حل بها بعد تركها في مدينة قدم الغزال .

فقال لها : أتذكرينني ؟

فقالت باسمة : وهل تخفى عليّ أيها القائد الفارس الدعسان .. عسى أن تسمح لي بمقابلة الملك محسن سيد البلاد والعباد.. إني جئته في شفاعة .. وأنا تبت إلى الله ، وعفى عني والدي، وهجرت الرجال ، وأعيش حياة الأرملة ؛ وإنما أختي وقعت في بلية، ولا ينجيها بعد الله إلا الملك الشجاع محسن .. سيد الملوك في هذا الزمان .

ابتسم الدعسان لها وقال: جئت من أجل شقيقتك ودورها في مصرع زوجها الملك دغفل صهر الملك محسن .

ـ نعم أيها الأمير .

ـ إنها هي التي ورطت الشاب لقتل الملك غيلة .

ـ أتصدق ذاك أيها الأمير ؟ وهل كل امرأة تطلق تقتل زوجها ؟

ـ هي محرضة ؟

ـ وهل كل شخص يحرض على جريمة يفعل ؟.. إنما اتخذ ذلك الكلام والتحريض تبريرا لجنايته فهو يريد القتل ؛ لأنه فشل أن يكون زعيما كأبيه .

ـ حسنا أيتها الأميرة .. سيكون لك لقاء مع الملك حسب شهوتك .. والآن تنزلين بيت الأضياف .. هل أمر لك بولوجها ؟

قبلت يده وقالت بحسرة ودموع : تصنع خيرا يا مولاي الأمير .. نحن بنات ملوك وأصبحنا أذلة .. فكيف حالنا عند موت مولانا الملك ؟!

ـ أنتن أخطأتن أيتها الأميرة.. خرجتن عن المألوف في بنات الملوك .. ولم تقرن في بيوتكن كنساء العالمين.. اللعب بالنار يؤدي للهلاك والدماء .. والدكنّ طيب ورجل شيخ.. فأختك الهاربة كانت ترفض الأزواج بحجة أنها فارسة لا تنكح الرجال إلا إذا هزمت .. سفاهة وضعف عقل

أدخل الأمير الدعسان مقدم الأعوان المرأة على الملك محسن بن جدي ، رحب بها الملك باسما، وأشار لها بالجلوس وابتسم لها من جديد، وهو يقول : سمعت أخبارا طيبة عنك .. قد تبت إلى الله والتزمت الطاعة والعبادة !

اقتربت لتقبل يد الملك فاعتذر لها عن ذلك ، وطلب منها تبقى في مكانها فقالت : نعم يا مولاي الملك ، لقد رأيت ما حل بسريانو الشجاع الكبير .. كانت نهاية لا تعادل الملذات التي حصل عليها عشرات السنين .. غاب عن الحياة بجبروته وكبره .. ندمت وندمت واعتذرت لأبي الشيخ الكبير، وأعلنت توبتي أمامهم وندمي على الموافقة بقتل زوجي على يد رجال سريانو.. وطلبت منهم القصاص العادل .. فلما رأى أهل زوجي القتيل من تسليم نفسي لهم وندمي عفو عني للملك الشيخ ، ودفع والدي الدية، وخرجت من السجن ، واعتكفت في دار أبي ، وأبتهل إلى الله أن يقبلني، ويغفر لي كل ذنوبي وشهواتي الآثمة .. وأسأله ذلك دائما.

فردد الملك الشاب :آمين .. آمين.. والآن جئت للشفاعة لشقيقتك الأميرة المختفية المتمردة على قانون النساء .

قالت وقد مسحت دموعا سالت على وجنتيها بحضرة الملك : نحن ولدنا يا مولاي وقد بلغ والدنا الملك الخمسين سنة ، ولم تحسن الجواري تربيتنا والعناية بنا العناية الملكية والخاصة بالأميرات.. فتعلقنا بالشهوات وتقليد الشباب .. فصرنا نحضر مجالس الأشرار من الأمراء والأقارب في سن مبكرة.. أنا وإياها من أم واحدة وأصغر ذرية الملك حسن غاب .. فأحبت شقيقتي الفروسية كالرجال والأمراء الشباب ، وتمرست عليها على أيدي أمهر المدربين فأصابها الغرور ، وأعلنت أنها لن تتزوج إلا من يقهرها في العراك والقتال.. صارعها بعض الشباب المتدرب فلم ينالوا منها، فزاد الغرور لديها .. وبدأ الشباب الأمراء يبتعدون عنها رويدا رويدا ويفوزون بفتيات صغيرات .. وسعى إليها بعض الفرسان من خارج البلاد .. وكان الملك شجاع بعد موت خالتنا زوجته يرغب بها لبقاء المصاهرة بينه وبين الملك حسن .. ولكنها فازت عليه وصرف نظرا عنها.. تعرفت تلك الأيام على الأمير سريانو حارس الملك القوي .. وأصبحت صديقة للملك ولسريانو .. وكانت جميلة تتحدث البلاد عن جمالها وحسنها .. وعلى أثر موت الملك شجاع .. حاول الأمير سريانو استغلال جمالها في اصطياد الملك ضرغام .. عندما علم أن الملك وافق على الاقتران بها.. وسريانو رجل مرعب وقاتل سفاح يا مولاي .. فما كانت تستطيع أن ترفض له طلبا خاصة عندما أغرته بقتل زوجي .. فأصبحنا في يديه كالعجين .. فسكتت عن خطته بخطفها لاستدراج الملك ضرغام ـ رحمه الله ـ إلى وادي السبع .. ولما فشلت حيلته بجر الملك لوادي السبع والحرب مع الملك دغفل .. أعادها لأبيها .. وأمرها بطلب الطلاق من الملك ضرغام ، ووعدها أن ينكحها للملك دغفل ليكون خدمها عيونا له في القصر.. هي تمنت أن لا يوافق الملك على الطلاق والسعي لأخذها ، فهي كانت أسيرة لسريانو ولكن مولانا الملك أعلن طلاقها ، وتزوجت الملك دغفل للقرابة التي بيننا ولضغط من سريانو الذي ما زال يحكم ويشير في البلاد ولو من قصره الخفي ولما كشفتم مساعدتها لرجل سريانو، وبموت سريانو نفسه طلقها الملك دغفل ، وأرسلها لأبيها الشيخ .. فعادت غاضبة ناقمة مستهترة بالحياة الشريفة.. ورجال المدينة رفضوا الزواج منها وهي شابة صغيرة لما اشتهر عنها

من الاسترجال .. فكان لها مجلس شراب وطعام يجتمع إليها الشعراء والمغنون والماجنون .. ولما طرد ابن سريانو من بلاده منفيا لبلادنا فدخل المجلس بعد حين وذكّر الأميرة باسمه وأبيه ، وشكى لها حاله البائسة، وأنه فشل أن يكون كأبيه سيد وزعيم .. وكان جل حديثه عن أبيه وشجاعته ومغامراته وسطوته، ثم تشجع وطلب الاقتران بها .. فكانت لا تريده ، ولا ترغب به زوجا، ولا تريد العودة لمدينة قدم الغزال .. وكانت ما زالت حاقدة على الملك ، وهو مثلها فبدأت تعرض بقتل الملك ليثأر لنفسه ولها وشجعته على فعل ذلك بأنها ستقبل منه الزواج إذا نجا من ذلك .. وهي قالت لي " لم أكن أظن أنه سيستطيع فعل ذلك .. فليس له الذكاء والفطنة اللتان كانتا لأبيه .. ولم يكن شجاعا " هي فعلت ذلك لتتخلص منه ، ومن مضايقته .. فهو يسعى للأمجاد، وهو ضعيف ينفذ ما يخطط له فقط .. فلما رأى إصرارها على تحقيق شروطها، وعدها بقتل الملك والانتقام لها ولنفسه .. وغادر البلاد، وهي اعتقدت يا مولاي أنه لن يعود ، سيكشف شأنه ، ويطرح في أحد السجون.. فهم سيمسكون به عندما يدخل المدينة إما فيحبسونه وإما فسينفونه إلى مكان آخر .. لكن اللعين ـ يا مولاي الملك ـ كان لهم أعوان .. والأصح أن لأبيه أعوانا وأنصارا استفادوا من سخطه ونقمته ورغبته في قتل الملك فحمسوه وساعدوه، وسهلوا له هذه الفعلة الشنيعة.. وهناك سخطة عند بعضهم لزواجكم من ابنته الأميرة شفق .. فتنة مناسبة ليعودوا لمراكز حكمهم وفسادهم .. وفي هذا القتل لم يكن للأميرة نهيلة يد يا مولاي ، هم استغلوا تحريضها وتشجيعها .. ولم تشأ الانتقام لطلاقها الذي مضى عليه سنوات .

فقال الدعسان لما لزمت الأميرة الصمت وقد طال: وهي أرسلت أختها الأميرة لمعرفتها لنا عند قتلنا لسريانو اللعين ؛ لنشفع لها عند الملك زاهر الراهب .. ولتوضح لهم أن الأميرة لم تشترك في تفاصيل مؤامرة الاغتيال.. وإنما شجعت الرجل للتخلص منه .. وهي تقسم على ذلك .

قالت : نعم يا مولاي .. وهي مستعدة للمثول أمامكم أو أمام الملك زاهر لتقسم على ذلك .

فقال الملك : أرى أن الملك زاهرا إذا عرف هذا الدافع سيعفو عن المرأة .. ومن عادة الملوك

العفو عن النساء .. وسيذكر أنها كانت في يوم من الأيام زوجة لأبيه .. سيكتب الكاتب يا أمير دعسان رسالة بهذا المعنى للملك زاهر .. وعليك أن تأخذي شقيقتك لمقابلة الملك ، وتشرحي له دور أختك في مؤامرة اغتيال الملك دغفل .. وستأخذين خطابنا بيدك للملك فإذا قرأ الخطاب واستمع كلامكم وقسمكم وقنع كما اقتنعنا فسيعفون بإذن الله .. والقوم يقدرون صداقتنا يا أميرة درة .. ومسيركم إليهم سيدفعهم ليصدقوكم .

وأهدى إليها الملك هدية ، ولأختها مثلها ، لكل واحدة منها جوهرة . وغادرت البلاد تحمل رسالة الملك محسن ، وهي تشعر بقرب الفرج عنها ، وعن أختها المطاردة .

وأرسل الدعسان رسالة لرجاله ، ليكفوا عن البحث عن الأميرة الهاربة .



دخل رجل الدعسان جود على الملك زاهر بعد عودتهم من مدينة تتان ، فرحب به الملك ، فأخبر الملك أن الأميرة مختفية في بلادها ، وأعلمه أنها أرسلت شقيقتها الأميرة درة لمقابلة الملك محسن ليتدخل في قضيتها ومصيرها، وتزعم أنها بريئة من المؤامرة ، وهو قابل الأميرة درة في بلدها بعد عودتها من مدينة الرعاد ، ومعها خطاب من الملك محسن، وستمثل أمامه لتبين له دورها في مؤامرة اغتيال والده الملك ليحكم عليها الحكم العادل .

فأثنى الملك على جهده ورجاله خيرا، ورخص لهم بالعودة لبلادهم ، وفعلا جاء الملك حسن غاب ووزيره وابنتاه مع وفد كبير للقاء الملك زاهر الراهب.. واستقبلهم الملك في ديوان الحكم وحضر القضاة لسماع أقوال الأميرة نهيلة في تلك الجريمة .. وقرئت رسالة الملك محسن التي يحث فيها على العفو والصفح وأن النساء تغلبهن الشفقة والثورة السريعة .. وقالت أختها : يا مولاي الملك ماذا تستفيد الأميرة من قتل الملك ؟ وكيف سيتحقق الزواج بعد الاغتيال ؟ أليس سيقتل القاتل ؟!

وتقدمت الأميرة تطلب الصفح والعفو من سيد البلاد ، فطلب الملك من القضاة العفو عنها لشفاعة الملك محسن ، وللقضاء على الأحقاد والضغائن، وإعطائها فرصة للندم والتوبة .. ولذكرى زواجها من أبيه في يوم من الأيام .. ولشفاعة والدها الشيخ الكبير ووفد مدينة تتان.

فوافق القضاة على العفو، وأعلنه الملك للملأ والضيوف ، وبين لهم أن الأمير زيدا كان يسعى لقتل أبيه قبل رحيله لبلاد تتان .. وأنه كان يهدد بذلك؛ ولكنهم لم يأخذوا تهديده على محمل الجد ، وأخذ على محمل الغضب والثورة على زواج ابنة الملك للأمير محسن.. فقد رفض هذا الزواج عدد من أهل وأسرة الملك .. ولكن الحكمة والعقل غلبت ، وتم الاقتران والناس الآن سعداء به .

وأقر الملك أن أناسا من أهل المدينة استغلوا ثورته وهيجانه، ودفعوه لارتكاب الجريمة طمعا بالعودة لمواقعهم القيادية في المدينة .

ولما انتهت الأيام الثلاثة ، واستعد الملك حسن غاب للسفر والرحيل فاجأه الملك بطلب يد ابنته درة .. وكان قد أرسل لها كاتم سره يحادثها ذلك، فذكرت له قصة فسادها وتوبتها.. فذكر الرجل ذلك لمولاه وقد أدرك أن الملك أعجب بها وبتدينها ، فلما سمع الملك دورها بقتل زوجها وأن سريانو اتخذها خليلة ، وأنها عاقر فقال الملك : اشتهتها نفسي أيها الأمير ! هل تابت حقا كما هو ظاهر عليها ؟

فلما رأى كاتم السر هوى الملك إليها قال : جربها يا مولاي فإذا رأيت منها خلقا سيئا فاصرفها بسلام .

فسر الملك لهذا الاقتراح ، وعاد إليها كاتم السر معلنا له موافقة الملك على اتخاذها زوجة فقالت : تكلم مع أبي الشيخ .

تفاجأ الشيخ برغبة الملك ، ولم يكن أمامه إلا القبول حتى قبل مشاورة البنت .

ولما أشهر ذلك، وعد الملك حسن بإرسالها بعد حين زوجة للملك العابد زاهر بن دغفل .. وهذا كان من أعاجيب الدهر .. ولله في خلقه شؤون .

الملك عمرو

حقيقة أمر النساء والزواج من العجائب في الكون ، يكون الرجل حاقدا حانقا على أنثى ثم تسمع بعد حين أنه نكحها ، يكون الرجل قاتل لأبيها وأهلها فتسمع أنها صارت حليلة له وتلد له .. يتحول الحب لبغض والبغض لحب .

كان من العادات عند الفرسان إذا قتل الرجل خصمه نكح امرأته؛ ليستلسم قومها وتقف الحرب بينهم .. فهم أصبحوا أصهارا للقاتل الفارس .

فأقول لا تعجب من زواج الملك زاهر الراهب من أنثى عرفتم بعض سيرتها ، ولا تعجب من زواج الأمير محسن من ابنة الملك دغفل .

نعود بك أيها القارئ الكريم إلى الملك محسن ذائع الصيت في تلك الأيام الذي لم يحلم يوما ما أن يكون أميرا فارسا ملكا تحتاج إليه الملوك وتقبل حكمه وشفاعته ، هو نفسه كان يستغرب خط سير دنياه . فهو لا يعرف أهل أبيه .

كانت همته في تنشيط المدينة وتوسيعها كبيرة ، فكثرت القوافل إليها، وعمها الأمان والسلام ، وكثرت الخانات والتجار، فزاد عدد سكان المدينة من الوافدين من القرى والبوادي.

وكان الملك مهتما غاية الاهتمام برعاية أطفال الملك ضرغام وأبنائه وأبناء أمه ، وكبر أشقاء الملك ضرغام من جهة الوزير زويد مقداد .

وانتشرت دور العلم في المدينة، وتوافد إليها العلماء والأدباء والشعراء.. وظلت الأمور تسير بسلام وللحياة الفضلى حتى بلغ الأمير عمرو بن الملك ضرغام ثمانية عشر عاما.. فأخذ الملك يحث الوزير على إشهار الأمير عمرو ملكا على البلاد وفاء لوصية الملك الراحل.

التقى الملك بالملكة سيرة ، وعرض عليها غايته، فسرت الملكة من زهده في الحكم ، ومن وفائه لصديقه وأخيه الذي هلك متأثرا بسم أفعى .

اجتمع الوزير مقداد لهذا الأمر برجالات المدينة وسادات البلاد من قضاة وعلماء وحكماء ورؤساء التجار والصناع وأصحاب الحرف .

وجد ترددا من بعضهم بخلع الملك وتنصيب عمرو لأنه ابن جارية كما هو معروف ، وهذا لم يحدث في تاريخ الأسرة المالكة .



فقال الوزير للمترددين : إنه ضرورة تاريخية .. كنا تحت احتلال .. فقد عاش الملك ضرغام خارج البلاد مختفيا .. ووضع الملك محسنا ملكا وقبلنا هذا لاستقرار الملك ، وتقديرا منا لوصية الملك حين الموت .. وكان أبناء الملك صغارا .. والملك ـ رحمه الله ـ لم يتزوج من أميرة فليس له أبناء من حرائر أيها السادة .. والأمير سيتزوج قريبا من ابنة شقيقي الأميرة بهاء .

وقص عليهم سبب تزويجهم للأمير من الجواري تلك الأيام ، لإيجاد الوريث الذكر قبل إظهار الأمير للناس والغدر به.. فعجبوا لهذه الخطة الجريئة ، وأثنوا عليه خير الثناء ، وعلى الملكة الأم وقدروا شجاعتها .

وكان الشائع أن الأمير تزوج الجاريتين قبل اللقاء بأمه وعمه مقداد.. فبعد معرفة هذه الحقائق وافق السادة على اعتلاء الأمير عمرو تاج البلاد .

وأخذ الملك يستعد للانتقال إلى قصر خارج القلعة ، وأمر الوزير بإنشاء قصر جديد يليق بمقام الملك المعتزل.. وكان هناك قصر قيد الإنشاء لأحد الأمراء فاشتراه الوزير من صاحبه وهو ابن خال له .. وأعد ليكون قصرا للملك .

وأخبر الشعب باعتزال الملك محسن كرسي الحكم طواعية ورغبة منه، وظهر الملك أمام العامة في إحدى الساحات الكبيرة ، وبين لهم سبب اعتزاله الملك، وأنه ينفذ وصية أخيه الملك ضرغام وتمنى لهم الحياة السعيدة والاستمرار في تقوية الجيش وتنمية البلاد.. وحثهم على السمع والطاعة للملك الجديد ابن ملكهم الثائر ضرغام .

وبكت الناس وهي تسمع الملك محسنا يعلن رغبته بترك الحكم ، وقدروا شجاعته لخلع نفسه ، فترك شهوة الحكم ليست من الأمور السهلة، ولم يسع لتحويل الملك لأبنائه ، فقدروا هذا الوفاء

حق التقدير .

قال مقداد لزوجته : كنت قلقا يا أم ضرغام من شهوة الملك فالملك محسن محبوب من الشعب والأمة، ومقبول وهو فارس الميدان، وباني للمدينة من جديد .. ففي عهده كبرت المدينة ، وزادت الأسواق والجيش والشرطة .. كنت قلقا أن تراوده نفسه في البقاء ملكا وسيدا ..

قالت الأم : رحم الله ضرغاما كان محبا لأخيه غاية الحب.. رافقه في صباه وفي انتقامه ، وهو كما يقال في المثل لا ناقة له ولا جمل سوى أن أخاه مظلوم .. محسن ابن بار ووفي لأخيه معدنه نفيس.. وسمعته كثيرا يردد لي " متى يكبر عمرو؟ الحكم وقيادة البشر من الأشياء الشاقة .. أتعجب يا أمي من جلوسي في ديوان الحكم لأسمع أنين الضعفاء .. ولكنها إرادة المولى تعالى ، فنحن تعودنا على حياة البساطة .. لم يخطر في بالي يوما أن أكون أميرا.. فكيف بملك ؟! عندما كشفت أمي جديلة السر .. أصبت بالذهول أن يكون صديقي ابن ملك .

قال الوزير: النفس أمارة بالسوء.. هو سيعتزل ويعتكف في قصره .. فقد عرضت أن يصير الوزير مكاني .. فأبى وقال ضاحكا : الوزير حتى المات .. سأقضي ما بقي لي من العمر في بيت الله وقراءة الكتب .. فهو محب للعلم ، وقد جمع عددا كثيرا من كتب العلماء والحكماء .

بدأت الوفود تفد على البلاد للمشاركة في حفل تنصيب الأمير عمرو ملكا على المدينة ، وصل الملك زاهر ووفد بلاده ، فاستقروا في قصر الأضياف، والتقى الملك محسن به في جلسة عائلية على عشاء، وكانت معه زوجته الأميرة درة بنت حسن غاب ، والتي التقى بها الملك محسن لأول مرة في غابات شيخ عسير فانبسط لها الملك وقال مداعبا : كيف الحياة مع الملك زاهر؟!

فهمت إشارة الملك وابتسمت وقالت : الحياة جميلة يا مولاي الملك! ونحن نجملها .. أنا ما طمعت بالزواج من الشيطان.. لكن زواجي من الملك زاهر كان مفاجأة عظيمة لي.. أنا سعيت لبيان موقف شقيقتي من قصة مقتل مولاي الملك دغفل .. وهو يعرف أنني لا أنجب وقبلني جارية في تاج ملكه .. وأنا أدعوه أمامك يا مولاي ليتزوج ليكون له خليفة .. فيقول سوف أتسرى في يوم من الأيام .. ولما سمع باعتزالك الملك وهو يفكر بهذا .

ضحك الملكان وقالت زوجة الملك شقيقة الملك زاهر الأميرة شفق : أنا لما علمت بقبول ابن أبي الجلوس على عرش أبيه دهشت بحق .. فكلنا يعرف حياة الأمير حق المعرفة .. فهو محب للعبادة والصلاة حتى لقب بالعابد منذ صغره .

فابتسم الملك زاهر وأجاب : أنا نفسي دهشت !.. لا أدري كيف قبلت التاج ؟! .. فالذين نصبوني قالوا أنت الابن البكر لأبيك ، ولا يجوز ترك التاج حتى لا تحدث فتنة في البلاد ، ويحدث صراع بين الأخوة أو الأعمام فالقانون أن الابن الأول للملك الميت يحكم إلا إذا كان مجنونا غير عاقل .. فهذا سبب قبولي بالحكم والملك .

وقد جاء المدينة الملك الشيخ حس غاب ، ووفد من بلاده وصحبته ابنته نهيلة التي بعد عودتها لبلادها أخذت تنزوي عن السهرات والحفلات والمجالس .. ولما تقابل محسن معه عانقه وقبل يديه لمجيئه لحضور هذه الحفلة .

وتوافد الشعراء والخطباء للمشاركة في هذه المناسبة الملكية ، وتغنى الشعراء بمناقب الملك محسن وشجاعته وتنازله عن العرش بطيب نفس وقد سالت الدموع عند ذكر الكثير من المواقف في حياته وصداقته للملك الراحل ضرغام .. وتمنى الشعراء والخطباء للملك الصاعد عمرو بن ضرغام العمر المديد والنجاح في حكم المدينة الكبيرة .

وقامت مسابقة للفرسان على الخيول ، ومبارزات للفرسان ، واستمرت الاحتفالات سبعة أيام بلياليها ، وقدم الطعام كل يوم للناس حتى جاء يوم الجمعة ، وبعد الصلاة أعلن الملك محسن تنازله عن الحكم لابن أخيه الملك عمرو

ثم صعد الملك الشاب على منصة الخطاب ، وحيا الناس وأثنى على عمه الملك محسن الثناء الحسن ، وأكبر شجاعته في ترك الحكم بسلام .. وذكر جدته سيرة ودورها في إخفاء ابنها الوحيد خشية قتله في تلك الظروف .. وشكر الوزير مقداد الذي عمل سرا وخفية لعودة الملك لأهل البلاد .. وذكر عم أبيه الخائن طل ثم أعلن أنه عفى عنه، وأمر بإخراجه من السجن بهذه المناسبة ، وتمنى أن يكون أهلا لتحمل المسؤولية ، ويراعي حق الشعب والناس .

وبايع الناس الملك عمرو بن ضرغام ملكا على المدينة وخرج من المسجد تكتنفه العلماء والسادة والضيوف الأكابر.. والأجناد يصطفون بصفين أمام المسجد على صهوات الجياد، وظلوا يسيرون حتى وصلوا قلعة الحكم، القلعة التي شيدت في عهد والده .

وكان هناك حشد النساء والأميرات في استقبالهم والتبريك له بالملك.. ولما وصل باب القصر نزل عن الجواد وتقدم من جدته الملكة سيرة وعانقها، ورفع يدها مع يده عاليا للوفود والضيوف وأخذت النساء تهتف للملك الجديد .

ولمح من بينهن الأميرة سيرة شقيقة عمه محسن ، فسعى إليها محييا وقال: إني أبحث عنك يا عمة، وقبل يدها أمام دهشة الحاضرين ، فشكرته الأميرة وقبلت رأسه وباركت له الملك .

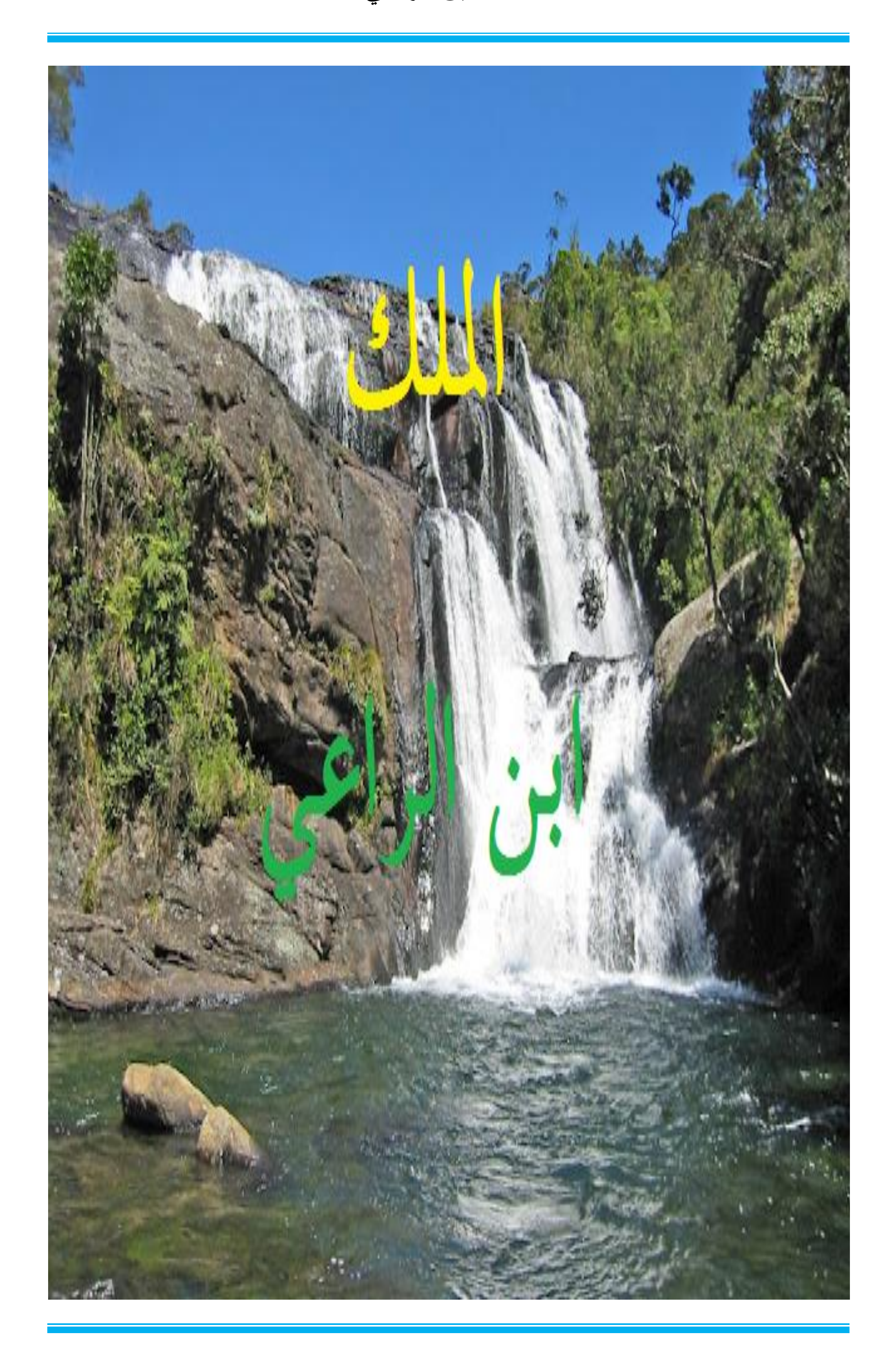
ثم دخل القصر لإكمال حفل التتويج في ساحة القلعة ، وغمر الفرح سكان القلعة وجلس الملك على عرش نصب له ، ثم تقدم الوزير مقداد وهنأه بالملك ، وتقدم الملك محسن وفعل مثل الوزير وعاد الوزير للكلام فقال " اعلموا أيها الأسياد الكرام أن الملك عمرو بن ضرغام سيتزوج الأميرة سماء بنت سالم وبنت الأميرة سيرة بنت جدي شقيقة الملك العظيم محسن بن جدي" وتقدمت الأميرة سماء من الملك وصافحته أمام الحشد، والتفت نحو الجمع وقالت " أنا الأميرة سماء بنت سالم أعلن أمامكم قبولي بالزواج من الملك عمرو بن ضرغام .. ابن خالي الملك ضرغام بن مطر "

فقال الملك محسن : على بركة الرب أيها السادة الكرام ، وستبدأ الاحتفالات غدا بوجود كل الضيوف الكرام وسيكون الزواج بعد ثلاثة أيام .

وتقدمت الأميرة سيرة ، وقبلت ابنتها وزوجها الملك عمرو .. وفعل مثلها الأمير سالم زوج الأميرة سيرة بنت جدي .

ومشت الأميرة سماء إلى الملكة الكبيرة سيرة وقبلتها ، وانتقلت إلى أم عمرو التي كانت جارية الملكة سيرة في يوم من الأيام . وتعانقت المرأتان سيرة أم سماء وأم عمرو وهما تبكيان .

تمت بفضل من الله تعالى


الملك
ابن الراعي

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

الملك ابن الراعي







مدينة نجوان

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٨

جمال شاهين

٢٠١٣

مدينة

نجوان

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

مدينة نجوان


مدينة الحيوان

حزن نجوان

ملك مدينة نجوان له أكثر من عشرين يوما معتكفا حزينا في قصر نومه لا يخرج إلى ديوان الحكم ، وتنوب عنه ابنته الأميرة هند التي دون العشرين سنة من عمرها ، فتذهب لدار الحكم كل صباح حتى ظهر النهار ، ثم تعود للقصر الملكي الخاص بالملك هشام .

فالحزن والأسى يخيمان على البلاد والعباد منذ عشرين يوما ، والسبب أن الابن الوحيد للملك قد اغتيل ، لم يقتل في معركة أو في صيد وحش ؛ إنما قتل غيلة وغدرا في القصر ، ومن قبل ابن عمه ، قتله الأمير حفص وغلامه عفريت ، كان يسهر مع إحدى نسائه ، عندما تسلل الغادرون للقصر ونالوا منه .

كانت الجريمة صدمة كبيرة لأهل المدينة كلهم السادة والرعية ، فهو ولي عهد الملك ، وليس له سواه والبنت هند ، ومع هدر الأمير هاشم شقيق الملك دم ابنه حفص لجميع أهل المدينة سادة وشعب ، ووضع الرجل جائزة مالية لمن يأت به ، حيا أو ميتا فلليوم لم يقبض عليه ولا على شركائه ، فإن الحزن يخيم على البلاد لهذه الفاجعة النادرة في العائلة الحاكمة ، ورغم ديمومة الحياة فالقصر الملكي مصاب بالكآبة والبكاء ، لقد كان الصراع ناشبا بين الشابين أسد وحفص وظاهرا للعيان ؛ ولكن لم يخطر ببال أحدهم أن الأمور ستتطور للقتل وسفح الدم ، وأن حفصا في النهاية سيقبل الهزيمة ، ويبحث عن حسناء أخرى .

مضت العشرون يوما دون أن يعرف مكان احتباس القتلة .. فأشيع أنه يختفي داخل البلاد ، ورجح بعضهم أنه خارج المدينة ، ولم يتطوع أحد للبحث عنه ، ولو تعاطفا مع الملك وابنته التي تجلس على حكم البلاد هذه الأيام ، فهو ابن أخ الملك ، أمير ابن أمير ، والملك نفسه لم يحرك ساكنا للبحث .. لزم الصمت والاعتزال ؛ كأنه مذهول من هول الصدمة بل مذهول للغاية الموقف حساس ومحزن ومحرج .

وسبب هذه الجريمة المعلن أن حفصا الأمير ذو الخمسة والعشرين ربيعا ، والذي يكبر ولي العهد بثلاث سنوات خاض معه صراعا من أجل فتاة شابة اسمها برة .. وهي بنت عم لكليهما .

حفص ليس بكر أبيه ، إنما واحد من عدد من الأخوة لهاشم العامر ، وهو فارس ماكر مخادع ، وعرف في ذلك بطول البلاد وعرضها ، فسيرته سيئة بين الأمراء والعامة ، ومن سوء أخلاقه أنه إذا قابل حسناء واستحسنها سعى إلى نكاحها مهما كلف الخطب ، وغالبا ما يفوز بمبتغاه ويطلق السابقة دون تردد أو يجمع بينهما لحين أن يضيف جديدة لبيته وحياته النسوية التقى بابنة عمه هشيم على غير العادة ؛ لأنه من النادر لقاء الحرائر والجلوس معهن في مدينة نجوان إلا لضرورة وحاجة ملحة أو صدفة ، حتى ولو كانت قريبة .. كانت برة فائقة الحسن والجمال ، فوقف مبهورا أمامها .. فقد كانت فتنة من مفاتن الدنيا ، كان يوما في مهمة لأبيه في قصر عمه هشيم ورأها فبهر بها ، فسأل عنها ، فاعلم أنها ابنة عمه ، فزاد تعلقه بها وهام بوصلها والزواج منها كما تعود ، فسعى لدى عمه هشيم بذلك ، فزعم عمه أنها صغيرة ابنة ثلاثة عشر عاما صغيرة على معاشرة الرجال والزواج ، لم يكف عنها فجعل يطاردها ، ويكثر من اختلاق الحجج والدواعي لزيارة القصر ليحظى بنظرة أو مقابلة ، لم يقبل الشاب العذر ، وتدخل والده هاشم وحرّج عليه من الإساءة إلى عمه هشيم ، وأن يصرف نظرا عن ابنته ، ورفض خطبتها له لمَ يعلم من كثرة زواجه وطلاقه ، فهو بعد أن يمتلكها ، ويقضي لبانته منها سيبحث عن غيرها ويهجرها إن لم يطلقها ، ولم يقتنع بأيمانه بقضاء العمر معها .. وأنه لن يعمل معها كما فعل في الأخريات فقال الأب لنفسه : من تعود على شيء صعب عليه الانخلاع عنه ..

وقدر أن يرى ولي العهد الأمير أسد الفتاة الناضجة حديثاً ، ووقعت من نفسه الموقع الحسن كما وقعت من نفس ابن عمه حفص .. وطلبها الملك من أخيه زوجة لابنه فوافق الأمير هشيم ونكحها الشاب ، ولم يعبأ بتهديد حفص ، وأنه هويها قبله ، وسخر أسد منه ، ولم يصدق أن والدها أكرهها على الزواج منه ..وكيف تزوج أميرة بالإكراه ؟!

وسكنت الأميرة في قصر الملك كزوجة لولي العهد ، ولم تكن الزوجة الأولى ، بل الثالثة وذات ليلة ـ بينما كان الأمير يسهر مع زوجته برة في إحدى الخمائل في البستان الملكي ، وفي مجلسه الغلمان والجواري يطربون أو يطربون الأمير وحليلته .. وبين أيديهم الفاكهة والنقل والأشياء

ـ دخل فجأة عليهم الأمير حفص وخادمه عفريت ، وكان قد دخل خلسة للقصر وصاح فيه : تزوجتها أيها الأمير غصبا عني .

الأمير دهش وذعر لدخوله عليه خلوته ، فنهض قائما ـ وتوقف العزف والغناء ـ وصاح : لم تعد تستحي أيها الأمير .. تدخل علينا بدون إذن .. دخول اللصوص .. اخرج لا أريد أن أرى وجهك ثانية .

وقبل أن يدرك أحد خطر الموقف ، قال حفص بغضب وسخط : نعم ، لن ترى وجهي .. فمت لعنة الله عليك . وأطاح بالسيف رأسه عن منكبيه ، وصاحت النساء والغلمان ، وحاول خطف الأميرة برة ؛ لكنها هربت تصيح ، وفزع الحرس على الصياح ، وهرب الأمير والخادم قبل وصولهم لخيمة الأمير ، وكان هربهم جهة غابة قريبة من القصر ، ولما وصل الحرس للخميلة كان حفص خارج القصر بتسلق الأشجار والاختفاء .

وحضر الملك والملكة وقيم القصر ، ورأوا الرأس المفصول عن الجسد فأغشي عليهما ، ولما أفاقا كانت المدينة في حالة هياج وصياح وحداد وبكاء ، ونكست الرايات وعم الحداد المدينة وكانت من أسوأ الأيام التي مرت بمدينة نجوان وأهل القصر الملكي خاصة .. كانت جريمة اغتيال مروعة .. وأعلن والد حفص المكافأة على رأس ابنه ؛ ليخفف من حدة الصدمة التي صدمت الناس وخاصة أسرة الملك ؛ وليبرأ من التهمة التي شاعت بتآمرهم على الملك ، وشيع ابن الملك قبل القبض على حفص وعفريت ، وهو الولد الوحيد للملك ، وبقيت الأميرة هند .

ولما انتهى العزاء بعد الدفن ، ذبحت الأنعام عن روح الميت ، واعتكف الملك في قصره مذهولا مصدوما باكيا .. والأمراء والقادة أدركوا هول الكارثة التي حلت على الملك هشام وعمق الجرح .. فالمقتول ابنه الوحيد ولي العهد ، والقاتل ابن شقيقه ، فحتى الأمير هاشم لزم البيت من الأسف والغيظ

فهذا سبب الحزن القائم في مدينة نجوان ، وهذا سبب ذهاب الأميرة للجلوس في ديوان الحكم مع الأمراء والوزير والفرسان ، فقد أضحت ولي العهد للمدينة البحرية ، وما زالت الأميرة

دون ذات بعل رغم بلوغها العشرين سنة ، رفضت كل الخطاب ، ورغبت أن تبقى عذراء ، ولم تجد الزوج المناسب ، وسكت والدها وتركها على رغبتها لتعلقه بها ، وتأثرت هي بالغدر والخيانة التي أصيبت بها الأسرة الملكية في نجوان .. وتتنظر اليوم الذي سيقدم ابن عمها للجلاد والسياف ليقطع رأسه أو يؤتى برأسه للمدينة ليصلب أمام العامة قبل حرقه .



العزلة الملكية

مضى على الجريمة الملكية أكثر من عشرين ليلة ، ولم يقدم القاتل للعدالة والقصاص ، ولما التقى الوزير الأكبر بالملك هشام ، قال له: افكر أيها الوزير بعد هذه الطعنة النجلاء بنقل الملك للأميرة هند ؛ لتكون الملك على البلاد والعباد .. لقد هدتني وحطمتني الضربة الماكرة .. إنه حادث مفجع ومشهد رهيب ؛ كأنه جلاد يقطع رأس مجرم .. وأبناء الأمير تحت الخامسة لا يصلحون للحكم

التفت الوزير عنان للأميرة الجالسة معهم والتي تشرف على إدارة الديوان منذ اعتكاف الملك في قصر النساء وقال: ما تقول أميرتا الشجاعة؟!

قالت: أيها الملك فلتبق ملكا وسيدا حتى يؤتى برأس القاتل الغادر الخائن ، وبعد هلاكه قد أقبل بالتربع على عرش البلاد .. لديّ اقتراح أرجو أن تقبلا به

قال الوزير: نعم ، ما هو يا مولاتي .. تكلمي

قالت : لن تهدأ المدينة والنفوس قبل القصاص من الغادر ومن عاونه من داخل القصر ومن خارجه .. هناك أشخاص تعاونوا معه وهيئوا لهم الدرب ليصلوا لخيمة سهر الأمير .. من هم المتعاونون؟ ومدى تعاونهم معه .. أليس كذلك يا سيدي الوزير؟!

صمت الوزير ، ولم يرد ، ولما رأى الأميرة صامتة لا تتكلم ، ولم تجب على نفسها قال: بحث قائد الحرس هذا الأمر مع الخدم والحرس .

ـ المتورط لا يكشف نفسه بسهولة .. نحن علينا أن نصل إليهم .. لقد اختفت جارية بعد الحادث ، ثم وجدت مقتولة في إحدى غابات أطراف المدينة ، لم نعرف لماذا تركت القصر ؟! هل خرجت من نفسها أم استدرجت أم لها دور ؟

ـ إحدى الجواري قالت إنها خرجت للسوق أو هكذا أشعرت الجواري .. والجواري كما تعلمين يسمح لهن بالخروج للشراء للملكة والأميرات دون تحرز .. والأمير حفص تبين لنا أنه استعان بسلم وتسلل للقصر .. وسهر الأمير ونساؤه معروفا للأمير حفص وغيره من الأمراء .

- أين الحرس في تلك الجهة من السور؟!

قال : الحرس في حالة استرخاء تلك الساعة أيها الأميرة .. يصيبهم ما يصيب البشر من الملل والضجر ..فلم يحدث من قبل أي تسلل إلى القصر .. ولما سمعوا الصراخ تركوا حجراتهم وهرعوا مسرعين .

- أنت ترى أنه لم يكن تواطؤ من الداخل

- مولاتي لا استطيع تأكيد ذلك .. فشقيقات الملك والأميرات يترددن على القصر وعليك وعلى الملكة .. فنقل حركات الأمير سهلة للمتآمر .. وحفص الغادر يعرف حدائق القصر وخمائل جلوس الملك والأمير ..وهو ابن عمكم

قالت: على كل حال الأيام ستكشف كل الخائنين القتلة ودور كل منهم

قال الوزير : أكيد ستتكلم الأفواه ، وتنطلق بالحكايات .. كانت هناك مؤامرة لا نشك في ذلك لم تتحدثي عن الاقتراح

- نعم ، الاقتراح سيدي الوزير الاقتراح بعد فشل الوصول للهاربين منذ أكثر من عشرين يوما ، وكذلك لم نسمع من فرسان وبحارة نجوان الاهتمام بالبحث عن الغادر فاقترح أن من يأتينا برأسيهما أو رأس حفص أن يكون زوجا لي ، زوجا للأميرة هند بنت هشام

دهش الوزير لهذا الاقتراح الخطير: هذا أمر صعب أيتها الأميرة ! أتقبلين أن تكوني زوجة لأحد السوقة من المدينة

- إذا أتى برأس حفص فهو خير من الكثير من الفرسان والبحارة .. فهو يستحق أن يكون من أمراء وكبراء المدينة .. نحن لن تهدأ نفوسنا أيها الوزير إلا بالثأر والقصاص .. والمال لم يجدِ مع الفرسان .. فلعل مصاهرة الملك تثير الحماس فيهم ، وتنزع الخوف من أفئدتهم ؛ فلعل هذا العرض يحرك الفرسان

قال الوزير بحذر : هذه تضحية كبرى أيتها الأميرة .. هذا عرض مغرٍ .. وكيف نسمح يا مولاي بهذا النكاح ؟!

قال الملك وقد تابع الحوار بينهم : رغم صعوبة الأمر على نفسي وعلى النساء وعلى قلب الملكة والسادة عليّ أن أقبل أيها الوزير .. فدم أسد لن يذهب هدرا أو صلحا .. وكما قالت الأميرة الرجل الذي يأتينا برأس الأمير الخائن يستحق أن يكون من كبار الأمراء والحاشية

– ما دام مولاي الملك يرى صواب ذلك ، فسأشهر هذا الخطب للناس والشعب والملأ .. قد تتحمس العامة لتلبية هذا النداء .. فالمال لا يحميهم من انتقام عائلة هاشم .. أما الزواج فسيكون حماية للفارس .. إنها فكرة شجاعة أيتها البطلة .. أمقتنعة أنت بهذه التضحية ؟ وهذا الشخص سيكون زوج الملكة

قالت: هذا لا يكون ملكا يا سيدي الوزير .. أمي تحمل لقب ملكة ؛ ولكنها قابعة في البيت .. والرجل مهما كان ، ويحمل لقب ملك فسيبقى زوج الملكة .. وأنا إذا قبلت بالتتويج إنما لحين حتى يكبر أبناء أخي أسد الأمير هيثم .

– أتحبين التفكير فيما اقترحت ؟

– فكرت من عشرين ليلة وأكثر ..والقاتل اللعين ما زال حرا طليقا ، ونحن نبكي ونعتصر الألم والحزن والحسرة .

أعلن في المدينة أسواقها ومعابدها ومساجدها أن الأميرة بنت الملك هشام مستعدة للزواج من أي إنسان إذا قدم لها رأس حفص حتى لو كان عبدا من عبيد المدينة.

شاع الخبر وانتشر ومضت أسابيع دون أن يعرض شخص نفسه لهذه المهمة الجريئة .. مما أحنق الوزير وقال لقائد الجند: أين الفرسان ؟ أين فرسان الصيد والحرب؟

قال القائد بعمق : السبب يا سيدي الوزير أن الأمير الغادر قريب الملك ابن شقيقه .. والأمير القاتل له أشقاء وأتباع قد يقتلون المتقدم لهذه المهمة .. وهم يرفضون قتل شقيقهم .. الأمر شاق ودقيق .. تحدث معي بعض الفرسان واحجموا .. مهمة خطيرة!

– والعامة

– زارني بعضهم ، وقبل أن أجتمع بهم مرة أخرى تعرضوا للضرب والإهانة والتخويف .

- إذن هناك متورطون ومتواطئون كما تقول الأميرة .. القضية ليست عملا فرديا
- إنهم يريدون الصلح ودفع الدية
- يدفعون الدية أيها القائد إنه ابن الملك وقتل ظلما!
- هذا ما تهامس به أشقاء حفص
- أخشى أن يكبر الدم أيها القائد !
- وهذا ما أشعر به .. الدم يولد الدم
- وهذا ما تريده الأميرة .. القصاص حتى لا يزيد الدم
- والعفو
- لن يحل القضية



جاهر أشقاء حفص بدفع الدية والعفو عن دم حفص لتحقن الدماء ؛ولكن الملك المعتكف في حجرته وقصره ازداد غضبه لما سمع بهذه الأنباء ، واتهم شقيقه هاشما بإخفاء ولده المجرم القاتل لابن عمه ، وإنه لا يقبل إلا بموت القتلة ، وهدد ولوح بنفيهم من المدينة والتبريء منهم .

وأقسم هاشم أمام الملك والسادة أنه لا يعلم بمكان اختفاء ابنه الغادر ، وأنه لن يسامحه على فعلته السوداء أبدا ، وأمام هذا القسم عاد الصمت والهدوء للعائلة ريثما يظهر القاتل وشريكه عفريت .

ولما أدركت الأميرة هند صعوبة الحال وصعوبة الوصول للجاني والنيل منه تذكرت رجلا جيء به من سنوات يعمل لديهم كسائس خيل ، رجلا توسمت فيه الشجاعة والفروسية ، رجلا أخبرها أنه وقع أسيرا في إحدى المعارك وبيع كرقيق ، وخصها به تاجر الرقيق برقاقة على عمله عندها كسائس خيل .

تذكرت رجلا اسمه عمر بكر ؛ فلذلك لما عادت للقصر من ديوان الحكم مشت يتبعها الحرس إلى حظائر الخيل الملكي حيث يعمل الفارس الأسير عمر بكر ، فتح لها قيم الحظائر مرحباً ومستقبلا ، فظن الحرس أنها ترغب بركوب الخيل ، فهي تمارس هذه اللعبة منذ عهد الصبا ، فبعد الترحيب سألته عن عمر بكر ، وبقي الحرس عند الباب ، وتقدمها القيم إلى منزل عمر بكر ، ولما رأت الرجل من بعيد أشارت للقيم أن يتركها ، وتابعت مشيها إلى حظيرة عمر بكر وكان الرجل قد رآها تتقدم نحوه ، ولم تشر له بالمجيء إليها فظن أنها تريد أن تركب جوادا ، فهو يعتني بمجوعة من جيادها الخاصة ، وخبر مجيئها انتشر في الحظائر ، فهي منذ موت شقيقها لم تقدم إليهم فرحب بها الساسة ، فأشارت لهم بالابتعاد إلا عمر بكر نزلت عن فرسها وأمسك به الرجل ، ورحب بالأميرة ، فقالت بصوت مسموع: أين جوادي غضب ؟

- إنه في إصطبله يا مولاتي !

ربط الجواد الذي كانت تركبه ، وتقدم الأميرة إلى إصطبل جوادها المسمى غضبا ، فلما وصلا الجواد أخذت تمسح عنقه وساقه ، وهو أدرك بحسه أنها لم تأته من أجل تفقد الجواد ، وبعد كم سؤال عن الجواد قالت وهي تنظر في عينيه: ذكرت لي أيها الأسير أنك كنت من فرسان قومك المعدودين وغدر بك الدهر ، وذكرت لي مرة عندما أردت عتقك أنك تحب البقاء وأن أبقيك لنوائب الزمن .

كان عمر بكر ابن ثلاثين سنة يزيد قليلا فهز رأسه فقال: نعم ، رضيت بالعبودية والعمل في قصر الملك هشام ؛ لأن قومي تخلوا عني ، ولم يفدوني بمال كما فدي غيري ، حتى بعت كالعبيد وهل يا ترى جاءت نوائب الدهر أيتها الأميرة ؟

تنهدت بحزن : سمعت بموت شقيقي ولي العهد !

- وبكيته حتى جف الدمع في عيناي

فقصت عليه عجز أهل المدينة عن البحث عن القاتل حتى أنها عرضت نفسها للزواج ممن يحقق لها هذه الغاية ، ومضت أسابيع دون فائدة .

فقال وقد فهم مقصدها: أنا أخدمك يا مولاتي بدون زواج .. فأنا عبدك وأسيرك ، ولا أنسى إحسانك لي خلال هذه السنوات الخمس ؛ لكن لا أعرف صورة وهيئة ابن عمك .

– أتقوم بهذه المهمة الجبارة ؟

– أنا لها يا مولاتي .. إنما أريد رؤية شخص يحسن وصفه عندما أراه أقول هو هذا ؛ لأن الرجل إذا ترك المدينة حقا غير اسمه ، وربما صورته .. سأصل إليه وادخل السرور على قلب الملك أم تريدونه حيا

– إن أمكن هذا فخير ..فخير أن يقف أمام القاضي ، ويقطع الجلاد رأسه أمام العامة هذا عز الانتقام والعدالة .. إن فعلت هذا سأكون أنا لك أسيرة وقرينة.. أتحارب من أجلنا؟!

– روحي فداك أيتها الأميرة .. أنا لا أنسى المعروف .. وأنا سيد الوفاء .. فقد قبلت بي سائسا للخيل بدون تردد حدثيني القصة بكل تفاصيلها ، وحاولي نقل وصف جلي لهذا الغادر .. أعرف أنكم لا ترون الرجال إلا في أحوال خاصة .. خادمة من خدمه قد تحقق الغاية .

شرحت له الأميرة قصة زواج شقيقها من ابنة عمه برة رغم تحذير حفص له من الزواج منها ؛ لكنه ولي العهد وابن سيد البلاد ، وقالت: نحن لا نرى بعضنا إلا في مهرجان ومناسبات عامة وقد نتقابل ولا نعرف بعضنا إلا في حال الزواج .. هو طويل القامة أطول منك بقليل بدين إلى حد ما.. هو فارس وقوي ويصيد في البر كما يصيد البحر .. فهم أعني أسرته الكبيرة يعملون في الصيد البحري على ساحل نجوان والتجارة .. لذلك عليك بالبحر .. مغرور فارس أسمر البشرة لحيته خفيفة ، لأنه يقصرها .. يلبس الثياب الثمينة سيفه على وسطه ، وقرابه مزخرف بالجواهر وسآتيك بأوصاف أخرى .

– لابد من معرفة صفاته كيف يأكل .. عيب خلقي فيه ، حتى أعرف أن اصطاده أيتها الأميرة لا أظن أن يعيش بارزا كما يكون في وطنه هذا .. أيضع في يده خاتم ؟ وصفة العمامة المفضلة على رأسه .. لي خبرة في المطاردات عندما كنت فارسا في بلادي

– عندما يئست ذكرتك أيها الشجاع ..أرجو أن تكون عند حسن ظني .. والأمل الذي عقدته

عليك عظيم

- ليكتم أمري ، وسأفعل ما بوسعي ، وسأفعل ليس لأكون زوج الأميرة ، سأفعل لأمر آخر سأقوله لك في يوم ما ، ولإحسانك لي .. ولا أنسى عطفك عليّ يوم مرضت قبل سنتين وإحضارك طبيب الملك ليعالجني ، وتكليف خادم بالعناية بي وأنا الخادم

- نتكلم بعد فوزك ونجاتك ، لم أنس كلماتك أيها الشجاع ظلت في ذاكرتي أبقني لنوائب الدهر لا تخيب الظن بك أيها الفارس الشجاع

- ابشري أيتها الأميرة بالفوز ..وأنا مثلك أحب الثأر

- سألقاك مرة أخرى اكتم الأمر

- أنا خير من يكتم ، وأنت اكتمي الأمر حتى اخرج من هنا بسلام .. فيبدو لي أن أولاد عمك لهم نفوذ قوي في المدينة ،ولهم أعوان وعيون .. فسلاحنا الكتمان حتى أنجح في كشف الأسرار

- رائع ما اسمعه منك! نعم ، هذا كلام الفرسان الأذكياء .. المهمات الخطيرة تحتاج الكتمان والتورية.. لك حكاية تتحدث عنها العيون أيها الفارس؟!

- كنت فارس قوم خذلوني

الفارس عمر بكر

استطاعت الأميرة بمعاونة جارية خاصة ذكية بها أن تتصل بجارية من جواري حفص ، وتنقل لها صورة عن صفته الخلقية والخلقية ، وهي بدورها نقلتها لعمر بكر واستوعبها الرجل ، وعرضت عليه الأميرة أن يعمل معه أحد خدمها .

فقال : أنا أتظاهر أمام رعاة الخيل برغبتك بنقلي للخدمة في قصر الملك .. ودعيني أعمل وحدي يا مولاتي .. الآن كيف سيكون أمر مغادرتي الحظائر ؟!

- أعندك اقتراح؟

- حسنا ، بعد يومين ارسلي خادما يطلبني من القيم للقائك في القصر ، وليكن اللقاء في خان أو دكان في سوق وأن تكوني متنكرة أو في غابة من غابات المدينة .. وبعد هذا اللقاء سأختفي من المدينة بضعة أيام .. سيقع في قلب أهل الحظائر أني أعمل في خيل القصر وعرباته .. وأهل القصر لا يعرفون عني شيئا .. ولسوف أتابع مهمتي السرية .. وأحقق ما تشتهين ؛ ولهذا خلق الرجال .. الظلم مرتعه وخيم .

التقت الأميرة بعمر بكر في أحد أسواق المدينة ، وتسلم منها صرة من المال ، ولما انسحبت الأميرة المتنكرة ذهب إلى أحد الخانات يقضي ليلته ، ويتدبر مغامرته ، وكان متنكرا عندما التقى الأميرة بشخصية راعي حلال ، والذي يميزه عن الناس لبس قميص جدي من صوف الخراف ، لم يعد خطة معينة ؛ ولكنه سيسعى للتقرب من أشقاء حفص الذين زودته الأميرة بأخبارهم ونشاطهم في المدينة ، فهم أصحاب مراكب للصيد ، وأصحاب مراكب للتجارة ، وهم خمسة ذكور ما عدا حفص المختفي ، والهدف من الاتصال والتقرب إليهم ؛ ليتأكد منهم ويعرف هل حفص في المدينة أم خارجها؟

بحث عن بيت يسكنه ومقرا لعمله الجديد ، واختاره حول أحد الأسواق ، وبعد تمكنه من الحصول على البيت مشى إلى سوق النخاسة ، وكان قد تحول من راع إلى صياد وعامل بحر عتال بمعنى آخر ، كان يريد شراء عبد كبير في السن ليسكنه البيت المستأجر ، وتمكن من شراء

أحدهم عمره فوق الخمسين ، وساقه للبيت الجديد ، وتناول معه الطعام ، وقال له: كيف قوتك؟

- ستجدني الخادم القوي يا سيد جعفر - ما اسمك

- سمني بما تشاء - سيف

- سيف يا سيدي - سيف بن جعفر

- سيف بن جعفر أنا عبدك المخلص

قال عمر بكر المسمى بجعفر الصياد البحري : أنا مغامر جوال بين المدن والبلدان ، ولست من أهالي نجوان هذه .. أتفهم ما أعني؟ يوم هنا وآخر هناك .. أعمل مع ذا وغدا مع ذاك .. أنت مكانك هنا أغيب يوما عشرا شهرا سنة وأعود لا تفارق البيت إلا لشراء ما تحتاجه حتى أعود

- أنا خادمك وعبدك

- بعد حين ستكون حرا يا سيف

- أنا لا أحب الحرية .. عندما تعجز عن إطعامي وكسوتي فبعني يا سيدي .. قضيت عمري هكذا

- حسن سأهبك لأحد الأسياد

- هذا خير يا مولاي

- حسن اذهب للنوم

- أين؟

- هنا

- هنا .. كيف ؟!

- سأتعامل معك كأنك حر يا سيف .. أنا مغامر جوال أغيب في مهمات وارجع

- ماذا تعمل يا سيدي؟

- قلت لك مغامر مرة مع الصيادين مرة مع التجار .. كلما أغيب لو طال سفري لا تبحث عني

وإذا قل المال في يدك للإنفاق على نفسك ، فسأدلك على صديق يقرضك حتى ارجع كم يكفيك في الشهر ؟

- أكل

- نعم

- ثلاثون درهما كفاية

أخذ عمر بكر يتنكر بزي متسول ويذهب إلى مواني المراكب ـ فجزء كبير من نجوان ملاصق للبحر ، وحياة الناس البحر والزرع ـ حيث تعرف على مراكب وسفن حفص الغادر وأشقائه وبعد حين تحول إلى عتال بحر زاعما أنه كان صيادا ، ثم مرض فهجر الصيد البحري ، واستطاع أن يعمل على سفن يملكها أبناء هاشم العامر ، وخلال أسابيع أصبح عاملا معروفا لرؤساء السفن ، ويرفض السفر على المراكب بإصرار زاعما رعبه من الماء بعد الحادث الذي أصابه قبل سنوات ، فكانت مهمته تفريغ السفن وتحميلها بكل همة وقوة ، وكان يلتقط كل جملة عبارة إشارة تساعده في تحقيق الهدف من هذه المغامرة ، فعرف أن الأمراء لا يعملون بأنفسهم ، إنما بواسطة وكلائهم ورجالهم وعبيدهم ، والتجارة رائجة نشطة في نجوان ، وتنقل البضاعة منها إلى المدن الكبرى المجاورة .

بعدما يقارب شهرين أصبح ؛ كأنه يعمل معهم من سنوات ، فكان يسهر الليل مع رجال المراكب ، فازدادوا به ثقة ، وكان أحيانا يساعد مراكب الصيد في التفريغ .



كان عمر بكر يوصي خادمه بأن لا يبحث عن إذا طالت غيبته ، وإذا انتهت الأموال فليدبر نفسه حتى يرجع ، وقال موصيا :إذا تأكدت من موتي ، فأنت حر . ومخبرا له أن المراكب قد تأخذ وقتا طويلا قبل العودة ، أدرك العبد أن سيده يخوض معركة خطيرة وسرية، لأنه يرفض أن يرافقه في هذه المغامرة ، ووعده بالانتظار حتى اليأس من عودته

وغادره للميناء البحري وقبل أن يركب معهم هذه المرة على متن إحدى السفن زاعما أن خوفه من ماء البحر أخذ يتلاشى فصدقوه ، هو في نظرهم مجرد عتال نشيط يستغنى عنه في أي وقت وقبل الركوب في سفينة الربان عدنان كبير البحارة عند أبناء هاشم ، ورحب به الربان على سفينته وقد عرف همته خلال الأيام الماضيات ، وكانت هذه السفن تنتقل بين موانى المدن الساحلية على جانبي البحر ، ومراكب الصيد كانت تذهب إلى الجزر البحرية داخل البحر الكبير وتعود لنجوان ، ولاحظ خلال عمله على ظهر المركب أن أهم مدينة لديهم مدينة أروى فإن شرقوا عادوا إليها قبل عودتهم لنجوان ؛ وإن غربوا عادوا إليها قبل العودة لنجوان رغم أنهم يحملون إليها بضاعة ويأخذون منها ، شعر أن فيها بغيته وطلبته ، وأنها المدينة التي يترك فيها الربان عدنان منطقة الميناء لقلب الأحياء والمدينة ، فقال لنفسه: أرى أن الأمير الهارب يعيش فيها . لذلك صمم أن يترك السفينة والمراكب الأخرى ويتبع الربان عدنان خفية.

وكما خطط والأميرة أن البحر مكان اختفاء حفص ، فالبحث في البحر ليس كالبحث في الجبال والبر وغابات نجوان ، فالمدن البحرية يصعب اكتشاف الهارب فيها ؛ لأنها كما هو معلوم أناس يأتونها وأناس يخرجون مها .

وصلت السفن إلى مدينة أروى كما اعتادت ، عندما أفرغت الحمولة لبعض التجار ، أخذ رجال السفن يبحثون عن البضاعة التي سيحملونها لنجوان أو غيرها ، ولما غادر عدنان الميناء لقلب المدينة تبعه عمر بكر سرا ، وظن أهل السفينة أنه ذهب يشتري هدية لأحد الناس كما تحدث مع بعض البحارة عن ذلك ، فقالوا: ربما ذهب يشتري شيئا من أسواق المدينة.

تبع الربان عدنان نحو المدينة ، وظل تحت عينه هو ورفيقه، وشاهدهم يدخلون أحد خانات المدينة ، وبعد حين رأى عدنان يغادر وحيدا ، فتبعه حتى رآه يدخل بيتا قضى فيه ساعة أو أكثر وكان قد دخل يحمل كيسا ، ولما غادره لم يكن يحمل الكيس ، عرف البيت والحي ، ورأى امرأة تودع عدنان ، فأسرع إلى السوق واشترى عقدا من الفضة والخرز الملون ، ورجع للسفينة متظاهرا بشراء العقد هدية لبنت صديق له ، وتفرج عليه القوم أو بعضهم ، وقالوا : لا بأس به

لفتاة صغيرة .

وفي الصباح وصلت البضاعة المشتراة ، وقام الحمالون بحملها ورفعها إلى سفنهم ، ولما وصل الربان عدنان ورفيقه الميناء بعد أن قضيا ليلة في خان من خانات المدينة ، تحركت السفن إلى موانئ أخرى معروفة لهم ، توقفت السفن التجارية في إحدى المدن الساحلية الكبرى لبيع ما تحمل وشراء ما يباع ، واستمرت الرحلة والسفن تتنقل بين المدن ، وقبل أن تصل مدينة أروى مرة أخرى اختفى حمزة ، كان عمر بكر قد سمى نفسه لهم حمزة ، وبعد انتظار تحركت السفينة والسفن دونه ، وقال عدنان حاسما غيابه : إن كان حيا سيسافر باحثا عنا . وتركوا خبرا عند أحد التجار أن يذكر له إن سأل عنهم أنهم ذاهبون لأروى ، ومنها لنجوان ، فلهم عدة أشهر في البحر وتابعوا رحلتهم ؛ إنما حمزة مجرد عامل .

وأما عمر بكر فركب دابة إلى مدينة أروى ؛ لأنها مدينة متصلة بأروى عن طريق برية ، تتنقل القوافل البرية بين المدينتين ، وفور وصوله أروى باع دابته ، وكان قد خلع ملابس البحارة والحمالين ، وذهب في الفجر إلى البيت الذي يحسب أن الرجل حفصا مختفي فيه ، وكان يفكر بحيلة يدخل فيها البيت ؛ ليتأكد من وجود الصيد بعد تعب كل هذه الشهور ، وفكر بأن يلبس ملابس شرطة المدينة العسس ، ولما تأكد من المنزل عاد للمدينة يبحث عن ملابس العسس ، وعرف أحد الخياطين الذين يخيطون الثياب للشرطة ، واشترى منه ثيابا كهدية لأحد أصدقائه الشرطة ، وابتاع حمارا يركبه رجال العسس زاعما أيضا أنه سيهديه لصاحبه الشرطي ، وفي الليل تنكر بذلك الزي ، ومشى إلى ذلك البيت ، وطرق الباب وبعد حين من الانتظار فتحت جارية الباب ـ كما عرف فيما بعد ، وعرف أنها نفس المرأة التي ودعت عدنان ـ وكانت تحمل مصباحا وهو كان يحمل مصباحا فقال لها بلهجة قوية وماكرة : أهذا بيت جعد ؟ وأجاب نفسه قالوا لنا إن مجرما هاربا يسكن فيه .

اضطربت الجارية رعبا وقالت: هذا بيتي .. وأنا وزوجي نعيش فيه .. وما هو ببيت مجرم .. لا هذا بيت محترم

- أين زوجك أيتها المحترمة ؟

ظهر رجل خلف المرأة ؛ كأنه كان يتابع الطارق ويتنصت ، وقال: ماذا تريد أيها الشرطي؟

- حدثت جريمة عند الميناء ، وذكر لنا بعض الشهود أن المجرم يسكن في هذا الحي .. وهذه المنازل ؛ ولكنكم كما يبدو لي لا علاقة لكم بالجريمة أهذه أهلك؟

- إنها جاريتي وزوجتي .. هل المجرم يختفي في هذه البيوت؟

- كان اللعين يركض وشاهده بعض البشر يأتي هذا الحي .. وعلينا أن نسأل الناس هنا ، وقد سألنا بعضها ؛ لنتأكد أنه لم يدخلها ، وفتشنا بعضها ، ووصل البحث بنا هذا البيت ..أأنتم لم يدخل عليكم غريب ؟

- أتريد التفتيش ؟

- أنتم متأكدون من عدم دخوله هذا البيت؟

- لم نر أحدا يدخل البيت

- هل تغلقون القفل عند النوم؟

- نفعل ذلك منذ الغروب .. والسور عال وعندما نستقبل الأصدقاء نفتح لهم الباب

- أنا راغب أن أقوم بواجبي الآن أفضل أن أعود لكم مع الصباح

دخل الشرطي البيت ، وتظاهر بتفتيش البيت من الخارج وقال : الغرف من الداخل فيها أحد كأني سمعت حركة مشي!

- عندنا خادم تعال انظر إليه

دخل يفتش الغرف ، وعندما انتهى من التجوال فيها ، وخرج وجد شابا قال زوج الجارية: خادمنا اسمه نعمان .



المشاورة

استطاع الفارس عمر بكر الوصول للهدف ، لمَ يتمتع به من ذكاء وصبر ، وهو علم من الأميرة عندما عرضت نفسها زوجة لمن يقدم رأس حفص ثأرا لها ولأبيها الملك ، فقد أخبرته أن الوزير أعلمها أن شبانا سعوا لهذه المهمة الخطرة ، فتعرضوا للأذى من قبل أشقاء ورجال واتباع حفص ، فهم إذن يعرفون مكان أخيهم ، ومتآمرون معه أو يحمونه ليقنع الملك بالصلح والدية فكان البحر هو الصلة بينهم وبينه ، فقضى الفارس معهم شهورا حتى وصل لبيت حفص في مدينة أروى .. وأهل المدينة حياتهم الصيد والتجارة البحرية ، وأهل القرى يهتمون بالمزروعات والمطعومات .. فاستطاع الشاب بشخصية العتال والحمال القوي أن يعرف المكان وأن يقابل حفصا ، ويجده حسب الصورة التي وصفت له قابعا في بيت في تلك المدينة ومعه خادمه عفريت وامرأة تزعم أنها أمة عفريت وزوجته .. أهي من أروى أم نجوان ؟ ..ولما غادر المكان شاكرا لهم تعاونهم ومحذرا لهم إخفاء المجرم عن العسس .. طرق الباب التالي على مسمع من الجارية التي تبعته لإغلاق باب الدار ، ولما فتح الباب سألهم كما سأل الجارية ، ثم الباب الثالث ، ثم غادر الحي وعاد للبيت الذي استأجره وهو يفكر بالخطوة التالية .. فقتل حفص في هذه البلد ليس عملا سهلا إذا كشف أمره سيعاقب ، فهو غريب والمقتول غريب ، فسيكون هدر دمه سهلا .. فالقتل غيلة يحتاج إلى تدبير ومكر حسن لينجو بريشه .. وخشي الانتظار والتأخير أن يهربوا أو أن يكتشفوا أنه شرطي مزيف ، ولم يقتل أحد عند الميناء

تسربل في الصباح بملابس متسول أعمى بيده عصا نحو ذلك الحي من المدينة .. خشي أن يهربوا إذا لم يطمئنوا لدخوله عليهم ، وكان يتوقع هربهم فهم أذكياء فطن ، سوف يتعسعسون عن الجريمة ، وقد يهربون بعد مجيء الربان عدنان إليهم بالمزيد من المال .. وراقب البيت منذ طلع النهار ؛ ليتعرف كيف يحيون في المدينة أم يختفون فحسب؟

اقتربت السنة أن تنفد ولم يقبض على حفص ؛ ولكنه بفضل الله استطاع أن يحقق شيئا في نظره فقد قدم والد حفص مالا لمن يحقق له قتل ابنه ، وهو موقن أن لا أحد سيفعل ذلك ، فالأولاد

له بالمرصاد ، والأميرة قبلت بالزواج ممن يفعل ذلك ؛ لكن لم يحدث شيء ؛ فكان لابد من العمل بسرية تامة .. أهله لا يريدون تسليمه للقاضي ، بل يرسلون له المال بين الحين والآخر ، ويزوره عدنان نيابة عنهم ، وهو سيبقى بعيدا لحين من الزمن ، ثم يعود للمدينة متنكرا بشخصية أخرى حتى يهلك الملك ، والأيام تضعف المصائب والثأر .. والذي احتاط له عمر بكر تحقق فلم يعد يرى الجارية والعبد ؛ ولكنه استطاع التعرف على البيت الجديد الذي رحلوا إليه من نفس الجارية ، فقد كانت تترد على البيت القديم ، لم يقطعوا صلتهم فيه ، ومرات يأتي زوج الجارية ، هو أدرك وخمن أنهم ينتظرون عدنان الربان .

كان عمر بكر يفكر باغتيال العبد في أول الأمر ليضعف شوكة حفص ، ويقذف في قلبه الرعب والخوف .. إنه اقترب من الوصول إليهم والسعي إلى أسرهم ونقلهم إلى نجوان .. وأخذ يتأمل هذا العمل ونتائجه ، ولاحظ عمر بكر أن عفريتا فارس لا يستهان به ، فبدأ قويا فعليه أن يصرعه دون أن يكشف أمره .

جاء عدنان للبيت الجديد والتقى حفصا وعفريتا وسمع منهم سبب رحيلهم ، فذكر عدنان أنه سمع عن جريمة حدثت في الميناء بل أكثر من جريمة بعضها عرضا وبعضها عمدا ، وفي الغالب يلقى القبض على القاتل فور وقوع الجريمة ، وقضى الليل مع الأمير يحدثه عن أخبار نجوان ، وأخبار أولاده وزوجاته .

واخبره الأمير عن رغبته بالعودة للمدينة خفية فقال عدنان محذرا : نحب لك هذا ؛ لكن الملك وابنته ما زالوا مهدرين دمك ، وعلمنا أن الأميرة أرسلت الرجال خلفك سرا ، وأنها جعلت لمن يأتيها بك حيا أو ميتا زوجا لها .. وهذا يعني أن يكون ملكا على نجوان .

- هذا رأسي يعادل الملك ..أيها الربان مللت من الاختفاء ..وأنا الفارس الشديد البأس

- نحن لسنا في ميدان القتال يا سيدي الأمير .. هذه حرب خفية بيننا وبين الأميرة .. نحن افشلنا الكثير من أحلامها .. ولم نسمح لأحد أن يغادر المدينة بحثا عنك .. ولكنّ دمك مهدور .. والدك دفع جائزة أمام أخيه والسادة فليس أمامك إلا الصبر .. فالملك ما زال ناقما معتكفا في

قصره ويحكمنا اليوم ابنته

- أريد إحدى زوجتي لي سنة محروم من النساء

- ألا تخشى من مجيئها ؟! .. النساء عون الشيطان ، هل نجلب لك سرية من أروى ؟

- لا أحب التسري وأنا السيد المطاع .. أنام مع جارية لا تعلم كم من الرجال عاشرها.

- نأتي بها بكرا

- وهل هذا يصدق؟!جارية وبكر !

- أنت هنا إنسان مطارد أو مطلوب .. لا أحد يعرف أنك الأمير حفص إلا نحن المقربون إليك والمرأة من أنصار الشيطان ستطلب الأولاد .. ستقول لم أر أولادي من كذا وكذا .. أؤكد سمعنا أن الأميرة أرسلت رجالا سرا ، لم نعرفهم لحتى الآن .. المدينة فقدت بعض الرجال فأنت غايتهم.

- كيف سيصلون إليّ؟!

- الإنسان ماكر ومحتال

قال حفص متشككا : لنا قريب من العام دون أن نرى وجها منهم ..هؤلاء المختفون إما هلكوا في البحر أو ضاعوا في المدن أيها السيد الشجاع .. ومن يضحى من أجل الأميرة ؟ وهو يعلم أنه مقتول!!



قرر العودة لنجوان للتشاور مع الأميرة بعد تحقيقه بعض النصر ، فعاد إليها بمركب صيد ، والرجل كما عرفنا يستخدم ملابس تنكرية حسب المهمة وأسهلها لإخفاء شخصيته الحقيقية ، استقبله الخادم سيف بكل حرارة ودفء ، وحدثه عن تنقلاته في البحر تسلية ، وشكره على شوقه وخوفه عليه ، فزعم له أن حياته التي مضت قضاها هكذا ، وزوده بالمال وقال : أنا رجل جوال اتصل بالتجار ، وأعمل في البحار ، وأقابل أهل الحكم والسلطان اذهب الليلة إلى قصر الملك حيث ينام ، واطلب الحديث مع الأميرة هند ، فهي أوصتني على

غرض ، ولما تتأكد أنك بحضرتها قل لها "الظلم مرتعه وخيم " ثم أخبرها أنك راغب برؤيتها في السوق كما تواعدنا المرة الماضية.



أدرك الخادم أن سيده سيد كبير من سادة المدينة ، وأنه في مهمة ملكية سرية وخطيرة ، استغرب الحارس من الرجل الشيخ الذي يطلب لقاء الأميرة ؛ ولكنه بحكم الوقت يعرف مسبقا أن للأميرة أعوانها الأخفياء.. ومقابلة الأميرة متاح لكل الشعب خاصة في النهار وفي ديوان الحكم .. فالملك وابنته يسمحون للعامة بالتظلم أمامهم دون معوقات .. وبعد أن تفقده من حمل السلاح ولو خنجرا ساقه الحارس إلى غرفة خاصة غرفة طالبي الحاجات ، فوجد خادم عمر بكر غيره في الحجرة يطلبون لقاء الأميرة .. وفي ساعة متأخرة من الليل بدأت الأميرة تستقبل هؤلاء الناس ، وتسمع لهم حتى جاء دور سيف ، فقال له الحاجب: أنت بين يدي سيدة البلاد قل حاجتك

فقال العبد: أحق أنت الأميرة هند بنت الملك ؟

كانت الأميرة تصوب النظر إليه بعمق ، وبينهما مسافة فهو يقف عند باب الحجرة ، وهي عند باب داخلي وحولها ثلاثة حراس والحاجب ، واحد الكتبة ، فقال الرجل حيث يقف: الظلم مرتعه وخيم يا مولاتي الأميرة . وكررها ثلاث مرات وتطلع في عينيها وسكت

– أمتأكد أيها الرجل أن الظلم مرتعه وخيم ؟

– نعم ، سيدي جعفر هكذا يقول السوق غداً ، سيكون سيدي في السوق

– حسنا ، ستتقابل .

أعطته صرة فيها دراهم :أعطها لسيدك .. سأراك بإذن الله قبل الظهر

غادر سيف ، وتأكد في قلبه أن السيد يعمل للأميرة أمرا خطيرا ، ولم يفهم إلا أنه رسول لا علاقة

له بالقصر ، وأن الأميرة فهمت الرسالة.

وجد عمر بكر الدكان مفتوحة فتسلل إليها ، ومن الدكان إلى غرفة خلفية لها منفذ على الشارع الآخر ، رحبت الأميرة به بالفرح والسعادة ، ولولا الحياة لاحتضنته ، فقد طالت غيبته ولعب الشيطان كثيرا في عقلها ، فقالت بعد أن سكنت عواطفها : بشر أيها الشجاع!

قال دون تردد : عرفت مكانه يا مولاتي الأميرة والتقيت به ، وهو يعيش متخفيا في مدينة أروى تركته هناك لا أدري بعد مغادرتي خبرهم ، معه خادمه عفريت ، شريكه في الجريمة ، ومعهم امرأة تزعم أنها زوجة لعفريت ، فكرت بقتله دون أن تمسك بي شرطة أروى .. فلم تتاح لي الفرصة أتحبين الحديث معه قبل الفتك به؟

توهجت بتشف وحقد وسرور وقالت: أيمكنك أسره أيها البطل ؟!

روى الفارس رحلته في المطاردة والبحث عن الأمير القاتل حتى التقيا في هذه الدكان السرية للأميرة ، التي تقابل بها عيونها في المدينة فقالت بحماس وإعجاب : أنت نعم الرجل .. كنت قدر كلمتك .. لقد كانت نظرتي إليك صائبة .. لم تكن سائس خيل ..أنت فعلا فارس .. لا أدري كيف فرط فيك قومك ؟! ألا تزيدني معرفة بك ؟!

- صبرنا سنونا ، فلننتظر قليلا أيتها الأميرة الباسلة .. في الوقت المناسب ستعرفينني أكثر .. لو تكلمت عن نفسي الآن ستقول هذا رجل مخبول العقل دعي أحمق .. وأنا قد أكون كاذبا ولم أقابل حفصا ولا غيره

فقالت مؤكدة فهمها للناس : أنا أميرة وتتحدث مع الرجال ، فتعرف الكلام الصادق من الكاذب .

- فداك نفسي أيتها الشجاعة .. إذا لك رغبة بالتنكر والذهاب لأروى ورؤية غريمك .. فعلينا أن نرتب لذلك أم انجز المهمة وحدي .. ولعلي أتمكن من جز رأسه ، ونقله إليك هدية أم تخافين من قطع الرؤوس .. فنحن أهل السيف عندنا قتل وسفك الإنسان أسهل من قتل الحيوان ؟!

- أعرف الصيد وأحسن الطعن بالسيف والرمي بالدبوس والرمح ، لم أشارك في معركة .. بلدنا

مسالمة ..لا نغزو ولا نغزى .. قلبي يخفق لك

- أرجوك أيتها الأميرة أنت ملكة .. علينا بترك المشاعر والإعجاب لحين انقضاء المهمة ..لا تفكري بالزواج مني .. وإذا قتلت ابن عمك حفص فسأصبح هدفا لهم ، ولو كنت الملك نفسه وإذا هم يعملون كل هذه الحماية له فكيف بعد مقتله ؟

قالت بنوع من الدهشة :أنا قدمت نفسي عروسا لمن يساعدني في الانتقام لكل أهل المدينة .. أين أبناء العم ؟ ! لم يتحرك أحد منهم ، ولا أحد من أبناء الخال ؛ لتحقيق القصاص .. أليس القاتل في الشرائع يقتل! إنهم يريدون الصفح والعفو .. فمن أجل هذا يتسترون على حفص الغادر .. ويحاربون من يريد السعي في البحث عنه

- وهل هؤلاء يقبلون شخصا من العامة جيء به رقيقا ؛ ليكون عليهم ملكا ولو بدون حكم زوج الملكة ؟!

- نحن ملكنا أيها الفارس حتى يكبر ابن أخي ، ويشتد عوده فيكون هيثم هو الملك .

- أخشى عليك الترمل يا مولاتي ! .. وهناك أمر أهم من هذا .. ويباعد بين جسديا فلنبق أصدقاء من أجل الانتقام

استغربت الأميرة من كلام الفارس فقالت بفكر : لماذا لا يحق لنا أن نتزوج أيها الفارس ؟

- لا أستطيع الإجابة اليوم ، ربما بعد قتل حفص .. فابن عمك قتل ولي العهد لأنه تزوج فتاة اعجبه حسنها وسبقه إليها ابن الملك .

- أنت حيرتني أيها الفارس!

- سأتكلم المرة القادمة ، وستعرفين سري وسر مجيء إلى هذه المدينة كعبد أسير .. هل تحبين المغامرة والفسر ؟

- كنت أتمنى فعل ذلك بنفسي يا عمر بكر ؛ لكنني أتحمل مسؤولية الحكم اليوم .. فمنذ مقتل أسد وأنا أدير المدينة ..والدي اعتكف في القصر .. ويكاد يخلع نفسه لأجلس على العرش أجلت حتى يقتل حفص أمام أهل المدينة .. فعليك أن تعمل وحدك .. وإذا تيسر لك قتله وتأتينا برأسه

فأنا لك من الشاكرين .. المهم أن لا تعرض نفسك للموت أو الأسر من شرطة المدن .. وإن حصل هذا فارسل لنا لعلنا نتدبر الأمر .. كما يحصل بين الملوك والقادة ..قلبي يخفق لك حقيقة

- فليخفق كحب أخت لأخيها .. نحن أخوة في طلب الثأر



التقوا ثانية في متجر سمعان ، وأكدت له عجزها عن ترك المدينة ؛ لأن والدها الملك يرفض العودة للجلوس على عرش الحكم ، ويخشى عليها غدر الطرق ومدته بالمال ، فطلب منها مركبا ببحار ، ثم تراجع عن ذلك بعد تفكير قائلا: أنا أتصرف وحدي .. كنت أرغب بأسر الرجل ونقله للمركب .. فأفضل إحضاره حيا للمدينة أيتها الأميرة لإعادة الهيبة والرهبة للملك ، وأنه قادر على النيل من خصومه وعدوه ؛ لكن المركب قد يفضح المهمة ؛ لأن الوقت للمكر بهم غير معروف لديّ .

قالت مثنية على جهده : تضحياتك مقدرة عندنا أيها الشجاع .. وفكرة الأسر عظيمة لو تحققت وأترك ذلك لقدراتك .. غداً نلتقي ويكون لديك مركب أو استأجر بحارا بمركب

- لا بأس بذلك

ذهب عمر بكر إلى أروى ووجد الصيد قد طار واختفى من البيتين ، فتنكر بزي شرطي وحماره وفي عتمة الليل ذهب لذلك المنزل في ذاك الحي ، وسأل الجيران عن أهل البيت الخالي فدلوه على مالك البيت ، فسأله عن المستأجرين الرجلين والمرأة ، وأنهم مطلوبون بقضايا مالية لأحد الناس فقال: جاءني رجل اسمه جواد ، واستأجر البيت لمدة أسبوعين ، وقد يزيدها إذا احتاج لوقت أكثر ، ودفع الأجرة وسلمته العقار ، وعليك بالدلال سمحان في سوق النحاس فهو الذي جاءني بجواد هذا ، ووصل إليه عمر بكر بسهوله وسأله عن عفريت فقال: نعم ، اذكره هو نزيل المدينة .. اذكر هذا الرجل ووصفه الذي ذكرت .. احتاج لبيت لمدة نصف شهر ، وجاء من يومين وأعاد المفتاح ، وذهبت وإياه للبيت واستلمته منه وودعته ، وذهبت لصاحب البيت وأعطيته المفتاح وشكرته ، ولا أعرف إلى أين رحلوا ؟

عاد عمر بكر لبيته المستأجر يفكر بالحل لهربهم الجديد ، وكيف الوصول إليهم من جديد ؟ فخطر له الميناء والربان عدنان ، فكما أوصله إليه سابقا سيوصله إليهم من جديد ، فسر من ذلك الخاطر ، وغرق في نومه .

تناول طعامه في الصباح وقال : عدنان هو حلقة الوصل بين الأمير وأهله ..وأنا لا أفكر بالعودة للعمل معهم بعد هذه الغياب ، فصار يذهب للميناء من الصباح حتى العصر ، أحيانا يعمل حمالا ، وأحيانا أخرى يتجول بدون عمل ، قضى عشرة أيام دون أن يظهر عدنان ولا أحد ممن عرفهم أثناء عمله معهم في البحر ، فسافر إلى نجوان بشخصية تاجر جوال ، ورأى عدنان بعد أيام قد دخل للميناء لتفريغ حمولة ، فتقدم بثيابه الأنيقة يتفحص القماش الذي انزله الحمالون ، وقال بلهجة من يأمر ويعرف التجارة : هذه الثياب من أي البلاد أتت؟

فاقترب منه أحد الرجال: أيها التاجر من أي البلاد ؟

قال بحذق تاجر خبير : أنا تاجر جوال أجوب الموانئ وأقاصي المدن ، وأتحرى الأجود والأغلى وتخصصي في الثياب وجذوري الأولى تعود لأروى التي يفصل بيننا وبينها هذا البحر ، فكلما أنزل ميناء بحري أتفرج على حمولات الأقمشة .. فهذه نوعية راقية ليست من أروى ولا سادة

قال التاجر البحري: لقد حملناها من سادة ، واصلها من يمن ، بلاد عربية شمال بحر العرب مشهورة بهذه الثياب والبرد

- اعرفها ، ورحلت إليها من الهند وعُمان - إنها تصل سادة عن طريق البر

- أنتم لا تبيعون هذه الأقمشة

- نحن لا نبيعها أيها التاجر الجوال

- لو سافرت سادة سأجد مثلها إن شاء الله

- نعم ، تاجران تجد عندهم مثل هذا القماش .. التاجر شرف الدين وظاهر الدين .. وسادة من أفضل المدن التي تبيع القماش

- ومدينة نجوان التي نحن فيها الآن .. ما أهم تجاراتها التي تنصحني بحمل مركب منها إلى

سادة ؟

- هذه البلدة لا تصنع الأقمشة .. نحن بلد التوابل والفلفل والصوف والقرفة والملح والبرتقال هذه الأشياء نبيعها للمدن المجاورة ومنها سادة

- تجارة الملح جيدة والبهارات الحارة صوفكم غير منسوج

- صوفنا غير منسوج ، ولا نظيف يقص عن الغنم ويجمع ويباع في أروى .. هناك تحوله النساء إلى منسوج ، ويباع للخياطين

- سأحمل إلى سادة التوابل .. مدينة كبيرة تفتقر للقماش ..ماذا تفعل النساء هنا ؟

- النوم والغناء

****

سافر عمر بكر إلى مدينة سادة فقد ترجح لديه انتقالهم إليها ، وفي الصباح ارتدى ملابس حمالين البحر ، وهو صار خبيرا بالعمل في الموانئ منذ تعهد بالقيام بمهمة البحث عن حفص ، وكان يرقب سفن مدينة نجوان وسفن الربان عدنان ، وتعرف السفن من الرايات التي ترفع على السواري

وهو يترقب سفن نجوان ذات نهار رأى عفريتا يتجول في الميناء ، فصدق ترجيحه من انتقالهم لسادة ، فاستعد لمراقبة ومتابعة عفريت ، وظل عفريت في الميناء البحري حتى العصر ، ثم خرج من الميناء ، وأدرك عمر بكر أن الرجل ينتظر سفينة من سفن أشقاء حفص لأمر اضطراري أو هو على موعد بشيء من بلاده

تبعه عن بعد حتى وصل لحي في المدينة ورآه يدخل احد البيوت ، وظل يراقب البيت خشية أن يكون الرجل فطن له ، ويريد المكر به ، ولما زاد الظلام عاد إلى الخان الذي ينزل فيه .

وكان الفارس يتوقع ويخمن مجيء الربان عدنان لهذه المدينة لما رأى عفريتا في المرفأ .. هل يرقب رسالة من سفن نجوان ؟

عاد في الصباح للميناء كعامل تحميل ، ورأى عفريتا ثانية في الميناء فقال: الرجل قلق ، فربما يريد

إرسال رسالة إلى نجوان . فكر بأن يذهب لمراقبة البيت ، ثم فضل متابعة عفريت ومعرفة سر تردده على المرفأ ، وفي المساء عاد عفريت للبيت المختفي فيه القاتل فقال: إنه يرقب سفينة من نجوان من سادته

وعند أول الليل رأى الربان عدنان ، يدخل المرفأ البحري لسادة ، وهو يعرف سفينته خير المعرفة ، أفرغ الحمالون حمولة السفينة على أحد الأرصفة ، وكان الرجل يبحث في عينيه عن شيء فوقع في قلب عمر بكر أنه يبحث عن عفريت ، كأنه لا يعرف بيته ، فهم على موعد يبدو أنهم تركوا أروى دون متابعة من عدنان أو على الدواب فارقوها ، أو على مركب خاص بعد حين رأى عدنان يصحب امرأتين نزلتا من السفينة إلى أحد الخانات القريبة من الميناء حيث سوق الميناء الكبير فوقع في قلبه أنهما زوجات حفص أو زوجة وخادمة ، ورجح أن عدنان لا يعرف البيت ، ومن أجل هذا يتردد عفريت على الميناء ، وأن حفصا أتى المدينة بطريقة خاصة حتى لا يعرف ركاب سفينة عدنان بذلك ويتهامسون بذلك ، فجائزة الزواج من الأميرة هند تغري المغامرين ، وما زالت قائمة .

قضى عمر بكر ليله في خان آخر قريب من خان نزول عدنان ، وفي الصباح رأى عفريتا يدخل المكان ، ولاحظ السعادة التي غمرته عندما شاهد سفينة عدنان ، ثم بعد حين رأى عدنان يدخل المكان ، والتقيا وتعانقا ومشيا إلى الخان ، وهم تحت عيني عمر بكر ، ودخل عدنان للخان ، وعاد يصحب المرأتين وخرجوا من الميناء نحو المدينة مشيا على الأقدام ، وتقدمهم عمر بكر حيث رآهم يدخلون البيت ، وبعد وقت رأى عدنان يغادره دون النساء فقال: لابد إنها إحدى زوجاته

سعى الفارس لاستئجار بيت في نفس الحي وترك الخان ، وتحقق له ذلك بكل يسر وسهولة ، ولا يبعد البيت عن بيت الأمير سوى بضعة أبيات ، وأخذ عمر بكر يفكر بالقضاء على عفريت فقد رأى أنه القوة الضاربة واليد اليمنى لحفص السجين ؛ فإذا نال منه سيرتبك الأمير ، وقد يتمكن من أسره ونقله لنجوان ، ويريد قتله والنجاة من تبعة الجريمة .. فعفريت قاتل غادر

خائن يستحق الموت .. فهو شريك حفص في الجريمة الملكية التي أودت بحياة أسد بن هشام هل سيعود الأمير بعد هلاك مساعده لنجوان ؟ يريد قتل عفريت بطريقة تبدو عشوائية قتل غير مدبر ، قتله في مكان بعيد عن الحي ، لما تأكد له مغادرة عدنان المدينة ، وضع خطة الاغتيال لعفريت.

لاحظ عمر بكر أن الأمير لا يخرج من البيت إلا قليلا للتريض ومرافقة الجارية للسوق ، وذلك قليل .. كان الدور الأكبر للحركة لعفريت وجاريته ، ولاحظ في أروى أن الجارية الأكثر ذهابا للشراء خاصة الأطعمة لأهل الدار .. فكيف يستطيع استدراجها ليستدرج عفريتا؟!

فلم يجد حيلة .. إنها لا تخرج ليلا ، ولا حتى عفريت .. والفتك في مدينة في وضح النهار من الصعوبة بمكان ، وهو لا يريد اغتيال النساء في هذه المعركة لا ضرورة لذلك ..ويريد القضاء عليهم قبل عودة عدنان مرة أخرى.

تقمص شخصية الأعمى المتسول ، وطرق البيت طالبا المساعدة والطعام ، فأعطته الجارية قطعة خبز ، وصرفته فطرق الباب التالي ، وفي اليوم التالي فعل كاليوم السابق طالبا الطعام فأعطي كسرة خبز ، وعاد إليهم في اليوم الثالث ، فقال له عفريت: أنت يا شحاذ لا تعرف التسول إلا في هذا الحي .. كل يوم كل يوم .. اذهب إلى حي آخر .

قال المتسول برنة حزن وغضب في نفس الحين : أنا أفر على جميع البيوتات يا سيدي .. أنا أعمى يا سيدي .. أتجول على كل البيوت ..أنا أعتذر عن مضايقتك

- من يتركك في هذا الحي ؟

- أحد الناس .. كل يوم استعين بأحد الناس .. فيتركني في أول الدرب هل هو نفس الحي ؟ دلني أو أتركني على مدخل حي آخر

- فليأخذك القائد لك إلى حي غير حينا

لما خفت الرجل والحركة في الحي دخله عمر بكر بزي شرطة يركب حمارا فطرق الباب ففتحت الجارية فقال لها بقوة : أين سيدك أم أنت سيدة البيت؟

– لماذا ؟

بنفس النبرة القوية قال : لقد آذى رجلا أعمى يتسول في هذا الدرب ، واشتكى الرجل عليه

ظهر عفريت كعادته من وراء المرأة وأزاحها من أمامه وقال ساخطا : المتسول شكاني لكم

– نعم ، أيها السيد وهو الآن في ديوان العسس ، فاركب هذا الحمار ـ ونزل عنه ـ لتصالح الرجل فقد قطع القلوب بالبكاء والشكوى

– في الصباح أيها الشرطي

– لي ساعات ابحث عن البيت هيا قابل أمير الشرطة

– انتظر

– أرجوك لا تتأخر سيتهمونني بالتلكؤ والتقصير في البحث عنك .. ادفع بعض الدراهم للأعمى سينسى الأذى الذي أصابه

دخل عفريت وغير ملابسه وعاد فقال له الشرطي : اركب حمار العسس حتى لا تتعب .

فقال عفريت : سأمشي مشيا أيها الشرطي .

– وأنا سأمشي اتبعني . وأغلقت الجارية الباب لما خرجا من الدرب ، ومشى الفارس أمامه دون كلام حتى دخل غابة فقال : سنقطع هذه الغابة لنختصر الدرب .. يبدو أنكم أغراب لستم من أهالي البلاد .

– كيف عرفت؟

– من لهجتك ، لأهل المدينة لكنة معينة .. ونلفظ بعض الحروف بنبرة مميزة لم المسها فيكم .

مشيا في درب مطروق وسط الغابة وقال: لماذا ضربت الأعمى المسكين؟

– أأنا أضربه ؟! ما ضربته رفعت صوتي عليه فحسب

– هكذا قال لأمير الشرطة ؛ وكأنك منعته من طرق البيوت طلبا للإحسان .. واعتديت عليه بالضرب ..وأن الجيران يشهدون بذلك

صاح عفريت غضبا : هذا كذب .. افتراء .. أنا أضرب رجلا أعمى .. إنه يطرق بابنا كل يوم

طالبا الصدقة .. نهرته فقط ..ما هكذا الشحذة أيها الشرطي ؟!

قال الشرطي المزيف : هذا الكلام ستقوله أمام أمير الشرط .. لو لم تصحبني لأرسل إليك فرقة من الجند ليقتادوك

- أنا لم اضرب الرجل ..وسأدفع له المال .. واعتذر له .. إنه يكذب عليّ سامحه الله

وبينما هو يقول جملته الأخيرة كان خنجر عمر بكر يغمد في صدره ثم بطنه ، وصاح الرجل ، وخر إلى الأرض يصيح ، ويقول : لماذا غدرت بي يا خائن؟!

- اطمئن يا سيد عفريت .. هذا خنجر الملك هشام وابنته الأميرة هند .. ظننت بقتلك الأمير والهرب النجاة .. أنا يد الملك يد العدالة .. أقول ذلك لتموت مرتاحا .. وسيلحق بك سيدك حفص عن قريب.. نحن معكم من مدينة أروى .. أنسيت قتلك للأمير أسد سيدك وابن ملكيك ؟ أنسيت دورك الخبيث يا خبيث النفس ؟

- أنت من مدينة نجوان ؟

- أنا الأعمى الذي طرق بيتك ثلاثة أيام ! أنا الانتقام .. الغادر ينال عقابه !

- أنا عبد سيدي حفص هو الذي أراد اغتيال الأمير أتقبل أن يرفض عبدك ؟ وإذا رفض سيقتل

- لا مجال للاعتذار ..لقد سبق السيف العذل .. وسيعلق رأسك ورأس سيدك في مدينة نجوان أيها الخونة .. ألك شركاء يا مجرم ؟ هل لإخوته مشاركة في المؤامرة ؟

- قالوا بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين ..هذا جزائي .. بعض الجواري ساعدتنا ، وبعض الحرس .. سأترك للأمير أن يذكرهم لك ..أتحمل وصية مني قبل موتي ؟

- تكلم

- لي أم في نجوان تعيش في قصر حفص بلغها السلام .. وقل لها أن تسامحني ؛ لأني لم طع أمرها لقد حذرتني من التآمر مع الأمير لقتل ابن عمه .. لقد عرفت غدر الأمير وقوة حقده .. نعم ، لم اسمع كلامها ، ظننت ذلك خدمة للأمير .. وطعنت أسدا عدة طعنات كما طعنتني الآن .. كنا نريد الصلح على دم الأمير .. فالملك ضعيف وسقيم .. ولم نحسب حساب الأميرة هند

وغضبها .. أنت من رجالها ؟

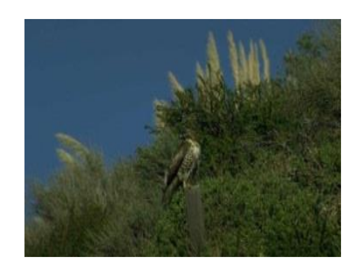
- نعم ، أنا من فرسانها .. لقد تبعتكم لأروى ، ولما ذهبت لأخبار الأميرة بمكانكم وجدتكم قد انتقلتم إلى هنا . وانهال عليه طعنا من جديد حتى خمدت أنفاسه وهو يصيح : مت كالكلب حتى لا تتعذب من الألم.

- لا تنسى وصيتي ، وقل للأميرة أن تغفر لي

- سأنقل وصيتك .. ألديك وصية أخرى ؟

- لا . وشهقت روحه لبارئها

ولما تأكد من موته غادر الغابة ، وترك الحمار فيها



حين لم يرجع عفريت للبيت تلك الليلة ، ذهب حفص تصحبه زوج عفريت إلى ديوان الشرطة يتحرى عن صاحبهم ، فعلم أن لا أعمى شكى ، ولا أرسلوا شرطيا إلى ذلك الحي ليلة أمس ، ولما علم قائد العسس أنهم غرباء عن المدينة ، وعدهم بالاهتمام والبحث عن زوج الجارية نورا

اشترى حفص أطعمة وهم عائدون للبيت وقال للجارية: ما القصة بالتفصيل؟

بكت الجارية وقالت بعدما هدأت : لا أدري يا سيدي ! أحس أن فقدنا عفريتا ، وأن خصومنا وصلوا إلينا ..كان الرجل الضرير يطرق الباب صباحا بطلب لقمة عيش .. وفي اليوم الثالث نهره سيدي وطلب منه عدم المجيء إلى بيتنا ، وفي الليل جاءنا شرطي يطلبه لديوان الشرطة مخبرا لنا أن الأعمى شكى عليه ، فذهب كما قال لك لتسوية القضية ..فالأمور لا توحي بخداع فالأعمى له أيام يتسول في الحي ..وهذا ما جعلنا نصدق الشرطي المزيف ..

قال الأمير بحيرة : إني قلق ! كما رأيتِ وسمعتِ أمير الشرطة في المدينة نفى شكوى الأعمى علينا .. الأمر مزعج نحن أغراب في هذه المدينة .. وليس لنا إلا وقت قليل فيها .. وعدنان يحتاج لشهر ليعود إلينا ..كيف سنبحث عنه وأين؟!

- لا أعداء لنا هنا يا سيدي .. نحن جدد هنا .. ومن يطمع فينا ؟ وما دام الضرير لم يذهب للشرطة .. فهناك مكر فهناك خداع!

- هذا ما أفكر فيه من يخدعنا؟ من يمكر بنا في بلد غريب ؟ ونحن لا نختلط بالناس.. أتظنين أن خصومنا وصلوا إلينا بعد كل هذه الشهور ؟! فقد أخبر عدنان الربان أن الأميرة أرسلت أناسا سرا للبحث عنا طمعا بالزواج منها

قالت بتفكير : حسب أخبار عدنان أنهم لا يعرفون من تحرك للبحث عنا ؟ وأنا أعرف سيدتي الأميرة حق المعرفة .. فهي قوية ولا تستسلم بسرعة .. تقاتل إلى آخر ساعة .. فقد خدمتها عشر سنوات ..ولكني لا أعرف أن لديها رجالا يطيعونها طاعة عمياء!

فقال مثنيا على الجارية : لن تخلو الدنيا من الشجعان أيتها الجارية الشجاعة ..كان دورك كبيرا في اغتيال ابن الملك وشفيت غليلي ..ولكني اعتبرها الغلطة الكبرى في حياتي ..ذلتي تلك الطعنة جعلتني هاربا متخفيا

فقالت مبررة مشاركتها في الجريمة الملكية : لولا حبي لعفريت ما تجرأت على خيانة مولاتي غلب حبه حبي للأميرة .

- نعم ، كان عفريت عاشقا ومحبا لك .. وهو قدر الحب الذي بينكم وتزوجك كما وعدك .. وهو صديقي الوحيد في الدنيا ، إن حياتي في خطر مالم يظهر عفريت .. لذلك سأختفي ، ولن أرجع إلى البيت معك .. فالأمر كما فكرنا لابد أن فيه رجال الأميرة هند .. فهي مصممة على قتلي ، وقد رضيت بأن تتزوج عبدا من أجل أن يحقق لها الانتقام ..وأعتقد أن عفريتا قد أصابه سوء يا نورا سأختفي في بيت آخر ، وبعد يومين نلتقي في السوق الكبير قبل الظهر ، وسيكون على منكبيّ عمامة خضراء دون لبس محمولة على الكتفين ، وأنت تضعين شالا أخضر حتى نستدل على بعضنا أثناء الدوران في السوق ؛ فإذا عاد عفريت ونجا من المكيدة كان ذلك الخير نجتمع ونرتب أمرنا ، ولما يحضر عدنان ، ولم يظهر عفريت رتبي لي معه لقاء في السوق .. فالأمر جد خطير عودي للبيت .. وحافظي على زوجتي وجاريتي .. ريثما نفهم ما حدث يا نورا ..

وحتى يأتي عدنان سنلتقي كل ثلاث ليال مرة .. واللقاء الأول بعد يومين في السوق والمال تعرفين مكانه فأحضري بعضه في اللقاء القادم.

- استوعب الأمر يا سيدي .. أنا جاريتك المخلصة لك حتى الموت

- قبل الظهر عندما نرى بعضنا تتبعينني حتى اسمح لك بالحديث معي .. نحن كلنا في خطر يا نورا .. عندما يأتي عدنان سيكون لنا كلام .. وسنكلف رجالنا بمعرفة من يطاردنا من أعوان الأميرة .. فوجود أعمى وشرطي مزيف تدل على مكر كبير يراد بنا .

غصت بالبكاء وهي تنصرف: لقد نصحتك يا مولاي بعدم قتل ابن الملك!

- قال لي عفريت ذلك ، لقد أغواني الشيطان .. كان رفض برة ساحقا لي .. وزواج الأمير منها كان مذلا لكرامتي أمام السادة والفرسان .. كان الأمر صعبا على النفس .. وأنت تعرفين لواعج الحب .. أحببتها حبا عاصفا .. ولولا حبك لعفريت ما قبلت بالتعاون معنا لدخول القصر .. فالحب فتاك .. عرف الناس بعشقي لبرة ، والأمير عرف ؛ ولكنه عشقها نكاية بي .

تنهدت حزنا وقالت : علينا أن نكمل المشوار أرجو أن يكون عفريت حيا .. إني أحبه حتى الموت .. سأموت إن كان ميتا

- إذا مات علينا أن ننتقم لموته .. ننتقم من قاتله .. هذا الصواب .. لا نموت دون الثأر له .

- أنتقم له ممن يا مولاي من الأميرة ؟!



جثة عفريت

كان عمر بكر بعد التخلص من عفريت يفكر بحيلة جديدة يصيد بها حفصا قاتل الأمير أسد بن هشام ، وذكرنا أن الرجل استأجر بيتا في نفس الحي ، وكان منه يراقب بيت حفص بن هاشم ولاحظ أن الشرطة بعد يومين من حادث موت عفريت جاءت بيتهم ، وأخذت المرأة الجارية امرأة عفريت ، فتبعهم خفية ، وهو يعلم أين يسوقون الجارية ؟ كانوا يذهبون بها لديوان الشرطة ودار الشرطة ، وقد أدرك أنهم وجدوا جثة زوجها ، فيريدون التأكد من هو صاحب تلك الجثة ، فهي أخبرت الشرطة من يومين باختفاء عفريت ، فقد وجدت الشرطة إحدى الجثث مطعونة بعدد كبير من الطعنات في إحدى غابات المدينة ، وجدها مجموعة من الصيادين فأخبروا العسس بها ، ورأت المرأة الجثة ، وتمرغت عليها حزنا وبكاء ونواحا وتقبيلا ، فقد كانت جثة من قتلت من أجل الزواج منه ، فلما سألوها عن الرجل الذي جاء يخبر عنه معها ، قالت سافر في تجارة له ، ولما أقسمت بأنها لم تتآمر على حياته مع ذاك الرجل ، وقابلوا زوجته وخادمته ، طلب منهم الإخبار عنه عندما يعود ، وأمر بدفنه ، ووعدها بالبحث عن قاتله أو قتلته ، وحضرت الجارية دفن صاحبها وحبيبها ، وشارك عمر بكر الدفن ، وأظهر تعاطفه مع الجارية ، وأعلمها أنه جار لها في الحي الذي تعيش فيه ، وكان عند الشرطة في شكوى عندما رآها تبكي وتصرخ ، وعرف أنها احدى الجارات في الحي ، وقال: أنا لي متجر بيع قرب هذا المكان ، أحدهم احتال عليّ فجئت اخبر الشرطة بأوصافه ، فسمعت حكايتك ، فذكرت أني رأيتك ، ثم عرفت أننا جيران .. فأنا في خدمتك يا سيدتي .. اسمي حلق الجمال . ورافقها للحي بعد الدفن ، ودلها على بيته ، فأثنت بدورها عليه ، وعلى عطفه عليها ، ودخلت بيتها مذهولة تتذكر حياتها وخيانتها لسيدتها لتنال قلب عفريت ، وكيف وصلت إليهم فرسان الأميرة ؟! وحطمت قلبها بعدما حطمت قلب الأميرة باغتيال شقيقها فقالت بأسى : لم يكن هنالك أعمى ولا شرطي إنهم رجال الأميرة دون شك .. لماذا قتلوا عفريتا قبل سيده ؟! فالقاتل الحقيقي حفص ، وإنما عفريت منفذ ومساعد الذي اتخذ قرار الجريمة الأمير حفص . لذلك انتظرت

بفارغ الصبر موعد السوق حسب ما رتبت بينها وبين الأمير .

ذهبت للسوق الكبير عند الظهر بقليل ، ولما دخلت السوق وضعت الشال الأخضر على كتفيها رأت الأمير بعمامته الخضراء منفولة على كتفيه ، تلاقت العيون تبعته حتى ابتعدا عن السوق ، ورأته يستظل تحت شجرة فارهة، فتقدمت حتى وصلت إليه فسلمت باكية بشدة ، فأدرك حفص موت عفريت ، وأن الأميرة هند حققت غرضها من أول قاتل ، فتحسس عنقه وليست سهلة تلك الأميرة ، وأنها ابنة الملوك من آل العامر ..وتركها تبكي حتى هدأت وحدها وقالت : عشرات الطعنات اخترقت جسده .. طعنات انتقام وحقد .. قتلوه يا سيدي وصلوا إلينا .. وحضرت دفنه

وروت ما سمعته من الشرطة والشك بقتله، وأنهم يرغبون بمقابلة الأمير لتبرئة ساحته فقال: الشرطة يجب أن تشك فينا .. ما دام لا أعمى ولا شرطي مزيف أمامهم .. لعبة خطيرة يريدون إعدامي هنا بقتله قبلي .. أرأيت الذكاء يا نورا ؟! لهذا قتلوا عفريتا

قالت: لا اعرف شيئا .. موته هدّ كياني يا سيدي الأمير

- يريدون تعذيبي أيضا ، وأن يقع الرعب في قلبي ؛ لذلك بدأوا فيه .. افكر بالعودة للبلاد

- نجوان

- نعم ، اسلم نفسي لقاضي المدينة .. الفرار كالأرنب أتعبني وارهقني .. فلما جاءت الزوجة زدت تعبا بدلا من الراحة .. أنا حزين عليه جدا ؛ لأنه صديق السنوات الماضيات يا نورا .. لقد وصلوا إلينا ..أحس أنهم قربي يسمعون حديثنا .. ماذا تقولين يا سيدتي ؟! فأنت صاحبة الذكاء المشهود .. الجارية المخلصة لنا

- القاضي ماذا سيفعل لك؟! هل غير إهدار الدم والموت ؟!

فقال بيأس : ألسنا ميتين يا نورا؟

- الاختفاء والخوف هما الموت كل يوم كل حين! رفض مولانا الملك الشيخ العفو عنك كما اخبر عدنان .. رفض سجنك اخبر أن الموت مصيرك ولا يرضى بغير ذلك .

- أموت مرة واحدة خير من أموت كل حين .

- لا يا سيدي ، عفريت مات ومات .. فعليك إذا أحببت البقاء حيا أن تخلع شخصية الأمير حفص ، وتقطع صلتك ببلادك إلى الأبد ، وتعيد زوجتك وجاريتك مع أول عودة لعدنان .. ولا تخبرها بقرارك الاختفاء عن نجوان إلى الأبد ؛ فبذلك قد تعيش ما قدر الله لك .. أنس أولادك وأهلك أمك وأباك .. هذا ما فكرت به لنجاتك .. ارحل إلى مدينة كبيرة من مدن الدنيا عش بدون ذكريات لأحد لا أهل ولا أولاد .

- يا لها من فكرة عظيمة يا نورا ! أأستطيع أن أعيش بدونهم يا نورا وبشخصية أخرى ؟!

- لك أكثر من عام بدون أهل وأب وأم وزوجة ، وبدون أمارة ومن غير تجارة .. الأميرة لن تتخلى عن دم أخيها .. وما دام قد وصلوا لزوجي فلسوف يصلون إليك .. اهرب إذا أحببت الحياة .. ابعد عن نجوان ومن فيها

- وأنت !

- لا يمكن مرافقتك ؛ لأني من نجوان .. سأبقى هنا

- أولادي

- تتزوج ، وترزق غيرهم

- دعيني أفكر مليا بهذه الفكرة الجليلة الملهمة

انصرفت الجارية ، وبعدما اختفت عن عيونه بزمن ، ابتعد عن ظل الشجرة ، وهو يقول: إذا أردت الحياة عليّ أن أبدأ من جديد .. هل تتوقف الأميرة عن مطاردتي؟!



رجع عمر بكر إلى نجوان ووجد خادمه سيف في شوق إليه وإشفاق على حياته ، فأرسله كالمرة الماضية إلى القصر الملكي ، وقابل الأميرة كمتظلم وعرفته فور رؤيته ، وذكرت له موعدا فغادر القصر ، وهو يود معرفة الأسرار بين الأميرة الحاكمة الفعلية للبلاد منذ مصرع شقيقها أسد وسيده جعفر .

ذهب الفارس للسوق كمن يريد الشراء ، ودخل دكان سمعان ، وزلف الحجرة الخلفية ، فوجد الأميرة في انتظاره ، ورحبت به ، وسمعت قصة قتله لعفريت شريك حفص في الجريمة ولما صمت ، قالت: لماذا بدأت به ؟!

فقال بهدوء: لا أدري لماذا لا تطاوعني نفسي على قتل حفص؟!

- أتخاف من لقائه؟!

ضحك الفارس وقال: لا ، إنه كالأرنب ، بل لما قتلت صاحبه اختفى ، لم يعد يأمن الجارية ، ولا حتى امرأته التي أرسل وراءها .. لو كنت أخافه أيتها الأميرة ما قبلت تنفيذ المهمة ، وقمت بمطاردته ؛ لكني أحب أن يموت بسيف القاضي .. جئت لأقول لك إني عاجز عن سفك دمه بيدي هاتين

قالت بحيرة: سيدي الفارس لم أفهم سببا لهذا الامتناع!

- نعم

- وضح

قال وهو ينظر في عيني الأميرة : عدت قبل قتله لأتشاور معك .. كنت المرة الماضية أطمع بمصاحبتك ، قلت لعلك تصرعينه بيدك .. فأسره ليس هينا أيتها الأميرة .. نعم ، جئت لأوضح الأمر ، وسبب ترددي في إهلاكه

- تكلم

قال بهدوء : لأنه ابن عمي أيتها الأميرة !

حدقت في عينيه بقوة ، وبعد صمت عميق قالت باستغراب واضح : ابن عمك ! ماذا قلت ؟! أنا ابنة عمك إذن!

- أنت أختي.

زاد تحديقها ودهشتها وحيرتها ،وقالت بغضب وحيرة: أنا أختك ! أجننت أيها الإنسان؟!

- لا ، هذه هي الحقيقة حسب اعتقادي .. هذا الذي دفعني لافترس عفريتا بداية .. فهو لم يمت

لنا بصلة قربى .. أما حفص فأريد القاضي أن يقتله.. نحن أبناء عم جدنا واحد .

صاحت فيه :أيها الشاب ماذا تهذي وتهرف؟!

- هل يقتل الإنسان ابن عمه كما فعل ابن عمنا ؟!

- أكاد أُجن ..أسمعني حكايتك .. القرابة التي بيننا .. الآن بدأت أفهم صدك لحبي لك دون الناس ، والقبول بي زوجا.

قال بنبرة هادئة وموضحا : نعم ، نحن أخوة أيتها الأميرة .. أنا والدي الملك هشام مثلك ، وأمي جارية من جواري سيدي الملك ، كانت أمي جارية اسمها شمس ، أحبها الملك قبل خمس وثلاثين سنة ، واتخذها سرية ، وكان يعاشرها معاشرة الرجل لزوجته ، ثم وهبها لأحد الشعراء المادحين له العابرين لبلاده ، ولما غادر الشاعر المدينة ساقها معه كما ساق هدايا الملك الأخرى ، وباعها الشاعر في مدينة أخرى ، ولما استقرت عند سيد جديد علمت أنها حامل من مولاها الملك ، فلم يقربها الشاعر ، ولا السيد الجديد ، بل فرح وسعد بحملها وشرائه لها ، فهو كسب مولودا عبدا دون مال ، وكنت أنا هذا الحمل ، وأكرم السيد الجارية حتى وضعت الطفل ، وأصبح رقيقا للسيد عمار ، وهكذا عشت في كنفه خادما رقيقا لهم حتى بلغت خمس عشرة سنة وكانت أمي تموت ، فكشفت لي سر مولدي ، ومن هو والدي ؟ وماتت بعد ذلك وبكيت وأنا استغرب مما تفوهت به عند الموت .. وهل أصدق أني ابن ملك ، ومن صلب ملك ؟! وأن أمي جارية له ، ونحن منذ ولدت ونحن نعيش في كنف السيد عمار ، صعب عليّ تصديق ذلك أيتها الأميرة ، وعملت في الرعي للسيد طول هذه السنين ، وكانت له خيل يبيعها للسادة ، فكانت صداقتي للخيل قوية ، فتعلقت بها ورعيتها ، ومن خلالها تعلمت الصيد مع أبناء السيد ، ومن وجودي في البراري والوديان .. وبقيت في حيرة مما تفوهت به أمي ، ولماذا لم تعيدني للملك ورضيت لي العبودية ؟ لم يكن هناك وقت للمحاورة في دوافعها للصمت .. ألعلها خشيت تكذيب الملك لها؟! وقد يكون السبب أن الرجل حررها بعد ولادتي ؛ ولكننا عشنا معهم كخدم وعبيد .. فلحقت بجند المدينة ، وتعلمت الفروسية وتقدمت على أقراني ، وخضت المعارك مع

جند البلاد إلى أن أسرت في معركة دامية ، ولم يهتم لأسري أحد ، ولم يقوموا بدفع فدية عني ، فعرضت نفسي على سيدي الجديد عاملا له خادما لأنال الحرية من جديد ، وحصل ذاك بعد سنوات ، فجئت إلى هنا إلى نجوان موطن ومدينة أهلي ، ودفعت للنخاس ما تبقى معي من مال ليبيعني إلى رجال الملك هشام .. لأستطيع أن ادخل القصر وأقول للملك إنني ابنك من جاريتك ؟! احتاج إلى فرصة عملت كعبد في القصر وأملاك القصر .. وكنت أخبرت قيم القصر على قدرتي على رعي البقر والخيل ، فجعلني بعد زمن راعيا للخيل الملكي ، والتقيت بك عندما كنت تأتين لمراقبة الخيل وتفقدها وأشفقت عليّ وعطفت عليّ مع أنني مجرد عبد في نظرك .. فهذه قصتي أيتها الأميرة .. لهذا أيتها الأميرة الباسلة وعدتك أن أكون الخادم المطيع قلت أعيش بقربكم لعلي استطيع أن أجد طريقة تعرفون أنني منكم ، وتحمست لمَ كلفتيني به ، ووفقت بفضل الله إلى الوصول إليهم ؛ ولكن نفسي توقفت عن الفتك بابن العم الخائن مع أنه غدر بأخي.. لو نتبارز لربما كان قتله أهون على النفس من القتل غيلة .

ران الصمت طويلا في الغرفة ، ثم قالت: أنت أخي .. الدم يتكلم .. كنت عندما ادخل حظيرة الخيول أحب أن أراك خاصة دون باقي السياس لا أدري ما السبب ؟! لم أكن استطيع تفسير ذلك .. ولم يكن وصفه بعاطفة امرأة برجل للفرق الكبير بين سائس الخيل وابنة الملك لكن قلبي كان يضطرب كفتاة عاشقة كلما أراك .. أصدقت أمك أيها الشاب؟!

- ولماذا تكذب عليّ في آخر ساعات العمر؟

- ولماذا لم تعد وتعترف لأبي؟!

- وهل تستطيع جارية تباع وتهدى أن تقول ذلك لملك ؟! كان أمر العودة صعبا عليها ، وهي الخادمة الأمة طول عمرها ، حتى لو تحررت كانت كعبدة ، والتنقل بطفل بين البلاد ليس بالأمر الهين .. وهل سيقبل الملك كلامها ويعتقد أن الحمل منه؟! هو لو يعلم بحملها ما تخلى عنها فالجواري كثر .. ويبدو أن الشاعر رآها بحضرة الملك فرغب بها .. فوالدك اتخذها سرية فوضع الجارية صعب

- أجل من الصعب الاستسلام لكلامها .. خاصة أن بعض الجواري تمكن من نفسها بعض العبيد أو حتى الحرس إذا كان بينهم إعجاب .. هذا لا ينكر

استمرا ينظران ويحدقان في وجوه وأعين بعضهم لزمن طويل يفكران بصمت وعمق ، ثم تمالكت الأميرة نفسها وقالت: أتعرف صفة امك ؟

- نعم ، عشنا خمس عشرة سنة سوية

قالت : ستصفها لأبي الملك هشام ؛ فإذا أقر بهذه الصفات ، وأقر بمعاشرته لها كزوج وسرية ؛ فنكون حققنا نصف الحقيقة ؛ فأنا مصدقة لمَ قلت ؛ لكن هذا لتكون ابنا للملك لا يكفي يا عمر بكر .. أنت ترى قول أمك عند موتها لابد أن يكون الحقيقة

ـ وهذا الذي دفعني لعدم قتل ابن عمي حفص .. ليس الجبن والخوف رغم غدره وخيانته لابن عمه أسد

ـ إني أعذر ترددك .. إذن لابد من أسره ومحاكمته أمام القاضي .. كيف ستحقق ذلك أيها الفارس؟!

- لن نعجز عن تحقيق ذلك أيتها الأميرة

تنهدت بحيرة وقالت : وضعتني أيها الشجاع في أعظم معضلة!

- كان لابد أن أتكلم ، قد جاءت الفرصة التي جئت البلاد هذه من أجلها أيتها الشجاعة .. وحتى لا تتعلقي بي تعلق النساء بالرجال .. نحن تجمعنا أخوة الدم والنسب .. فالأخوة علاقة نبيلة وصادقة

- أكيد أيها البطل .. سأرتب لك مقابلة مع الملك مقابلة خفية .. أنت عند قيم القصر هاربا آبقا مهدور الدم

- ادخل عليه بهيئة صياد

- فكرة كبيرة صياد .. سأتركك الآن .. نلتقي بعد أيام ؛ لنرتب للقاء مع أبي الملك أو نؤجله

حتى تتحسن صحته .. فهو عليل هذه الأيام .. فأبي اتخذ العديد من السرايا طمعا بالولد فأمي سرية يا عمر بكر مثل أمك ثم اعتقت .. وشمس هذه أنا لا أعرفها لأني لم أكن حية ترزق ، كانت قبل ظهورنا للدنيا

ـ نعم ، ولدتني قبل خمس وثلاثين سنة ..كم بيننا ؟

– مضى من عمري عشرون ربيعا

– أزيد عنك بخمس عشرة سنة ، ولست طالبا لملك وحقوقا ملكية ، وسأبقى أعيش مغمورا إنما صرحت بالحقيقة لأعرف لماذا ألقت أمي سرها عند موتها ؟! أرادت أن أعرف أبي وعشيرتي وهل أحست أني قد أكون ذا نفع لأبي أمام الموت ؟! أحبت أن أعرف ابن من أنا ، لم تستطع إخفاء هذه الحقيقة الكبيرة ، لم أصدق ذاك يومها .. لماذا نطقت بهذا السر ؟! كنت أظن أنني ابن سيد من الأسياد .. من هو ؟! كعبد لا يهمني الجواب .. فالجارية يتقاذفها الأسياد لقضاء شهواتهم وأوطارهم ، ثم تباع تهدى .. فلا يفكر العبد بمن هو أبوه ؟ ولم ير أباه ، ولم يتعرف عليه الأب ما دامت أمه أمة تتنقل بين الأسياد لحسنها .

– حق ما تقول ؛ لكنها قالت من أبوك ؟! وذكرت قصة الشاعر الذي نزل ضيفا على ابن العامر الملك ونال جائزته.

ـ نعم ، ولما سألتها عن سبب صمتها الطويل ، قالت : حاولت نسيان ذلك كل هذه السنوات وأن تعيش كسائر الخلق.

– ألم تتزوج أيها الشجاع ؟

– ملكت جارية كسبتها في إحدى المعارك ، ثم اختفت ، ولم ابحث عنها أو خطفت لست أعلم.

– ألك أخوة من أمك ؟

– لا ، كان اتصال الرجل بأمي قليل فهي جارية من عشرات الإماء .. فالشاعر الذي وهبت لها لم يعاشرها قط كما قالت لي .. وهو الذي أكد لأمي أنها حملت بي من الملك .. ربما من أجل ذلك

لم يقربها وباعها بعد أن هويها .. فهو شاعر متجول على الملوك سيجد غيرها وغيرها.

قالت : سنجد حلا لهذه المعضلة أيها الشجاع .. ويسرني جداً أن أجد لي أخا بعد موت أخي الوحيد

- أرجو ذلك ، وكما قلت لست طالبا لملك وحقوقا ملكية .. أتأكد من نسبي وسأبقى مغمورا راعيا للخيل وابن جارية من جواري الملك

قالت بعطف : إذا ثبت النسب سيسر والدي ، وسيفرح وهو في هذه السن أن يجد ابنا ذكرا حتى ولو من جارية ؛ فإذا أثبتنا ذلك ، فسيكون أمرا عظيما لنا .. والإثبات مهم من أجل القبيلة والبلاد .

- نعم ، هذا حق ..أترين أننا سنجد حلا؟!

قالت بحماس ظاهر : بالتأكيد .. الله أراد ذلك.. فسيسهل الأمر علينا .. وحتى لو لم نستطع إثبات النسب أيها الشجاع ستكون من المقربين للأميرة هند

- ولكن الأميرة السعيدة ستجد لها بعلا ذات يوم .

- وسأجد للفارس الشجاع عروسا تليق به .. اصبر أيها الشاب اصبر

- سأصبر يا مولاتي سأصبر

- أيام ونلتقي .. فنحن صرنا أكثر من الأخوة .. لولا المهمة الملقاة على عاتقك لصحبتك إلى القصر .. شكرًا على قتلك لعفريت لقد كان يد حفص وشيطانه يا عمر بكر.

- نعم ، أضعفت الأمير بسفك دمه .



الجارية شمس

دخلت الأميرة القصر فارتبكت عندما اخبرها قيم القصر أن والدها طلبها أكثر من مرة ، فهرعت إليه مسرعة بعدما غيرت ثيابها ، دخلت الحجرة الملكية كان والدها مستلقيا على سريره وبجواره أمها وبعض الخدم ، فقبلته من رأسه ، وسمعت خادم أبيها يقول للملك : الأميرة يا مولاي الملك !

فتح عينه بقوة وقال: هند حبيبتي هند لم تذهبي للديوان ارسلوا حاجبا

قالت مطمئنة الوالد : كنت في الديوان قبل قليل .. عملت جولة تفقدية في السوق الكبير .. علمت أن بعض الأشياء تباع بسعر مرتفع .. لا أحب ذلك التلاعب .. وأنا بين يديك .. بأس ويزول عنك .. أراك الطبيب هذا الصباح ؟

قال بضعف ظاهر : أحس أن الموت يقترب يا بنية ، يجب أن تكوني ملكة قبل موتي ، حتى لا ينازعك أحد التاج الملكي .. أنت بقية السلالة حتى يكبر أبناء أسد .. هناك متربصون ما زلت أعتقد أن أسدا قتل لتغيير الحكم والسلالة الملكية .. فأنت ستكونين أول ملكة تحكم في بلادنا

وأيد السادة الحاضرون كلام الملك الواهن ، فبعد صمتهم قالت: أمهلوني بضعة أيام أيها السادة الكرام أنا لا اعتراض عندي على اعتلاء سدة العرش ؛ وكأنني ملكة خلال العام الفائت .. وكنت مقدمة الثأر على التتويج الرسمي .. لا يجب أن يذهب دم أخي هدرا أو صلحا على القاتل أن يقدم للقضاء والقصاص .

قال أحد الأمراء: سيحصل هذا عاجلا أم آجلا أيتها الأميرة ، عندما يقبض عليه سيقدم للقاضي دون تردد وينال الحكم العادل

- أتسمحون لي بخلوة مع مولاي الملك

انسحب القوم رويدا رويدا فلما خلت الحجرة اعتدل الوالد بمساعدتها جالسا : ما الخطب أيها الأميرة؟!

دخلت مباشرة في قضية عمر بكر فسألت : هل تعرف جارية قبل سنين طويلة اسمها شمس

قبل خمس وثلاثين سنة ؟

- يا إلهي عهد بعيد ! ثم فاجأ الأميرة قائلا: وهل أنساها كانت من أعز الجواري في القصر؟!

- ولماذا وهبتها لأحد الشعراء؟!

تنهد وقال متعجبا : آه ! ومن قال لك هذه القصة البعيدة ؟! لولا معزة تلك الجارية وذكرياتي معها لنسيتها ، ونسيت ذاك الشاعر .. إنها قصة قبل أن تري نور الشمس ونور الحياة .

- لماذا أهديتها لذاك الشاعر وهي غالية على قلبك واتخذتها سرية ؟

قال بدهشة : أعجب لمعرفتك بتلك القصة التي لا أذكر أن أحدا تحدث بها أمامي منذ سنين مضت .. السبب أنها أغضبتني تلك الأيام ، وكان الشاعر ضيفنا ، فتمادت في إثارة غضبي ، وحذرتها من وهبها للشاعر ، فلم تصدق ، ففعلتها ، تحدت غضبي .. كان الشاعر بقسام كان له صيت تلك الأيام ، وأظنه هلك ، فله عشرات السنين لم يقدم إلينا .

قالت بصراحة : أيمكن أن تكون تلك الجارية حملت منك ؟!

ظل صامتا مندهشا من الاستفهام ، ولما ظلت تنتظر جوابا قال: ما الخطب؟!

- أجب وستعرف الخطب يا والدي العزيز

قال بحيرة : لقد عشقتها كغيرها من الإماء ، واتخذتها كما قلت سرية وأنام معها ، لكن وهي عندي لم تحمل مني .. فقد عاشرتها أكثر من خمس سنوات ، ولم يحدث منها حمل.

- وهل تصدق أنها بعدما غادرت القصر كانت حاملا منك ؟

فقال بنفس الاستغراب : شمس وكيف عرفت هذا ؟!

- جاءني رجل قالت له وهي تحتضر على فراش الموت أن الملك هشام بن عامر والدك ، وأنه منذ وهبها للشاعر لم يمسها أحد خلال تلك الفترة .. أي رجل .. الشاعر لما عرف بحملها قال إنك حاملة من الملك وباعها في مدينة ، واستقرت عند ملاك كبير اسمه عمار ..أتكذب الجارية عند الموت يا أبي؟!

ظل الملك في حالة صمت وذهول ، ثم التقط أنفاسه : وأنت قابلت هذا الإنسان الذي يزعم أنه

من صلبي أهو ذكر؟!

– نعم ، شاب قابلته وجالسته قبل دخولي إليك.. عندما كان ابن خمس عشرة سنة عندما ماتت وقالت له هذا السر خطير . وقصت عليه قصتها مع عمر بكر ، وأنه جاء يتحقق من نسبه بعد هذه السنين من التردد والشك

– أيمكن مقابلة هذا الشاب أيتها الأميرة؟!

– سأرتب أن تقابله متنكرا يا أبي .. لا أحد يعرف أنه موجود في المدينة لأمر خطير بشأن مطاردة حفص الغادر .

وعادت تروي قصة تعقبه لحفص في أروى وسادة وقتله لعفريت شريك حفص في الجريمة وتردده في قتل حفص ؛ لأنه يراه ابن عم له .. فالقاضي أولى بإعدامه للرحم بينهم ، ولا يتحمل دمه أمام العشيرة

– شجاع هذا الشاب .. هل يكون مني يا هند ؟!

– سيأتيك بهيئة صياد بحري

قال : نعم ، يجب أن أراه .. أنا طبت من الوهن .. جميل أن يكون أخ لك يا هند ! قلبي سيعرف الحق عندما أنظر في وجهه .. فالقلب قلما يخطئ أيتها الأميرة .

رتبت الأميرة لزيارة الصياد البحري لقصر الملك ، ولما هيأت الأمور أدخلته على والدها في خلوة خاصة ، فلما رآه الملك قال: أنت ابن شمس ؟!

– نعم ، يا مولاي أخبرتني أمي أنها كانت جارية لك في هذا القصر ، وتسريت بها ، وأنها كانت معززة عندك ، ولها مكان في قلبك ، وأنك وهبتها لأحد الشعراء

عادت الذكريات للملك وقال : أجل كانت جارية غالية على قلبي ، وأسخطتني تلك الأيام ولم تعبأ بتهديدي لها بوهبها للشاعر ، فتحدتني فأعطيتها للشاعر ، وندمت ؛ ولكنها عطية ملك

– نعم ، قالت ذلك وهي تموت .. كنت شابا صغيرا ، وإن اعتقنا سيد المزرعة ؛ لكنّا كنا خدما وعبيدا ، قالت يا مولاي حاولت نسيان هذه الحقيقة ؛ ولكن ظل خيالك يأتيها في المنام واليقظة

إلى متى تظلين تكتمين سر الصبي ؟!

قال الملك معترفا : هل تعلم أن قلبي اضطرب عليّ منذ دخلت باب الحجرة .. اقترب دعني أضمك إلى صدري .

احتضنه الملك ، وداعب شعره ، وبكى ، ولما خفت ثورة الحنان قال : أحس أنك مني .. قلبي يقول هذا يا هند .. هلا احتضنت أختك يا عمر بكر .

تطلع الشابان ببعض ، وفعلا ذلك فقال الملك: أتحركت الشهوة بينكما ؟

فهما مغزى طلب الملك قال الشاب: أنا اعتبرتها أختي منذ جئت إليكم يا مولاي

قال الملك : يا عمر بكر صف لي أمك التي أعرفها.

ذكر الشاب صفة أمه الخلقية . فصاح الملك والدموع تنسكب على خديه : إنها شمس التي عرفتها يا هند .. كيف سنقنع القوم بأنك من صلبي يا بني ؟

- اعترافك أن هذا ممكن ، وأنه يمكن أن تلد شمس منك يكفيني هذا ..لا أريد حقوقا ولا مناصب .. سأبقى حاميا لهند وسائس الخيل .. ولا داعي ليعرف أهل المدينة يا مولاي .

قال الملك معترضا : أنت الآن ابن ملك ، وعلى أهل المدينة أن يعرفوا هذا

- هل أرحل ؟!

قال دهشا : ترحل! لا ، سأجد طريقة يعرف الناس أنك ابن ملك ومن صلبي ؛ لكن سأصرف عنك لقب الملك ، وستعين هند ملكة حتى يكبر ابن أسد ؛ ليستقر الحكم في أسرتنا يا عمر بكر

عاد عمر بكر يقبل رأس الملك وقال باكيا: هذا لحظة من لحظات السعادة يا مولاي!

- هند ما تقولين؟!

قالت بحب واضح لهما : إنه أخي . وحدثته عن اضطراب قلبها له كلما تراه في حظيرة الخيل

أشهر الوزير الأكبر لمدينة نجوان تنازل الملك هشام عن كرسي الملك لصالح ابنته هند على أن تبقى ملكة البلاد حتى يصبح هيثم ابن المغدور أسد في عمر تؤهله لقيادة البلاد والتربع على

كرسي وعرش الأجداد من عدة قرون ، وتعين يوم للاحتفال بالتتويج الملكي للأميرة هند بنت هشام.

وانشغل الناس بعد هذا البيان بمن سيكون زوجا للملكة ، ولما علمت الأميرة بهذا النبأ أعلنت أنها تؤجل الاقتران بأي رجل حتى يبلغ الأمير هيثم سن العقل ويستلم الملك نيابة عنها ، وفعلت هذا حتى لا يطمع أمير أو قائد بالزواج منها.

وكان من ضمن المقربين من الملكة الجديدة الفارس عمر بكر الذي صار مرافقا دائماً لها ، مما أثار ريب ودهشة للأمراء من سائس خيل هرب ، ثم عاد ؛ ليكون مرافقا وحارسا للأميرة ، من عبد رقيق ابتاعه أهل القصر من سوق النخاسين إلى هذه المرتبة .

ولما توجت هند ملكة رتبت الملكة الجديدة مع عمر بكر ووالدها أن يجلبوا قائفا من البادية ليثبت نسبه للملك أم لا ، وهذا أمر مقبول في تلك الأزمن ، فلما وصل القائف المدينة رحبت به الملكة هند ، وأدخل على الملك دون أن يعرف أنه شخص الملك ، وعاينه وعاين عمر بكر بحضور الملكة والوزير وبعض السادة الذين اطلعوا على جلية الأمر ، فحص الرجل الأقدام والأيدي والمناكب وبعد تأمل دقيق قال ـ وأشار للشاب ـ : هذا الرجل من هذا الرجل أيها الأسياد . وذكر علامات تجمع بينهما .. ففرح الملك ، وتعانق مع ابنه وقال : ما أعظم الرب !

وعانقت الملكة أخاها ، وهنأ الوزير الملك والأمير بهذا النسب ، وجمع الملك المخلوع أعيان المدينة وتكلم القائف بمهمته الكبرى ، وروى الفارس قصة أمه شمس ، وعرف أهل المدينة السر والعلاقة الخاصة بين الملكة والفارس عمر بكر

وكان إحضار القائف من البادية ذكاء من الملك والملكة ، فهم مقتنعون بأن الفارس ابن الملك من ظروف وأحداث القصة ، لا يمكن أن يأتي رجل بعد خمس وثلاثين سنة يزعم أنه ابن ملك بدون معلومات تفصيلية.

واخبر الملك الرعية بقبول بنوة الفارس عمر بكر ، وأنه من صلبه يرث ما ترث هند ، وإنما حرمه التربع على العرش حتى لا يطمع طامع بالملك ، ويشكك في نسب الفارس عمر بكر ، وأنه

يستعد لتزويجه من كريمات وبنات الأمراء ، وطلب من الوزير ترتيب مثل هذا الزواج.

وقدمت الهداية من الأسياد للأمير الجديد ، وأعطي القائف هداياه من الأنعام ، وغادر البلاد إلى باديته بعد انتهائه من المهمة الدقيقة مع إبله ، وعلمنا وعلم الناس من هو عمر بكر ، واستمر مرافقا وحارسا للملكة عندما تذهب للديوان في الصباح ، ويعود للقصر معها عند الظهيرة ، وكانا يقضيان المساء عند الملك المريض.

وكانت الملكة تحادث والدها عن أخبار المملكة فقال لها: أين أخوك؟! كانت تلمس تعلق والدها القوي بابنه وترى السعادة عليه كلما يجالسه .

- ذهب لحجرته يا مولاي الملك

قال : بعد هذا الذي فعلناه أتشكين بأخوته لك؟!

- أبدا يا أبي ! أدرك وأعي بأنه أخي فعلا

قال : كيف ؟

- فكلام القائف نفى أي شك يراود النفس ، والرجل لو كان محتالا وغشاشا لانكشف أمره لسنا بهذا الغباء ، فهذا فعل خطر ، ولماذا يغامر هذه المخاطرة ؟! وماذا ستعود عليه به هذه المخاطرة؟ وهو كما صرح قضى عشرين سنة مترددا في كشف الحقيقة .. وقد ازهق روح عفريت دون تردد وتوقف عن قتل ابن عمنا غيلة للرحم والدم وتركه للقاضي .. وهذا الموقف يؤكد صلته بنا يا أبي ما الذي في ذهنك؟

قال : قصة شمس يمكن لأي شخص أن يعرفها من شمس نفسها ؛ لكنه وصف أمه خير وصف .. والقائف أزال أي ريب في قلبي .

- الحمد لله .. حسبت أن أحدهم أثار في قلبك ريبا

قال : يحاول بعضهم ذلك .. لهذا تكلمت معك بهذه الهواجس

- لو كان محتالا لقتل حفصا ، وتزوج مني يا أبي .. لا تنسى هذا أيضاً.

- معك حق ، وما احتاج للقرابة التي بيننا .. أنا لا أريد بعد موتي أن يطعن أحد بنسبه .

قالت : لقد تكلم عن الأخوة التي بيننا بعد مطاردة حفص وعفريت ، ولو لم تكن حقيقة عنده لنسيها ، بل لما أعجبت به كفتاة ورجل شجاع ، تحدث عن الأخوة ، ولم يتلهف لمثل هذا زواج وغرام

- رفض الزواج

قالت : أجل يا أبي قبل أن يبادر بمطاردة حفص الغادر .. قال أطيعك ، واعمل على الانتقام بلا زواج.

- بارك الله فيك يا بنية اطمئن قلبي أكثر بعد هذا اللقاء .. ماذا ستفعلون بشأن القاتل؟!

- سيختفي ويذهب إلى سادة ؛ لعله يتمكن من أسره ونقله إلا هنا ليقف أمام القاضي .

قال قلقا : فهل نسمح له بالذهاب بعد أن صار ابنا؟!

- يقول الخطر عليه هنا أو في مغامرة .. والموت واحد

قال : إنه شجاع .. رحمك الله يا شمس حرمتيني كل هذه السنين من فلذة كبدي .. لقد فتنت بها يا هند عندما أُتي بها هذا القصر لأول مرة .. كانت حبيبة على النفس وكنت شابا وهي حسناء من جميلات القصر .. الأمر كله لله رب العالمين

- نعم ، كله لله رب العالمين .

اختفاء حفص

سافر الأمير عمر بكر خفية إلى سادة لأسر الأمير حفص والانتهاء منه ، وتفاجأ أن بيته مسكون بعائلة أخرى ، وأخبره المستأجر أنه استأجره من مالك البيت ، فقابله قائلا: ألم أدفع لك أجرة شهور ثلاثة ، وقلت لك إني تاجر وأسافر مع السفن .. أعطني المال.

فقال المؤجر : غلب على ظني أيها السيد الكريم أن غيبتك قد تطول أكثر من ذلك ، قلت استفيد من تأجيره قبل أن ترجع ، ولم أجد في البيت إلا فراشك ومصباحك .. في الحي بيت فارغ هجرته المرأة بعد مقتل صاحبها لعلك تذكر قصة تلك الجريمة

تظاهر جهله باختفائهم فقال : رحلوا ! رحلت تلك الأرملة .

- بعد سفرك بأسابيع أعطوني المفتاح

- لقد كان مع المرأة رجل آخر ، ثم جاءت امرأتان زائرتان للعيش معهم.

- لم أر الرجل الآخر عندما تفقدت البيت .. واستلمت أنا منها العقار .. أو أنه هو الذي غدر بزوج المرأة واختفى

تظاهر عمر بكر بالاهتمام بالأرملة فقال : أين سكنت الأرملة المسكينة كنت أريد ...؟ وسكت فقال الرجل : جاء رجل بحار وأخذهم ، وترك الأرملة وحدها ، وبعدها جاءتني هكذا رددت أمامي ثم قالت لي: سأرحل من بيتك إلى بيت في قلب المدينة .. فهاك مفتاحك ودفعت الأجرة المتبقية .. هل تأخذ بيتها بدلا من بيتك القديم ؟

- سأفكر بذلك ، سأعود لك بعد أيام ، معي حاجات تركتها في الخان الحصان الأحمر حيث ميناء سادة .. كنت أفكر بالزواج منها من أرملة الرجل المقتول.

- حقا ! لكني لاحظت أنها حامل من زوجها المقتول ، لما رأيتها كانت بطنها منفوخة ، واعتقدت أنها على وشك ولادة ، وإذا التقيت بها فكيف أخبرك بمكانها ما دمت تنوي الستر عليها ، وتربي ابنها أم تريد غيرها ؟ فكما أؤجر بيوتا ادبر زوجات .

قال عمر بكر مفكرا : سأعود إليك بعد حين ، ونتسامر في ذلك .. هذه الأيام أنا في خان الحصان

الأحمر حيث المرفأ البحري.

- أعرفه ، ومن لا يعرفه من أهالي سادة ؟!

- جميل! إذا قابلت السيدة المسكينة قل لها جارك البراق سأل عنها .. وخلال أيام ستجدني فيه فأنا على وشك السفر في تجارة أخرى هذه حياتنا .. فالتوابل سلعة يحبها الناس خاصة أهل المدن الكبيرة ، وتجد عليها طلبا دائماً

- أعرف هذا ! أعرف هذا! السمسار يعرف كل شيء

غادره عمر بكر إلى الخان القابع قرب ميناء سادة الكبير ، وكان يتذكر أنه لم ير الأمير حفصا منذ جاء إلى سادة خلفهم ، ولم يره في جنازة عفريت إلا اذا كان متنكرا بصورة خفية جداً ، وحتى لما جلس يعزيها عند القبر لم يظهر ، لقد حضر الجنازة بحكم الجوار والشفقة على المرأة كما زعم وذكر أن عدنان الربان دخل البيت ماذا جاء يفعل ومعه النساء ؟!

قضى شهرا في المدينة دون أن يصطدم بالمرأة ولا بالأمير ولا حتى بعدنان الربان ، وذات يوم بينما هو يمشى في الميناء أمسك به رجل، فالتفت إليه ؛ فإذا هو مؤجر البيوت في ذلك الحي فقال: أنت هنا !

رحب به وقال: نعم ، وصلت مدينة أروى وعدت

- لم تعد كما وعدت .. توقعت أنك سافرت ، لقد عادت المرأة للحياة في الحي بعدما ولدت طفلا ذكرا .. وحدثتها برغبتك الزواج منها.

- وماذا ردت ؟!

قال السمسار : قالت لو كلمني بذلك تلك الأيام لرفضته ، كنت حزينة على وفاة سيدي .. أما الأيام هذه فأقبله أصبحت وحيدة .. سألتها عن ذلك الرجل الغامض ، فقالت: منذ مقتل زوجي لم أعد أراه ، كان شريكنا في البيت ، وجاءت امرأته وجاريتها من بلادها .. ولما اختفى عادت المرأة والجارية لنجوان

- أهي مستأجرة عندك ؟

قال الرجل : نعم ، في أحد البيوت .. وأنا أقول هذا الكلام فإذا ما زلت ترغب بنكاحها سأسعى بينكما .

- حسنا سأبقى مدة يومين ، رتب لي لقاء معها غداً مساء .. سأسافر في حمولة إلى مدينة أروى غداً أراك عند مدخل الحي ، ونذهب سوية إليها

قال : حسن أنا في انتظارك أيها التاجر السخي

- على بركة الله .. قابلها اليوم .. وغدا ترد الخبر النهائي .. وإذا تم الاتفاق بيننا بعد سفرة أروى نحتفل بالزواج ..أهي من هذه المدينة ؟

- نعم ، وهي تعرف المدينة من زمن بعيد قبل أن تعيش في نجوان .. هي جارية تباع وتشترى أعتقت من زمن يسير



ذهب عمر بكر والسيد خانتوش لمقابلة المرأة الأرملة ـ خادمة الأميرة هند قبل مقتل الأمير أسد ـ رحبت بهما وذكرت الرجل الذي حضر جنازة زوجها عفريت ، وكان يجاورهم في الحي فقالت: أعلمني السيد خانتوش برحيلك في تجارة ، ثم عودتك .

فعلق البراق قائلا: نحن هكذا .. سفر تلو سفر .. نترك غلماننا يبيعون في دكاكيننا .. ونتنقل بين موانئ الدنيا ..واخبرني الأخ أنكم تشكون في الرجل الذي كان يعيش معكم بأنه غدر بزوجك المسكين وخانكم ، وهرب من المدينة .. أعرفت الشرطة شيئا عن القاتل ؟

قالت بضيق ورفعت صوتها قائلة : الرجل الذي كان معنا صديقنا وصاحبنا ، ليس له علاقة بقتل زوجي ، كان في انتظار زوجته وخادمته ليستقر في بيت مثلنا ، فلما جاءتا صار الحادث الغادر .. والشرطة لم تعرف شيئا ولن تعرف .. والقتل الغدر له قصة ، لم تكن في هذه البلاد رحم الله الأموات

فتظاهر بعدم الحاجة لسماعها قائلا : ما دام هناك قصة فلا داعي لسماعها .. فالقصص لا تنته فلكل منا قصة وقصص .

فقال خانتوش بفضول لدى البشر معروف: أنت تعرفين قاتل زوجك .. لماذا لم تخبري الشرطة؟!

قالت لتشبع فضول السمسار: أنا أعرف الجهة التي وراء الجريمة ؛ لكنني لا أعرف الفاعل وجها لوجه .. والناس مع الوقت تتكلم .. وزوجي لم يقتل على أيدي لصوص كما تخبر الشرطة .. قتله عدو حاقد .. وقد ترك في رحمي طفلا ولدته من عهد قريب سيثأر له عندما يصبح رجلا لابد أن ينتقم الرجل لأبيه .

فلما صمتت وقد سيطر عليها الحقد والغضب ، قال البراق بعد أن أكد أن الابن سر أبيه : حدثك السيد خانتوش عن رغبتي بالزواج منك ، لقد وقعت من نفسي موقعا حسنا ، والسيد اعلمني أنك كنت في حالة حمل وانتظرت حتى تلدين ، ولما جئت الحي بعد سفر طويل وجدت السيد مؤجرا لبيتي

- أنت تسكن في الخان كما قال خانتوش ؟

قال : أنا هذه الأيام تاجر جوال أنقل التوابل بين المدن ، ولي شركاء في سادة ، وفي أروى حتى أنني نقلت إلى نجوان الجهة الأخرى من البحر ثيابا ، وقابلت عددا من تجارها وأصحاب السفن

- أتذهب إلى نجوان؟

قال دون تردد : مرات معدودة ، إنها على الساحل الجنوبي لبحرنا هذا . ولما لاحظ لهفتها لنجوان قال ليستدرجها في الكلام عن نجوان :أنا أعد سفرة قريبا لنجوان .. ألك أقارب فيها تودين إرسال شيء إليهم رسالة مال هدية ؟

بعد صمت وربما تفكير قالت: لي أخت تعيش هناك .. أنا يا سيدي البراق كنت جارية ، واعتقت من عهد قريب ، وتزوجت من تعرف قتله وشاركتني دفنه سيدي عزور .. وأنا أعرف نجوان جيدا عشت فيها ردحا من الزمن ، وقد وعيت على نفسي هنا في سادة

فقال ليزيدها ثقة بشخصه : أنا ولدت في بلاد النملة ، ثم عرفت البحر والمدن البحرية الكبيرة

والتجارة والسفر ، ولي في كل مدينة متجر صغير خاصة سادة وأروى وغيرها ، وتزوجت كذا مرة ، ولم يولد لي لليوم ، رأيت حزنك الشديد ولوعتك على عزور يوم نقل لدار العسس وعرفت أنك جارتي صدف رؤيتي لك أكثر من مرة ، فحزنت لحزنك ، ووقع في نفسي الزواج منك ، قلت بعد انتهاء الحزن ولا شيء يدوم ، وحدثت خانتوش بهذا الأمر فوعد بالتوسط بيننا .. وها هو يفعل

وتكلم خانتوش مشجعا الطرفين فقالت: أنا وحيدة في الدنيا ، وأنا بحاجة لرجل بجانبي بعد ترملي ؛ ولكنك رجل جوال ؛ كأنني لم أتزوج .. وربما تعجبك أخرى في مدينة فتستقر عندها لزمن .. فكيف يكون هذا الزواج ؟ وأنا لا أهل لي ، ولا أعتقد أنك ستتخلى عن السفر أو تصحبني في سفراتك

قال مبديا صعوبة ذلك : هذا صعب ؛لأن رجال السفينة كلهم رجال ؛ ولكن كلما آتي هنا نعيش سوية وأنفق عليك ما دمت على ذمتي .. أنا أحيانا أمكث أشهرا قبل رحلة جديدة .. لن اضغط عليك لتقبليني .. بعد أسبوع أو بعد عودتي من أروى أسمع قرارك النهائي.

- جيد هذا سيد حمزة البراق ..نعم ، افكر بذلك جيدا .. فهمت أن على ذمتك نساء آخر

- أنا أتسرى بالجواري .. خيانة الحرة صعبة على النفس وعلى أهلها .. فالسرية إذا زنت مع السلامة .. فأنا أعجبت بك وتشجعت لنكاحك ؛ لأن أصلك جارية .. فإما أن تحترم الجارية نفسها أو يفتح الله بيننا ..فالتعامل مع الجواري أسهل من بنات السادة

- نعم ، أنا جارية وأخبرت خانتوش بذلك ، وعشت في نجوان أكثر سنوات العمر كجارية ، ثم هجرتها للعيش مع زوجي عزور .. وهو كان رقيقا وحرر مثلي .. جئنا سادة ؛ ولكن لم تدم لنا الحياة .. قتلوه ، وبقيت لي أخت هناك .. وعندما تسافر إلى نجوان سأكتب لها رسالة .. فهي الآن بشوق لي ، لي أكثر من سنة بعيد عنها .. سنة ونصف

قال بحماس : سأكون في خدمتك يا سيدتي .. لو أنت سرية لكان زواجنا أسهل .. والسيد خانتوش سيكون صديقنا ويقدم لنا كل مساعدة حتى أعود .. أتحتاجين مالا ؟ لديّ الكثير

قالت بعزة نفس أدهشته : لا يا سيدي ، فقد ترك لي زوجي مالا كثيرا .. وسيدي الآخر ـ زوج المرأة التي جاءت لتعيش معه هنا ـ ترك الكثير قبل الاختفاء أو الهرب .. فقد خشي هو الآخر على حياته من الأعداء .. ففضل الهرب ، ويمكنني أن أعيش بكرامة .. وأنا أفكر بشراء بيت .. والسيد خانتوش سيساعدني كما وعد بذلك

وتكلم خانتوش عن شراء البيت ، وأنه يبحث عن بيت مناسب لها ، فقال عمر بكر: أنا توقعت أن يتزوجك صاحب زوجك بعد ترملك ويضمك لزوجه ، خاصة أنكم تعيشون سوية .

قالت :لا يستطيع الزواج من جارية أو امرأة كانت جارية .. فهو سيد من سادة بلاده ، ثم جار الزمان عليه بالنفي .. وهو الآن قد اختفى دون أهل وأقارب .. وتخلى عن كل شيء حتى زوجته التي تعيش معه أعادها لبلاده .. إنه مرعوب من عدونا الخفي

- يظهر أنكم تحملون سرا خطيرا يا سيدة نورا .. هارب من أمر جلل.. نلتقي أيتها السيدة



هل شكت المرأة بأني من نجوان ؟ لقد خدمت في قصر الملك كعين لحفص وعفريت ،لا ، إنما تآمرت معهم هياما بعفريت ، وخانت القصر طمعا بالنكاح منه ، وتعرف سادة قبل أن تباع في نجوان ، من شقيقتها ؟ جارية من ؟

قضى أسبوعين يراقبها عسى أن تدله عن مكان حفص ، ثم تفاجأ بها تنكح خانتوش وكيل تأجير البيوت في السوق ، فقال : نعم ، إنها ذكية ، تريد زوجا مستقرا ، ووقع خانتوش في لصيد ولما رأى ذلك أدرك أنها أنهت حياتها مع الأمير حفص ، وفعل كما تحدثت الجارية التخلي عن كل شيء ليحفظ حياته ، وصعب الوصول إليه إذا كان هذا الحدث صحيحا ، فقال وهو يغادر سادة: إن السر الآن عند عدنان ، ولم أر عدنان منذ جئت سادة ، لابد من رجل حاذق أدسه بينهم في البحر .. رجل يسمع أكثر مما يتكلم .. سيف الشيخ إنه يخدم في قصر ابن عم الملكة هند .. عليّ أن أجد هذا الرجل الحاذق الماهر أو أذهب أنا بنفسي ، وذلك بعد التشاور مع مولاتي الملكة

دخل نجوان متنكرا كعادته ، ودخل حجرته في القصر الملكي كابن للملك وأخ للملكة هند ، لم يعد السائس عمر بكر أمسى الأمير عمر بكر ، لما رجعت الملكة للقصر ذهبت إليه لتسمع الأنباء التي أتى بها ، فقص عليها حواراته مع الجارية نورا فقالت: إنها الخائنة الأولى ؛ لكنها جارية تشترى وتباع بالمال .. نعم ، كانت من جواري الأمير أسد ، وسمعنا بعلاقتها وحبها لعفريت ، لم نكترث لهذا الحب .. إنها إنسان ؛ ولكن هل يعقل أن حفصا هام على وجهه حفاظا على روحه ؟!

- اليأس .. هذا ما وصلت إليه منها ، ولما تزوجت ذاك الرجل لم يبق لديّ شك بأن الرجل ابتعد عنها ، وأنها أصبحت خطرا على شخصه ؛ لكن هل تخلى عن العائلة والبلاد ؟هذا ستوضحه وتبينه الأيام

- كيف العمل؟

- علينا أن ندس جواري وغلمانا فطنا في قصر عمنا هاشم ، ونتابع الربان عدنان .. أن يعمل معه رجل فطن كما فعلت في بداية الرحلة والمهمة .. فقد كان بريد القوم إلى حفص الهارب وإن تستغنين عن خدماتي لحين من الزمن فأنا على استعداد للعودة إليهم بهيئة جديدة غير هيئة العتال المسكين

- أعندك أفكار أخرى؟

- الأفكار لا تنتهي يا مولاتي

- كيف ؟

- تطلبين من عمك هاشم تسليم ابنه أو مغادرة البلاد مع أولاده كلهم ..النفي

- وإذا وافقوا على النفي والمغادرة.

- لابد من الاستعانة بالعيون ؛ ولعلهم إذا رحلوا أن يعود إليهم حفص المختفي

- أيقبل الملك بهذا الفعل؟!

- الدم حاضر بيننا وبينهم اليوم

- نعم ، عليّ أن أتشاور مع الوزير الأكبر وقائد الجيش وأمير العسس في هذا النفي واستشارة الملك أبي أولا

- الملك منهك ومريض يا أخية ، فقد يؤلمه هذا التصرف ، ويقول لا نأخذ الآخرين بجريرة الغادر.

قالت بقلق من النتيجة : أو نسكت عن الدم

- هذه النتيجة التي يسعون لها من أول أيام القتل والخيانة الصلح والدية

- نحتمل المر حتى يموت الملك .. فأبي في رمقه الأخير .. الكبر وموت أسد هداه وزادا مرضه وضعفه.

- فلنذهب إليه

تركا حجرة الأمير فادخلهم الحاجب غرفة نوم الملك ، لم يعد الرجل يقدر على مفارقة الفراش إلا بصعوبة ومساعدة الخدم ، قبلت الملكة والدها ، وفعل الأمير مثلها ، وقال الملك بصوت واهن : مرحباً بالأمير ..الحمد لله على العودة سالما .. عسى أن لا تفارقني هذه الأيام أجلي يدنو يا ولدي

- نعم ، عدت يا أبي

أشار لهم بالجلوس والبقاء ، وكان خال الملكة موجودا شقيق أمها ، وكان رقيقا ، ثم تحرر بزواج أخته من الملك بعد أن كانت سرية ، ولما ولدت له أعتقها ، وظل زوجا لها : كيف أنت يا أمير عمر بكر ؛ لعلك وفقت في سفرتك هذه؟

- ليس كثيرا سيدي الأمير

- أصحيح أنك تعشق السفر والصيد في البحر؟!

- نعم ، ولكن هذه المرة لم نحقق الكثير منه أيها الأمير

- أتصيدون الأسماك الضخمة؟

- وهذا ما يصعب الأمور يا سيدي الأمير

وكان عمر بكر قبل أن يأتي نجوان عندما أسر قد عمل في الصيد البحري خاصة الأسماك الكبيرة ؛ ليستطيع شراء حريته ـ كما أشرنا إلى ذلك آنفا ـ وهي مهمة قاسية ومخاطرة صعبة ، قد تغرق الأسماك الكبيرة القوارب والمراكب ، وقد يهلك الصياد في انتشاله السمكة الضخمة ثم خرجت الملكة يتبعها الأمير للغداء على مائدة الملكة كما أعلن الطاهي ، وتناولا الطعام وتحدثا عن الانتقام ، فقالت: هذا الربان عدنان لو حبسناه بتهمة ما وضغطنا ألا يتكلم ؟

فقال بعد نظر : الإكراه فعل سيء يا مولاتي .. وقد يكذب بذكر مكان بعيد .. فسرق المعلومات أفضل .. فهي تكون في الغالب صواب ؛ لأنه يقولها القائل عن حسن نية ، وفي حالة أمن .. جاسوس ذكي ومخلص نحصل على الخبر اليقين

– هؤلاء الرجال قلة من أين نأتي بالعين الفطين ؟ أتحسب كل الرجال مثلك ؟! فالذين يحبون المغامرة قليلون نادرون.

فقال مبتسما : ما دمت تشهدين لي بذلك فعليّ أن أقوم أنا بهذه المغامرة

– يكفي ما قمت به ، وأبي يريد بقاءك .. علينا أن نجد هذا المغامر ... بماذا تفكر؟

قال وقد تذكر شخصا قد يقوم بالمهمة : عرفت فارسا في مدينة النملة ذكيا شجاعا وقويا ما رأيك أن أسافر إليه وأكلفه بهذه المهمة ؟

– أهو فارس حقاً ؟

– نعم ، خبرته فهو أفرس مني ، وكان قائدا مهما في جيش المدينة .. وأخطأ في معركة ، فأبعد عن القيادة ، ولخصومة بينه وبين قائد الجيش أيضاً ، فعاد لمزارعه وحقوله ، بل طلب مني ترك الجيش والعمل معه ، ثم أسرت ، وجرى ما رويته لك أثناء الأسر .. إنه فارس محب المغامرات ومطاردة اللصوص والعصابات ، واشتهر بذلك

– ما اسمه؟

– اسمه عثمان بن جليل

– أيقبل بمساعدتنا ؟

- سأعرض عليه المهمة

- وتقبله لي زوجا .. الشرط ما زال قائما

تنهد الفارس وقال بخجل : نسيت هذا أيتها الملكة ! وأنت اليوم ملكة .. سأطلب مساعدته في أسر ذلك الطير فقط

- ذو زوج هو؟

قال ضاحكا :كثير الزواج وكثير الطلاق .. هن يطلبن الطلاق كما كان يقول لي



رحلة إلى النملة

سافر عمر بكر إلى أروى بحرا ، ومنها تابع المسير إلى بلاد النملة حيث ترعرع وشب شابا ، وصلها مع دخول الليل فلجأ إلى خان يقضي فيه ليلته ، وقد عادت به الذكريات إلى حياته هنا وعند منتصف النهار خرج إلى أطراف المدينة حيث المزارع الكبيرة والأملاك الخاصة برجالات الحكم والجيش ، ووصل مزرعة القائد عثمان الذي عمل معه سنوات حتى طرد من قيادة الجيوش ، رآه يجلس أمام القصر ، وحوله الغلمان والجواري ، فلما لمحه عثمان مقبلا عرفه فورا وتذكره ، وكيف ينساه وهو أحد فرسانه أيام العز والفروسية ؟ كانت الدهشة مرسومة على وجه عثمان وقام واقفا بمساعدة الغلمان ، فقد كان معلولا كسيحا مما أحزن الأمير وسقطت دموعه وقال باستغراب وشفقة : ويك! ما أصابك أيها البطل؟

تعانق الرجلان عناق الأحبة : تركتك سليما صحيحا!

ضحك عثمان وعلم أن رفيقه أيام الجيش لا يعلم خبره فقال: كم لنا متباعدان ؟!

– منذ أسرت ، من عشر سنوات أيها القائد الباسل .. ماذا دهاك إنما هي عشر سنوات؟!

قدم مقعد للأمير ولما استقر الجلوس قال: حادث في أحد الجبال على أثره فقدت قوة ساقيّ أيها الصديق .. أنا كلما التقي بفارس من أصحابنا أسأله عنك ، وأتنسم أخبارك عساك وصلت لأهلك

– نعم ، عملت رقيقا حتى دفعت فدية العتق ، ثم ذهبت لأبي واعترف بي منذ عهد قريب

بعد الطعام كما أراد القائد شرح الأمير قصته للقائد فقال : أنت ابن ملك الآن مبارك ما صبوت إليه .. كانت حكايتك غريبة يا أيها الأمير .. أرجو أن تبقى عندي بعض الوقت .. إني بشوق لك وللأخوة الفرسان .. كانت أجمل الأيام عند مقارعة الفرسان والموت !

– سأبقى بضع ليال كنت قاصدك في حاجة كبيرة ؛ لكنك اليوم تضعف عن تحقيقها ، مغامرة كبيرة تحتاج لقوة وعقل أيها القائد . واختصر له قصة مقتل ابن الملك أسد والمطاردة التي قام بها ولما انتهى من السرد قال عثمان: أحسنت بعدم قتله .. هذا دم كان سيبقى بينكم للأبد .. فهم

اليوم أعمامك وعشيرتك ، نعم القضاء هو الصواب .. عندما يقتل قصاصا هو الأحل الأطيب ليتني قوي البنية لمطاردته حتى أقبض عليه أسيرا واسلمه لقاضي بلادكم.

أخذهم الحديث عن أيام المعارك والجراح والخطط ، وكانا ممددين على أسرة في قاعة الطعام الجميلة المزينة بالرسوم والأطعمة والطيور الملونة ، وبعد حين انتقلوا إلى غرفة أجمل منها للاستراحة ، وقدم لها فيها الشراب من العصير والفواكه وأغلبها من مزارع عثمان : جئت يا ابن الملك تطلب عونا من صديق قديم

– جئت لأسد عرفته شامخا ، لكنها المقادير أيها القائد الباسل ما تشير به عليّ الآن؟

قال عثمان : زوجة الغادر عفريت تزوجت بعد موت زوجها ، والأمير حفص ابتعد عنها زاعما لها أنه سيختفي من حياة أهله ونجوان طمعا بحياة دون خوف ومطاردة .. وعجز أهله من التصالح على دم المقتول أسد .. وأنت ترى أنه غادر سادة ونفذ ما تحدث به للجارية .. وعدنان لم يعد يسافر على المركب ..كيف كانت حيلتك؟

– خطتي أو حيلتي أن تكون معهم كبحار صياد تاجر تعيش معهم ، كما عشت بينهم بأي هيئة تتقنها .. وأنا لولا الوقت لتابعت الكيد حتى أصل إليه ؛ لكنني اليوم أصبحت حارسا للملكة وأخا لها ..والأب الهرم يريدني بجواره

– ابشر أيها الرجل الشهم لن أخيب رجاءك

– ويحك لا تكلف نفسك ما لا تطيق

ابتسم عثمان وقال: لديّ عبد محنك أدخره لقضاء الحاجات الخطيرة والكبيرة والجريئة .. أرسلته للمدينة لقضاء بعض الحاجات عند الحاكم والأمراء .. عندما يرجع سأشرح له المهمة التي سيقوم بها وأتخلى عنه بضعة أشهر وحتى سنة

قال الأمير : مقابل ماذا سيخدمني هذا العبد الشجاع؟

– المال ، هو لا يريد الحرية منذ تملكته وهو يخدمني بإخلاص .. مكافأة من المال

– وماذا يفعل بالمال؟!

- هو سيخدمني حتى أموت ، هكذا اتفقنا وبعدها سيصبح حرا ..وأنا أسمح له بجمع المال لنفسه ، فهو شجاع وذكي وهو قادر على العمل حسب خطتك

- أستخدمه سنة ؛ فإذا حقق المراد قبل ذلك رجع إليك بالغنيمة ، وإلينا بحفص ، وبعد السنة إذا لم يوفق سأعيده إليك

قال القائد العاجز : هذا الصواب ، أستغني عنه سنة لأخ صديق .. وهو كحارس لي وشجاع لم نتحدث عن النساء أتزوجت؟!

- كنت كما تعلم أتسرى بالجواري واعتقهن بعد حين

فقال القائد بحزن : وأنا مثلك بعدما يئست من الحرائر عدت للجواري .. فالتحكم فيهن أسهل ؛ لكن خيانتهن أسرع إذا عزمها عبد أسرعت إليه ناسية رجلها .. ولا أمل لي في الولادة

- لم يلدن لك؟

- لم تنجب أي واحدة منهن قبل الحادث وبعده

- وهذه الأملاك لمن ستعود أيها القائد الباسل ؟

ابتسم عثمان وقال : لإخوتي ما زال الخمسة على قيد الحياة

قال الأمير مواسيا : لا أحد يموت ويأخذ معه شيئا .. والكل سيموت أيها الصديق حتى الدنيا كلها ستزول .. هل من أمل في ذرية بعد هذه السنين؟

- علم ذلك عند ربي .. أتحب أن نتمشى في البساتين والرياض ؟

- وأنت؟!

- لي عربة خاصة يجرها جوادان

نادى أحد الخدم وأمره بإعداد بغلة للفارس عمر بكر ، وتجهيز عربته والخدم لجولة في الأملاك

- أنت باسل وتقاوم ببسالة!

- لابد من ذلك ، ولو قبعت جالسا نائما لمات ما تبقى من جسمي ، لابد من الحركة والاستمتاع بهذه الحياة

- صدقت

جاءت البغلة وعليها السرج الجميل المريح ، وحمل الرجل حتى استلقى على عربة الجياد وتقدمهم الخدم في جولة في أملاك القائد عثمان ، وقضوا ساعات يتجولون بين الأشجار ويسمعون أصوات الطيور ، وعند الغروب رجعوا لديوان وقصر القائد ، واستعدوا لدخول غرفة الطعام عندما اعلن في القصر عن عودة العبد الزنجي فراس.

***

شرح الفارس عثمان لفراس الزنجي الغاية من زيارة الفارس عمر بكر صديقه أيام الجندية ، وقص عمر بكر قصة مطاردته لحفص وعفريت وقتله لعفريت وتركه لابن عمه ، ولما عاد لأسره وجده قد اختفى ، والجارية تزوجت واستقرت في بلاد سادة ، ويريد أسره وخطفه بعد معرفة مكانه وتقديمه للقضاء في نجوان حتى لا يترك مجالا للثأر والانتقام في مستقبل الأيام .. فلحفص عشرة أشقاء بين بنات وذكور .

استوعب العبد فراس القضية بتفاصيلها والمهمة المطلوبة منه فقال: تريد أن أعمل مع عدنان في التجارة أو من يقوم مقام عدنان ، كما فعلت أنت في أول المطاردة ، وأنت ترى أن الجارية ابتعدت عن حفص أو هو ابتعد عنها وقطع الصلة بأهل نجوان ، وطلق نساءه الأميرات ، واختفى بشخصية إنسان عادي دون إمارة ؛ ليعيش وحيدا مجهولا في إحدى مدن الدنيا .. وزواج نورا في بلاد سادة يدل على هذا القرار .

- قضيت أسبوعين أتابعها قبل القفول لنجوان

قال العبد فراس : حسن هذا يا سيدي الأمير! العمل مع عدنان سهل وميسور .. المهم أن اطلع على أسراره وحركته.

- هو لقد ترك السفر إنما يجلس في الميناء لمتابعة التحميل والتفريغ والسفن المملوكة لأسياده ..قد تضطر للتنقل بين عدد من الموانئ .. فهو ينقل من مدينة إلى أخرى .. ثم يعود لنجوان بعد عدة رحلات إلى المدن الساحلية .. ومساعده هو الذي يسافر في المراكب واسمه

البحار حمدون

- أنت ترى أن السفر معهم خير من البقاء مع عدنان ؟

- أنت تقرر الأفضل والأنسب

قال فراس : سأرسو في بلادكم في قارب صيد ، وإذا لم تحقق المطاردة ثمرة سأعمل معهم ؛ وإذا كان حقاً أنهم قطعوا الصلات بذلك الأمير ، ما العمل أيها الشجاع؟! كيف نصل إليه؟!

- نعم ما العمل ؟! إذا فشلت في معرفة مكانه ، فلن نصل إليه إلا صدفة ، ما دام لا يعرف أحد مكانه أو إذا حن ورجع البلاد ، ولم يستطع التخلص من جبروته وعنفوانه .. لدينا خطة أخرى لكنها تنتظر أيها القائد عثمان موت الملك هشام أبي .. عندما يرحل عن الدنيا بسلام أن تقوم سيدة المدينة الملكة هند بنفي عمها والد القاتل وأسرته أو تسليمهم حفصا للقاضي فقد يقبلون والأغلب سيرفضون وسنضع في مكان نفيهم عيونا لنا

قال عثمان معقبا على هذه الخطة : قد يطول عمر والدك الملك ، وتضعف الهمة في الطلب مع الوقت ولعلها بردت

- الملكة ما زالت حاقدة وناقمة على مقتل أخيها ، وعرضت نفسها للزواج ممن يأتي برأس حفص .. لا تحب الرجال والحمل والأطفال إنها في العشرين

- وهل هي امرأة؟!

- بل جميلة يا سيدي

فقال فراس ساخرا : وإذا قتلت عدوها اللدود أتقبلني زوجا لها ؟ أصير زوج الملكة ؟!

- اعتقد أنها تقبل حتى ولو أنها ملكة .. الشرط هذا هي هذه وضعته قبل أن تصبح ملكة .. هي ترفض الزواج اليوم حتى يكبر ابن أخيها الأمير هيثم ، ويصبح سيد البلاد خشية الفتنة وتنافس الرجال على الزواج من الملكة

قال عثمان: ولماذا تنتظر نفي عمها ما دامت السلطة بيدها؟

- رحمة بوالدها فهو شقيقه ، فسيقول لنا لماذا يؤخذ بجريرة غيره .. نحن نطلب دم حفص

الغادر .

كرر عثمان كلام الملك وبعد صمت قال عثمان: ما تقول أيها الشجاع؟! مشيرا لفراس

- سأقوم بهذه المهمة يا سيدي وأبذل جهدي وعرقي وفكري ، مع أن عقلي يقول إن القوم نفضوا أيديهم عن الأمير بعد مصرع عفريت ، وتركوه هائما في الدنيا .. مصلحة له ومصلحة لهم .. فالملكة مصممة على الانتقام .. عليّ أن أحاول أيها الأمير من أجل خاطر سيدي القائد عثمان ، ومن أجل الصداقة الكبيرة التي تربط بينكم .. سأكون قريبا في بلادكم نجوان متى ستسافر أيها الشجاع ؟

- الشكر للقائد عثمان ولك يا فراس .. سأكمل الأسبوع عند أخي عثمان ، وأعود مباشرة إلى البلاد ، وقد تستمر الزيارات بيننا

فقال عثمان: أنا ستجدني في شوق إليك .. أنا لا أنسى أيام القتال أيام الغدر ؛ لكنهم أهلنا أيها الصديق .. وأنت اليوم وجدت لك أهلا خيرا منا

- لا أنسى هذه الأرض ، لقد عشت فيها أكثر من بلاد الآباء والأجداد .. كنا وبقينا أخوة وسنظل أخوة .

قال فراس : بعد عودتك بأسبوعين سأتحرك بقارب الصيد إلى ميناء نجوان ، وبعد وصولي سأبدأ بالتردد على الميناء لنجوان متنكرا بهيئة رجل عجوز والأمارة بيننا الفارس عثمان .

- الفارس عثمان ، نعم الأمارة

قضى باقي الأسبوع ضيفا على القائد عثمان ، وانتقل إلى أروى واستأجر مركبا تنقله إلى نجوان فالبحر يفصل بين المدينتين ، ولما دخل القصر علم أن الملك هشاما قد هلك ، فبكى وبكى وعزى الملكة ، وقال: رغم حلاوة السفرة ؛ فإنها أسوأ أيام ، مات أبي وهو يقول ابق جنبي.

الاغتيال

بعدما خف حزن الفراق وندمه على هذه السفرة اخبر الملكة بما فعله في بلاد النملة فقالت: أترى أننا بحاجة لهذا الرجل بعد وفاة الملك رحمه الله؟!

فبعد صمت وتأمل رد الأمير: أتريدين فعل النفي؟

- أليس هذا حلا؟

قال متشككا : أيقبل أبناء العم بهذا النفي دون مقاومة ؟! صاحبي عثمان يخشى من هذا الفعل.. أيمكن أن تحدث ثورة وتمرد في البلاد ؟ لم أفكر بردة هذا الفعل عندما اقترحت هذا الحل .. ألهم قوة أيتها الملكة للثورة علينا؟!

قالت بتأنٍ :لا يقبلون بسهولة ، سيتدخل الأكابر ، سيشفعون بعض السادات ؛ ولكني مصرة على النفي أو تسليم حفص للقاضي .. نار الحقد تشتعل في القلب يا عمر بكر .. الغدر والخيانة علقهان .. آه ليتك قتلته يا عمر بكر!

- لم تطاوعني نفسي أن أكون مثله ولو باسم الانتقام ، وأنا القادم إليكم بعد عشرات السنين أن أتقرب منكم بدم حفص .. وأتقرب من أبي بدم ابن أخيه .. الموقف حاد

تنهدت الملكة وقالت : أنا أعذرك .. أنت الصواب .. إنها لحظة انفعال حاد وحسرة ..آسف أيها الأمير .. القاضي العدل

قال : هذه الخطوة المهمة كانت قبل وفاة أبي الملك ، أما إذا اردنا تنفيذ النفي نحتاج لعين بينهم ترك الأمير أخته بعد هذا الجواب وسمعها تقول : سيكون مهرجان غداً خاصا بالجند والعساكر هل ستكون معي ؟

- وموت الوالد؟!

- هو مرتب قبل وفاة الوالد ، وهو مهرجان سنوي

- متى وقته؟

- عادة يبدأ من الصباح ؛ والملك أو من ينوب عنه يذهب إليه عند العصر لتوزيع الجوائز والهدايا

على المتقدمين من الفرسان والجند

- عندما نلتقي صباحا سأبين رأيي

اعتذر الأمير للملكة عن صحبتها لتوزيع الجوائز في عصر اليوم ، وذهب يتفقد مزارع الحيوان والخيل الخاصة بالقصر الملكي، واجتمع الأمير بغلمانه المائة الذين وهبهم له والده الملك ، وكان قد عهد لخادم خاص منهم اسمه غضب بأن يكون عريفا عليهم ، وسمح لهم بالتدرب على الفروسية والرماية بسبب تعدي بعض اللصوص على حظائر الخيل الملكية ، واحضر لهم مدربين من الجند يشرفون عليهم ، وكان يتفقدهم بين الفينة والأخرى عندما يكون متواجدا في المدينة لقد جعل نهاره هذا لمشاهدة الغلمان وفروسيتهم ، فكما أن الملكة ترعى فرسان المدينة فهو يرعى غلمانه ، ولما قابل المدربين بينوا له مستواهم القتالي والحربي ، وذكروا عدة أسماء منهم ، تعرف عليهم الأمير رؤية العين ، ووعدهم بالهبات وربما الحرية إذا ثبت إخلاصهم له ، واخبر أنه ينوي إنشاء كتيبة خاصة به منهم ، وهم نواتها وأعلمه غضب أنه أضاف خمسين إليهم خلال الأيام الماضية

وعندما هبط الليل بوقت يسير جاءه احد الفرسان مخبرا أن الملكة تعرضت للاغتيال في ميدان الفروسية ، وتمكن حرسها من إنقاذها والعودة بها إلى القصر مصابة ، نظر لأحد المدربين واسمه مديد : ما الأمر أيها القائد؟!

- قبل أن اعرف التفاصيل أرى أن لأبناء عمك هاشم يدا في المؤامرة

قال الأمير : يا غضب فليأت رجالك للقصر .. سأكون حازما الليلة هيا أيها القادة

دخل الأمير القصر يصحبه القادة والغلمان ، وصعد لغرفة الملكة حيث قالوا إنها ترقد فيها ، وكانت ممددة على السرير تئن وتتألم من الوجع ومن الطعنة الغادرة ، فلما رأته قالت : أرادوا قتلي أيها الأمير !

اقترب من وجهها ، وقبلها الأمير ومسح دموعها وامتصها عن يده ، فقال قائد الحرس الذي ما زال يجلس في حجرتها: بينما كانت الملكة تتابع الفرسان في الميدان هجم عليها الغادر من

الخلف بخنجر كان يخفيه في كم ثوبه ، استغل فترة المتابعة للشجعان ، ولكن أحد الحرس انتبه له في اللحظة الأخيرة وهو يرفع يده طاعنا الملكة بعد أن أصابها الخنجر ، وقبض على الجاني الغادر وهو في سجن القصر ، وتم نقل الملكة إلى القصر.

قبل الأمير أخته من جبينها ورأسها وقال للطبيب : كيف الجرح أيها الطبيب؟!

- فعلنا اللازم ، لقد دخل الخنجر جسمها من الظهر والجرح عميق والشفاء بيد الله.

التفت الأمير لقائد الحرس: أين الأداة القاتلة؟!

- الخنجر موجود والقاتل موجود في سجن القصر

سأل الأمير : أقال شيئا؟

- يرفض الكلام ، ولأبناء عمك يد في الجريمة

- أكيد

- أكيد

كان خالها يبكي وزوجته وأمها ، فقالت الملكة: إنهم يسعون للخلاص منا ، يريدون العرش يا خالي .. لم يكن القتل الماضي من أجل امرأة .. اتخذوها ذريعة

سأل الأمير : أيستطيع قائد الحرس القبض على الأمير هاشم وأولاده لو صدر إليه الأمر ؟! أتستطيع فعل ذلك أيها القائد؟!

رد القائد :أفعل إذا أمرتني الملكة!

فقال الأمير عمر بكر : إذن حاصر بيوت القوم ، واستعن بالجند .. فقط حاصر أهم منازلهم وغدا عندما نطمئن على حياة الملكة نفعل الصواب

أمر الأمير غلمانه بالبقاء حول حجرة الملكة والقصر لحماية الملكة من يد كل غادر لو كان الأمير نفسه ، وأمر بعزل كل الجواري عن حجرة الملكة ، وكذلك الخدم ، ومنعهم من الدخول حجرة الملكة هذه الليلة ، وأبقى خادمتها الخاصة داخل الحجرة لا تخرج منها إلا بمرافقة أحد غلمانه وعلمه لها ، وقال لها مشجعا لأخته : وسأنام أمام حجرتك أيتها الملكة ، وسترين مني غداً ما

يسر قلبك

وقال الطبيب: هل أبقى في القصر أيتها الملكة؟

- نعم ، عليك أن تنام في القصر أرسل أحد الغلمان مخبرا لعيالك فهم يعيشون خارج القصر

قال الطبيب :نعم ، يا مولاتي .. فالناس تتداوى عندي بأمر الملك ـ رحمه الله ـ وأنا أطمئنك بالشفاء ـ إن شاء الله ـ لقد أنقذ الجندي الباسل حياتك فحرفت يد المجرم

قال الأمير بعد مغادرة الطبيب الحجرة الملكية: سأقابل اليد الآثمة

- لا تتأخر عليّ إني أحس بالأمان بوجودك بقربي

- سأحميك يا مولاتي بكل ما أملك

وأخذ يدها مقبلا وداعيا فقالت: شكرًا أيها الأخ الشجاع

كان الصباح يحمل أخبارا سيئة ، فقد انتكست حالة الملكة الصحية ، وارتفعت الحمى في بدنها وأصبحت تهذي من شدة الحمى ، واجتمع حولها الطبيب ومعاونوه كلهم ، وكان عمر بكر قد التقى بالشاب الغادر ليلة أمس ، وأنكر أن أحدا دفعه لاغتيال الملكة ، ولم يذكر سببا خاصا للاعتداء عليها ، فانهال عليه بعصا يحملها دائماً ، وتوعده بالموت الشديد خلال النهار ، ولما ازدادت الحمى على بدن الملكة عند الصباح ، عاد إليه وضربه عدة لكمات قوية من فارس متمرس وقال: من جندك للجريمة ، وألبسك ملابس الجند ؟!

أصر على الصمت وأنه فعل ذلك من نفسه دون أوامر من أحد فقال: أيصدق أحد أنك فعلت ذلك من تلقاء نفسك ؟ وأنت ما بينك وبين الملكة شيء؟! سخروا منك وقالوا أقتلها وسنحميك ونزوجك.

فقال بإصرار : لن أتكلم بشيء

- تكلمت أفصحت .. ولماذا تكره وتحقد على الملكة يا كذاب؟! اعطني السيف أيها الجندي.

تناول عمر بكر السيف من الجندي وهزه يمينا شمالا للإمام وقال للغادر: ألديك كلام يا خائن؟ ألديك وصية ؟

هز رأسه بالنفي فنخزه عمر بكر في بطنه بالسيف فرفع عنقه للأعلى ، فأطاح السيف رأسه عن كتفيه فشخر ومات ، وأمر بعض الغلمان بوضعه عند بيت الأمير هاشم حيث يحاصر الحرس والجند المنازل .

وصعد الأمير حيث الملكة تعاني ، فوجدها ما زالت شبه فاقدة الوعي ، وتتألم بصوت مرتفع وأمها بجوارها وخالها ، فالتفت لقائد غلمانه الذي يقف أمام غرفة الملكة وقال : استعدوا للانتقام أيها الشبان؟

فأكدوا له أنهم أطوع له من بنانه ، فخرج بهم يحملون الحراب مشهرة بين أيديهم إلى حيث يحاصر الجند منازل أعمام الملكة فطلب القائد : هل من خبر؟

- ينكرون أن لهم يدا في المؤامرة

استدعى الأمير أحد أبناء العم المعروف بعدائه للملكة ـ قبل أن تصير ملكة ـ في عدة مواقف معروفة منذ قتل أسد ، ولما وقف بين يديه : من منكم يقود هذه الفتنة على حياة الملكة ؟

- لا أحد يتآمر على حياة الملكة .. نحن أهل للملكة ، لسنا أعداء

- ولكنكم قتلكم شقيق الملكة ابن عمكم من قبل .. واليوم الملكة نفسها

وبينما هو يتجادل مع ابن عمه اخبره أحد الاتباع أن رجلا زنجيا يطلب الحديث معه ، فخرج إليه ، وقد تذكره ، فلما رآه عانقه وقال معتذرا : نسيت أمرك ، فلما عدت من بلادكم ، وجدت الملك أبي قد مات إلى رحمة مولاه ، وأمس تعرضت أختي الملكة لمحاولة اغتيال ؛ ربما لا تنجو منها ، وأبناء عمنا المتهمون بذلك

وبعد أن شرح لفراس التطورات الحادة في المدينة ، طلب الأمير باستدعاء أبناء أعمامه الموجودين في المدينة جميعهم ، فجيء بهم وسعى بينهم أن يعترفوا عن المتآمر فلاذوا بالصمت.

فأمر الأمير بتوثيقهم ثم أمر غلمانه بقتلهم جميعا ، وشارك فراس بالفتك معهم ، وأمر فراس الغلمان بحرق جثثهم ، وأمر الأمير الناقم عميه والنساء والأطفال بمغادرة المدينة بأسرع وقت فما هبط الليل حتى كانوا خارج المدينة ، فقد فتك بأكثر من عشرين نفس ، وما نجا إلا من كان

غائبا عن المدينة ، وأرسل وراء عدنان الربان ، وأعلمه الأمير بأنه طارده في أروى وسادة ، وأنه هو الذي قتل عفريتا ، ويعلم اتصاله بحفص ، وسأل عن مكان حفص بعد مقتل عفريت ، وأعلمه بزواج الجارية الخائنة من خانتوش وكيل أصحاب العقار ، فأدرك عدنان قوة هذا الرجل الذي أمامه ، فارتعب وأحس أن روحه تكاد تطير من بدنه فقال: أصدقك الحديث بعد موت عفريت ذهبت لهم بمال كالعادة ، وأخذت زوجته وجاريته وعدت بهم إلى نجوان ، وهو منذ مقتل مساعده عفريت لم ينم في البيت ترك الجميع ، وأمرني بأخذ المرأة والجارية إلى نجوان وأنه تخلى عن جميع أهله ، ويعيش هائما في الدنيا ، وأنه طلق نساءه .. والله لا أدري يا مولاي أبقي في سادة أم تركها؟ وما دامت قالت الجارية إنه اختفى وتزوجت، فصدق أنها لا تعلم .. فضل الحياة على أن يموت كما مات عفريت

- أنا أعلم أنك مرسال وبريد بين حفص وإخوته ؛ فإذا علمت في أحد الأيام أنك كذبت ، سيحصل لك ما حصل لأسيادك البغاة.

أمر الأمير بمصادرة أملاك الأميرين هاشم وهشيم وتوزيعها على الجند الذين شاركوا في القضاء عليهم ، ورجع إلى القصر يصحبه الزنجي فراس وغضب ورجاله ، وقد أخبرت الملكة بما فعل الأمير وسكتت ، فلما دخل عليها قالت: أقتلت أعمامك؟!

- لا ، قتلت أبناء العمومة لابد من الانتقام من الخونة ، والذين يصمتون على الخونة .. لقد زاد بغيهم علينا .. نفيتهم واتباعهم .. لابد من القسوة أيتها الملكة .. قتلوا أسدا وصمت كل المملكة لم يتحرك أحد للقضاء على حفص للعدالة ، وظل الملك حزينا على أسد حتى لحق به كمدا .. واليوم يعتدون على الملكة دون ذرة قرابة ورحم وغدا أنا

غمغمت الملكة بكلمات غير واضحة ، فتركها الأمير وساق ضيفه إلى قاعة الطعام يأكلان كأن لم يحدث شيئا في المدينة ، وأبدى الزنجي إعجابه بالأمير وشدته ، ونقل له تحيات القائد عثمان ، فعرض عليه الأمير العمل معه كأسياف

فقال: وسيدي القائد!

- لقد بذلت جهدا قويا في الفتك بهم
- هذه مهنتي يا سيدي
- سنتكلم مع القائد .. قلبك قوي لا تجفل من الدماء .. سنكتب رسالة للقائد عثمان.

فقال فراس متنبئا : آترك الهدوء والراحة لأعمل في بلد ستشعل نارا ؟!

- أتظن ذلك ؟
- عندما تذهب الصدمة سينالون منك .. أليس لهم أصدقاء وأصهار؟!



رغم الجهد الذي بذله أطباء القصر وغيرهم من أطباء وحكماء المدينة تدهورت صحة الملكة هند ، فدعت الوزير الأكبر وقائد الجيش وقائد الحرس والأمير عمر بكر وقاضي البلاد الأكبر ، وبعد اكتمال تواجد هؤلاء السادة أعلنت لهم الملكة أنها ستسند الحكم والولاية الكبرى لأخيها من أبيها الأمير عمر بكر ملكا على الأمة وعليهم أن يطيعوه ، وتوسلت للقاضي أن ينكحه إحدى حفيداته ليتشرف بها ، ويتابع الولاية مكانها حتى يكبر ابن شقيقها هيثم ، ويتوج ملكا للبلاد ، ولما اقسموا على ذلك غمرتها السعادة وقالت لعمر بكر: احفظ أولاد أخيك هيثم وشيماء .. هؤلاء أمانة في عنقك .. وراع العدل في الرعية . فعاهدها الأمير على الوفاء أمام كل الأعيان .

وبعد أيام يسيرة ودعت الملكة هند الدنيا ، وفارقت الروح الجسد بعمر الشباب ، وبكى الناس ملكتهم الصغيرة بكاء مشهودا ، وخاصة عمر بكر ، وتم دفنها بمراسم ملكية ، وقضى الأمير ثلاثة أيام في مقبرة الملك من آل عامر ، ثم سعى الوزير والسادة إليه فأخرجوه من حزنه إلى حمام الملوك ، فاغتسل وألبس حلة ملكية ، وساقوه على جواد ملكي نحو قصر وديوان الحكم وأعلنوه ملكا على البلاد والعباد حسب وصية الملكة الصغيرة هند بنت هشام ، وبعد الإعلان تقدم الأمراء والكبراء لبيعته والوفاء لحكمه ، فصافحوه وبايعوه.

وفي اليوم التالي خرج لباحة القصر يبايع الخاصة والعلماء والتجار وأصحاب الحرف ومشايخ

الحارات في بلاد نجوان ، وقضى أياما ثلاثة في البيعة ، وأخبره الوزير أن احتفال التتويج للملك الجديد سيكون بعد ستين يوما على وفاة الملكة الشابة ، واستعدوا لتزويج الملك من حفيدة القاضي زيد بن قاسم الأميرة باسم

وكان القائد عثمان قبل بقاء عبده فراس لدى صديقه عمر بكر إلى حين ، فكان الرجل يمشي خلف الملك كظله بهيئته المخيفة ، وعينيه الحمراويين ، والسيف الطويل على جنبه جاهزا للفتك بأي شخص وإشارة من الملك وبدون إشارة

كان الملك عمر بكر قبل المشي لديوان الحكم يذهب لقبر الملكة هند مسلما ويفعل ذلك في المساء ثم يدخل القصر إلى حجرة النوم التي يتفقدها العبد الأسود فراس ، ثم يدخلها الملك ليرقد فيها فيقضي معه الشاب ساعة يتناولان فيها الطعام ، ثم يذهب لغرفة مجاورة للملك ليكون بين يديه في أي لحظة

أظهر الملك عمر بكر للسادة قدرته عل إدارة أمور المدينة ، ومتابعة القضايا الصغيرة والكبيرة وكان قد زاد من اتباعه وغلمانه وبرعاية وتدبير من فراس الذي كان يفارق القصر لشراء المزيد من الرقيق من عند النخاسين لزيادة غلمان الملك ، وبعد مرور أيام الحداد الستين توج عمر بكرا ملكا رسميا بحفل كبير ، وأخذ القوم يستعدون لحفل زواجه من الأميرة باسم حفيدة القاضي زيد ؛ لتدعيم مركزه المعنوي في المدينة

ولما انتهت الاحتفالات انتقلت الأميرة الشابة للعيش معه في قصر النوم حيث يعيش أفراد أسرة الملك الراحل من غلمان وخدم ، واستعد السادة لتتويج الفتاة ملكة مع زوجها .

وأهدى الملك جارية حسناء لفارسه فراس الذي يتفانى في خدمته وحمايته ، وأسس له شبه كتيبة من العبيد ، شكره فراس على هديته ، والملك أيضاً ارتاح لامرأته ووجدها طيبة ومتعلمة وتحب القراءة والشعر وتقوله ، وعاشا سعيدين ، وكانت الفتاة قد تعلقت به وأعجبت بفروسيته ، ورأته بطلا كبيرا ، فقالت فيه أشعارا انتشرت في المدينة ، كملت السعادة بوضعها المولود الأول له وسماه هندا لأنها أنثى.

وكان الملك يخرج من قصر النساء أو النوم إلى قصر الحكم راكبا بغلة سمينة بسرج كأنه مقعد فخم ، بين يديه العبد فراس بهيئته المثيرة للرعب على جواد قوي ضخم كأنه فيل هندي ، ويمشي بين صفين من الغلمان المدربين على السيف والحماية ، يتقدمهم جنود الحرس وبعضهم في الخلف كان موكبا مخيفا لمن تسول نفسه الاعتداء على الملك ، ويظل الملك بين صفين الغلمان حتى يدخل القصر ذهابا وإيابا ، ويستقر على كرسي العرش ، وهكذا كل يوم ما عدا الأيام التي لا يذهب فيها الملك للديوان لعلة لمناسبة ، وأخذ يخطط لبناء قصر جديد له ولحاشيته كما أشار عليه فراس ، وسر الكثير من السادة لقوة الملك الجديد ، وعاد بالكبار ذكرياتهم مع الملك هشام عندما كان شابا ملكا ، وارتاح الوزير والقادة لاختيار الملكة له ، وعرفوا رجاحة عقلها وعقل أخيها وأنهم من صلب رجل واحد ، وانتشرت قصة مطاردته لحفص وقتله لعفريت ، وسعى بعض الناس للصلح بين الملك وأعمامه ورعاية شيخوختهم بالعودة للبلاد ، فقال الوزير: بعد رحيلهم عاد الهدوء للبلاد ، كانوا يستغلون قرابتهم للملك دون علم الملك للفتنة في البلاد ؛ فإذا عادوا سيعودون للتآمر والدسائس ، ولا تنسوا أيها الكرام أن حفصا ما زال هاربا عن سيف الجلاد ، ودم ابن الملك معلق في عنقه ، فلا عودة حتى يعتلي هيثم العرش ، وهو صاحب الحق في الدم



كان الملك عمر بكر قد ضرب أعمامه ضربة قوية تركت أثرها على كل أعوانهم واتباعهم في المدينة ، عندما رأوه لم يشفق على أعمامه فكيف هم ؟ وقوى الملك غلمانه وكتيبته الخاصة ، وأنشأ قوة خفية تنقل له الأخبار بسرعة ، فكان يجلس على كرسي العرش في الديوان الكبير حيث يستقبل الوفود والرسل ، واستقبل ذلك النهار وفود المدن البحرية بين ضفتي البحر لتنظيم التجارة والحماية بين هذه المدن ، فقد ظهرت عصابة أو عصابات تعيق حرية الملاحة والتنقل بين المدن البحرية ، لقد تعرضت عدة سفن للصوص البحر ، وسراق السفن يعتدون على سفن نجوان ونورا في الجهة الجنوبية من البحر ومن الشمال أروى وسادة

وغيرها من الموانئ ، وأهل البحر حياتهم البحر والتجارة بالسفن ، وكان اللقاء حول القضاء على أولئك اللصوص وإضعافهم قبل أن تعم الفوضى البحر ، وتشتد شوكتهم إذا لم يلقوا صدا ومنعا قويا ، وكانت الوفود قد اجتمعت بالوزير وأمير البحر ، وذكروا له الخطط المناسبة لهذا الفلتان البحري والقضاء على عصابات البحر ، ومعرفة من يدفعهم ويقودهم ، واتفقوا أن تحمي كل مدينة سواحلها وعمق معين من البحر ليل نهار ، والتعاون على مطاردة اللصوص بحملات قوية ونصب فخاخ وكمائن لهم في البحر ، ومطاردتهم في الجزر البحرية الصغيرة والمهجورة حيث يتخذونها أوكارا لمسروقاتهم ، والاتفاق على إشارات معينة بينهم ، ثم دخلوا بعد ذلك لتحية الملك وعرض أفكارهم عليه ليبارك خططهم.

وأحب الملك بعد السلام أن يسمع التفاصيل تفاصيل الاتفاق والخطط المقدرة للقضاء على أولئك اللصوص لإبقاء حركة التجارة والصيد في حرية وأمان ونشطة دون عوائق بين المدن المطلة على البحر من الجهتين ، وبعد أن استمع الملك لهذه التفاصيل دون كلل وملل ، وأثنى الملك عليهم وعلى تعاونهم الضروري ، دخل الحاجب وأخبره أن شخصا اسمه عدنان يعرفه الملك يرغب بلقاء معه ، خرج فراس وقابله أولا فعرفه ، عندما التقى به عمر بكر بعد مقتل أبناء عمه وبعد التحية قال : ما الخطب أيها البحار؟

– الخطب لديّ رسالة من ابن عم الملك المختفي حفص بن هاشم

– التقيت به !

– أبدا ، جاءني مرسال منه

– حسنا ، الملك في اجتماع مهم لأهل البلد مع وفود المدن الأخرى ، فلما ينتهي اللقاء تدخل عليه .. إياك أن تغادر الديوان قبل أن تلقاه . ونادى غلمانا من غلمانهم قائلا: احرس هذا الرجل ولا تجعله يغادر القصر أو يتحدث مع أي إنسان

عاد الفارس يقف خلف الملك كما رتب ذلك ، وسارّه بأمر عدنان ، ولما انتهى الاجتماع بمباركة الملك ، ووصى وزيره بإتحافهم بهدايا لملوك بلادهم ، وحث الوزير على التعاون بكل قوة على ما

اتفقوا عليه لحماية التجارة والصيد ، وبعد وداعهم اللائق بهم ، ادخل عدنان إلى الديوان ، وحيا الملك بالسلام وأجلسوه قبالته ينتظر الإشارة بالكلام ، فلما عاد الهدوء والسكون للديوان بعد مغادرة الوفود قال الملك : ما وراءك أيها البحار؟

- أحيي مولاي الملك عمر بكر .. أنا مخلص لعرشكم مدى الحياة .. لقد اتصل بي حفص ابن عمكم الهارب ، وارسل لي رسولا برسالة يطلب فيها المثول بين يديك لتقتص منه بدم أخيك الأمير أسد .

ودفع الرسالة للحاجب الذي ناولها للكاتب بإمارة من الملك الذي أخذ يستعد لقراءتها قال الملك : قبل أن تقرأ أين الرسول ؟

قال عدنان: في داري ، وهو عبد مستأجر .

- ولماذا يريد أن يسلم نفسه للقضاء اليوم ؟!

قال عدنان مجيبا : نعم ، يا مولاي يريد أن تعفو عن والده وعمه؛ ليعودا للمدينة ويدفنا في مسقط رأسهم .. فهم يعيشون حياة كل ذل وهوان .. يتنقلون بين المدن ويقولون الرحم الرحم أيها الملك.

فصاح الملك بغضب : ودم الملكة الشابة هند أخت الملك وابنة الملك والملكة أين دمها؟!

فبعد هدوء الملك قال عدنان : ألم يقتل المتآمرون يا مولاي ؟

- المتآمرون .. لم يعترفوا لم يعترفوا .. عيونهم فقط هي التي اعترفت بالجريمة ، لكنهم لم يعترفوا من سلط ذلك الغبي ليقتل الملكة سيدة البلاد .. حتى أعمامي لزموا الصمت حتى والد برة امرأة أسد لم يتكلم أيها البحار!

قال عدنان مفسرا : قد يكون الأمير حفص هو الجاني والمجند لذلك الغادر

قال الملك : لا ، لا ، أيها البحار لماذا سكتوا ؟! لماذا صمتوا ؟! إنهم يعرفون أنهم متآمرون على دم الملكة .. ظنوا بالقضاء عليها أن ينتقل الحكم إلى أحد أعمامي خاصة هشيم لبضع سنين ، ثم نذهب نحن .. وما أنا إلا مجرد دعي قبل هشام تبنيه .. لعبة خبيثة .. سيموت الملك الكبير

متأثرا بموت وحيده ، وسيلحق بابنه حزنا وكمدا .. وهند فتاة ستتزوج وتبتعد عن الحكم سيكون هشيم أو ابن له ملكا .. أنت بحار ساذج لا تعرف كيف تحاك الدسائس والخيانات ؟ أنا عشت في المعارك وبين القادة .. القائد عثمان في عز المعركة والقيادة خونوه ليتخلصوا منه .. ضحوا بعدد من الجند ؛ ليكون خائنا .. وربما يضعون ملكا هاشما نفسه .. لكن القدر أرسل إليهم ابنا للملك من الغيب .. فعجلوا بقتل الملكة قبل أن يقوى الأمير الشاب الفارس هذا ما حلموا به يا عدنان ؛ لذلك أصروا على الصمت .. كلهم خونة .. لقد تركت بينهم عيونا لي وللملكة ..صمتوا حتى أمام السيف

خيم الصمت القاتل على الديوان لدقائق ثم همس عدنان: والأمير حفص

– فليبق في مخبئه ، وليحذر من العودة لمدينتنا ، وليبق أعمامي في منفاهم .. لا نريد أن نعود للدماء والثأر ..يجب أن تحيا البلاد بهدوء وسلم أيها البحار .. وعندما يكبر ابن الأمير أسد الأمير هيثم ويصبح سيد البلاد ، ويعتلي هذا العرش ؛ لعله يعفو عنهم أو يقتص لأبيه .. اقرأ رسالة الخائن الجبان.

قرأ الكاتب أمام أهل الديوان الرسالة التي يطلب فيه العودة للوقوف أمام القاضي مستجديا عودة أبيه وعمه وأمه وزوج عمه هشيم.

فلما سكت الكاتب قال الملك : قل للرسول ما سمعته مني ، فلا أحب عودتهم وأنا أجلس على هذا العرش.

وحيا عدنان الملك شاكرا له تكرمه ، وأخرجه السياف فراس ، وفتح الحاجب باقي القاعة على الأمراء الجالسين في الديوان ، وظل الحاضرون ينتظرون كلام الملك وبعد حين قال: سيعقد الوزير معاهدات مع ملوك المدن البحرية الساحلية لمحاربة لصوص البحر حتى يعود الأمان للسفن والتجارة .. فعلى أمير البحر القائد شهران زيادة جنوده وبحارته .. وألا يتهاون مع أولئك اللصوص .. فالتجارة عصب المدن وحياتها.

فقال الوزير: لقد اتفقت مع أمير البحر أن يزيد عدد جنوده إلى الضعف إلى ألفين فارس وبحار

وأن يتعاون مع بحارة المدن الأخرى الأربعة ؛ لتحقيق الأمان لجميع السفن المتنقلة بين المدن الأربعة .. وأمرت يا مولاي الملك أيضاً قائد الجيش البري بزيادة جنده للحفاظ على سواحل المدينة البرية .. والقبض على كل من يلجأ للساحل من أصحاب القوارب والتأكد من سبب وجودهم في تلك المناطق .. وتثبيت أسماءهم في سجل خاص فهؤلاء اللصوص يصنعون أماكن وموانئ خاصة بهم للاختفاء والاختباء .

قال الملك : عظيم ! عمل كبير منك أيها الوزير .. وهل تسمح خزينة المدينة بتغطية نفقات هؤلاء الجند ؟!

قال الوزير : اتفقت مع وفود المدن لتغطية هذه النفقات الجديدة إلى زيادة نسبة الضريبة المأخوذة من السفن مقابل حماية أموالهم وأرواحهم حتى نتخلص من القرصنة .. واتفقنا أيها الملك على أن ندفع لأي سفينة تتعرض للقرصنة في مناطق حمايتنا تعويضا .. للسفينة المنهوبة أو المحروقة حتى لا يتهاون بحارة وجند أي مدينة في حماية أي سفينة.

قال الملك مشجعا : أنت وزير حكيم وفطن !

تـمت قـصة مـديـنـة نـجوان

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

مدينة نجوان


غدروا بابن عمهم ابن الملك وقتلوه
واختفى القاتل حنص
ولا احد اهتم بنداء الأميرة هند بالزواج منها
مقابل راس حنص فلجأت لسايس الخيل بكر عمر
ليعمل على قتل حنص
ثم تبين انه أخ غير شقيق لها
ابن جارية حامل وهبها الملك لشاعر
ولم يعلم بحملها اعترف به الملك ابنا له
فتحمل عبء الحكم بعد اغتيال الملكة هند
فاصبح ملك نجوان


جمال شاهين



الملك زرارة

والملكة سفانة

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٩

جمال شاهين

الملك زرارة والملكة سفانة

٢٠١٤

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

الملك زرارة والملكة سفانة

جمال شاهين



الحلم والكاهن

اللؤلؤ مدينة الملك زُرارة بن نُعيم ، كانت إحدى مدن ذلك الزمان ، مدينة جميلة واسعة ، تشقها عدة أنهار صغيرة ؛ ولكنها دائمة المياه ، تحيط بها غابات عميقة وكبيرة ، تجد فيها السهل والجبل قصورها عامرة ، وأسواقها تستقبل القوافل من شتى المدن القريبة والبعيدة ، كان أهلها ينعمون بالسعادة والخير والحياة الناعمة ، وغاباتها مرتع للصيد والقنص ، فكانت الفرسان تسير إليها برفقة السادة والأعيان في رحلات الصيد الممتعة .

رغم هذا الهدوء والسعد كان سيد البلاد الملك زرارة في قلق وكرب وحالة انزعاج ، فقد كانت رؤية تنتابه من حين لآخر ، رؤية سيطرت على دماغه وأفكاره مع قدمها ما زالت تزعجه وتؤرقه .. رؤيا بدأت عندما نكح السيدة عزوف بنت داود أحد سادة البلاد ، كانت تظهر له هذه الرؤية وتغيب حتى أصبحت حقيقة في كيانه وحياته ، وكلما يجري حديث عن زواج الأميرات بناته تسيطر على نفسه تلك الرؤية أو الحلم ؛ وبسبب هذه الرؤية يرفض زواج الأميرات حتى أن البنت الكبيرة وصل بها العمر الثالثة والعشرين والصغرى منهم ابنة خمسة عشر ربيعا .

كان يرى دابة غريبة لم يعرف لها اسما أو شبيها في دنياه ، كانت تكلمه هذه الدابة بقوة وغضب فتقول:" زرارة بن نعيم .. موتك على يد حفيدك" وتضغط الدابة بإحدى قوائمها على صدره بشدة يسمع لها طقطقة عظام صدره ، فيفيق صائحا ألما ورعبا .

لذلك كان الملك زرارة بسبب هذا المنام يرفض زواج بناته الأربعة ، وكان هذا يزعج ويؤلم الملكة عزوف أم البنات الأربع ، ويزعج الوزير الأكبر أوس ، وأعيان المدينة ؛ لأنه لم يحدث أن تأخر زواج فتاة في المدينة عن سن العشرين ، فما تكاد الصبية من بنات الأمراء والمدينة تبلغ السابعة عشرة حتى تجد لها زوجا من طبقتها الاجتماعية .. والكثير يتزوجن دون الخامسة عشرة فكيف ببنات سيد البلاد بنات الملك ؟!

للملك أربع بنات أمامة ابنة الثالثة والعشرين سنة ، وكل هذا السنين التي مضت عليها مذ

بلغت الحيض ووالدها يرفض زواجها خشية أن تلد الحفيد الذي يكون موته على يده ،ويحدث الشجار بينه وبين الملكة على ذلك ، فيرفع أصبعه في وجهها مهددا ويصرخ" الحلم يا عزوف" فترد بسخط ونكد : إن هذا وسواس شيطان .. ومن يعلم الغيب ؟وما ذنب البنات ؟ ومن منا يضمن حياته ؟!

والملك يصر على الرفض حتى أن الوزير الكبير أوس بين له شناعة هذا الحلم وقبحه ، وأنه أضغاث أحلام ؛ ولكن الكاهن الأكبر للمدينة يؤكد له أن هذه الرؤية حق ، وأنه معرض للخطر على يد حفيد من بناته ؛ بما أنه لم يوهب ذكرا واحدا يرثه ، ويرث الملك بعده .

وكلما يتجدد الحديث عن زواج الأميرات يتوهم الملك رؤيته للحلم ، فيذهب الملك مرعوبا قلقا إلى كاهنه غياث من جديد ويقول : يا غياث الملكة متنمرة تريد تزويج بناتها ، وغضبها شديد حتى بت أخشى على نفسي من غضبها وهجرها فراشي .. إنها على وشك التمرد على سلطتي ، تصيح : لقد تجاوزت البنات سن النكاح .. الحلم الحلم الحلم

قال الكاهن الأكبر بخبث : الملكة عدوة لك أيها الملك.. إنها تحب بناتها أكثر من حبها لك .. هكذا النساء يحببن فلذات الأكباد أكثر من الأزواج .. احذر مكر النساء وغدرهن .

ـ لقد مللت منها ، وصرت أخشاها على حياتي .. هل اطلقها ؟!

قال : لا داعي لذلك أيها الملك .. فأهلها سيغضبون ، وأخشى على حياتك منهم .. فالناس متعاطفون معها في قضية زواج البنات .. شقيقاتك معها غاضبات .. وأخوتك ناقمون .. وعلى رأس الناقمين الوزير .. وما أدراك ما الوزير ؟! فالأمير الشقيق غاضب مني ، وطلب مني أن أشجعك على تزويج بناتك .. وأفسر المنام بطريقة أخرى .. يريدون مني أيها الملك أن أساعد في قتلك يا مولاي

ـ أخي مرارة فعل ذلك !

قال ببغض بين : نعم ، يقول البنات كبرن.. وبنات الملك دون زواج إن هذا لعار وشنار .. وحياة الملك لا خوف عليها .. على الأميرات أن تتزوج .. ولا يتركن لوسوسة شيطان ، وحكاية

شيطان .. يقول: بأني شيطان . وأخذه البكاء ، وأخذ الملك بتهدئته وتهدئة روعه وتطييب خاطره ، ويقول : اهدأ أيها الصديق المخلص سأتكلم مع مرارة بن نعيم .. وسيأتيك معتذرا نادما على تهديدك ووصفك بشيطان .. أما من حل لزواج البنات ؟

ـ لم أفهم يا مولاي الملك !

ـ أقصد هل ممنوع تزويجهن جميعهن ؟

قال : الحلم لم يحدد واحدة منهن "موتك على يد حفيدك" أي حفيد أنت في خطر منه

قال : الوزير عنده حل يا غياث .

قال بسخط : الوزير لعين .. ما هو الحل الذي عنده؟

قال : أنا اخشى على حياتي منهم .. الوزير يقول : عندما تزوج البنات يحبس الأحفاد الذكور عن الأمهات .. هذا إذا لم يكنّ عقيمات .. هناك عشرات السنين حتى يكبر الأحفاد .

ـ في ذلك مخاطرة أيها الملك .. أنت أصررت على تفسير الرؤيا ، وقلت لك الأمر واضح ...إذا كبر حفيدك سيقتلك.

قال الملك بضيق وخوف : إنه حلم مزعج منذ تزوجت عزوفا ، وهو يطاردني هذا المنام يا غياث

ـ الأمر جد خطير يا مولاي! لن تموت إلا على يد حفيدك .. لا تخشى من أحد .. موتك على يد حفيدك .. ما دمت بلا حفيد فأنت في أمان وسلام .. وستموت بأجلك بسلام .

قال : ما رأيك باقتراح أوس ؟

رد بامتعاض : هذا الوزير لا يريد لك الخير والسلام .. إنه يريد زواج ابنه من ابنتك تحدث معي في ذلك .

ـ متى أتاك ؟

ضحك سخرية وقال :كأنني أنا الذي أمنعك من تزويجهن .. المنام الذي يحول ويمنع نكاحهن أنت الذي رأى الحلم .. قليل من الصبر والحيلة ينصرفون عن بناتك .. فبنات الأمراء كثيرات تنهد زرارة حزينا : كبرت سني يا غياث ! لا أولاد ذكور يرثونني .. ورجال البلاط يسخرون

من حلمي ومنامي .. والبنات تكبر الأميرة أمامة أمست ابنة ثلاث وعشرين سنة ، وبانة عشرين

ـ ولكن حياتك أهم من نكاحهن .

قال : قائد الحماية يخشى على حياتي بسبب ذلك .. يخشى من المؤامرات فللملكة غاضبة عليّ والوزير .. وتريد أن تتزوج ابنتها من ابن الوزير لؤي .

ـ أنا أيها الملك العظيم فعلت ما بوسعي ، وفسرت المنام .. وأدرك هذه الهمسات من ترددهم عليّ وإغرائي بالمال والجواري لأغير تفسيري ؛ لكنك صديقي منذ عهد والدك الملك نعيم ؛ فلا يمكن خيانتك والتواطؤ معهم.

ـ أنت موضع ثقة عندي ، وخصمك خصمي .. هل يقتلوني غدرا ؟!

قال : دع الخدم يأكلون من الطعام والشراب الذي يقدم لكم .. وانتظر بعض الوقت .. الشيطان عدو الإنسان .. وقابيل قتل هابيل .. وبغدرهم يغدرون بأنفسهم .

قال : ما الفائدة بعد الموت غدرا أيها الكاهن الكبير ؟!

ـ الله يحميك من الخونة .. وسأحرص على حياتك حرصي على حياتي فلديّ من السموم ما يقصف الأعمار .

الوزير أوس

لما جلس الملك على كرسي العرش في ديوان الحكم التفت للوزير أوس وحياه وقال : ماذا حدث لبني حنين ؟!

قال : يا مولاي ! لقد ذهبت بنفسي ، وقابلت سيد القوم ، وسيسلمون ابنهم للقاضي ، وبعد تحقيق العدالة سيدفعون الدية لأسرة الضحية .

قال الملك مبديا اهتمامه بأحوال الرعية ومعرفة مشاكل المدينة التي يحكمها : المهم أن المشاجرات والمعارك قد انتهت وتوقفت .

ـ على وشك الانتهاء أيها الملك .

قال : لم تنته بعد !

ـ على وشك ؛ لأنني هددت بتدخل الجيش الملكي إذا لم يلتزموا بالهدوء والسلام والبعد عن العنف .

ـ جيد أيها الوزير !

وبعد سكوت يسير قال الوزير : وماذا ستفعل بزواج ابنتكم يا مولاي الملك ؟ لقد علمنا أنك التقيت بغياث الكاهن خلوة .

قال بنبرة حادة بعض الشيء : تتجسسون عليّ !

ـ لا أحد يتجسس عليكم .. غياث هو أخبر أعوانه بزيارتكم الملكية لمعبده .. وأخبر أن المملكة في خطر من الوزير والملكة عزوف .

ـ هو أخبر بذلك!

قال الوزير بسخط : هذا كاهن ضال فاجر ! ويشكل خطرا على الملك والبلاد .

رد الملك معترضا : إنه كاهن البلاد والملك .. ولا يشكل خطرا على البلاد ولا العباد .

قال الوزير بحدة : منع تزويج الملك لبناته بذلك الزعم .. أليس في هذا خطر على الأمة ؟ فهو نذير حرب وشؤم .. فأنت تعلم من شأنه أكثر منا .. وهذا خطر حقيقي على سلطة الملك!

ـ هون عليك أيها الوزير ! إنك تكرهه أكثر من اللازم أكثر مما ينبغي أيها الوزير!

قال : لقد نصحت مولاي أمس وقبل أمس .. نحن نكبر في السن فلا تدع هذا الخوف يحرمهن من الزواج .

ـ إنه الكاهن أيها الوزير !

صاح الوزير :إنه حقير ! ولا يهمني غضبه وشخصه .. شخص يمنع سعادة بناتك فهو خبيث ولئيم !

ـ الزوجة فقط غير سعيدة أيها الوزير !

قال : موقفها منه إنه شيطان رجيم .. ولولا حمايتك له لنال عقابا صارما .. نحن نبغضه .. يحرم أم من الفرح ببناتها .. فهو سبب المشاجرات بينك وبين الملكة عزوف أم البنات .

ـ هن بناتي يا أوس!

ـ أعلم مولاي الملك! ولكنك ترفض زواجهنّ ، وتمنعهن من أهم وظيفة خلقن لها .. ومن أجلها وجدن .. الزواج والذرية .

قال : لكن حياتي في خطر من أرحامهن !

ـ هذا غيب .. والمنام أضغاث أحلام أيها الملك ! كلنا نحلم .. وهذا تأويل الكاهن اللعين وحده الفتاة أهم فرح لها الزواج والولادة .. فابنتك الكبرى كان أن تتزوج من سبع سنوات .. وكذلك أختها .. من سيرث العرش بعدكم ؟

قال متهكما : ابنك !

قال : ابني قد يتزوج إحداهن.. وابني لن يرث العرش .. نحن فينا الوزارة أب عن جد أيها الملك! ومنذ نشأت هذه المدينة والملك في أسرتك .. ولولا العهد القديم بيننا لنزعت الكرسي عنا .. ونحن سنحافظ على العهد .. ولن نكون ملوكا وإذا تزوج ابني أمامة فلا يخوله ذلك أن يجلس على العرش، ولا حتى الوزارة فهو من أوسط الأبناء .

قال الملك مظهرا كرهه للوزير : فعلا لولا العهد الدارج بين أسرتينا لخلعتك عن هذا الكرسي

ولا أريد أن يكون الخلع والشر على يديّ وعهدي .. أيها الوزير لقد عاشرت عشرات الجواري والإماء ولم تلد أي واحدة منهن .. ولو أنجبت واحدة منهن لطلقت قريبتك عزوف ولكن العلة مني كما يقول الحكيم بوسام .

ـ يا مولاي ! ليس وحده من قال ذلك ..كلهم أكد هذه الحقيقة .. وهذا قدر الله .

قال بضيق بين : وهل قدر الله أن أزوج بناتي ليلدن من يقتلني ؟!

ـ هذا غيب أيها الملك! وأنا اقترحت عليك أنّ من تلد ذكرا يحبس ، ويعيش حياة خاصة بعيدة عن الحكم والسلطان .. وفرعون مصر الذي نقرأ قصته سعى للنجاة من الغيب ففشل .. وعاش موسى النبي في قصره .. وعندما يشب حفيدك قد نكون من الأموات .

قال ساخرا : قد أعيش مائة سنة إذا لم يظهر هذا اللعين .

ـ زوجهنّ وانفيهن من البلاد .. الملوك والشعراء يسخرون منا ومنك يا مولاي! ومن هذه الأفكار .. الملك زرارة يحرم بناته من الزواج لمنام سخيف .. ويقولون ولماذا يقتل الحفيد جده الملك ؟! وجعل من نفسه أضحوكة لكاهن دجال مريض لولا حرمة الدم لأمرت بسفك دمه

هتف : أنا قلت لك إذا أوذي الرجل فأنت المسؤول عن موته ودمه عندك .

تبسم الوزير : وهل اقتله بعد كل هذه السنين أيها الملك! لو أردت قتله لفعلت ذلك قديما .

ـ كانت الفتيات صغيرات ، وكنت تأمل موته قبل بلوغهن هذه السن .

قال متحديا : الأميرة أمامة كبيرة .. ولها أكثر من سبع سنوات وهي أهل للزواج .. والخطاب يتقدمون إليها فيصدمون بمنامك الكريه ... إنك تظلمها وتحرمها من الأمومة والذرية بحكم منام .. وبحكم تفسير كاهن حاقد على الملكة وبناتها .. حب النفس جبلة في الناس .. وكاهن الملك يحتمي بك .. فاليوم بناتك الأربع في سن الزواج .. لا تخش على كاهنك اللعين مني وأنت حي والأمر يعظم عند إخوتك وأقاربك من من بناتنا بلغت العشرين ولم تتزوج لتكون أما ؟!

قال مغلولا : ألا تستطيع أيها الوزير الاختفاء من حياتي ؟!

ـ ليتني أستطيع ذلك ..فالوزارة لنا دونكم .

ـ لو خلعتك ماذا ستفعل ؟

قال : ستخلع نفسك .. ولن يقبل الناس غيرنا في الوزارة .

ـ كم أبغضك!!

تبسم الوزير فهذا معلوم لدى الجميع : هذا لا يهم .

ـ إذن لا تتدخل بيني وبين بناتي المظلومات .. فأنا ظالم في رأيك!

صرح الوزير بجرأة معهودة فيه : أيها الملك ! هناك همس .. وقد يتم عزلك عن الحكم إذا أصررت على رفض زواجهن .

قهقهة وقال بغيظ : من يهمس بذلك ؟ أنت وقومك

ـ لا ، أنا ارفض هذا المنطق لليوم .. أهلك يهمسون ذلك

ـ عمي الشيخ العفن لا يستطيع .. أنا إخوتي حذرتهم من التدخل بيني وبين بناتي

ـ أرجو أن يكون الجميع قد استوعبوا التحذير ، لأني أخشى الفساد في البلاد .

قال : المهم أن يبتعد ابنك عن ابنتي .

ـ فات الأوان أيها الملك !

ـ لم أفهم

ـ ستفهم قريبا

ـ ويحك إنك تدفعني للفتك بك .

قال : أعرف حقدك عليّ .. وأنت تعلم أن الغدر بي يعني نهاية حكمك .. فهذه قسمة قديمة بيننا .. وقد حاول أحد آبائك الخلاص من وزيره ـ أحد أجدادي ـ فخلع عن الملك .. وكاد الملك أن يحبس لولا تدخل العقلاء من قومنا ، ورمموا الأمر والجروح والكسور.

تنهد الملك حزنا وقال: نعم ، ما زلت أسمع بهذه القصة القديمة ، وأشك بصحتها .. أفكر بأن اجرب بك أيها الوزير .. وأنظر ماذا ستفعل بي ؟

ـ ما حل بجدك .. وستحبس في سجن أو قصر مغلق .

قال : إنك لا تحسب لي حسابا ..آه أنت عدو !

ـ أنا الوزير .. ونحن ندير البلاد والعباد ، ونحكم بالحب والعدالة والعمل الصالح والنظام .. والفارس حجر قائد حرسك لا تسمع لوساويسه ، ولن يؤازره أحد من عشيرتنا .. وإذا كرر أقواله بالتمرد سأضع حدا له.. وأعزله ..لا تظن أن عيون الوزير غافلة .

ـ لا أدري هل أنا الملك أم أنت؟!

تبسم الوزير العجوز : أنت الملك أيها الملك ! وأنا الوزير أوس بن عثمان سليل الأسياد من آل سلمان

قال ضجرا : ليتك تغرب من مجلسي .

ـ لست مشتاقا له .. ونحن ندير البلاد من الديوان الخاص بنا .



الملكة

دخل الملك جناح الملكة عزوف ، وحضرت الملكة لمجلسه وبين يديه ـ وكان غاضبا حانقا كما بدا لها ـ فقال : ألا تكفين ابن عمك وتحريضه عليّ ؟!

فقالت بتجاهل وعدم مبالاة مع غضب مكبوت : من ابن عمي ؟ فهم كثر .

صاح : ابن عمك الوزير اللعين!

ـ الوزير أوس ما الخطب ؟

ـ الخطب أنه ما زال طامعا في تزويج ابنه من ابنتي التي سيكون موتي على يد ابنها حفيدي .

صاحت وزعقت : هذا كلام فارغ أيها الملك ! فإنهنّ كلهنّ في سن الزواج .. وأنت تحرمهن من حقهن الطبيعي الذي خلقن له من أجل رؤية شيطانية فسرها شيطانك غياث .

ـ قلت لن تتزوج بناتي .

وقالت : ولماذا تزوجت أنت؟! وقد سمعتك تقول إن المنام جاءك قبل زواجنا .. فكان الأولى ألا تتزوج !

فقال بسخط : وهل يعيش الملك بدون امرأة ؟!

فقالت بتحد : يعيش .. الجواري يملئن القصر .

ـ تسعين للطلاق .

قالت باستهتار : ما أكثر ما تردد هذه الكلمة ! أنا لا أخشى الطلاق .. أنا لا أرضى أن تبقى بناتي بدون أزواج ، وبدون أبناء .

قال : أنت حمقاء مثل ابن عمك ! .. أفكر بخلعه عن الوزارة ، ونفيه إلى مدينة أخرى .

ضحكت للحظة وقالت : لو أنك تستطيع ذلك لفعلته دون إخباري.. ولفعلت ذلك من سنوات .. وأنت متأكد أن خلعه خلع لنفسك .

صرخ بجنون : لن يوجد حفيدي يا عزوف!

ـ والعرش.

قال : عندما أموت بهدوء وسلام يرثه من يشاء .

صاحت : يا رجل البلاد ! حفيدك غيب في علم الغيب ، قد لا يولد، قد لا يعيش .. وهل نعيش حتى يشتد عوده ؟ .. ولماذا يقتلك ؟! أنس هذا الحلم الشيطاني .. الكل من الأمراء والسادة منزعجون من ترك البنات بدون زواج .

ـ هن بناتي يا عزوف

ـ وبناتي كذلك .

قال بعد سكوت : أنا أفكر حقا بالقران .. وسأتزوج الأميرة غزنة

ـ علمت أن والدها اعتذر عن زواجها .

ـ اعتذر خشية إخوتك ، وابن عمك الوزير وطلاقك .

قالت : طلاقي لا يهمني.. الذي يهمني نكاح البنات .. من هذه الجلسة طلقني

ـ وأهلك !

ـ هذا شأن خاص بنا .. ألست الملك والسيد المطاع أيها الملك ؟!

قال : لست مطاعا .. الملك الحق اللعين أوس بن عثمان .. حتى الحرس يخشونه أكثر مني .

ـ أنت إذن لست ملكا !

قال متحسرا : نعم ، منذ مقتل القائد ضرار ذهب ملكي .

قالت : على ذكره هل علمتم قاتله ؟

ـ الوزير اللعين أخبر أن الرجل قتل غيلة وغدرا عند الغدير ، لقد نصحت له أن لا يذهب إلى ذاك المكان .. ولم يسمع لي .. لقد هاجمهم الفرسان ليلا ، وقتل مع رجاله وحرسه وخدمه إلا ذلك الغلام الذي تسلق شجرة عالية وغفلوا عنه .

ـ ماذا كان يعمل تلك الساعة من الليل ؟

قال : كان يقضي حاجته عند الجبل ، ولما رجع للمعسكر سمع الصراخ فصعد أعالي الشجرة ونجا .

ـ كتبت له الحياة ..والقائد الجديد!

ـ ولاؤه للوزير أكثر من ولائه للملك .

قالت : كلهم ولاؤهم لك حتى الوزير .. وأنت تعلم أنه حسن الخلق على سوء خلقك معه .

ـ أنا لا أطيقه .. متعجرف .. حذرته اليوم من الغدر بالكاهن غياث .. وإذا أصابه مكروه فهو المسؤول عن ذلك .

قالت : لو أراد الوزير الفتك بغياث اللعين لفعل ذلك من قبل أيها الملك!

تنهد ضيقا وقال : وأنا هذا الذي يحيرني ..فهو يحقد عليه بقوة ! وحقده واضح .. وما زال مبقيا على حياته ؛ ولكن غياثا يحس بالخطر المحدق به كما يقول لي أيها الملكة .

ثم سأل :كيف تعلق ابن الوزير بابنتنا أمامة ؟ ولو قبلت بزواجها فلن يكون ابن الوزير أحدهم

همست : هو فارس شجاع ..والبنت تهواه وتعشقه .

صاح : إنه شاب سيّء وقح !

ـ رآها صدفة من سنوات ، ووقعت من نفسه ، وهي قبلت به .

ـ قلت لن يتزوجها وأنا حي .

صرخت محتدة : هذا ظلم .. ظلم أيها الملك! ومنامك فاسد.. أهذا حلم أيها الملك ؟ من أجل حلم تظلم بناتك ، وتحرمهن من الأمومة .. فالأمراء يرغبون بهن زوجات .. زوجهن واحبس ذريتهنّ حتى يدركك الموت فيخرجون للدنيا

ـ لا يقبل الآباء والأجداد ذلك الشرط .

ـ شرط عليهم .. كل بنات المدينة تتزوج إلا هن محرومات مما فطرن عليه .

قال : إذا تزوجت إحداهن سأضطر لطلاقك .

ـ قلت لك ألف مرة طلقني قبل زواجهن .. المهم أن تزوجهن الأكفاء ، ويصبحن زوجات وأمهات مثل بنات المدينة .

ـ لن أقبل أي شفاعة لتعودي ملكة وزوجة .

قالت : سأعتكف في قصر والدي .

قال : لم أعد أراه في الديوان .

ـ مريض جدا .

ـ لم أخبر بذلك .

ـ بل أخبرت ؛ ولكنك تجاهلت الحديث عنه ..وقد بلغ من الكبر عتيا

غير الاستفهام وقال : شقيقك عادل هل من أخبار عنه ؟

ـ منذ اختفى لم نسمع عنه شيئا ؛ ربما غرق في البحر

قال : أين جثته ؟

ـ وهل كل من يغرق تظهر جثته ؟ وجدوا سفينته على الشاطئ محطمة

ـ والبحارة .

ـ اختفوا معه .. فالراجح أنه ميت .

ـ ولكنكم لم تعلنوا موته ، وتقسموا ميراثه .

ـ لم نتحقق من موته ..يخشى أبي فعل ذلك قبل التحقق من هلاكه .



لؤي ابن ا لوزير

دخل الأمير لؤي على مجلس والده الوزير ، وأعلن عن طلب خلوة ، فأخلى الجالسون الحجرة وقال الوزير منزعجا : ويحك ما الأمر لتطلب إخلاء الحجرة ؟!

قال الشاب : هنا خطب خطير يا مولاي !

كان الوزير يحدق فيه : خطب ! تكلم إنني مصغ إليك .

قال : الملك يرفض زواجي كما تعلم من ابنته أمامة .. وقالت لي الأميرة قبل مجيء إلى هنا أن الملك يسعى لتزويجها من أمير غريب أمير من غير مدينتنا نكاية بنا .. وأقسم ألا يزوجها لي أو لأحد من بلادنا .

سكت الأمير ، ولزم الوزير الصمت لدقائق، ثم قال بهمس: الأميرة قالت ذلك .. إنه مصر على رفض الزواج .. فلن يأتي الأمير من مدينة أخرى .. كيف لو يعلم بزواجها خفية ؟ وإنكما زوجان .

تنهد بعمق وحزن : هذه الداهية ..والأميرة حامل يا مولاي!

دهش الوزير وقال : أوه حامل !!

ـ أليست أنثى كسائر النساء ؟

قال مؤنبا : تعجلتم بالحمل !

ـ قدر الله ذلك يا مولاي ! رغم استخدامها تلك العشبة التي أوصيت بها فالأمر خطير ومزعج

ـ نعم ، نعم ؛ ولكن لا تيأس ..كل قضية ولها ألف حل .. الملكة تعرف بهذه الأخبار الطيبة .

قال : نعم ، تقول الأميرة إنها على علم بحملها ، وبسعي الملك لجلب زوج لها من غير بلادنا ، وهي تراعي الأميرة وإبعادها عن لقاء الملك ومجلسه خشية فضح أمرها وسر زواجنا الخفي .

صمت الوزير لدقائق ثم قال : سنعيق هذا الزواج إذا جد ذلك ، ولن يحصل بالتأكيد .. فهي زوجك.. وسنترك الملك يدبر هذا الزواج الغريب، وينشغل بهذه القضية ..وقد تأخذ وقتا طويلا حتى تتم إن صدق .. ثم نعيق الأمر حتى تلد الأميرة خفية عنه وعن عيونه .. فعلينا

بالهدوء ولزوم الصمت والسكون حتى تضع حملها .. وسنبدأ حيلة ومخرجا .. وقد يكون هذا منه خدعة ؛ لنكف عن اللح عليه بتزويج البنات البائسات من حلمه .

قال : هذا هو الحل يا مولاي الوزير!

تريث الوزير قبل الرد ثم قال : نعم ، فليبحث عن الزوج الغريب .. وبعد الولادة يخلق الله ما يشاء أيها الأمير .. نحن أخوال الأميرات ، وعدم زواجهن عار علينا كالملك تماما.. فعلينا أن نكون معهن ، وندبر زواجهن رغم أنف الملك .. هذا أول ملك يحرم بناته من الزواج بحلم ومنام شيطان.. شجع الأميرة على الصمت ، وإخفاء الأمر وعند اقتراب الوضع فسأقوم بأبعادها إلى قصر صحراوي .. وستكون أمك والداية هناك .. سهل الله أمرنا .. وسيأتي يوم ويشهر هذا النكاح على العامة والأمة .. تعلم أن الملكة استغاثت بي بعد يأسها من زوجها بتزويج بناتها الكبريات .. وما كان إلا أن ألبي الاستغاثة يا لؤي .. وأنا أعلم هواك للأميرة ، وهواها بك.. واعلم عناد الملك وصعوبة تغيير رأيه ، وقد عشعش في رأسه موته على يد حفيده " موتك حفيدك " والكاهن اللعين سيطر على عقله وقلبه .. وقد حذرني من إيذاء غياث أو قتله .

قال : لقد راودتني نفسي مرات بسفك دمه والقضاء عليه .. وأن أغمد خنجرا في صدره .. لقد استغل الحلم أسوأ استغلال للسيطرة على الملك ، وملأ قلبه رعبا كما تقول أمامة من زواجهن إنه يتكلم عنه بخوف ورعب .

قال الوزير ببغض للكهنة : هؤلاء الكهنة والمنجمون يستغلون العقول والقلوب الضعيفة ، وقلوب الأسياد للسيطرة عليهم .. كان والده مثله يرتعب منهم ، ومن تكهناتهم ، لا يعمل عملا إلا بموافقتهم .. وقد حاولت ثنيه عن التعلق بهؤلاء الكهنة ولم أفلح .. فقد ترسخ في عقولهم صدق تكهنهن وخاصة هذا المنام الشيطاني.. لم يهتم برأيي ؛ بل سفهه ..وقلت تظل بناتك عوانس ومحرومات من الذرية من أجل هكذا حلم حلم تافه .. فيقول ألم ير ملك مصر البقرات السمان والعجاف ، فكان القحط ؟.. هكذا يقول له غياث اللعين إنه خبيث ماكر !

ـ إذن علينا لزوم الصمت يا مولاي ! إزاء ما يحدث في ديوان مولانا الملك .

ـ من يقوم بالمراسلة بين الملك والأمير الغريب ؟

قال :لا ندري الملك صرح للملكة ، ونقلته لإمامة ومن أمامة لي .

ـ تغريب النكاح ..إذا كان جادا سيجد ، ولن يكون الأمر سهلا .. فهم يعرفون قلة تزويج بناتنا الأميرات من أمراء خارج بلادنا .. نادر أن يحصل ذلك.. ويحصل لأسباب حربية ؛ ولكنه يحصل أحيانا كتبادل بيننا لتقوية أواصر علاقتنا مع الملوك الآخرين .. وهذا لا يتم إلا بإعلامي وإعلام القاضي الكبير والسادة الأقارب من الدرجة الأولى .. علينا بالصبر لنرى تحقق ذلك .. وحين تلد الأميرة سنجد حلا لزواجكم الخفي .

ـ عليّ نقل ذلك للأميرة ؛ لتطمئن الملكة الأم .. سأبعث إليها الجارية محظية برسالة شفوية

ـ أما زالت البريد بينكم ؟

قال لؤي : إنها ذكية !

ـ ولكنها جارية

قال : ربنا الستير يا مولاي الوزير !



الحمل الخفي

قبل الفجر بوقت يسير انطلق الأمير لؤي إلى قصر الأميرات ، ومن مدخل خفي مشى نحو إسطبل الخيل ، والتقى بالأميرة أمامة زوجته ، وبعد عناق وإظهار مشاعر الحب والغرام ، قال لها بعد ذلك رأي الوزير بقضية الخطيب الغريب ، وإن عليها عدم الجزع والخوف ، والاستمرار في إخفاء الحمل والزواج ، وقال لها لن تكون هناك فضيحة ، ونحن تزوجنا سرا عن الناس والملك ؛ لأن والدك يمنعكن من النكاح بذلك المنام الشيطاني ، واستطاع تهدئة قلقها وخوفها وأن والده سيتحين الفرصة المناسبة لإشهار نكاحهما .

فلما اطمأنت روحها قالت : أمي تتحدث عن طلاقها .

قال مشجعا : هو يتحدث عن ذلك من عهد بعيد .. وأمك حسب علمي غير مبالية ، ولا يهمها طلاقها ، المهم سعادتكن.. ولم تعد تخشى مولانا الملك!

قالت بحب : كم أحس بالأمان وأنا بين يديك !

ـ سنحميك يا أمامة فأنت قرة العين .. ولن أتخلى عنك أبدا ـ إن شاء الله ـ وسيظهر زواجنا للعلن .. ونعيش كباقي الخلق .. ويبارك لنا الجميع بهذا الزواج .. ويقبل الوالد بهذا الزواج ، ويتخلى عن ذلك الحلم .

قالت وهي ترتعش : أيقبل أبي بعد كل هذه السنين التخلي عن حلمه ؟!

- أليس هو الذي بدأ يتحدث عن زواجك من أمير غريب ؟

ـ أنا عجبت من ذلك الكلام !.. ولزمت الصمت .. لا يمكن أن تتزوجي من ابن ذلك الرجل فكم يتحدث عن كرهه لكم ! وتمنيه اختفاء الوزير من الدنيا .

تبسم لها : سنختفي كلنا يا أمامة من فوق الأرض .. وما دام الكره والبغض في القلب فلا خوف منه .. أما إذا خرج لليد والجوارح فهنا مكمن الخطر والضياع .. وعسى أن يفيق الوالد من منام الشيطان ، وتتزوج باقي البنات في أمان وسلام .

ـ ليتني أعيش بسكون وهدوء كسائر الخلق وبنات المدينة !

عاد لزرع الأمل : سيتحقق ذلك قريبا .. ثقي بي .. سنعيش هذه الحياة الهادئة والطيبة .. قد نعيش هذه الحياة عند ولادة ابننا أو ابنتنا يا أمامة .

ـ إني مرعوبة يا سيدي من افتضاح أمر الحبل .. وهل سيخفى على عيون أبي ؟

ـ حتى ولو علموا يا أميرتي لا يجرؤون على نقل ذلك .. فسيغضب الملك ، ويغضب الوزير .

ـ كم أنت رائع وأنت تبث الطمأنينة في نفسي ! رائع بهذا التشجيع ! أنا بحاجة أن أسمعك كل ليلة .

قال بثقة : سيحدث هذا أيتها الأميرة الغالية ! هي أحوال صعبة ..سنعيش تحت سقف واحد وستلدين غيره .. لولا حبي الصادق لما غامرت هذه المغامرة .. الحب الطاهر جمع بيننا .

قالت :أتمنى أن لا تكون غلطة الدهر .

ـ أنت مرعوبة جدا يا أمامة حسبتك شجاعة قبل هذا اللقاء!

قالت : الحمل مخيف أيها الشجاع ! حتى أمي بدأت أمس ؛كأنها نادمة على زواجنا

ـ نادمة ! أعتقد أنها قلقة فحسب .. أليست هي التي شجعتنا على الزواج ؟ واستغاثت بأبي وتزوجنا دون علم الملك .. لا تقلقي يا حبيبتي .. واعلمي أن

السيد الوالد لن يتخلى عنا ..وقد شجعنا على الزواج لما رأى أن الكلام مع الملك بغير فائدة .. وكلام الملك عن زواجكم سيغير من عقدة الملك إذا سعى للبحث عن أمراء من خارج المدينة ويقرب فكرة زواج الأميرات .

ـ أخشى أن يكون ذلك حيلة حتى تسكت أمي عن اللح عليه بزواجنا ..وأن يصر على عناده وخوفه من الغيب .

قال : يا حبيبتي توكلي على رب البرية سيغضب سيغضب ، ثم يضعف ويرضى بزواجنا ، ويبارك لنا .. المهم أن لا يعلم بوجود الحفيد رغم أنفه كما يقال .. هذا غياث شيطان مريد كان يستطيع أن يغير فهم الملك في تفسير المنام ؛ ولكنه وجدها فرصة لتعزيز موقعه عند الملك لغاية في نفسه ، وجعل الملك ألعوبة بين يديه .. إنما هؤلاء الكهنة كان يستفيد منهم أجدادك عند

الحروب عند زواجهم زواج بناتهم .. هل يخوضون الحرب أم يؤخرون المعركة لوقت وزمن آخر ؟ حسب شعوذة الكهنة .. تقديم الزواج لفصل كذا .. شهر كذا .. هذا الزوج مناسب غير مناسب .. وكثير من الأمور كما يحدث أبي دخلوا فيها ، وخاب رملهم وخطهم أميرات تزوجن بمشورتهم ، ثم طلقن ، لم يلدن ..وأصبح هذا تقليدا متبعا في أسرة الملك والدك وأجداده .

ـ إنكم لا ترهبون هؤلاء الكهنة .

ـ نحن لا نهتم بهم ، ولا نعتمد عليهم في حياتنا ومغامراتنا .. فهم عدو لنا أيتها الحبيبة ! ولولا تعلق أسرتك بهم لطردهم أبي من البلاد .. إنهم دجاجلة يعتمدون
على التخريف والحدس .. وكثيرا ما يخيب حدسهم .

الحبس

استطاعت الملكة عزوف وابنتها إخفاء الحمل حتى ولدت الأميرة مولودها في مكان سري بمساعدة الأمير ، لؤي الذي لما تسلم المولود دفعه لخادم أمين معد لهذا اليوم ، وغادر المدينة قبل انبلاج الفجر بحماية الأمير ، وخرج به من مخرج غير مطروق ، ولما عاد الأمير طمأن الملكة والأميرة على إخفاء الطفل .

وكان الملك خلال هذه الفترة يزعم أنه يراسل الأمراء والملوك لتزويج بناته ، وأنه أرسل بعض خدمه واتباعه لهذه المهمة الحساسة ؛ ولكن لم يصدقه أحد من الأمراء ، ولم يأخذوا كلامه على محمل الجد .

وذات ليلة بعد أقل من شهر على الولادة الخفية دخل الملك جناح النساء غاضبا ساخطا هائجا ولما مثلت الملكة بين يديه صاح فيها : لم أكن أعلم أنك خائنة وحقيرة لهذه الدرجة !

فصاحت دون تردد : احترم نفسك أيها الملك ! أأنا خائنة ؟! ما هي الخيانة التي تتحدث عنها ؟!

لطمها غضبا وسخطا وصاح : أتلد ابنتك الفاجرة من ابن الوزير اللعين دون علمي ؟!

ـ ومن أخبرك بهذا ؟!

صرخ غضبا : ليس المهم من أخبرني ؟ المهم أنك خائنة مجرمة متآمرة .

قالت بهدوء : لست خائنة ، ولا مجرمة ، أنا تهمني مصلحة ابنتي .. لقد هرمت ، ولم تتزوج .. هي تزوجت ؛ لأنها كبرت وشاخت من وراء حلمك ومشعوذك غياث ؛ ولأنك كنت مصر على الظلم والعدوان .

ـ يا لك من حقيرة ! تزوجينها دون علمي أنا.. سأقتل هذا اللؤي اللعين .. يخون مولاه الملك

ـ أنت تسعى للفتنة .

قال : أنتم الفتنة ! سأقتله .. اعلمي أن ابنتك في الحبس حتى تموت ، لن تخرج إلا للقبر ، ولسوف أعرف مكانه .. أين أخفيتم الوليد ؟

ـ تحدث مع أوس .

ـ سآمر بحبسه ، وإذا لم يخبر بمكانه سآمر بقتله .

قالت : تسعى إلى حتفك ؛ كأنك نسيت حجمك ، ونسيت من هم قومه ! وإذا قتلت الوزير فسيقتلك حفيدك ،وتتحقق نبوءتك إذا لم يثأر قومه منك .

فكر الملك وقال : ويلك ! من يجرؤ على قتل الملك ؟!

ـ ومن يجرؤ على قتل الوزير ؟!

قال : عليّ بتطليقك الآن .

ـ الصفعة لن أنساها لك .

فلطمها ثانية وصاح : ولا تنسي هذه أيضا .

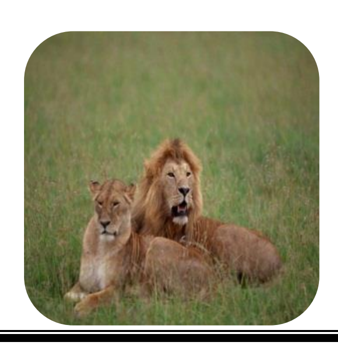
فصرخت وقالت : سوف ترى ماذا تفعل عزوف ؟ سيكون موتك على يدي

ـ ويلك يا امرأة ! ويا لك من وقحة ! تخون زوجها ، وتزوج ابنته بدون موافقته من ذاك الجبان غادر الأمير المدينة سيعود ويا ويله !.. واحذروا غضبي ونقمتي .. سوف ترون عقابي أيها الجبناء الخونة .. وابنتك لن تخرج من الحبس حتى تموت

تركته ولبست ثيابها وفارقت القصر حيث والديها ، وانتشر خبر طلاقها في المدينة ، وخبر زواج ابنة الملك خفية من ابن الوزير لؤي .. وشاع الخوف والترقب بين أهل المدينة لهذه الأخبار ، وانتشرت الإشاعات والأقاويل والعواقب المرتقبة ، وشاع أن الملك يخطط لاغتيال الوزير أوس والانتقام منه ، وأن قبيلة الملك غاضبة على الوزير وقبيلته ، وأن البلاد على وشك الصراع والقتال وأنصار كل طرف يهددون ويتوعدون .. وهناك خشية من نقض العهد بين العشريتين الكبيرتين بسبب هذه القصة .. الكل يعلم أن القوة الحقيقية في المدينة بيد الوزير أوس وقبيلته ، ولولا العهد بينهم وبين سائر قبائل البلاد لاعتلت قبيلة الوزير الملك منذ عهد بعيد .. وبعد حين يسير عادت الأمور للهدوء ، ولم تمس من الوزير شعرة ولا من ابنه لؤي ، وعلم أن أخوة الملك وأقرباءه حذروه من التمادي في عداوته للوزير وغضبه ، وأنه هو سبب هذه المشاكل بعدم تزويجه

البنات المستحقات للزواج من الأمراء والسادة ؛ بل تعرض الكاهن للضرب من مجموعة من رجال قبيلة الملك ، وطلبوا من الملك نفيه من البلد ، وتعيين كاهن جديد للمدينة قبل أن يقضوا عليه .

وعاد الملك للسكون والصمت والاعتذار لسادة قبيلته ، وأدرك الملك من جديد ضعفه ، وأن الملك الحقيق للبلاد الوزير أوس ، ولم يعد الوزير يجلس في ديوان الحكم الخاص بالملك ولو ساعة من نهار ، رغم الشفاعات أصر الوزير على رفضه والعناد .. وخشي العقلاء من السادة من الحرب الداخلية .. وأمام إصرارهم وافق الوزير على الصلح التام بإخراج أمامة من الحبس وإعلان الزواج في البلاد ؛ ولكن الملك رفض بقوة العفو عن ابنته الخائنة ، وستبقى في الحبس حتى تهلك وتموت .. وكل ظل على موقفه المتشدد .. وانتقل الكاهن بعد البهدلة التي تعرض لها من أقارب الملك للحياة في جناح خاص في نفس قصر الملك .. وهو حانق على ضعف الملك، وعدم قدرته على عقاب أقاربه الذين آذوه .



بانة

لم يستطع عقلاء المدينة إصلاح ذات البين بين الملك ووزيره ، وكل واحد منهما متمسك بمطالبه وشروطه .. الوزير يصر على إخراج أمامة من السجن ، وإعلان زواجها من ابنه لؤي والملك مصر على حبسها ،وعودة حفيده من مخبئه.

وبينما الناس والسادة مشغولون بعداوة الملك ووزيره أخبر الملك بهرب ابنته بانة مع الأمير كساب ؛ وكاد يسقط عن كرسي العرش عند سماعه الخبر ، وكان أحد القادة قد وضع هذا الخبر في قلبه .. فأمر الملك بمحاصرة قصر والد الملكة عزوف لتفتيش القصر ، ولكن القائد الناقل للخبر أخبره أنهما خرجا من المدينة ليلا ، وعلموا بذلك صباحا عندما لم تحضر الأميرة لطعام الإفطار .

فصاح وهو يحاول الاتزان : هذا مكر من أمها مع الوزير ! حاصروا القصر سأذهب للقاء بها الأمير كساب بن صلاح هو أحد أبناء الفرسان الكبار في المدينة ، ووالده خطب ابنة الملك لابنه كساب ، فرفض الملك متحججا بالحلم والمنام ، فعاد الرجل لقصره ، وطلب من ابنه صرف النظر عن ابنة الملك ، وتظاهر الشاب بقبول ذلك ، وظل على علاقة خفية مع الأميرة ذات العشرين سنة ، ولما رأى ما يجري في البلاد رتب مع الأميرة حيلة للهرب من المدينة والحياة كسائر الناس ، فوافقت الأميرة على الهرب معه وعلى ترتيبه ، ولما سنحت الفرصة وانشغال المدينة بالصراع بين الملك ووزيره غادرت القصر بعد نصف الليل زاعمة للحرس أنها ستزور قصر أمها فرافقها الحارس حتى بوابة القصر ورجع ؛ ولكنها لم تدخل القصر ، ولم تقرع قصر الأم والجد ، فبعد قفول الحارس اتجهت إلى أحد أطراف المدينة ، والتقت بالأمير كساب وتابعا سيرهما على جوادين ـ كان قد جهازهما لهذه المغامرة ـ وكانا يسابقان الريح للابتعاد عن المدينة ولما بزغت الشمس تخليا عن الجوادين ، وخلعت ملابس الأمراء ، وتابعا المسير سيرًا على الأقدام إلى إحدى المدن الكبيرة .

واجه الملك مطلقته واتهمها بالتآمر عليه ، وأقسمت له بعدم علمها بغاية ابنتها وبهذه المصيبة

الكبرى ، واتهمته بأنه السبب لفعلها ذلك لمنعهن من النكاح .. وكذلك أقسم والدها داود بأن ابنته لم تدخل القصر الليلة الماضية .. وأنها خدعت الحارس .. وأن ابنته لا دخل لها في اختفاء الأميرة .. غادر القصر حانقا ناقما حائرا .. وأمر بتشديد الحراسة على ابنتيه الباقيتين .. واجتمع بالكاهن غياث ، وأطلعه على هرب ابنته .. فاغتم غياث أو تظاهر بذلك .. واتهم الوزير بتدبير الأمر ومكيدة الهرب .. فأكد له الملك جهل الملكة باختفاء الأميرة وأن الهرب يسيء لها قبل أن يسيء له .. فطلب الكاهن المهلة للتفكير في الأمر والخطب .

أصابت الملك الحيرة بتطاول أعيان البلدة عليه ، وقال لغياث : ألهذه الدرجة يا غياث ضعفت ؟! وإن القوة بيد الوزير اللعين .. ابنتي الكبرى تتزوج دون علمي .. ولولا ذلك الخادم الناقم من صاحبته ما علمت بولادتها .. واليوم ابنتي الأخرى تهرب مع صعلوك .. تهرب لتتزوج دون رضاي .. إنني أكاد أجن أين فرساني ؟ أين أهلي ؟

قال غياث متملقا : أنت طيب أيها الملك ! لا تستخدم القوة مع الخصوم .. ركنت للسلام والهدوء .. لو أنت أدبت الوزير قديما لما تجرأ عليك اليوم .. الكل

يهابونه ويخشون غضبه .. أنت لا تحكم بقوة حتى امرأتك لا تكترث لك .. معذرة أيها الملك أنا أقول الحقيقة .. الملكة جعلتك أضحوكة عندما زوجت ابنتك دون علمك ، وولدت ابنتك دون علمك ، وأخشى الحفيد الذي سيكون موتك علي يديه .

ـ هلاكي !

ـ نعم ، وإلا لماذا أخفوه ؟!

تفكر قليلا وسأل : وهل سأعيش حتى يكبر حفيدي ؟ أتراه كيف سينال مني ؟! ألست أنا سبب إخفائها الزواج ؟ وهرب الأخرى يا غياث ؟

قال الكاهن محذرا ومخوفا : هذه هي الرؤية .. حفيدك حفيدك .. رغم حرصنا أيها الملك ولد لحفيد واختفى ! عليك أيها الملك أن تبحث عن الحاقدين والناقمين عن الوزير وقبيلته ، وتحرضهم ، وتزيد النار في قلوبهم على الوزير وحاشيته .. ذاك الرجل المسمى شهابا ألم يحقد

على الوزير عندما عاقبه وجلده في الساحة ؟ .. اتصل به بوسيلة ما وأثره على الوزير .. وتلك المرأة التي شكت قبل سنوات من الوزير ، وأنه استولى على بيتها بعد وفاة زوجها .. وأنا سأبحث عن كل من ظلمهم الوزير وأعوانه واحرضهم على الانتقام منه ومن أعوانه .. والمال أشتر به ذمم الفرسان .

ـ وإذا علم الوزير بذلك !

ـ ماذا سيفعل هذا الوزير سوى التهديد والتحذير ؟

قال متمنيا : متى سيهلك هذا العجوز يا غياث ؟

ـ سيهلك .

تلاقت العيون :أتستطيع تدبير مكر فيه ؟

ـ أنا !

قال : أنت ..ألست تصنع الأدوية السحرية ؟

ـ أنت تحكم عليّ بالموت .. أعوان الوزير يرقبون أمري .

قال : أحد أعوانك.. أريد أن يموت هذا الوزير .

ـ سوف أفكر بالأمر مليا .



هدر الدم

ظهر ضعف الملك على مدينة اللؤلؤ عيانا ، فطفق يفكر بقتل الوزير الشيخ زاعما أنه وراء زواج ابنته الكبرى خفية ، وهرب بانة مع الأمير كساب ابن أحد كبار القادة .. واتفق على ذلك مع كبير الكهنة غياث ، وسيكون القتل بالسم .

وأصدر الملك إعلانا يهدر فيه دم الأمير كساب ، ودم ابنته الهاربة ، وأعلن عن جائزة لمن يحقق ذلك المطلب .

وعجب الناس من هذا الإعلان ، وكانوا يتوقعون أن يصدر الملك عفوا عنهم ؛ ليعودوا للبلاد وتهدأ النفوس ، وتصفو القلوب .. لكن الملك أخذ الخطوة الخطرة وهي الدم والانتقام .

وربما لو عرف الناس أن سبب رفض الملك زواج بناته منام رآه الملك ، وهو سبب هذه الأمور الخطرة .. فسيسخرون من الملك وحلمه ؛ و ينسبونه للحمق والجهل

وكان الوزير أوس منذ اكتشاف أمر زواج ابنه مقاطعا لمجلس الملك ، ولا يزور الديوان مقر حكم الملك.. وهو مصر على العفو عن الأميرة وإطلاق سراحها ، وإعلان الزواج من ولده .

وكلما مضى يوم دون خبر عن حفيده ، وعن ابن الوزير يزداد حنقا وغيظا وغضبا ، وأخذ يبحث عن أعداء الوزير والأشخاص الناقمين عليه ليقربهم ويستفيد من حقدهم وعدوانهم له .

كان قائد الجيش من أقارب الوزير وقبيلته القوية ، كان قد تعامل مع قائد الحرس الملكي بقسوة الذي حاول السعي والشفاعة بين الملك والوزير ، فأسقطه من ديوان الجند والجيش .. وحاول الملك بواسطة اتباعه استمالته لصفه بالوعود البراقة والأحلام الوردية ؛ لكن القائد اعتذر بقوة الوزير وسطوة قائد الجيش .. وكذلك رفض القائد الجديد للحرس الملكي التمرد على قائد الجيش والوزير .. فأدرك الملك مرة أخرى ضعفه أمام قوة الوزير ، وضعف آبائه وأجداده .. وأنهم مجرد ملوك لا حول لهم ولا قوة .

وخلال هذه الفترة من التوتر وجُد من الناس والأفراد من يتعاطفون معه ، ويريدون التعاون معه على أمل التغيير في نظام الحكم في البلاد ، وإضعاف سيطرة الوزير على مقدرات البلاد

والعباد .

اتخذ الملك قرارا خطيرا آخر ، وهو الأمر بنفي زوجته المطلقة ووالدها من المدينة .. وحصلت ضجة في البلد لهذا القرار .. وأمام إصرار الملك غادرت الأميرة وحدها البلاد إلى مدينة مجاورة ورافقها أحد إخوتها ، وبعض جواريها وخدمها ، ولم يحاول الوزير التدخل في هذه القضية ذلك الوقت ومنع النفي .

جاءت رسالة سرية من أحد الملوك للملك يُبدي استعداده لغزو بلاده ، وقتل الوزير أوس ، وكان غياث أرسل له أحد أعوانه خفية ويطلب منه هذا الأمر .

استحسن الملك زرارة الفكرة ؛ ولكنه خشي من استيلاء الملك الغازي على البلاد ، وأن يخسر هو الآخر ملكه ؛ لأنه لا يقاتل أحد بدون ثمن وجائزة ، وأنه بغير وريث ذكر ..وتشاور مع الكاهن بأمر هذه الرسالة الذي تظاهر بأنه يجهلها وتخابث الكاهن وشجعه على التحالف مع الملك نواس ، والانتقام من الوزير وحاشيته واتباعه لرد الكرامة والهيبة لعرش الملك .

فقال الملك : أخشى زوال ملكنا يا غياث إذا انتصر نواس ..فهو سيطمع بحكمنا ، ثم يرثني حيث لا ذكور لي .. وإذا انتصر الوزير سأوصم بالخيانة وأعزل إن لم اقتل .. هذه مغامرة خطرة

ـ سيعيد لك الكرامة المهدورة أيها الملك .. وتعود لك القوة والمجد .. إنه ببعض المال يغزو البلاد ويقتل الوزير ، وتصبح أنت السيد المطاع .

قال مشككا : ومن يضمن نجاحه وانتصاره؟! أنا أسمع أنه مغامر .. ليست جيوشه بالقوية .. وسمعت أن ابنه غزا بلدة وعاد خائبا .

ـ تلك مدينة قوية ، وغير منقسمة بين ملك ووزير كحالنا .. واعلم أن جيشها أقوى من جيشنا ولن تكون حربا طويلة إنها بعض المعارك ولسوف يستسلم جيش الوزير .. فلنا أكثر من عشرين لم نخضع حربا .

ـ أحتاج لمزيد من الوقت لارتكاب هذه المغامرة .. أنا يهمني الآن جلب كساب والأميرة الهاربة وجعلهما عبرة لمن اعتبر من أهل المدينة.. لقد أهدرت دمهما .

البحث

لم يتشجع الملك لتدخل الملك الغازي نواس لغزو مدينته لإذلال الوزير واتباعه ، وخشي من فوزه ، وخشي من خسارته ، فهو الخاسر من كل الجهات ، فسيضعف الملك الغازي من سلطته الضعيفة أصلا ؛ وربما يرثه بحجة الدفاع عنه ، وإذا انتصر الوزير وجيشه قد يتعرض للقتل باسم الخيانة أو الخلع .. وكان يمني النفس بقتل الوزير بأقل الخسائر ، ودون أن يتهم بقتله غيلة وخفية ، ووكل الكاهن غياث بتدبير ذلك بصنع ترياق سام .. وذاك الكاهن يخشى على نفسه من الفشل ، ومرعوبا من افتضاح أمره قبل القتل وبعده .. ولن يرحمه أبناء وأعوان الوزير ولن يحميه أعوان الملك ، وهو خير من يعرف ضعفهم وخوفهم من سطوة أوس .. فأخذ يفكر بحيلة يقتل فيها الوزير يصعب معرفة فاعلها .. فغادر البلاد بحثا عن سم لا يعرف ، ولا يعرفه أطباء وحكماء المدينة .

واجتمع الملك بعدد من الفرسان خرجوا يبحثون عن كساب وابنته ، وكلهم رجع خائبا سواء بمعرفة مكان اختفائهم أو قتلهم .. وكان يفعلون ذلك خفية عن أعوان الوزير وعيونه .. وسيادة الوزير لم يكن مهتما بهذه القضية كان همه أن يفرج الملك عن ابنته أمامة وإشهار زواجها من ابنه لؤي ، وعودة الطفل إلى المدينة ؛ ليعيش كسائر الأمراء والسادة .

كلّف الملك ثلاثة فرسان من مواليه وأتباعه بالذهاب لمدينة "ديك الصباح" حيث نفيت مطلقته للعيش والحياة فيها .. وكان قد وافق ملك تلك المدينة على حياتها في بلده ، وتحت رعايته كأحد الرعية دون حراسة وحماية خاصة .. وكلفهم زرارة بمراقبة بيتها طمعا بمجيء بنتها وكساب إليها عندما يعلمان بنفيها .

وبعد مضي أكثر من أسبوع من المراقبة رأوا ابن الوزير لؤيا يزورها ، ويقضي ليلة في بيتها ، فعاد أحدهم للمدينة مخبرا الملك بهذه الزبارة ، وأنهم لم يرصدوا الأمير كسابا ، ولا ابنته بانة .. فحثهم على الصبر والحذر ، وأنهم لابد لهم من زيارتها في يوم ما.. وفكر بدّس جارية عليها أو خادم ليعمل في قصرها ؛ ولكنه عجز عن وجود حيلة للوصول لبيتها دون أن تدرك أنه دسيسة منه ..

فعزوف ذكية وشجاعة .. فلو أرسلها كهدية ستعرف .. فلابد من إرسالها عن طريق شخص تثق به .. وهو لا يهمه شخصها وحياتها الذي يهمه القبض على ابنته وزوجها كساب .. ففكر أن يرسلها كهدية من الوزير ، وفكر بتزوير رسالة على لسانه ويبعث معه الجارية وبعض المال ولما ارتاح لهذه الفكرة أخذ يفكر بالجارية القادرة على تنفيذ مخططه .. وأجل التنفيذ لحين عودة الكاهن غياث الذي ذهب يبحث في المدن والأمصار عن سم مجهول ليقضي به على ذات الوزير دون أن يعرف هذا النوع من السم في بلادهم ، وربما استعان بجاريته سمات ، فهي مثل سيدها قوية وذكية ، وسيعدها بالهبات والعطايا الملكية إذا نجحت بمهمتها .

ومضت شهور ثلاثة على غياب غياث عن المدينة ، وقد خشي الملك عليه الموت ، وما زال الفشل أيضا يلاحق فرسانه الثلاثة في اصطياد الأميرة بانة وزوجها كساب ، وحتى جواسيسه في قصر والد كساب الأمير صلاح لم ينقلوا له شيئا عن ذاك الاختفاء ، فهو منذ غادر المدينة لم يتصل بهم وكان غياب غياث قد أقلق الوزير وأعوانه ، فهو تحت عيونهم ، ولم يعرفوا سبب هذا الاختفاء وهو شخص لا يستغني عنه الملك منذ تصاحبا ، ومتعلق به تعلق العروة بالزر ، فأثار هذا الاختفاء الريبة في نفس الوزير وأتباعه ، ولم يستطع عيونه معرفة سر هذا الغياب حتى من بعض الكهنة الذين زعم لهم أنه راغب فيها بالحج لمكة المكرمة بمفرده ، وموسم الحج ما زال بعيدا ، لقد خرج وحده دون خادم يخدمه ، ولا يعلم أعوانه سبب هذا السفر المفاجئ .

وقبل الحج عاد الكاهن للبلاد ، ودخل المدينة ليلا ، وذهب إلى قصر الملك ، وفرح الملك بعودته سالما ، وقضى ليله في قصر الملك ، ولما وصل الخبر للوزير أدرك أنه ذهب في مهمة سرية للغاية لسيده الملك .

طمأن الكاهن الملك على نجاح مهمته ، وأنه أحضر الأعشاب الضرورية لتوليد السم ، وأن أيام الوزير باتت معدودة في نظرهم ، وأطلعه الملك على خطته في البحث عن بانة ، وأن رجاله فشلوا في ذلك .

ووافق الكاهن على إرسال جاريته الخاصة جدا سمات لبيت عزوف ، وسيعدها بالزواج منه

شخصيا إذا نجحت في مهمتها .

فقال الملك دهشة: أنت تتزوجها ؟!

ـ أنا أتزوجها ؛ لتقوم بالمهمة دون خوف وقلق ، ولن تضعف إذا شكت عزوف بها .. وهذا حلم كل امرأة أن تكون زوجة للكاهن الأكبر .

ـ ولكنك رجل عجوز !

ـ المهم أن تكون زوجة لي .. وهي ستجتهد لتكون زوجة للكاهن .

ـ رتب الأمر .. وستكون الأموال بين يديك .

ـ نحتاج لمبلغ يثير اللعاب أيها لملك كم هدايا الوزير يا ترى ؟

قال : حسب الأهمية .

قال غياث : ألف قطعة ذهبية .



موت أمامة

كان الملك وغياث وأعوانهم يخططون للتخلص من الوزير الشيخ ، وصيد بانة الأميرة الهاربة من خلال زيارة لوالدتها المنفية .

وافقت جارية غياث على القيام بمهمة التجسس على الملكة عزوف ، وكانوا يفكرون بوسيلة للوصول لقصر الوزير ، وكان من الأفكار المطروحة تصالح الملك مع وزيره ؛ ولكنهم وجدوا أن هذه المصالحة قد تثير الشبهات حولهم ، وأن التصالح كان لتحقيق هذه الغاية الرهيبة ، وفكر الملك بإطلاق أمامة من السجن من أجل ذلك الصلح ، وأنه رضخ لشرط الوزير .

وبينما الملك في هذه الهم أخبره أحدهم بمرض أمامة الشديد ، فهرع الملك لسجن القصر ، ولما رأى ابنته دمعت عيناه .

وقال للطبيب : ما الذي حدث ؟!

قال : ترفض الأكل .. وتعيش على الماء .

ـ لماذا لم تخبروني ؟

أجاب : أخبرناك يا مولاي ! فقلت دعها تموت .

قال : لابد أني كنت غاضبا ناقما .

أمر الملك بنقل ابنته إلى غرفة صالحة للحياة ، ولكن كان قد فات الأوان ، فقد ماتت بعد أيام مما أبكى الملك بحرقة .. فهي قد حبست، وهي في فترة النفاس ، فمرضت منه ، ولم تعالج بشكل جيد ، ولم تلقَ الرعاية الصحية كوالدة حديثا .

وعلى أثر موتها ظهر غضب في المدينة ، ونقمة على الملك ، وقام أعوان الوزير بنقل الجثمان إلى مقبرة آل الوزير ؛ لأنها زوجة ابن الوزير ، وتعرضت بعض قصور الملك للحرق من المتعصبين للوزير .. وكادت تحدث في المدينة ثورة عارمة لولا تدخل الوزير بنقل الجثة لمقابرهم باعتبار أنها زوجة لابنه .

وعقد الوزير اجتماعا مع القاضي وبعض الأعيان لخلع الملك وتنصيب ملكا آخر وبعد اجتماع

امتد لأيام لم يروا فيه ضرورة لخلع الملك .. فالأميرة ابنته ، وهو وليها ، وأن زواجها كان خفية ولم يكن معلنا ، وأن خلع الملك قد يصيب المدينة بفتنة أكبر من التي يعانون منها ، وفيه ترك المجال للعامة بالتدخل والتطاول على الحاكم والسادة .

أصبح الانقسام بينا في البلاد على أثر موت أمامة.. الملك في جانب ،والوزير في جانب آخر ، وزادت الخصومة بينهما ، وارتفعت حدتها حتى أن بعض الملوك والأمراء في المدن المجاورة يسعون للتوسط بينهما ؛ لتخفيف حدة التوتر .

والوزير رفض أي شفاعة وتعاون مع الملك .. وكذلك الملك رفض بدوره أي شفاعة أو أي صلح مع الوزير ، وكان يلح على غياث بالعجلة في الفتك في الوزير حتى ولو افتضح الأمر .. وغياث يدرك أن الخطر الأكبر سيكون عليه ، وينصب على رأسه ، وأن الملك سيحبس حتى يموت .

فقال : ليس أمامنا إلا أن نبني صداقة جديدة مع الوزير.. الصلح ، ثم الفتك به .

فقال مشككا بجدوى الصلح : وإذا تصالحنا فهل يثق بنا !

قال : عندما نتصالح أيها الملك سنرسل له عربون الصلح .. عددا من الخدم كتعبير عن حسن النوايا ، ومن ضمنهم خادمنا الشجاع ،وبعد حين يدس له السم في شراب أو طعام .

ـ هذا سيأخذ وقتا .

قال : صبرنا سنينا أيها الملك ! ولتكن سنة أخرى في عمر هذا الوزير الظالم الباغي

ـ نحن رفضنا كل الشفاعات .

قال غياث : عن طريق كبير القضاة .. تظاهر بالندم والحزن على موت أمامة ، وعدم تمتعها بالزواج ..وكذلك هرب بانة .. والكلام لسان الشيطان .. وخاصة أن الوزير سوف يقدم على تزويج ابنه الأرمل ..فهي فرصة لإظهار الندم والأسف والصلح مع الوزير .

وقضيا أياما يتجادلان حول ذلك الخطب ، ثم قنع الملك بكلام الكاهن ووسيلته للوصول لقصر الوزير ، ولابد من مد جسور الثقة مع الوزير وأتباعه والتظاهر بالاستسلام والندم .

لذلك طلب كبير القضاة ، وتحدث معه حول زواج ابن الوزير الأرمل لؤي بعد وفاة أمامة ، فأكد القاضي صحة ذلك ، فأظهر الملك حزنه وندمه على موت ابنته وحرمانها من الزواج ، وكشف عن رغبته بالصلح مع الوزير بسبب هذه المناسبة والمشاركة في عرس الأمير لؤي ، وأنه مستعد لدفع المهر أو طعام ضيوف الوزير من أجل روح أمامة .. وبعد عدة جلسات أعلن عن الصلح في البلاد بسبب زواج ابن الوزير ..وأظهر الملك عن أسفه للسادة والأعيان عن تقصيره في حق بناته ، وأنه على وشك الانتهاء من عقدة الحلم ، وأن موت أمامة أصابه في الصميم ، وهو يفكر بالعودة عن طلاقه ونفيه لزوجته عزوف .

وكان العوام بين مصدق ومكذب لفعل الملك ..وقدم الملك الهدايا للأمير لؤي كغيره من السادة ..وكان من ضمن هداياه عشرة من الخدم ، نصفها ذكور والنصف الآخر جواري .. وقدم مثلهم للوزير والقاضي .. فقبل الوزير الهدية ، وأهدى هو للملك هدية مهمة .



زواج عزوف

وما كاد الملك ينتهي من المصالحة مع الوزير أوس باستغلال مناسبة زواج ولده من إحدى الأميرات الشابات حتى جاءه أحد جواسيسه الثلاثة في مدينة ديك الصباح ، ومن عند الملكة عزوف يخبره عن اختفائها عن البيت أكثر من ثلاثة أيام ، فاعتقد الملك وفسر الغياب أنها ذهبت لزيارة ابنتها بانة وكساب ، وأدرك أنها اكتشفت أمر عيونه ومراقبته لها ، وأدرك أنه كان عليه تغيير الجواسيس بوجوه جديدة .

وجاءت خادمة غياث سمات بعد أيام ؛ لتطلع الملك وسيدها على اختفاء الملكة عزوف ، فلامها الملك على عودتها، وأمرها بالعودة قبل عودة الملكة لقصرها .

فقالت: أرى أنها لن تعود ـ يا مولاي الملك ـ لذلك البيت .

فتسأل عن السبب ، فقالت : قبل اختفائها بأيام كان يتردد على بيتها بعض الشبان ، وكانت تمنع الجواري من الاقتراب من غرفة اللقاء.

فصاح رعبا : أتزني ؟!

قالت برعب : لا ، لم يحدث هذا .. الآن أدركت أنها كانت تخطط للهرب .

ـ أين تهرب ؟

قالت وهي تتذكر الأيام الأخيرة مع الملكة : لقد حضر لبيتها رجل يسمى مناعا .. وكان من كبار لصوص مدينتنا هذه .

ـ اللص الكبير مناع ..وهل ينسى ؟!

ـ نعم ، رآها كرتين .

قال بألم : نعم أعرفه.. بينهم قرابة ؛ ولولا شفاعتها فيه لأعدمته الحياة ...كان لصا شرسا ومعروفا في المدينة ، ثم غادرنا بعد العفو .. إذن هربت معه .

قالت بعزم وقوة :أعتقد ذلك يا مولاي الملك ! لأنني سمعته مرة يودعها بقوله "نعم ، أنا اليوم السيد ، ولي مزرعة كبيرة "وذلك على استفسارها " ألعلك تركت اللصوصية؟" ثم حضر شبان آخرون ، ثم اختفت بعد لقائها بهم . . فهي لم تكن مطمئنة لي، ولا للجواري الأخريات

وبعد صمت وتفكير قال أمرا لها : عليك أن تعودي ..قد ترسل وراء الجواري

ـ سأفعل يا مولاي !

ورافقت الجندي إلى تلك المدينة ، ولما لم تحضر الملكة للبيت أو أحد من طرفها تفرقت الجواري في تلك المدينة ، وهجرن البيت ، وبعد شهور عادت جارية غياث لبلادها ، ورجع الفرسان الثلاثة سرا للملك وغياث .

وأصاب الملك وغياث الإرباك والسخط والحيرة من اختفاء حفيده ابن أمامة ، ومن اختفاء ابنته بانة ، وزوجته فقال لغياث : أترى أن الوزير يمكر بنا ، وأنه وراء اختفاء الجميع ؟!

قال مجيبا : الحق أن الأمر محير يا مولاي! وأنا عاجز عن دس السم للوزير .. فخدم مطبخ الوزير لا يسمحون لخادم جديد يعمل معهم أو يدخل مطبخ الوزير كما أعلمني خادمي الخاص .. فالأمر صعب بل أحد الخدم ارتاب في خادمي من كثرة اقترابه من المطبخ .

قال بغضب ولفشل الخادم : خادمك فاشل وجبان .

ـ إنها الحياة التي لا يملك الإنسان غيرها .. إني أفكر بحيلة أخرى .. وقد طلبت منه أن يبتعد عن المطبخ والمائدة نهائيا ؛ لتعود ثقة خادم المطبخ والمائدة به .

قال بحقد وجنون : نار الحقد تغلي في بطني وقلبي .. لقد أهملني أمام السادة والرعية ؛ كأنني لست سيده وملكه .. ماذا سنفعل بهده المرأة التي اختفت ، وكنا نطمع أن نصطاد بانة بواسطتها

قال : لا تنس أن امرأتك من الدواهي يا ملك الزمان .. لقد كنت أخشى عليك من غدرها .

ـ إني والد بناتها يا غياث.

فأدرك الكاهن قصر تفكيره فقال : هذا ما كان يطمئنني عليك .. سأبعث مجموعة من صغار الكهنة يبحثون عنها في المدن المجاورة .

ـ كيف سيبحثون عنها ؟

ـ عن طريق الأسواق ، وعن طريق ذاك اللص مناع .. ألم تخبر الخادمة أنه صاحب مزرعة سنبحث عن تلك المزرعة .. وعن طريقه سنعرف مخبأ عزوف اللعينة.

فرح بتلك الفكرة وقال : فكرة شيطانية ! نعم سنعرف مكانه من أقاربه عندما عفونا عنه آخر مرة تعهد بمغادرة البلاد ؛ ليعيش في بلاد أخرى .. فأقاربه يعرفون أين يعيش أين استقر ؟

قال : أحسنت أيها الملك! من كان أقرب الناس إليه ؟

قال : كان لديه عدد من اللصوص ..والظن أنهم لحقوا به .. هناك لص اسمه أو لقبه حمار كان يعمل معه في فترة ؛ ثم تكاسل بعد أن وقع عن جدار وكسرت رجله .

ـ حسنا أيها الملك ! سأتصل به أو أبعث أحد رجالي إليه .

ـ اللصوص يتتبعون أحوال وأخبار بعضهم كما يفعل الملوك والوزراء

قال : سيقوم شمر بالمهمة .

واستدعي الكاهن شمر أمام الملك ، وكلف بمهمة اللقاء بحمار اللص التائب ، ومعرفة المدينة التي هاجر إليها القاتل اللص مناع .

وصل شمر لحمار واستطاع معرفة اسم المدينة التي رحل إليها مناع اللص المشهور ؛ ولكنه قال له في ختام اللقاء : عاش فيها فترة ، ثم اختفى .

لما خرجت عزوف وخدمها من البلاد بضغط من الملك بعد اختفاء ابنتها ، وخشية منها على نفي والديها قبلت بالنفي إلى مدينة ديك الصباح ، وقد قبل ملكها وجودها ؛ ولكنه لم يهتم بأمرها وشخصها ؛ لأنها ملكة مطلقة ومنفية ، ولا أهمية لها في العلاقات بين المدن ، وكانت ترى أن الوزير بعد حين سيستطيع إرجاعها ، وإخراج أمامة من السجن الملكي .

واكتشف خدمها عيون الملك ، فطلبت منهم التظاهر بعدم معرفة ذلك ، ولما جاءتها هدية باسم الوزير عرفت أنها مكر من الملك ، وأن الجارية جاسوسة عليها ، وتظاهرت بأنها بلعت الطعم .

زارها مناع قريبها وابن مدينتها لما علم بنفيها ، وهو لص مشهور في البلاد ، وتشفعت له عند

الملك في قضية قتل ، وقبل بالنفي .. وكان قد كبر سنه فترك اللصوصية كمصدر رزق ـ وإن كانت علاقته باللصوص لم تنقطع ، فما زال له معرفة بهم ـ فقدم إليها ، وعرض عليها الزواج منه ، والحياة معه في مزرعة يملكها بصفته من أبناء أعمامها ، وبصفته منفيا مثلها .. وبعد تفكير وإهمال من قومها ومن الوزير قبلت ذلك العرض .. وقررت الخروج خفية ، فأخذت تخرج للسوق بنفسها بحجة التعرف على أسواق المدينة والتنزه .. وكانت تنقل المال عند أحد الحوانيت التي عرفها عليها رجال مناع .. ولما قلّ المال في البيت استعدت لتنفيذ الخطة المدبرة وكان الحراس الثلاثة قد اعتادوا على خروجها وحدها أو مع أحد خدمها ، ولما اطمأنت على أنه لا يتبعها أحدهم دخلت حانوت أحد التجار الذي له مدخلان فدخلت من أحد الأبواب وخرجت من الباب الآخر ، ثم سارت حتى وصلت إلى أحد المنازل الذي وصف لها من قبل مناع وأعوانه ، فاستقبلت في البيت استقبال الضيوف الأغراب ، وأرسل سيد البيت رسولا لمناع مخبرا بوصول ضيف يخصه .. وخلال يوم كان مناع قد أقبل للبيت ، وبعد الغداء غادر مناع اللص القديم بيت صاحبه تصحبه الملكة عزوف متنكرة ، وركبا جوادين ورافقهم السيد حتى أحد أبواب المدينة ، ثم رجع ، وتابعا المسير حتى وصلا مزرعة مناع التي تقع في أحد أطراف عثمانية إحدى المدن في ذلك الزمن .

وبعد حين يسير تزوجا أمام قاضي المدينة على أنها من العامة ، وكانت الملكة عند الأربعين سنة ومناع قريب من الستين .. فهذه قصة زواج مناع وعزوف .. وكان الرجل يتوقع أن يبحث عنهما الملك وأعوانه ، فاشترى بيتا في قلب المدينة ، وجهزه ليعيش به وزوجته الجديدة بعيدا عن خدم المزرعة واتباعه وغلمانه .

هذا اللص له أكثر من عشرين سنة مغادرا مدينته الأولى ، ولما تشفعت له الملكة كانت في أول زواجها من الملك زرارة .. وقد تعرض مناع لحكم القاضي بالموت بسبب وفاة شخص على يديه وجاء والده لقرابة بينه وبين الملكة يبكون ويرجون شفاعتها .. وكانت تلك الأيام تلد للملك البنت الثانية ، وملكة شابة معززة .. وأمام توسلهما قبل الملك شفاعتها ، ودفعت الدية لولي الدم

وجرى الصلح ، وخرج مناع من المدينة منفيا ومتعهدا ألا يعود إليها .. ومع الزمن تلاشت علاقته مع لصوص وزعران المدينة .. وماتت زوجته التي رفضت الرحيل معه في البلاد .. وتبعها بعد حين ولده الوحيد بالموت غرقا في أحد انهار المدينة .

نسي هو مع الوقت البلاد والأهل والأصدقاء ..واشترى مزرعة وعمل بها ، وأصبح رجلا صالحا .. فلما سمع بقصة عزوف من بعض أهل مدينته أثناء تجارة لهم في مدينته الجديدة تعاطف معها ، ولم ينس معروفها القديم معه ، وتألم من الظلم الذي أصابها فزارها ، وراودته نفسه بطلب يدها ، وهو لم يتزوج منذ هاجر .. إنما كان يتسرى بالإماء الحسان .

وكانت الملكة بعد نفيها تمر بحزن شديد ، وقد تخلى عنها بلدها وأهلها ، وكذلك عيشها وحيدة فوافقت على العرض .. ولما زارها في المرة الثانية رتبا حيلة الخروج من المدينة سرا لاكتشافها عيون الملك في داخل البيت وخارجه .. ونفذت الخطة التي تحدثنا عن تفصيلاتها .

وبعد زمن يسير وجدت الملكة نفسها تحمل من مناع ـ وهي قضت سنوات لم تحمل من الملك بعد ولادة ابنتها الرابعة سفانة ـ وهو أيضا لم تلد له أي جارية من الجواري اللواتي عاشرهم معاشرة الزوجات ـ وكان الأمر عجيبا ، وولدت له ذكرا سماه رياضا .

وكانت الملكة عزوف ومناع حريصين على إخفاء أنفسهما خشية عيون الملك وجواسيسه .. وكان قيم البستان رفيق هو الوحيد الذي يعرف بيت مناع داخل المدينة .. وكان القيم مطلعا على الخطر المحدق بسيده نتيجة زواجه من سيدة من بلاده القديمة ، وإن لم يعلم أنها ملكة مطلقة وكان يغادر الرجل وزوجته البيت في حالة تنكر ، ولما مضت السنة الأولى ، وولدت السيدة ارتفع الاطمئنان لديه إلى حد ما ، فقال : علينا أن نصبر على هذا الوضع بضع سنين .. فالملك لن يغفر لنا بسهولة حتى لو كنت مطلقة ، وأننا نعيش في بلاد لا يحكمها .. وبعد هلاكه قبلنا سنعود للحياة في المزرعة بين الخدم والحشم .

ـ أنا لا أنسى أنني اليوم أم ولدك .. واعدت لي الحياة من جديد يا مناع!

جنون الملك



استطاع مساعد الكاهن الأكبر من اتصاله بكبار السن من لصوص المدينة أن يعرف المدينة التي يعيش فيها مناع ، وذهب أحد خدمه متنكرا لتلك المدينة ، واستطاع معرفة المزرعة التي يملكها مناع في عثمانية ، ورصد المزرعة وقتا من الزمن ، ولم يتمكن من رؤية الملكة عزوف التي يعرف شخصها ـ فهو من خدم القصر قبل أن يهدى للكاهن الأكبر ـ ولما عجز عن الرؤية اشترى هدية ، ومشى بها للمزرعة بجرأة مدرب عليها ، وقدم نفسه لقيم المزرعة أنه يحمل هدية للسيدة عزوف ، فأنكر القيم وجود سيدة بهذا الاسم ، وأنه أخطأ العنوان .. فعاد الرجل يقول: أليست هذه مزرعة السيد الكريم مناع من مدينة اللؤلؤ ؟

ـ بلى

ـ أليس الرجل متزوجا من سيدة من بلدته القديمة منذ عهد قريب ؟

ـ بلى

ـ إنها السيدة عزوف

ـ السيد ترك المزرعة ، وشارك فيها السيد خميس قريب الملك ، ورحل .. وهو فعلا تزوج من امرأة من مدينة اللؤلؤ .

ـ أين رحل ؟

ـ لا نعرف .. هو أصبح شريكنا فقط في ما ينتج من مال في المزرعة ، وعندما يحضر يأخذ نصيبه ، وليس له وقت محدد للحضور .. وهديته احتفظ بها أو دعها وعندما يأتي لقبض حصته من الغلة ندفعها له ، ونقول له عنها .. من صاحب الهدية ؟

ـ سيدي طلب مني أن أسلمها باليد أيها السيد .. فهي قريبة للملك زرارة ملك مدينة اللؤلؤ .

ـ لا نعرف زرارة ولا مرارة .

تعجب القيم من تعريف الرسول بأن زوجة مناع قريبة لملك تلك البلاد .

وغادر الرسول المزرعة حاملا هديته، وعاد للبلاد مخبرا لأسياده بما حصل عليه من معلومات ، فجن جنون الملك من زواج طليقته من لص حرامي منفي .. لص يتزوج زوجة ملك زرارة ، ويختفى عن الأنظار .. وقال لغياث بجنون بين : اللعينة تتزوج من لص لعين !

ـ ألست أنت الذي أخرجها من البلد ؟!ولماذا تغضب من فعلها ؟

صرخ : أخرجتها لتتزوج ؟

همس الكاهن : ولماذا خلقت المرأة ؟ ألم يخلقن للزواج منا ؟ أنت تخلصت منها وكرهتها ، ثم نفيتها ؛ لتصطاد ابنتك الهاربة عن طريقها ، وهي لم يهتم بها أحد حتى الوزير فاستغل اللص هذا الوضع .

صاح قهرا : اللص ينتقم مني !

ـ له عمر خارج البلاد .. وكما قال الخادم : هو صاحب مزرعة كبيرة .. فلم يعد لصا .. وهي ليست على ذمتك يا مولاي ! فلا تتعب بدنك وروحك بزواجها .

قال مستصعبا زواجها من مناع : إنها امرأة ملك! ألم تكن امرأة ملك ؟!

ـ وهل إذا طلبها الوزير العجوز ستمنعه من زواجها أيها الملك ؛ بل زواجها من لص إهانة لها لنفسها ولوالدها وقبيلتها وللوزير نفسه ، دعك منها .

تنهد وتأفف وقال : إنها أم البنات .

قال : أي بنات يا ملك الزمان! أمامة هلكت وتزوجت سرا قبل ذلك، وابنة اختفت .. ولم يتركن لك كرامة ، وإنهن بنات ملك.

صاح سخطة : تتزوج لصا يا غياث ! هذه إهانة لي ، واحتقار لي ، وانتقام مني أنا لنفي لها .. امرأة الملك ولو طلقت عليها أن تبقى مطلقة حتى تهلك .

قال مهونا من غضبه : الظروف والنفي ..فهي تعيش وحيدة .. فاستغل ذلك اللص السافل

وحدتها ونفيها.

قال بحزن : آه ! أكل ما أفعله غلطا ؟!

أجاب الكاهن مهونا الأمر على قلب الملك المشتعل غيظا على عزوف : ليس غلطا أيها الملك ! أنت طردتها ؛ لتكون وسيلة لمعرفة مكان النذل كساب والأميرة الخائنة لتقتص منهما .. والذي يظهر أن أمها لا علاقة لها بزواجها وهربها ؛ كما وقع في خلدنا لأول الأمر .. ظلت مهجورة ، لم يزرها أحد من أهل المدينة سوى ابن الوزير مرة أو مرتين .. وها هو تزوج ، ورحل عن المدينة ويعيش في مدينة عبسان في رعاية الملك حبيب بن عجلان ؛ كما أخبر جواسيسنا.

عاد الملك يتحسر فقال : أه ! كم أكره هذا الوزير! أصبح صهرا لعدد من الملوك حتى ابنته الكبرى تزوجت من الملك ضياء .

ـ إنها زوجة ثانية أو ثالثة .

قال : هل أخطأت يا غياث بعدم تزويج البنات ؟!

قال : أنت لم تخطئ أيها الملك ! الرؤيا هي التي منعتك من تزويجهن ، وحالت دون زواجهن صغيرات .

قال الملك : صار لي حفيد يا غياث رغم أنفي .. ابن أمامة اختفى ، ولم نعرف مكانه ؛ فإذا كبر هذا الحفيد سيحقد عليّ ؛ لأنه عاش منفيا ومختفيا بسببي وتسببت بموت أمه .. أمه هلكت في سجن الملك .

قال محرضا : ربما هو عند والده ، فربما خرج الأمير بزوجه ليرعى ذاك الطفل .. حاولت أن أتأكد من ذلك وفشلت .

صرخ الملك بجنون : غياث يجب أن تقتل عزوف ومناع والوزير .

ـ ولماذا نقتل عزوف ومناعا ؟!

ـ حتى لو كانت مطلقة ..كان يحرم عليها الزواج .

قال: فهما في المنفى ، وتحت حكم ملك .. قد يسبب قتلهما فتنة لنا ، وجيشنا غير موال لنا وأما

الوزير فأننا ما زلنا نتحين الفرص لننال منه .. وما زال الخادم يقبع في قصره .

قال : ما زال الوزير لا يهتم بصلحي .. ولا يحضر ديوان الحكم ..وإذا جاء يسلم ، ويعاود الخروج إنه يذلني ويغيظني !

ـ ولماذا نريده في قصر الحكم ؟ !وهو طول عمره يحكم من ديوانه .

ـ كان يحضر الديوان ، ويطلعني على أهم أحوال المدينة وأخبارها .

قال : لا أخبار مهمة أيها الملك ! الناس في أشغالهم وتجاراتهم ، والأمن مستقر .. ومشاكل الناس لا تنتهي .. والرجال يقومون بأعمالهم .

قال من جديد : أصابني الجنون لابد من القضاء على مناع الذي لم يجد امرأة يتزوجها إلا مطلقتي

قال : هون عليك أيها الملك ! دعنا منهما إذا قضينا على سيادة الوزير هان أمر القضاء عليهما ، وعلى كل خصومنا .

لم تعجب كلمات غياث الملك بترك عزوف وزوجها الذي حكم عليه بالموت قبل سنوات خلت لذلك استعان بأحد فرسانه الأخصاء جدا ؛ ليقوم بمهمة اغتيال عزوف ومناع ، ووعده بالمال والجوائز .

تحت جنح الليل غادر الفارس شهير المدينة متخف وبخنجره وصرة مال إلى المدينة التي فيها مزرعة مناع كما فهمها من الخادم ، وكانت الحيرة تنتابه من هذه المغامرة ، والفائدة المرجوة من تنفيذ الأمر ؛ ولكنّ الإغراءات التي وعد بها تشده ؛ لتنفيذها ، والعيش ثريا السنوات القادمة أدرك شهير قوة غيظ وحقد الملك الكبير من مطلقته ، وزوجها اللص القديم ، وإنه رجل خطير وقوي .. وهو يعلم أن الغدر أيضا سلاح قوي .

كان مناع الذي يدخل المزرعة من بابها الخلفي البعيد متسللا لقد علم من قيم المزرعة نجم قصة الخادم أو الرسول والهدية ، وأن الملك يتعقب زوجته ، ويغار منه ، ولن يهدأ له بال حتى يصيب منهما .. وهو كان من أحد أهدافه الخفية من الزواج من مطلقة الملك إغاظته وقهره ، واستغل هجرتها ووحدتها ، وضعفها للزواج منها .. وهي بدورها قبلت به ؛ لأنها تشعر بالخذلان وخيبة

أمل من أهل مدينتها وأهلها وعشيرتها ؛ وربما هي نفسها لها رغبة بمضايقة الملك بزواجها من أكبر لصوص مدينتها في زمانه .

وكانت الملكة قد ذكرت له الجواسيس الذين يرقبونها أثناء خروجها ، ثم دسهم جارية عليها وتظاهر هو بأنه لم ينس معروفها بإنقاذ حياته ، وتقبلها توسلات والديه .

علم مناع بقصة الرسول والهدية التي رفض تركها في المزرعة ، ويريد أن يسلمها لشخصه وباليد ، أدرك أن الملك سوف يصل إليه ، فاستعد لذلك .. فكم سيرسل الملك من الرجال للنيل منه ؟ فهو لا يدري ؛ ولكنه اشترى لنفسه العداوة والحرب

وصل شهير لمزرعة مناع متنكرا على صورة بائع متجول، يسوق حمارا .. وبعد تتبع علم أن السيد مناعا منقطع عن المزرعة .. كما أخبر ذلك العين .. وقال لنفسه لابد أن تكون بينهم وسيلة اتصال ولقاء .. من يقوم بهذه الحركة القيم أم أحد الخدم أم مناع أم شخص ليس له علاقة بالمزرعة كأحد التجار ؟

مضى الشهر على شهير ، وهو في جولات تنكرية دون فائدة مهمة . فقال : مناع من الأذكياء .. وهو معروف بذلك أيام المدينة .. لن يصاد بسهولة.. وألف قطعة ذهبية ثمن رأسه تحتاج لمغامرة المال سبب المشاكل بين الآباء والأبناء والأخوة والأخوات والملوك والسادة .

استطاع قيم المزرعة نجم بعد أن أفهمه مناع الخطر المحدق به أن يترصد الرجل رغم تنكره بصور مختلفة بين حطاب وبياع ومتسكع ومتسول ؛ لكنه لا يعرف كيف يتصل بالسيد ؟ ليخبره فالسيد هو الذي يأتي المزرعة خفية .. وأدرك أن الرجل يتنكر بهذه الصور رغبة في رصد سيده والسيد مناع كما نعلم لم يعد يأتي بانتظام ، ومن بوابتها الرئيسة كان يزورهم بدون ترتيب ، ومن الباب البعيد للمزرعة من حيث الجبال والأراضي الأخرى ، فلما أتى أخيرا فرح نجم ، وأخبره بالجاسوس الجديد .. فأثنى عليه مناع ، ووعده بمزيد من المال ، وقال: رائع يا نجم ! لن أنسى لك فطنتك عندما تزاح الغمة .. سأكرمك غاية الإكرام .. إياك أن تظهر أنك كشفته ، قد يكون معه آخرون.. وقد أستطيع من وصفك أن أعرفه إذا قابلته ورأيته.. أنا لا أريد أن يؤذي

أحدا ، ولا أن أوذيه .

قضى بضع ساعات في المزرعة ، وقبل الفجر غادر المكان ، وركب جواده ، وعاد للمدينة ، وأودعه أحد الخانات ، وتسلل لبيته حيث كانت الملكة تنتظره على خوف وقلق ، ولما دخل تنفست الصعداء وارتاح بالها وخوفها .. وهذا الرعب يصيبها كلما ذهب للمزرعة .. إنهم ينتظرون تغير الأحوال .

فهم لم يهتموا بنفيها ، فهم لا يهتمون بحياتها ، وكانت تمني النفس بالعودة لبلادها ، وأن تعيش كسائر نسائها في قصرها وبين خدمها وجواريها وصديقاتها وبناتها .. وحزنت كثيرا لموت أمامة لما علمت به .. وفرحت لمشي طفلها الجديد .

قالت بعد الاستيقاظ من النوم : ماذا ستفعل مع هذا الجاسوس الجديد ؟

ـ لن أفعل معه شيئا سوى الحذر .. قلت لك أنا تبت إلى الله ، وتركت اللصوصية بعد خروجي من بلدي .. وإذا لم يتعرض لي بأذى سأدعه وأتجاهله.

ـ ألا تخشى أن يغدر بك ؟

قال : هو قادم ليغدر بي .. فليبق يدور حول المزرعة .. لو كان في بيع المزرعة نجاة من تعقب الملك لبعتها ؛ ولكنها مهمة لنا .

قالت بتعجب : إني أعجب من قدر جمع بيننا يا مناع! .. لولا تلك الحادثة الرهيبة ما عرفتك ولا عرفتني !

تبسم لها : هكذا الدنيا يا مولاتي! هل يمكن أن يحلم شخص مثلي بالزواج من سيدة عظيمة في يوم من الأيام ، من ملكة أنقذت حياته من موت محقق!

ـ لم أعد ملكة يا مناع !



خلود

خرجت الأميرة خلود بنت زرارة الملك مع بعض رفيقاتها الأميرات ، وبصحبة الحرس والخدم في رحلة صيد في غابات تبعد عن المدينة بضع ساعات فقط ، تسمى غابات الشمس ، وهي دون أخواتها ممن عرفت بحب الخيل والفروسية والصيد والتنزه في الغابات .. فهذا الصيد والسفر ليس غريبا عنها .

وكان الخروج يبدأ في ليالي البدر من فصل الصيف ، وبعد نصف الليل ، وقبل وقت الفجر تتحرك الحملة والموكب ، ولما وصلوا للغاية المطلوبة كانت الشمس قد طلعت وأشرقت بنور ربها ، فيبدأ الغلمان والخدم بنصب الخيام ، ويبدأ الطهاة بإعداد وجبة الإفطار ؛ ليبدأ البحث عن الطرائد حول غدران الماء ومصاب المياه .. وعادة تستمر مطاردة الظباء والوحش حتى انتصاف النهار ، ثم يعود الفرسان للخيام بما صادوا من حيوانات مأكولة وغير مأكولة ، ولما اجتمع القوم عند الغداء والاستراحة لم تظهر الأميرة خلود ، وكذلك أحد حرسها ، فأصابهم الخوف والقلق على غياب الأميرة .

فقال أحدهم : رأيتها تطارد ثعلبا ، والحارس يتبعها ، ثم اختفيا عن الأنظار .

وبينما هم يرقبون عودتهم ظهر الحارس وحده ، وظلوا صامتين حتى وصل إليهم الحارس على جواده ، وسأله قائد الحملة عن الأميرة .. فقال : اختفت ذهبت تطارد ثعلبا ، ولما توغلنا في الغابة أمرتني أن ألف له من الجهة الأخرى ، ثم غاب عني جسمها .. وأنا حلقت له من حيث أشارت ، وناديت عليها ، فلم أسمع صوتها ، ولا حركتها ، فعدت إلى حيث افترقنا .. وبحث هنا وهناك.. فلم أجدها .. فعدت إليكم لأخبركم بما جرى لنعمل سوية في البحث عنها .

فقال قائد الحملة بخوف على حياتها : خذنا إلى حيث فقدتها .. نخشى أن تعرض لها وحش من بين الأدغال .. أسرعوا أيها الرجال !

فقادهم الحارس إلى مكان مطاردة الثعلب .. وبعد تدقيق وتحر ، وجدوا آثار حوافر خَيل في

المكان .. فقال القائد متشككا : هل تعرض لها لصوص أم هي حوافر فرسها فحسب ؟ .. نحن لم نطارد بجياد .

قال الحارس : كنت معها على جوادي ، وكانت هي تركب جوادها عند المطاردة .

قال القائد : هل هي آثار جواد الأميرة ؟! الأميرة تعرضت للخطف أو هربت بنفسها .. لقد تتبعت ..الأثر ما العمل ؟!

بعد مزيد من البحث والتوغل في الغابة قرروا العودة للمدينة ، واطلاع الملك على الخطب .. وبقي بعضهم في المكان ؛ لعل الأميرة تعود من تلقاء نفسها ، فهي فارسة وشجاعة .

الملك يعلم برحلات ومغامرات الأميرة في الصيد والتنزه عند تلك الغابات ،فلما أعلمه قائد الحملة بالخطب صاح بحنق وهياج : ويلك الأميرة خطفت ! لا يعقل هذا ..أين كُنتُم ؟!

قَص القائد القصة ، وأحضر الحارس المرافق ، وروى ما جرى من مطاردة الثعلب أمام الملك فقال بهياج : اللصوص يتعرضون لبناتي أين الرجال والفرسان ؟!

ـ لم أسمع يا مولاي صوت استغاثة ! لقد نفذت أمرها في مطاردة الثعلب .. وسرت للجهة التي أمرتني أن أذهب إليها .

قال : الأميرة بنت الملك زرارة تخطف ! أين هيبة الملك والأمة أيها الناس ؟ أمامة تتزوج رغم أنفي .. وابنة تهرب مع عشيقها .. وخلود تخطف أمام أعينكم أيها الفرسان !.. لولا كثرتكم لقلت إنها مكيدة مدبرة منكم .. اطلب قائد الجيش ليرسل فرقة للبحث عنها ، ومطاردة اللصوص والخاطفين ؛ لعلها مقتولة في تلك الغابة .

قال قائد الحملة : يا مولاي ! تابعت الأثر والمكان لا دماء فيه ..وصلت لأبعد غدير دون دماء صاح محتدا : ليكن القائد باسل الأحمق بين يديّ الآن .. هذا عار أيها السادة أين الوزير ؟

ـ الوزير !

قال : أليس هو حامي البلاد ومثبت الأمن والسلام والرخاء ؟!

ـ بلى يا مولاي ! إنها الحادث في الغابة .

ـ فليأت الديوان .. هذا حدث كبير !

حضر الوزير أوس بن عثمان ، وقائد الجيش باسل بن كيوان لديوان الملك عندما سمعا بجلية الخبر ، ثم قائد الحرس الملكي حجر بن زيد حضر مثلهم للديوان ، واطلع الوزير على الحكاية بالتفصيل من قائد الحملة والجندي الحارس ، ولما صمتا تبسم الوزير مما أغضب الملك وبعض أتباعه .

فقال : اغضب كما تشاء.. وأنا ـ كما ترى ـ مريض ومنهك ، ولبيت الدعوة يا مولاي ! الأميرة ابنتنا كما هي ابنتك .. وكلنا أهل المدينة منزعجون من حدوث ذلك ؛ ولكن هذا ليس خطفا هذه الأميرة ـ كما سمعت من تفاصيل ـ تدل على هرب ؛ فإنها هربت كما هربت الأكبر منها .

جرت همهمة ودمدمة ودهشة في الديوان للنتيجة ولصراحة الوزير : ماذا ؟!

فقال الوزير بثبات أعصاب معروف بها : لقد دبر الأمر بليل يا ملك البلاد ! قلت لك من سنوات أمام سادة البلاد دع البنات تتزوج .. لا تحرمهن من النكاح .. هذا هرب على صورة خطف .. قلت لك لا تسمع لهذا الكاهن الشيطان .. الأميرة دبرت مع أحدهم هذه الحيلة .

فقال قائد الحملة : أظن هذا ما حدث يا مولاي ! لقد كانت مطاردة الثعلب فرصة للوصول إلى الرجل المنتظر للأميرة .. لم تطارده مشيا وتربصا ، ولما رأته من بعيد ، قالت هذا لي وانطلقت تطارده .. تبعها الحارس ، ثم خدعته بالالتفاف من جهة أخرى ، ثم ركضت إلى حيث التقت بالخاطف .. لم تصرخ ، لم تستغيث ؛ ليسمعها الجندي الحارس .

أخذ الملك يتأمل المشهد ، ويراجع ما سمع من الجندي وقال : سأتحقق من ذلك بالحديث مع الجواري ..من الذي رتب معها الأمر أيها الوزير الفطن ؟!

ـ سيعرف لابد أنه أحد الفرسان والأمراء .. فارس قريب منها .. فارس يستطيع الحديث معها دون ريبة .. قد تجد علما عند جاريتها رغم أنني أرى أنها أذكى من ذلك أي تكشف نفسها لجواريها .. فهذا دبر من وقت حتى ينجح .. ليس ابن الساعة .. نصحتك بأن تسمح بزواجهن كالأميرات ؛ ولكنك لا تحب الناصحين

حسرة الملك

ضج الناس في المدينة لحادثة هرب ابنة الملك خلود ، وزاد حنقهم على الملك وأعوانه ، واعتبروا ذلك إهانة كبيرة لهم وللأمة كلها .

وخيم الحزن القاتل على الملك وقصره وخدمه وحرسه ، وأدرك بعد فوات الأوان أن سبب ذلك كله المنام الذي اعتقد صحته ، ورتب حياته على تفسيره ، فقد تزوجت ابنته الكبرى سرا ودون علمه ، وولدت حفيدا قد اختفى ، ولولا ولادتها ما كشف السر ، ثم بعد طلاق عزوف هربت ابنته الثانية مع كساب واختفت ، ثم نفى زوجته حتى نكحت لصا بسبب هذا الطرد والإهانة لمقامها الملكي .. وماتت أمامة في سجن القصر لإهماله العناية بها.. وقد خاب وفشل في الوصول لمناع وكساب والوزير أوس ..وها هي ابنته الثالثة تدبر حيلة خطرة للهرب مع عشيق أو زوج .

طلب الكاهن غياث اللقاء باللقاء بالملك فرفض بشدة أول الأمر ، وبعد إلحاح وتكرار قبل دخوله عليه .. وكان قد اعتبره سبب هذه المحن بتفسيره للمنام .. وأصبح مهزلة أمام السادة والكبار من عشيرته والبلد .. وأبدى له حسرته وتعاسته مما حل .. وقال ساخطا : هكذا يفعل بي المنام يا غياث! لقد أخطأنا في فهم المنام ..وكيف أضطر لمنع البنات من الزواج وبظروف حسنة؟ إني أحس بأني سأموت من الغم والغل يا غياث ! الأولى تزوجت سرا والثانية هربا والثالثة هربا ومطلقتي تتزوج لصا .. إني أموت يا غياث حيّا .. المرأة لا تستغني عن الزواج إلا إذا كانت ميتة .

وأضاف غياث : أو مريضة يا مولاي !

قال : بناتي لم يكن مريضات .. ومطلقتي التي يجب أن تبقى بدون رجل تنكح لصا لعينا كاد أن يموت هنا .

ـ أخطأت يا مولاي بعدم قتله .

قال :لقد دفعت الدية لأسرة المقتول وعفوا عنه .. ولم أكن أحلم أن يتزوج امرأتي

ـ كان من الخطأ يا مولاي طردها وحيدة مع خدم وغلمان .

قال : كان عليّ أن أعرف مكان بانة .

ـ لقد تمكن اللص من استغلال وحدتها وطردها وأقنعها بالزواج .

قال : وأنت دفعتني للصلح مع الوزير للنيل منه وقد فشلنا .

ـ الخادم ما زال بين خدم الوزير ..لم يستطع الوصول لخدمة المطبخ .

قال : ماذا سنفعل في الهاربة خلود ؟

ـ خلود ! فكما اقتنعتم من كلام الوزير فمن هو الرجل الخاطف ؟

قال متأملا : لا ندري .. لم نعرف أميرا غادر البلاد .. ولم يظهر الخاطف .. أخشى أن تكون تعرفت على رجل من أبناء رحلات الصيد ، ورتبت الأمر معه ..كانت كثيرة الخروج للصيد في العام الماضي .. لم يبق لي إلا سفانة ..أتراها ستفعل مثل شقيقاتها ؟!

قال : إنها شابة ناضجة .

قال : هل سيعود ذلك الحفيد الخفي ويسبب موتي ؟

ـ لا أعلم .. لكن حذرتك من الأحفاد كما فهمنا الحلم .

قال متحسرا : أين اختفى يا غياث ؟ قتلني المنام يا غياث! أكاد أصدق أنه من الشيطان .. ها هم الناس شامتون من فعلي ومن عقلي .. يسخرون من الملك الذي لم يمنع بناته من الهرب والزواج سرا مثل بنات السوقة والجهال .. هل من خبر عن الوزير ؟

قال : سمعت أنه على وشك الموت .. فقد زاد عليه المرض .

قال : إنه ذكي يا غياث ! له أكثر من أربعين سنة يحكم البلاد .. أما زال خادمك عنده .

ـ ما زال .. وإذا مات هذه المرة أراحنا من اغتياله .. لا أخشى أحدا في الدنيا كخشيتي منه .. إنه فطن ماكر .

قال : أعرف خوفك وجزعك الشديد منه ، فهو لا يهتم بكلام المنجمين والكهنة ولا العرّافين

ـ يؤمن بالعقل والفكر .. كم كنت أحب أن أراه أمامي متوسلا لكشف حلم أو نبوءة .. إني

ضعيف وجبان أمامه .

قال : وأنا مثلك يا غياث أخافه ! لولا حرمة العهد بين قبيلتينا من عهد بعيد لخلعني عن الحكم ؛ لكن قومه أهل وفاء .

ـ من سيكون وزيرا إذا مات ؟

رد قائلا : تجتمع العائلة ويختارون وزيرا منهم ..وقد يكون ابنه .. الوزارة تورث كوزارة فقط وإذا اختاروا من أولاده يكون البكر في العائدة .

لما أدرك الوزير أن أمره أشرف على الختام هذه المرة ، طلب اجتماع العائلة لاختيار وريثه في الحكم ، وتم اختيار أصغر أشقائه الأمير غالب بن عثمان وزيرا للمدينة .

واجتمع مع أسرة الملك ، وحدثهم عن سخط الشعب على الملك بهرب بناته .. وطلب منهن عزل الملك وحبسه في قصره .. وتنصيب ابنته الباقية سفانة ملكة على البلاد ، وتزويجها من أحد أبناء عمومتها .

وبعد تداول الأمر تمت الموافقة على رأي الوزير ، وأخبر الملك بالعزل والإقامة في أحد القصور وذلك بأمر من الوزير أوس وكبار عائلة الملك ، وأمر بحبس غياث المسيطر على الملك وأفكاره وإلغاء منصب وظيفة الكهانة في القصور الملكية .

وبعد حبس الملك في قصر من قصوره ، وحبس الكاهن في أحد السجون توفي الوزير بعد حكم طويل في مدينة اللؤلؤ ، وبعد الصلاة عليه ودفنه أعلن الوزير غالب وزيرا في البلاد خلفا لشقيقه ولما انتهى الحداد لسبعة أيام أعلنت الأفراح لتنصيب الوزير غالب .. بدأت المدينة بالاحتفال بالوزير الجديد الذي سيكون لمدة سبعة أيام بلياليها .. استقبل قصر الوزير المهنئين بعدما استقبل من أيام المعزين .. واستقبلت وزراء وفرسان من المدن الصديقة .

وكان الملك زرارة في غاية القهر والغيظ والغضب من عزله وحبسه بقرار من الوزير الميت .. وبينما البلاد تحتفل بالوزير الجديد هرب غياث الكاهن المعروف من سجنه ، وغادر المدينة خفية بعد أن رشا عددا من حراسه ، وقد قبضوا الكثير من أمواله .

وتعرض هؤلاء المتواطئون للحبس في آبار السجن لحين الزمن ، وصودرت الأموال التي استولوا عليها من غياث .

وأخذ الملك هو الآخر يفكر بالهرب من محبسه لما سمع بهرب الكاهن ، لقد منع عنه الاتصال بأتباعه ورجاله المعروفين ، وهربت إليه رسالة ترغبه بالهرب ، وترك البلاد ، وقال لنفسه : جاء عليّ الدور للهرب كما هربت البنات!

فنصحته إحدى الخادمات الخاصات اللواتي معه منذ زمن بعيد أن يصبر حتى تتوج ابنته ملكة على البلاد ، ويطلب منها حرية الحركة والسفر .

فوجد هذه الفكرة صائبة وارتاح إليها ، وأن النفي أحسن من البقاء رهين القصر .. فهو بسبب منعهن من الزواج اعتبره بعض أقاربه مريضا ، ولا يصلح للحكم ، واعتبر فاقدا للأهلية للحكم بسبب هربهن وهن بنات الملك .

وعرض عليه بعضهم تهريبه لمدينة جلال الدين للصداقة بينه وبين ملكها الملك حميد بن أحمدان فقالت الخادمة المخلصة : الصبر يا ملك الزمان ..النفي خير من الهرب ..وتعود وقتما تشاء من المنفى ..الهرب سيعمق العداوة لك من الأمة والأقارب .

قال : قد تسطيع سفانة تحقيق رغبتي بالحرية والنفي .. فالعائلة تقف ضدي .. يعتبروني مريضا عقليا .. اطلبي منهم أن يكتبوا عن خطة إخراجي من المدينة .

أطاعت الخادمة ، وسربت رسالة تطلب منهم ما العمل للهرب من المدينة ؟

جاءت الخطة أن أحد حرس القصر سيتعاون معهم ، وسيقوم بإلباسه ثياب الحرس حتى يخرج من أبواب القصر .. وستظهر جارية قبل الهرب وتنفيذ الخطة أنه مريض طريح الفراش لا يخرج من غرفته ، ولما يصبح خارج القصر يذهب به إلى أحد المنازل ، وسيصحب قافلة تجارية ، ليخرج معهم من المدينة ، ثم يرحل برفقة فارس إلى الملك الصديق حميد .

اطلع الملك على تفاصيل الخطة واستحسنها ؛ ولكن جاريته المقربة قالت :أخشى أن تكشف يا ملك الزمان ! وتشدد عليك الحراسة .. ويعتبرون فعلك جنونا وتنقل إلى سجن بدلا من القصر

الصغير .

قال ممتنا : أنا أعرف عمق حبك وإخلاصك لي من أيام طفولتي ..وأعلم أنك تخشين عليّ .. وتحزنين على ما حل ؛ ولكني ملك البلاد وتآمروا عليّ .

قالت : سفانة بعد ثلاثة شهور ستكون الملكة .. وستشفق عليك، وستطلب لك الحرية في التنقل والسفر ..لا تهرب مثل الأوباش .. سيغضبون عليك .

ـ كم بقي لتنصيب سفانة ؟

ـ شهر .

تنهد حسرة على حاله : شهر .. إنه طويل يا عروب ! حتى أنها لم تطلب زيارتي منذ خلعي عن كرسي الحكم .

ـ سفانة مترددة يا مولاي في قبول العرش !



الملكة سفانة

كانت التقاليد المتبعة في البلاد أن ينصب الملك الجديد بعد تسعين يوما من وفاة الملك أو تنازله أو عزله .

أخذت المدينة تستعد لتتويج الملكة سفانة ملكة على البلاد والعباد ؛ لتقوم بواجباتها الملكية .. ومنها الموافقة على قرارات الوزير الأكبر للمدينة ..ومنها استقبال الملوك والزوار والمشاركة في الاحتفالات المهمة كالزواج واعتلاء العروش .

عندما تجلس على العرش سيكون بيدها سلطة مهمة ، منها الموافقة على موت قطاع الطرق واللصوص والمجرمين ، ولها سلطة العفو عنهم ، وسيكون لها رأي على أفراد عائلتها الخاصة بها ، ولها سلطة شكلية على تعاليم الوزير وتشريعاته وعلى كبير القضاة .

كانت سفانة تبلغ تسعة عشر عاما حينئذ وهي كأخواتها لم تتزوج بسبب ذلك المنام السيء الذكر.

كان بعض رجال الإدارة قد أخضعوا الأميرة خلال فترة الانتظار للتتويج على التعرف على سياسة البلد والحكم والمهام المطلوبة .

وبدأ الاحتفال في ساحة عامة أمام وحضور حشد كبير من عامة الناس ورجال البلد .. فجلست على عرش أعد لها وبجوارها الوزير غالب وأتباعه من الكتبة وكبير القضاة وعدد من أعوانه ، وقائد الجيش وقائد الحرس الملكي الخاص بقصور الملك .

وأقسمت أمامهم جميعهم على كتاب الله المقدس على القيام بواجباتها وحماية الأمة ورعايتها والدفاع عنها ، والحكم بينهم بالعدل قدر استطاعتها .

وأقسم الوزير بالإخلاص للملكة والأمة ونصر الضعفاء ، وكبير القضاء فعل مثل الوزير ، وتبعه قائد الجيش والحرس وأهم رجالات المدينة .

وجرى استعراض للفرسان والشرطة أمامها، ثم انتقلت ومعها حرسها والأعيان إلى قصر الحكم حيث استقبلت كملكة ، وجلست على العرش تتقبل التهاني من السادات ورجالات

الدولة والترحيب بضيوف المدينة الذي جاءوا للمشاركة في هذا التتويج من المدن الصديقة ، وظل ذلك حتى هبط الليل .

واستمر هذا الاستقبال لمدة ثلاثة أيام ، وكانت خلالها تقدم الأطعمة والأشربة للضيوف والعامة في ساحات أمام القصر قصر الحكم ، وكان كل هذا برعاية الوزير .

وكان على الملكة أن تحضر كل نهار ما عدا الجمعة للجلوس في الديوان .. ديوان الحكم لتسمع من الوزير أخبار وأحوال المدينة .. وإذا كان هناك سفارات زيارات تستقبلها وترحب بها .. وعند الظهر تنصرف لقصرها وبيتها للغداء وغيره .

والوزير بعد إطلاع الملك على أهم الأمور ينصرف لديوانه ، وقد لا يحضر الديوان الملكي إن لم يكن هناك ما يهم إطلاع الملك عليه .

والملكة ذات نهار تجلس في ديوان الحكم بين السادة وعلى رأسهم الوزير جاءتها رسالة من والداها كما أعلن الحاجب ، وكان يطلب فيها السماح له بترك محبسه .

فالتفتت للوزير قائلة : وهل أبي محبوس يا سيدي الوزير ؟

أخذ الوزير الرسالة وقرأها وقال : لا ، يا مولاتي ! حضرة الملك لما خلع عن الحكم فرضت عليه إقامة جبرية في أحد القصور .. فهو يشكل خطرا على النظام والمدينة

همست بشك : أبي يشكل خطرا على البلاد !

نظر في عينيها وقال : أيتها الملكة أنت لماذا جعلت ملكة مكانه وهو حي ؟!

ـ لا أدري !

قال : ألم يوضح لك المدربون ذلك ؟

رفعت صوتها وقالت : لا .

قال : أبوك يا مولاتي تسبب في موت أختك أمامة بحبسها ظلما ، وهي عليلة فماتت في السجن بعد أن منعها من حقها في الزواج حتى اضطرت للزواج دون علمه من ابن أخي ، وولدت سرا وذلك خشية تحقق منام رَآه الملك عندما تزوج أمك .. وطلق أمك ونفاها بدون جريرة حتى

اضطرت أن تتزوج من لص تائب ليحميها .. ثم هربت أختك بانة مع أحد رجال المدينة والاختفاء لليوم .. ثم هرب الأميرة خلود مع رجل مجهول .. وكل ذلك بسبب المنام المشهور فاضطررنا لعزله واعتباره مريض عقليا .

ـ أعرف كل هذا .

قال ؛ من أجل ذلك تم عزله وخلعه ، وتنصيبك ملكة ؛ لأنك الباقية من ذريته .

قالت : ولماذا كتب لي هذه الرسالة يستغيث بي لإنقاذه من الحبس؟! إنه يسألني الرحمة يا مولاي!

ـ قابليه ، وتحدثي معه عم يريد من هذه الرسالة ؟

قالت بتوتر بين : لقد حاولت ذلك قبل تنصيبي ملكة .. ومنعت إلا بموافقتك

قال : ولماذا لم تطلبي موافقتي ؟

قالت : لا أدري ! هل أذهب لرؤيته ؟

قال : اذهبي لرؤيته .

ونادى أحد القادة الذي لبى النداء ، فقال له الوزير : زيارة رسمية للملكة لزيارة قصر والدها لتقابله وتسمع شكواه .. رتب الأمور .

ـ أمرك سيدي الوزير .

وقال : ودع الملكة تتحدث مع والدها وحدهما خلوة .. ابعد الرجال والحرس عنهما .

ـ أمر سيدي الوزير .. متى ؟

نظر الوزير للملكة وقال : الآن هيا اذهبوا .

نزلت الملكة عن العرش ، وتقدمها القائد والحرس من خلفها .. وجاءت مركبة تجرها الجياد ؛ لنقلها إلى قصر والدها المعتزل فيه .

ولما وصلت للمكان ترجلت من المركبة .. وفتح لها القصر يتقدمها القائد ، وظل الحرس أمام باب القصر ينتظرون انتهاء الزيارة .

كان الملك علم بوصول ابنته الملكة للقصر من خادمته المخلصة ، وكان مستلقيا على سريره متوعكا ذلك النهار ، فجلس ووضعت الخادمة خلفه بعض الوسائد والمخدات ، ودخلت سفانة الحجرة ، وغادرت الخادمة ، دخلت وهي تلبس ملابس الحكم ، حيث أنها كانت في ديوان الحكم عندما أتت لتقابل الوالد ، قبلت يده ورأسه .

وقالت دامعة: أبي حبيبي عندما تسلمت رسالتك هرعت إليك مسرعة .

فقال بحزن بين : لم يبق لي إلا أنت .

قالت بدون ترو : ستعود أمي وبانة وخلود سنجتمع من جديد يا سيدي الملك .. كيف صحتك وطعامك ؟!

قال بنفس النغمة : الحمد لله ..كنت أرغب برؤيتك خلال الشهور التي مضت هل حرموك من ذلك ؟

قالت : ليتك أرسلت لي .

قال معاتبا : أتحتاجين لمرسال يا سفانة ؟!

قالت : لقد فوجئت بعزلك ، وجعلي ملكة ! لم أكن أحلم بذلك .. وكنت أمنع من زيارتك .

ـ أتعرفين مكان أمك وأخواتك ؟

قالت بحدة وحزم : لا ، يا أبي .

قال : هل ترين أني أسأت لكنّ ؟

قالت بتأن وتردد : لا أدري ! لكنك كنت تمنع زواجنا .

ـ أوجدوا لك زوجا ؟

ـ سمعت بذلك .

قال : من ؟

قالت : لا أدري ! سمعت الخدم يتحدثون عن ذلك الزواج .

قال كأنه آمر : هل سيأخذون رأيي ؟

قالت بصدق : لست أدري يا أبي ! إني أحبك كثيرا يا أبي! لقد حملوني عبئا كبيرا

قال وهو سارح : الشعب احتج على خطف ابنة الملك أو هربها فرأوا أني لا أصلح للحكم .. لقد أصبحت بناتي تشكل عارا عليّ .. يتعرضن للخطف ، والهرب كبنات العامة والسوقة .. أفكرت بالهرب مثلهن ؟

ردت : لا أدري !

قال : لا أدري .. أعلموك كيف تحكمين وتفعلين في قصر الحكم ؟

قالت : نعم ، خضعت لتدريب خلال التسعين يوما .. ماذا تريد يا أبي من رسالتك المبكية ؟

قال : يجب أن أعرف هذا العريس الذي سيقدم إليك وأوافق عليه .

قالت : ستعرف يا أبي ..ولن أقبل به إذا لم تقبل أنت به .. وسأبحث عن أمي وأخواتي ماذا تريد مني .

قال بتذمر : كنت أفكر بالسفر ونفي نفسي .. زهقت من الحبس .

قالت بحيرة : هل هذا حبس يا أبي؟ إنه قصر .

قال بغضب : إنه سجن .. لا يسمح لي بمقابلة أحد إلا بموافقة الوزير أو قائد الجيش .. لا يسمح لي بالخروج منذ وضعت هنا .. أريد حريتي من الملكة .

قالت : إنهم يخشون على حياتك من الخروج .. فأنت ملك .

قال : هم قالوا لك ذلك!

قالت : سمعتهم يتحدثون عن ذلك .. إنهم يخشون الدسائس والمؤامرات من خصومهم .

قال : لا حول لي ولا قوة يا سفانة !

قالت : للشيطان أعوان .. والكاهن هرب ، لابد أنك سمعت بذلك ، وقد طلبوا رأسه .

قال : الوزير الجديد .

قالت : القاضي ورئيس العسس والوزير الكل .

قال بثقة : لن يقبضوا عليه .. فهو أذكى وأفطن منهم .

قالت بتحد : لكنه قتلنا يا أبي! سبب طلاق أمي وموت أختي ، ولم تفرح بطفلها وزوجها ابن الوزير .

قال : لا داعي لتذكيري بجرمه .

قالت :آسف يا أبي ! كان أخطأ وأساء .. أتريد أن تنتقل من هذا المكان ؟ أتريد أن تخرج بدون رقابة ؟

قال بتردد : أنا الآن أقول لا أدري ! كنت أظن أنهم سيمنعونك من الاتصال بي .

قالت بإنصاف : لا يمنعني أحد فلما قرأت رسالتك في الديوان، وقرأها الوزير قال اذهبي إليه فهو والدك .. أمن البلاد مطلوب كما يقول الوزير .. إنهم يَرَوْن أنك لا تصلح لقيادة البلاد .

قال : جعلوني مجنونا غبيا .. حسنا يا سفانة ! مبارك عليك هذا التاج .. سأصبر ؛ فإذا ضاقت نفسي سأهاجر وأرحل ؛ ربما أترك هذا القصر الصغير والعودة لقصري الكبير أيسمحون لي بذلك ؟

قالت بدهشة : يسمحون ! أنا التي أسمح .. إن حياتك في وطنك يا أبي خير لك ولنا .. ستعود أمي وأختاي .. سيجتمع شملنا .. إذا أحسست بظلم تجاهك فلن أقبله .. وسأترك هذا التاج وسأترك العرش .

قال رافضا ترك التاج : لا ، لا ، كنت أظن أنهم سينقلون التاج عن بناتي لأحد إخوتي أو أبنائهم الذكور .. المهم يا بنية أن أوافق على العريس الذي سيختارونه لك ؛ لأنني أنا مثلك سمعت عنه .

قالت : أذكر اسم العريس ؟

قال : لا ؛ لكنني علمت من بعض المخلصين أنهم سيزوجونك من أبناء العائلة من أبناء عمومتك .. ولم يذكروا اسما معينا .. وبما أنك ملكة سيكون من الأقارب من الأمراء الشبان لا تقبلي به قبل رضائي .. وإلا مت وأنا عليك غاضب يا سفانة!

قالت : سأفعل يا أبي ! وأنا قبلت بهذا التاج رغم أنفي يا أبي!

زواج سفانة

زارت مجموعة من النساء من زوجات وبنات وقريبات الملكة قصر الملكة ، وكان سبب اللقاء الحديث عن زواج الملكة ، وأن على الملكة الزواج ؛ لتلد للأمة ولي العهد ، وملك المستقبل .

ولما علمت الهدف المهم من النكاح تذكرت سفانة أن لشقيقتها أمامة طفلا ، وقد اختفى ؛ وربما أختها بانة أنجبت كذلك، وكذلك أختها المخطوفة خلود .

وبينت النسوة للملكة أن الزواج يجب أن يكون بأسرع وقت ، وأن يكون من قريب لها ، وأنهم سيضعون أمامها ثلاثة شبان ؛ لتختار واحدا منهم .

فقالت : أنا لا أعرفهم ، ولم يكن والدي يسمح لنا باللقاء بأقاربنا الذكور .

قالت واحدة منهن : كان أبوك مخطئا وظالما لكنّ .

وأخذت النسوة يهاجمن الملك المخلوع ، ومنامه السيء الذكر ، وأخذت هي تدافع عن والدها وأنها لن تتزوج إلا من رجل يقبله أبوها .

فقالت إحداهن متهكمة : إيه .. هذا هبط عليك حب أبيك فجأة ! أين كان أبوك عن زواج أمامة ؟ وزواج بانة وخلود وطلاق أمكنّ .

قالت ثانية : التي في مثل سنك كان يجب أن تكون قد ولدت عدة ولادات يا ابنة أخي .

وقالت أخرى : يبدو أنك لا ترغبين بالبقاء ملكة .. اسمعي نحن أقارب أبيك .. ونعرف أنك قابلت والدك .

صاحت بحدة : نعم ، قابلت الوالد .

فقالت امرأة متهكمة : الذي لم يكن يراكنّ إلا في السنة مرة .. من العيد إلى العيد .. لا يريد أن يرى دموعكنّ .

قالت ثالثة : أصابنا من والدك العار يا سفانة ! كنّا نخزى عندما تزورنا بنات ونساء الأمراء والملوك الضيوف ..أصبح حبسكن سخرية ، ثم أصبحت سيرتكن سيئة .. أمامة تضطر للزواج سرا ، وبانة تهرب لتتزوج من أحد الشباب الذين لا يقربون لنا ، ولا يمتون لنا بصلة والثالثة

تهرب مع رجل غير معروف لنا لليوم .. أي عار أصابنا منكنّ يا بنات زرارة ! والفضيحة أمكنّ تطلق وتنفى ، ولم تجد زوجا أمامها إلا لصا أنقذت حياته قبل عشرين سنة .. أين أبوك ؟

طفقت الملكة الشابة تبكي ، وهي تسمع كل هذا التجريح والتبكيت وتقول : إنه أبي ! إنه أبي!

ـ أبوك لا يريد لك الزواج .. يريد أن تخطفي وتهربي .

كان كلام النسوة قاسيا على قلبها ؛ ولكنه صحيح .. ومن قسوته على قلبها صاحت وهاجت فيهن: أنا الملكة أنا الملكة !

ضحك النسوة وقهقهن ، وقالت امرأة لها : والله نعلم أنك الملكة العزباء .. سيتقدم لك ثلاثة شبان تختارين أحدهم .. ابني أنا أحدهم ، والثاني ابن ابن عمتك مريم .. والثالث الأمير عز من أبناء العمومة ..وكلهم من جيلك .

ـ وإذا لم يوافق أبي .

صرخت فيها إحداهنّ : أنس أباك .. أبوك دمر البلاد ، وجعلنا أضحوكة لملوك الدنيا .. وأساء لسمعتك ، وسمعة العائلة والعشيرة .. الملكة تحتاج لزوج .. تحتاج أن تكون أما .. تحتاج أن تلد للأمة ملكا .. أبوك حبس ابنته حتى هلكت في السجن كالنعجة الجرباء !

قالت أخرى : سنزورك قريبا ، ومعنا الرجال الثلاثة ، وكلهم أكبر منك بسنة أو سنتين .. وهم من أبناء النبلاء والسادة من أبناء عشيرتك .. واعلمي أنه لا تهمنا موافقة أبيك يا سفانة المهم موافقتك أنت واختيارك أنت .. وإذا لم تتزوجي ستخلعين عن العرش .. فحافظي على ملككي وعلى هذه النعمة التي جاءتك على طبق من ذهب .

صرخت في وجوههن : لن أتزوج دون موافقة أبي عليه .

ـ عجيب أمر هذه البنية !

قالت : أنا يهمني رضا الملك الأب .

قالت واحدة منهن : الملك كلنا يعرف أنه لا يريد الزواج لك ولغيرك ..إنه يخشى من ولادة حفيد ذكر يقتله .. أهذا يعقل يا بنية ؟ أليس هذا الحلم ما دمر أسرتك ؟ وسبب طلاق امّك

حتى تزوجت لصا بسبب نفيها وحيدة دون أهل وأقارب .. عادة الملوك في بلادنا تهجر الزوجات ..من النادر أن يحصل الطلاق فينا .

قالت : أنتم لا تحبون أبي .

قالت ثانية : أنحن أسأنا لكنّ ؟ هو الذي فضحنا بين الأنام .. أختك بانة من أجبرها على الهروب مع فارس صعلوك .. وتتزوج بدون حفل وفرح وزفاف .. تتزوج كابنة صعلوك ومعدم .. وماذا فعل ليأتي بها ؟ لم يفعل شيئا ..طرد أمك معتقدا أن البنت هربت بمعرفتها .. وأنها ستلتقي بها بعد الطرد .. كان عليه أن يبحث عنها .. ويسفك دمها لخيانتها لقومها وعشيرتها ..وأمامة تزوجت بعلم أمها من ابن الوزير الأكبر سرا ودون علمنا .. وها هي أختك الثالثة تتظاهر أمام الصيادين بأنها مخطوفة ؛ لتهرب مع من ؟ لا أحد يدري .. أكل هذا وتقولين موافقة أبي ؟ أبوك أيضا لم يحرك ساكنا لإحضارهن.. استعدي لاستقبال من سيكون أحدهم بعلا لك ..وسيوافق أبوك على اختيارك إذا أحسنت عرض الرجل عليه ؛ لأنه يا بنيتي عدم زواجك معناه أنك تخلعين نفسك .. أخبري والدك بذلك .

قالت الملكة : لعلي لا أريد الزواج .

ـ وهل امرأة أو رجل تعيش بدون زواج .. ولماذا خلق الذكر والأنثى يا سفانة ؟ العاقل السليم الصحيح يتزوج .. وهذه سنة الحياة والدنيا .. لو كنت مريضة ؛ ربما صدقت أنك لا تصلحين للزواج والرجال .. عندما تحيض الفتاة يلزمها النكاح إن تيسر الطالب .

قالت : ولكنني أبغض الرجال .

قالت : ليس بالضرورة محبتهم .. الزواج غير الحب والميل .. المرأة التي لا تتزوج في عز شبابها ستبحث عن العشاق .

قالت دهشة من جرأتهن : العشاق !

قالت : وإلا ماذا أنت ستكونين بين الرجال يا ملكة البلاد؟ ستجدين من العيون الخائنة التي تنظر إليك بشهوة .. لما تكوني ذات بعل يقل التطاول إليك بهذه النظرة ، ولا تتعرضين للغزل

وغيره ، ولا الطمع ببدنك .

بعد هذا اللقاء العاصف والجريء مع الملكة الشابة رتب اللقاء بالشبان الثلاثة بينها وبينهم في قصر الملك الوالد والملكة عزوف .. وحضر اللقاء بعض أعمامها وبعض عماتها .. وبعض تلك النسوة اللواتي قابلنها من يومين فقال عمها معرفا بذوات الشبان : هذا ابن عمك الأمير يزدان عمره عشرون سنة ، ولم يتزوج بعد .

ووقف الأمير أمامها لتحدق فيه . ولما عاد للجلوس أشار عمها مرارة للثاني وقال : وهذا ابن عمتك الأمير سعيد بن يوسف ووالده من أبناء العمومة .

وتقدم الأمير ووقف أمامها ، ولما نظرت فيه بدقة عاد للجلوس .

وقال عمها وهو يشير للأمير الثالث : وهذا الأمير خالد بن عُمير أمه ابنة عّم لك .. وعمير والده من العائلة ، والوزير خاله ، فأمه ابنة الوزير غالب .

وفعل الأمير خالد كما فعل سابقوه ، ولما جلس حيث يجلس قال العم : وهذه أيها الشباب الملكة سفانة !

رحبت الملكة بهم وتأملتهم بشكل دقيق وحاد ، وحدقت في عيونهم من جديد ، وبعد صمت وتفكير .. قالت : كيف سأختار أحدهم ؟

قالت امرأة عمها أم الأمير يزدان وزوجة مرارة : القوم لا يريدون أن يفرضوا عليك أحدهم هؤلاء الأبطال أمامك .. فهم الأقرب إليك نسبا وسنا.

ـ ألا تسمحون بإعلام أبي وإحضاره ليراهم ؟

فقال عمها : يا بنية ! والدك الملك لا يعرفهم معرفة قوية ؛ ربما رآهم وصافحهم في مناسبة التهنئة بالأعياد .. وهو قد أساء للبلاد والعباد .. وألبسنا العار بهرب أخواتك ، وزواج أمك من مناع السارق المشهور .. لقد كان أن تتزوجي من خمس سنوات .. ولكان اليوم ابنك يرتع ويلعب مع الصبيان .. وتسبب أبيك في موت بكره بعد ولادتها .. وهو كما نعلم لا يرغب في زواجكن .. وتحدثت قديما معه في ذلك ؛ ولكنه بدل أن يقبل نصحي هددني بالطرد والنفي .

قالت بخضوع :إنه أبي يا عمي .. قابلته من أيام كان يفكر باللجوء إلى أحد الملوك والعيش خارج البلاد .. ولما علم أنني سأقبل من يوافق عليه من زواج .. قال سأبقى من أجلك يا سفانة
ـ هل اخترت أحدهم ؟

قالت : كلهم أبطال ، وسيراهم أبي ، وينصحني بحسن الاختيار .

قال العم : مسكينة أنت ! أنت لا تصلحين للملك سيضيع الملك من العائلة.

همست بحيرة : لست متعلقة بالحكم ..لماذا جعلتموني ملكة ؟!

فكر العم وقال : جعلناك ملكة لأنك ابنة الملك .. والملك لم ينجب ذكرا يرثه .. والملك سينتقل لابنك الذكر .. أتحبين العزل ولا تريدين الزواج ؟

قالت : لا أدري يا عماه ! كأنني كرهت الزواج بسبب أخواتي وطيشهن .

قال بضيق : الحق على أخي .. اللوم على الملك في الأول ..أخواتك حرمن من الزواج .. فتزوجن رغم أنف أخي وبطرق مخزية .. الهرب .. كان أخي أحمق .. أغلق حياته على منام فاسد حلم شيطان .. وأنت تزعمين أنك غير راغبة بالزواج .. ألم يعجبك أحد من هؤلاء الشبان ؟

عادت تقول : لا أدري .. هل الزواج ضروري ؟

قال بامتعاض : ما دمت ملكة فهو ضروري ولازم .. حسنا ستذهبين برفقتهم لقصر أبيك !

قالت بسذاجة : أبي سيحضر هنا أليس هذا قصره يا عماه ؟!

صاح بحدة وملل : هذا قصر الملوك .. ومنام الملوك يا بنية من عهد بعيد .. سأرسل وراء الوزير يا خالد اذهب إلى خال أبيك وأت به .

صاحت منزعجة : وما دخل الوزير في هذا يا عماه ؟! أنا التي ستتزوج ..أنا الملكة أنا الملكة !

حدق في ووجها سخطا وقال : نعم ، أنت الملكة ؛ ولكنّ أباك يشكل خطرا على البلاد .. فهو محجوز في قصر صغير حتى يموت ، حتى لا يتصل بأنصاره والموالين له ، ويسبب المشاكل والقلاقل في البلاد .. نحن لا نريد حدوث فتنة يا ابنة أخي .. وأنت عُلمت ما هي واجباتك وحقوقك علينا .. أبوك أخي .. ومصلحة البلاد أهم من الأفراد .

قالت : لا دخل للوزير بزواجي .

قال : موافقة الوزير على زواجك أهم من موافقتك أنت وأبوك الملك .. الوزير رأيه الأهم ، وكذلك القاضي الأكبر .. وزواج ملكة ليس كزواجي وزواج الوزير .. وهؤلاء الفتيان الوزير قبل بهم ؛ ليكون أحدهم بعلا لك .

صاحت بحسم موقفها : أنا إذا لم يقبل أبي بأحدهم لن أتزوج .. اعزلوني عن الحكم ..لا أريد الملك .

قال الأمير : حسنا ! سيأتي مولانا الوزير؛ ليسمع هذا الكلام حتى لا أتهم بتضليلك والافتراء عليك .

جاء الوزير بعد وقت يسير يصحبه موكبه وحرسه ، وأخبره العم مرارة بكلام الملكة ، وأنها تطلب موافقة أبيها على العريس .

فضحك الوزير وقال بتهكم : موافقة أبيك الملك على العريس أو تتركين الحكم .. يا لك من طفلة ! ما زلت تفكرين بعقلية الطفلة .. أبوك لابد أنك تذكرين أنه لا يحب لكنّ الزواج .. وعمك بمقام والدك .

قال العم : يا ابنة أخي ! لقد أساء الملك للأسرة والبلد .. يا مولاي ما العمل ؟

قال الوزير : فلتذهبوا جمعيا إلى قصر الملك .

قال العم : تريد أن يأتِ أبوها إلى هنا .

نهض الوزير قائما وقال :تذهب إليه وحدها ، وتتشاور معه ، ثم نرتب إلى اجتماع هنا .

زارت سفانة والدها في محبسه الخاص ، وأخبرته بأشخاص العرسان الثلاثة وعليها أن تختار احدهم ؛ ليكون شريكها وزوجها في الحياة ، وأنها لن تقبل بأحدهم دون موافقته هو ، وفضلت ترك الحكم إذا لم يقبل هو بزواجها.

هز الملك رأسه عدة مرات وقال : لو الأمر بيدي لمنعتك من الزواج .

نظرت في وجه أبيها وقالت : إذا كنت لا تريد لي الزواج سأرفض يا أبي .. لست متعلقة بالزواج

إنني أكرهه .

فقال : وهل يرضون بذلك ؟

قالت : لا أريد التاج ..لم أحبه .

فقال : ما دمت لا تريدين التاج فدعك من الزواج.. أنا بغض لي زواجكنّ .. وسعيت لذلك المنع .. لا أنكر ذلك أيها الملكة البارة بأبيها .

قالت : أنت الملك يا أبي .

قال : أتحبين أباك ؟

قالت : هل من أحد يكره أباه يا أبي ؟!

قال : أخواتك .. ألم يجلبن العار لأبيهن ويفضحنه بين القريب والغريب ؟ وتزوجت أختك الكبرى سرا دون علمي ..والأخريات هربن .. وأمك نكحت لصا .. مع من هربت خلود ؟

قالت : لا أدري .. ولا أحد يدري مع من هربت ؟ لم تخبر أحدا بسرها ..أنت ترفض زواجي يا أبي !

قال :ما دمت أنت مبغضة له ،ولا تريدين الزواج فأنا أرفضه .

قالت : ألا تخشى انتقامهم ؟

ضحك وهو يقول :ماذا يفعلون أكثر مما أنا فيه من الحبس والإهانة والخلع ؟ سيقتلونني لا يفعلون .. وأنا لا أخشى الموت .. لم يصدف أن قتل ملك من أجدادي قتلا في بلده .. إذا كنت لا ترغبين بالزواج فأنا أحثك على ذلك .

قالت : أخواتي تزوجن رغم رفضك ؛ بل إحداهن ولدت سرا .

عاد يقول : إذا أنت راغبة بالاقتران عليّ أن أوافق .

عادت تؤكد :إذا لم تقبل أحدهم فلن أتزوج .

قال : الزواج كله مرض يا سفانة!

أخبرت الملكة عمها برفض أبيها زواجها ، وأنها غير مستعدة للزواج دون رضاه ، وهي مستعدة

للتنازل عن الحكم .

فقال مشفقا : أترين أن هذا من البر ؟!

قالت : إنه أبي يا عماه !

قام وقال: حسنا ! استعدي لخلع التاج ..وإذا أصاب والدك سوء أنت السبب .

بعد هذا الكلام قابل العم الوزير غالب بن عثمان ، وحدثه برفض أبيها زواجها من هؤلاء الشبان ومن غيرهم ، وهي جاهزة لخلع التاج الملكي .

فقال الوزير : دعني أفكر بعض الوقت .

اجتمع سادة البلاد الكبار ، وسمعوا كلام العم والوزير ، ورفض الملكة الزواج بدون رضا الملك المعزول زرارة ، وأمهلهم ثلاثة أيام للتفكير بالملك الجديد .

اجتمع القوم مرة أخرى لمناقشة أمر زواج الملكة وخلعها ، واتفقوا على توليه العم مرارة الملك حتى يظهر ويعود ابن أمامة الذي هو من نسل الملك زرارة من منفاه السري ، ويتولى مقاليد الحكم

وكان ابن أمامة كما نعلم قد هُرّب ليلة ولادته إلى مدينة مجاورة مع جارية وعبد من جواري وعبيد أسرة الوزير أوس ، ومن أجل حمايته تزوج الأمير لؤي أميرة من تلك البلاد ، ورحل إليها ؛ ليكون قريبا من ابنه .. وكان حذرا جدا في زياراته خشية أتباع الملك وأعوانه .. وكان يفكر بعد خلع جده بنقله لبيته ومنزله .. فكلنا يذكر تهديد الملك المعزول بالبحث عنه وقتله .

عزلت الملكة بعد رفضها الزواج ، ومنعت وحرمت من زيارة أبيها ، ورجعت لقصرها القديم حيث كانت تعيش مع أخواتها ، وشددت عليها الحراسة ؛ لأنها ملكة معزولة كأبيها فلا يجب عليها أن تتصل بأحد إلا بالحدود الدنيا.. ولما رأت هذا الحال والتضييق أحست بالندم والجهل والغباء .

عودة عزوف

بعد مضي فصل من الفصول سمح الملك الجديد لسفانة بزيارة الوالد حسب ترتيب وحراسة مشددة ، وصارحها الوالد برغبته بالهرب بمساعدة من أنصاره ، وأن أحد الملوك الأصدقاء رحب بلجوئه لبلده .

فقالت بقلق : ألا يغضب قومنا ؟

فعاد يقول : لكني ضعيف ، لم يعد بدني يتحمل السفر .

قالت : لماذا لا يسمحون لك بالسفر ؟! فليشفع لك ذلك الملك عندهم عند شقيقك الملك مرارة فالهرب سيّء يا أبي !

قال كأنه شارد الذهن مشتت الفكر : ألم تتزوجي بعد ؟

حملقت فيه استغرابا وقالت : لم أتزوج !.. ألم تمنعني من الزواج ؟

قال : أنا منعتك من الزواج ! أنا قلت إنني لا أحب زواجك .. لم أمنعك من الزواج إذا رغبت بذلك .

قالت : ولكني تنازلت عن العرش حتى لا يحدث الزواج هناك خبر لا أدري هل نقل إليك ؟

قال : خبر .. ما هو ؟

قالت : كتبت أمي رسالة للملك تطلب العودة للحياة في بلدها في مدينتنا .. فقد ترملت من شهور مضت.

هتف شامتا : آه ! مات اللص .. نكحت أمك لصا !

قالت : علمت أنه تاب منذ فارق هذه المدينة يا أبي .. ولم يعد لصا .

قهقهة زرارة وقال : اللص يبقى لصا حتى يموت .. إذن هلك مناع اللعين .

قالت مستفهمة عن فرح أبيها بموت زوج أمها : إذا لم تكن ترغب بزواجها من غيرك لماذا طلقتها ؟! فكان عليك أن تهجرها كما يفعل بعض السادة .

فكر قليلا قبل أن يقول : كانت ضربة قاصمة عندما علمت بزواج أختك سرا .. وبدون

مشاورتي ..ولولا تلك الولادة لما عرفت بزواج تلك العاهرة .. وممن من ابن الوزير عدوي الأول .. كنت صغيرة يومئذ .

قالت : لم أكن صغيرة يا أبتي ..كنت ابنة خمس عشرة سنة .. وأعرف الأمور وما يدور حولي كانت أمي منزعجة من كبر سنها .. ولم تصبح زوجة وأما .. وأنت مصر على القلق والخوف من ذلك المنام البشع.. فاضطرت أمي للسعي إلى زواجها ممن تحب .

قال : أأنت تُحبين أمك ؟

قالت بحيرة : أحبكم جميعا .. إنها أمي ، كما أنت أبي.. لقد كتبت رسالة للملك تستعطفه بالعودة .. وكتبت لي رسالة تلومني على ترك العرش ، وعلى رفض الزواج .

قال : هي حمقاء ! لا تقدر ذلك المنام !

قالت : أما زلت تعتقد بذلك الحلم يا أبي ؟! قد خلعت عن الملك بسببه

قال بتحد : ما زلت ، وما زلت أعتقد أن ميتي على يد أحفادي .

قالت : أين هم الأحفاد ؟

قال : سيأتون .. ألم تلد أمامة أحدهم قبل موتها ؟ وقد أخفي عني، سعيت لقتله ، والغدر بالوزير أوس اللعين ، وفشلت .

قالت بحيرة : أردت قتل الوزير !

قال : نعم ، يا بنية ..كان عاقا لي ..أردت قتله بالسم ؛ ليموت .. وأخلص منه وأنتقم منه .. كيف تجرأ على النيل من بناتي وعلى شرفي ؟ كأنني غير موجود .. وأنا سيده وسيد هذه الأمة والبلاد .

قالت : هذا كلام خطير يا أبي !

قال : أعرف ..كان عليّ التخلص منه .. كان زواج ابنه من ابنتي قاسيا على قلبي ، وجريمة كبرى في حقي وقد جرأ الناس على التغرير ببناتي ؛ لكنه كان حذرا وذكيا

تنهدت برعب : الحمد لله أنك لم تقتله ، وإلا كانوا قتلوك وأصابتنا حسرة عليك

قال كأنه حكيم : يا بنية الحكم والسياسة والتاج أحيانا تحتاج منا إلى قسوة وجبروت حتى تبقى الرعية في خوف ورعب .. وتبقى قوة الملك .

قالت : أهكذا السياسة يا أبي ؟

قال : ليست دائما هكذا ..بين الفينة والأخرى .

قالت بجفاء : هذا أمر مرعب !.. عمتي ودود زارتني وطلبت مني التفكير بالزواج من أجل الزواج ، وليس من أجل الملك .

صفن قليلا ثم قال : أترغبين برجل يا سفانة ؟

قالت بعزم : لن أتزوج قبل موافقتك ورضاك ..لن أكون مثل شقيقاتي .. قبولك المهم عندي يا أبي .

قال بدون تردد : أنا لن أوافق.. إذا لك رغبة تزوجي دون موافقتي .

غيرت الحوار : هل ستقابل أمي إذا عادت للبلاد ؟ لأني علمت أن الملك وافق على عودتها لقصر أبيها الذي يحتضر كما نقل لي .. وقد علمنا أن لها طفلا من ذلك الرجل .

صرخ زرارة بجنون : ولدت منه! .. يا الهي ! لك أخ من لص !جنت اللعينة !

قالت : هذا ما كشف لنا من رسائلها لأهلها .. وهو طفل يافع يمشي .

قال بضيق واضح : أرأيت ما يصنع الزواج من البلايا ؟!.. بنات الملك أصبح لهن أخ من لص وغلبه البكاء فأخذ بالبكاء من هول النبأ .

تفاجأت من بكائه ورددت : أتبكي يا أبي ؟ الملك يبكي !

استنشق دموعه وقالت :أبكي من القهر والغيظ .. لقد أخطأت بطلاقها ..كان عليّ هجرها ، كما كان يفعل آبائي .. لقد خالفت رأي غياث .

قالت : الكاهن !

قال : نعم الكاهن .. أمرني بهجرها .. لقد كنت معلولا منها لما علمت بزواج أمامة من ابن ذلك اللعين وولادتها .. أردت إذلالها .. أليس هناك أخبار عن ابن أمامة ؟

قالت : إنهم ينتظرون أن يكبر ؛ ليكون ملك البلاد .

قال : نعم ، هو الأحق بالملك ؛ لأنه ذكر ، ومن سلالتي .. وأبوه من أهل المدينة .. فله الأولية عندما لا يكون للملك الميت أو المخلوع مثلي ابن ذكر .. وإن كان المولود من جهة الأنثى .. عندما تعود عزوف أتمنى اللقاء بها إذا رضوا بذلك .

قالت : سأسعى بذلك يا أبي !

بعد حين يسير من هذا اللقاء بين الملكين المخلوعين عادت الملكة عزوف من بلاد الغربة ، ونزلت في قصر والدها الذي مات قبل وصولها بزمن قريب .. واستقبلتها أمها وأهلها أحسن استقبال فور دخول البلاد ، ورحب الوزير بعودتها ، وعزاها بزوجها ووالدها عندما استقبلها في قصره .

وذهبت للديوان وقدمت الشكر للملك الجديد الذي تمنى لها حياة سعيدة في بلدها ، وبين أهلها وأقاربها ، وطلب منها المساعدة في عودة بناتها للحياة بين أهليهن ، فوعدت بالمساعدة في ذلك ، وبعودة حفيدها ابن ابنتها أمامة .

قامت سفانة بزيارة أمها لما سمحوا لها بذلك ، وأبدت المرأتان السعادة بهذا الاجتماع ، وعاتبت الأم ابنتها على خلع نفسها عن العرش ، وعدم الزواج بحجة طاعة الوالد وبره .. فذكرت تبريرها لرفض الزواج دون موافقة أبيها الضعيف الموقوف في قصره .. فاتهمت الأم ابنتها بالسفاهة والجهل ، وشجعتها على الاقتران بزوج صالح ؛ لتنجب منه ذرية طيبة ، وأعلمتها أن والدها يعيش في وهم وحمق مما دفع سفانة لتتشاجر معها .. ثم طلبت من أمها أن تريها أخاها ، فحضر فعانقته وقالت له : أنا أختك يا رياض ! وقالت : إنه طفل رائع وجميل يا أماه ! أصحيح أن والده لص حكم عليه بالموت ؟

جاءت رسالة من الملك حميد بن أحمدان ملك بلاد جلال الدين صديق زرارة إلى الملك مرارة بن نعيم ملك بلاد اللؤلؤ يطلب فيها العفو عن الملك ، والحياة في بلاده ..فقد أرسل له زرارة رسالة يستعطفه ويرجوه بالسماح له في العيش في بلاده للصداقة العميقة بينهما ، وبين البلدين

من عهد الآباء والجدود .

اجتمع الملك بالوزير غالب ، وحدثه عن رسالة حميد ومناشدته ، فقال الوزير بعد تفكير : لا أدري خطر خروجه من البلد ! وهو كما علمت من طبيبه الملكي الذي يعوده يعاني من ضعف وإرهاق بدني .. لكن لديّ شرط إذا غادر البلد ، ومات هناك ستبقى جثته عندهم .. لن تقبله البلد ميتا .. فهو ملك حكم بلادنا عشرات السنين كما تعلم ؛ فإذا قبل الشرط فحيهلا .. فأرسله إلى الملك حميد بن أحمدان ملك بلاد جلال الدين ولتصحبه خدمه وغلمانه الذين يرغبون بالهجرة معه .. ونحن سنرسل له أمواله المخصصة له كل عام دون نقصان وأي زيادة وحذره من التآمر على البلد .

نقل الملك مرارة الشروط لشقيقه زرارة ، فقبلها ، ووافق عليها ، وطلب أن تصحبه ابنته سفانة التي قبلت بدورها مرافقته في رحلته ، والعيش معه في تلك البلاد حتى الموت .

وتشاور الملك مع الوزير في أمرها فرأيا أن تذهب ما دامت موافقة على ذلك .

طلب الملك المخلوع قبل النفي الاختياري اللقاء بعزوف ؛ ولكنها رفضت هذا اللقاء ، ولم ترحب به ، وقالت للرسول : إنها ترملت على ذمة رجل غيره .

وحتى أنها لم تذهب لوداع ابنتها ، وغادر الملك زرارة ، وابنته بصحبة كوكبة من الفرسان والحرس إلى مدينة الملك حميد ، وصحب الملك عدد من خدمه ، وكذلك سفانة صحبتها إحدى مربياتها ، وبعض خدمها.

فكان الملك يهامس سفانة : أرأيت أمك أبت أن تودعنا ؟ إنها لا تحبنا .

قالت بحيرة : لقد طلقتها يا أبي ؟

فرد على حيرتها فقال : ولكنها امرأة ملك .. الحمد لله الذي أبقى لي سفانة .. أنت الابنة الوحيدة التي تحب أباها ومخلصة له .

قالت : بالتأكيد أني أحبك يا مولاي أنت أبي !

فقال سؤالا محيرا : أترين أني قصرت معكنّ ؟

قالت : لست أدري !

فقال : هل ظلمتك لرفضي زواجك من هؤلاء الأمراء ؟ وتسببت في تنازلك عن العرش والتاج

قالت : أنت أهم من العرش .

تنهد وقال : كلام طيب إذا كان صادرا من قلبك !

هتفت مؤكدة : أنت حبيبي يا أبي! صدق أن سعادتك أحب إليّ من الزوج والعرش .

فقال : ليت أخواتك كن مثلك ! لا أخبار عنهنّ يا بنيتي !



ابن الوزير

رجع الأمير لؤي بن أوس من مدينة عبسان إلى وطنه تصحبه زوجته وأولاده الثلاثة بعد غربة اختيارية استمرت لعدد من السنين .. واستقبله عمه الوزير في قصره ، ورحب به ، وشكر الله على عودته سالما ، واطمأن على أحواله ، وأحوال ملك تلك البلاد التي عاش فيها الملك حبيب واستقر في أحد قصور والده ، وزارته الملكة عزوف ، مهنئة بعودته لبلاده سالما غانما ، ورحبت زوجته الأميرة ليلى بالملكة القديمة عزوف .. ورأت أولاده ، فلما سمعت أخباره وأسباب عودته سألته عن ابن أمامة .. وهذا هو أهم أسباب هذه الزيارة .

فقال : هو في أمان يا ملكة الزمان !

قالت : لم أعد ملكة يا ولدي .

قال : ستبقين في خلدي ملكة ..أنت أم أول امرأة اتخذتها حليلة .. وكانت مغامرة مؤلمة رغم فشلها .. فأنت كنت سيدة فاضلة وشجاعة .. لقد أصر الملك على عدم زواج بناته .. وقد خرقت الحاجز ، وضحيت بملكك من أجل سعادة بناتك .. وقد علمت أنه حرم على سفانة الزواج ، وأخذها معه إلى حيث غربته ومنفاه.

قالت : لقد ترك البلاد .

قال :كانت تصلني أخبار البلاد من تجار المدينة .. وإن لم يسعوا إليّ أسعى إليهم

قالت : نسيت أنكم من أهل التجارات .

قال : عدت من أجل الأطفال ؛ ليكبروا في بلاد أبيهم ، ويعرفون أهليهم .. أما الفتى فهو ابن عشر سنوات .. ويستطيع الجلوس على سرج الجواد .. وكنت ألتقي بين الحين والآخر زاعما أني سافرت للتجارة .. ويعرف أنني أبوه وأن أمه ماتت .. وسيعود بعد زمن للجلوس على عرش البلاد .

قالت : سيقبلون به ملكا .. وقد عاش بعيدا عن بلاد أجداده .

قال بثقة : سيقبلون ؛ لأنه من سلالة زرارة الملك .. هو لو عاش هنا لكان الأحق بالتاج من

خالته سفانة .. هل من أخبار عنها ؟

قالت بغم : لم تكن علاقتي بها جيدة بعد عودتي من النفي .

قال : سمعت أنك ولدت ذكرا .

قالت : اضطررت للزواج .. وكنت وحيدة غريبة .. وقدر لي أن ألد ذكرا منه .. كان نبيلا رغم ماضيه الأسود .

قال مواسيا : الناس تتغير .

قالت : هل من مجال لرؤية الولد أم عليه خشية من الظهور ؟

قال : الأمر صعب .. والخطر ما زال عليه من أعوان الملك زرارة .. فلنصبر حتى يشب ويكبر ويستطيع الدفاع عن نفسه أيتها الملكة الأم !

قالت : أنت شجاع يا لؤي ! كانت شجاعة منك أن تقبل بالزواج من ابنتي في تلك الحال المؤلمة وأنت ابن الوزير !.. لقد خشيت عليك القتل من الملك .

قال بأدب : الله الحافظ يا مولاتي ! كان علينا أن نتزوج ، وكانت هي شجاعة .. وقبلت المغامرة .. وأنت معها ، ووافقت على زواجنا ، وإغضاب الملك ؛ لكننا فشلنا في إعلان الزواج أدركنا الوقت ، ولم نستطع إقناع الملك، وظل على عناده ، وكرهه لزواج بناته .

مسحت دمعات سالت على خديها وقالت : لكنها ماتت ـ رحمها الله ـ ماتت مسجونة مظلومة محرومة من حضن وليدها وإرضاعه .

قال الأمير بحزن : غفر الله للملك .. لقد مات أبي مهموما من أجلها ..وأبى الصلح معه إلا بعد العفو عنها ؛ لكن سبق الموت الجميع ..ولم يحب أبي استخدام القوة ضد والدها ..إنه أبوها وكان يخشى الفتنة الكبرى بسبب هذا الزواج الغريب ؛ ولكن سيكون ولدها الملك في قابل الأيام والزمان .

قالت : عساه شجاعا.

قال : هو من ناحية الصورة شبيه بها .. وسيكون ملكا عظيما بأذن الله .. لمست الشوق عند

السادة لعودته فارسا مقداما بطلا ؛ بل يفكرون بتزويجه قبل عودته فهم يدبرون ذلك .

قالت : علمت أن حفلة ستقام على شرف عودتك .

قال : أتحبين الحضور يا ملكة الزمان ؟

قالت : ما رأيك أنت ؟ أنا لما عدت للمدينة لا أتصل إلا بعدد قليل من النسوة .

قال : إنهم يريدون تكريمي ؛ لأنني والد الملك القادم .. وليتعرف الأمراء الصغار على عمهم وقريبهم وأولاده وزوجته .. ووالدي هو الوزير الكبير أوس صاحب الحكمة والقوة المعروف لك .

قالت : إذا رغبت بالحضور أرسلت لك خادمتي .

قال : أنا رهن الإشارة .. فأنت حماتي التي لا تنسى .

قال : كيف حبك لابنك ؟

قالت : سيكون بطلا ـ إن شاء الله تعالى ـ عدت أيها الأمير ووجدت ابنتي بانة قد اختفت ولم تظهر لليوم ، ثم خلود .. وها هي سفانة تلحق بهنّ مدعية حبها لأبيها الذي حرمها من الزواج تركت الحكم من أجل حبها كما تزعم لأبيها .

صاح الأمير : لعنة الله على ذلك المنام .. أين ذهب الأمير غياث ؟ رشا الحرس واختفى اللعين

قالت : شيطان رجيم .. لقد كان الملك مخدوعا به ومتعلقا به ، لم أحبه يوما ..كنت أتعوذ من الشيطان ومنه عندما كان الملك يدعوه لمائدته .. كان ينظر إليّ نظرات كلها حقد وحسد .

قال : ملعون لعله هلك .

قالت : الآن اسمح لي بالانصراف .. وشكرا على هذا اللقاء الطويل .. وشكرا لزوجتك .. وبارك الله فيكم وبأولادكم .

وغادرت عزوف الحجرة يرافقها الأمير حتى ركبت عربتها ، وتحرك الجواد بها وبخدمها إلى خارج القصر .

ولما عاد قالت زوجته : أهذه أم الأميرة المسكينة ؟

قال : نعم ، وستكون جدة الملك ؛ ولعل ذلك تعزية بموت ابنتها في سجن زرارة .

قالت : إنها ما زلت حسناء شابة !

ضحك وقال : ترملت منذ زمن يسير .. لقد نفيت بعد طلاقها من الملك زرارة .. كان زواج أمامة شؤما علينا .. وإذا رجع ابننا سيتحول الشؤم إلى نعمة ورحمة .

رفض الملك زرارة زواج ابنته بانه من الأمير كساب ابن أحد قادة الجيش الكبار والقدامى بسبب المنام المشهور .

كان الأمير كساب في زيارة لخالة مريضة ، فرآها وأعجب بها ، وهي أعجبت به وبادلته الإعجاب ، وأصبحا عاشقين من نظرة واحدة يلتقيان خفية في ضواحي وأطراف المدينة والغابات ، وخطبها والده القائد صلاح من الملك ، فرفض أي زواج لبناته ، ولم يقبل أي شفاعات في ذلك .

وكان المنام قد انتشر وشاع في البلاد والعباد خاصة بين الأمراء والسادات ، ولما تزوجت أمامة سرا كانت بانة تعرف بهذا الأمر ، فأخذت هي وكساب يخططان للزواج سرا ، ووجدا أن الأفضل لهما الهرب من المدينة ، والزواج في بلدة أخرى فإذا هما يريان ابن الوزير لم يستطع إشهار زواجه فكيف هما ؟ فخرجا خفية ، وبعد أن ابتعدا عن المدينة تركا الجوادين لابن السبيل ، وخلعا ملابسهما الثمينة والقيا بها في إحدى الوديان ، وتزينا بزي البسطاء من الناس.

وكان القائد صلاح أخبر من ولده بأمره ، وأعلمه بزواج ابن الوزير لؤي من الأميرة أمامة سرا وبعد تردد سكت عن أمره ، وتظاهر بأنه لا يعلم شيئا ، ودعمه بالمال والمجوهرات ، وكان هروبهما بعد انكشاف أمر أمامة ولؤي .

وكان الأمير كساب قبلا قد ذهب لإحدى المدن ـ وهي جلال الدين التي تبعد عن بلدته اللؤلؤ مسيرة ثلاثة أيام بلياليها جهة الشمال الغربي ـ واشترى بيتا فيها ، وزعم لجيرانه أنه سيسافر والعودة بزوجته .. وفعلا أتى بها كما خططا ودبرا ، وبعد أيام ذهبا للقاضي ، وعقدا زواجهما الشرعي بشهادة القاضي وأحد معاونيه وولاية القاضي ؛لأنهما غريبان لا أهل لهما في المدينة ..

وكان كساب تسمى بإبراهيم وبانة بشهد .. واشتغل كساب بالتجارة ، وبعد حين تم فتح دكانا في السوق ، واشتهر بالتاجر إبراهيم .. وكانت حياته بين السوق والبيت .. وتعرف على بعض الجيران في السوق والبيت .. وكان يتعامل معهم بحذر وإخفاء مسقط رأسه وسبب عيشه الحقيقي في هذه المدينة .. وأنجبت له الأميرة شهد ابنه الأول ، وسماه حماما ، طابت لهما الحياة فيها ، وكانا يتحسبان ويتحسسان لمطاردة من الملك زرارة ، ثم تفاجا بعد سنين بمجيء الملك زرارة منفيا أو مهاجرا للعيش في بلاد الملك حميد ، ومعه ابنته سفانة .. وحمدا الله تعالى بأنهما لم يتقربا لذوي السلطان والحكم .

وكان الشاب يلتقط أخبار البلد من التجار بسرية وحذر .. فسمع بخلع الملك وفرار خلود شقيقة زوجته مع أحد الناس .. وتربع سفانة ملكة ، وتنازلها عن العرش .. لذا تفاجأ من خروج الملك من بلده لعند الملك حميد ، وكل ما يسمعه ينقله لأم حمام .

فقالت : أبي هنا !

قال : نعم ، يا شهد !

قالت : هل من خطر على حياتنا ؟

قال : لا أعتقد ذلك .. فهو قد ترك الحكم ، ولم يعد حاكما .. وهو رجل ـ كما أخبرنا ـ مريض وضاق به المقام في بلادنا ، وإلا ما هاجر .. هذه تصاريف القدر .. ومعه الأميرة سفانة .. فالتجار ينقلون أنباء المدن والسادة والقصص .

قالت : المهم سلامتك يا سيدي إبراهيم !

قال : لا أحد يعرف أننا من أبناء تلك المدينة .. ولليوم لم نلتق بأحد يعرفنا ؛ لأن أكثر من يتردد هنا التجار وأولادهم .. ونحن كنّا بعيدين عن التجارة بأشخاصنا كان الوكلاء والخدم يقومون بالعمل .

قالت بحسرة : أبي يعيش هنا ولا نستطيع مقابلته !

قال : لنا سبب .. ولو رخص لنا بزواج ما تشردنا واختفينا .. لقد جمع الحب بيننا .

قالت : لقد بذلت أمي كل جهد ؛ لتصرفه عن المنام اللعين .. وكيف يقتل حفيد جده بدون سبب ؟ وها هو قد كبر ، ولم يظهر حفيد ليقتله .

قال : ولما زارني أخي نبيل منذ زمن يسير .. وقد رافق إحدى قوافل بلادنا .. قال ما زال الوليد مجهول الإقامة .. وينتظرون بلوغه ؛ ليعود ويحكم البلاد .

قالت بحزن : أذكر أنك قلت لي ذلك ـ غفر الله لك يا أبي ـ دفعتنا لنتشتت في بقاع الدنيا .. طلقت أمي ونفيت وحيدة .. وماتت أمامة ، ولم تفرح بزوجها ، ولا بابنها ، ماتت في حبس أبيها الذي تهاون في علاجها .. وهي في حالة وضع .. وخلود اضطرت أن تهرب وتختفي .. وسفانة تركت الزواج من أجل رغبة أبيها ـ ساحك الله أيها الأب ـ سامحني يا كساب على هذه الذكريات والجروح .. أهناك أخبار عن أمي ؟

قال مجيبا : كما تعلمين أخبر أخي بعودتها للبلاد .. وعفا عنها الملك مرارة عمك .. وعرف الناس أن الملك نفاها ؛ لينصب لنا فخا إذا أقدمنا على زيارتها .. فتزوجت في الغربة ، ثم ترملت قبل العودة لأهلها .

قالت بشوق لأمها : كم أنا مشتاقة إليها يا سيدي الشجاع ! أليس هناك حيلة نزور بلادنا ، ونرى أحبابنا ؟

قال : الحيل موجودة .. والخطر موجود .. وأنا مثلك في شوق لأهلي ووالديّ .

قالت : ألا يصفح عنا العم ؟!

قال : هو يصفح ؛ لكن الخطر من الحاقدين من أتباع الملك الوالد .

قالت : الملك أصبح هنا .. وسفانة المسكينة هنا!

خلود

كانت الأميرة خلود كأختيها تشعر بظلم من والدها من عدم تزويجها ، وقد بلغت سن الزواج والرشد وترى الأميرات والقريبات يتزوجن ويفرحن بأطفالهن .. ورأت مغامرة أختها بالزواج دون علم الأب ، وموتها بعد الولادة .. ورأت هرب أختها بانة تتزوج من شاب ، وتهرب من البلد ، فوقع في نفسها فعل ذلك ، والخروج من المدينة ؛ ولكن أين الزوج والعريس ؟ وكيف ستجده ؟ لابد من جهد ومغامرة .. فمعاداة الملك ليست كمعاداة شخص من العامة .. فمخاصمة الملك تعني الموت والدمار .. ومصاهرة الملك ليست كمصاهرة غيره من أين ستأتي بابن وزير وأمها قد طلقت ونفيت ؟ وأختها وجدت أميرا وهربت معه .. ولاحظت سخط والدها على الوزير وأتباعه وحتى أسرته .. لم تكن العلاقات بينهم على ما يرام .. ولولا أن لؤي ابن الوزير لسفك دمه .

سمعتها جارية من جواريها ذات مرة تتمنى لو أنها تستطيع العمل مثل بانة بأن تجد زوجا تهرب معه .. وذكرت مثل ذلك بقصد أو غير قصد في أحد الحوانيت التي تبتاع منها الثياب الجديدة وجاريتها نور تردد ذلك.. فتشجع أن يساعدها في ذلك التاجر عمرو بن سنان لما سمعهما ترددان ذلك وحزن على حالها ،.. وهو يعلم الظلم الذي وقع على بنات الملك بسبب ذلك المنام الشهير حتى أن بعض الناس تمنى ظهور الحفيد؛ ليخلصهم من الملك وكهنته .. وأحب التاجر عمرو بن سنان أن يغامر لما حدثه ابن أحد التجار من مدينة أخرى برغبته بالزواج من فتاة غنية من بنات بلده .. فحدثه التاجر عمرو عن ابنة الملك ، ورغبتها بالزواج ، والخروج من البلد كأختها بانة فتحمس الشاب لهذه المغامرة الجريئة .. فالتقت الأميرة به في المتجر بعد أن أخبر التاجر الجارية .. فجاءت الفتاة والتقت بالشاب سرا .. وعرفها على نفسه والمال الذي يملكه في بلده .. وتواعدا على اللقاء في رحلة أخرى ؛ لتفكر بالمغامرة جديا .. وأرسلت جاريتها معه إلى بلده ؛ لتزداد معرفة به وبطباعه .. فوافق الشاب على ذلك زاعما أنه اشتراها .. وعادت الجارية بعد أشهر تقدم معلوماتها للأميرة عن الشاب .. فأثنت عليه خيرا وحضر للمدينة .. والتقى

بالأميرة وزعمت الجارية للجواري أنها استأذنت الأميرة لزيارة أهلها وأمها واختفت .

ورتبت الأميرة مع الشاب خطة الاختطاف والهرب ، وكانت حيلتها بالهرب أثناء رحلة صيد رافقت الجارية الشاب إلى الغابة ، وبينت له خطة الأميرة .

وخرجت الأميرة بعد أن رتبت الأمور ، وقد اختفت جاريتها وسبقتها لبلاد الملك سعيد مدينة الرحمة ، وأثناء رحلة الصيد انتقلت خلود إلى حيث تواعدت مع الشاب ، وكان في انتظارها على جوادين أسرع من الريح ، وتخلت عن جواد بلادها ؛ ليظن من ظن أنها خطفت عندما يجدوه وحيدا ، وأنه هرب من خاطفيه .. وظلا يركضان حتى وصلا مدينة الشاب ، وكانت خلال الطريق قد تخلت عن ملابسها الملكية ؛ لتبدو أمام من يراها ؛ كأنها من عامة الناس .

ورتب الشاب أمر الزواج من الأميرة على أنها فتاة من بلاد الملك زرارة ؛ وأنها عن طريق التاجر عمرو بن سنان المعروف للكثير من تجار البلدة ومن أقاربه .. جرى احتفال بسيط للزوجين ..وأصبحت الأميرة زوجة للشاب محمد بن نجوان ، وتسمت بسلمى ، وتحقق لها ما تحقق لأخواتها ، وأرسل الشاب رسالة للتاجر طمأنه على زواجه ، ونجاح الخطة .

وفقد الملك بناته بسبب تشبثه بمنام ، فسره له غياث تفسيرا ماكرا ؛ ليصبح الملك ألعوبة بين يديه .

وكان والد الشاب المعلم نجوان أحد كبار تجار مدينة الرحمة يعلم حقيقة من هي زوجة ابنه ؟ وكان يدعي أمام المعارف بأنها قريبة للتاجر عمرو المعروف لتجار مدينتهم ، وكان يكرمها غاية الإكرام رغم الخطر المحدق بهم ؛ ولكنه يأمل أن تتحسن العلاقة مع الملك ، ويصبح زواج ابنه مفخرة لأهل المدينة وسادتها في مستقبل الأيام ، فهم أصهار أحد الملوك العظام في ذلك الحين والتاريخ .

لذلك تعجب أبناؤه وأقرباؤه من بنائه بيتا كبيرا وجميلا لابنه محمد ، وخصه به دون الآخرين ، خصه دون سائر إخوته الأكبر منه الذين هم بنوا بيوتهن بأنفسهم .. وكان يزعم لهم أنه تعهد للتاجر عمرو وأهل البنت بفعل ذلك .

وكانت الأميرة مسرورة بزوجها ، وتراه ملك الدنيا ، وقد خاطر هذه المخاطرة التي كانت قد تكلفه حياته وما زالت .. الخطر لم يذهب كليا رغم بعد المدينتين عن بعضهما البعض .

وحلت عليها السعادة أكثر عندما ولدا طفلتهما الأولى ، وقام الجد بذبح الذبائح الكثيرة على غير العادة حتى أن بعضهم قال مستغربا : والله لو أنك مزوج ابنك بنت ملك البلاد ما فعلت ذلك . فأجاب أنه وعد عمرو أن تكون قريبته ؛ كأنها ملكة في بلادنا .. وفرح بالمولودة ؛ كأنها أول حفيدة له مع أن هذا الابن من جملة آخر الأبناء .

احتفل الأهل والجيران بحفل كبير على غير العادة بالطفلة أسماء ، سموها على اسم والدته .

وكان الناس في دهشة وعجب من كرم وسخاء التاجر نجوان مع كنته الأخيرة وولده محمد .

أما هو فهو يعرف ابنة من يكرم ، فهو صهر الملك زرارة بن نعيم ، وإن زرارة إلى موت وزوال وسيعرف الناس ابنة من نكح ابنه الصغير .

وكان الزوج يقول لزوجته : بارك الله لك بالمولود يا أميرتي سلمى . سماها سلمى أمام أهل مدينته .

قالت بسعادة غامرة : مبارك لنا جميعنا .. أرأيت ما أجملها ؟!

قال : أنت أجمل منها !

قالت : شكرًا .. لم ولن أنسى شجاعتك ومخاطرتك بحياتك من أجلي .. وأجل سعادتي أن أعيش كأي أنثى خلقها الله ؛ لتكون زوجة وأما .. كان الخطر عليك كبيرا من رجال أبي !

قال : عجبت من منام أبيك ؛ ولكنه هو الذي أسعدني باللقاء بك ؛ لتكوني حبيبتي وحليلتي.

قالت : هو القدر .. كان ساحر أبي شيطانا ، فسر منامه بطريقة خبيثة ، ومنع أبي عنا الزواج خشية الحفيد .. وها هم الأحفاد يهلون ..فأختي الكبرى ولدت طفلا .. وأخفاه الوزير بسرعة الريح .. ولابد أن أختي الأكبر مني سعدت مثلي بذريتها

وعانقها بحب ووله ، وسمعها تقول : ألم تخلق النساء من أجل إسعاد أنفسهن وأزواجهن ، ومن أجل الولادة والأبناء ؟!

قال : نعم ، هذا أحد الثمار العظيمة للنكاح الأبناء والبنات .

كان التاجر نجوان محبا لزوجة ابنه محمد على غير العادة ، ويكثر من التردد عليهما متفقدا لأحوالهم ، معانقا لحفيدته أسماء حفيدة الملك زرارة ، مطمئنا على راحة وسعادة الأميرة .

وكانت الفتاة تكن له الاحترام والشكر ، ولا تظهر له أنها أعلى مقاما منه ، وأنها ابنة ملك ، وكان معجبا بتواضعها ، وحسن أخلاقها ، ومقدرا شجاعتها على هذه المخاطرة الكبيرة .



سفانة في بلاد الملك حميد

استقر الملك زرارة في مدينة الملك حميد ، واستقر في قصر من قصور الضيافة اسمه الغمام ، ووجد الاهتمام والراحة والحريّة في الخروج للغابات والمراعي بصحبة ابنته التي أوقفت حياتها على راحة أبيها .

وكانوا يستقبلون الزوار من بلادهم وأصدقائهم دون معاناة ورفض ، وكذلك رجال البلاط في هذه المدينة من الرجال والنساء .. فعلاقات المدينتين كانت علاقة قوية ومميزة ، حتى أن الملك زرارة كان يرسل الجنود للدفاع عن المدينة عندما تتعرض لغزو واعتداء ملوك وأمراء المدن الأخرى نتيجة أحداث وصراعات تنشب بينهم .. وجيش بلاد زرارة من الجيوش المعروفة بالقوة والبسالة بالدفاع عن بلادهم ومن يتدخلون لحمايته .. فلهم هيبة معروفة وشائعة بين المدن والملوك حتى أن بلادهم لم تعد تتعرض لأطماع أحد منذ أكثر من خمسين سنة .

لذلك كان الملك حميد مسرورا بوجود الملك زرارة في بلاده ، فهو مقابل قبوله هذا النفي الاختياري للملك اعتقد أنه قوّى علاقته بالملك مرارة شقيق الملك ؛ ولكن الأمور لا تسير حسب شهوات الناس وهواهم .



كان يتردد على قصر الضيافة الغمام الأمير شداد بن عُمير بن حميد أي حفيد حميد ؛ لتفقد الملك وابنته ، وتقديم حق الضيف لهم ، والجوار ، وكانت قد مضت سنة على هذه الخدمات والزيارات ، ونتج عن هذا التردد المتكرر إعجاب الأمير شداد بابنة الملك ، وطمع بها زوجة .. فأعرب لها عن إعجابه بها ، وهواه لها ، وبجمالها وخلقها ، وأنه مستعد للزواج منها ،والتقدم لوالدها طالبا يدها إذا قبلت به فأخبرته أنها لا مانع لديها من الزواج ؛ إنما المشكلة مع أبيها الملك الذي خسر عرشه من أجل ألا تتزوج بناته .

فقال متحمسا : دعي هذا الأمر لي ولجدي الملك .. وستكونين الزوجة الأولى والمقدمة على

زوجتيّ .

فهو متزوج من أميرتين ، وهي ستقبل به قرينا إذا قبل والدها .

تحدث الأمير شداد مع والده الأمير عُمير بما اتفق عليه مع الأميرة سفانة ، ورأى أنها فرصة لزيادة وتقوية العلاقة بين البلدين ، وقبل الأب ذلك ، وقال الكلام الفصل لجده والملك زرارة فلما سمع الملك حميد رغبتهم ورغبة الأميرة . قال لهم : إن شقاء الملك وبؤسه رفضه زواج بناته لمنام رَآه وهو شاب صغير .

وترجى الرجلان الملك أن يتحسس ذلك ، وأن الأيام كفيلة بتغيير الناس والأفكار ، والأميرة لم تصرح بالقبول الصريح ؛ إنما تركت الأمر لوالدها ؛ ليقينها أن أباها سيرفض بقوة وشدة .

والشاب رأى لينها وسهولة الحوار معها قبولا وموافقة ؛ ولأنها أنثى فتحتاج للنكاح كسائر بنات حواء .

ذكره الملك زرارة بمنامه بعدما سمع رغبة حفيده شداد بالاقتران بابنته سفانة كزوجة وحليلة واعتذر له عن تدخله في هذا الطلب ، وهو ضيف كريم عنده ، وأن هوى حفيده وقع دون علمه ورغبته .

وقضى الملك بضعة أسابيع يفكر في أمر زواجها ؛ ولكنه في النهاية استسلم وقبل بزواجها ، واحتفلت المدينة بهذا الزواج احتفالا كبيرا حتى شاع خبره في المدن والبلدان الأخرى .

ورفض كل سادة وأمراء وأقارب زرارة مشاهدة هذا العرس ؛ ورفضوا الدعوات من الملك حتى الطفل الصغير ، واعتبروه شاذا ومؤلما وإهانة لهم ؛ لأنه لم يقبل بزواج أي ابنة له كل سنوات عمره الماضية ، ودفع سفانة لترفض الزواج من أبناء الأمراء من مدينتها .. وقد أثر هذا الرفض الشديد على نفسية وحياة زرارة .. وحتى أن الملك حميدا أحس بأنه أخطأ بمسايرة حفيده شداد في أمر هذا الزواج ، وضغطه على الملك اللاجئ إليه ؛ ولكن الملك رغم الألم لم يهتم لرفضهم والكلام الذي أرسل إليه ؛ لذلك قال والد الأمير شداد لأبيه : لم تكن مسرورا لهذا الزواج يا مولاي الملك !

قال : تسرعنا يا عُمير .. نسينا أن الملك لا حيلة له ولا قوة في بلاده .. وخسرنا الوزير غالب ومدينته ..كان علينا بعث رسول يشاورهم قبل الزواج .. لقد طلبها أمراء منهم .. ورفض والدها ؛ لكنه خجل منا لما قبلنا حياته عندنا ..وإن يتظاهر أنه غير مهتم بقومه ..إنه منهم .. وملك كبير كان عندهم .

قال : هل من إصلاح ذات البين بيننا وبينهم ؟

قال : ماذا ترى لإصلاح ذات البين ؟ وتحدث الوزير وقال : الأيام دواء للجراح والأخطاء .. نحن لم نحسن تقدير الموقف أيها الأمير !

ـ نعم يبدو ذلك.. أنا رأيت أن ذلك يقربنا إليهم .

وقال حميد : وهذا ما جال في فكري أيضا .. فإذا تعرضنا لغزو من اليوم فصاعدا فعلينا ألا نطمع بمساعدة منهم لقد تسرعنا فعلا .

ـ هل تريد أن يطلقها ابني ؟

ضحك الملك : لا ، الطلاق سيزيد الأمر تعقيدا .. ولا يحل الجرح ..كانت علاقتنا أفضل قبل استقرار زرارة بيننا .. نعم، قبلوا مجيئه على مضض وكره .

قال : أنرسل سفارة للملك مرارة والوزير غالب ؟

فكر الملك قليلا ثم همس : فكرة طيبة ! نعم ، جهز نفسك ؛لتكون على رأس هذه السفارة ، ودون علم زرارة الملك وابنته وحتى زوجها.

قام الأمير عُمير بالتشاور مع الوزير بأمر السفارة والاعتذار للملك مرارة ووزيره غالب .

رحب الوزير بهلول بن فراس بالفكرة ، وتحولت إلى واقع ، وجهزت الهدايا والقافلة ، وتحرك الأمير عُمير إلى بلاد الملك مرارة ، واستقبلت السفارة كما تستقبل الوفود والضيوف ، وتحدث القاضي المرافق للسفارة مع المضيفين ، واعتذر عن تعجلهم بالزواج دون مخاطبتهم ، وسماع رأيهم ، وتأسف لهم بأشد عبارات الاعتذار والأسف .

فقال الوزير غالب :الأسف اليوم لا ينفع ، ولا فائدة منه .. نحن خلعنا البنت عن العرش

لرفضها الزواج بدون موافقة أبيها .. وكنا قادرين على إجبارها على الزواج .. لقد عرضنا عليها ثلاثة أمراء شبان .. أحدهم ابن الملك وابن عمها وابن ابن أختي .. ولماذا وافق على زواجها بعد كل هذا الرفض ؟! فأنتم قبلتم مقامه في بلادكم ؛ وقبلنا بذلك لقوة الصداقة بين بلدينا .. وشرطنا عليه إن مات في المنفى ألا يدفن في ديارنا ؛ ليتراجع ويبقي في قصره .. واعلموا نتيجة لهذا التراجع في موقفه من زواج سفانة ستضعف العلاقة بيننا للأبد .. وسنوقف التجارات بين بلدينا ؛ ولعلها توقفت من طرفنا .. وسنمنع بلادكم من ذلك ؛ حتى لو طلقتم الأميرة فهذا العمل إهانة لنا ولكرامتنا .. ولو شاورتمونا سلفا ما قبلنا زواج الملكة .. إنها ملكة وابنة ملك .. ما كان لها أن تتزوج خارج بلادنا ـ كما هي تقاليدنا ـ بنات الملوك عندنا يتزوجن هنا إلا القليل لظروف معينة .

تكلم القاضي ، وذكر بحسن العلاقة بين المدينتين والتعاون بينهم، فقال الملك مرارة : كلام الوزير هو الحكم .. وانتهى ما بيننا من حسن العلاقات والجوار وحتى التجارة ستضعف بيننا وبين بلادكم ؛لأن الأذى لحق الجميع .. واعتقد أن الزيارة قد انتهت .

وترجى القاضي والأمير ؛ ولكن الملك أمر بأنهاء الصداقة الحسنة بين البلدين ، وغادر الوفد خائبا وفاشلا من تضميد الجراح ، وترميم العلاقات .

ولما علم الملك حميد بفشل السفارة عض على أصابعه من الندم ، لقد خسر حليفا قويا أمام الغزاة والطامعين في خيرات بلده ، واستوعب شدة غضب القوم .

وتحدث الحفيد عن الطلاق أمام جده ، فقال الملك: يا بني لا فائدة من الانفصال ؛ ربما يزيد الهوة اتساعا .. أخطأنا في حق القوم وعدم اطلاعهم على الأمر ، ولو خفية .. فافرح بزوجتك وأسعدها ، فهي صارت منا ؛ ولعل الأيام تحدث أمرا بيننا وبينهم .. فكثير من بناتنا أمهات عندهم .. وهي ستعيش كل حياتها هنا بهذا الزواج .. ولن يسمح لها بالعودة إذا طلقت .. لقد أخطأنا وعلينا أن نتحمل خطأنا وتعجلنا بمثل الزواج

قال : أنا أعتذر عما جرى .

بينما الملك زرارة يعيش وحيدا بعد رحيل ابنته ، وقد استسلم لزواجها من حفيد الملك حميد ، وقد رفض قومه حضور الزواج ورغم الألم الذي اعتصره لم يبال برفضهم ومقاطعتهم لزواج ابنته التي كانت حزينة لعدم وجود أمها وأهلها معها .. وقد رفضوا زواجها لما علموا بالأمر الواقع .. وقد علم بالسفارة التي ذهبت بلاده للإصلاح .. وخابت في مسعاها كما أخبرته ابنته التي علمت بالأمر من زوجها الأمير شداد .. وبينما هو في وحدته عنده خدمه دخل عليه الكاهن السابق غياث متنكرا بصورة حطاب ، ولكن خدمه يعرفونه حق المعرفة لما عرف بنفسه ومن صوته .. لما عرفه الملك أمر بإخلاء الحجرة من الخدم ، وعانقه ورحب به وقال جذلا : أين ذهبت ؟ وأين هربت ؟! لقد فرحت لهربك .

قال : خشيت الموت أثناء الحبس ، فرشوت الحرس ، وهربت .. لم تعد لك قوة لحمايتي يا مولاي!

قال بحسرة : لم تكن لي أيام عز ملكي .. الملك كان الوزير .. ما أخبارك ؟

قال : أعيش متخفيا .. أعمل منجما في الأسواق .. وأضرب الرمل والخط .. وأعمل حطابا أثناء الترحال بين المدن .. لم أستقر بأرض بعد يا مولاي الملك ! ولما علمت بوجودك عند الملك حميد رحلت إليك كما ترى .. فجئت مسلما ومباركا خروجك ؛ ولكني حزنت لتزويجك ابنتك مكرها بعد أن تركت الحكم والملك حتى لا تنكح .

قال مبينا ضعفه : ماذا أفعل يا غياث؟ طمعت بمجاورة صديقي حميد الملك ؛ ولكن حفيده رأى البنية وهويها .. فخجلت من كسف الملك وشفاعته بعد أن قبل عيشي في بلده على غير رغبة قومنا .. وقد كبرت سني ورق عظمي .. ولا أظن أن أعيش حتى يكبر حفيدي .. وبناتي كلهنّ تزوجن رغم عني.. ورأيت أن للبنت هوى بالزواج من الأمير شداد .. فكان عليّ أن أقبل تظاهر غياث بتفهم ضعف الملك فقال : لا بأس .. نسأل الله لك العافية أيها الملك .. الأيام تقسو علينا بعض الأحيان .. دمرنا الوزير أوس ، ولم نستطع النيل منه رغم قوتنا وبأسنا ؛ ولكن هل تعلم أيها الملك السعيد أن زواج ابنتكم من حفيد الملك خرب العلاقات بين الملك هذا وشقيقك

مرارة ؟

قال : لم أفهم !

أدرك غياث أن الملك لم يعرف نتائج زواج ابنته من أمير غريب ، من غير وطنها الأول ، فوضح للملك الأمر .

فقال : تحدثت بشيء من ذلك سفانة .. إذن إذن قومي غضبى منا .. ولهذا ذهبت سفارة بقيادة كبير القضاة لمقابلة الملك .. أنا زياراتي لديوان الملك متباعدة ولم أعر رفض قومي أي اهتمام .. نحن خرجنا .. ولن نعود إليهم حتى شرطوا عدم دفننا في بلادنا إذا متنا هنا .

قال : حياة النفي صعبة .

قال : سنعيش في بلادنا كسجناء يا غياث .. ففضلت الخروج على البقاء حبيس القصر .. هنا نخرج للبساتين والرياض والولائم والأفراح .

قال غياث : كان عليها أن تبقى ملكة ، وتتزوج هناك يا مولاي ! ما دمت أنك قد تخليت عن المنام بعد زواج بناتك دون إرادتك .

قال مبررا أمره : لم أتخل عنه ،هو تخلى عني .. الكبر يا غياث والسن .. إني حزين بما حل بي من زوجتي وبناتي .. هل أخطأت في حقهم .. فكلهن تزوجن رغما عني .

قال بخبثه المعهود : أتمنى أن لا تقتل على يد حفيد فابن أمامة ما زال مختفيا أهو حي أم ميت ؟ لا أعرف .. وعلمت بعودة أبيه من منفاه الاختياري ؛ ليعش تحت رعاية عمه الوزير غالب .

قال : سيكون الملك إذا ظهر .

قال غياث : نعم ، سيكون الملك عندما يظهر .. وهم كما علمت من بعض أعواني ينتظرون ويرقبون عودته ؛ ليعود الملك إلى سلالتكم حسب القانون المتبع .

قال : أنت تعرف هذه الأخبار من أعوانك رغم هربك .

قال غياث متعجرفا ومتبجحا : نعم ، أنا لي أصدقاء وأتباع في عدد كثير من المدن .. ونتعاون ونخدم بَعضُنَا بعضا واعلم أني قد تزوجت جاريتي سمات التي كما تذكر وعدتها بالزواج عندما

أرسلتها عينا على عزوف لحقت بي بعد هربي من المدينة ونكحتها وولدت لي طفلا وطفلة ..

ضحك الملك عجبا وقال : أنت أب اليوم يا غياث !

قال : نعم يا مولاي ! ولكني ذليل حقير ، ومطلوب دمي في بلدنا العزيز .. بعد أن كنّا سادة البلدة أصبحنا هاربين خائفين .. ذهب العز بذهاب ملكك يا سيدي الملك! لو ظلت سفانة ملكة كنت آمل بعد زمن أن تدبر أمر العفو عني .

قال : وهل يسمحون لنا بالعودة بعد زواج سفانة ؟ ذهب الأمل .

قال : الأيام تتغير .. والأفكار تتغير .. ما رأيك أن ندبر أمرا ؟ .. وتعود ملكا على البلاد بالقوة

قال مندهشا : كيف ؟!

قال : أبحث لك عن حليف كما أردنا أن نفعل ذلك ذات زمن مع الملك نواس .. أبحث لك عن ملك طامح بتكبير ملكه .. ويقاسمك البلاد ومالها .. وتنتقم من كل الخصوم .. ويخضعوا لك بكل قوة .

قال مسايرا حقد غياث : ومن الملك الذي يقبل بذلك ؟!

قال بمكر : المهم إذا وجدت لك مثل هذا الطامع تتعاون معه وتطالب بتاجك المغصوب .. وتنال نصف الحكم .

قال : بعد كل هذه السنين من العزل والصمت . قال : المهم الإرادة وليس العمر .

قال الملك : أفكارك عميقة وعقيمة يا غياث !

قال مشجعا : المهم من حيث المبدأ أن توافق لأسعى بين الملوك .

قال : وأعود ملكا على المدينة . قال غياث الخبيث : ومعك جيش قوي، وشريك قوي .

قال : إنها مغامرة كبيرة وخطيرة !

قال : سأتركك تفكر في هذا العرض ؛ فإذا وافقت .. سأخبرك بتدبيري وتفكيري المهم أن تتشجع وتقبل الانتقام .

تحذير

رحل غياث بعد لقائه بالملك ، وبعد أيام من رحيل الكاهن تفاجأ زرارة بزيارة الملك حميد ، وبعد أن اطمأن على حاله وعافيته ، قال : علمت من زوج ابنتك شداد ، وهو علم من زوجته أن الكاهن غياثا كان في قصرك زائرا .

وكان الملك حميد يعرف غياثا من خلال زياراته لصديقه زرارة في بلده . وقال : أليس هو الذي كان يمنعك من تزويج بناتك حتى فعلن ما فعلن أيها الصديق وهو الذي تسبب في خلعك عن الحكم في تفسيره لمنامك المشهور .

قال زرارة بحيرة من زيارة حميد : نعم ، وأذكر أنني عرفته لك في أكثر من لقاء .. وهو كان محبا لك ومعجبا بحكمك .. وهو كما تعلم ورثته عن أبي شابا فطنا ومنجما ذكيا حتى صار رئيس الكهنة في القصور الملكية والمدينة .. وهو صديقي ورفيق عمري .

قال : لكنه يا ملك الزمان هارب من السجن ـ كما تقول سفانة ـ وإنه شيطان كما يصفه العوام

قال : الحسد أيها الصديق الحسد ! كان له حظوة في البلاط وعندي .. وهو صديقي المخلص الوحيد للعرش ، لم يكن عدوا لي ، ولا لأبي من قبلي .. فحسده الناس والسادة على هذه الحظوة وأخذ يسرد على مسامع الملك قصصا من صداقته الطويلة للكاهن ، ولما سأله عن سبب مجيئه إليه بعد مرور أكثر من سنة على وجوده بينهم .

فقال : إنه مجرد زائر .. لما سمع عن رحيلي إلى هنا ومغادرتي بلادي جاء ليطمئن عليّ وعلى سعادتي .

قال حميد : ولكنه ـ كما علمت ـ يا صديقي الملك أنه رجل شرير ، ويحب الفساد .. وأخاف أن يؤذيك ، وأنت في مثل هذه السن .. فعليك أن تنسى بلادك والطمع بالعودة للملك .

صرخ الملك زرارة بغيظ وقال : أنت تضع عليّ الجواسيس .. هذا لا يجوز أيها الملك حميد .

نفى التهمة وقال : أبدا أيها الصديق .. أنت صديقي قبل أن تكون صهري ؛ ولكني علمت أن الرجل شرير وحقود .. وتحدث إليك عن تقسيم الملك والانتقام .. نحن لا نتجسس عليك ..

هؤلاء الحرس ليسوا جواسيس ـ كما تعلم ـ لأنهم لا يدخلون القصر .. فمهتهم حماية حياتك فحياتك مهمة لنا ؛ لأنه إذا أصابك مكروه وأذى سيغضب قومك ويتهموننا بالتقصير في حمايتك .. فأنت ملك ولو كنت بدون رعية .

قال بحدة : أنا لا أفكر بالعودة للملك .. إنما هو كلام يخرج للمواساة ورفع الهمة والإحباط ؛ إنما هو من باب الشفقة يخرج أيها الصديق .. ومن باب الحزن والتعاطف .. ولم يكن كلامنا سريا وخفيا .

قال : هذا رجل هارب من سجن بلادكم لجرم ارتكبه .. وأنت رغبت بالعيش بيننا لكرهك لقومك .. كما كتبت لي .. وأنك ضقت من مدينتك التي عزلتك عن الحكم ، وقبلنا حياتك هنا لكن لا يجوز لك التآمر على بلدك من بلدنا يا صديقي العزيز .. ولا أحب أن تزيد الهوة بيننا .

قال : لقد علمت بغضبهم من زواج ابنتي من حفيدك .. وفشل سفارتكم في الإصلاح بين المدينتين .

قال : هذا أمر لم نفكر فيه .. وقدره الله .. كنّا نحب أن تبقى العلاقات طيبة بيننا .. ولكنهم اتخذوا موقفا حادا منا .. والأيام ستزيل الأسقام والأوجاع .. فصدورنا واسعة .. المهم أيها الصديق العزيز نحن لا نتجسس عليك .. ولكن هذا الرجل علمنا أنه ماكر خبيث .. وهذا قالته ابنتك لنا بكل صراحة وشجاعة .. فهي خائفة عليك من مكره وحقده .. وكان يسبب لك الكثير من المشاكل مع الوزير أوس ـ رحمه الله ـ وتسبب في عدم زواج أخواتها ، وطلاق أمها بأفكاره الشيطانية .

قال بضيق : كانت تسمع كلام أمها وأعدائي .. هم يكرهونه ؛ لأنه كان يحبني .. وصديقي الوحيد في البلاد والمخلص لي .

قال :عليك أن تعلم وتذكر يا صديقي الملك أن قومك يرفضون عودتك لبلادك ولو جثة وزواج ابنتك من حفيدي زاد الأمور تعقيدا مع أننا كنا نراه لمصلحة البلدين ، ولتقوية الأواصر بيننا بعد زواجها .

قال : حفيدك شجاع ! وبارك الله له في زوجه .. والمحيا محياكُم والمات مماتهم.. أنا لا أحب أن ينقل هؤلاء الحرس والخدم الذي يحدث عندي.. وإلا استغنيت عنهم .. أنا لا أعمل ضد بلدي ولا بلدكم .. وليس كل ما يقال ينفذ .. فأنا لم أعد استقبل تجار بلدنا.

قال الملك حميد : للأسف قومك حرموا التجارة معنا أيضا .. ومنعوا تجارنا من المرور على بلادهم .. والأرزاق كثيرة والمدن كثيرة .. ولا يؤثر ذلك على تجارتنا ؛ لذلك قل أو اختفى زوارك .

قال : لقد تسبب هذا الزواج في عقد كثيرة!

قال : لا تهتم أيها الصديق ! الشاب تعلقت روحه بالفتاة .. وهي قبلت به .. فكان الزواج خير.. والأيام ستصلح بيننا .. هل تريد شيئا أيها الملك ؟

قال : المهم هؤلاء المحيطون بي لا تجعلهم جواسيس عليّ .

قال حميد : ليس هناك شيء نخشاه منك أيها الصديق .. لنضع عليك الجواسيس والعيون ؛ إنما هؤلاء الخدم سمعوا كلاما خافوا عليك منه .

قال : هناك الله يا ملك الزمان!

قال : بارك الله فيك .. وعش معززا مكرما بيننا .. ونحن لا نقبل قول الوشاة.

قال : أعلم ، وأعتب على ابنتي .

قال : هي تحبك ، وتخشى عليك من الكاهن وألاعيبه .

بانة وسفانة

وضعت سفانة مولودها الأول ، وكان ذكرا رائعا ، وفرحت به فرحا لا يوصف ، واحتفل والده به احتفالا بهيجا ، فهو حفيد ملكين ؛ ولكن الملك زرارة لم يحفل به .. فهذا أول حفيد يراه عندما قدمت به لوالدها؛ ليباركه وينظر إليه .

فقال لها ولزوجها بدون مبالاة لفرحهما وعواطفهما : أخشى أن يكون هلاكي على يده يا سفانة كطفل فرعون !

فتألمت من كلام والدها ومن سوء التشبيه ، وكذلك استأ زوجها ، ولزم الصمت ، وتجرع الألم لأن فرعون كان ملكا ظالما قاتلا للأطفال والذكور ، فسلط عليه موسى النبي ، ولم يقدم له الملك أي هدية ، أو تهنئة ، ولم يفرح به ، ولم يحاول حمله ومعانقته مع أنه مجرد وليد ضعيف ، لا يعرف خيره من شره .

فلما رجعا لبيتهما قالت معتذرة عن تصرف أبيها : ما زال أبي يعاني من ذلك الحلم مع أننا كل بناته تزوجنا حتى أمامة هلكت بسبب الزواج ، وبعد ولادتها طفلا ذكرا .. لابد أنه اليوم شاب صغير.

فقال شداد مواسيا : لا تحزني يا أميرتي من كلام أبيك .. فهو ما زال مرعوبا من ذلك المنام الذي رآه قبل عشرين أو ثلاثين سنة حتى أنه كان خائفا من حمله وتقبيله

قالت : أنت لا تزعل وتغضب من تصرف أبي بحفيده .. هو أول حفيد يعرض عليه يا شداد إنها عقدة المنام السيء .. أنا اعتذر عنه ، وعن هديته .

قال : حتى زوجته لم ترحب به .

قالت معتذرة : هي جارية تزوجها بعد عزله عن الحكم .

قال : أعتقها !

قالت : أعتقد .. وهي مخلصة له أقبل أن يتخذها زوجة .

قال : أصلح الله مولانا الملك .. المهم عندي أن تكوني أنت سعيدة بالمولود ، كما أنا سعيد .

قالت مبررة : أنا لم أرفض الزواج في بلدي أنا طاوعت أبي في رفض الزواج ؛ لأنني كنت مشفقة عليه يا شداد .. أختي الكبرى أمامة تزوجت دون علمه .. وبانة هربت مع أمير من بلادنا للتزوج .. وخلود فعلت مثلها .. ولا نعلم من تزوجت ؛ ولكن يبدو أنه غريب عن بلادنا .. ولما عزل أبي تألم قلبي عليه جدا .. فأحببت مطاوعته والتخفيف من الألم والحزن اللذين حلا به طرق الباب ، ودخلت خادمتها تخبر عن امرأة غريبة ترغب بمقابلة الأميرة .

فقال : امرأة غريبة يعني ليست من بلادنا .

فقالت الجارية : غريبة ؛ لأني أول مرة أراها تأتي إلينا .. تريد الحديث مع مولاتي الأميرة .

فالتفت لزوجته وقال : امرأة غريبة يا سفانة !

فقالت : دعيها تدخل ؛ لعلها تحتاج لمساعدة بمناسبة الولادة كما فعلنا مع بعض الفقيرات .

خرج الأميران من الحجرة إلى صالة البيت ، وكان الأمير قد أشار للجارية بإدخال الزائرة الغريبة وشاهدا امرأة تدخل ـ وهي تلبس ملابس ثمينة ، ولا يبدو عليها الجوع والفقر والضعف ـ ولما دخلت باب الصالة التي يُستقبل فيها الزوار

صرخت سفانة استغرابا وفرحا : إنها أختي بانة ! إنها أختي بانة ! وركضت إليها تحتضنها وتقبلها .

ـ سفانة حبيبتي .

وعرف الأمير من هي بانة ، فهم قبل وقت قليل ذكرا اسمها ، ولما تركت الأختان العناق والتقبيل وقلت الدموع والشهقات قال سفانة مشيرة للأمير : زوجي الأمير شداد.

أحنت رأسها له وقالت : حيَّاك الله وبياك أيها الأمير إني بانة بنت الملك زرارة النزيل في دياركم

ابتسم لها وقال : أعرف .. مرحبا بك في بيتنا .

وغادر الأمير البيت ، وانصرفت الخادمات يعددن طعام الغداء ، وتشاكت الأميرتان همومهما لبعض ، وتذكرن أيام الصبا وحالهن .

وقالت : لما علمت بوالدتك أحببت المجيء إليك ورؤيتك والسعادة برؤيتك ومعانقتك .

قالت : شكرًا .. آه ! أنا كنت بشوق لك ولخلود .. أنا سعيدة بمشاهدتك .. ألك ذرية ؟

قالت : ثلاثة أطفال .

قالت : أكيد سعيدة بهم .. وكساب!

ـ نعم الرجل .. وأنت كيف حالك ؟

ـ بخير .. أبي يعيش هنا .

قالت : أعلم ؛ ولكن لن أذهب إليه .. سأعود لمدينتي .

قالت : أين تعشين ؟

قالت بحرج : اعذريني يا سفانة ! نحن غيرنا بلادنا وأسماءنا .. وتركنا الإمارة ؛ لكننا نعيش بمدينة قريبة من مدينتكم .. فلما علمت بحياتك هنا سعيت لرؤيتك .. وسعدت بولادتك .. فأنا أحبك .. هل من أخبار عن أمنا ؟

قالت بضيق : تركتها بخير.. وقد ولدت لنا أخا من لص .

اعترضت بانة على وصف زوج أمها بلص وقالت : لكنه ترك اللصوصية كما أخبرت من أخوة كساب الذين يزوروننا خفية أثناء مرافقتهم للقوافل ..فهو رجل شريف عندما تزوجها بل ترك اللصوصية منذ طرد من البلد .. لقد كان أبي قاسيا علينا .. ويحرمنا من أهم هدف لنا في الدنيا النكاح والذرية.

قالت : أبي مسكين ضعيف ! ليتك أحضرت أطفالك معك لأراهم وأقبلهم .

ـ سأفعل في مرة قادمة ؛ لعلي أحضر أحدهم ؛ ليتعرف على خالته إن قدر ذلك .. نحن ما زلنا نعيش في خوف وقلق من أعوان أبيك .

قالت : أتحبين أن تقابليه وأتشفع لك عنده ؟

ـ لست بحاجة لذلك ونكح جروح اندملت إذا اندملت في قلبه .. أنا منذ رحلت اعتبرت أن لا أب ولا أم لي .. وكذلك كساب .. لقد ظلمنا قومنا خاصة أبي .. رحم الله أمامة التي ماتت حزينة مريضة محرومة من معانقة وليدها .وبكت .

قالت : رحمها الله بكيت من أجلها كثيرا .. ستباتين الليلة هنا .

قالت : إذا أحببت ذلك .

قالت : أنا سعيدة حقا برؤيتك .. ومشتاقة للخلود أيضا .. لقد اختفت بعدك مع زوج يبدو أنه من غير بلادنا .

قالت بغصة : نعم ، وصلت إلينا قصتها .. كله ممن يقول إنه أبونا ؛ ربما أنت الوحيدة التي تزوجت برضا الوالد وتزوجت كأميرة .



حبس غياث

لم تخبر بانة شقيقتها أنها تعيش منذ هربت في هذه المدينة ، ترى أن الوقت غير مناسب لكشف هذه الحقيقة ، وقضت ليلتها في ضيافة سفانة ، ثم فارقتها على أمل اللقاء بها كلما تزور هذه المدينة الجميلة الوادعة .

وسفانة كانت في حيرة وارتباك هل تخبر والدها بلقائها ببانة ؟ وأنها سعيدة في منفاها الاختياري ونصحها زوجها شداد بكتمان الأمر عن الوالد حتى يأتي الظرف الملائم لكشف اللقاء .. فلن يفرح ويسعد بهذا الخبر .. وسيهمس بذكر الأحفاد والموت والفتك به ..فلزمت الصمت .

علم الملك حميد بعودة الكاهن غياث لزيارة الملك فأرسل حفيده شداد ليتأكد من ذلك الخبر ، ولما رجع من زيارته ، أكد لجده صدق الخبر ، وإنه جلس معه ، وإنه سيعيش مع الملك في القصر دون إذن منا .

فأرسل الملك رسالة شفوية لزرارة مع غلام خاص به يطلب منه طرد غياث ؛ لأنه هارب من سجن الملك مرارة .

لم يهتم زرارة للرسالة ، وقال للرسول : أخي وصديقي المخلص في هذه الدنيا .

فلما رأى حميد عناد صديقه زرارة أرسل شرذمة من الفرسان لاعتقال غياث ، وأخرجوه من البيت عنوة ، وألقي في السجن ، وأخذ الملك يفكر بإرساله لمدينة اللؤلؤ ؛ لتحسين العلاقات بينه وبينهم على حساب غياث الهارب من تلك المدينة

وحان الوقت لنوضح سبب حسن العلاقة بين مدينة جلال الدين ومدينة اللؤلؤ ، وإنها علاقة فوق العادة ، وكانت لحدث قديم .. وهو أن والد زرارة الملك نعيم أرسل جندا بموافقة الوزير أوس لوالد الملك حميد الملك أحمدان ؛ لإخماد فتنة جرت في البلاد قادها بعض الفرسان من داخل المدينة وخارجها ؛ نتيجة حادثة حدثت .. وهي أن أحد فرسان المدينة تعرض لفتاة كانت عائدة لبيتها من سهرة أو زيارة لأمها أو قريبة لها .. فصدفت أحد الجنود السكارى ، وحاول الاعتداء عليها في ذلك الليل البهيم ، وسمع صراخها أحد الشرطة ودافع عنها وأنقذها من

براثن الجندي السكران وحبسه ، فقام بعض أهله وأصدقائه بقتل ذلك الشرطي غدرا وغيلة ، وألقي القبض على القاتل ، ومن عاونه .. وكاد أن ينفذ حكم الموت فيه وبمن ساعده ؛ ولكن عصابة من المدينة قامت بتهريبهم من السجن ، ومعهم الجندي إلى مدينة أخرى .. فاستعان والد حميد بالملك والد زرارة .. فجاءت كتيبة من الجيش وساعدت الملك ، وأخمدت الفتنة ، وطاردت العصابة حتى قبض عليها ، وعلى الهاربين والجندي ، ونفذ فيهم حكم الموت ، وتوقف قطع السبيل .. فعاد الهدوء والأمن بعد ذلك للبلاد .. وظلت العلاقات حسنة بين البلدين .. وهذا يذكره الملك حميد لوالد زرارة .. ولولا هذه الذكريات ما قبل من زرارة بالهجرة لبلده وما عطف عليه وقبله في بلده .. ولما حدثت المصاهرة أمل أن تتحسن العلاقة وتقوى بين البلدين الصديقين ؛ ولكنها ساءت ، وقطعت العلاقات التجارية إلا من النزر القليل ، وغفل حميد عن استشارة شقيق الملك والوزير غالب في مثل هكذا مصاهرة .

والملك يعلم أن غياثا هارب من السجن ، ومطلوب في تلك البلاد ، فأراد أن يسلمه للقضاء على أمل عودة العلاقات الحسنة والسلام والأمان للمدينتين ، فهو يدرك خطر المتربصين بملكه من بعض الملوك المجاورين ، ومن بعض أبناء عمومته ، وطمعهم أن يصيروا ملوكا بدلا من أسرته .. وتاريخهم فيه من هذه الذكريات والمؤامرات ، وبعضهم يطمع بخيرات وأموال البلاد ولكنه يذكر أن القبض عليه كان وهو في ضيافة الملك زرارة ، فسيجد من يلومه على الاعتداء على ضيف وفد عليه .. وسيعتبر ذلك إهانة شخصية للملك ؛ رغم أن الكثير يعلم شيطنة غياث وفساده ومكره وخبثه ؛ لذلك حاول أن يطرده الملك بنفسه .. لو فعل لأراحه ، وأصبح غياث مطرودا من زرارة ، فتسوء العلاقة الشخصية بينهم ؛ ولكنه رفض إخراجه وطرده ، ورغم محاصرة القصر أصر على الرفض ، فاضطر لأخذه عنوة إما لسجنه أو طرده ، فاختار السجن .. وكلا الخيارين أغضب زرارة فتباطأ في نقله للملك مرارة .. وتشاور مع أركان الحكم الوزير بهلول والقاضي عزام ، وقائد الجيش وقائد الشرطة في مصير غياث .

فقال الوزير : أرى أن يبقى في السجن إلى حين .. فنفيه وطرده فسيعود .. فليبق في السجن لحين

ثم نرسل رسالة للوزير غالب إن لهم رغبه في سجينهم الهارب .. فهو عندنا في السجن فليأتوا ويستلمونه .

ونطق القائد مؤيدا لخيارات الوزير .. ورأى زعيم الشرطة بقاءه في السجن ؛ لأن الملك زرارة في حالة غضب وسخط .. وهو صهرنا .. وقبل زواج ابنته من ابننا على غير المتوقع منه .. وهو الذي رفض زواج بناته حتى اضطررن للهرب .. وقبل البقاء عندنا حتى الموت .. وتخلت ابنته عن الملك ؛ لأنه رفض زواجها من أهله وقومه .

قال الملك : هذا لا ينسى .. والبنت ضحت .. ورفضت الزواج من ابن أخيه الملك الحالي لبلادهم .. هذا موقف لا ينسى ؛ ولكن هذا الشيطان من أهل الفساد والشرور .. فنحن عاجزون أمام قبولها بحفيدي .. وهذا الرجل ما جاء للعيش بهدوء ؛ إنما جاء لتحريض الملك ليعود للبلاد .. ويتفق مع بعض الصعاليك والمغامرين للعودة للملك .. فهو يمكر بالملك زرارة ويمنيه بالعودة للحكم والتاج .. هذا نقل لنا في زيارته الأولى قبل أسابيع مضت .. وتحدثت مع الملك لما وصلني هذا الكلام فحذرته من الإصغاء لغياث والتآمر على بلده من بلدنا .. يريد إقناعه بتقاسم عرش بلاده مع أحد المغامرين .. وسيظهره أمام الملوك أنه يطالب بعرش غصب منه .

قال أحدهم : فليبق في السجن مع تشديد الحراسة عليه .

غضب زرارة

جن زرارة على حبس غياث ، وكان يصيح ويصرخ ، ويطلب لقاء الملك حميد ، ونقل للملك أن الرجل يريد العودة لبلاده ، فقد أخبر طبيب القصر بمرضه وإغمائه ، فاضطر الملك بعد أيام من زيارته محاولا تهدئته خشية موته فجأة من شدة السخط والغضب والحنق ، فهدد زرارة بالهرب سرا من المدينة والعودة لبلده ، فبين له الملك خطر هذا الكاهن عليه وعلى المدينتين ، وأنه لا يرغب بوجوده في بلده ، وخلال الحديث فقد الملك الوعي ثانية ، وحضر الطبيب ، وعلم الملك بأن الملك سيغادر خلال أيام ، فلعن الملك الساعة التي قبل فيها حياته في بلاده ، وعودة الملك لبلاده بهذه الطريقة ستسبب حربا بين البلدين ، فهو الذي رحب بحياة زرارة في بلاده أثر تلقيه رسالة ترجوه قبول حياته بينهم رغم كراهية قومه ذلك ؛ لأنه ملك مخلوع .. وهو فعل ذلك للعلاقة التي كانت بين والده ووالده زرارة .. وستفسر عودته بأنه مطرود بحجة غياث .. ولازم المرض الملك ، وتكرر الإغماء من الغيظ والغضب حتى خافت سفانة على والدها الموت من الغل .. وترجت الملك حميدا أن يفرج عن الكاهن غياث ؛ لأنه هو متعلق به .

فعاد حميد لزيارة زرارة مرة أخرى فقال : أنت سخرت مني للحياة هنا ؛ ليتزوج حفيدك ابنتي بالحياء .. فكان شداد يتردد علينا كل الأيام ؛ لتحقيق هدفك هذا يا حميد .. فجعلتني سخرية للملوك والنَّاس .. الملك يرفض زواج ابنته من أقاربه ، وزوجها لأمير غريب .. وضحت لي خطتك الخبيثة .

وأقسم له حميد بأنه ما كان يعلم أن ابنته ستصحبه إلى منفاه ، وأنها ستغادر بلادها ، وأن حفيده تعرف عليها لما قدمت البلاد ورآها ، فأحبها فجأة دون تواطؤ ، ووجد لديها الرغبة بالزواج إذا وافق أبوها ، ولو كانت غير راغبة بالزواج ما أحد أجبرها ، وأصرت على الرفض كما رفضت أقاربها الثلاثة .. وقال : وأنا مستعد للإفراج عن هذا الرجل الشرير شريطة أن يغادر البلاد .

رفض الملك الخضوع لهذا الشرط ، وقال : هذا صديق وضيف .. جاء يواسيني في أيامي الأخيرة كيف اطرده ؟! هل تقبل أن تفعل ذلك بضيفك أيها الملك!

قال حميد : هذا ليس ضيف ؛ إنما جاء للفساد في الأرض والتآمر على شقيقك الملك .. ألم يحدثك عن العودة وتقسيم الملك بينك وبين المتآمرين ؟!

قال : هذا كلام مواساة ! وإلا كيف يساعد ملكا بعد هذه السنين العجاف ؟ أنا لم أعد أصلح للملك والحكم بعد أن سودن صفحة حياتي ، وتزوجن دون مباركتي .. وسفانة لم يكن أمامي إلا أن أقبل بزواجها من حفيدك ، وأنا في هذا الظرف والحرج والنفي وإلا خلقت سببا لطردي

قال : ما كنت لأفعل .

قال : ظللت تضغط عليّ بأسلوب ناعم والمصاهرة وحفيدك وتقوية أواصر صداقة الآباء .. وأنت تعلم رفضي الشديد منذ عهد بعيد بتزويج البنات؛ لذلك المنام القديم .. صمت لإيام لعلك تكف .. والبنت لا رغبة لها بالزواج بالولادة حتى قالت البنت : وافق يا أبي وافق يا أبي نحن مقامنا هنا وحياتنا ستنتهي هنا .. ليس أمامنا إلا أن نوافق والا أصبحنا أذلاء وشمت بنا قومنا أو نطرد لبلادنا أذلاء مُهانين

صاح حميد : لو سمعت هذا الكلام قبل الزواج ما تزوج حفيدي شداد ابنتك .. أنا ظننتك وافقت عن طيب خاطر وللصداقة التي تربط بيننا أيها الأخ العزيز ..كنت أظنها سعيدة بالزواج

قال : كل أنثى تحب الزواج إذا لم يكن هناك موانع يا حميد .. منامي كان المانع .. وهي كانت ترفض من أجل أبيها المسكين المحبوس في قصر صغير ؛ لأنه رفض زواجهن .. زيارتك لبيتي هذا جعلتنا نقبل .

تنهد حميد وقال : أقدر لك هذا الموقف الكريم يا زرارة ! وأنا ما زلت أكن لك ولوالدك الضرغام الحب والاحترام .. وأنا أحببت هذا الزواج عندما رأيت إعجاب شداد بابنتك.. وهي قبلت إذا قبلت .. ولم أفكر بغضب قومك منا .. حسبت أنهم سيباركون ويفرحون لما بيننا من صداقة ومعروف.. فلا أريد هذا الشيطان أن يزيد الجرح بين بلدينا ، ويتآمر على بلدك من بلدي.. هذا عار وعيب في حقنا يا زرارة الحبيب !

قال الآخر مدافعا عن كاهنه : هذا رجل مسكين ! هل سمعت أنه فعل شيئا لبلادنا وأنا

ملك ؟ هو إنسان ضعيف ، غارق في التنجيم والغيب .. فمنامي كان واضحا موتك حفيدك هو أكد على هذا المعنى .. عرفت أن الخطر على حياتي من جهة ذريتي .. وما زلت خائفا من الأحفاد!

قال : لا يا صديقي الملك! هذا وهم كبّره في دماغك السيد غياث .. هو وسواس شيطان .. لو بنينا حياتنا على منامات ما عمر الكون والحياة .. لو كل منام يتحقق لدمرنا أنفسنا بأيدينا .. الأحلام أكثرها أضغاث أحلام .. كلنا نحلم ونرى في الليل ، وننسى في النهار .

قال : يبدو أنك نسيت حلم الملك في سورة يوسف في كتاب ربنا أيها الملك !

قال : وأنا قلت أكثر الأحلام أضغاث وأوهام .. هل إذا رأيت أني أقتل زوجتي ـ وقد رأيتها تزني في المنام ـ هل أقوم على قتلها أو أمي أو أختي ؟وأقول رأيتكن في المنام أنكن تفعلن كذا وكذا .. هذا الجنون بعينه يا زرارة .. هل إذا رأيت نفسي مسجونا أذهب وأسجن نفسي؛ ليتحقق المنام .. الكثير منها وهم .

قال زرارة مصرا : لا ، حلمي ليس وهما .. تكرر معي عشرات المرات ..كان حقيقيا .. رأيته قبل الزواج من عزوف اللعينة ورأيته بعد الزواج عددا من المرات .. وها أنا أرى الأحفاد يولدون ، ولابد أن بناتي الهاربات ولدن المزيد من الأحفاد

قال : أنت تمنع قدر الله! .. منعت بناتك من الزواج لتمنع ولادة الأحفاد ؛ ولكن الله يريد لك الأحفاد والذرية .. من أي البنات سيكون الحفيد القاتل ؟! ولماذا يقتلك ؟ لأنك منعت أمه من الزواج .. أنت لم تعرف من أحفادك إلا ابن سفانة وهو رضيع .. وهل لو ولد لك ذكور كنت تستطيع منعهم من الزواج ؟ سيفعلون كما فعلت البنات .. هذه شهوة وضعها الله في الناس .

قال برجاء : أرجو أن تعيد لي الكاهن ، ونعيش بسلام ما بقي لنا من العمر والأيام.

قال : هذا الكاهن مطلوب في بلدكم ؛ فإذا عرفوا أنه هنا هل سيسمحون له بالبقاء عندك ؟ فسيسبب لي ولَك من الحرج والضيق ؛ وربما الحرب ، ويغزونا قومك بسببه .. وكيف إذا علموا أنني أنزلته قصر الضيافة ؟ سيشتد غضبهم وسخطهم علينا.

فقال محتدا صارخا : فليغضبوا

رد حميد : إنهم أهلك .. وشقيقك الملك وقريبك الوزير .

صرخ بزعيق وقال : أنا لا أهل لي منذ فارقت الوطن .. أنا ليس لي إلا سفانة فحسب والكاهن غياث .. اعلم أيها الملك الصديق إذا لم يكن غياث معي خلال أيام لا مقام لي عندكم سأغادر المدينة .

قال : إلى أين ؟

قال : لا أدري .



طلاق سفانة

تأثرت سفانة بحال والدها تأثرا كبيرا ، وأزعجها تجاهل جد زوجها في الإفراج عن الكاهن الذي تبغضه أشد البغض من أيام طفولتها ؛ ولكنها تشفق وترق من أجل أبيها .. وهو مصمم على إخراج غياث من محبسه .. وعلمت من زوجها رغبة جده بتسليم غياث لبلدها اللؤلؤ آملا إصلاح ذات البين بين البلدين الذي تسبب به زواجها دون رغبتهم .. وهي تعلم أن هربه كان في فترة انتظارها لتسلم الحكم في المدينة .. وعلمت أن الملك حميدا أرسل رسولا بهذا الأمر للملك مرارة عمها.

ولما علم زرارة بذلك زاد غضبه ونقمته على الملك حميد ، وأمر ابنته بالطلاق من حفيده شداد ؛ لأنه سيعود لبلاده .. وقبلت سفانة الطلاق ، ولما رأى حفيد الملك رغبتها بالفراق ومصرة عليها أشهر الطلاق في المدينة .. وفرح وسعد زرارة بطاعة ابنته وقبولها الطلاق .. وأخذ يراسل شقيقه مرارة للعودة للبلاد لعدم راحته في منفاه .. وأن الحبس في القصر الصغير خير من الحياة في بلاد غريبة .

وجرى نزاع بين سفانة وزوجها على حضانة الطفل أسامة ، فأخبرها القاضي بأنها إذا رحلت عن المدينة لا حق لها في حضانة الطفل ؛ لأنهم أحق به ، أما إذا ظلت هنا ، ولو مطلقة سيبقى معها حتى يكبر ، ويخير بين العيش معها أو مع أبيه شداد .

وكان زرارة يحثها على التخلي عنه ، وسيسمح لها بالزواج في وطنه ، وتلد غيره ولكنها تمسكت به ، وإنه ابنها فلذة كبدها ، ولا تريد التفريط فيه ، وقالت : فلذة كبدي يا أبي ! وقد تعلقت به ولن أتخلى عنه قبل أن يكبر ويمشي .

وبذل الملك محاولات كثيرة معها ، وهي تصر على حضانته ، وجرت مراسلات بين الملك وشقيقه للعودة لمدينته ، ويعتذر فيها عن خروجه ، وتسرعه في طلب النفي والهجرة .

والتقت بانة بسفانة ولامتها على طلب الطلاق إرضاء لأبيها ، وكانت قد جاءت إلى قصر أبيها على أنها جارية من جواري صديقات سفانة من أهل المدينة .

فأجابت على لوم أختها : إنه أبي ! وأن طاعته فوق كل طاعة .. وليس له عضد هنا إلا أنا .

قالت : لماذا قبلت الزواج ؟!

قالت : لأنه قبل واستسلم لضغط صديقه الملك حميد .

قالت بانة : هل سيقبل قومنا عودتكم ؟

ـ لا أرى أنهم سيقبلون ..فلم نسمع منهم ردا .

قالت : ألا مجال للصلح بينك وبين زوجك ؟

ـ أبي أبي يفكر بالهرب سرا .. وسيأخذون ابني إذا رحلت لا يريدون أن يتربى في بلاد غريبة .

قالت بانة : أبي مصمم على العودة .

قالت سفانة : إلا إذا عفوا عن غياث اللعين.. تنهدت ضيقا وتابعت : كله شر وفساد .. ما زال مدمرا لحياتنا ومستقبل أيامنا .

قالت : أبي الضعيف .. هذا صعلوك شرير .. ستذهبين!

قالت : لا أدري ! أنا لا يمكن أن أتنازل عن ابني . وأخذت بالبكاء والنحيب .

وبعد أن ذهبت موجة البكاء ، وهدأتها بانة ، وحثتها على الصبر ، وأن الفرج قريب غادرتها ، وقد وعدتها بزيارة أخرى ورفضت ذكر مكان سكنها، وأين تعيش؟

ولما سألها الملك عن هذه الجارية التي طال الحديث بينهما ، قالت : إنها من جواري زوجي ، كانت تحاول الصلح بيني وبين زوجي .

قال : لا ، لا ، لا ، أنا ضحيت من أجل البقاء هنا ؛ ولكنهم نكروا الجميل والمعروف يا سفانة ! غياث ما زال في السجن .. وقد أرسلت له الخادم بطعام فأخبره أنهم سيرسلونه لبلادنا ليموت

قالت : أجاء الرد من عمي ؟

قال : ليس المهم رد عمك .. المهم رد الوزير .. لقد ذلوني يا ابنتي ..أصبح الموت أحلى من الحياة مع هؤلاء الأنذال .

قالت : أليس هم الحكام من عهد والدك وأجدادي ؟

قال : كانوا يقبلون الذل والخضوع والخنوع .

قالت : أنحن هنا أعزاء ؟ ! يريدون أخذ طفلي إذا رحلت معك .

صاح : لا نريده .. ضعفت أمام ضغطهم يا سفانة .. ما كان لي أن أوافق على زواجك .

قالت : هذا هو الذل يا أبي !

قال : كنت محبوسا في بلادنا .. كنت مهانا من أجل ذلك يا بنية رضيت بالنفي الاختياري .

قالت بحيرة تنتابها : لا أدري أحق هذا ! مضى عام على زواجنا .. منامك كان فتنة لنا .. ليتك رفضت بحجة المنام .. أنا لا أرضى بأن أتخلى عن ولدي .

قال : إنه ابنهم .

قالت : إنه ابني .. حملت به تسعة شهور.. ولي شهور أرضعه .. سيرحل معنا .. سيرحل معنا تنهد حزنا وقال بضيق : إذا رحلنا سنتركه هنا .. سيصبحون لنا أعداء يا سفانة .. أتربين ابن العدو ؟

قالت : عيشتني في حيرة يا أبي! أرجو أن يقبل قومنا عودتنا .. فظلم ذوي القربى أفضل من ظلم غيرهم .. هنا لا تجد مواسيا مشفقا وباكيا .. إني أتألم أتمزق يا أبي !

قال بعطف وتوسل : أنا حزين من أجلك ! هذا قدرنا يا سفانة! ظننت راحتنا هنا .. عند أصدقاء أبي وأصدقائي .. رحلنا وتنازلت عن الملك لتبقي العذراء .. ثم ضعفت أمام ضغط حميد .. لقد كان شجاعا عندما قبل لي العيش هنا ..كانت نخوة وشجاعة .. استنجدت به من ظلم ذوي القربى .. لا تبكي يا حبيبتي .. دموعك تسقط على قلبي ليس على خديك .. ما زلت عاقلا أترضين أن أعيش أسيرا ؟ أترضين أن يكون ضيفك سجينا ولا نفعل شيئا من أجله ؟!

قالت : لا أرضى .. وأنا في غاية الحزن والألم .. متى سيحكم ابن أمامة البلاد ؟ فأنا سأكون خالته يا أبي !

هرب غياث

بينما الأمور محتدمة بين الملك وابنته بسبب زواجها ، وبسبب طلاقها ، وكذلك عدم وصول رد من شقيقه الملك ، مما اضطر الملك ودفعه أن يكتب رسالة لأحد الملوك الذين له صداقة وود معهم أيام عز ملكه وشبابه آملا أن يقبل حياته في مدينته .

والطفل المولود مع من سيبقى إذا رحلت سفانة .. وهي مصرة على التمسك به ؛ بل هناك حديث عن الإصلاح بين الزوجين .

وكان الملك حميد مشغول الفكر في حل معضلة غياث في تسليمه للملك مرارة حالما بعودة العلاقات الطبيعية بين البلدين قبل لجوء زرارة إليه ؛ ولكنه متردد في حسم الأمر .. وتبين له خطأ قبول الملك ضيفا في بلاده دون طلب من مرارة .. وزاد الطين بلة زواج سفانة ثم طلاقها والنزاع القائم على المولود لمن يكون ؟ وكان مستغربا لعدم رد الملك مرارة على أخيه كل هذه الفترة .

وبينما هو حائر في حل هذه الإشكالات أخبره قائد الجيش عن هرب عدد من السجناء ومن بينهم الكاهن غياث .. وأنهم فشلوا في القبض عليه .. والراجح أنه غادر البلاد .. ورغم تظاهره بالغضب فرح بهذا الحل .. وهو أفضل الحلول ؛ ولكنه أمر بإجراء تحقيق في هذا الهرب للسجناء فتبين أن رشا وخيانة من بعض الحرس وتوفير خَيل للهاربين من قبلهم .

ولما علم زرارة هو الآخر بهرب الكاهن أصابه الفرح والسعادة ؛ لأنه كان يخشى من تسليم الكاهن لبلده فيعدم لهربه من الحبس .. وقد أدرك أيضا أن اللقاء به في هذه المدينة أصبح من الصعوبات .. وهو قد بذل جهدا لتحريره ، واضطر لتطليق ابنته من حفيد الملك من أجل إخراجه من الحبس .. هكذا واسى نفسه ، وأمل أن يقبل به الملك حبيب الدين بن سالم نزيلا في بلاده ، فكان يقول لسفانة : كان هربه حلا لي ولحميد .

قالت : أنت سعيد بهربه ! ولكنه أصبح عدوا للملك ، وقد يطاردونه .

قال مطمئنا لها : إنه داهية من دواهي الزمن .. الآن لا يهمني رد شقيقي ووزيره الملعون .

ـ وأنا !

قال : ستعودين لزوجك .. فالشاب يحترمك ويحبك ، ولولا الإجبار ما طلقك .

قالت : هل ترى أنني سأعيش سعيدة بعد هذا الجرح بيننا ؟

قال : عليك أن تتحملي من أجل الطفل كما تزعمين .

قالت : كنت أفكر يا أبي أن أختار الرحيل والهرب به .

قال : حمقاء !

قالت : حمقاء حمقاء! ولا أكون ألعوبة بينكم .. بين ملك وأمير .. ليتني تزوجت ابن عمي .

قال : لا ينفع الندم اليوم .. فإن قومك لم يردوا على طلبنا بالعودة لبلادنا ، وحتى لم يرفضوا .. إنهم يحتقروننا يا سفانة ! لا تفكري بالهرب .. فأنت الخاسرة .. زوجك لديه نساؤه ، ولديه أطفال .

قالت : طفلي لن أتخلى عنه .

قال بثقة : ستعودين له .. حدثني بعضهم عن ذلك .

قالت : أعرف وأرسلت لي الجواري والبنات .. وأعرف أنه محب لي ولولده ، وقدر لي الوقوف معك في هذه المِحنة .

قال : نعم ، إنه شاب عاقل بطل .. لقد أعجبت به منذ تعرفت عليه ؛ إنما هي تقاليد الأسر والسادة .

وفعلا بعد هدوء زوبعة هرب المساجين تدخل بعض الفضلاء بالصلح بين الملكين ، وجرى حفل زواج جديد لسفانة ، وعادت زوجة لشداد .

وقال وهو يرحب بها : صفحة وانطوت أيتها الأميرة الشجاعة .. نعم ، نحن ضعنا بين الفريقين

قالت : أنت تعلم أنك الرجل الوحيد الذي أحببته وقبلته بعلا ؛ ولكنه يا سيدي الأمير أبي .

قال : أنا أقدر لك شجاعتك .. وقدرت موقفك ونبلك وطاعتك لأبيك .. ولو كان الأمر بيدي لعفوت عن غياث ، وأبقيته لدى أبيك .. والإنسان ما دام لا يتدخل فعليا وبيده فهو مازال بعيدا

عن الخطر والضرر .. فليس كل ما يقال ينفذ .. وأما الوشاة فينقلون الكلام حسب فهمهم وأهوائهم ، وحسب رغبة من ينقلون إليه الكلام .

قالت : أشكرك على تفهمك موقفي وعصبيتي ، وعلى حسن خلقك معي وصبرك عليّ .. أنا أكره الكاهن أكثر من إبليس اللعين ؛ لكن أبي متعلق به لحد الجنون .. إنه أبي سيدي الأمير !

قال : مرحبا بك في بيتك ! هي غمة وذهبت ـ إن شاء الله تعالى ـ فأنت في بيتك بين أهلك وجواريك .. وأمي تقدر لك شجاعتك ، وتضحيتك من أجل الوالد .

قالت بحزن : لقد أصبح الوالد ذليلا بعد خلعه عن الحكم والملك.. يشفق الناس عليه ؛ بل تراه يتمنى الموت .. فعندما الإنسان يترك السلطة والحكم يصبح ألعوبة وسخرية ؛ وربما لا يحسّن التفكير والنظر .. لقد كان مصدوما أن تتزوج ابنته الكبرى سرا من ابن الوزير، وتلد دون معرفة .. وهي ابنة ملك كأبي .. ثم تهرب بانة التي تعرفها مع أمير للتزوج رغم أنفه ـ وقد زارتني في قصر أبي متنكرة ، وحثتني على العودة إليك ـ ثم فعلت أختي خلود مثل بانة ؛ فذلك يجعل العاقل مجنونا .. فهذه ضربات قاسية تلقاها أبي .. وأنا أحبك وأحب أمك الغالية على قلبي .



رفض العودة

لقد رأينا الملك زرارة مسرورا من هرب غياث من سجن الملك حميد ، ولقد كان يتمنى أن يفرج عنه بشفاعته ، ويعيش معه بقية حياتها ، ولكن أهل السلطة لا يرغبون بوجوده في بلادهم .

وفرح أيضا بعودة سفانة لزوجها ، وهذا يعطيه مكانة بين أسياد المدينة بأنه ما زال صهرا للملك الشيخ حميد .

وجاءت الأخبار بعد حين ترفض عودته لبلده الأول بسبب تزويجه لابنته لرجل غريب بعد أن رفض تزويجها من أقاربها ، وجاء في الرسالة أن لا يفكر بالعودة قطعيا ، لا هو ولا ابنته ولا أحفاده من سفانة ، وجاء في الرسالة أنهم ليسوا بحاجة إلى استلام الكاهن الهارب .

فوطن نفسه بعد هذه الرسالة الحاسمة والقاسية على عدم التفكير في العودة لمسقط رأسه ، وعليه أن يقضي ما بقي من العمر في المنفى .

وجاءته رسالة من صديقه الملك الآخر يرحب بزيارته لمدينته دون الاستقرار فيها لأهمية الصداقة بينهم وبين مدينة اللؤلؤ ، وأن ابن الوزير متزوج من امرأة من مدينتهم .

فخاطب نفسه : لقد نسيت ذلك .. نعم ابن الوزير لؤي صاهرهم بعد موت أمامة تذكرت ذلك فلما رأت سفانة والدها بعد هذه الخطابات قال : رفض قومك أن نعود إليهم بأي حال من الأحوال ، لقد اعتبرونا مجرمين في حق المدينة ، وتقاليد الزواج .

فواست والداها كعادتها منذ قويت العلاقة بينهم ، وقالت : رضينا بالحياة خارج مدينتنا .. فلنرض يا أبي بقدرنا ونصيبنا .. وأنت إذا مللت من العيش هنا فسافر إلى الملك حبيب فهو يرحب بك لعدة أسابيع زائرا ضيفا .

فقال متحسرا : التنقل بين المدن يحتاج لمال وحرس وهدايا يا بنية .. وكما تعلمين أن حقنا المالي توقف لما انتشر خبر زواجك .. فأصبحنا أغرابا عند بني قومنا .. فأنت زوجك ينفق عليك .. وأنا أعيش على ما بقي معي من مال ومجوهرات ، وبعض إحسان الملك حميد بعد أن علم بقطع ما خصص لي من مال للحياة الكريمة في المنفى .

قالت : عليك أن ترضى بذلك ما دمت قد قبلت النفي الاختياري .

قال : قبلت وصبرت .. وشكرت ربي .. نعم ، صدقت .. على الإنسان أن يقبل ما اختاره بنفسه ويتحمل عاقبة الاختيار بطيب نفس.. لقد كنت وفية لأبيك يا سفانة !

وسمح له الملك حميد بزيارة الملك حبيب لما اطلع على الرسالة ، وأرفق معه كوكبة من الفرسان في تلك الرحلة سوى الهدايا ، وقضى الملك عشرة أيام في ضيافة الملك حبيب الدين ، ثم كَر راجعا لمنفاه ، وقد أحضر معه عددا من الجواري والغلمان هدية من ذاك الملك ، وقدم بعضها للملك حميد وابنته وزوجها شداد ، ووالده عُمير وللوزير ، واتخذ جارية منهن كسرية مما أثار حفيظة زوجته الجارية المعتقة ، فوعدها أن يتركها بعد حين ويعتقها ، فهو لا ينسى خدماتها وتعلقها به بعد طلاقه لعزوف .

بعد شهر على هذه الزيارة جاءت سفانة تزور والدها كما درجت العادة ، فوجدته مريضا مرضا شديدا ، وقد عاده أطباء القصر كل يوم ، فقال لها : أحس أن أحدهم يدس السم لي .

قالت : هل حدثت الملك بشكوكك ؟

قال : أخشى أن يكون له يد بذلك .

قالت بحيرة : لا ، لا تسيء الظن به .. فلنا سنوات في كنفه .. ونحن أصهاره .. وعادى قومنا من أجلنا .. فعلى أطباء الملك التحقق من ذلك .. ويفحصون ما يقدم لك من طعام وشراب .

تحركت سفانة ، وأخبرت زوجها بشكوك والدها بفساد طعامه ، والأمير أخبر جده الذي انزعج وكان يعتقد أنه مرض تقليدي ، فأرسل رئيس الشرطة وكبير أطباء القصر لمعاينة الملك زرارة الذي رجع وأكد للملك تعرض الملك لمواد سامة ، فتعرض الطهاة والخدم للمسألة والتحقيق والاستفهام .

فكان الملك يقول لوزيره : الطبيب يؤكد أن الرجل دس له في طعامه مواد سامة .. ويستخدمها الطهاة دون علم على أنها مواد سامة .. فقد أرسلت للقصر على أنها هدية من طهاة قصرنا .. وطاهي القصر أنكر إرساله هذه المواد .

ـ وماذا يقول رئيس الشرطة ؟

قال : يقول إن خادما زارهم ذات نهار زاعما أنه من خدم القصر ، وأنه من الخدم الجدد ، وقدم لهم مجموعة من الأعشاب ، وأنها خاصة بطعامي ، وأحب أن يخص بها الملك زرارة .. فصدقوا ذلك .. والملك لم يخبرهم عنها عن مرضه منها ؛ لأنه لا يعلم بهذه الأعشاب .

قال : يعني أنهم غير متآمرين . . من يريد اغتيال الملك ؟!

قال : هذا ما يحاول معرفته رئيس الشرطة .. فالأمر جد خطير ! هل أصبحت حياته في خطر أيها الوزير ؟

قال : الأمر محير .. من يريد موته ؟ وهو لا خطر منه على بلاده كما تعلم ونعلم .. وله ضيف سنوات لدينا .. فقومه لماذا يفعلون ذلك ؟ فهو ملك وابن ملك وشقيقه الملك .. فالخطر عليه من عندنا .

قال : هل من عدو له بيننا يا مولاي ؟

قال حميد : هل من خطة لحمايته ؟

قال : علينا كشف الخادم الذي ذهب إليهم بتلك المواد السامة .



ابن أمامة

يعلم قارؤنا الطيب من خلال سطور القصة أن الأميرة أمامة بنت زرارة لما كبرت واقتربت من الخمس والعشرين سنة ، وكان والدها يرفض زواجها اتفقت أمها عزوف الملكة ، والوزير أوس على زواجها خفية دون موافقة الملك ، وحملت من زوجها خلال أسابيع من الزواج ، وولدت سرا برعاية أمها والوزير ولؤي وبعض الخدم الثقات ، وفور الولادة قام أحد فرسان الوزير الفارس ليث العامر بأخذ الطفل إلى مدينة الملك حبيب الدين ، وفي إحدى القرى دفع الرضيع إلى امرأة تهتم به وترعاه مقابل المال ، ودون أن تعرف هو ابن من ؟ وهناك خادمة وشت للملك بزواج ابنته وولادتها بعد حين ، فغضب الملك أشد الغضب ، وحبس ابنته النفساء ، وأهمل رعايتها الطبية حتى هلكت ، وكان يقصد ذلك ويعمده انتقاما لنفسه والإهانة التي لحقت ، وبحجة أنها لم تفصح أين أخفت ابنها ؟وهي لا تعرف مكان إخفاء الوليد سوى أنه خارج بلادها .. وود لو قتل الوزير من شدة الغيظ والحقد .

وكان لؤي عندما أهل الوليد صارخا حمله إلى ذلك الفارس ليث العامر ، ونفذ الخطة المدبرة لهذا اليوم العصيب .

وكان هذا الفارس يغيب عن الوزير أوس مع القوافل والحجج الأخرى لمتابعة حياة الطفل الرضيع ، ولما فطم الطفل كانت أمه قد هلكت من عهد قريب من العامين .

ونعلم أن لؤيا تزوج من مدينة الملك حبيب ، وكان يذهب برفقة ليث أو يأتي به ليث إلى مكان متفق عليه ، ويحتضنه ويقبله ، ثم يعاد لمكان اختفائه خشية عيون الجد زرارة ، وحاولت زوجه الأميرة معرفة مكانه ، وعجزت عن ذلك خاصة عندما عادت للحياة بعد الزواج في بلدها ، ونجح لؤي بإخفاء الأمر عنها وعن غيرها بسبب الخطورة المحيطة بالطفل .

ولما شب الطفل رجع به ليث العامر إلى المدينة في بيت مستقل ، وتظاهر ليث أمام الفضوليين أنه ترمل من سنوات ، وأن هذا الفتى ابنه الوحيد ، واشترى جارية وغلام لخدمة الطفل .

وتزوج ليث بعد رحيل لؤي للمدينة ، وعاش الطفل مع أولاده ، ونشأ بينهم كأنه شقيق لهم ،

ولم يشعر أنه ابن رجل آخر ، وكان يعتقد أن الرجل لؤيا عندما يتقابلان عّم له وشقيق والده ، ولما كبر وشب علم أن أمه ماتت ، وظن أن ليثا هو والده ، وكان الأمير يقدم المال للفارس ليث باستمرار ، ولما مات الوزير أوس كان عمر سيف الدين عشرة سنوات ، ورجع الأمير بعد موت والده لبلاده موصيا ليث على ولده ، وأنه قد يصير ملكا على البلاد ؛ لأنه حفيد زرارة الأول .

ولما بلغ الفارس سيف خمسة عشر عاما كان قد تعلم الكتابة والقراءة والفروسية في مدراس المدينة ، وأنديتها المهتمة بذلك .. وعشق الصيد مثل أقرانه في المدرسة التدريبية .

ولما أصبح في هذا السن جاءت رسالة لليث من الأمير لؤي مع ثلاثة فرسان يطلب منه إحضار الشاب للمدينة بدون زوجته وأطفاله إلى حين يسير ، وبعد رحلة استمرت أياما استقبل الشاب في قصر خاص من قصور الوزير غالب عم لؤي ، وقدم الوزير والملك مرارة للقصر ، وتم كشف السر للفتى الذي لم يتفاجأ بذلك ، وقد كان يحس بأنه أمير من تصرفات أبيه ليث معه ، وسمع قصة أمه وأبيه .. وكان الفتى يذكر لقاءته بالأمير لؤي ، ويرى الاحترام الذي يلقاه الرجل من ليث .. والحنان من الأب له .. وكان كل ذلك خوفه على حياته من جده زرارة الملك المنفي برغبته .

ولما عرف تفاصيل حياته وسبب إخفائه وإبعاده عن البلاد بكى امه ، وطلب زيارة قبرها .. وعانق الملك مرارة الذي هو بمقام جده ، وفعل مع الوزير عم والده كما فعل مع الملك .. ثم حضر القاضي الأكبر ، وتعرف على الشاب وبارك له حياته .

وقام الوالد وبعض الحرس والفارس ليث بزيارة قبرها ـ قبر الشهيدة كما يسمونها ـ وبكى الشاب ، ودعا لها بالرحمة والمغفرة .

وأعلن الوزير في نهاية اليوم أمام الأمراء والأعيان والسادات عودة الأمير سيف بن لؤي حفيد الملك زرارة .

وعانقه الملك والوزير وكبار السادة والأمراء من أقاربه وأقارب والدته أمامة ورأوه فتى قويا

جميلا .. وانتشر الخبر في المدينة بعودة ابن أمامة لتولي الحكم .. وعزل في قصر خاص تحت حماية قائد الجيش ووالده واتباعهم ؛ ليخضع لتدريب على الحكم ومهام الملك لمدة تسعين يوما يتم خلالها الاستعداد لتنصيبه ملكا جديدا على البلاد .. فالملك في هذه المدينة ملكا تشريفيا وكل المهام الإدارية والتجارية والحربية موكولة للوزير وأعوانه .

وخضع الأمير للتثقيف والحكم وواجباته .. وكان يخضع لحراسة مشددة خشية على حياته من الحساد والغادرين .

وقد زارته جدته عزوف ، وعانقته بحب وبكاء ، ودعت له بالبركة والتوفيق في رعاية الأمة والبلاد .

وقامت الاحتفالات في كل المدينة لتنصيب الشاب الصغير ملكا على البلاد ، وقد تنازل الملك مرارة حسب التقاليد عن العرش ، ولما مضت الشهور الثلاثة توج الأمير سيف ملكا على بلاد اللؤلؤ ، وأقيمت الولائم عدة أيام .

وأخذت المدينة تستقبل الوفود من الأصدقاء للتهنئة بهذا الملك الجديد ، وانشغلت المدينة بالاستقبال والتوديع .

وعين للملك سبعة مستشارين ، وعين له حرسا ملكيا من اتباع الوزير فهو عم أبيه ، وكان القصر الملكي قصر زرارة قد أعيد تحصينه وصيانته وتجهيزه ليكون قصرا للملك سيف ، ورتب له الخدم والطهاة .

وأصبح الملك الشاب ينتقل بين قصر المنام وقصر الحكم ، ويحضر الوزير لديوانه ويطلعه على ما يهمه سماعه ، ثم يغادر سيف ظهرا القصر وديوان الحكم لقصره ويفعل ما يرغبه من اللعب والسمر .. ويستقبل السفراء والأدباء والشعراء والقصاص والحكماء في ديوان قصر المنام ليزداد معرفة وعلما ؛ فإذا رغب بسماع الشعر أبلغ قيم القصر الشعراء برغبة الملك ، فيتجمع عدد منهم في قاعة خاصة حتى يحضر الملك ، فيبدئون بإلقاء أشعارهم .. وهكذا باقي الأصناف .

خلود

قلنا إن الأميرة خلود بنت زرارة تزوجت ابن أحد تجار مدينة الرحمة عن طريق التاجر عمرو بن سنان ، ودبرت وإياه حيلة بدأت لقومها أنها خطفت ، وانتقلت إلى تلك المدينة ، وتزوجت ولا أحد يعلم أنها ابنة ملك إلا زوجها ووالده والتاجر عمرو وجاريتها لبانة .

ولما انتشر خبر اعتلاء الأمير المختفي سيف ملكا على بلاد اللؤلؤ في المدن والبلدان القريبة ، وعلمت خلود من زوجها وعمها هذا الخبر اشتاقت لبلادها ورؤية ابن أختها الذي أخفي من أول يوم ولادة ، فكتبت رسالة شخصية له تطلب منه أن يسمح لها بزيارته وزيارة أمها وبعض أقاربها .. ونقلت الرسالة مع التجار للتاجر عمرو ، ولما تسلمها انتقل بها لديوان الملك ، ولما قرئت على مسمع الملك أوضح له الوزير قصة خالاته همسا ، ثم قال : نحن منذ تظاهرت لوالدها أنها خطفت ، ولا نعلم عنها شيئا .. هذه أول مرة نسمع عنها حسب علمي .. وأنا شرحت وبينت لك ظروف زواج أمك وخالتك بانة وخلود .. ونحن كنّا نلوم جدك الملك زرارة في ذلك حتى اضطرت البلاد لعزله عن الحكم بعد اختفاء الأميرة خلود .. وأطلعناك على قصة المنام الذي جعله يحرم بناته من حقهن الشرعي والأدبي من الزواج والإيلاد .

قال : ألا تسيء عودتها وزيارتها للبلاد حفيظة الناس وأقارب جدي زرارة ؟

قال الوزير : نحن أوقعنا اللوم كله على الملك جدك يا سيف .. واضطر أخي ورجال الدولة على خلعه .. وهن كنساء لم يجدن أمامهن إلا أن يتزوجن بهذه الطريقة المؤلمة .. فكان زواج أمك من ابن أخي الوزير أوس سرا .. ثم هربت خالتك بانة مع الأمير كساب .. وخلود لم نعرف مع من هربت ؛ ولكنه من غير أهل البلاد .. أنا أعذر البنات في فعلهن سواء كان صحيحا أم خطأ أيها الملك ! ولا أعتقد أن ينزعج الناس من زيارة البنت لأمها جدتك الملكة عزوف التي اضطرها جدك للرحيل ونفيها وحيدة بعدما طلقها مما اضطرها أن تتزوج من رجل اشتهر باللصوصية في بلادنا .. وذلك في منفاه ومنفاها ، حتى خالتك سفانة صغرى بنات جدك نصبناها على البلاد ملكة للتقاليد والقوانين المعتمدة في نظام الملك .. وعرضنا عليها ثلاثة أمراء

ليكون أحدهم زوجها ، وأحدهم ابن الملك مرارة .. وآخر ابن أختي من أقارب جدك .. رفض الملك المعزول زواجها .. ورفضت الزواج مما دفع القوم إلى خلعها ، ووضع شقيق الملك زرارة ملكا ريثما تظهر ؛ لأنك من أحفاد الملك .. وطلب جدك وسفانة النفي الاختياري .. وهناك قبلت الزواج من حفيد الملك حميد ـ وقد حضر وفد منهم للتبريك والتهنئة بالملك ـ وقبل والدها بزواجها من الغريب .. وهذا لا يجوز في حق بنات الملك يا أيها الملك ! ثم طلقت، ثم ردوها بعد تصالحهم .

قال الملك : نرحب بها يا سيدي الوزير!

قال : نعم ، يا مولاي ! فأمها كبيرة في السن .. ورؤية ابنتها ستحقق لها السعادة .. وأمها سيدة عظيمة وشجاعة .. وخالك سيكون فارسا بطلا .. وهو شاب صغير في الجيش .

قال الملك وهو يتذكر أول لقاء بالملكة عزوف : لقد بكت كثيرا لما رأتني أول مرة وتمنت لو تربيت بينكم .. وعرفتني على ابنها رياض الفتى الصغير ؛ ولكنه خجول

قال : ربما من ماضي أبيه مع أن والده كان لصا كبيرا وشجاعا في مجال اللصوصية ؛ ولكنه تاب ورحل .. وكان ثريا عندما نكح جدتك ، ويملك مزرعة كبيرة في بلاد عثمانية ، وما زالت أموالها ترد إلى جدتك زوجته ، ورفضت بيعها .

طلب الحاجب الكاتب ، فجاء الكاتب ، وكتب رسالة ترحيب بالأميرة خلود بنت زرارة في بلدها ، وختمها الكاتب بخاتم الملك ، ودفعت للتاجر عمرو الذي كان يرتقب الرد .

ولما عاد لمتجره الكبير دفعها لأحد رجال القافلة ، ولما استلمت الأميرة الرسالة ذهبت تبكي وتبكي ، وقد تذكرت أختها أمامة التي كانت صديقة لها ؛ لأنهما متقاربتان في السن ، وشهدت زواجها السري والخوف الذي ركبهم من تلك المغامرة ، فأمامة تكبرها بثلاث سنوات ونصف ، وقالت لزوجها بعدما هدأت عواطفها إنه يرحب بِنَا جميعا .

قال محمد : بارك الله فيه ! فأنت اليوم خالة الملك ؛ لعلنا بعد هذه الزيارة نكشف أمرنا للناس ؛ ليزداد لك الاحترام بين الأهل ورجال الدولة .

طلب منه والده بألا يصحب كل ذريته معه خشية غدرات الطريق واللصوص فأخذت الطفل الرضيع فقط .

وكان الملك يقول لجدته : خالتي خلود ترغب بزيارة البلاد والظهور ، وكتبت رسالة بطلب الزيارة للقاء بك وبنا .

تفاجأت الملكة بالأمر ، ودمعت العيون وقالت : منذ خرجت مطرودة من هنا لم أرها أيها الملك ـ رحمك الله يا أمامة ـ لم تعش لترى ابنها سيدا وملكا ؛ بل لم تحضنك إلا بضع دقائق .. كان يجب أن تختفي من البلاد خشية أن يعرف الملك والدها .. ولما عرف رماها في السجن وهي نفساء دون عناية .. كان موقفا قاسيا ظالما ، ثم ماتت رحمها الله .

تنهد سيف وقال : رحمها الله رحمها الله .. ستنزل الأميرة ضيفة في قصري هذا قصر الملك وإذا رغبت بالعيش في بلادنا سأرحب بذلك .

قالت عزوف : يسرني ذلك يا ولدي العزيز .

قال : وأنت إذا أحببت العيش معي هنا فعلى الرحب والسعة .

قالت معتذرة : يسرني ذلك يا ولدي ؛ لكن أمي مريضة وعجوز أكثر مني .. وخالك عزيز النفس ، وبعض أهلنا لا يعاملونه أنه ابني أنا ؛ إنما يعاملونه ابن ذاك الرجل الشجاع .

قال سيف : على كل القصر مفتوح لك .. وعندما نكبر أنا ورياضا سيكون قائد الحرس إذا قبل ذلك .. فهو خالي وابنك .. وأحببته يا جدتي!

مسحت دمعات سقطت على وجنتيها وقالت : شكرًا على عطفك الكبير علينا ـ وإن شاء الله ـ ستكون ملكا عظيما رغم صغر سنك .. فأنت سيد الرجال والملوك .. وسنفخر بك ما حيينا فأنت تاج رؤوسنا .

تعانق مع جدته ، وأمر الغلمان بعودتها إلى قصرها كما أحبت من أجل أمها وابنها .. ولما جهزت مركبتها ، خرجت وعادت لقصر أمها حيث تعيش هي وولدها رياض بن مناع .

بعد مضي شهر من رد الملك على رسالة خلود دخلت البلاد مع إحدى القوافل التجارية

يصحبها زوجها محمد وابنها الرضيع .. وأستقبلهم التاجر عمرو ، ورحب بالأميرة .. وكان قد زارها بضع مرات عندما يسافر لمدينة صاحبه واستضافهم ليلة .. وفي مطلع النهار أخبر الملك بمجيء خالته بصحبة زوجها وابنها الرضيع .. فترك ديوان الحكم ، وعاد لقصره الخاص ، واستقبل ضيوفه خالته وزوجها .. ورحب بها بكل حب .. وكانت تبكي وهي تعانقه وتشكره وعرفته على زوجها الذي قبل رأسه ويده كعادة السلام على الملوك ، وقبل الملك الطفل .

ثم حضرت الملكة عزوف وبعض أخواتها وإخوتها لقصر الملك ، وتجدد البكاء والفرح بهذا اللقاء والشكر للملك على قبوله هذه الزيارة .

وأخذ أقارب الأميرة يتوافدون للقصر لتحية الأميرة العائدة بعد اختفاء طويل .

وقضت عدة أيام تستقبل أهلها وصديقاتها حتى الوزير غالب وزوجته وبناته جاءوا للترحيب بالأميرة وزوجها الشجاع الذي تجرأ على خوض هذه المغامرة الخطرة والصعبة والقبول بالأميرة زوجة رغم الخطر الكبير على حياته .

وأعجبت بأخيها الذكر وأحبته ، ولم تنفر منه ، وصنع لها الملك الصغير ، ومثله الوزير وعمها الملك مرارة وغيرهم الولائم ، وأعلمها الملك أنه يرحب بحياتها في البلاد ؛ ولكنها اعتذرت عن ذلك ، وأنها تعيش سعيدة في بلاد زوجها .. وعليها أن ترضى بقدرها .. وأنها ستتردد بين الحين والآخر إليهم ، وقضت الأميرة شهرا من الزمن في ضيافة أهلها ، وصحبتها الهدايا الكثيرة عند مغادرتها البلاد ، ورافقتها كوكبة من الفرسان حتى أطراف البلاد ، وكان والد زوجها في الاستقبال .. وقدم الشكر للفرسان ، وانتشر خبر الأميرة في بلادها حتى أن الملك الذي يعرف التاجر نجوان طلب اللقاء بها .. والتعرف عليها هو ونساؤه لما شاع خبر الأميرة وعلم من هم أصهاره .. وأدرك أقاربهم وأصدقاؤهم سبب تصرفات التاجر مع البنت منذ دخلت المدينة .

زرارة يطلب العودة

الملل والضجر من طبيعة البشر ، فلما تيقن لزرارة الملك اعتلاء حفيده ملك بلاد اللؤلؤ مكان شقيقه مرارة لعب في رأسه العودة للبلاد .. وكنا ذكرنا أن الملك تعرض لمحاولات السم مرتين ونجا من الموت منهما ، ولم يعرف الجاني .

فقال لسفانة : الأخبار أتت من البلاد باعتلاء حفيدي عرشي .. ولي رغبة بالعودة .. بت أخشى على حياتي هنا .. فالموت عند الآباء والأجداد خير .

قالت : ألا تخشى نقمة سيف عليك ؟! وقد أردت قتله وليدا .. وسعيت لذلك .. وماتت أمه دون علاج .

هتف بحدة : إنه ابني يا سفانة ! هي تزوجت بطريقة لا تليق ببنات الملوك والأمراء .. وهذا له سنوات وسنوات .. وأنا لم أقتل أحدا .. هي ماتت بضعفها وغضبي عليها .

قالت : لكنها أمه .. وقد حرمته منها .

صاح : هي حرمت نفسها من نفسها .. تتزوج غصبا عني .. ولا أفعل شيئا أأرقص وأغني يا سفانة! أنا حبستها فقط .. لم أضربها لتموت .

قالت : والحفيد والمنام!

قال : هل يقتلني يا ترى ؟

قالت : لا أدري ! ربما لأنك قتلت أمه .

خيم الصمت لدقائق بينهم ثم قال : يبدو أن منامي كان وهما كما قال الوزير وأمك عزوف زوجة اللص مناع .

ردت تسأل : هل يقبل الوزير عودتك ؟!

قال بقوة : سأكتب للملك نفسه .. سأخاطب حفيدي سيفا .

قالت : اكتب .. وأنا سأرسلها مع إحدى القوافل .

كتب الملك رسالة يستعطف حفيده بالسماح له بالعودة للبلاد لرغبته أن يدفن فيها حينما تحين

ساعته .. وكتب فيها أولا تهنئة بالملك والسلام .. ثم ذكر أن تعرض للتسمم مرتين في قصره وأنه يخشى على حياته .. وذكره بأنه جده رغم كل ما جرى بينه وبين أمه وجدته .. وذكر أنه ضعيف ويحتاج لرعاية وراحة .. وأنه يعيش في بؤس من الوحدة والعزلة .

لما قرأ سيف الرسالة بكى بعمق وحزن شديد لحال جده الذي ورث عرشه وهو حي .. ورق قلبه ونسي إساءته لأمه وجدته وله أيضا.. ونسي تهاونه في علاجها حتى ضعفت عن المقاومة وجاءها الأجل.. ونسي أنه سبب غربته وحياته بعيدا عن قومه ..نسي الحسرات وهو يقرأ الاستعطاف من جده الملك .

اطلع الوزير على الرسالة واستاء من تعرض الملك للتسمم ، ولم يكشف فاعل ذلك .. وبما أن صاحب الشأن الملك يرغب بالعفو والمسامحة .. وقد فعل ذلك مع خالته .. ويقال الأيام دواء الهموم والحزن والجروح .. وافق الوزير على رغبة الملك والسماح بعودة الملك المنفي وابنته سفانة إذا أحبت ذلك .. وأرسل رسالة وفارسا ليحقق في الجهة الغادرة التي تعرضت لتسميم الملك ووعد الوزير بتحسن الصداقة بين البلدين إذا تم الكشف عن الخائن .. وأرسلت الرسالة مع الفارس وغلامه وخادم سفانة .. توجه الخادم بالرسالة لما دخلوا البلاد إلى مولاته

وتوجه الفارس عبدان وغلامه إلى قصر الملك حميد لنقل رسالة الوزير .

ولما تسلمت الأميرة الرسالة ذهبت بها لوالدها بعد أن أخبرت زوجها بمجيء الرد ، ليخبر جده الملك ووالده .

قرأ زرارة الملك الرسالة ، وفرح فرحا شديدا ؛ كأنه طفل صغير وبكى فرحا .

فقال لابنته : أرأيت ابن أختك الكريم الشجاع رغم أنه لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره يقدم لي كل الاحترام والترحيب بالعودة لأرض الوطن والعيش بحرية كاملة .. لا يقبل أن يكون عدوا لجده الذي ورث عرشه .. وهو حي يرزق .. بطل ـ رحمك الله يا أمامة ـ نعم ، قصرت في حقك كان عليّ أن أقبل بالقدر وزواجها .

قالت : وأرسل الوزير فارسا ورسالة للملك حميد يطلب الأخبار حول حادثة التسمم التي

تعرضت لها .

قال : هناك فارس يطلب ذلك .

قالت : أجل يا أبي ! أنا سعيدة لسعادتك ، ولا تنسى سفانة لما تستقر في بلدك العظيم .

قال : أتحبين الرحيل معي ؟

قالت : لا ، لديّ طفلان يا أبي وحامل بالثالث .. أنا أم .

وبدأ الاستعداد لرحيل الملك عن بلاد الملك حميد ، وأوصى الملك حميدا على ابنته وحياتها وراحتها وذريتها ، وشكره على تعاطفه معه ، وتحمله كل هذه السنين وطمأنه الملك ، واعتذر عن كل تقصير حدث ، وأنهم ما زالوا يبحثون عن الخادم الذي أحضر الأعشاب الضارة للملك وهكذا كتب للوزير غالب مع الفارس عبدان الذي أرسله ، وأنهم لم يقبضوا على الخائن .

ولما تجهزت قافلة الملك للرحيل تقدم الأعيان والسادة لوداع الملك زرارة ، ورافقه الملك وابنته وزوجها شداد إلى أطراف المدينة ، وكان الملك يركب عربة ملكية خاصة من الملك حميد يجرها جوادان قويان ، ويصحبه ثلاثة فرسان غير خدمه وغلمانه وطاهيا يخدمهم طوال الطريق الذي يمتد لمسافة ثلاثة أيام بين المدينتين ؛ لأنه في كل مرحلة ستكون راحة وطعام ونوم .

ولما ابتعدت القافلة عن عيون المودعين رجع حميد وسفانة إلى قصورهم ومعايشهم يدعون للملك بالوصول سالما معافى .

فقال الأمير لزوجته : إن شاء الله يصل بالسلامة للوطن .. ويذهب خوفك وقلقك من الطريق الطريق مطروقة من القوافل والتجار ؛ ربما خفت القوافل بسبب انقطاع التجارة بيننا وبينكم ولا تكاد تخلو الطريق من عدد منها ذهابا وإيابا .. وإن شاء الله بعد وصول الملك تعود التجارة بيننا وبينهم .. اني أراك ما زلت حزينة !

قالت بخوف أصابها منذ استعد والدها للعودة لبلدة : أحس أنها ستكون آخر مرة أرى فيها أبي حيّا يا شداد .. رغم فرحه الشديد للعودة أخشى ألا يصل إليها .. قلبي منقبض من هذه العودة

قال مبددا لخوفها : سنسافر إليهم بين الفترة والأخرى بإذن ربي .

قالت : أرجو أن يصل سالما ؛ ليطمئن قلبي المحروق .

قال : أنت قلقة ؛ لأنك الوحيدة التي عشت معه كل هذه السنين هنا وهناك .. الوداع والفراق يترك أثره على النفس البشرية .. سيصل بالسلامة يا سفانة !

قالت : أرجو ذلك أخشى أن يموت قبل أن يصل لبلده المشتاق إليها .. ألم يسع أناس لقتله بالسم أيها الأمير ؟!

قال : هذا قلق طبيعي أيتها الأميرة .. علاقتك كانت به قوية دون سائر أخواتك .. وهو أحب أن يموت في بلاده .. والملك سيف تناسى كل الماضي.. وعندما نرى سعادة الوالد بين أهله سنذهب إليهم .. ونقابل الملكين وأمك الملكة عزوف ونتصالح معها .

قالت : لابد من ذلك .. أنا رحلت وأمي غاضبة عليّ ؛لأني لم أتزوج من أبناء العائلة .. كان نصيبي وقدري هنا أن أتزوج من الفارس الشجاع شداد بن عُمير .. أنا مسرورة لملك ابن أختي سيف ..أرجو أن تكون بانة قد سمعت بعودته ؛ لتعود والعيش مع أهل المدينة كأميرة بدل هذا الاغتراب .. وهي متزوجة من أمير من بلادنا .

قال : أرجو ذلك .

قالت : ولد الأمير وأخفي .. خافوا على حياته من غضب أبي ومنام أبي .. لقد كاد أن يجن أبي لما علم بولادة أمامة دون علمه وزواجها سرا .. كانت أياما عصيبة على أبي وأمي .. ولو وجده لبطش به من الغضب ؛ لكن الوزير أوسا ـ رحمه الله ـ كان مدركا لخطر بقائه في البلاد .. لقد خشينا نحن البنات على حياتنا تلك الأيام من غضب وعصبية الملك .. كان يصرخ ويتهم أمي بالخيانة .

قال : الأمر أيتها الأميرة لم يكن هينا .. فهو صعب على إنسان عادي فكيف على ملك ؟

قالت : لقد سعى والدي بحثا عنه .. وطلق أمي وطردها ؛ ليصل عن طريقها إليه وإلى بانة .. كان مناما بشعا .. وذاك الكاهن اللعين هول الأمر على أبي حتى أصبح يقينا أن المنام سيحدث ويقتل الجد بيد حفيده .

قال : كيف سيقتل الرجل جده بيده وهو سيرث الملك منه ؟!

قالت : لا يعقل ذلك إلا من حفيد حاقد مجرم .

قال : قد يحدث هذا في أيام فوضى وصراع على الحكم.

تنهدت حسرة وقالت : رحم الله أمك يا سيف !



القتل

مضت القافلة الملكية تقطع المسافات حتى دخل بعض الليل فتوقفت للراحة والطعام ، وعند منتصف الليل نام من نام ، وظل مستيقظا من لم يرغب في النوم .. وتناوب الفرسان الحرس على النوّم حتى الفجر ، وقبل بزوغ الشمس فكت الخيام ، وحملت على الدواب ، وركب الملك مركبته الملكية ، وانطلقت القافلة من جديد تجد في الوديان والسهول حتى دخل الليل كالليلة الماضية ، ونصبت الخيام للمبيت والطعام .

ونزل الملك وزوجتيه في الخيمة الملكية للراحة وانتظار العشاء، وبدأ الطاهي بإعداد طعام العشاء هو وزوجته والخدم .. ولما كمل قدم للملك والفرسان والجواري والغلمان .

وعند منتصف الليل ابتعدت زوجة الملك جاريته القديمة ، وجاريته الزوجة الثانية ، وبعض الغلمان والجواري لقضاء الحاجة في مكان بعيد عن الخيام ، وكانت بين أيديهم شعلة من النار ـ وكان قضاء الحاجة يتم في أبعد مكان عن الموقع وخلف التلال ـ وبينما هن يفعلن ذلك سمع صراخ في معسكر الملك وخيامه .. وسمعت أصوات خَيل تركض ، وغبار يرتفع في الفضاء .

فقال أحد الغلمان : أسمع صوت جياد ؛ لعلهم لصوص وقطاع طرق ..أبقوا هنا حتى أنظر الأمر ألزموا الصمت والحذر .

عاد الغلام جهة الخيام ، وشاهد الخيام تحترق ، والصراخ يرتفع أكثر فأدرك أن لصوصا داهموا المعسكر والقافلة ، فانبطح على الأرض خشية أن يروه ، ورأى على شعاع النار القتال بين الفرسان الثلاثة ، ورجال العصابة ؛ ولكنهم سقطوا موتى أو جرحى .. لقد كان اللصوص أكثر منهم ، وزحف للوراء حيث النساء ، وهمس لهم بالخطر الذي دهم القافلة ، وطالبهم بالصمت حتى يبتعد اللصوص وقطاع الطرق ؛ لينقذوا من كتبت له الحياة .. وكان يحدثهم عن معركة بين الفرسان واللصوص .. وأنهم سقطوا أرضا .. وسمعت أحدهم يقول : لقد طعنت يا فواز .. وآخر صاح : قطعت يميني يا جعفر ..لابد أنها أسماء لصوص أحفظوها ؛ لعلنا بعد انجلاء المعركة نعرف من خصومنا ؟!

لما خمدت النار عاد الغلام بلبل ومعه آخر نحو الخيام متسترين بالظلام .. وكانت بقايا النار تخبو رويدا رويدا .. وكانت هناك بعض أصوات أنين الجرحى .. وقد اختفى من ظل حيّا من اللصوص .. وقد سرقوا العربة الملكية والدواب التي لم تهرب .. وكان الجرحى عند طلوع الفجر في الرمق الأخير .... وكانا قد تابعا انسحاب الغزاة .. وقد تخلصوا من جرحاهم بالقتل دون شفقة .. ولما وصلوا الخيام وجدوا الفرسان قد ماتوا كلهم وتعرضوا لطعنات كثيرة حتى الموت .. والملك زرارة مقتولا .. وكان جثة بدون رأس .. وجاءت النسوة ورأين الفظاعة التي حلت بالملك والقافلة .. وجرى البكاء والعويل واللطم وشق الثياب .

فأدرك أحد الخدم الناجين أن كارثة وقعت ، وأن عليهم أن يعودوا لبلدهم مشيا على الأقدام وبينما هم في حيرة عادت إحدى الخيل الهاربة فاقترح الغلام أن ينطلق بها للبلاد طالبا العون والنجدة .

ومع ظهور الشمس ظهر حجم الكارثة التي حلت بهم .. فقد قتل الفرسان الثلاثة .. وسائق خَيل العربة .. وسرقت العربة .. وجل الخيام تعرضت للحرق .. ومات الجرحى ، ولم يبق حيا إلا من ذهب لقضاء الحاجة تلك الليلة .

فقال الخادم بلبل :هل أذهب لبلاد الملك سيف أم أعود للملك حميد ؟!

فقالت زوجة الملك : اذهب للملك سيف فهو صاحب الثأر اليوم .

لملم القوم ما بقي صالحا من قرب الماء ، وما بقي من الطعام ، وذهبت بعض الجواري لملء القرب الصالحة من عين الماء القريبة من منازلهم .

وكان الملك حميد قبل تحرك الملك بيومين قد أرسل رسولا للملك سيف مخبرا بموعد رحيل جده ؛ ليكونوا في استقباله كما جرت العادات والتقاليد .

ومضى الزمن ، ولم يصل الموكب الملكي.. فأمر الملك سيف بعض الفرسان في التقدم في الطريق لعل أمرا آخّرهم .. وبينما هم يمشون رأوْا الخادم .. ورآهم الخادم ، فلما علم أنهم من مدينة اللؤلؤ أخبرهم بالكارثة والنكبة التي حلت بهم فأمروه بمتابعة المسير للبلاد ورافقه

أحدهم .. وهم مشوا إلى المكان الذي ذكره لهم .. ودخل الرجل المدينة .. وهو بغير رداء .. وهو يصيح قتل الملك زرارة .. وتبعه الناس والعوام .. وكان صوت الضجيج وصل الديوان قبل دخول الخادم حتى وصل لديوان الحكم ..

وصاح وهو يظهر جبة ملطخة بالدماء : هذه جبة الملك زرارة أيها السادة! لقد قتل الملك زرارة غيلة وغدرا!

تجمهرت الناس حول الديوان ، وسمع الملك والوزير الخبر والنبأ الصاعق .

وتحدث الرجل بالقصة واللصوص وقطاع الطرق الذين هجموا على القافلة وقتلوا الملك ومن معه ، وما نجا إلا الذين كانوا في الخلاء تلك الساعة .

ولما علم الوزير بقطع رأس الملك قال : هذا ليس عمل لصوص .. هذا أمر مدبر أيها السادة الكرام !

وتحرك ألف فارس إلى مكان الاعتداء ، يرافقهم عدد من رجال الشرطة للنظر مكان الحادث ، ومعهم عدد من قصاص الأثر البارعين .

وانتشر خبر الجريمة في كل المدينة وقراها . وقال الملك سيف: فقط ثلاثة فرسان لحماية قافلة الملك أيها الوزير !

قال الوزير بأسف بين : كان علينا نحن أن نرسل فرسانا لحمايته .. هو عندما رحل منها كان يرافقه عدد قليل من الفرسان .. فهو لم يكن ملكا عندما غادر .. ولما عاد لم يكن ملكا ؛ فلذلك لم يظن أن حياته في خطر .. كان علينا أن ندرك أن حياته في خطر من قصة السم ؛ ولكن وقع في نفسي بعد عودة فارسنا عبدان أن الأمر من الملك حميد لدفع الملك بالعودة والرحيل .

قال الملك : ما العمل ؟!

قال الوزير : سنعرف الحقائق بعد العودة بجثة الملك.. ونسأل عن فواز المقتول وعن جعفر لمن يتبع هؤلاء ؟ وإذا استطعنا تحديد المدينة التي أتوا منها سندس بعض رجالنا والعيارين والشطار في تلك المدينة .. لن يذهب دم زرارة هدرا أيها الملك .. هذه مصيبة على كل أهل المدينة ..

وليست عليك وحدك هذه إهانة كبرى لعرشك وحكمنا .

ولما وصل الخبر لسفانة أصابها الجنون والصراخ حتى صعب على زوجها وحماتها تهدئتها .. وهي تشد شعرها وتولول وتحثو التراب على رأسها وتلطم خديها وتضرب رأسها بالجدار ، وتقول : ألم أقل لك يا شداد إني أحس أني لن أرى أبي بعد الوداع ؟! آه .. لقد انقبض قلبي وصدري تلك الساعة مع شده فرحي لعودته . شقت الثياب ولطمت الخدود من سفانة وجواريها ، وأبكت كل من أتى إليها من نساء السادة والأمراء .

وأصيب الملك حميد بصدمة شديدة ، وندم على عدم إرساله كتيبة لمرافقة الملك ، وما كان متوقعا لمتربص ما جرى ، وأعلن الحداد أربعين يوما في المدينة ، وما يتبعها من قرى وأرسل الفرسان لمكان الحادث .

وأقسم الملك سيف لما دخلت جثة جده المدينة أمام الشعب إنه لن يرتاح له بال ، ولا راحة حتى ينتقم لجده الملك زرارة ..وإن قلبه يغلي من النار .. وأمر أن تقام أعظم جنازة له في تاريخ مدينة اللؤلؤ وقال : ويا وَيل الذين غدروا به .. وسيبكون دما بدل هذه الدموع التي نقدمها للملك الراحل .

وأحضرت جثة الملك ودفنت في حفل كبير ، حضره كل الشعب والأصدقاء من الملوك والوزراء ، ودفن في مقبرة الملوك حيث آباؤه وأجداده .

وعم الحزن جميع الناس بسب هذه النهاية ، والكل يتسأل أين ذهب رأس الملك ومن أخذه من الناس ؟!

ومع الحزن الشديد الذي أصاب الناس كانت نار الانتقام والثأر والسخط تعم الناس ، ولما رجع المهتمون بتتبع الجريمة أكدوا أن الجريمة مدبرة ومحكمة ، ولم تكن عفوية ، وكانت قافلة الملك صغيرة ؛ ليطمع بها قطاع الطرق واللصوص وتبين أن الغزاة كان بعضهم يركب البعران ، ومن براز الدواب تبين أنهم أتوا من مدن قريبة من مكان الحادث ، ولم تحدد المدينة التي جاءت منها تلك الدواب ، وهم كانوا يعرفون بمغادرة الملك عائدا إلى بلاده .

فقال الوزير : سنتهم الملك حميدا حتى نجد أدلة تشير إلى غيره .

ـ ولكن رأسه يا مولاي !

قال : هو الذي سيدلنا على عدونا .. سنبحث عن الرأس.. لابد أن أحدهم طلب رأسه .. وإلا لو قطاع سبل لماذا يأخذون الرأس ؟! .. ولم يقطع إلا رأسه .. ناس تتعقبه .. والحكاية لابد أنها بدأت في بلاد حميد نعود للسم السم .. من وراء هذه الحادثة ؟ يجب أن نعرف المخاطر التي أحاطت بالملك وهو عندهم .

قال الملك : نعم ، لن أتزوج حتى أعرف فاعل هذه الجريمة أيها الكرام .. لا أحد يحدثني عن زواج الملك.



غضب سيف

كان الحدث صدمة قوية للملك سيف ، كان في شوق للقاء جده الملك بعد أن سمع قصة منامه وحرمانه بناته من الزواج خشية أن يلدن حفيدا يقتله ، فتزوجن رغما عن أنفه ، وكانت أمه بكر الملك تزوجت من أبيه لؤي ابن وزير البلاد خفية ، ولما ولدت علم بقصة زواجها ، ثم هربت خالته بانة ، وتبعتها خلود .. كان في شوق حقيقي للقاء الجد رغم الإساءة القاسية لأمه بإهمال علاجها ؛ ولكنها ابنته كما هي أمه .

فقال مخاطبا الوزير : لماذا جزوا رأسه أيها الوزير الحكيم ؟!

قال : هذا يدل يا مولاي أن أحد السادة يطلب دمه .. هل هناك ملك دفع لهذه العصبة من اللصوص لارتكاب الجريمة ؟ فالرأس يؤكد له تنفيذهم الجريمة والقتل .. وهو يريد بذلك إثارة الحرب بيننا وبين الملك حميد.. وهذا سيساعدنا بإذن الله على معرفة من هم من وراء الجريمة !

قال سيف : ألا يكون الملك حميد وراء ذلك ؟

قال : لا ، لا .. فهو صديق قديم .. صداقتنا منذ حياة والد جدك الملك نعيم .. وأنا أتهمه فقط بالتقصير في حماية الملك أو سوء تقدير ؛ لأن الملك تعرض للسم كرتين .. ولما أرسلت فارسا يتحقق من ذلك تبين أن أحد الخدم قدم بأعشاب سامة زاعما لهم أنها من طاهي القصر ـ قصر حميد ـ ويريد الملك أن يخص بها طعام نزيله وصديقه .. ومرض الملك على أثرها وتحدث مع ابنته وظن كما فهم الفارس أن الملك ظن أن حميدا وراء ذلك .. فقالت البنت خالتك لزوجها ، فأخبر جده الملك وقدم كبير الأطباء ، ورئيس الشرطة ، وعرفوا القصة .. والملك حميد حفيده تزوج خالتك سفانة فلا يقدم على اغتياله .. إنما العتب أنه كان عليه أن يرسل معه عددا كبيرا من الجند .. ونحن أيضا قصرنا في إرسال سرية لمرافقة الملك .. في النهاية نقول جاء الأجل .. فهناك من يريد أن ندخل مع مدينة حميد في صراع وقتال سيتكشف ذلك مع الأيام .. وتفحص رجالنا طعام دواب الغزاة ؛ ولعلهم يستطيعون معرفة المدينة أو المدن التي أتى منها القتلة .. لقد

أرسلنا رجالا لجلب بعران وروث من تلك المدن ؛ لعلنا بعد حين نستطيع تحديد المدينة المجرمة وسيكون ثأرنا شديدا ومدويا .. وسنركز بعد حين رجالا أذكياء للتلصص والتبصبص في المدن لعلهم يسمعون شيئا .. وهذا يحتاج لوقت حتى يثمر إلا إذا عرفنا الخصم سريعا باعتراف القاتل والجهر به .

قال : لن يهدأ لي بال أيها الوزير حتى أعلم قتلة جدي المسكين .. لابد من القصاص من كل هؤلاء القتلى .

قال غالب بعمق : هذا الاعتداء له أهداف ستتكشف قريبا ، لم يكن مجرد حظ عاثر .. حتى اللصوص لما يصدف ويلتقون بقافلة ملكية يتريثون في الجريمة ؛لأن عواقبها ستكون وخيمة عليهم أيها الملك .

قال : لابد من القصاص أيها الوزير .

أكد الوزير فقال : نعم لابد منه .. وسيعرف عيوننا وجواسيسنا وأصحاب الخبر من أين أتت اللصوص ؟ ولن نجر لمعركة مع الملك حميد .. فنحن لنا تاريخ طيب معهم ، ونساعدهم ضد الغزاة عليهم .. وابنتنا متزوجة لديهم ، وغيرها من نساء بلدنا متزوجات بينهم ، وكذلك بناتهم فلنا تاريخ مشترك منذ حياة والد جدك زرارة ؛ ولكني أشعرتهم بأنهم قصروا في حماية الملك .. وهناك تهاون واستخفاف في الحراسة ؛ ليساعدونا بقوة في البحث والتحري عن الخصم المجهول وسيذهب بعد حين قائد الشرطة وعدد من أفضل رجاله للبحث والنظر وسيهتمون بإثبات براءتهم من دم الملك .

قال : قواك الله أيها الوزير الحكيم ! نعم ، علينا أن نكون أقوياء .. وليستعد الجيش لأي غزو أو مطاردة .

قال : اطمئن أيها الملك ! الجيش متشوق لمعركة الثأر.. ونحن لا نقبل الذل مهما دفعنا من ثمن لكن الحكمة والحذر مطلوبان ، سنعرف الظالم حتى إذا حاربناه لا يبدو أمام الملوك مظلوما .. ويحرض الناس علينا .. سوف ترى بأس قومك وجندك أيها الملك الشجاع!

محاولة الصلح

أرسل الملك حميد وزيره بهلول بن فراس لبلاد سيف للعزاء مرة أخرى ـ فهم بعثوا القاضي الأكبر بوفد للمشاركة في التعزية العامة والدفن ـ وذهب الوزير للتعزية والاعتذار عن التقصير في حماية قافلة الملك لعدم توقعهم لمثل الأمر ، فقد قام الملك بأكثر من مرة بالخروج من المدينة لزيارة بعض الملوك والأصدقاء .

استقبل الوفد حسب الأصول والتقاليد ، وتقبل الملك سيف العزاء وقبل الاعتذار ، وطلب منهم التعاون في التحري والبحث عن الغزاة والقتلة للقصاص منهم سواء من بلدهم أو بلده أو أي بلد أخرى ، ووعدوا بكل تعاون واهتمام ، وأن الاعتداء على ضيفهم كأنه اعتداء على الملك حميد والمدينة كلها .

وقال الوزير للوزير : لم نكن نرى خطرا على حياته ، فلهم عدة سنوات بيننا ، وزار الملك حبيب ومكث عنده أياما دون حراسة مشددة ، ولم يكن ممنوعا من الحركة .. وهو صهرنا وجد أولاد الأمير شداد كما جد الملك سيف ، ولما رغب بالعودة إليكم فعل دون تشاور معنا ؛ إنما هو راسل حفيده الملك سيف ، وأعلمنا بموافقة الملك على العودة .. وليس من حقنا منعه

ردد الوزير : نعم ، ليس من حقكم منعه .

قال بهلول : وجرى لهم حفل وداع من أمراء وسادة البلاد ، وفيهم مولانا الملك ، ورافقه الملك وابنته وبعض الأمراء حتى أطراف المدينة ، ولما غاب عن الأنظار قفلنا راجعين .. وهو سار على طريق القوافل المعتاد بيننا وبينكم ، ولكن استغل القتلى خلو الطريق من كثرة القوافل .. فهذا يدل على أنه عمل مدبر ومرسوم .

فقال غالب : وهذا مؤكد لدينا من قطع رأسه ، لابد أنه أخذ لجهة ما ، وسيقوم رئيس الشرطة ورجال له بزيارة مدينتكم لمعرفة قصة تسمم الملك في محاولتين .. ولولا سرعة الأميرة بالشكوى للملك حميد ؛لربما كررت المهمة .

قال : نعم ، تحرى رئيس الشرطة في القضية ، وكشف عن وجود خادم قدم لهم أعشاب كهدية

من مطبخ الملك حميد ، ولم نصل لهذا الخادم فهو خادم مزور ؛ بل هناك كانت شكوك في زوجاته
قال غالب دهشة : زوجاته كيف ؟!
أخذ بهلول نفسا وشرح :كيف ؟ عندما ذهب الملك في زيارة للملك حبيب وقضى ضيفا عشرة أيام في عبسان ، عاد ومعه جواري وغلمان كهدايا ، ووزع بعضها علينا ، واتخذ واحدة منهن سرية ، فاحتجت زوجته ، فوعدها أن يعتقها بعد حين ، ولم يفعل .. فكانت تحدث منازعات بينهن .. وكما نعلم أن زوجته كانت جارية مخلصة ، فلما طلق الملكة عزوف تسرى بها ، ثم أعتقها وتزوجها .
قال غالب: نعم ، هذا معروف لنا ؛ ولكن هل يصل التنافس بينهن لقتل الملك بالسم ؟
قال : رئيس الشرطة راودته هذه الشكوك ؛ لكن لم يتم القبض على الغلام .
قال : الأمر مثير أيها الصديق ! لكن قتله بذلك العنف يخفي محاولة حقيقية لقتله بالسم .. وبعد معرفة الجناة ستتحسن العلاقات بين بلدينا كما ترغبون ؛ لأن الناس غضبى اليوم .. وستهدأ الأمور في مستقبل الزمن .
قال بهلول : سنتعاون معكم لأقصى طاقة لمعرفة الجناة .. ونرحب برئيس الشرطة في إجراء البحث والتحري .. فكما يهمكم القبض عليهم يهمنا ذلك ، فهو جد أبنائنا كما هو جد الملك سيف !
قال غالب : مع عودة سيف كملك وحفيد أحب أن يفتح صفحة جديدة مع جده وخالته ، وأن ينسى الأحقاد ويثبت لجده أنه لن يموت على يديه لما طلب هو منه العودة .. ويريد أن يتسامحا عن دم أمامة أم سيف وابنة الملك الشهيد .. كنّا نسعى للود والصفاء والحب مهما حدث .. فهن بنات الملك شئنا أم أبينا ؛ لكن أحوال زواجهن كانت غريبة كما تعلمون .
قال بهلول : نعم ، ذلك المنام اللعين !
واعترف غالب قائلا : نحن أيضا قصرنا في حماية الملك على أساس أنه رحل عنا غصبا عنا .. ورافقهم عشرة فرسان فقط عند رحيلهم .. ولأنه لم يكن ملكا ليخاف عليه من الغدر .. فقد

قضى سنوات معزولا قبل سفرة لبلادكم .. إنه القضاء والقدر يا وزير بهلول .

قال : نعم ، حكم القضاء والقدر .. ولن يفلت المتربصون بأذن الله من العقاب .

قال : ونحن لما وصل رسولكم بخروج الملك من دياركم أرسلنا مائة جندي للالتقاء بهم في الطريق ..وإنما ذهبوا لاستقبال الملك ، ومن معه وإلا لساروا مسرعين .

قال معتذرا : نحن لم نأخذ حادثة السم بصورة جدية أو قصرنا في فهمها ؛ لأنه في المحاولتين مرض المرض وتعب ، وعالجه الطبيب في الأولى على أنها وعكة عارضة لم يتحدث فيها عن السم ولما خف المرض عاد إليه .. فهو حدث الأميرة سفانة عن السم .. فأسرعنا بالتحرك ، وصادرنا الأعشاب السامة .. وهي بفضل الله لم يكن مفعول سمها سريعا ؛ لذلك في المرة الأولى ظن الطبيب أن الأمر مرض كما نمرض نحن من الأكل من الجو .

فقال الوزير معترفا : أحدهم يريد الفتنة بين بلدينا .. سيكشف نفسه بصمتنا في الوقت الحالي وسأهتم بأمر الزوجات .. فهن يعشن في قصر الملك الصغير ـ قصر زرارة حيث تقرر عزله ـ علينا أن نتعاون في كشف الخطر المحدق بِنَا وبكم .. وعليكم أن تعدوا جيشكم ؛ ربما تنشب حروب بسبب اغتيال الملك .. هناك تدبير أقوى من نساء الملك إلا إذا مكر بهن ، واستغل أحدهم ما نشب بينهن من غيرة فَلَو قتل الملك ومات بينكم ؛ ربما جرى نهر من الدم بيننا وبينكم قبل أن تكشف الغمة .. ولما فشل القتلة بقتله سما وعودة سيف والسماح لجده بالعودة غيروا الخطة والمكيدة .. لسنا أغبياء يا وزير بهلول .. نعم مكر وكيد ستكشفه الأيام القادمة سيكون غزو على بلادكم إني ألمح هذا التدبير !

قال بهلول دهشا من تنبؤات غالب : غزو على بلادنا ..لم أفهم وكيف؟!

قال وكأنه ينظر في كتاب الغد : لن يكون قتل زرارة مجرد قتل واغتيال ملك ! كونوا على حذر

ـ إنك تثير الرعب في قلبي !

قال : نعم ، هناك عدو يريد قتل زرارة في بلدكم فَلَو مات زرارة بينكم ستتهمكم بقتله ، وسيطالب أقاربه والشعب بالثأر منكم ؛ ربما دارت بيننا معارك ، ثم توقفت .. فسيقوم قتلة

زرارة بغزوكم بعد أن أضعفت الحرب جيشكم وجيشنا علينا أن نعرف من وراء القتل والاغتيال الجبان .

قال : أفكارك غريبة أيها الوزير الحكيم !

تمهل سيادة الوزير في الإجابة ثم قال : أنا منذ سماع نبأ الجريمة وأنا أدرس وأفكر في ذلك .. ولماذا قتل ؟ ولماذا سمم ؟ نحن نريد رأس الملك حتى يدفن مع جثته أيها الصديق ! عندما تعود للبلاد تحدث مع قائد الجيش بالحذر والاستعداد ، وإذا احتاج الأمر لجنود سنرسل لكم ألف جندي .

قال بحيرة : ما زلت لا أدري كيف تفكر أيها الصديق ؟!

قال غالب : ستعرف كيف أفكر عندما ترى الأمر على الأرض ؟

قال الآخر مؤكدا التعاون : سنكون معكم في البحث عن الجناة .. وسأوصي قائد الجيش الأمير أبي يزيد بزيادة الحذر لحين من الزمن .. وسنرحب بفريق البحث الذي سيصل من مدينتكم ؛ لأنه كما سلف يهمنا معرفة الغزاة والقتلة ، ومن دفعهم لهذه الجريمة العميقة على ما يبدو من كلامكم العظيم والتفكير العميق ؟!

قال : لن ننجر لحرب معكم .. فنحن بيننا نسب وحسب .. فالملكة سفانة نزيلة عندكم .. وهي أثنت على كرمكم وشجاعتكم كما كتبت لي ولسيف ابن أختها وأنكم بريئون من دم الملك .

قال بهلول : حتى حرس القصر الخاص بزرارة الملك كان عددا بسيطا ؛ لعلك تذكر الكاهن اللعين غياثا .. لقد جاء للحياة مع الملك ، وصمم زرارة على ذلك .. وحبسه ملكنا .. وغضب زرارة ، وكتب إليكم يريد العودة أو نفرج عنه ورفضت تلك الأيام عودته .. واحتار ملكنا .. ثم هرب اللعين من السجن كما هرب من سجنكم .. فهدأت الأمور حتى ظهر الملك سيف فرغب الملك بها تعلم .

قال : نحن نعرف ذلك الكاهن الشرير حق المعرفة ، والملك الشهيد متعلق به أو تعود عليه عندما كان ملكا هنا .. فصعب عليه فراقه .. وذاك رجل خبيث يستغل عاطفة الملك نحوه.. ألم

تعرفوا أين ذهب ؟

قال :لا ، رشا بعض المساجين والحراس ، وتعاونوا على الهرب ، وعلمنا أنهم خرجوا من المدينة فور هرّبهم ، ولم نعد نسمع عنه ، ولم يحاول العودة للملك ؛ لأنه أصبح طريدا ..كان الملك الشهيد يرسل له الطعام إلى السجن ، وطلق ابنته ليفرج عنه الملك ، ولما هرب حلت المشاكل هدأ زرارة ، وعادت الأميرة لزوجها .

قال : وهربه أيضا أراحنا من عودة زرارة .

قال : وبعد هربه خففنا من حرس القصر حتى لا يضيق زرارة من ذلك .

ولما أراد الوفد الانصراف، ودعوا الملك سيفا ، ووعدهم بتحسن العلاقات عندما ينجلي أمر اغتيال جده زرارة .

شكر بهلول الملك :شكرًا يا سيدي الملك على ضيافتكم وحسن استقبالكم لنا كل هذه الأيام ! ونتمنى مثلكم القبض على عصابة المجرمين، وأن نعرف من دفعهم وحرضهم على ارتكاب هذه الجريمة النكراء ؟ إنه أمر دبر بليل ، وسيكشفه الله ؛ لينال المجرم جزاءه وعقابه .. نعم أبشركم أن دم جدكم لن يذهب هدرا ما دمتم تجلسون على هذا العرش.

الوفد

كان لزيارة الوزير بهلول صدى طيب في بلاد اللؤلؤ ، وعلى أثر هذه الزيارة وبعد انتهاء مدة الحداد الملكي الأربعين يوما ، أرسل الوزير غالب وفدا كبيرا وسرية من الفرسان رافقتها لبلاد جلال الدين ، وكان الوفد برئاسة الملك مرارة الذي تنازل عن العرش لحفيد أخيه زرارة حسب القانون والنظام في بلاد اللؤلؤ .

وكان الملك حميد ورجال الحكم في الاستقبال ، وجلسوا جميعهم على مائدة الملك ، وبعد الراحة تذاكر الكبار ذكريات الماضي والصداقة الكبيرة التي كانت تجمع بين البلدين ، ثم تحدثوا عن حياة زرارة في بلدهم ومقتله وسعيهم في كشف غموض الجريمة .

وزار الملك مرارة ابنة شقيقه زرارة في بيتها وعزاها في والدها ، وكان قد طلب منها أن تنتظره في قصرها ، ولا تأت للسلام عليه ، وسيقوم بزيارتها بنفسه ، وبكت الأميرة بين يديه ، وواساها ، وندمت على رحيلها عن بلادها ، فبين لها أن هذا قدر الله ، ولا مفر منه ، لو لم ترحل سيحدث القضاء ، ويقتل الملك ، وأن المهم الوصول للجناة الذين هم وراء هذا الظلم الغاشم .

وزار الوفد القصر والبيت الذي عاش فيه زرارة سنوات الغربة والنفي ، وكان المكان مهجورا إلا من بعض الحرس .

وأعلن الملك حميد أمام الوفد براءته من دم الشهيد زرارة ، ولا يمكن أن يفكر بالخلاص من صديقه بهذه الطريقة العنيفة ، وأن أناسا أرادوا الفتنة والحرب بين البلدين ، ولم ينجح كيدهم لوعي الطرفين للمؤامرة ، وأنه قبل مجيئه من باب الصداقة التي كانت بينهم والذكريات التاريخية والرجاء والتوسل الذي كتبه الملك ، وأطلعهم على رسائله إليه ، وأنه هو الذي طلب الحياة في ضيافته ، وأن الأزمة التي حدثت بسبب الكاهن انتهت بهرب الكاهن الذي كان يسعى للفساد بينهم ، وإقناع الملك بغزو بلاده بالتحالف مع أحد الملك المغامرين ، ويقاسمه العرش ، واهتم الوفد بهذا الكلام الجديد على مسامعهم ، وأخذ زرارة هذا الكلام من باب الهزار ، ورفع الروح النفسية للملك .

ولما رحل الملك لم يطلب المزيد من الحرس للحماية ، كان متلهفا لرؤية حفيده أكثر من شوقه للعودة نفسها ، وكان يذكر من أسفه في حق ابنته أمامة ، وأنه قصر بعدم تزويجها كما تتزوج بنات الملوك ، وأنه قصر في رعايتها الطبية ؛ فكان مشتاقا لرؤية الحفيد ، وطلب السماح منه في حقه ، وحق أمه .. هذا من آخر ما كان يتكلم به .. وجرى له حفل وداع في قصره ، وودع إلى أطراف المدينة .

واعترف الملك أن الرجل تعرض للسم مرتين في الأكل، وقد قدم للطهاة عشبا ساما على أنه هدية من طباخين القصر الملكي ، ثم تبين لهم أن الخادم الذي أعطاهم العشب مجهولا ومتنكرا وبعد شهر أو أكثر قدمت حلوى على أنها هدية من ابنته سفانة .. وكانت الأميرة تفعل دلك بين الحين والآخر .. وكانت تذهب بها بنفسها إلا تلك المرة مما أدهش الحرس ورفضوا إدخالها للملك ، وكانت جارية قدمتها لهم على أنها من خادمات الأميرة ، وذكرت أن الأميرة كانت تريد أن تأتي بها ، وحدث أمر منعها من المجيء، وتبين أن الحلوى مسمومة ؛ لأننا قررنا عدم إدخال أي شيء على القصر إلا بموافقة الطبيب وإشرافه ، وتبين أنها دسيسة ، ولم نعرف من وراء هذه الحلوى أيها الأخ العزيز ، ثم لم يتكرر الأمر بعد ذلك حتى جاء موعد قبول عودته إليكم بعد تنصيب حفيده ملكا على البلاد .

شكر الملك مرارة الملك حميدا على ضيافة شقيقه كل هذه السنوات وقال : ونحن لم نرغب بمنعه من تحقيق رغبته بالخروج لبلادكم ؛ لأنه عندنا إذا عزل الملك لأسباب معينة كما حدث لشقيقي عليه أن يبقى محبوسا في قصره .. وأي زيارة له تكون تحت علم الوزير والدولة خشبة المفسدين والمتربصين .

قال حميد : كان الملك أثناء وجوده يحب الشعراء ..فكن نرسل بعضهم لفعل ذلك .. وكان له الحرية في الذهاب والحركة ، لم نحب أن نحبسه ؛ لأننا لم نكن نعتقد أن أحدا يفكر بقتله وموته وهذه الأحداث كلها جاءت مع مجيء صديقه غياث اللعين .

قال : لقد جاء معي رئيس الشرطة الخفية القائد عسكر ، وبعض رجاله لتسمح لهم بالحديث

مع من يحبون ممن قاموا على حراسته وخدمته .. أيمكن أن يكون أحد الشعراء الذين يرتادون قصره جاسوسا لأحد ؟!

قال : الشعراء جلهم من بلدنا ؛ لكن قد يضيفنا شاعر من مدن أخرى فيرافق شعراءنا إلى مجالس الملك .

وعرف مرارة الملك على أحد الرجال من أعوان عسكر ؛ ليقوم بالتحقيق مع من كان قريبا من قصر الملك .

رحب الملك بذلك وقال : وسيكون معه الأمير شداد ويبذل كل التعاون .. فزرارة صديق عزيز على نفسي .. ومناي أن أشهد قتلته يقتلون أشد العذاب والقتل .

قال : بوركت أيها الملك الصديق !

وافق الملك حميد على التعاون الكامل في تعقب قتلة الملك ، واجتمع قادة الحماية السرية وأصحاب الخفية لتبادل الأنباء المتوفرة لدى كل فريق ، ثم رتب القائد عسكر بن ظافر عيونه في المدينة ، ورجع لبلاده واثقا من قدرة رجاله على التعسعس والتلصص ، وأطلع الوزير على ما فعل .

وقال بعدئذ : رغم تكرار محاولات الاغتيال بالسم لم يتابع رجال الخفية لديهم القضية .. كان هناك من يتربص بالملك بحياته .. تأكدت أن ذلك لم يفعل لإرغام الملك على الرحيل ..كان الملك مقدرا بقاءه حسب الاتفاق بينكم وبينه .. ولما علم الجاسوس أن الملك سيعود لبلاده رتب أمر الاعتداء على القافلة ليبدو الأمر أن لصوصا استولوا على القافلة ؛ ولكنه أخطا بطلب الرأس ، وظن أن النار والحريق ستخفيان قطع الرأس ؛ ربما طلبه من القتلة ليتأكد من تنفيذ الخطة .. وأنهم قتلوا الملك.. هو يقصد الملك ؛ لأن باقي الأشخاص خدم وحراس .. فنحن نبحث عن شخص كان يكثر التردد على مجلس شعر الملك .. عن شخص غريب كضيف على أحد الشعراء الذين أمرهم الملك حميد بزيارة الملك وإلقاء القصيد أمامه .. وأعتقد أن لمدينة حمصان علاقة بالجريمة ، وأرسلت إليها عشرة جواسيس ؛ لأن بعض شعرائها زاروا الملك

بصحبة شاعرين من بلاد حميد .. وتردد عليه بعض تجار بلدنا في الأيام الأولى لرحيله .. وبعد زواج سفانة انقطعوا عن مجلسه .. وزاره تجار من تلك المدينة .. وكان يوصيهم على ألبسة معينه لإهدائها للشعراء والأصدقاء ..ويقوي هذا الشك هرب غياث ومن ساعده على الهرب إليها وكذلك أعداء حميد يلجئون إليها .. ولا تنسى العداوة المتأصلة بين المدينتين .

وتابع بيانه : وعلمت أن علاقات مدينة حميد مع تلك البلاد والمدينة حمصان ضعيفة بسبب الماضي السيء بين البلدين ولهروب عدد من مساجين حميد إليها .. ورفضوا التعاون معهم في البحث عنهم وإعادتهم .. وهناك تحرشات بين رعاة البلدين على المراعي المشتركة .. والصلح بينهم هش .. ممكن أن يحدث بينهم في أي وقت حرب خاصة بعد اعتلاء عرش البلاد ملك جديد منذ سبع سنوات .. وأرسلت عيونا لي إلى قصره ، وتلقط أخباره ومغامراته .

قال الوزير بعد سماع تحليل القائد : المهم أن مدينة حميد بريئون من دم الملك .

قال : إنهم بريئون ؛ ولكنهم لم يتابعوا قصة السم الذي تعرض له الملك .. واكتفوا بمنع دخول أي مادة دون مراقبة .. وهذا إجراء احترازي جيد على الحكمة التي تقول درهم وقاية خير من قنطار علاج .

قال :وحكاية الكاهن اللعين غياث .

قال : هذا ـ كما نعلم ـ حبسه الملك حميد ؛ لأنه كان يحرض الملك على الاتفاق مع أحد الملوك على أن يقاسمه العرش ؛ ليعود إلى العرش ، ولم يعرف أي ملك سيتفق معه .. نقلت الأميرة سفانة هذا الكلام لزوجها ، وقاله للملك ، فاجتمع الملك معه ، وحذره من الدسائس لبلاده ، وألا يستمع للكاهن ، وغضب الملك من حميد .. ولما رجع الكاهن للمكث مع زرارة حبسه حميد ، وأراد تسليمه لنا ؛ ولكن زرارة جن جنونه ، وأجبر ابنته على الطلاق ، وأرسل إلينا يطلب العودة ، ورفضنا كما تذكر ، ولما هرب غياث من السجن كما هرب من عندنا عادت الأمور إلى الهدوء والسلام ؛ ولكنهم علموا أنه التقى به عندما زار زرارة مدينة الملك حبيب .. ولما رجع ، لم يلتقيا كما أخبر الحرس بالقصر الملكي .

قال الوزير بحسم : هذا الكاهن الشيطان أريد أسره يا ابن ظفار قد نجد لديه أسرارا وأنباء .

قال : هل يشكل خطرا على الملك سيف ؟

قال : قد نجد عنده معلومات فحسب.. هو إنسان في هيئة شيطان ، كان زرارة مهووسا به ، ويسمع كلامه ..كان شقيقي أوس يرغب بسفك دمه بسبب منعه الملك من تزويج بناته ، وليبعده عن الملك ولو بالموت ؛ ولكنه يخشى من تعلق الملك به فيموت أو أن يجعله شهيدا .

قال : هل من فكرة لديك للوصول إليه ؟

تبسم الوزير ورد : أنت رجل الأفكار والحيل يا ابن ظفار .. قد يكون ميتا.

قال : ممكن ! هذا الرجل لم نسمع أنه تعرف على ملك أو وزير لنقول إنه يعمل معه .. قد تلد حيلة في ذهني وفكري ودماغي .. سأضعه في تفكيري أيها الوزير ..علينا أن نصطاده قد نعرف مع من كان يحاول إقناع الملك بقسمة الملك والتاج .

قال : أجل عليك باصطياده ..استعن باللصوص في البحث عن قتلة الملك .. فهؤلاء اللصوص تجد لديهم قصصا وحكايات أغرب من الخيال ، ولهم صداقات مع لصوص المدن الأخرى .

قال : سأفعل سأدس بينهم عددا من أعواني على أنهم لصوص من مدن أخرى

قال غالب : نحن نثق بذكائك أيها الشجاع!

قال بحماس : سأكون عند حسن ظنك ـ إن شاء الله تعالى ـ وكما صدقت الهمة مع شقيقك سأصدقها معك .

قال :لقد أثنى عليك شقيقي أوس أكبر الثناء .. وقال أنت رجل المهام العظيمة والغايات الكبيرة .

ترحم على الوزير أوس فقال : رحمه الله كان سيدا عظيما ومخلصا للبلاد والعباد ؛ لعلي أتحرك بنفسي أيها الوزير الشجاع ، لابد من معرفة قتلة الملك ، ومعرفة الغاية من القتل .

قال : الغاية كما رجحنا لإثارة الفتنة بيننا وبين الملك حميد ، وذهبنا للحذر وعدم التسرع في الاتهام والحكم حتى تخيب غايتهم ويفضحون أنفسهم .

قال : هذا يثبت مع الأيام .. بعض المدن تعيش على الحروب والصراعات والمعارك .. لا يحبون السلام .. حياتهم المكر والدسيسة بين الأمراء والمدن .

قال : نحن بعيدون عن تلك المدينة خاصة مدينة حمصان ، هم يطمعون بضم مملكة حميد إليهم لحياة بعض عائلته عندهم لأحداث قديمة طردوا من أجلها من بلدهم.

قال عسكر: صحيح ! علينا إثبات يدهم في الجريمة .. فهم لولا تعاوننا مع مدينة حميد ومعرفتهم لشدة بأسنا لتحركوا إليهم .. هم يعلمون أننا في لحظة ما سنقف معهم ، ولن نتخلى عنهم .. وأيضا علاقتهم سيئة مع مدن أخرى قريبة منهم ؛ لذلك أرسلت عددا من رجالنا إلى تلك المدينة أكثر من مائة عين يعملون هناك .. سيعود رأس زرارة بإذن الله . . وأنا تحدثت مع قائد الجيش عن غزوهم إذا ثبت لدينا شيء .. وعلى الجيش أن يكون مستعدا للغزو ، وللمحافظة على المدينة من أي غزو .

قال مشجعا ومهيجا : هذا يومك يا ابن ظفار الهمام .. الملك الشاب يريد منا الكثير .. فهذه أول قضية في ملكه وحكمه .. كان مشتاقا لرؤية جده الذي حرم أمه من الحياة ، وحرمه من العيش في هذا الوطن .

قال : قدر الله أيها الوزير ألا يرى جده إلا ميتا!



طلاق سفانة

منذ موت الملك لم تعد سفانة لطبيعتها ، كانت حزينة كثيرة البكاء تقول : إنها هي التي سببت قتل والدها ، لا تخرج من البيت لزيارة لأمر ما ، حتى أنها لم تعد تهتم بأطفالها مراقبة ولعبا ، تركت كل ذلك للخدم ،لم تعد تمكن زوجها من نفسها ترفض أي معاشرة زوجية ، صبر على ذلك الأمير شداد ستة شهور ، ثم أخذ يطلب حقه كزوج .

بين لها وذكرها أن الموت سنة الله في خلقه ، وكل مخلوق لابد من موته ، وأن الحزن لا يجب أن يدوم ، وعلى الحياة أن تستمر ، ولكنها مصرة على الحزن ، وجعلت نفسها أنها السبب في موت والدها ، وسعت أمه لرفع الحزن عنها دون فائدة ، واستمرت في عزلتها . فقال لها الأمير : الأمر لا يُطاق أيتها الأميرة كل الناس تحزن وتبتلى وتموت .

نظرت إليه بسخط وصرخت : إنه أبي ! أبي الملك يموت هكذا !

قال : كله موت. .أهل الشر كثر كما هم أهل الخير كثر انتهى الأجل.

صاحت : أبي أبي المسالم يموت قتلا وتجز رأسه كجدي !

أجابها : أهل الغدر لا ينتهون .

قالت : ماذا تريد مني ؟! ألا تريدني أن أبكي أبي المقتول ظلما وخيانة ؟!

قال :قلت احزني . .كلنا يحزن ونبكي ؛ لكن لكل شيء أمد يقف عنده .

قللت متحدية : سأبقى حزينة حتى أموت حتى أموت .. اعتبرني ميتة !

قال : والأولاد يشكون منك .. تصرخين في وجوههم .

قالت بحنق : اسمع أيها الأمير .. أنا لم أعد أصلح زوجة ، ولا أما .. الحزن يغمرني الحزن يقتلني الندم يذهب بعقلي .

قال مستغربا : وما ذنبك أنت؟! اعقلي أيتها الأميرة .. الحياة أقوى من الموت والحزن ..لو كل إنسان يفقد عزيز تتوقف حياته لخربت الدنيا وإعمارها .. صبرت على حزنك ؛ ولكنه طال والنَّاس تتحدث بذلك .. الموت حدث يومي .

رددت : الملك ليس ككل الناس .. أبي العظيم يموت قتلا !.. ويقطع رأسه أين رأسه يا شداد ؟! ستة شهر انقضت والرأس لا يعلم أين هو ؟ أين الرجال ؟ أين الفرسان؟ أبي يذبح كالخراف في حظيرة الجزار !

قال بصوت منخفض : أهلنا وأهلك يبحثون عن الرأس والقتلة .

قالت : ستة شهور مضت دون خبر أي بحث يحدث ؟!

قال : لم يكشف أحد ممن حولنا عن جريمته ..الأمر يأخذ وقتا ..أتريدين أن أتزوج عليك؟ أنا أريد زوجة في بيتي .

ـ وزوجاتك !

قال : منذ تزوجتك هجرتهن .. وأنت تعلمين ذلك فكيف أرجع إليهن بعد هذه السنوات ؟!

قالت : وأنا لم تعد لي رغبة بالرجال .

قال : أتقصدين الطلاق ؟!

قالت : إذا كان هو الحل فأنا راضية به .

قال : أتسمحين لي بالزواج عليك ؟

صاحت وهي تضرب رأسها ضجرا : تزوج يا شداد .. والأفضل طلقني ؛ لأنني سأعيش بقية العمر في بكاء على أبي ..لا أحد حزن عليه مثلي ..كلهم يكرهونه .

خيم على الجو الصمت لبعض الوقت وكانا ينظران في عيني بعضهما ثم قال شداد : أطلقك وتعشين مع الأبناء معززة مكرمة !

صاحت بنبرة غاضبة : ولماذا أعيش هنا ؟! فبلادي مفتوحة لي .. والملك فيها ابن أختي .. وأنا خالة الملك يا سيادة الأمير !

ـ وأولادك !

صاحت بصوت أعلى من الأول : لا أريدهم .. فليبقوا عندك .. عند أمك برقوقة .. سأعود لبلادي ، لم يعد لي رغبة بالعيش في بلادكم بعد أن خسرت أبي .

قال بضيق : إنه كان راحل عنا يا سفانة .. ونحن لم نقتله أو نتآمر على حياته .. هو أحب العيش معنا .. سأتحدث مع أبي وجدي بأمرك .

قالت : تحدث مع من شئت ..لم أعد أصلح زوجة لك يا شداد .. ولا حتى أما .. ستبقى بيننا الذكريات الحسنة .. عندما يعود رأس أبي ويقتل قتلته .. قد أكف عن الحزن والبكاء.

قال بعطف وأمل : لقد أحببتك ! .. قالت : وأنا أحببتك !.. قال : ولقد ولدت لي .

قالت : سأتركهم لك مكرهة يا شداد ! كان أبي كل حياتي .. تعلقت به منذ خلع عن الحكم كم بكيت يومئذ من أجله ! . .لم نكن نراه كثيرا يا شداد أثناء حكمه وسلطته .

قال : تعلقك بأبيك مضرب المثل يا سفانة ! وتخليك عن العرش يدل على ذلك .. وهو معروف للناس .. وكلنا استغرب ذاك الحب منك لما علمناه من حرمانكن من النكاح !

قالت : لذلك لم أعد أصلح أما وزوجة .. أحببت أمي ؛ ولكنها خذلتنا وتزوجت لصا ، فذهب حبها من قلبي وروحي .

قال مدافعا عن أمها :لقد تاب ذلك الرجل قبل أن يلتقي أمك بعشرات السنين .. وأنجب لك أخا .. وهو قريب أمك .. لم يكن شيطانا يا سفانة ! أمك امرأة شجاعة .. ولولا شجاعتها ما جاء الملك سيف !

قالت : إنك تدافع عنها كأنها تعرفها !

قال : التقيت بها عندما ذهبنا لدفن والدك ـ رحمه الله ـ وتحدثت عنها أختك بانة مرة بتقدير عظيم عندما باتت عندنا .. وحدثتني عن شجاعتها في تزويج أمامة من ابن الوزير .

قالت : بانة تحب أمي أكثر مني وأمي شجعتها على الزواج من فتاها كساب قبل أن يطلقها أبي

قال : مصرة على الفراق !

قالت : لست مصرة ؛ لكن لم أعد أصلح زوجة ..وأهلي أولى بي .

ـ وأولادك !

قالت : لم أعد متعلقة بهم ..لن يطيب لي عيش قبل رؤية قتلته هلكى .

عودة سفانة

لما عجز الملك حميد وولده عمير وزوجته برقوقة من الإصلاح بين الأميرين ، وأمام رغبة الأميرة الصارمة للفراق للعودة لبلادها تحقق الطلاق الشرعي ، وأرسلت إلى مدينتها اللؤلؤ بحراسة مشددة ، ومن ضمنهم بعض رجال عسكر وعيونه .

استقبلت في قصر الملك سيف ، والتقى بخالته سفانة ، وتناولت العشاء على مائدته ، وكان قد عزاها بوالدها فور لقائهما ، وهي عزته بجده وأمه ، وسمعت منه عن الجهود التي تبذل للقصاص من القتلة ، وسمعت عن الهدف من مقتله لأثارة الحرب بين المدينتين ؛ ولكنهم أفشلوا هذا المكر ، وأن رجال الوزير يبحثون في كل المدن عن قاتل الملك .

وتمنت له السعادة ودوام العافية والانتصار على أعدائه ، وأن يدوم ملكه .

وفي الصباح التالي قدمت الملكة عزوف للسلام عليها وتعزيتها بأبيها ، وكان بينهما عناق وبكاء وأخبرت أمها أنها قامت بزيارة قبر والدها منذ ساعات الفجر الأولى ، وستفعل ذلك كل صباح وقالت بعد ذلك : قتل أبي يا أمي ! مات قتلا !

قالت عزوف : رحمه الله ما كان له أن يترك مدينته وأهله وعشيرته وجنده .. كان عليك يا سفانة أن تمنعيه من النفي ..كان يحبك كثيرا في الزمن الأخير !

قالت : لا أستطيع يا أمي ..كان يحسّ أنه محبوس سجين معتقل .. كان في عزلة .. ولا أحد يدخل عليه إلا بأذن الوزير حتى أنا !

قالت عزوف : هذه سنة الملوك إذا خلعوا عن العرش .. وقد أساء للأسرة كلها .. ومنعكن من الزواج ، وأنتن بنات الملك .. أيفعل ذلك ملك ؟ ! حتى لو كانت إحداهن عاهة ومريضة عليه أن يزوجها .. ولو لم يخف الوليد تلك الأيام ؛ لقضى عليه كما قضى على أمه .

قالت مبررة : إنه ملك يا أمي ! كيف يرضى ويستسلم لزواج ابنته خفية ؟ !وأن تلد سرا هذا أمر عير مقبول ولا معقول !

قالت : كنت صغيرة لا تعرفين معنى الزواج .. ابنة الملك الكبرى تكبر ، ولم تصبح زوجة ولا

أما.. هذا صعب على البنت وعلى أم البنت وأقارب البنت .. وكبرت بانة وخلود وأبوك صامت يعيش في منام رآه وظنه حقيقة خشية أن يولد حفيد ذكر يموت على يده .. ها هو قتل قبل أن يرى حفيدا شابا .

قالت : بعضهم يرى أن ما حدث لأبي هو تفسير المنام ..لولا شوقه ولهفته لرؤية الحفيد ما قتل

قالت عزوف : كنت تريدين أن يرفض سيف الترحيب به .. هو كان يرى أن موته بيد حفيده والملك سيف لا دخل له في موته .. وهذه مقالة جنونية وإجرامية لا يجب أن تقال أمام الملك .. سيف إنسان رحب بمقدمته ، ولم يغضب منه ويرفض مجيئه مع الإساءة له قبل أن يولد وموت أمه بتهاون الملك بعلاجها .

قالت سفانة : إنك تُحبين الملك !

قالت الأم : ويحك ! أليس هو ابن ابنتي البكر أمامة ؟ ـ رحمها الله ـ لقد حرمت من أن ترى ابنها ملكا وسيدا .. أين أولادك؟

قالت : تخليت عنهم .. لا وقت عندي بعد موت أبي للعناية بهم وبزوجي .. كرهت معاشرة زوجي .. لم أعد أصلح أما ولا زوجة .. سأقضي دَهري بالحزن والبكاء على أبي .

دهشت عزوف من أفكار ابنتها : ويحك ! كلنا نحزن ونبكي.. وبكينا زرارة .. بكيته أكثر من زوجي الثاني مع ما فعله بي وبأهلي .

قالت : لقد خذلتيه يا أمي!

فقالت أمها : هو الذي طلقني ، ثم نفاني ؛ليصيد بي ابنته بانة وزوجها ؛ليقتلهما كما فعل بأم الملك سيف .. لقد علمنا على ذكرها أنها زارتك .

قالت : إنها تسكن في مدينة قريبة من مدينة زوجي شداد .. وهي تعيش بسعادة وسكينة .. وقد خلعت لقب أميرة ، وتعيش كعامة الناس .. وزوجها لم أره .

قالت الأم : جاءت البلاد أختك خلود ، وصفح عنها الملك ، ثم عادت لبلادها نجوان .. تزوجت أحد التجار .. وأنا بعد موت زوجي وترملي ـ كما تعلمين ـ سمح لي الملك مرارة

بالعودة والعيش مع أهلي .. وها هو أخوك يكبر ويتدرب مع الجيش وفرسانه .

صاحت محتجة : أخي أخي ابن اللص !لا أعترف به أخا .

غضبت عزوف جدا ، وبصقت في وجه ابنتها ، وغادرت قصر الملك غاضبة ، وهي التي كانت تفكر بأن تحضر ولدها للسلام عليها .

ولما علم الملك بهذا الحادثة استاء من فعل خالته ؛ ولكنه لزم الصمت . ونزلت الأميرة بعد أيام قصر والدها زرارة ؛ حيث كان معزولا فيه قبل النفي . وجاءت خلود لزيارة أمها والملك ، ولما علمت بوجود شقيقتها زارتها ، ورحبت بها ، وعاتبتها على تصرفها الخشن مع أمها ، وقالت : هذا تصرف أخرق ! هو أخونا شئنا أم أبينا .. وأبي طلق أمنا ومن حقها أن تتزوج ممن تشاء.

قالت : أليس هو ابن لص ؟

رفضت خلود هذا القول وقالت : ليس ابن لص .. أبوه لما تزوج أمي كان شريفا وسيدا يملك مزرعة كبيرة .. وهو قريب لنا .. وما زالت غلة مزرعته تنفق على أمي وأخي .. وكلنا حزنّا على الملك .. ونحب أن نرى قتلته يعرفون ويقتلون .. ولكنك حمقاء تتركين زوجك وأولادك باسم الحزن ! وماذا سيفعل استمرار الحزن والعويل والنوح ؟ هل سيعود الأب من موته ؟ أنت تكرهين أمك .. كلنا يدرك هذا !

قالت مصطنعة الهدوء : كيف أحبها وقد تزوجت لصا ؟وولدت ابن لص؛ ليكون أخا لنا .

أمر الملك سيف ـ كما ذكرنا ـ أن تعيش سفانة بقصر الملك الصغير حيث عزل ، وقبلت الأميرة بذلك ، وأدركت أن الملك يأخذ عليها إغضابها لجدته ؛ ولكنه يلزم الصمت ؛ لذلك لما رأت نفسها في عزلة من الضيوف والزوار علمت أنها أخطأت بالعودة لبلادها .

وأخوها الأمير رياض بن مناع لم يقدم لزيارتها والترحيب بعودتها ، ولما كانت تذهب لقصر الملك كانت تستقبل بفتور حتى صاحت مرة : كلكم تكرهون أبي ! كلكم تبغضون أبي! كلكم متآمرون على أبي !

نظر الملك إليها بحيرة ، ونظر في الجالسين معه ، ولم يتفوه أحد على صياحها في مجلس الملك ،

فعاودت القول : هل إذا قلت إن زوج أمي لص كفر ذنب ..ألم يكن

لصا بين الناس ،وحكم عليه بالموت لولا شفاعة أمي ؟!

فقال الملك بعد صمتها : اللص ـ يا سفانة ـ زوج جدتي ، ووالد خالي !

ضحكت وقالت : آ .. فهمت .. نسيت ذلك يا مولاي الملك !



الاعتداء الغادر

بينما كانت هذه الأحداث تجري في مدينة اللؤلؤ ،كانت مدينة السدر أو جلال الدين ـ كما أحب حميد أن تدعى ـ تتعرض لغزو غادر رغم التحذيرات التي ذكرها الوزير غالب لنظيره بهلول دخلت البلاد عشرات القوافل التجارية دفعة واحدة ، وكلها لا تملك الكثير من الأحمال برغم أنهم قادمون للابتياع ، وبعد دخولهم بيومين تعرض الطرف الشرقي للمدينة لغزو ليلي ، لقد داهم جيش صغير تلك المنطقة من المدينة مما دفع الملك للابتعاد عن وسط المدينة إلى الطرف الغربي البعيد خشية أن يكون هناك تواطأ بين كتائب من جيشه والجيش الغازي ، وشكل الجيش حاجزا لمنع الزحف جهة ابتعاد الملك .

وباشر الغزاة بالاعتداء على البيوت والسكان بالقتل والأسر والنهب وعند منتصف النهار تراجعوا إلى خارج المدينة بأسراهم والأموال التي نهبوها من دواب وأسواق ، وكان ممن وقع في الأسر كما تبين لاحقا أبناء الأميرة سفانة حيث قام الزاحفون الذين تظاهروا بأنهم قوافل تجارية بالظهور في حي الأمراء والأعيان وحرقوا وقتلوا ، وكان الهدف تدمير هذه المنطقة .

وغضب الملك حميد أشد الغضب من قائد الجيش والجيش الذي سمح بهذا الدخول ، وهم على علم بأن أمرا سيحدث بعد مقتل زرارة .

ولما مثل قائد الشرطة أمام الملك أخبره بحدوث خيانة داخل معسكرات الجند ، وحدثه عن القوافل التي فوجئوا بأنهم قطاع طرق ولصوص ، دخلوا على أنهم تجار يرغبون بشراء البضاعة وغدروا بحرس الأبواب الشرقية للمدينة ، وسمحوا للغزاة بالدخول والوصول لحي الأميرات وجرت مذبحة وأسر وقاوم الناس بالخناجر والمدى عن أعراضهم .

وذكروا أن بعض بيوت الأمراء نهبت وحرقت وخاصة بيت زوجة شداد سفانة وخطف أولادها ؛ ولأن الأمير تلك الليلة لم يكن في بيت أولاده نجا من الخيانة ، كان في الصيد والقنص ولقد ترك الغزاة عددا من القتلى والجرحى تمكنت الشرطة من اعتقالهم بعد انسحاب الغزاة ، واعترفوا أنهم من سكان مدينة حمصان ، وأن معهم عددا كثيرا من لصوص المدن .

وفشل جيش الملك من مطاردة الغزاة بعد انسحابهم ، ولما عاد الملك من طرف المدينة كان في غاية الحزن والأسف على هذه النكبة ، وقال للوزير: تهاوننا في تصديق الأمير غالب .. جيشنا ضعيف رغم الأموال التي تنفق عليه .

قال الوزير : أنا مثلك حزين يا مولاي كيف يدخلون علينا ويغزوننا في غفلة ؟ ! والذي يُبكّي القتلى الذين سقطوا .. وهناك أعداد من الأسرى حتى أن أبناء الأميرة سفانة خطفوا كما أخبرت بعض الخادمات اللواتي اختفين في البستان ؛ كأنهم المقصودون في هذه الغزوة !

قال : كل من في القصر قتل !

قال : لم ينجوا إلا خادمة أو اثنتان كانتا ساعة الغزو خارج القصر في البستان واختفيتا على أعالي الشجر .

قال حميد : هل كانوا يريدون الأميرة ؟!

قال بهلول : لا أدري ! الأميرة لها شهور مفارقة البلاد ..وهذا انتشر بين العباد .

قال : كيف سنعيد الأسرى ؟ سوف يبيعونهم عبيدا .

قال: لدينا أسرى من الجرحى ؛ لعلنا نبادل بهم .. لقد قاوم أهالي البيوت ببسالة وقوة دفعت الغزاة إلى التراجع عند منصف النهار .

قال : هم من مدينة حمصان صيرم .. الملك اللعين نعسان هو الذي أرسلهم أم عصابات كما يقول القائد عيد .

قال : لا أدري ! سأجتمع برجال الأمير ابن ظفار .. فهم أقدر من رجالنا في البحث والتفكير تنهد الملك ضيقا وقال : افعل ما تراه مناسبا جيشنا ماذا سنفعل له ليكون على قدر المسؤولية ؟

قال : الجيش استطاع الدفاع عن المدينة ؛ لكنهم لم يكونوا مستعدين للمفاجأة ، ولم يتنبهوا لحيلة الغزاة ؛ ولكنهم استدركوا الأمر ، وقاتلوا مع الأهالي ، طول الانتظار أصابهم بالملل والفتور .. وظنوا أن التحذيرات في غير محلها ،إنها مجرد تهويل من القائد ابن غسان .. وحدث بعض التشقق في بعض الكتائب لضعف الولاء لكم يا مولاي ! وأنت تعلم السبب ثم أكثر

الغزاة من اللصوص .. علينا أن نعرف من حشّدهم .

قال بحيرة وشك : لصوص يغزون البلاد ، لابد أنهم يعملون لسيد كبير ؛ليقوموا بهذا العمل الكبير والخطير !

فسر الوزير فقال : اللصوص دخلوا على أنهم تجار ، والذين دخلوا من طرف المدينة جنود مرتزقة قائدهم يقال له غسق ؛ لكن لم نعرف إلى أي جهة يتبعون .. من استأجرهم ؟هل لملك صيرم علم ؟ الله أعلم .

أمر الوزير بمساعدة المتضررين ، وإسعاف الجرحى ، ودفن الموت ، وذهب بنفسه لحي الأميرات والأحياء التي تعرضت للغزو .

ولما جاء نائب ابن ظفار المدينة أطلعه الوزير على الحيلة والغدر والأسرى والضحايا ، والتقى الأمير مفتاح بجرحى اللصوص ، وبعض الأسرى الذين قبض عليهم الأهالي في بيوتهم .

ولما اجتمع بالوزير خاطبه : أرأيت الغدر ؟

قال : نعم ، دخل المدينة ما يقارب ألف رجل نصفهم دخل كتاجر .

قال الوزير : لماذا اعتدوا علينا ؟!

قال مفتاح : لا أعلم الآن ؛لكننا منذ مقتل زرارة شعرنا بخطر على مدينتكم ..كنّا نتوقع غزو جيش منظم لبلادكم ؛ وربما الغزو قادم وهذه مقدمة .. فالملك نعسان ابن صيرم طامع ببلادكم من أيام أبيه .. وكثير من عائلات بلادكم ترحل إليه بسبب غضبهم من الملك وسادة البلاد .. ويحرضونه على احتلال البلاد .. وهو ـ كما تعلم ـ يخشى عودتنا إليكم .

قال : ولماذا حرقوا بيت الأميرة وخطفوا أولادها ؟

قال : الهدف واضح لإثارة الفتنة بيننا وبينكم حتى لا نتدخل في حماية بلدكم من بعض أقاربه الغاضبين والناقمين عليه من سنوات بعيدة كما تعلم .

قال : الأميرة الكل يعرف أنها غادرت البلاد !

قال : أولادها لم يغادروا .

عاد الوزير يسأل : أتعتقد أن غزوا جديدا سيحدث ؟!

قال مفتاح بثقة : أعتقد ذلك أيها الوزير ! هذه أحقاد تنام وتستيقظ ..مجيء زرارة إلى هنا أحياها وجددها .

قال : تحدثت مع الأسرى والجرحى .

قال : كلهم لصوص ، وينكرون علاقتهم بالملك ابن صيرم .

قال : بالطبع لن يجتمع معهم نعسان .

قال : لا يعرفون إلا أن لصوصا كبار شجعوهم على المشاركة في الغزوة للنهب والسلب.. أنا أرسلت بعض رجالي لمدينة صيرم .. وأرسلت وراء بعضهم ؛ ليأت إلى هنا .. وأسمع منهم لعلهم يأتون بمهم .

قال بهلول : ألم تعرفوا شيئا عن قاتل الملك ؟

قال : لدينا الكثير من الأنباء ؛ ولكن لا يسمح لي بذكرها الآن أيها الوزير ! وهي تشير للملك ابن صيرم .. عليك بزيادة درجة الحذر لدى الجند والشرطة فالغزو قادم .. واطلب مئات الفرسان من الوزير غالب .



أولاد سفانة

وصل نائب ظفار لمدينة اللؤلؤ ؛ ليطلع الأمير والقائد عسكر على التفاصيل التي توفرت لديه عن غزو بلاد جلال الدين ، وهو له رجاله في المدينة منذ اغتيال زرارة

لما سمع عسكر ما توفر من معلومات ، ذهب لقصر الوزير ، واجتمع به ، وروى له مع سمعه من مساعده مفتاح .. وهذا بدوره ذهب لقصر الملك ، وأيقظ الملك من نومه ، واجتمع مع وزير البلاد وسمع التفاصيل والتوقعات وما حدث من خطف أبناء سفانة ، وحرق بيتها ، ونجاة زوجها الذي لم يكن في المدينة ليلة الحادث الذي قال : ماذا يعني هذا ؟!

قال الوزير : هم افتعلوا معركة ، وقتلوا وأسروا ، ومن بين أسراهم أولاد الأميرة ؛ لأنهم لم يجدوا جثثهم فاعتبروهم أسرى حسب رواية الجاريتين الناجيتين إلا إذا قتلوا فيما بعد .

قال : هل ثبت أن لملك صيرم يد ؟

قال عسكر : قد يكون الأسرى للتضليل واستبعاد الحرب .

قال الملك : هل نخبر سفانة ؟

رد الوزير : فلتقابل الرسول نائب ابن ظفار .. هل تراها تحتمل الصدمة؟

قال : نطلع الأميرة خلود .. وتنقل إليها الخبر ..فهي منذ سمعت بمرض الملكة الأم وتعيش بيننا ـ كما تعلم ـ إنها محبة لجدتي الملكة . قال : لا بأس

ذهب الملك والوزير إلى حجرة الأميرة خلود ، فجاءت إليهما مرعوبة ؛ ربما وقع في قلبها موت أمها التي فارقتها قبل ساعات .

فطمأنها الملك على حياة الأم ، وقصا عليها وعلى زوجها خبر اختطاف أولاد سفانة ، وترجيح أنهم أسرى لدى خاطفيهم .

فمشت لقصر سفانة بصحبة بعض حرس الملك مع طلوع الشمس ، وحدثتها بما جرى في بلاد الملك حميد واختفاء أولادها بعد انتهاء الاعتداء .

لم يبدُ الحزن ولا البكاء من شقيقتها بل سألت : وأبوهم ؟

قالت : لم يكن معهم كان في الصيد .

قالت : كان في الصيد .. هل علم الملك بذلك ؟

قالت : هو الذي أرسلني إليك لنقل الخبر خشوا عليك من الصدمة .

صاحت بحدة : أي صدمة يا أخية ! الصدمة مقتل أبي .. هو الصدمة والجرح النازف .. وهو خير منهم .. الأب لا يعوض ، الأبناء يعوضون .. لا تخافوا عليّ .. ماذا سيفعل مولانا الملك ووزيره العتيد ؟

قالت خلود : ماذا سيفعل أهل الأولاد ؟ هم أهلوهم .. نحن أخوالهم .. هل تُحبين الذهاب لهناك .

قالت بشرود : أذهب إلى هناك ! لماذا ؟! هل بذهابي سيعودون ؟! ألم تخبريني أنهم خطفوا .. قد يكونون قد قتلوا كما قتل جدهم الملك .. أنا بعد موت أبي قتلا وخيانة لا يمكن أن أحزن على أحد .. حزني فقط على أبي المسكين الذي أذلوه في أواخر عمره .. ينتقل من بلد لآخر بثلاث حراس .. تمنيت لو أن الحرس الذين رافقوني كان نصفهم مع أبي .. أنا بعد أبي يهون عليّ كل موت .

قالت خلود بامتعاض لضعف حبها لأولادها : لم نكن نعرف هذا الحب الكبير له قبل زواجنا يا سفانة ! أنت مجنونة !

قالت بغيظ : أنا مجنونة يا خلود ؛ لأنني أحب أبي أكثر منكن .. أنتن قصفتن عمره من أجل أن تنام إحداكن في حضن رجل .

قالت : ولماذا خلقت النساء والرجال والزواج سامحك الله ؟

قالت :آنا مجنونة يا خلود ؟! أنا أقول سامحك الله .. أتريدين مني أن أولول وأصرخ وأشق الثياب وألطم الخد على أولاد تركتهم منذ شهور ؟

قالت : لا أريد ذلك ..أريد أن تحزني على فقدهم كما حزنت على أبيك .

قالت : مات كل حزن إلا الحزن على أبي .

غادرتها إلى قصر الملك وحدثته أنها أخبرتها بالمصيبة ، وأنها لم تهتم كأن المصيبة في بلد وبيت آخر ، وأعلنت أن أختها لم تعد سليمة العقل بعد موت أبيهما .

قال : لعلها مريضة أيتها الأميرة .

قالت : إنها لم تشف من صدمة موت الوالد ـ رحمه الله ـ وماذا ستفعلون لإنقاذ الأمراء ؟ وهل حددتم الجهة الظالمة ؟

قال : سيرسل الوزير جيشا إلى بلاد الملك حميد إذا سمحوا بذلك .. وقد نغزوا بلاد صيرم إذا تأكد لنا أنه الفاعل في جريمة الملك زرارة.

قالت : نعم ، عليكم أن تفعلوا شيئا تهتز له الدنيا وكل المدن .

قال : سنفعل يا خالة الملك ! لكن التدبير والتفكير قبل استعمال القوة واليد .. اشتعال الحرب سهل ؛ ولكنّ إطفاءها صعب.

قالت : أرجو لكم النجاح ، وإعادة الهيبة للمملكة .

قال : المملكة قوية .. وتبين لنا أن الذين قاموا بالغزو أكثرهم من اللصوص وقطاع الطرق فنخشى أن ندمر مدينة ، ونقتل أبرياء، ونفقد الأبطال ، ونظلم الناس بدون تأكد .. الوزير رجاله يعملون بكل قوة .. فنحن نهتم بالأمر ، ولا نتعجل المعركة قبل التثبت والإعداد القوي فلست ضعيفا ، ولا جبانا .

قالت : بوركت أيها الملك ، وأيدك الله .

دخلت سفانة على الملك ، وقالت بعد التحية والسلام : خلود هنا ! إن خالتك تقول عني مجنونة

فقالت : أنت مجنونة فعلا ! نقلت إليك خبر أسر أولادك ، ولم تذرفي دمعة واحدة .. أي أم أنت ؟! كأن العرس عند الجيران .

قالت سفانة : ماذا ستفعلون لي أيها الملك ؟

فقال بهدوء : ماذا تُحبين أن نفعل أيتها الأميرة ؟

ظلت صامتة لم تجيب ، فقال : نحن سنسعى لتحريرهم إذا بقوا على قيد الحياة من أجلك أنت

يا سفانة ! نعرف أنك طلقت وتخليت عنهم لأهليهم من أجل حزنك على أبيك .. نحن نحترم حزنك .. وكلنا حزين .. لماذا جئت ؟

قالت وهي تنظر إليهما : جئت .. لا أدري ! لا أدري !

فقال : سنفطر سوية هذا الصباح .. فرصة أن نتناول الطعام مع الخالات ..لا ينقصنا إلا الخالة بانة ؛ كأنها لا تريد اللقاء بابن شقيقتها.

قالت خلود : ستعود في يوم من الأيام .. فقد زارت سفانة عددا من المرات ، وباتت في بيتها .



الاعتداء

تحرك جيش صيرم لما سمع أن بلاد حميد تتهمه بخطف وحرق حي الأميرات ، وتقدم إلى الطرف الشرقي للمدينة الذي سبق وتقدمت منه عصابة اللصوص ، وتصدى له جيش الوزير بهلول ، وأرسل يستعجل جيش بلاد الملك سيف ، وأمر الملك العائلات بالخروج للجبال العالية ، وجنوب المدينة حيث سيدخل جيش الملك سيف .

واستمرت المناوشات الحدودية مع تقدم وتفوق لقادة صيرم خاصة القائد غضب ، واحتل الغزاة نصف المدينة مع تقهقر جيش حميد رغم البسالة التي بذلت لصد الغزاة ، وهذا دفع تجار ذلك الجزء من المدينة لطلب الأمان من القائد الغازي ودفع الأموال ، فقبل القائد الغازي غضب منهم المال ، وأمر الجند بمعاملة الناس بالحسنى ؛ ولكن ذلك لم يحدث في كل المناطق ؛ بل تعرضت بعض الأحياء للنهب واغتصاب النساء ، وعمت الفوضى تلك الأحياء ، ولم تهدأ الأمور إلا بوصول الملك ابن صيرم بنفسه حتى استطاع القائد غضب مع وصول الملك بضبط الأحوال والاستعداد لمتابعة الحرب والاحتلال للقسم الثاني من المدينة واجتياز النهر الذي يقسم المدينة قسمين .

وكانت معارك كر وفر ، ثم اجتاز الجيش الغازي بعض الجسور ، وكادت تجري مفاوضات على تسليم المدينة للملك النعسان بن صيرم ، والقبول بدفع الجزية ؛ لكن الملك حميدا أصر على الرفض والقتال بمن تبقى من فلول جيشه وأعوانه المخلصين ، وبينما بعض سادة المدينة يسعون للصلح مع الملك ابن صيرم لحفظ ما تبقى من خيرات البلاد ، وصلت أولى طلائع جيش الملك سيف ، وتوقفت المفاوضات ، وبدأ جيش الوزير غالب يتقدم الصفوف ، وبدأت تصل الكتائب تباعا تباعا بقيادة الأمير ضرغام بن غالب الوزير ، وتراجعت جيوش النعسان إلى ما بعد النهر ؛ لتمنع الجيوش القادمة من اجتيازه .

ولما وصل عددا كبيرا من الجيش اللؤلؤي أخدت الحرب تشتد لاجتياز النهر بوضع المزيد من الجسور أثناء الليل .

وكانت جواسيس ابن صيرم نقلت له أن القائد ضرغاما إذا انتصر عليهم في المدينة سيزحف لاحتلال مدينتهم .. هكذا سمعت الأنباء في مدينة اللؤلؤ .

وهذه الأخبار وصلت لمدينة حمصان ، بل أشيع أن جيشا تحرك إليها ، فاضطربت المدينة ، وخافوا الهزيمة والانتقام .

وكان أهالي جلال يستقبلون جيش الملك سيف بالفرح والأمل .. فجيوش الملك سيف أو بلاد اللؤلؤ لها دعاية قوية منذ عهود بعيدة بين المدن ، ومعروف قوة ولاؤهم لبلادهم وملوكهم ، والكبار في السن له ذكريات مع هذا الجيش .

وبينما الملك سيف في ديوانه يترقب الأخبار التي ترد إليهم تباعا جاءه بريد فلما قرأه دفعه لوزيرة غالب ، وكانت الرسالة من الأميرة بانة تخبر الملك بوقوع زوجها أسيرا لدي جيوش ابن صيرم شعر الملك النعسان بضعف جيشه أمام جيش الملك سيف ، وأمر قائده غضبا بالصبر والتحمل وعليه أن يرجع لبلاده بالأسرى ؛ لعله يتكمن بالتحالف مع بعض الملوك بمواجهة جيش سيف سواء هنا أم الزاحف لمدينته كما أخبره عيونه وفي نفس الوقت كتب لسيف بالصلح للخروج من المدينة .

واقتحم القائد ضرغام المياه من عشرات المواضع ، وهاجم جيش غضب الذي أخذ يتقهقر أمام الجيوش الزاحفة ، ويتراجع بفوضى ويأس ، ولم تأت أنباء عن قبول سيف الصلح والسلام .

ودخل الملك حميد قلب المدينة من جديد ، وحوله أتباعه من الأمراء والجند والشرطة ، وبدأ القائد ضرغام يتعقب فلول جيش ابن صيرم بعد طردهم من المدينة ، وقتلوا منهم الكثير ، وأسروا منهم ؛ ولكن القائد غضبا تراجع بمن بقي حيّا ، وتركوا ما نهبوه من دواب وطعام ومتاع ، وأعلنت الأفراح بالنصر .

وعاد أهل المدينة من الجبال والكهوف والقرى المجاورة ، وأخذوا يتفقدون ما خسروا من بشر وأنعام وأموال .

وأرسل سيف للقائد بأن يترك الأموال التي نهبت لأصحابها ، ولا تعتبر من الغنائم ، ومساعدة

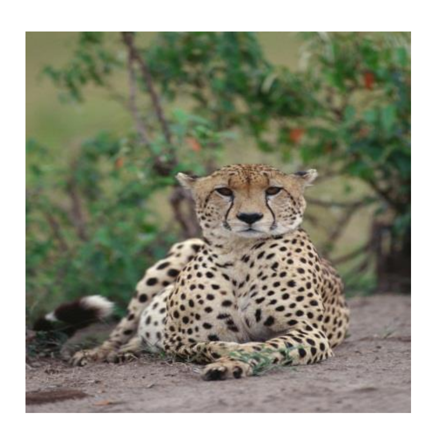
أسر الضحايا ، والاستعداد لمتابعة الزحف نحو بلاد ابن صيرم وأسره .

وأخذ الملك حميد يعيد ترتيب بلاده هو ووزيره بهلول ، وطفق الملك بواسطة المخلصين بتطهير البلاد من عملاء صيرم ، وخرجت الكتائب اللؤلؤية إلى خارج المدينة استعدادا للزحف إلى بلاد ابن صيرم من جهة الشرق .

وبعد شهر من الزمن ودحر الغزاة المعتدين ، وقد اطمأن القائد ضرغام بن غالب على بلاد حميد جاءه الأمر بالزحف لبلاد صيرم والقضاء عليه إذا تمكن من ذلك .

واستمر الزحف وخلال أيام كان يطرق أطراف البلاد من غربها ، وكان سيف قد رفض الصلح واعتبر مهاجمة بلاد الملك حميد إهانة لبلده ؛ لأنهم ما زالوا تحت حمايتهم منذ عشرات السنين من أيام والد جده الملك زرارة .

وكان ابن صيرم قد عاد للبلاد ، وهو في غاية الذل والسخرية للناس ، وسخرية من نصحوه بالكف عن الغزو والتحرش بالمدن المجاورة ، وأخذ يناشد الملوك من جيرانه لمساعدته أو الشفاعة له عند الملك سيف .



فشل الغازي

استنجد ملك صيرم ببعض المجاورين لملكه لإنقاذه من غزو الملك سيف بن لؤي الزاحف من جهتين من الشرق والجنوب ، فأرسل إليه بعضهم متطوعين ومرتزقة ، لا أحد يريد أن يتورط علنا مع ابن صيرم ؛ لأنه مزعج لكثير من الملوك بدعمه المتكرر للمتمردين واللصوص والعصابات ، ويستغلهم في مغامراته وأهوائه .

ولما اقتربت الجنود من مدينة صيرم جاءته رسالة من سيف يطالبه فيها بفك وتحرير كل أسارى مدينة الملك حميد ، وعلى رأسهم أولاد الأميرة سفانة دون تباطؤ وتردد ، وأنهم متيقنون من وجودهم لديه .

وقبل الملك صيرم ذلك العرض مقابل تراجعه عن غزو بلاده ، ورجوع الجيش إلى مدينة حميد وأبدى استعداده لرد كل الأموال المنهوبة من تلك المدينة .

لكنّ سيفا قبل ذلك مع تسليم المدينة وخضوعها لحكم بلاده ، ودفع ديات القتلى من مدينة حميد وجنود بلاد اللؤلؤ ، وترك العرش لأحد أولاده .

ولما سمع الملك صيرم بالشروط الإضافية صعب عليه الأمر ، وندم على غزو مدينة حميد فقال لوزيره : أخطانا التقدير .. فرغم ضعف العلاقات بين البلدين ـ كما تعلم ـ فهم ما زالوا حلفاء أخطأ جواسيسنا .. وهؤلاء المتطوعون والمرتزقة لا يثبتون إن رأوْا بوادر الهزيمة .. حياتهم أهم من الدفاع عنا .. كنت أظن أنهم سيكتفون بطردنا من بلاد حميد فحسب ، وينصرفون ، ونتفاوض مع حميد عن الأسرى والأموال .

فقال الوزير كأنه مذكرا بأمر : لم نجن من قتل زرارة شيئا ! لم تحدث حرب بين البلدين .. ولما خطفنا أبناء سفانة لم يتحرك سيف لينال منهم .

قال النعسان ؛ كأنه يقول لا داعي للوم : ليس أمامنا أيها الوزير إلا القتال .

قال : وإذا خسرنا المعركة سنخسر الملك .

قال : لن يقبل أحد بملك هذه المدينة .

قال : هم يحكمونها ومع الوقت ستذهب مملكتنا أين غضب قائد الجيش له أيام غائب عنا ؟!

قال الملك : إنه مريض أو على وشك الموت .

قال الوزير استغرابا : على وشك الموت ، ولم أعلم ! لقد كان متحمسا للمعارك وَقاد حرب حرق حي الأميرات ، وخطف أبناء سفانة خالة سيف .

قال : لقد كان مهووسا بالمعارك ؛ لكنه أصيب بجروح عندما سقط عن جواده .. وأصيب إصابة كبيرة .. واستطاع كما تعلم السيطرة على نصف مدينة حميد وشجعني إلى اللحاق به .. ولولا وصول جيش سيف لأسر حميد وحاشيته .

قال : ألا من حيلة لقتل سيف ؟

قال : سيفعل بعضهم .. وأعتقد أنهم سيفشلون ، ولحتى الآن لم نتهم بقتل زرارة .

قال الوزير :لو عرفوا ما وضعوا تلك الشروط ما زال الأمر غامضا وهذا ربما من حسن حظنا

قال : كان تفكيرنا خطأ في الاعتداء على حياة زرارة .. أخطأت بسماع رأي ذلك اللعين .. من يخون أسياده سيخون الآخرين .

قال : لقد نصحت مولاي الملك بعدم السماع له وإنه رجل حاقد ؛ لكنك شغفت بتلك المرأة.

قال الملك : لقد سمعت عنها كلاما أوقع هواها في قلبي ، ورغبني بالوصول إليها ولا يكون ذلك إلا بالدم.. أين اختفت ؟ .. قال : هي لم تخاف ..ماتت .

دهش الملك : ماتت ! لم أسمع بذلك ..كيف علمت بذلك ؟!

تبسم الوزير وأجاب : من القائد نمر .. لما دخل المدينة كانت نصب عينيه ؛ ليقدمها هدية للملك ؛ ولكنهم أخبروه بموتها سقطت في بئر ماء وهلكت . قال : متى ؟!

قال وزيره : عندما هاجم رجالنا واللصوص ذاك الحي في تلك الليلة .. وداهموا البيت ، ولم يجدوها ، وأخبر خدمها أنا سقطت في بئر ماء ، وغرقت قبل الغزو بأيام .

تحسر الملك ضيقا : يا إلهي ! الأميرة بدور ماتت ، وقد تعلقت بها.. ألها ذرية ؟

قال : لها ذرية كما قال ذاك الشاعر اللعين.. لها طفلة صغيرة عندما طلقت ..وكان بيتها بيت

الشعراء والأدباء .

تحسر فقال كأنه يبكي : لقد غرر بي ذاك الشاعر ..لقد جعلها حورية من حور الجنة من كثرة ما وصفها ووصف حسنها وفتنتها ، حتى تمنيتها مع نسائي .. أتعرف لماذا طلقت ؟ لم يتحدث الشاعر عن ذلك .. ولماذا رفضت زواجي منها والهرب إلينا؟!

قال الوزير : تحدث الشاعر لي عن سبب طلاقها .. إن زوجها أراد منعها من الجلوس مع الشعراء أو بعض منهم بعد أن تعودت المسامرة معهم ..فرفضت وقالت : كنت أفعل ذلك في حياة أبي .. وحاول معها الملك ، فهددت بالهرب وطلبت الطلاق .. هكذا أخبرني .. ولم يطلبها أحد للزواج بعد ذلك الطلاق .. وظلت صديقة للشعراء والأدباء .. ونقل خبرها إليك ؛ لتكون زوجا لها طمعا بمالك .. ورفض الملك حميد مصاهرتنا ولو منها ..فكانت هدفا لتلك الغزوة .

قال الملك مقرا برغبته بنكاحها : نعم ، شغلت بها فترة كما تعلم ..ومع المعارك نسيت أمرها وكنت أنتظر أن تزف إليّ بعد احتلال مدينة حميد ..كيف قتلت ؟

قال : تركت حجرتها في الليل وعز الظلام ، وكانت تتمشى في بستان قصرها ، ولم تنتبه للبئر المفتوحة الباب من إهمال الخدم ..فتعثرت وسقطت فيها .. ولم يكن معها أحد .

قال : ماذا كانت تفعل في الظلام الدامس ؟

قال : قد تكون ذاهبة للقاء أحدهم ، فخرجت دون خدم وإلا ماذا كانت تفعل امرأة بعد نصف الليل وبدون مشعل وخدم ؟! ولما تعثرت في البئر هرب الرجل العاشق ، ولم يشك أحد أن هناك أحدا لعظم الاتهام أو يعرفون ولزموا الصمت ؛ وربما دفعت عمدا في البئر .. ويبدو أنها تخرج ليلا وحدها كما حدثني القائد نمر لما سمع كلام الجواري .

تنهد الملك : لقد شغلت عن سماع أخبارها أيها الوزير .

قال : كنت أظنها ستهرب إلينا كما هربت أخت لها من قبل .

الحصار

حوصرت مدينة حمصان صيرم من ثلاث جهات ومضت عدة أسابيع على اكتمال الحصار ، وكان الملك سيف بنفسه يشهد الحصار .

فقال لقائد الجيش : الحصار متعب للجميع أيها القائد ! ألا تخشى ضيق الجنود ؟

قال القائد الأمير حفص : الجنود خلقت للحرب والقتال أيها الملك الشجاع ! وكل جندي يحب الانتصار والفوز ؛ لكن قتال المدن صعب ؛ لأننا قد نضطر لقتل الكثير من الناس .. فلذلك يحبذ الجنود الاشتباك على أطراف المدن لتقليل عدد الضحايا .. والجنود فيهم القوي ، وفيهم الضعيف الكسول الجبان .. والحصار يدفع أهل المدينة قادتهم للقتال والخروج أو التفاوض على الاستسلام إذا كان الحصار محكما من جميع الجهات .. والحصار انتصار بأقل عدد من القتل من الطرفين وبأقل الخسائر .. وكلما طال أدى ثماره وأدى إلى نتائج جيدة فيضعف الجندي المحاصر إذا أراد الخروج للقتال، فيخرج وهو في حالة يأس وإحباط وتخبط ونحن لم نحاصر كل الجهات ـ كما تعلم ـ تركنا جهة لهرب المحاصرين .. والهرب كذلك يضعف معنويات المدافعين .. فهناك بشر لا يتحملون الحبس والحصار إذا تركت لهم منفذا للهرب .. والأقوات تدخل من الجهات المحاصرة ؛ لأن الجهة غير المحاصرة جبلية صعبة على القوافل والبغال .. نحن لدينا خطط لدخول المدينة ؛ ولكن نفضل استسلامها ؛ ليحسن السيطرة عليها بدون إراقة الدماء ، ويرضى الأهالي بسيطرتنا عليهم .

قال الملك الشاب : إذن لديكم خطط الاقتحام .

قال القائد حفص : أجل يا مولاي ! سيمل أهل المدينة من الحصار إذا صبرنا أكثر منهم وسيكونون عونا لنا على جيشهم وملكهم .

كان الملك ابن صيرم يسمع لقائد الجيش المصاب والقادة الآخرين ، وقال للوزير : هل يملوا ؟ لكم أسابيع تحت الحصار .

قال قائد الجيش : هل نندفع لقتالهم ؟

قال الملك: لو كان هناك فائدة من الخروج لقاتلناهم منذ وطؤوا أطراف المدينة .. علمت أن لهم أعوانا في المدينة يحرضون الناس على التمرد علينا .

قال الوزير: لقد قبضنا على عدد من المرجفين ؛ لذلك بدأ الناس بالخروج إلى الجبال والمدن الأخرى .. وهذا سيضعف همم الجند ، ولم يقدم الملوك المساعدة المرجوة أيها الملك ! فعلينا بالقتال حتى الموت ، وذلك أفضل من الأسر .

قال الملك : أنا لا يهمني الأسر أو الموت .. من غامر مغامرة عليه أن يتحمل عبئها وعواقبها .. الذي أخشاه أن تصبح بلادنا لغيرنا .

فقال أحد الحاضرين : هذا وقت لا يسمح فيه الندم .. لقد تحدثنا عّن مخاطر غزو بلاد حميد .. ولنا تجربة قديمة مع ملوك بلاد اللؤلؤ .. وهذا سيف يقود الجيش لاحتلال بلادنا .

قال الملك ممتعضا : كما قلت لا داعي الندم الساعة .. فلنستعد للمعركة يؤسفني أن أقول لكم إنها معركة خاسرة ؛ ولكن سنحارب بشرف حتى الموت .. الذل ذُل أيها القادة .

قال أحدهم : ألا يقبلون منا دفع الجزية ، وإطلاق صراح الأسرى ؟!

أجاب الملك :رفضوا ذلك.. يريدون حكم البلاد باسم ابني أي أن تذهب كل أموالنا لهم .. هذا غاية الذل أيها القادة تعيشون تحت حمايتهم ؛ سنعيش أذلاء .. أليس الموت أشرف لكم ؟ أنعامل كالعبيد والرقيق ؟

قال : الموت أشرف أيها الملك ! نحن نرى قائد الجيش منذ وقع وهو ضعيف

صاح غضب : لست ضعيفا يا نبال! تعثرت الفرس ووقعت عنها، وسأقاتل حتى تذهب هذه وأشار لسالفته .

قال نبال : أخشى أن يهرب الجند عند أول قتال أيها القائد ! فرأيت كيف فررنا من أمامهم في مدينة حميد .. كنّا في حالة خزي وجبن ..وإذا حصل ذلك ستصبح كل البلاد في أيديهم عنوة أطفالنا ونساؤنا .

قال الملك : نحن نريد الصلح ؛ لكن شروطهم فيها كل الذل .

قال : هذا رأيي ..وأنا جندي حتى الموت .. الملوك الذين شجعونا على هذه المغامرة أرسلوا لنا لصوصهم وأوباشهم ..تخلصوا منهم

فقال الملك : دم زرارة!

قال : اللصوص هم الذين قتلوه .

قال الملك : وهل يصدق الملك سيف ووزيره الماكر ذلك ؟ هو الآن قادم لتأديبنا وتحرير الأسرى وأبناء سفانة .. على وزيرنا مقابلة الملك سيف ؛ لتخفيف الشروط .. ولتقاتل أيها القائد .

قال غضب : مهمتي القتال ، ولو كنت جريحا مكسورا .. نحن خلقنا للقتال .. إني خبرت جنود مدينة اللؤلؤ فهم بواسل بمعنى للكلمة .. والحرب نصر وهزيمة .. ورغم قوة جنودنا تقهقروا أمام فرسانهم .

وعاد الكلام للوزير : وإذا رفض التخفيف ، وأصر على عزلك.. هل نقاتلهم ؟

قال الملك : لابد من ذلك أيها الوزير! الموت في ساحة الوغى خير وذخيرة للأجيال القادمة لأحفادي وأحفادكم .. نحن سعينا للمحافظة على حياتهم ؛ لكن خصومنا رفضوا الصلح .

جهز الوزير نفسه والوفد المرافق ، ولما وصلوا إلى الجهة التي يعسكر فيها الملك سيف تقدم الوزير والوفد يحملون الراية البيضاء إشعارا بطلب الحوار .

سمح لهم بالتقدم إلى خيمة الملك ، ورحب بهم ، ونزلوا في خيمة الأضياف والرسل .

وأخبر الملك بوجودهم وغاية مجيئهم ، ولما مثلوا أمام الملك قال الملك : جئت للسلام والاستسلام .

قال الوزير : جئت للصلح يا مولاي الملك ! نحن كما أنتم تعبنا من الحصار .. ونحن هنا للتفاوض على شروط عادلة للصلح .. أهمها بقاء الملك ملكا على البلاد

قطع سيف الكلام وقال بحزم : نحن سنحكم بلادكم ما جردنا هذا الجيش إلا ليبق هنا ونحن نحاول إخضاع المدينة بدون حرب ؛ لنقلل الدم بيننا وبينكم علمت أن أحد أعدائي معكم .

احتلال مدينة

اقترب جيش سيف إلى أسوار المدينة أكثر من الأول ، وبدأ التراشق بالسهام والنبل ، وأخذ النقابون يقتربون من بعض الأسوار والتنقيب بها لأحداث ثغرات للتسلل منها للمدينة ، وفتح الأبواب ، وألقيت السلالم ذات الكلاليب على النقاط الضعيفة من الحاميات ، ليتم تسلقها في الوقت المناسب .

اشتد الضغط ليلا ونهارا على حاميات الأسوار حتى تمكن المغاوير من اقتحام الأسوار والدخول من الأنقاب ، وفتح الأبواب ، وطفق الجند يقتحمون المدينة رويدا رويدا ، وتجمع الفرسان بعد فتح بعض البوابات ، وتم الفتك بحاميات الأبواب والأسوار والسيطرة عليها ، ورغم المقاومة التي بدت في بعض الجهات دخلت الجيوش الغازية من ثلاث جهات ، ولزم الناس بيوتهم ، وأغلقت الدكاكين أبوابها ، وأخذ بعض الجيش يتقدم نحو القصر الملكي الكبير الذي وجد خاليا إلا من الخدم والغلمان ، وتم الاستيلاء على الخيل والإصطبلات الملكية .. وتعرضت القصور للنهب والتفريغ ، ولزم الناس مساكنهم ثلاثة أيام حتى كملت السيطرة على المدينة ، وأسر من أسر من الجند والسادة ، وهرب من هرب ، واجتمع مشايخ الحارات والأحياء ، والتقوا بالوزير غالب وطلبوا منه الأمان فأعطوه .

وبعد الأمان عاد الناس إلى أعمالهم رويدا رويدا ، وأخليت السجون من المساجين، ولم يجدوا من بينهم أولاد الأميرة ، فقد عرف الملك ابن صيرم أهميتهم للبقاء حيا ، فقد نقلوا إلى مدينة أو بلدة أخرى قبل المعركة الأخيرة ؛ وربما قبل وصول الجيش الغازي لبلادهم .

قال سيف : لقد تمكنا بفضل الله من السيطرة على المدينة .. وهرب خصومنا أيها القائد الشجاع

قال قائد الجيش حفص : سنتابع المطاردة عندما نعرف أين استقر الملك النعسان ؟ علينا حكم هذه المدينة إلى حين من الزمن وحتى يستسلم ابن صيرم والسادة كلهم

قال : كيف سنحكمها أيها القائد وهي بعيدة عن بلادنا ؟

قال حفص : سنجعل فيها حامية من جندنا .. وستكون مملكة مستقلة عنا ؛ ليستقر الحكم فيها

وسنأخذ خراجها بعض الوقت .. ولو بلاد حميد الملك قوية لضممتها إليهم .. فهم أقرب إليها منا المسافة بينهم يوم وليلة .

قال : وثأر جدي .

قال : رجالنا وعيوننا يقولون إن لهم يدا في الغدر بجدكم يا مولاي ! وعلمنا أن اللص فواز من رجال الملك .. فالملك هذا له صداقات مع اللصوص والعصابات ؛ ليزعج بهم أي الملوك والتجار .. وسيصل إليه رجالنا في يوم قريب ..وعندما نأسر الملك سنعرف الجناة .

قال سيف : هل سيعترف الملك بجرمه ؟!

قال : لا ، لا ، الملك لن يعترف ؛ لكننا سنجد من يشي بالملك .. ويعترف نيابة عنه لينجو برأسه

قال : الوزير!

قال : قد يكون الوزير لا علم له بهذه المغامرات والألاعيب.

قال الملك : الوزير لا يعلم!

قال : الوزير مشغول بإدارة البلاد والعباد ..والملك مشغول بالمغامرات والغارات

قال : سمعت أن للملك زوجة فاتنة .. ألم تعتقل ؟

قال حفص : لقد أبعدهم الملك قبل الاقتحام .. وهذه الزوجة خطفها خطفا .. وهي ليست الأولى .

قال : مخطوفة ! ملك يخطف النساء !

رد القائد عسكر فقال بإشارة من حفص : نعم أيها الملك السعيد ،عندما يسمع النعسان بحسناء يخطفها ولو كانت حليلة ، وبعد قضاء شهوته ومغامراته يسرحها ويطلقها .

قال الملك استغرابا : وكيف يصمت عنه جيرانه الملوك ؟!

قال عسكر : يحذرون غدره وسوء أخلاقه.. فهذه الزوجة التي تحدث عنها بعض الشعراء أمامكم أخت أحد الأمراء من بلاد كذا .. وهذا الشاعر قريب لها ؛ لذلك ذكرها أمامك ؛ لتعمل على تحررها إذا دخلنا مدينة صيرم .

قال سيف : أبناء خالتي لم نصل إليهم !

قال عسكر : نقلهم قبل دخولنا .. كان ذلك متوقعا .

قال : لقد طلبنا منه خلع نفسه لأحد أبنائه ؛ ولكنه جبن عن التخلي عن العرش وهو حي .

قال عسكر : قد يكون خشي من الانتقام منه وحبسه .. وهو معزول من سلطاته وحكمه .

قال الملك :هل علمتم المدينة التي هرب إليها؟

قال القائد عسكر : لحتى الحين لم تعرف ؛ لكن علمنا أن الكثير من سادة البلاد انتشروا في عدة مدن لتوريطهم في حربنا .

قال الملك موجها الكلام لحفص : أيريد تشتيت جيشنا ؟!

قال حفص : قد يكون ذلك .

قال : ما أخبار بلادنا ؟

قال : البريد متواصل يا مولاي! وأنا أفكر بتبديل الجيش هذا بجيش آخر حتى لا نضطر لجلب النساء للرجال أو يتزوجون من بناتهم في هذا الوقت .. وهذا يضعف جندنا .. سيبدأ نصف الجيش بالعودة كما يطلب الوزير عندما يصل عدد من الجيش من البلاد .

قال : وجيشنا في مدينة حميد .

قال القائد : سنبقي عددا قليلا منهم هناك حتى نرى ماذا سنفعل بهذه المدينة ؟ فإذا خضعت لنا بدون تمرد ، وراق للناس حكمنا نستغني عن حماية الملك حميد لأن مكمن الخطر كان هو هذا الملك وأجداده .

شكرهم وقال : أحسنتم بالتدبير أنت والقادة والوزير غالب .

قال القائد : أنت ملك باسل يا مولاي! وجودك مع الجند رفع من حماسهم وجهدهم وثباتهم

الملك الهارب

لم يعرف الملك سيف أي المدن هرب إليها ملك صيرم ؛ لأنه غادر المدينة قبل اقتحامها كما ذكرنا استسلمت المدينة كاملة للجيش الغازي ، وتوقفت بؤر القتال ، ولزم الهدوء المدينة والترقب يترقبون أمر الملك سيف بعد طلبهم الأمان.

وأخذ الوزير غالب يدير أمر المدينة بمن تعاون معه من الأهالي ، وأخذ كذلك يجري عملية استبدال الجيش بسرية تامة .

وسرت إشاعات بأن الملك سيف سيغير نظام الحكم في المدينة ، وستحل أسرة جديدة حاكمة للبلاد ، وبدأ العامة يتطلعون إلى الأسرة القادمة والتي ستحكم المدينة ، ويتسألون هل ستثبت أقدامها فيها ، ويرضى الملك الهارب ابن صيرم وقبيلته الخضوع للملك الجديد ؟!

وبدأت مظاهر التغيير تحدث دون إعلان ذلك للناس ، وبدأت تصل هذه التغييرات إلى الملك الهارب وحاشيته الذين انتشروا في المدن المجاورة والأرياف ، وأخذ الوزير بمصادرة أملاك وأموال الملك وأعوانه المعروفين .

فكان ابن صيرم يقول لقائد معه: أصحيح ما يرد من أخبار ؟!

رد المعاون : الجواسيس تتحدث عن ذلك ، وأنهم يطلبون المزيد من الجند ، ويرغبون بجلب قبيلة كبيرة للاستقرار في المدينة ، وسيتولى الجيش حكمها حتى تستقر قبيلة عزام كلها فيها .

قال : ومن قبيلة عزام هذه ؟

قال المعاون : هذه قبيلة تنتشر في مدينة اللؤلؤ ، ومدينة حميد ، ومدينة ضياء سيجمعهم الوزير غالب في بلدنا ليكونوا حكامها .

وقال الملك بجنون : ونحن سنبقى في المنفى !

قال : قد يطاردوننا كما فهمت من بعض رجالي في المدينة .. وعلينا تجميع فلول جيشنا وننشئ جيشا قويا لغزو المدينة قبل تمكن هؤلاء منها أو تقسمها بينك وبين أحد الملوك ؛ لعله يقبل بمساعدتنا.. ولا نعتمد على اللصوص والمطاريد من بلادهم .. فهؤلاء أول من يهرب عند

اللقاء ..ويضعفون باقي الجند بفرارهم .

قال بحسرة : الآن لا ينفع البكاء على الأطلال .. علينا القتال حتى الموت .. أنا أعترف بأني تسرعت في الهجوم على مدينة حميد الملك .. لقد ظننت أن حلفهم مع مدينة سيف ضعف ، وسيتركونهم لنا فريسة سهلة .. وهم يعتقدون أنهم تهاونوا في حماية زرارة .. ما كان علينا أن نسمع قول ذلك الكاهن بقتل زرارة ظلما وغدرا لتأجيج الحرب بين سيف وحميد .. فها نحن خسرنا كل شيء.

قال المعاون : أذكر أنهم قالوا لك إن هذا الكاهن موتور ونذل وخائن وهارب من سجن المدينتين .. وإن غضبهم من زواج سفانة لن يفصم تاريخ البلدين .

قال : نعم ، قال بعضهم لي ذلك .. غرتني الأماني ، فسارعت بإرسال عصابة اللصوص لاغتياله ثم أطعته في خطف وأسر أبناء الأميرة .. هل أستسلم لهم ؛ ليعود ابني ملكا ؟!

قال : هم شرطوا ذلك علينا قبل المعركة الأخيرة .. لا ندري رأيهم اليوم .. وقد بدأوا بلم تلك القبيلة .. وأين ذهب ذلك الكاهن الخائن الذي تآمر على حياة الملك الذي كرمه ورفع من شأنه ؟

ضحك صيرم غلا وقهرا وقال : هرب كما هربنا!

قال : إنه رجل شؤم وسوء وشرير ليتك تخلصت منه .

قال النعسان :كان صديقا مقربا من زرارة .. حرك مطامعي لحكم مدينة حميد .. طمعت بتحقيق ما لم يحققه أجدادي بتوسيع ملكنا والاستفادة من خصوم حميد الذين يعيشون في بلادنا .. فعرف الكاهن اللعين هواي .. فلعب على ذلك الوطر .. ورأيت الأمر سهلا .. لقد رأيت بنفسك كيف دخلنا نصف البلاد دون مقاومة قوية ؟ رأيتها فرصة قد حانت من تدهور علاقات المدينتين.

قال المعاون : وقام والد زرارة قديما بطردنا ، وقويت صداقته بوالد حميد ؛ ولكنه يومذاك لم يغزنا اكتفى بطردنا .. وكانت بيننا المواثيق .. شاعر تسبب بتدمير مدينتنا .. الملوك يرفضون

استقبالك خشية أن يتهموا بالتواطؤ معنا ضد سيف .. علينا بتجميع أنصارنا وفلول جيشنا .

قال الملك : يطول الأمر .

قال : ما الحل يا مولاي الملك !

فقال بحيرة :بقاؤنا في أي بلد سيعرض شعوبهم للقتل والمعارك ..ضاقت علينا الأرض بما رحبت .. أسلم نفسي لسيف .

قال المعاون :ودم جده ..سيعرف أن لنا يدا !

قال : ذاك الكاهن هو الذي قتله ، وشجع اللصوص على قتله .

قال المعاون : بصمتنا ودعمنا .

ركبت الحيرة الملك كان يعتقد أن جيشه أقوى الجيوش وأكثرهم شراسة وندا لجيش اللؤلؤ إذا تطورت الأمور ، وتمنى لو أنه أصغى لوزيره لقد نبهه على قوة جيش الملك سيف ، وأن أفراده متجانسون ، ومن عدد محدود من القبائل فقط ، وأن الاعتماد على اللصوص وقطاع الطرق اعتمادا مهزوزا وفاشلا ؛ لأنهم لا يقاتلون عن مبدأ غايتهم المال والنهب والسلب، هم ينفعون فقط في الغارات والانسحاب بما غنموا ؛ لذلك كانوا سببا في ضعف الجيش والدفاع عن المدينة ببسالة .

كتب ابن صيرم رسالة استعطاف لأحد الملوك ويحثه فيها على التوسط بينه وبين سيف ، وإنه سيكشف له قاتل الملك زرارة .

قرأ الملك عادل رسالة الاستعطاف وأعطاها لوزيره وقال : أين ذهبت غطرسته وتكبره ؟ رسالة ذُل وخضوع !

قال : لكني سمعت يا مولاي أن الملك سيف سيؤسس مملكة جديدة في المدينة وأن حكم أسرة صيرم انتهى .

قال : وهل سيكتب لها الدوام ؟ والرجل سيدلنا على قاتل زرارة المقتول ..ونحن بشفاعتنا بينهم نستطيع أن نعيش بسلام إلى حين من الزمن .

قال وزيره : الملك سيف وقادته مصرون ـ كما تصل إليّ الأنباء ـ على خلعه قبل احتلال المدينة فكيف بعد السيطرة عليها كما ينقل لنا التجار والمسافرون ؟!

قال : نذهب ونتشاور مع الملك سيف ووزيره .. فهو مستعد للتنازل عن العرش لابنه ، وأن يعيش أسيرا في بلده .

قال : القول الفصل أيها الملك ليس لنا .. القول الفصل للملك سيف ووزيره وقادته .. وسآخذ هذه الرسالة إلى الملك سيف وأسمع رأيه .

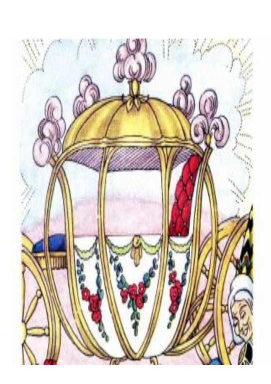
قال : لماذا لا تذهب بها للوزير أولا ؟

رد : قد يغضب الملك سيف .. فهو مع الجيش .

قال : يغضب.. أليس القول الفصل للوزير ؟

قال : صحيح ؛ ولكن الملك موجود ، لابد من رأيه ومشاورته .. وهل تظن أن الملك النعسان بريء من دمه ؟!

قال بتردد : الرسالة توحي بذلك .. إنه يعلم قاتله .. ولا يد له في قتله .



هرب السجناء

قبل دخول الملك سيف مدينة صيرم هرب حراس بعض السجون خشية الوقوع في الأسر أو يصرعهم السجناء ، كان ممن هرب الأمير كساب ـ هو لما أسر أسر على أنه تاجر ، لم يعرف في تلك المدينة بأنه أمير ـ وسار بعد تحرره ، ودخول جيوش سيف البلاد إلى زوجته ، وقص عليها خبره ، وخبر الحرب ، واستعد هو وأسرته للانتقال إلى مدينة أخرى .

قالت الأميرة : أنا كتبت للملك سيف من أجلك وناشدته أن يسعى في فك أسرك فما رأيك أن نعود لبلادنا ؟ فالملك الوالد قد مات وأختي خلود علمت ـ كما تعلم ـ من إخوتك أنها تصالحت مع أمي والملك سيف .. وهي تتردد بين المدينتين .. والملك سيف هو ابن أختي أمامة وهي أول من تزوجت دون رضا الوالد .

قال : أنا خطر لي ذلك قبل الأحداث الكبيرة وأنا في السجن ؛ لكن هل سيقبلنا الناس بعد خروجنا ؟

قالت : المهم أن نعيش بسلام كما نعيش هنا .. نبعد عن السلطان والأمراء .. ونعيش بأمان .. والأولاد من حقهم أن يعرفوا أقاربهم وملكهم .

قال موافقا : إذن علينا أن نرتب رحلة مع قافلة تجارية .. وقد عادت التجارة كما كانت بين البلدين ؛ ولعلنا ندرك آباءنا وأمهاتنا أحياء يا عزيزتي .

قالت : إذن نرحل وهناك نكشف أمرنا للناس .

طفق كساب التاجر يرتب لعودة أسرته إلى بلادهم التي هربوا منها ، ولما وجد القافلة المسافرة لبلاد اللؤلؤ جهز بضاعته وأسرته ، وتحركت القافلة بعدما جهزت إلى بلاد الملك سيف ، وأثناء الطريق حدثهم قائد القافلة عن المكان الذي تعرض فيه الملك زرارة للغدر ، فذرفت الأميرة الدموع على والدها الذي قتل غدرا حتى أن بعض رفقاء القافلة تأثروا بدموعها وشاركوها الحزن .

تابعت القافلة السير حتى دخلت بلاد الملك سيف بسلام ، ولما نزلت الحمولات في الخانات

القريبة من الأسواق استأذن كساب القائد لزيارة بعض المعارف ، وذهب منفردا لقصر والديه وعانق الرجل والديه ، وذرفت دموع اللقاء ، فهم لهم عدد سنين لم يجتمعا ، وإن كان بعض إخوته يمرون عليه في أثناء تواجدهم في مدينة حميد على أنهم أصدقاء وأبناء تجار .

وبعد حين أحضر زوجته وأولاده لقصر أسرته ، وعانقت الأم كنتها، وشكرتها على شجاعتها وتعشوا معا.

وفي الصباح ذهبت الأميرة إلى قصر جدتها لتقابل أمها عزوف ، وتتعرف على شقيقها ابن مناع ولما أخبرت الملكة بأمرها خرجت إليها مسرعة وعانقتها بحب وشوق وسعادة ، وذرفت الدموع الغزيرة ، وكان لقاء حميميا جياشا .

وتحدثا عن حياتها وأخبارها ، وقابلت أخاها الذي التزامها ورحب بها .

وأرسل الأمير غلمانا لإحضار الأمير كساب وأولاده الخمسة ، واستقبلت عزوف أحفادها وصهرها بشوق ، وعلم أهل القصر ومن حولهم بمجيء الأميرة بانة .

وأقامت عزوف وليمة كبيرة بهذه المناسبة، ودعيت إليها سفانة التي رفضت الحضور وحتى لما أخبرت بسبب الوليمة أصرت على رفض الحضور .

وقالت بانة : أنا سأذهب إليها .

وتذكروا خطف أولادها ، وأنهم ما زالوا مفقودين ، وقضى القوم ليلة في ضيافة الملكة ، وكتبت عزوف رسالة للملك سيف تخبره بعودة خالته بانة للبلاد ، ونجاة زوجها من أسر ابن صيرم .

وفي الصباح زارت الأميرة شقيقتها سفانة وعزتها بأبيها ، وشكرت سفانة لها مجيئها ، ولم تظهر أي حزن على فراق ذريتها ، وحدثتها عن مشاكلها مع أمها ، وبغض ذهابها لقصر أمها أو جدتها وكرهها لأخيها من أمها ، وحدثتها بانة عن الصلح والمصافاة مع أمها ، وبينت لها عذر أمها بالزواج من مناع أثناء نفيها وطردها من قبل والدهم ، وكان الزواج اضطراريا ، فهي تعيش وحدها مع خدم ودون حرس ،ولم يطلبها إلا ذاك الرجل ، وذكرت لها أن الرجل تاب منذ غادر المدينة ، فهو لم يعد لصا ، وكثير من اللصوص تابوا ، وصاروا علماء وملوكا، وفي النهاية قالت

: أبوك طلق أمنا ، والابن رياض لا دخل له في جرم أبيه وزواج أمنا .

قالت بشجاعة : أنا أعترف أني مخطئة في حق أمي !

قالت بانة :أمي لم تكن مقصرة مع أبي .. وقد رأت بنات الأمراء والسادات يتزوجن ويلدن .. وبنات الملك دون أطفال وأزواج .. وأمي لم تر رأي أبي حصيفا في عدم تزويجنا لمنام رآه .. ولم يغير رأيه ، وقد كبرنا .. والكاهن اللعين يضخم له أمر الموت على يد حفيد .. وها هو قتل على أيدي اللصوص وقطاع الطرق .

قالت : وسيف حفيده، وكان سبب موته.

قالت بحيرة : هو الذي قتله ! الملك نفسه طلب العودة لما علم باعتلاء الحفيد العرش ..وهل يرفض الحفيد رغبة جده؟ .. أبي تأكد أن المنام أضغاث أحلام وإلا ما غامر بلقاء الحفيد الذي ماتت أمه بسبب إهماله علاج أمه .. هل نقول إنه قتلها يا سفانة ؟!وأبي لم يطلب منك الحزن للأبد .. ولم يجبرك على الرحيل كما أراد عند طلاقك الأول .. حزنا وبكينا كسائر الخلق .

قالت : أنا عشت معه في سنواته الأخيرة ، وعرفت الضيم الذي حل به من خلعه عن الملك .

قالت بانة مبررة : هذا تقليد في جميع المدن .. ثلاث بنات للملك تزوجن دون موافقته ورغبته

قالت : إنني أحب أبي .

قالت بانة : ونحن نحبه أيضا .. أترينا نبغضه ؟!

قالت : أصبح وحيدا.



حكم المدينة

عرض الوزير غالب حكم مدينة حمصان على زعيم قبيلة عزام المنتشرة في بلاده ، وبلاد الملك حميد وغيرها من القرى ، وقبل زعماء القبيلة العرض بعد إقناع الوزير لهم ، وأنهم سيبقون تحت الحماية لمدينة اللؤلؤ حتى يستقر ويثبت لهم الحكم .. وسيبقى عدد من الجيش لحماية البلاد حتى ينشأ منهم جيش يستطيع حماية الملك .. وسمح لهم بإجراء تحالفات مع قبائل تقل عنهن قوة وعددا.

وعلى هذا الأساس بدأت قبائل عزام تزحف إلى المدينة ، وتم تمليكها المنازل الخالية للهاربين ، واختيار بقعة فارغة من العمران لإنشاء مركز قوة لهم ، لا يسكن فيه إلا القبيلة والحلفاء لهم من القبائل الأخرى .

ولما وصل الكثير من أفراد القبيلة اختير أحد أبناء الشيح علي ملكا على البلاد ، وشكل له حرسا من أقاربه ، وكل ذلك برعاية الوزير وقائد جيش بلاد اللؤلؤ الأمير حفص ، وموافقة الملك سيف .

وبعد شهور ثلاثة أعلنت البيعة له ، وطلب من أعيان المدينة بيعته والولاء له ، ومن يرفض ذلك عليه الرحيل ، ومن لم يعجبه التغيير عليه الرحيل إلى أي البلاد شاء ، وأخذ رجالات المدينة الذين طلبوا الأمان ، يتوافدون على قصر الملك لبيعته ، وكذلك فعل التجار ، ، وبدأت الملوك المجاورة ترسل الوفود للتهنئة للملك الجديد .

وكانت قبضة الملك سيف قد سيطرت على كل مفاصل البلاد والحكم ، وتأسس نظام شرطة جديد من أبناء القبيلة ومن شبان المدينة .

واستعد الملك سيف لمطاردة الملك ابن صيرم ، وقد رفض شفاعة الملك عادل ورسالة الاستعطاف ، ورد عليها أن صيرما له يد في اغتيال جده زرارة بتعاونه مع اللصوص لقتل جده ولغزو اللصوص بلاد حميد وأسر أبناء خالته ، وأنه الراعي لكل الفتن .

خرج الجيش الملكي من المدينة بعد تركه حامية من خمسمائة جندي ، ووعد الملك الجديد حسن

بإبقاء ألفي جندي عند العودة لبلادهم حتى يستقر الحكم ، وينشأ جيش منهم .

وسمح الملك حسن لأبناء القبيلة بالزواج من بنات ونساء المدينة ؛ لتعميق الصلات بأهل المدينة ونكح بعضهم قريبات الملك الراحل .

جن جنون ابن صيرم المختبئ في الجبال والكهوف بين المدن مما سمع من أخبار ، وعلم من الملك الذي شفعه أنهم يتهمونه برعاية قتل الملك زرارة ، وخطف أبناء خالة الملك سيف ، فأدرك النعسان أن أمره مكشوف ، وليس أمامه إلا الهرب والاختفاء أو الموت ، وأن مملكته سوف تتلاشى مع الزمن .

وكتب متوسلا لبعض الملوك البعيدين يطلب دعمهم ومؤازرتهم ؛ لاسترداد ملك آبائه وقبيلته وطلب من قائد جيشه غضب إنشاء جيش لغزو البلاد عندما يجد حليفا وطامعا .

وحاول أعوانه الذين لم يهربوا إثارة بعض القلاقل خلال تلك الشهور من الاحتلال ، فكانوا يواجهون بصرامة وقوة وردع عنيف .

وحتى المحاولات الخارجية لم تنجح مع جيوش الغزاة ، فقد كانت سمعة ابن صيرم في الحضيض لدى المدن الأخرى .

لم تستطع عيون ابن ظفار تحديد مكان اختفاء ابن صيرم ؛ لأنه لم يقبل أي ملك استقباله في بلاده خشية من غزو الملك سيف .

فوضعت جائزة مغرية لمن يدل على مكان اختفائه ، وكل قافلة تجارية تدخل المدينة تخضع للسؤال عنه ، وعن أتباعه لعل أحدهم صدفهم في طريق في جبل في واد .

وذكرنا أن أنصار وأمراء صيرم تفرقوا في المدن المجاورة ، لم يستقروا في مكان واحد ؛ بل تشتتوا في عدة مدن .

فكان سيف بعد مضي العام يقول لقائده : سأعود للبلاد كما فعل الوزير وعليك بمتابعة المهمة وقد سمعت من عسكر القائد عن رغبة وزير النعسان بطلب الأمان وسنعطيه ذلك ..كما سمعت منه ، ومن لقائه بالأسرى لم يكن لنا عدو ، ولم يكن مؤيدا للملك في ظلمه وعدوانه ..

وهو الآن يعيش بعيدا عن الملك ابن صيرم ونحن يهمنا أن نقلل من أعداءنا لثبات الحكم الجديد

قال حفص : يعطى الأمان ..ولا يسمح له بالعودة إلى حين ؛ ربما عشر سنوات ؛ فإذا قبل ذلك سنمنحه السلام له ولمن شاء من أقاربه وأهله .

كتب القائد للوزير الهارب بهذه الشروط والعفو ، فقبل الوزير الشروط وتبرأ من أفعال الملك ابن صيرم ، وأكد لابن ظفار خطف أولاد الملكة سفانة ، وأنهم أسرى لدى الملك ، وأعلمه أنه لا يعلم مكان اختفاء الملك ، ونفى أن يكون لجأ إلى أي ملك ، وأنه لا يثق إلا بقائده غضب وبعض رجاله ، وأنه كان يقوم بأعمال سرية دون اطلاعه عليها من قتل وخطف نساء وسرقة جواهر .

وبين له أن للملك علاقات سرية بلصوص وحرامية المدن ، وأن رجلا جاء المدينة والتقى غضب ، ثم الملك وحرضه على التآمر على الملك زرارة ، وزعم له أنه بقتل الملك تحدث فتنة بين البلدين تمهد لغزوه لبلاد حميد .

ولما سأل سيف القائد عن هذا المحرض والمتآمر والمشجع على قتل زرارة قال القائد : إنه صديق الملك زرارة الكاهن الشرير غياث .

صاح سيف : يا الهي ! أمعقول هذا ! لقد كان صديقه الحميم .

قال : هذا كلام الوزير لابن ظفار .. فهو قد هرب من سجن بلادنا بعد خلع جدكم .. ثم هرب من سجن الملك حميد . . قال سيف : أريد هذا الرجل الخبيث !

قال حفص : نحن نبحث عنه، فقد طلبت من العيون بالقبض عليه أثناء تجوالهم في المدن والأمصار ؛ ولكننا لم نصل إليه بعد .. ولا ندري أهو حي أم لا ؟ وهو ماكر مخادع !

قال : لعله مع الملك!

قال : لعله مع الملك ؛ ولكن الوزير أخبر أنه اختفى قبل غزونا لبلادهم .. وسنبحث عنه مهما طال الزمن .. ومهما تنكر وزور .

المغامرة

لما علم الوزير غالب بما أخبر به وزير صيرم من تآمر الكاهن على حياة زرارة استشاط غضبا ونقمة عليه ، وأنه غدر بالملك ولي سعادته ؛ ليثير الحرب بين البلدين لصالح صيرم .. فكم دافع وقاتل زرارة عن الكاهن ؟!ورفع عنه عقوبات وظلمات أصابت الرعية منه ومن أعوانه ، ورجح أن يكون هو الذي حاول قتله بالسم لنفس الهدف الجنوني .

فمنح الوزير القائد ابن ظفار شهرا واحدا ليأسر غياثا ، ويعرف مكانه على الأقل ، فغادر عسكر البلاد بمائة فارس للبحث عنه ، وسينطلق البحث من مدينة الملك الجديد حسن بن علي ولما لم يستطع جيش سيف معرفة مكان صيرم أعيدوا للمدينة ينتظرون كشف المكان .

أرسل ابن ظفار ثلاثة من رجاله الأذكياء للقاء وزير صيرم ، وسماع قصة غياث مرة أخرى ، والأماكن التي قد يكون هرب إليها .

فقال لهم الوزير لما علم أنهم من رجال ظفار في خلوة : هذا الخبيث له صداقة قديمة مع الملك كلما يأتي البلاد يخص الملك بزيارة .. يُستقبل لدى الملك كضيف وصديق .. ويمكث زمنا ، ثم يذهب، ويعود بعد سنوات .

وتابع الحديث : وهذا أمر عادي بالنسبة لنا .. فالملك له معارف من كثير المدن بسبب مغامراته النسائية والعاطفية .. ثم ظهر فجأة .. وعلمت من الملك بأن الرجل يشجعه على غزو بلاد اللؤلؤ وإعادة الملك زرارة لحكمها ، وأن يقاسمه العرش ؛ لأنه الملك الأحق بها .. وبينت للملك النعسان صعوبة ذلك الأمر .. وأن هذا العمل صعب تحققه .. والملك كان مقتنعا بصعوبة ذلك وسمحنا له بالحياة بيننا ، ولا أعلم بما كان يدبره مع الملك لقتل زرارة ؛ لأن علاقته كانت شخصية مع الملك .. فكان يختفي ويظهر ، ثم علمت بقتل زرارة أثناء عودته لبلاده على أيدي لصوص وقطاع طرق .. ولما ظهر الكاهن في القصر الملكي ومن كثرة لقاءاته بالملك ارتبت ببعض الأمر ؛ ولكن الأمر بدا واضحا بالنسبة لي بأن لنا يدا بقتل زرارة .. وسمعت الملك يتحدث عن حرب قد تحدث بين بلادكم وبلاد حميد .. وأن في ذلك مصلحة لنا لغزوها

وتنصيب ملكا من أقارب حميد بدلا منه يكون مواليا لنا .. فشممت راحة للملك بمؤامرة القتل وكان الرجل قد أصبح من جلساء الملك ، ويظهر معه في الديوان والقصر ويتحدث عن توسيع المملكة والحرب والحاجة للمزيد من الأموال وتقوية الجند ..فأستغرب من تحدثه بذلك مع الملك ؛ كأنه سيد كبير ..والملك لم يكلمني عنه أو يفصل إلا بإشارات مبهمة ..وكان الملك يحب ويهوى الحديث عن هذه الأحلام والتوسع والانتقام

ومضت الأيام ولم نسمع عن حرب بين المدينتين ، وبدأ يكثر اللصوص والمنفيون في بلادنا دون أن يوضح لي الملك ذلك .

ثم رأيت هؤلاء اللصوص وبعض رجال القائد غضب يغزون بلاد حميد ، ودخل بعضهم المدينة على أنهم تجار ، ثم غزا الملك بنفسه تلك المدينة ، ثم تدخلتم ، وتم طرد جيوشنا ، وعودتنا للبلاد والحصار وسقوط المدينة .. ونحن هربنا في مدن شتى .. فلجأت إلى هذه المدينة لصداقتي مع وزيرها وأهلها .. وهام الملك على وجهه ، لم يقبل أي ملك لجوؤه إليه لعدم رغبتهم بالحرب مع ملككم الشاب سيف .

وقد يكون غياث مع حاشية الملك أو هرب بعد توريطه الملك بهذه الحروب الخاسرة .. وهو رجل ذكي وقادر على التنكر والتخفي بشخصية شحاذ فارس .

وذكر الوزير بعض الأماكن التي يتردد إليها اللصوص والمنفيين من بلادهم ، وقد يكون الملك ابن صيرم بينهم.. فهو من عشاق لصوص المدن .. وكان يزعم بصداقته لهم أنهم لا يسرقون بلاده .. وكان بفعله ذلك يغضب جيرانه الملوك .. فبعضهم بل أكثرهم قتلة وهاربون من شرطة بلادهم .

كان المهمة واضحة لعسكر وأعوانه العيش مع اللصوص ، ووزع رجاله إلى عشر مجموعات لدخول عشرة مدن حول مدينة صيرم ، فكما دخلوا خفية خرجوا خفية .. عليهم أن يعملوا كشحاذين كباعة بضاعة متجولين كأصحاب عاهات .. وطلب منهم التعسعس في القرى الملاصقة للمدن ، ولا تبعد عنها كثيرا لحاجة اللصوص لشراء الأغذية من المدن الكبيرة .

وبينما الفارس جابر يدخل أحد الأسواق الكبيرة في مدينة نوف ، ومعه حمار وكبشان يتظاهر بأنه يسعى لبيعهم في السوق ، وأنه قادم من قرية بعيدة .. وبينما هو يتجول بهما سمع أحدهم يساوم تاجر ماعز على شراء عدد منها لأحد الملوك .. فتسمر جابر مكانه يتسمع .

فقال التاجر : يا رجل سواء اشتراها ملك أم عبد .. كل رأس بعشرة دراهم .. السوق ملآى بالخراف .. هذه خمسون رأسا بخمسمائة درهم .

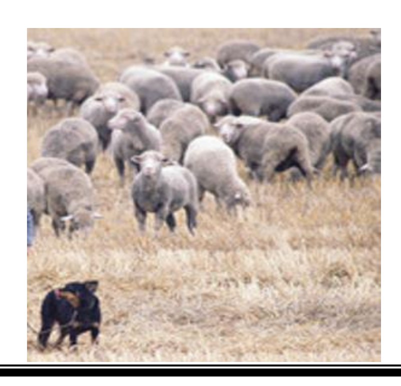
قال : خمسة دراهم في الرأس جيد .

قال مرة أخرى : ملك يمر بضائقة مالية كسائر الناس .

ردد التاجر كلام الرجل وقال : هذه أول مرة أسمع بمثل هذا يا هذا !

كان جابر يطمع بسماع اسم الملك الفقير ، ومن أرسله لشراء هذا الكم من الخراف فأسرع ببيع حماره وكبشيه بثمن بخس ، واشتغل بمراقبة الرجل .. واشترى الرجل الخراف وبعد بها عن التجمع .. وكان جابر قد عرض عليه أن يساعده .. فقبل الرجل وكان الفارس يقول: إذا أردت راعيا فأنا أعمل راعيا يا سيدي !

أعمق النظر فيه وقال : أنت راع .. ابق عندها حتى أشتري غيرها ..إياك والهرب .. قد أسمح لك بالبقاء معي لرعيها.



الراعي

أصبح الفارس جابر الراعي هجرسا ، أمره الرجل سرحان بحفظ الغنم حتى يشتري المزيد منها ولما اشترى ما يقارب المائة منها استأجر هجرسا كراعي معه حتى يصل بها لأصحابها الذين كلفوه بشرائها ، وهم الذين سيقررون بقاءه أو صرفه .

مضت أول ليلة وهم يسيرون في الدروب والوديان ، وفي الطريق قال هجرس لسرحان : لو ابتاعت كلبا ما دامت الطريق بعيدة .

قال سرحان : عندما نصل الديار سيكون معها الكلب .. والكلب مزعج أثناء الطريق .. أتركت الرعي؟

قال : اشتغلت به سنوات وسنوات لدى الكثير من الأغنياء والسادة . وعدد أسماء من عمل لديهم ، ثم قال : أنا كل سنة أمضي لأهلي، وأقضي عندهم عددا من الأيام ثم أمشي لسوق هذه البلدة نوف ، وقد ملكت حمارا وكبشين وبعتهما .. ثم أتنقل بين التجار والرعاة حتى أوفق لعمل وآخر شخص عملت عنده الشيخ سلطان بن همام ..وهو وهبني حمارا وعنزتين.. وقد رأيتني أبيعهما في السوق .. ولما رأيتك تشتري هذه الأغنام عرضت نفسي عليك .. فأنا غير مربوط مع أحدهم هذه الأيام ؛ فإذا قبلتم بي عملت معكم هذا الموسم .

قال سرحان : قد يقبل السيد الذي أعمل معه أن يستأجرك لموسم أو أكثر .

ومضت ليلة ثانية وثالثة عندما دخلا واديا فقال سرحان : هنا يا ولد .. هنا يا ولد مرعى السيد نزل من بعض المغر عدد من الرجال وقال أحدهم : اشتريت الغنم ..ومن هذا؟!

فرد سرحان : ابتعها من نوف .. سوق نوف الكبير .. واستأجرت هذا الراعي ؛ فإذا كان لنا فيه حاجة نستأجره ، وإن لم يكن بنا حاجة إليه ننقده أجره وينصرف راشدا .

قال : كم أجره ؟

قال : عمل أخر موسم مع الشيخ سلطان بن همام على حمار وعنزتين .. وأما نحن نعطيه في اليوم ربع درهم .

قال : وأهله!

فقال سرحان : كلما تيسر له ذهب إليهم.. وهو من غير زوجة ..إنما هما أمه وأخته وبعض خالاته وله معي ثلاث ليال .. أجره عن كل يوم درهم بسبب السفر وصرة طعام .

قال : فليبق حارسا للغنم حتى نفصل في شأنه .

ساقه سرحان إلى وادي الرعيان ، وعرفه على الراعي شاليش ، ورحب به شاليش ، واعتبره أخا له .

وسأل هجرس : أهذه عشيرة تعيش في هذه الجبال العالية؟

قال : عشيرة صغيرة يا هجرس .. من أي العربان أنت ؟

عاد هجرس وروى قصته وعمله في الرعي كما رواها لسرحان ، ولما انتهى قال : وأنت من أي العربان ؟

قال شاليش : أنا مثلك من سكان المدن ..كنت راعيا عند الملك .

تظاهر جابر بالدهشة والخوف : راعي ملوك ! كنت راعي ملوك ! وايش رماك على هذا الوادي ؟

تنهد شاليش وتحسر : الزمن يا هجرس .. جار علينا الزمن .

تظاهر بالسذاجة وقال : طردك الملك .

قال : لا ، لا ، يا هجرس غدر بنا الزمن

قال : مات سيدك الملك .

قال : لا ، لا ، ما مات .. ناس اعتدوا علينا ، واحتلوا بلادنا .. فهربنا بالمال والحلال .

قال : تعيشون في المنفى والكهوف .

قال بحزن عميق : نعم ، نعيش في هذه الكهوف بعد القصور .. أنا حزين لسيدي الملك .. حزين لسيدتي الملكة بعد العز ننام في المغر .. الزمان دوار

تظاهر جابر بالإجهاش بالبكاء والحزن وقال : حزنتني على الملك والملكة .. وما هو سبب هذه

البلية يا أخي شاليش ؟

مسح دمعات سالت على خديه وقال : السبب طمع بني الإنسان فيها عند أخيه

قال : الملك سيدك يعيش هنا .

قال بأسف : نعم ، يعيش في إحدى المغارات .. ما عاد لنا صديق .

قال : مسكين هذا الملك ! أنت عندك كلام كثير لا تحب قوله .. احفظ سرك يا أخي .. أنا قلبي معك .. أنا ما أحب الحزن كثيرا ؛ لكن هذه الدنيا لا تخلو منه .

قال : أنت طيب يا هجرس ..الدنيا ملآى بالنكبات والآلام .

قال : صدقت يا شاليش .. ألك زوجة ؟

قال : زوجة وماتت زمان ..وأنت !

قال جابر : لم أتزوج .

قال : عيال ما عندك ما دامت لم تنكح .

قال : ما عندي عيال .. كنت أرعى أولاد أختي .

قال : أنا كان معي رعيان كثر ؛ لكنهم ظلوا بالمدينة لما خرجنا منها ؛ لعلنا نعود للمدينة ، وتعود معنا يا هجرس .

قضى هجرس عددا من الأيام مع الراعي شاليش ، وكان الراعي يذهب صباح كل يوم قبل انطلاقهم للرعي في الجبال والأودية بثلاثة أو أربعة خراف إلى سرحان والطهاة كما يخبر ، ويعود بعد حين ومعه بعض اللحم ، فيقومان بشيها وأكلها ، ثم يسرحان بالغنم ، وكانت الأغنام تنقص فما مضى عشرة أيام حتى نقص منها الكثير .

فقال جابر : كل يوم يأكلون اللحم .

قال : اعتاد السيد على أكل اللحم من أيام العز .. كان بعض الأيام يذبح عشر فأكثر .. اليوم نحن فقراء .. القائد يسأل عنك .

قال : سرحان!

قال : سرحان ليس بقائد .. سرحان يعمل مع الطباخين ؛ولكنه الذي يشتري الأغنام من الأسواق البعيدة.. القائد يسأل هل ستظل للعمل معنا أم ترغب بالعودة لديارك في نوف ؟

قال : أنا قلت لسرحان أستطيع أن أعمل معكم لموسم سنة أو أكثر .

قال : إننا نحتاج خلال أيام لمزيد من الخراف.. فيمكنك الرحيل مع سرحان لجلبها والعودة أو الرحيل .

قال : أنت بماذا تنصحني ؟

تنهد الراعي : الحياة هنا شاقة وصعبة كما ترى .. والبقاء هنا يعني أنك ستذهب كل بضعة أيام للشراء .. ففكر بأمرك وأنت رجل طيب .. علمت أن السيد هذه الأيام في ضيق .

قال : لماذا ؟

قال : الملك لم يعد لعرشه ، وأصبح طريدا ورأسه مطلوبة من قبل خصومه .. الحياة في الكهوف والجبال شاقة يا هجرس حتى أنا أقاسي منها مع أنني راعي .

قال : أنا تعودت على حيّاة البر والشعاب والحر والبرد .. لم أعرف الحياة في القصور والتخوت.

بعد مضي أسبوع أخر جاء سرحان المرعى ، وأخبر هجرس بأمر الذهاب للمدن لشراء الغنم فرحب هجرس بالرحلة .

وخرج الرجلان من الجبل المقيم فيه الملك الهارب واتباعه العدد القليل ، وكانت خطة سرحان المسير لمدينة نوف أو مدينة نعمان لشراء مائة رأس من الغنم ، وتأخذ الطريق إليهما ثلاث ليال ومسموح له البقاء ثلاث ليال للشراء .. والعودة للجبل ثلاث ليال ، وليلة عاشرة احتياط .

ولما دخلوا نوفا طلب هجرس زيارة قريته بليلة واحدة يعطيهم ما تحصل عليه من مال ، لأمه وأخته ، ويطمئنهم على حياته ، والعودة لمدينة نوف إلى خان دله عليه سرحان ، وإذا لم يجده يتبعه إلى نعمان ، وذكر له خان أسد الدين .

أخذ هجرس طريقه إلى مدينة صيرم ، وقد اشترى فرسا من أحدى القرى ، والتقى بالقائد ابن ظفار الذي فرح بعودته ، وسعد بما حمل من أخبار، فقد كانت خطته أن يلتقي برجاله كل خمس

سبع ليال .

ذكر له المكان الذي ينزل فيه ابن صيرم وخمسمائة من أتباعه المخلصين .. وأنه مريض وعلى وشك الموت كما يثرثر الراعي شاليش .. وقد أثر فيه القهر والغيظ وأنه لم يسمع عن وجود غياث معه ومع حاشيته .

وأمره عسكر بالعودة إلى نوف والعمل راعيا ، وأن يضع علامات في الدرب الذي يسلكونه لتساعدهم بسرعة الوصول للجبل ؛ بل سيسبقهم بعض رجاله قبل شراء الغنم .

في مساء اليوم التالي كان هجرس يعود لنوف باحثا عن صاحبه سرحان ، فأخبره صاحب الخان بمسيره لسوق نعمان لشراء المزيد من الغنم ، وسار لهناك والتقى به ، ففرح سرحان بعودته واطمأنه على أهله ، وشروا عددا من الغنم من سوق نعمان ، ومشوا بها نحو نوف ، ولما كمل الشراء تحركوا بغنمهم نحو الجبال التي يختبئ بها ابن صيرم ، وأقرب الناس إليه .

وقال : هذه تكفي القوم شهرا يا هجرس .. وليس لدينا وقت لتربيتها وولادتها .. وشاليش أحبك وأثنى عليك وراغب ببقائك معه .

قال جابر : إنه رجل طيب ، ورجل وفي ! وهو الذي أقنعني للبقاء معه في تلك الجبال .

فقال سرحان بحزن وحنق : كنّا في سعادة يا هجرس حتى جاء ذلك الرجل الشؤم .. وشوش على السيد .. كم نصح الوزير مولاي بعدم التحرش في بلاد الملك حميد .. وذكره بما حل بأبيه من هزيمة .

قال : وهذا الرجل الشرير اللعين أما زال مع الملك ؟

قال بغيظ : هرب قبل غزو بلادنا .. آه ! لو أمسك به لقتلته بنفسي .. مرض الملك هذه المرة أرى فيه النهاية .. كان القائد غضب من المتحمسين للقتال والشهرة ؛ ولكنه سقط عن الجواد وكسر ظهره ، ثم مات قبل شهور ؛ ولكن أولاده مع الملك

تظاهر جابر بالحزن والشفقة وقال : مسكين الملك !

قال : نعم ،إنه أكبر مسكين ! الملك اليوم يعض أصابعه ندما .. لقد تخلى عنه الصديق والحبيب

حتى بعض أولاده تركوه وخرجوا من الجبل .. ومنهم من سلم نفسه لعدو الملك .

قال: لا إله إلا الله ..كل ذلك من ذاك الرجل الشرير .. ما اسمه حتى لو صدف به الإنسان حذر منه ؟

قال بحقد : اسمه غياث ..ورطنا في هذه المعارك واختفى .

قال : اختفى !

قال : نعم ، اختفى ؛ لكنني سأبحث عنه وأخلص الدنيا منه .

قال : أنت !

قال : نعم ، أنا ..إذا مات الملك سنتفرق ونتشتت ، وسيكون هو غايتي إلى آخر يوم من حياتي

قال جابر : إنك تكرهه بشدة يا سرحان!

قال بغضب : إنه الشيطان بنفسه .. لقد أساء لي شخصيا في يوم من الأيام .. ولولا حماية الملك له لطعنته بخنجري هذا .



موت الملك

ولما وصلوا الجبل ساق هجرس الأغنام إلى مرعاها عند شاليش ، وذهب سرحان للقائد ضرار وعلم هجرس من الراعي أن الملك يحتضر ، وقد اشتد عليه المرض منذ خرجا لشراء الطعام ، وبعد وصولهم بيومين مات ابن صيرم في الليل ، وارتفع الصراخ والعويل بين النساء وزوجات الملك الثلاث والجواري ، وبعد يوم من البكاء والعويل دفن الملك في أحد الكهوف

اجتمع القائد بالموجودين من الرجال ونساء الملك ، وأعلن أمامهم عن خططه فقال : بما أن أولاد الملك ابتعدوا عنه ، وانتشروا في المدن .. فعلينا أيها الأخوة والأبناء أن نتفرق مثلهم في المدن والأرياف .. فلم يعد لبقائنا أهمية وليس لأحد منا حق أن يطالب بالعرش .. سأنزل للمدينة ، وأقابل أبناء الملك وخاصة الأمير أدهم ؛ فإذا وافق على المجيء إلينا بقينا ملتفين حوله مطالبين بالعرش ، ونتابع المسيرة ، وإن رفض هو وغيره عليكم التفرق في المدن وبين الشعوب غادرهم القائد ضرار وأحد أعوانه للقاء الأمير أدهم .

وكان هجرس يقول لشاليش : أين ذهب ذلك الغياث الشيطان كما أخبرني سرحان ؟

قال : لما هزم الجيش في بلاد حميد من قبل جيش سيف اختفى من قصر الملك .. احتاجه الملك ، فلم يجدوه .. كم تمنيت أن أشرب دمه وأحرقه ..دمر مملكتنا وعرضنا للغزو والشتات .. وقتل الملك زرارة صديقه كما علمنا .. وخطف أبناء ابنته ، ثم اختفى وعلمنا أن ملكا جديدا نصب في بلادنا مما زاد من ضعف الملك ومرضه هل سيعمل ابن الملك على طلب الملك ويأتي الجبل

قال : لا أظنه يقبل يا شاليش بعد تخليه عن السير مع أبيه المريض .. والحياة في الجبال صعبة وشاقة .

وقبل أن يعود ضرار اقتحم الجبل رجال عسكر ، وتم استسلام الناس للجيش الصغير ، وكانت المفاجأة أن وجدوا الملك ميتا ، وقد دفن في إحدى المغر .

وانتظر الأمير ابن ظفار عودة ضرار بابن الملك ، ومضت عشرة أيام دون عودته .. فأمر القائد بنقل الأسرى إلى بلاد صيرم ، وترك عشرة من الفرسان والراعي هجرس في الانتظار .. ووصل

بأسراه إلى المدينة ، وأطلع قائد الجيش حفص على الخبر الذي كتب بدوره للملك سيف بموت النعسان وأسر نسائه وبعض اتباعه .

وبعد التحقيق مع الأسرى سمح لهم بالعيش في المدينة أو الخروج ، وحثهم الوزير بالاستمرار بالبحث عن غياث وأبناء سفانة .

وكان أحد الأسرى قد دلهم على مكان دفن رأس زرارة ونبش القبر ، وأخرجت الجمجمة وما بقي عليها من لحم ، وأرسلت إلى مدينة اللؤلؤ بكوكبة من الفرسان والجنود حيث أعيد دفنها بحفل رسمي شارك فيه الملك والوزير وسادة البلاد مع تجدد البكاء والحزن في قصر الملك وبنات الملك .

وبينما ابن ظفار يرتب الأمور مع رجاله للبحث عن غياث جاء العشرة وهم يأسرون ضرارا ومن معه ، وسمع منهم خاصة ضرار وصديقه درهم قصة مقتل زرارة ، فقد اعترفت إحدى زوجات ضرار عن دوره في مرافقة اللصوص للغارة على خيمة زرارة ، وقطع رأسه ، وبعد أن سمع أقوالهم أرسلهم للوزير غالب مع رجاله ، فأمر الملك بقتلهم فور وصولهم ، لم يقبل فيهم أي عطف ، وقتلوا أمام الناس على أنهم قتلة الملك زرارة ، وصلبوا ثلاثة أيام ، وتم رمي جيفهم في صحراء المدينة حيث الوحوش .

وقال السيف : الحمد لله اقتصصنا من قتلة جدي ! وبقي علينا الكلب اللعين الخائن غياث .

قال الوزير : سيقع يا مولاي ! لن يهدأ ابن ظفار حتى يقبض عليه ؛ ليقتل أمام أهل المدينة .

فقال سيف : أرجو أن يصلوا إليه حيّا ..وعسكر بن ظفار بطل عظيم ! ومن أهل الصبر وأهل العقل .

وأكد غالب ثناء الملك فقال :ويملك أيها الملك رجالا أشداء ، ومن أفضل فرسان المدينة على مر الزمان .. فقد استطاع الفارس جابر دخول الجبل والعيش فيه دون أن يكشف لأحد من رجال الملك ابن صيرم.

قال : نعم ، كتب لي ابن ظفار بقصة الفارس جابر .

قال : وقد قمنا بطمس قبر ملك صيرم وإخفاء مكان جثته .. وعفونا عن نساء الملك وجواريه وخدمه ، وخيروا بالبقاء أو الرحيل .

قال سيف : وعلمت أن بعضهن غادرن المدينة لبلدانهم اللواتي ولدن فيهن .. وأعتقد أن خطتنا ستنجح في حكم بلاد صيرم ويستقر الملك لقبيلة عزام .

قال الوزير : بقي غياث الشيطان .. كان أخي أوس يود قتله أكثر من كرة ؛ لكن خشية غضب الملك كان يغض الطرف عن منكراته ومغامراته مع بعض نساء وسادة المدينة .. فهو الصديق الخائن .

قال : كان رفيق وصديق جدي.. فأراد أن يجعل من دم صديقه شعلة حرب بيننا وبين الملك حميد .. كان لا يعمل الملك شيئا إلا بمشورته .. يا له من حقير وغد !

قال غالب : كان جدك مخدوعا بالتنجيم .. مخدوعا بقدرتهم على كشف المغيبات .. لقد سيطر عليه بذلك المنام ..أرجو أن يظفر به ابن ظفار ؛ لتعم السعادة والفرح في البلاد .

دخل الحاجب معلنا بأن الأميرة سفانة ترغب بمقابلة الملك .

قال الملك : هنا في ديوان الحكم !

الحاجب : إنها على الباب .

رأس زرارة

أمر الملك بإدخال الأميرة لديوان الحكم ، وخيم الصمت على الحاشية ؛ لعلمهم أن مجيء ملكتهم القديمة للديوان لابد أن يكون لشأن مهم وعظيم .

تقدمت نحو كرسي العرش حتى أصبحت أمام الملك ووزيره ، وبعد إلقاء السلام قالت : جئت يا مولاي الملك إلى هذا الديوان ؛ ليكون الكلام أمامك وأمام الوزير وسادة البلاد .

رحب بها الملك وقال : شرفت مجلس الحكم في البلاد .

قالت: أقدر لك أيها الملك شجاعتك وحربك من أجل دم جدك الملك زرارة المقتول ظلما وعدوانا ! وأقدر لك خروجك الحرب لأكثر من سنة في مطاردة القتلة والمجرمين ! وأبارك لك إنشاء مملكة جديدة في بلاد صيرم .. وتمنيت لو أنك أسرت ذلك الخائن ؛ ليصلب في مدينته .. وأقدر لك بحثك عن أولادي وعن ذلك الكاهن الشيطان ؛ ولكني علمت أن الرأس التي دفنت في قبر أبي لم تكن رأس أبي زرارة ، إنها جمجمة أخرى .

أصابت الدهشة الجميع لهذا النبأ ، وزاد تحديق العيون بها ، وبعد صمت قاتل قال الملك : وما أدراك أيتها الأميرة بذلك ؟ بأن الرأس لم تكن رأس جدي!

قالت : سمعت ذلك من إحدى الجواري .

قال : وكيف علمت تلك الجارية ؟! نحن تبعنا كلام الرجال الذين غدروا بالملك وشاركوا في الجريمة هم الذين دلونا على مكان الرأس .. هل ترين أنهم كذبوا علينا ؟ تكلم أيها الوزير !

التفت الوزير إلى الأميرة قائلا : أيتها الأميرة هل تظنين أننا مغفلون ؟ لقد قمنا بالتحقيق والتدقيق وهذه الجارية كيف علمت ؟

ردت الأميرة : إنها جارية من تلك المدينة .. وأهديت لي من قبل أختي بانة ـ وهي من الجواري التي أحضرن من صيرم من جواري الأمراء والسادة ـ فلما سمعت قصة الرأس قالت الملك زرارة قد أحرق رأسه .

قال : أحرق ! لا أيتها الأميرة ! أخذ الرأس لأن أكثر القتلة من اللصوص ، وبعضهم من

رجال الملك كضرار ، أخذوا الرأس لسوء ظن الملك بهم ، وليتأكد أنهم قتلوا ذات الملك ، وليؤكد لهم الكاهن أنه الملك.. إنه يتعامل مع لصوص .. ولماذا يكذبون ؟ لو حرق الرأس لقال بعضهم ذلك ..وأما أبناؤك فقد غادروا المدينة قبل وصول جيشنا .

صاحت محتجة : أنا لا يهمني أبنائي .. هم أبناء شداد .. تركتهم له وهو الذي قصر في حفظهم عليّ برؤية الجمجمة !

أمر الملك بعض الأمراء بالذهاب إلى قبر زرارة ، وأحضر بعض الحفارين ، وفتح لها القبر ، وأخرجت الجمجمة ؛ لتراها سفانة ، ولما رأتها صاحت فيهم : أهذا رأس أبي ؟

فقال القائد : هذا ما نعتقده أيتها الأميرة ! وسواء كان هو أم غيره بعد حين سيُصبِح رميما .

فنظرت إليه بحقد وقالت :رميم ! وهل يصير بعد الموت رميما؟!

قال : أليس هو إنسانا مثلنا ..كلنا سيصير ترابا .

قالت: تلك الخادمة كاذبة!

قال :لم نسمع أن رأس الملك حرقت ..كانوا يحتفظون به ليساوموا عليه من أجل السلام .

أعيدت الجمجمة إلى القبر ، وعادت الأميرة إلى قصرها ، واستدعت تلك الجارية وغضبت عليها ، ثم أمرت ببيعها ولو بثمن بخس .

وظلت الجارية تقسم أن رأس زرارة أحرق ، وأنهم خدعوا رجال الملك سيف

فقال سفانة: اذهب بها إلى للملك سيف في ديوانه ليسمع من فمها .

أخذها القيم للديوان ، وأخذها الوزير إلى حجرة ، وسألها عن سبب قولها بحرق رأس الملك ومن أين سمعت بحرق رأسه .

قالت بثبات : يا مولاي الوزير ! أنا لما سمعت بجلب رأس الملك الميت ، فعلمت أنها خديعة لأنني كنت إحدى خادمات القصر ، وعشت فيه منذ الصغر ، وكنت أخدم الملك والكاهن غياثا عندما استقر في ضيافة الملك ، وسمعته مرة يقول لرجل معه: لقد تم حرق رأس زرارة.. فقال الرجل : لماذا فعلوا ذلك؟! فرد قائلا حتى لا يساوم عليه في يوم من الأيام ولإخفاء أي

علاقة لنا بقتل الملك ؛ وإنما قتله اللصوص .

قال الوزير : حسنا يا لمياء ! ستحبسين حتى نتوثق من هذا الكلام .

وأرسل الوزير كتابا لابن ظفار حول رأس زرارة ، ولمعرفة الحقيقة ، وزار الوزير الأميرة وسألها عن الجمجمة فقالت : لا أدري ! هي عظام دون لحم .

ترحم على الملك وغادر .



الخبر اليقين

تلقى ابن ظفار رسالة الوزير غالب والشكوك التي أثارتها خادمة سفانة حول رأس الملك زرارة فكتب للوزير أن الحسم سيكون بالقبض على غياث حيّا.

وأخبر ابن ظفار رجاله بأهمية القبض على هذا الرجل ، وأن المعركة لن تنتهي حتى يمسك به .

وكان ضرار شريك اللصوص في قتل الملك، ورجل الملك الخفي أعلمهم أنه بعد خطف أولاد سفانة أخذهم واختفى ،كما أقنع الملك بذلك ، وكان بعد مقتل زرارة يتردد على المدينة أو الملك خفية ومتنكرا .

أعلنت جائزة كبيرة فيمن ساعد في الدلالة عليه ، ورغم هذه الجائزة لم يتقدم أحد لتقديم معلومات عنه .

كثرت اجتماعات ابن ظفار بقادة أعوانه لتبادل الأنباء والخطط التي يستطيعون بها معرفة مكان غياث .

فقال أحدهم : رغم بحثنا في كل المدن المجاورة والمحيطة بهذه المدينة لم نسمع أن ملكا استضافه ورحب به كصديق للملك صيرم.

فقال آخر : إنه رجل يعيش في المدن الكبيرة .. فليس سهلا أن يقيم في قرية ، وقد تعود على حياة المدن وصداقة الملوك .. سعينا لدى الكهنة والدجالين في المدن التي قمنا بالبحث فيها ، لم يخبر أحد بأي لقاء معه .

قال ثالث :إنه مطارد ومدفوع ثمنا برأسه ، والثمن مغر.

فقال ابن ظفار بعد سماع الكثير من الأفكار والكلام : ألا نستطيع وضع طعم له ؛ ليظهر ويخرج من وكره ؟

قال : طعم ..وما هو هذا الطعم الذي يخرج الشيطان من مخبئه ويغامر برأسه؟

قال عسكر : تذكرون أن له جارية اتخذها زوجة اسمها سمات ..فعندما حبسناه في بلادنا لقد ناشدت الوزير ليصفح عنه.

قال أحدهم :نعم ، عندما هرب من البلاد غادرت البلاد مع خادم ، وتبعها رجالنا يومذاك ، وجاءت للسكن والعيش في هده البلاد ، ثم تزوجت الخادم الذي خرج معها كما تبين من مراقبتها ..راقبناها ؛ لنصل بواسطتها لغياث، ثم أهمل أمره وأمرها ، ولم نسمع من حمزة الفارس عن أي لقاء بينهم .

قال عسكر : عليكم معرفة مستقرها .

قال : تذكرون أنها عملت جاسوسة للكاهن والملك زرارة في منفى الملكة عزوف .. وكافأها الكاهن بعد اختفاء الملكة من رقابة زرارة الملك بالزواج منها.

قال القائد : عليكم الانتشار ؛ لعله يحدث معنا كما حدث مع الفارس جابر في سوق نوف .. نحن نعلم أن الكاهن من الأذكياء .. ومهما أعطي الإنسان من الذكاء والفطنة لابد من غلطة هنا أو هناك .. ونقطة ضعف وغفلة.

أمر القادة رجالهم بتنفيذ أوامر ابن ظفار بالتسمع والتجسس عن الكاهن .

وحدث بعد هذا الاجتماع والانتشار ببضعة أسابيع أن جاءت رسالة للأمير ابن ظفار من الوزير يخبره فيها بأن الكاهن أطلق سراح أبناء سفانة ، ورجعوا لبلادهم ، وأن الأميرة تسلمت رسالة من الكاهن يعلمها بأنه أفرج عن أبنائها ، وأن لا يد له في قتل والدها الملك كما يشاع في طول المدن وعرضها ، وأن الذي أشاع ذلك ونشره الملك ابن صيرم وأتباعه ؛ لإلقاء عبء الجريمة عليه ، وليعفو عنهم الملك الشاب ؛ ولأنه كان مختفيًا بعد هربه من سجن حميد في بلاده ، واستغل الملك النعسان هربه ولجوئه إليه، وأن النعسان هو الذي سعى لقتل الملك بالسم لإشعال الحرب بين سيف وحميد ، ولما نجا الملك من ذلك استغل عودته لمدينته ، وأرسل إليه اللصوص وقائده ضرار وأتباعه والهدف قيام الحرب ، ثم يستغل ضعف حميد ليحكم بلاده ، ويصمت الملك سيف ، واعترف لها أنه هو ـ أي النعسان ـ خطف أبنائها لتأجيج الصراع ورهينة عنده يستغلها في الوقت المناسب ، وكلفه بالاختفاء بهم حتى يأتيه الأمر منه .. ولما علم بموت الملك ابن صيرم وموت ضرار تشجع وأطلق أبناء الأميرة ، وهم في الطريق لبيوتهم وأبيهم ، وأنه كان يعيش

حياة رعب معهم ومع رجال ضرار ، واستغلوا ضعفه وهربه من بلاد اللؤلؤ ومن سجن حميد وأعلم الوزير عسكرا أن الأميرة مصدقة لكل ما في الرسالة ، وأن الكاهن بريء من دم أبيها ، وأنه أعز وأهم صديق لأبيها ، ولا يمكن أن يخونه ويشارك في دمه .. وماذا يستفيد من قتله ؟ فلن يصبح وزيرا ولا ملكا .. وأما حديث الجارية عن الحرق فهي محتارة في فهمه بعد رسالة غياث .. وأعادت الجلوس مع الجارية ، وأكدت الجارية لمياء كلامها واتهام غياث بحرق الرأس وسمعته يتحدث مع الملك عن ذلك .

وكتب ابن ظفار أن لا حل إلا بأسر غياث ، وإذا صحت هذه الرسالة فهذا يدل على حياة غياث وأرسل بعض رجاله لمدينة حميد للتحقق من حياة الأطفال الثلاثة بعد هذا الزمن من الاختطاف ولعلهم سمعوا عن اسم المكان الذي كانوا مختفين فيه ، ووجدوا لديهم أنهم تنقلوا في عدة مدن وآخر مدينة مكثوا فيها اسمها نعمان ، ولم يكن معهم الكاهن لما سكنوها اختفى الكاهن ، وتركهم في رعاية خادم ..وقبل عودتهم لمدينتهم أتاهم الكاهن ، وأخبرهم أن الفرج أتى ، وأحضر لهم دوابا وساقهم إلى مدينة ، وكلف رجلا عجوزا بتوصيلهم إلى مدينة حميد مقابل أجرة وبصحبة قافلة .

فأرسل ظفار رجاله إلى مدينة نوف ونعمان ، وطلب منهم البقاء فيها مدة طويلة حتى يرسل لهم بالعودة .. وهناك وجدوا أحد أبناء الملك ابن صيرم يعيش فيها كعامة الناس ، وعددا من أمراء صيرم .. واستطاع رجال ابن ظفار معرفة سبب خطف أبناء سفانة منه ـ وهو المساومة في حالة أسر أحد قادة الملك صيرم ـ واستطاعوا الوصول للبيت الذي أمضى الأمراء فيه زمن خطفهم وحبسهم .. وكان خاليا من السكان ، ووضع تحت المراقبة .



سفر سفانة

كانت سفانة مقتنعة بكل ما أخبرها به الكاهن في رسالته إليها ـ الرسالة التي يبرأ بها من دم الملك ـ وأنه حشر في القضية رغم أنفه ، وأنه لا سلطة له على الملك النعسان وقادته ؛ لكن كلام الجارية عن حرق رأس الملك يدل على تآمر بينهم .

قابلت الملك ، واستأذنت بالسفر ؛ لرؤية أطفالها في بلاد الملك حميد مدينة جلال الدين ، وبعد تشاور مع الوزير قبلا ذلك ، وأرسل معها سرية من مائة محارب.

وحملت الهدايا لأولادها وزوجها والملك والوزير ، وحلت ضيفة على الملك حميد بعد ثلاث ليال واستقبلت بالترحاب ، وقابلت أولادها الثلاثة ، وفرحوا بلقائها وحدثوها عن رحلة عذابهم ، وتنقلهم في عدة مدن .

وزارت والدة زوجها ، وقدمت لها هدية قيمة ، وقضت عشرين يوما في المدينة ، ثم قفلت عائدة لبلادها .

وزارتها خلود وبانة عندما علموا برجوعها ، وسألوها عن حال أطفالها بعد اختطاف طويل ، فطمأنتهم عليهم ، وأنهم بصحة جيدة رغم ما عانوه من ترحال وأمراض خلال تلك الشهور وفوجئوا أنها سألت عن أمها عزوف فقالت خلود : عجيب أول مرة تسألين عن أمك! أليس هذا غريبا يا بانة؟!

قالت سفانة : أعرف ؛ لكنني سمعت أنها مريضة أثناء غيابي .

فقالت بانة : جميل أن تنقل لك الجواري حال أمنا ! أمنا تحسنت صحتها ، وهي تسعى لتزويج أخينا قبل موتها .. فقد طلبت له بنت إحدى أخوالنا .

قالت : صار في سن الزواج ..كم عمره؟

قالت خلود : سبع عشرة سنة .. والأميرة نوارة جميلة ، وتحب عمتها الملكة.

فقالت : أيقبل خالي زواج ابنته من ابن لص؟

صاحت خلود محتجة: لص ! كأنه لا لص في الدنيا إلا هو.. لا تنسي أن هذا اللص قريب

لأمك .

قالت بانة : والأمير شجاع ! وهو يتدرب في الجيش ، وذهب مع الملك سيف لبلاد صيرم .. وقد يصبح أحد قادة الجيش إذا تقدم به العمر.. الملك سيدفع مهر خاله .

رددت سفانة : الملك سيدفع المهر .

وقالت بانة : وسيقام له حفل كبير في المدينة.

قالت بتحزن : ودم أبي .. ورأس أبي.. يعملون حفلا ودم أبي لم يبرد!

قالت خلود : ويلك! أبوك له سنتان ميت .. هل بقي حزن وحداد ولا فرح ولا زواج؟!

قالت : إنه أبي ..نعم ، أنتم لا تحبون الملك زرارة.

قالت : وهل هناك فتاة لا تحب أباها يا سفانة ؟ !أنت تبالغين في حزنك في مقتل أبيك .. وقد اقتص الأبطال لمقتله ومات الملك ابن صيرم مغموما مقهورا ومملكته أصبحت مملكتنا ، وتفرقت ذريته في كل المدن والأمصار.

قالت : أنتن حبكن ضعيف ..ولا أخال أمي بكت عليه دمعة واحدة .

قالت : حتى لو لم تبكي عليه .. فهو قد طلقها ، وتزوجت غيره .. وأنت مخطئة .. أمي حزنت عليه ، وبكت عليه أكثر منك .. وهي علمت بموته قبلك وليس الحزن بطول المدة .. وأفهم من كلامك أنك لن تشاركي في حفل زواج أخيك بادعاء الحزن على أبي.

هاجت وقالت : آنا أفرح بعد موت أبي قتلا وغدرا! لا أستطيع أن أفرح أن أضحك.. لن أفرح قبل رؤية الكاهن غياث وأسمع الحقيقة منه الحقيقة كلها.

قالت بانة : ويلك أي حقيقة ! فهو الخائن والشرير ومشعل الحروب .. أراد تدمير بلادنا وبلاد حميد بقتل زرارة وخطف أولادك .. حاول قتله بالسم ؛ ليتهم الملك حميد باغتياله .. وهو الذي أرسل اللصوص بعد جمعهم في بلاد صيرم ؛ ليغتالوا الملك لما علموا بعودته لوطنه ومسقط رأسه وهو الذي قطع رأسه .. ومن حسن حظك أنكي لم تكوني معه وإلا لأسروك وباعوك جارية لأحد الأسياد إن لم يقتلوك .

قالت خلود : زواج الأمير رياض فرصة لتتصالحي مع أمك المجروحة منك ..فهي ما زالت غاضبة ناقمة عليك ؛ وربما جزعت على خطف أولادك أكثر منك .

قالت بتبجح :أنا لم أحزن على خطفهم ؛ لأني تخليت عنهم لأبيهم .. إنهم أولادهم .. إنهم يعيشون هناك .. لم يطلب أحد منهم مني البقاء معهم في زيارتي لهم.

قالت بانة: يا أختيي إنك تخليت عنهم باسم الحزن .. يا سفانة كان بإمكانك العيش معهم مع قبولك طلاقك .. الحزن ليس له مكان ثابت .. كان بإمكانك العيش معهم كزوجة مهجورة أنت بدأت بظلمهم والتخلي عنهم ..الناس تسخر من حزنك ، وتصفه بالمصطنع الحزن الوهمي ما هذا الحزن ؟!

قالت بغضب : هل أغني وأرقص وأجلس مع الشعراء كما تفعل بعص الأميرات ؟ إنه أبي.. أبي المظلوم .

قالت خلود : مظلوم ! ولماذا مظلوم؟! أليس هو الذي طلب العيش في النفي ؟

قالت : وهل هو الذي طلب خلع نفسه ؟

قالت بانة : لم يعد يصلح للحكم والملك ، أصبحت البلاد تحت حكم الكاهن غياث .



رسالة

بدأت الاحتفالات بزواج خال الملك سيف الأمير رياض بن مناع ، فكانت ساحة الاحتفال تشتعل بالنيران والمشاعل كل ليلة للهو واللعب والغناء والطعام.

كان غلام يطرق قصر الأميرة سفانة ، وقال الغلام الطارق للحارس : رسالة للأميرة سفانة بنت زرارة .

أمسك حارس البوابة الرسالة ، وأغلق الباب ، واختفى الغلام في الظلام ، ودفع الحارس الرسالة لجارية من جواري الأميرة لدفعها لها ، أخذتها لمولاتها الأميرة التي ما زالت ساهرة تلك الليلة الصافية فقالت : رسالة يا مولاتي !

قالت: الكاتبة مستيقظة !

قالت : لا أدري .. هل أوقظها لك؟

عادت الجارية تصحب الكاتبة لقراءة الرسالة ، أخذت الرسالة وفتحتها وقالت : هل أقرأ ؟

نهضت الأميرة عن سريرها وقالت: قبل أن تبدئين ممن ؟

قالت الكاتبة : إنها من شخص سمى نفسه غياثا ؛ كأنه الذي كتب لنا قبل شهور

قالت باضطراب : الكاهن ! هات الرسالة .

أعطت الكاتبة الرسالة للأميرة التي نظرت فيها ، ثم قالت : انصرفي سأقرأها بنفسي .. إنها رسالة خاصة.

غادرت الكاتبة وتبعتها الخادمة بإشارة منها ، فأدركتا أن الرسالة مهمة وخطيرة، قرأت الأميرة بعد التحية والسلام وتمني الحياة السعيدة لها

أنا أكتب لك كرة أخرى يا مولاتي الملكة! إنهم يزعمون أني تآمرت على حياة مولاي الملك صديق العمر الوحيد ..كان الأخ لي والوالد ..ويزعمون أنني خطفت أولادك .. وأنا تسببت في عزل الملك ، وألقيت في السجن ..واستطعت الهرب بما معي من مال وعون من أبيك .

ولما وصل مولاي الملك بلاد حميد تشرفت بزيارته ومكثت ضيفا عنده أسبوعا ، وتجدد الحب

بيننا بعد ابتعاد سنوات .. وهذا ضايق حميد ووزيره وحذروا الملك مني ؛ كأنني عدو له .. كانوا متخوفين أن أحث الملك للعودة للبلاد ملكا ومطالبا بعرشه الذي خلع عنه بكل قسوة وتجبر .. وهذا حقه خاصة بعد أن تزوجت بموافقته .. وكان زواجك هو الصحيح وحده ، وبموافقة الأب .. فضيقوا عليّ ورموني في السجن .. ولم يستطع مولاي إنقاذي كما تعلمين .. وكان الملك الغالي يرسل الطعام إلي في السجن ، ودعمني بالمال حتى تمكنت من الهرب برشوة الحراس .. وهربت مع بعض المساجين إلى بلاد الملك النعسان ، ولي معرفة به ومع منجميه .. واستغل قصتي لأثارة الحرب بين المدينتين ؛ لأنه كان يحلم بضم بلاد حميد إلى مملكته منذ عهد أجداده وأبيه.. فجعل من صداقتي للملك زرارة سلما لغزو بلاد حميد .. فسعى لقتل زرارة بالسم ؛ ولكنه فشل وكشف أمر التسمم .. ولما انتشر خبر عودة الملك لبلاده اتخذها فرصة لقتل الملك بواسطة اللصوص الذين يستعين بهم ؛ لإثارة النزاعات لجيرانه من الملوك طمعا ببناتهم وأموالهم ولنفي التهمة عنه إذا كشف أمر اللصوص .. وإنه لا علاقة له بهم .. وأنا لا علم لي بذلك التدبير يا أيتها الملكة العظيمة .. أنا فقط نزيل وضيف على بلاط الملك ، ولم يكن يشاورني في خططه ومكره .. وهو الذي خطف أطفالك ، وكلفني بحراستهم خشية على حياتهم من اتباعه ، وإنهم سيكونون رهائن لحاجة تحدث بينه وبين بلاد الملك سيف .

من أنا ـ يا مولاتي الملكة ـ ليأخذ رأيي أيتها الملكة ؟! أنا فار وطريد من قبل بلدكم وبلد حميد وكان هدفه من موت الملك العظيم إثارة الحرب بين بلادكم وبلاد حميد حتى إذا هجم عليها فلن تدافعوا عنها ؛ ولكن لم يحدث ما توهمه .. وحكم الوزير غالب عقله وعرف الغاية من هذه الجريمة مما دفع الملك لإرسال اللصوص وبعض جنده للتمهيد للحرب .. ولما رأى صمت الملك سيف تجرأ وغزا البلاد .. وكانت الطامة الكبرى عليه وعلى مملكته .. واختفى في الجبال البعيدة خشية الأسر ولرفض أي ملك التعاون معه وحمايته ..وأنا استسلمت له خشية على حياتي ولأني رجل مطارد ومطلوب في بلدي وبلد حميد .. فقبلت بمهمة حراسة أولادك وهدفي الأول حمايتهم وحفظهم حتى يحين وقت نجاتهم .. ولما علمت بموته وقتل ضرار زعيم المهمات

الخاصة والخطرة للنعسان أوصلتهم لأهليهم سالمين .. وكتبت لك بذلك لتعلمي إخلاصي لأبيك ولَك .. ولا أريد منك جزاء ولا شكورا.

وأنا بكيت كما لم أبك من قبل لما جيء برأس الملك حتى أن النعسان قال : رأس صاحبك .. هذا رأس قد نملك بسببه بلاد حميد يا غياث.

زاد البكاء لدي فقد كان الأمر صعبا عليّ ؛ لكني طريد وأسير لديهم ..وأنا لم أمر بحرقه كما وصلني الخبر ؛ بل تجرأت واقترحت أن يعاد الرأس لبلاده خفية ؛ ولكن لا رأي لمن لا يطاع وهم أحضروا ذلك الرأس ؛ ليطمئن الملك على تنفيذ المهمة .. فهو رغم ثقته بضرار فهو لا يثق باللصوص وتآمرهم مع ضرار ، ووضع جائزة للصوص الذي اشتركوا في الجريمة وطمسها .. فالملك النعسان لم يتقابل بالملك زرارة ولو كرة واحدة .. أنا لا يد لي ولا حول ولا قوة عندهم وأنا بريء من دم الملك .. والآن رجال الملك سيف والأمير ابن ظفار يزعمون أنني وراء هذه الجريمة والاغتيال ، ويعتبروني القاتل الأول ويضعون الجوائز للقبض عليّ .. أنا مظلوم أيتها الملكة ، ولا كان بإمكاني منعهم من تنفيذ تدبيرهم ومكرهم ..ولم أحرق رأس مولاي ، ولم أدس له السموم .. وأنا لا يمكن أن أخون ولي نعمتي وسعادتي .. وأنسى العز الذي كنت أعيشه في حياة وعز مولاي زرارة.

هل تصدقين أنني أستطيع أن أحكم على الملك النعسان ورجاله الخلص ؟ وأن يقتل وأن يغزو بأمر مني ؟وماذا أستفيد من غزو حميد ؟!

وأنا سأكون في انتظارك ليلة زفاف الأمير رياض في الغابات الغربية ؛ لتسمعي مني شفهيا .. عندما أراك في الغابة سأظهر لك ؛ لأني ـ كما تعلمين ـ مطلوب القبض عليّ ليحكم عليّ بالموت بقتل صديقي الملك زرارة .. وإنما أطلب حمايتك إذا أنت قادرة على حماية صديق أبيك .. وأنا مستعد لتسليم نفسي للملك الشاب وتقديم رأسي للجلاد إذا هم مؤمنون بأني قاتل صديقي الملك .. أنت الوحيدة التي تستطيع إنقاذ حياتي للصداقة الصادقة التي كانت تربطني بأبيك الملك ؛ فإذا قبلت اللقاء بي يا مولاتي الملكة ستعرفين كيف ستحمينني من سيف الجلاد ؟ وأنا

ما زلت وفيا لأبيك حتى آخر نفس ، ولم أتآمر على حياته ..إنهم يقولون مالا يعرفون ؛ فإذا كنت محبة لأبيك عليك المحافظة على حياتي .. فاحميني من ابن ظفار وأعوانه ؛ ليعفو عني ، وأعيش ما قدر لي بسلام؛ ليتحقق السلام لمولاي الملك في قبره .

كررت الأميرة القراءة بضع مرات ، وتذكرت أنها تعرف الغابة الغربية في المدينة وذهبت إليها مرارا أيام الشباب وقالت لنفسها : إن اللقاء في الليل سيكون مغامرة ومخاطرة .. الجارية التي تحدثت عن حرق الرأس أين اختفت ؟ لماذا تكذب ؟! نسيت قصة غياث مع أمها وتسببه في طلاقها ، ونسيت تزوج أمامة سرا ، وكذلك خلود وبانة نسيت أشياء كثيرة ؛لأنها لا تريد أن تصدق وتهضم أن الكاهن يخون والدها ، ويسعى في قتله .. فكانت تقول : لعله فعلا مظلوم من هو ؛ ليكون له التأثير على أبيها الملك وعلى ابن صيرم ؟! من هو ليتآمر على قتل أبي الذي ساعده في الهرب من سجن هذه المدينة وسجن بلاد حميد كما اعترف لي أبي ؟ هو يطلب حمايتي ليموت بسلام ، كيف سأحميه ورأسه مطلوب ودفع فيها عشرة آلاف قطعة ذهبية .. ألديك الشجاعة لتلتقي بذلك الكاهن ؟ أذكر كم فرح وسعد أبي عندما التقاه في بلاد حميد ؟ ليلة الزفاف ستكون ليلة الجمعة القادمة ستكون المدينة في حفل كبير حتى الفجر .. هل أستطيع حماية الكاهن من أجل خاطر وروح أبي ؟ هل سيقبل الوزير أو الملك سيف شفاعتي ؟

اتخذت سفانة القرار الحاسم وهو لقاء الكاهن في الغابة ، ستتظاهر بأنها ستشارك في ليلة العرس ستذهب وحدها وعلى متن جوادها .

أشاعت في الصباح أنها ستذهب لحفل العرس في قصر أمها ، وتتصالح معها بهذه المناسبة الكبيرة .

ولما دخل الليل أمرت غلمانها بإعداد الجواد الذي ستذهب به إلى قصر الأم والأخ وكان الحرس قد سمعوا برغبتها بالمشاركة في آخر ليالي الحفل ، ففتح لها الباب الحارس وقد رفضت مرافقة أي خادم وحارس لها ، وقد اعتبروا صلحها مع أمها شجاعة وبادرة طيبة .

والأميرة معروف لديهم بحسن ركبها للخيل منذ طفولتها ، خرجت وهم يرقبونها باتجاه قصر

أمها وأخيها رياض ، ولما اختفت عن أنظارهم لبست عباءة سوداء فوق ثيابها واتجهت إلى جهة الغابة الغربية التي تعرفها حق المعرفة .. وكم من المرات طرقتها قبل رحليها مع الملك زرارة ، ابتعدت عن بوابات الطريق إلى الغابة .. لما وصلت إليها كان القمر يملأ الفضاء نورا لم تَر غياثا لأول الأمر فقالت : إنه يرقب المكان ؛ ليتأكد أنها وحدها فحسب ، وليس معها كوكبة من الفرسان والحرس .

تخلت عن الجواد وربطته في جذع شجرة ، وأخذت تحدق فيما حولها ، ثم رأت شبحا يخرج من بين الأشجار متقدما نحوها ، فهمست : نعم، هيئة غياث .

تقدم إليها مسلما وحانيا لرقبته وقال بعد التحية : كنت الوحيدة التي يحبها الملك ـ رحمه الله ـ من بين كرائمه ..وأنت كنت أكثرهم برا وعطفا به.. أنت شجاعة أيتها الملكة !.. كان والدك يجلك ويعترف بفضلك عليه وطاعته ..كان دائم الثناء عليك في محنته مع قومنا أو في تلك البلاد.. ولولا الضغط والحياء الذي تعرض له ما سمح بزواجك .. وكان لا يرغب في البقاء في بلاد عزلته عن الحكم ..كان غاضبا ناقما على الوزير أوس وغيره أيتها الشجاعة ! حياتي مهددة بالخطر والموت زورا وظلما .. هل أنا الذي يقتل صديقه ؟! لماذا ؟! ما الذي أجنيه أيتها الملكة من خيانة صديقي ؟! أأنا اقتل صديق العمر حبيب العمر وأخون ولي نعمتي من أجل ماذا ؟! أأضع له السم وهو الذي بسط عليّ حمايته من أيام الشباب ؟ ولولاه لنال مني أوس وغيره أنا فسرت المنام بما عندي من العلم أنا يا مولاتي بريء بريء بريء بريء من دم الملك كما كتبت لك . أنا لا سلطة لي لأقتل وآمر كنت ضعيفا في بلادكم لا حكم لي ولا قوة وكنت هاربا مطلوبا عند النعسان وجعلوني سجانا لأبنائك أليس هذا من ضعفي ؟ وكان يتكلم ويبكي .

قالت لما صمت : أنا أصدق أنك بريء يا غياث ! أصدق أنك ضعيف وأصدق هذا الدموع على أبي ! ولكن تلك الجارية ..

قال وهو يمسح دموعه بكم ثوبه : تلك الجارية مدسوسة لم يحرق رأس الملك .. ولماذا يحرق ؟ دفن ثم نقل لقبر حبيبي زرارة ليتني أدفن جنبه حين موتي .. فهده جارية ماكرة ..تريد أن

تنتقم وتثير الفتن حول رأس الملك العظيم.. أنا سمح لي برؤية الرأس ذاك اليوم المؤلم ؛ ليتأكد الملك أن المقتول الملك زرارة ؛لأنه كان لا يثق كثيرا برجاله ، ويخشى خديعتهم له طمعا بأمواله وأنا أشرفت معهم على دفن الرأس .. وكان القائد ضرار هو الفاعل لكل شيء .. كانوا يسعون للاطمئنان على أني معهم .. ولست عينا عليهم .. أنا كنت أعيش معهم في رعب وخوف وموت وكان عليّ أن أظل تحت أعينهم ؛ لأني أعرف أنهم قتلوه .

وبكى وابتكى ، وترحم على مولاه الملك ، ثم ركن للصمت ، ولما طال الصمت بينهما . قال : أخشى أن يكون للوزير يد في مقتل مولاي زرارة . هتفت : الوزير كيف ؟!

فقال : هو الذي له عيون وجواسيس في بلاد حميد وبلاد صيرم ..وهو الذي وافق على عودة الملك لبلاده ، ولم يرسل جندا لحمايته ، ولم يطلب له حماية من الملك حميد .. فلما سمع النعسان بمقتل الملك أثناء الطريق أراد الاستفادة من مقتله ، فغزا بلاد حميد وأسر أطفالك؛ ليزيد من اشتعال النار ويثار لأبيه وجده .

قالت :كان هناك تقصير من الملك سيف ومن الملك حميد ؛ لكن من الصعب أن يكون الوزير متآمرا على حياة أبي مع لصوص ابن صيرم .. لا يكفي التفكير في هذا الاتهام ..هل كانت عودته حيّا تشكل خطرا على البلاد والحكم ؟ لا أعتقد.. أبي منذ خلع لم يعد يرغب بالعودة للجلوس على كرسي بدون حكم حقيقي.. أنت تعرف أن الحاكم الحقيقي في بلادنا الوزير أنا جئت لمساعدتك في النجاة من القتل .. وأعرف لماذا أصرت الجارية لاتهامك بحرق رأس أبي؟ هي أهديت لي بعد فتح بلاد صيرم .. قيل إنها من جواري الملك الهارب .. جلبت تلك الجواري وبعن في بلادنا .. وذكرت أنها تعرفك وخدمتك في قصر الملك عندما تحل عليه ضيفا

قال : كنت وحيدا يا مولاتي! لا خدم ولا حشم ..كان لديّ غلام وهبه لي الملك قبل أن أهرب من السجن بمعاونة من مولاي .. وفهمت أنه هدية منك لمولاي زرارة ، ثم هرب من عندي .

قالت : ماذا تريد مني لحمايتك يا غياث ؟

قال بانكسار : يريدون رأسي ، ويدفعون الأموال فيه ، وهم يطاردونني للنيل مني .. والله

يحميني منهم لحتى الآن .

قالت : أعرف ذلك .. فالوزير وغيره يتهمونك بالمشاركة في قتل أبي والدسائس والمؤامرات .

قال : هم يفعلون ذلك حتى لا يتهموا بالتقصير في الحفاظ على حياة الملك .

قالت : حسنا أيها الكاهن الطيب الصديق الوحيد لأبي المظلوم ! أنا أصدق براءتك من دم أبي لما أعرفه من حبك له ؛ وربما أنت الوحيد الذي أحبه في بلادنا كلها .. سأحميك كما تحب؛ ولكن كيف ؟

قال بلا تردد :الحل بسيط يا مولاتي الملكة ! اسمحي لي قول ذلك .. وهو أن تقبلي بي زوجة وقرينة ولو صوريا .

رأت الأميرة أن هذا هو الحل الوحيد لحماية حياة غياث من بطش الخصوم ؛ ولكنها تركت زوجها وأولادها حزنا على أبيها ، فكيف تتزوج من جديد ؟ ولكنها تتذكر أيضا حب أبيها لغياث وسعادته لما جاءه في بلاد حميد .. وكيف طلب منها أن تطلق زوجها من أجل حياته وإخراجه من السجن ؟

وأخرجها من خطرات قلبها قوله : اليوم يا مولاتي حياتي في عنقك أنت لن أمسك يا مولاتي ! فلست أهلًا للنكاح والجماع منذ عهد ملك أبيك؛ لكني سأكون زوجك أمام الناس ..علمت ببغضك للمعاشرة الزوجية بعد موت والدك .. وكانت سبب طلاقك من الأمير شداد ورحيلك.. أنا لا أرب لديّ لذلك ؛ لكني اسمي زوج لك .. سيتركونني أعيش بسلام حتى أموت بسلام .. وقد يسمحون لي بالعيش في بلادنا ولو بعد حين .. ويرفعون جائزة الفتك بي لو كان الملك حيّا لوافق على ذلك من الحب الذي كان بيننا يا مولاتي الملكة!

قالت : كيف سنتزوج ؟وأين سنسكن ؟!

قال : إذا لم نتمكن من الزواج في هذه البلاد نتزوج في إحدى المدن ونشهره وبعد حين نعود إلى مدينتنا هذه كزوجين .

كانت فكرة غياث فكرة ذكية وعجيبة ؛ لذلك قالت لنفسها : وهل يقبل القوم بزواجي وبهذه

الحيلة ؟ إنهم يعتقدون أن الرجل من القتلة ودفعوا في رأسه ثمنا عاليا ؛ لكنه كان محبا لأبي ومحبوب أبي دون بناته الأخريات دون أمي .

قالت : أنا مقتنعة بهذه الحيلة الشجاعة يا غياث ؟ كيف سألقاك لأنقل لك موافقتي وتدبير أمر زواجنا دون علم أحد من بلادنا .

قال : سأنتظرك في مدينة نعمان التي تعرفينها حيث قد أمر النعسان بحبسي مع أولادك بحجة حمايتهم .. سأسكن في حي قربان أكبر الأحياء .. وفيه أغنياء المدينة وتجارها .. سأعمل في تجارة العطارة إما أجيرا عند أحدهم وإما أعمل وحدي وعندما تأتين المدينة تبحثي عني في سوق قربان حيث العطارين وسأجعل عمامتي خضراء . قالت : سأفكر بعمق في هذه المغامرة

فقال : وإذا تزوجنا نصبر حينا من الزمن ، ثم نعود للبلاد بعد أن ينتشر ويشيع خبر زواجنا بين أهل المدينة ..ففي هذه الحالة تحميننى من القتل ، وترضى عنك روح أبيك الذي لا يمكن أن يصدق أني شاركت في قتله وخيانته ..وتكونين قد أنقذت حياة أعز صديق له .. وسيعترف الناس بشجاعتك ، وإنقاذ حياة أخ أبيك غياث الكاهن المسكين.

ردت :حسنا ! إذا قبلت بك زوجة يا غياث سآتيك خلال ثلاثة شهور إلى تلك المدينة.. إني أعرف تلك المدينة لقد زرتها أيام زواجي من شداد .. فله أخت تعيش فيها .. سأزعم أني سأزور الأولاد ، ثم أرحل إليك لإنقاذ حياتك.. أنا لا أنسى حب وسعادة أبي لك ..كان كثير الذكر لك بعد هروبك من سجن حميد .. أنا أحب من يحب أبي ، ولو كان أبي ميتا .. وإذا لم أحضر خلال هذه الشهور فاعلم يا غياث أني عاجز عن الزواج بك أو بغيرك .. واحفظ حياتك ؛ لعلي أستطيع إقناع ابن أختي سيف بالعفو عنك من أجل خاطر جده والدي ، وأنك صديقه ، ولا يمكن أن تخونه وتقتله .. فكما أنا مقتنع فلعله يقتنع ..ليس لي من أصدقاء أبي إلا أنت ..كلهم نسوه ، وانتهى حزنهم عليه بعد دفنه بأيام .

تمتم : رحمه الله ، رحمه الله

أعطته صرة من المال ، وعادت أدراجها إلى المدينة تفكر بإنقاذ غياث ، ولو بقبوله كزوج.

السفر

رجعت سفانة إلى القصر مع تباشير الفجر ـ وكانت الجواري في قلق عليها ـ فعمت السعادة لما أصبحت في جوف القصر ، وكان الكل يسأل نفسه أين كانت كل هذه الساعات ؟! لقد تبين لهم أنها لم تذهب لقصر أمها ، وانتشر خبر غيابها في بعض القصور حتى علمت به خلود وبانة والملك سيف ، فبعد انتهاء العرس نهار الجمعة زارتها الأختان تسألان عن هذا الغياب .. ولماذا لم تذهب لقصر أمها وأخيها كما انتشر الخبر بين خدم القصر الصغير ؟



فقالت: خرجت لأزور أمي وأبارك لها زواج ابنها ، وأنسى زواجها من ذلك اللص مناع .. حاولت نسيان ذلك الوصف حتى لا تغضبوا مني ، ثم لم تطاوعني نفسي لدخول القصر والمشاركة في الفرح والعرس .. فتجولت في أحياء المدينة قلت إنها فرصة لم تتاح لي من قبل ، ثم قفلت راجعة مع نور الصباح ..آه كم سررت من ذلك !

قالت بانة بغضب :ألا تخشين على حياتك ؟ رغم الأمان الذي يغمر البلاد ؛ لكنها لا تخلو من لص أو فاتك .

قالت : وما أدراه أني أميرة ؟

قالت : من الجواد والسرج الثمين من الثياب .

قالت : كانت الدنيا ظلماء .

قالت خلود : مهما يكن قد يطمع طامع بالجواد .

قالت : وأين الشرطة والعسس ؟

قالت خلود بتبرم : الدنيا لا تخلو من الأشرار واللصوص .

قالت : هذا ما حصل يا أخوات! ليس لي عشيق أسهر معه وأتسلل إليه .. وأنا لم أعرف ذلك أيام الصبا.

قالت بانة : علمت أن الحدث وصل للملك ، واستاء من هذا الفعل، لقد نقل إليه كما نقل إلينا

وقال: أميرة تترك البيت ليلا ، وبدون حرس وحماية استهتار وحمق

قالت بضيق : حمق ! الحمد لله لم يحصل لي شيء.. وما أخبار أخيكم الذكر .

قالت خلود : غضبان منك لعدم حضورك بعد أن شاع أنك ترغبين بزيارة أمك .. كان يرى أنها فرصة لتصفية القلوب من الشحناء ، وعودة الصفاء بينك وبين أمك أنت ترييننا كأننا لا نحب أبانا .

قالت سفانة : بعد زمن سوف أرحل للعيش مع أولادي .. وهل يسمح لي الملك سيف ووزيره بذلك ؟

قالت خلود : العيش مع أولادك .. ألم تعودي من عندهم من وقت قريب ؟ أتريدين العودة لشداد ؟

قال بشدة : لا ، أرحل لرعايتهم حتى يتزوجوا .. فقد طاب لهم أن أعود إليهم .. أرجو أن لا يعارض الملك.

فقالت بانة : هو سوف يعارض ؛ ولكن من أجل الأبناء قد يستسلم لرغبتهم .. أما نصيحتي فأن تنسي أولادك ، وقد تعودوا على غيابك ، وتزوجي أميرا من أمراء المدينة .

قالت : يا إلهي ! أعود للحبل والحمل.. المهم تحدثن عن ذلك أمام الملك وبعد ردة فعله أفاتحه بنفسي بهذا الأمر .

استغرب الملك هذه الرغبة بعد هذه السنوات من الفراق ، ولم تتحدث عن تلك الرغبة لما عادت مباشرة ، ولم يعلق الملك على هذه الأنباء ؛ فكان الملك يرى أن تصرفات خالته من بعد موت والدها مضطربة غير منطقية .. الحزن الحاد الطلاق عدم الاهتمام لخطف الأولاد .

وهز الوزير رأسه وقال : إنها أم!

ولما مضى الشهر على لقائها بغياث استأذنت الملك والوزير بالرحيل لزيارة أولادها ؛ وربما البقاء عندهم .. والغريب أنها طلبت مرافقة خمسة فرسان فقط ، وسترافق قافلة تجارية .

وبعد تردد وتشاور وافق الملك على ذهابها ، وأتبعها الوزير برجلين خفيين .

ولما وصلت للمدينة استقرت عند أولادها ، والقوم في دهشة لعودتها السريعة ؛ ولكنها بينت أنها زيارة عاجلة ، ستمكث عشرة أيام بينهم ، وطلبت من حرسها العودة للبلاد ؛ لأن إقامتها عند أبنائها ستطول .. وصدق كل طرف كلامها .. وجاءت بدون أن تصحب خادمة أو خادما ولتقنعهم بأنها إذا عادت سيصحبها حرس من حرس الملك حميد .

وخلال أيام كانت تبحث عن قافلة ستسافر إلى مدينة نعمان ، واتفقت مع قائد قافلة على ذلك وأنها متزوجة في هذه البلاد ، وعلى أنها راغبة بزيارة أهلها ، وأنها من عامة الناس ، حيث أنها كانت تخرج للسوق للشراء ، ولم يشك أهل بيتها بفعلها ذلك ، وكانت تصرفاتها طبيعية .

ولما خرجت القافلة من المدينة ببضع ساعات لحقت بها على جواد اشترته لهذه الرحلة ، ورحب بها القائد ، وكانت زعمت لأولادها وخدمهم أنها ستعتكف في مسجد الأولياء ثلاثة ليال ، وهو من المساجد الكبيرة في المدينة .

ونعمان تبعد أربعة أيام عن بلاد حميد ، ولما لم ترجع الأميرة بعد ثلاث ليال ، أخبر الأولاد والدهم عن اعتكاف أمهم . وقالوا : ذهب الغلمان للسؤال عنها في المسجد فلم يرها أحد . وذهب شداد بنفسه وتحدث مع القائمين على المسجد والاعتكاف .. فذكر بعضهم أنهم شاهدوا امرأة بما وصفوا جاءت المسجد ، وجلست فيه بعض الوقت ، ثم خرجت ، لم تنم مع العابدين والمعتكفين والناذرين .

فأرسل الملك حميد بريدا للملك سيف عن اختفاء الأميرة لسبب مجهول .

فقال الوزير معللا : إنها تلعب لعبة ماكرة أيها الملك !كانت عودتها لزيارة أولادها غريبة .. وسفرها بدون حرس وحماية كبيرة غريب أيضا !.. وطلبها بعودة الحرس كذلك .. ماذا تدبر الله أعلم ؟ اعلم أن لها تصرفات غير منطقية .. سأبعث رجال ابن ظفار لتتبع حركاتها.

والأميرة وصلت نعمان مع القافلة على أنها سلمى ، وقدمت الشكر للقائد ، ودفعت له بعض المال ، ووهبته الحصان الذي اشترته للرحلة ، وغادرت الخان الذي نزلت به القافلة في الصباح ومشت لسوق العطارين تبحث عن غياث حسب الاتفاق .

ولما رآها دهش فرحا وبكى ، وأيقن قوة حبها لوالدها ، ورغبتها في إنقاذه وحمايته .. وذهبا بعد وقت قليل إلى القاضي ، وعقد لها القاضي زواجها على غياث وأحضر غياث الشهود ، وساقها إلى بيته كزوجة له ، ثم عاد للسوق ، واشترى خادمين ذكر وأنثى لخدمتها .

وقضى أياما لم يحاول أن يقربها كزوجة ؛ بل كان ينام في حجرة ، وهي في أخرى ، لا يجتمعان إلا عند الطعام .

ونفذ الاثنان ما اتفقا عليه ليلة لقائهما عند الغابة ، وأخذا يفكران بعد هذا الإشهار للزواج كيف سيعودان لبلدهم اللؤلؤ ؟

فقال : علينا أن نقضي بضعة شهور هنا حتى يصل خبر زواجنا للملك ووزيره .. وأنا خادمك الأمين ، وأنت أهل الوفاء ..إنهم الآن يبحثون عنك ، وسيصلون إلينا .. أنت الوحيدة التي تخلصين الحب لروح الملك زرارة .

قالت : كان واجبي أن أحميك من القتل إذا كان ذلك ما أستطيع فعله .. لقد كنت الصديق الوحيد والوفي لأبي ..كان سعيدا بك لما جئته في منفاه.. كان يذكرك ويعتبرك من أخلص الأصدقاء .. فعليّ أن أكافئك وأحفظ حياتك يا غياث ..كان أبي المظلوم يفضلك على إخوته وأقاربه .

فقال : لم تذهب تربية أبيك لك خسارة .. أنت الوحيدة التي ترغب لي الحياة .. كان عليّ أن أسعى إليك وأطلب حمايتك.. آه ! لو تلدين مني حتى يكون لي ولد من سلالة زرارة .. وبه أطمئن على حياتي .. سيعفون عني من أجل الولد يا سفانة العظيمة .

الاختفاء

أرسل ابن ظفار رجاله لمدينة حميد ، ثم علموا أنها رحلت مع قافلة لمدينة نعمان ، وحدثهم قائد القافلة أنه صحب امرأه لمدينة نعمان زاعمة أنها راغبة بزيارة أمها المريضة في تلك المدينة ، وليس لديها من يرافقها ، ودفعت له مالا ، وكانت تركب على فرس أعطته له لما وصلت نعمان ، وغادرت الخان .

فلما نقلت هذه الأنباء لسيف وغالب قال: ولماذا ذهبت لتلك المدينة ؟وجدت هذه المرأة منذ موت جدي ولها أفعال حمقاء غير متوازنة .

قال الوزير : أنا لما طلبت منا زيارة أولادها بعد يسير من مجيئها دهشت ؛ ولكني قلت: إنها أم ، وأحسنت الظن بفعلها ، وإن لم ارتاح لذلك.

قال : وأنا مثلك أيها الوزير وقع في قلبي شيء.. وماذا ذهبت تفعل في نعمان ؟ هذه المدينة التي حبس فيها أولادها

قال : أتراها ذهبت تبحث عن غياث اللعين ؟! لأنه هو الذي أفرج عنهم بعد موت ابن صيرم وضرار .. سأكتب لابن ظفار ليكثف جهده حول هذا الكاهن .. ويرسل رجاله لنعمان.. ويتتبع حركات تلك المرأة .. نحن غلبنا أن يكون ساكنا في كهف في مرعى متخفيا على شكل حطاب أو راعي .

استطاع رجال ابن ظفار الوصول إلى بيت غياث وسفانة ، وكانت أمامهم المفاجأة المؤلمة ، وهي زواجهما ، ودون علم الملك والوزير ، وأنها فعلت ذلك لتحميه من القتل والموت ، وأنها تفكر بالعودة للبلاد ، هكذا أعلمتهم ، وأنها كانت في انتظارهم .

نقل ابن ظفار هذه الأخبار للوزير والملك اللذين صدما مما نقل لهما من هول النبأ ، وعجبا من حمقها وجهلها بالزواج من قاتل أبيها أو المشارك في قتله .

فقال الملك : هذه المرأة تحتاج لحبس وحجر أتتزوج من قاتل أبيها ؟

قال : لقد فكرت في الأمر ، لابد أن الكاهن استغل عواطفها نحو والدها وصداقته لأبيها ،

وأقنعها أنه بريء من دم الملك .. إنه الشيطان في المكر والكيد .. ولم يجد نجاة من عقابنا إلا بالزواج منها .. وهي التي تركت زوجها بزعم الحزن على أبيها وهربت إليه .. وأعتقد أيها الملك أنها تلك الليلة التي زعمت أنها تتجول في المدينة ـ ليلة زفاف رياض ـ أعتقد أنها قابلته ورتب لها الأمر ، ونفذت خطته .

فقال الملك مفكرا : وهل صدقت أنه بريء من دم الملك؟! فقد علمنا من وزير ابن صيرم أنه متفق مع الملك على قتل زرارة لإشعال الحرب بيننا وبين حميد الملك .. وإنه اشترك في قتل زرارة مع اللصوص .

قال : نعم ، الوزير قال ذلك .. طبعا هو لم ينفذ القتل ؛لأنه جبان ؛ ولكنه رافق اللصوص وضرار في الحملة .. وهو الذي اهتم بأولاد سفانة ورحل بهم إلى نعمان .. ما العمل قبل أن يشيع الخبر في الأمصار ؟

قال سيف : هما سيعملان على إشاعته حتى لا نقتله .

قال : هذا ما يحدث ويسعى إليه أيها الملك ! لا يمكن أن يكون بريئا ومجبرا على فعل شيء .

قال : وهل يحميه الزواج منها ؟

قال الوزير : سيصعب مهمة القضاء عليه أمام الناس ..سيقولون لو لم تكن الأميرة واثقة من برائته ما تزوجته ، وفعلت كل ذلك من أجله .

قال : كانت قد تلقت منه رسالات .

قال : نعم ، علمنا بذلك من خدمها ؛ ولكن لم نطلع على ما كتب لها ، لقد أخبرت إحدى الخادمات أنها تلقت رسالة قبل تلك الليلة ـ ليلة العرس ـ ولم تقرأها الكاتبة ، بعد فتحها صرفتها وصرفت خادمة غرفة النوم ، وقرأت الرسالة بنفسها ..كما فهمت لابد أن هذه الرسالة تحدد زمن ومكان اللقاء بذلك الكاهن .

حاصر رجال ابن ظفار قصر سفانة ، وقاموا بالبحث بأشيائها الخاصة ومكاتبتها حتى وجدوا تلك الرسالة بينهن ، وكان فيها زمن ومكان اللقاء .

واستغرب أهالي المدينة لما انتشر خبر زواج الأميرة والحيلة التي اتبعتها والسفر لنعمان للزواج من الكاهن غياث ، وعم السخط بينهم من أفعال الأميرة التي كانت تعيب زواج أخواتها دون علم أبيها ، وتعيب زواج أمها من اللص مناع .. وهي تتزوج من متهم بقتل أبيها ، وشك الناس في قواها العقلية ، وزاد كره الناس لشخصها وأعمالها ، وشاع في نفس الوقت أنها فعلت ذلك لشكها وعدم تصديقها بتآمر غياث على والدها صديقه ، وأنه بريء من دمه ، وأرادت أن تكافئه لحب والدها له .

فقال الملك سيف بعد قراءة رسالة الكاهن :يا له من مخادع ماكر ! شيطان خبيث لعب على وتر حبها لأبيها ، لو لم تكن واثقة من براءته لما تزوجته ..هل هي مغفلة لهذه الدرجة ؟!

قال الوزير : الوضع دقيق يا مولاي ! هي ستعود للبلد كما فهمت من رجال ابن ظفار وتابع بحزم وحسم : ويجب أن يموت غياث .. فهو هارب من السجن .. ومتآمر على حياة الملك .. وأنا أتوقع أن تبقى هناك حتى تلد منه حتى يصعب علينا النيل منه .. إنها ذهبت لتحميه .. هذا الوضع يجب ألا يتم .. وسنستدعي وزير ابن صيرم ، وبعض أعوان الملك ابن صيرم ، ونعقد محكمة علنية .. هذه إهانة كبرى أيها الملك ! نحن دفعنا عشرة آلاف قطعة في رأسه ؛ لأنه مشارك في قتل الملك .. سيذهب القائد ابن ظفار إلى لقاء الوزير ؛ لاستضافته في المدينة وسماع كلامه مرة أخرى؛ ولعلنا نجد شهودا رأوا غياثا مع الملك ابن صيرم وهم يتفقون على اغتيال الملك .

قال : وكلام الجارية!

قال : كلامها عجيب حقا أيها الملك! هي زعمت أنها سمعت غياث يتحدث مع الملك عن حرق الرأس .. ونحن علمنا أن رأس الملك لم يحرق . قال سيف :أين الجارية؟

قال : حبسناها ردحا من الزمن ورفضت أن تعود لقصر سفانة ، ثم اختفت .

قال الملك : لابد من اعتراف الكاهن ..كيف سيعترف اللعين ؟ وقد تحصن بالزواج من الأميرة الحمقاء .. كانت تحتج على طريقة زواج أخواتها .. اليوم ألبست الكل العار .. تتزوج من كاهن عجوز متهم بدم والدها.

الأسر

أرسل الوزير غالب رسالة لملك نعمان يطلب فيها المساعدة في القبض على الكاهن غياث المتهم بقتل الملك زرارة .

ونقل ابن ظفار بنفسه الرسالة ، يصحبه عدد من الفرسان ، وعربات لنقل غياث وسفانة .

وقبل الملك طلب الوزير ، وأرسل قائد الشرطة ليساعده في المهمة ، وحوصرت المنطقة ، واستسلم الكاهن لأمر الاعتقال بدون أي مقاومة ، وحملت الأميرة بعربة ، وكذلك الكاهن ، وشكر ابن ظفار الملك ورجاله وقائد الشرطة .

ولما وصل الأسيران البلاد كانا في غاية التعب والذل ، ولم يكن أحد في استقبالهم ، وأودع الكاهن في سجن خاص ، وحراسة مشددة من رجال الأمير عسكر ، ووضعت الأميرة في قصرها ، وجعلت لها خادمتان فحسب ، وحراسة من رجال الأمير ابن ظفار ، ولا يسمح لأحد بمقابلتها ولا يسمح بخروجها ولو للقاء الملك أو أمها .. وأحيط القصر بالجند من الخارج ؛ كأنهم في معركة حتى تقدم للقاضي الأكبر .

واستقبلت البلاد الوزير الأخير في بلاط ابن صيرم ؛ ليشهد على علاقة غياث بالملك ابن صيرم ودوره في الحرب والقتل ، وكان في رفقته بعض خدم الملك ابن صيرم وجواريه ، وإحدى نسائه التي ذكرت بعض أخباره .

وأمام القاضي أحضر الكاهن غياث والأميرة سفانة ، واتُهم بالمؤامرة على حياة الملك زرارة .

وتكلم وزير بلاد حمصان وقال : نعم ، هذا الرجل سكن البلاد ، وتقرب من الملك النعسان على أنه صديق الملك زرارة حاكم مدينة اللؤلؤ ، وكان يشجعه على الحرب ضد بلاد الملك حميد .. وأشهد الله على صدق أقوالي .

قال القاضي : هذا لا يهمنا أيها الوزير الشجاع ! نريد أن نعرف دوره في قتل الملك زرارة عندما قرر العودة لبلاده ومن المنفى الاختياري.

قال : كان الملك النعسان بن صيرم له هوى منذ استلم الحكم بامتلاك بلاد الملك حميد

بمساعدة وتواطؤ بعض عشيرته الطامعين بالملك .. حدث قديما أن قام جد الملك بغزو المدينة وتعرض للطرد من قبل والد الملك زرارة كما تعلمون .. فظل هذا الحلم يراود الملك للانتقام وتوسيع مملكته .. ولما سكن الملك زرارة المدينة غاضبا على بلاده سار لديه أمل أن تنشب حرب بين البلدين .. وأخذ الكاهن هذا يشجع الملك على الغزو والانتقام .. وأنا وبعض الأمراء نحذره من فعل ذلك ، ونقول : لا داعي لعودة الحروب بين المدن .. وكنت أكره رؤية الكاهن يجلس مع الملك .. وكان ملكنا يهوى التنجيم ويتفاءل به.. فوجد هذا الكاهن مكانا له عند الملك .. وذهب الكاهن لزيارة الملك زرارة بعد زواج ابنته من الأمير شداد .. وأخذ يشجعه على المطالبة بعرشه ؛ ليثير الحرب بين بلدكم وبلد حميد .. ولم يوفق في هذا المسعى كما كان يحدثني الملك بين الحين والآخر .. وأنصح له الحذر لا نريد أن يعيد التاريخ الحرب بيننا واضطر الملك حميد كما علمت من الملك لحبس غياث الكاهن ؛ ولكنه هرب إلينا ، فعاد غاضبا حاقدا أكثر على الملك حميد وبلده .. واقترح على النعسان قتل زرارة لإشعال الحرب بين بلديكم .. وكان الملك مترددا في تلك المغامرة .. أنا رفضت تلك الجريمة ؛ لأنه إذا كشف دورنا ستتعرض بلادنا للغزو من جديد .. فأخذ اللعين يفكر بحيلة تبعدنا عن الاتهام .. فكانت فكرة السم ؛ لأنه لن يشك أحد بأننا سممنا الملك لبعدنا عن خدمه .. وستشكون في حميد وأعوانه ، ورغبتهم بالتخلص من الملك ، وتناسينا المصاهرة بينهم بسبب طلاق الأميرة ، ثم عودتها لزوجها .. وطلب مني الملك عدم التدخل في هذه الدسائس، وترك الأمر له ، فابتعدت وكلي خشية من مغامراته ، وعرضت ترك الوزارة أكثر من مرة تلك الفترة .. فكان يرفض ويقول : أنت اهتم بأمر الداخل ، ودعك من الخارج .. وذهب الكاهن بنفسه متخفيا مع إحدى القوافل لدس السم للملك زرارة ، وعلمنا فشله بذلك ، وأن القوم كشفوا الدسيسة ، ويبحثون عن الفاعل وعاد الكاهن هذا إلينا خائبا ، وكان رجالي ينقلون لي أفعال الملك دون علمه بعد طلبه مني عدم التدخل والنصح .

وأخذوا يفكرون بحيلة جديدة ، وسمعوا من جواسيسهم برغبة الملك العودة لبلاده بعد

اعتلاء حفيد الملك العرش ، وذكر الكاهن للملك النبوءة القديمة وهي موت الملك على يد حفيده ، وكانت علاقة ملكنا قوية مع لصوص المدن ، ويستقبل كبارهم وزعماءهم في قصر خاص ، فاقترح عليه غياث أن يقوم هو والقائد ضرار ـ رجل الأعمال السرية والخاصة للملك خاصة مغامراته النسائية مع نساء وبنات الملوك ـ بأن يقتلوا زرارة أثناء رحلة العودة ، ولن يتهمنا أحد ؛ إنما هم لصوص وقطاع السبل ؛ وليطمئن الملك على تنفيذ المهمة طلب منهم رأس زرارة ، وفعلا نفذت الخطة الرهيبة ، وانتظروا في منتصف الطريق وعند منتصف الليل نفذوا الجريمة ، وعادوا برأس الملك ، وأكد غياث للملك أن الرأس للملك ، وتظاهروا بأنهم لم يعرفوا بقتل زرارة حيث نالوا أعطياتهم ، وعادوا لمدنهم على أمل نشوب حرب بين المدينتين وأشار الكاهن على الملك حرق الرأس ، ولكن الملك رفض ، وأمر ضرار بدفنه أملا بالاحتياج إليه في يوم ما .

ولم تنشب الحرب بين البلدين لحكمة ملككم ووزيره الحكيم ، ولأنه لم يتهم أحد بالقتل مما أغاظ الملك النعسان مما دفعه بعد شهور لغزو المدينة بقيادة القائد الكبير غضب مع عدد كبير من اللصوص ، وخطفوا أبناء الأميرة ـ هم كانوا يطمعون بأسرها معهم ؛ ولكنها على أثر موت أبيها ركبها الحزن وعادت إليكم ـ ونشبت الحرب فهذا هو دور الكاهن كما علمته وكما سمعت أكثره.

قال القاضي موجها كلامه لغياث: أيها الكاهن لقد سمعت ما قاله الوزير خضر بن بلال هل تنكر منه شيئا ؟

ظل صامتا فانتقل القاضي إلى سماع أقوال الخدم ورجال القصر ، ثم زوجة الملك نعمة التي أكدت صدق كلام الوزير ، وأن الملك كان يحدثها عن أحلامه وأفعاله لما بينهما من علاقة قوية ويثق برأيها ومشورتها ، وأكدت أن الوزير خضر نصحه كثيرا بترك بلاد حميد ونساء تلك المدينة فقد هوي امرأة وصفها أحد الشعراء ، ولما دخل رجاله المدينة وجدوها ميتة .

قال القاضي : هل الوزير كاذب يا غياث ؟ هل هؤلاء الشهود كذبة ؟ دافع عن نفسك

قال الكاهن : اعلموا أن الأميرة حامل مني ، ستلد خلال أشهر .. فهل تصدقون أن الأميرة حامل من قاتل أبيها ؟ إن الملك زرارة ـ رحمه ربي ـ قال لي يوما يا غياث أفضل البنات وخيرهن لي سفانة فإن ضاقت بك الدنيا ، ولم تجدني حيّا ،فاعلم أن سفانة ستساعدك وتخدمك وتحقق لك ما تريد .

فقال القاضي : وهكذا سخرت منها بمثل هذه الجمل ، وأعلمتها أنك بريء من دم أبيها ، وأننا نكرهك ونحقد عليك.. اقرأ أيها الكاتب الرسالة التي كتبها للأميرة رسالة الخائن قبل زواج أخيها رياض اقرأها أمام الملا .

قرئت الرسالة التي عرفها القارئ والتي استدرج بها المرأة للغابة ، فلما انتهى قال القاضي : أنت كتبت هذه الرسالة تدفع عن نفسك قتل زرارة ، ولمَ لم تأت إلينا تحدثنا عن تآمر ابن صيرم علينا وتكسب ودنا ، ألم يكن الواجب عليك حماية صديقك كما تزعم ؟

صرخ : أنا لم أقتل !

قال القاضي : لكنك شجعت الملك على ذلك ، وعاونت عصابته .. والوزير خضر بن بلال مطلع على الكثير من هذه الدسائس.. هل هو كاذب ؟ هل هو متآمر؟

فقال غياث : هو جبان حقير جاسوس .

فقال الوزير خضر: أنت الغادر الخائن مولاه .. الخائن صديقه .. أنا لست جبانا ؛ ولكني أعرف من نحن .. ما هي قوتنا .. وأن الاعتماد على اللصوص جبن وخور ، ولا يحقق نصر ، وأن الاعتماد عليهم اعتماد على الهواء .. أنت وجدت هوى وطمعا لدى الملك فشجعته ، وهونت الأمر عليه.. أنت رأيت أن قتل زرارة سيحقق لك مصالحك ، وترتفع مكانتك عند الملك .

تركت سفانة مقعدها ، واقتربت من غياث وقالت : لماذا فعلت بي ذلك يا غياث؟! لماذا سخرت مني وجعلتني أهرب معك كما فعلت بانة وخلود للزواج منك ؟

قال بذل : أنت الحياة التي بقيت لي ، لم أجد أحدا يحميني من ابن ظفار وأتباعه إلا أنت .. سامحيني لم يكن أمامي ملجأ إلا أنت .. أنت المرأة الوحيدة التي ستنقذني من سيف الجلاد .

اقتربت منه وقالت بغضب : خدعتني مكرت بي ..صدقت أنك بريء ..صدقت أيمانك.

قال : لم أجد إلا هذه الوسيلة لأعيش للنجاة من مطاردة ابن ظفار .. الحياة عزيزة.

طعنته بسكين هيأتها لذلك، طعنته بسرعة عدة طعنات وهي تصيح : فلتمت أيها الخائن ! فلتمت على يد من خدعتها وطلبت حمايتها أيها الكلب ! لن أسامحك يا خائن .. تقتل أبي وتتزوجني أيها اللعين . وانهالت عليه طعنا من جديد ، والجند صامتون بإشارة من الوزير ، وظلت تطعن به حتى فقدت الوعي .

ونقلت الجثة إلى المدفن ، ونقلت جثة الأميرة إلى قصرها .

وقدم الملك سيف الشكر للوزير خضر ومنحهم الهدايا ، وسمح لهم بعد أيام بالرحيل من البلاد في حراسة قوية من الجند ، ورجال ظفار ، وسمح له بالعودة لمدينة صيرم معززا مكرما ، وانتهى أمر النفي ، وأن يكون من جلساء الملك حسن بن علي ، هو ومن أحب من أتباعه وحاشيته.



الحفل

رجع كل أعوان ابن ظفار بعد انتشار خبر موت الكاهن على يد زوجته الأميرة سفانة بنت زرارة في قاعة القضاء والعدالة ، ولم تذرف دمعة على هلاكه الذي كان يصول ويجول أيام حكم زرارة في بلاد اللؤلؤ .

أمر الملك برفع الحراسة المشددة عن قصر الأميرة ، وعودة جميع الخدم لها .

وأقام الوزير حفلا لأعوان عسكر بن ظفار ، ووزعت عليهم الجوائز والهدايا ، وأقيمت الولائم للفقراء من عامة الشعب .

ولما مضى عدة أسابيع ، وعم الهدوء البلاد قال الوزير للملك الشاب: أيها الملك السعيد حان الوقت ؛ لأن نحتفل بعرسكم .. ويفرح أهل البلاد بزواجكم ، فإن الملكة عزوف راغبة برؤية ذريتكم ؛ لتفرح بهم قبل الرحيل إلى الدار الباقية ..فهي لم تفرح بزواج أمكم ـ رحمها الله ـ فتريد أن تفرح بحفيدها كما فرحت بزواج ابنها رياض .

ابتسم الملك وقال : أترى أن الوقت مناسب لزواجي ؟

قال وزيره : لابد من ذلك أيها الملك! لتنجب لنا خليفة بعد عمر طويل ..كل رجالات الدولة يرغبون بذلك وليس جدتكم فحسب .

فقال : وجدتي لديها عروس .

قال : سنجد العروس عندما تطلب أيها الملك!

قال : أنا اليوم وبعد الثأر لجدي لا مانع لديّ من الزواج .

قال : أتحب أن تكون العروس من بنات الأمراء؟

قال سيف : ننظر ، لا بأس .

قال : سنعرض عليك مائة من بناتنا ، وأنت تختار منهن من تشاء واحدة أو أكثر .. وإن لم يعجبنك نعرض عليك غيرهن ، وإذا لم يرق بنات بلادنا لك ، فنطلب لك من بنات الملوك والأمراء من غير بلادنا .

أخبر الوزير الأمراء برغبة الملك بالزواج ، ومن كان عنده فتاة ترغب بأن تكون زوجة للملك فليجهزها للمشاهدة ؛ لعلها تكون صاحبة الحظ .

قام الكتبة بتسجيل المائة الأولى ، وفي القصر الملكي أحضرت الأميرات الشابات بأجمل الثياب والحلي ، ولما جهزن تقدم الملك وبجواره الوزير ينظر بنات الأمراء ؛ ليختار منهن قرينته .. وكان الملك يقف ويتكلم مع بعض البنات .. يسأل عن اسمها وابنة من من الأمراء ، ولم ينجذب الملك لأي امرأة منهن .

فقال : أهؤلاء جميلات المدينة ؟

قال غالب : إنهن بنات السادة ..يبدو أن لا امرأة راقت لك حسنا أيها الملك ! سنعرض عليك بعد أسبوع مائة ، ونكرر هذا العرض حتى تروق وتطيب في عينك إحداهن .

فطلب الملك أن يعرض عليه من بنات الشعب الأسبوع القادم .

أعلن الوزير للشعب رغبة الملك بمشاهدة من ترغب من بناتهم بالزواج من الملك سيف فليتقدم بذلك لديوان الوزير .

تجمع عدد يزيد عن خمسمائة فتاة ؛ ليشاهدها الملك في ميدان القصر ، وأشرف الديوان على كسوتهن وإلباسهن أجمل الثياب .. وركب الملك بعد تجهيزهن جواده يتبعه الوزير وعدد من الفرسان ، وأخذ الملك يحدق النظر في حسناوات بلاده .. وأحيانا يتحدث مع فتاة ويسألها عن اسمها ، وبعدما دار على الفتيات كلهن طلب العودة لجولة ثانية ، ولما وصل عند فتاة أشار للوزير إليها ، فأخرجت من الصف فتقدمت خادمة تمسك بيدها ، ثم بعد حين أشار لفتاة ثانية فأخرجت من الصف وتقدمت إليها خادمة وأمسكت بها ، وأمر الوزير بصحبة الفتاتين إلى قاعة القصر هن وأهليهن من الآباء والأخوة ، لأن إحداهن يتيمة الأب .

وقدم الطعام للفتيات وأهلهن في ميدان القصر ، وصرفوا مع الهدايا ، وأكل الملك والوزير وأهل الفتاتين طعام الغداء ، وأعلن أن الزواج سيكون منهن في يوم واحد .. وعمت الأفراح المدينة وأخذ الوزير وأعوانه بالاستعداد لزواج الملك من فتاتيه .

وأقبلت الجدة عزوف تنظر زوجات الملك المختارات ، وقد تم عزلهن عن أهليهن .. وباركت للملك اختياره .. وجاءت خالاته بانة وخلود لمثل ذلك ، وأخذت نساء الأكابر وزوجة أبيه وأخواته يفعلن ذلك ، وبارك والده لؤي ذلك .

وأعلنت الأفراح في البلاد أربعين يوما ، ورفعت الرايات في البلاد ، وأخذ الضيوف يتوافدون من المدن المجاورة والمشاركة في العرس الملكي الكبير ، وكان حفلا تحدثت عنه الأجيال في مدينة اللؤلؤ .



الولادة

ومضت الأربعون يوما من الاحتفالات بمناسبة زواج الملك ، وذبحت الأنعام ، وقدمت الأطعمة للشعب والضيوف ، وقدمت الهدايا للملك وزوجاته ، وجهز القصر ليستقبل زوجتي الملك في جناحهن الخاص ، وفرح الناس بزواج ملكهم وخاصة أنه تزوج من بنات العوام .

وكانت الهدايا من الخيول والثياب والدواب والذهب وغير ذلك من الزينة والغلمان والجواري وانتهت الأيام السعيدة بسلام ودخل الملك على عروستيه .

وبعد انتهاء الزواج والحفل علم الناس أن الأميرة سفانة ولدت طفلها من غياث الكاهن ، ورفضت إرضاعه وأحضرت له المراضع .. فهو طفل لا دخل له في إجرام أبيه.. وهو ابن أميرة وحفيد زرارة .

ولما علم الوزير برفضها العناية برضيعها أمر بنقله إلى دار الرضاعة الخاصة بالأيتام والأمهات المريضات .

قامت عزوف وابنتاها بانة وخلود بزيارة للأميرة في محاولة للصلح معها بعد هذه الأحداث ؛ ولكن الأميرة رفضت مصالحة أمها وأصرت على العداوة ، وعدم الاعتذار لها ، ولم ترحب بزيارتها.

وهذا ضايق الأخوات من جديد وقالت الأم وهي تغادر غاضبة : سأموت وأنا عليك غاضبة ولولا أني أعرف أنك مني لقلت إنك لست مني !

قالت بصوت هائج : لا يهمني رضاك أو غضبك ، ولولا حرمة الانتحار لفعلته .. وتركت لكم هذه الدنيا لأرتاح منكم .

قالت بانة بحدة وغضب : مسكينة أنت ! زعمت للناس أنك تُحبين أبانا ، وتركت أولادك وزوجك بحجة ذلك، ثم نكحت قاتل أبيك ، ولم تشاوري أحدا.

صرخت وصرخت في وجوههن ، ودخلت حجرتها باكية ناقمة حتى أحضر لها طبيب ، وأعطاها شرابا منوما.

وبعد أيام تعافت من الصداع والألم ، وفاجأت الجواري بالسؤال عن ابنها

قالت واحدة منهن : نقل يا مولاتي إلى دار رعاية الأيتام.

قالت : وماذا يفعل في دار الرعاية ؟

قالت : يرضع .

صاحت : أنا لا أريده أن يرضع، أريده أن يموت .

لما تحسنت صحتها زارت دار الرضاعة بحراسة قوية ، وقبلت الطفل ، وحاولت إرضاعه ؛ لكن لم تجد اللبن ، وصدرها جاف من اللبن .

ورجعت بعد يومين محاولة إرضاع الطفل ، ولم يجد الرضيع اللبن في صدرها ، وعادت إلى القصر حزينة متألمة من فشلها ، واستمر الحال مدة شهر ولم توفق بذلك .

وكانت عيون الوزير تتابع الأمر خشية قتلها للطفل في لحظة غضب.

كان حادث رفضها المصالحة مع أمها انتشر بين الأمراء والقصور، وسعت بعض نساء زوجات الوزير والأمراء الصلح وإصلاح ذات البين بينهن ، ورفضت سفانة أي صلح مع أمها ؛ لأنها نكحت لصا ، وهي زوجة ملك .

وجاء القدر وماتت الملكة عزوف بعد حياة صعبة مع المرض ، وقام الحداد عليها أسبوعا ، لأنها كانت ملكة في عهد زرارة ، ولم تشارك الأميرة في دفنها وعزائها حتى وصفت من النسوة بالمرأة الحمقاء العاقة واستاء الناس من فعلها .

ظلت الأميرة تتردد على دار الرعاية ومحاولة أن يقبلها الرضيع ، واقترحت على المسئولة عن الدار السماح لها بأخذه لقصرها ، فرفضت لها هذا الطلب ، وأخذت تذهب في الليل ساعية لذلك ، ولم يحدث لها قبول لدى الطفل .

خرجت في نصف الليل تتجول على الجواد في شوارع المدينة ، ثم تمشي بعد الجولة إلى دار الرضاعة ، وكان التابع يراقبها كما هو مطلوب منه أحيانا جهرا ، وتارة خفية ، وفي إحدى الجولات الليلة مشت لدار الرضاعة ، فلما علموا من هي فتحوا لها رغم الوقت المتأخر من الليل

فقامت المسئولة بإدخالها ، ثم أحضرت الخادمة الخاصة بالطفل الطفل نوح ـ كما سماه الملك سيف ـ تناولته أمه ووضعته على صدرها ، ولما تركتها الخادمة لفته بعباءة تلف بها نفسها وخرجت متسللة ، فأعطاها الحارس الجواد ، وعلم أنها تحمل طفلها الذي بكى قليلا ، ثم سكت وتبعها وهي تسير إلى الغابات ورمت الطفل آملة أن تأكله السباع والضباع ، ورمته حيث التقت بأبيه غياث تلك الليلة ، ومع انبلاج الفجر عادت للمدينة .

علم الوزير بفعلها ذلك ، وأخفوه عنها وتظاهروا بأنه قتل في الغابة حيث ألقته ، ونقل الوليد لبيت خاص في قصر الوزير غالب .

قال الملك لما سمع القصة : خالتي حمقاء! ولا أرى أنها تعترف به ابنا .

قال الوزير : هي الآن ستعقد أنه مات ، وأكلته الوحوش .. وسوف نراها بعد أيام تذهب الغابة للتأكد من موته .. وعلينا إقناعها بذلك .. ستجد ملابسه ممزقة .. ونحن سننقله لمدينة أخرى ؛ ليعيش باسم جديد وأب جديد حتى يكبر .

كان رجل ابن ظفار على علم بتصرفات سفانة ، وهم مهدوا لفعلتها، ونقلوه لمدينة الملك حسن بن علي مع مرضعته .

وبعد أيام خرجت الأميرة إلى الغابة ، ومكثت ساعات تبحث عن الطفل ، ولما وجدت ملابسه الممزقة أيقنت أن الوحوش ، قد أكلته ، وعادت للتفتيش لبعض الوقت ، واعتقدت أن أحدا لم يهتم باختطافه ، فعادت للمدينة ، ولما دخلت حجرتها أخذت بالبكاء الحين .



الحيرة

أصابت سفانة الحيرة ، هل مات طفلها ؟! هل أكلته الوحوش ؟هل نجا ؟ كانت تقول : هل لا يعرفون أني أخذته من الدار الحاضنة ؟ وأني ذهبت به إلى الغابة ، ولم أذهب به للقصر .. لم أجد إلا بقايا ملابسه الممزقة ، لماذا فعلت ذلك يا سفانة؟! هل جننت لتقتلي ولدك ؟ ما ذنبه ؟ قتلت أباه الذي غدر بك ؛ لينقذ رأسه من القتل والقصاص ، ألا يكفي ذلك ؟

ذهبت إلى قصر الملك ، وطلبت مقابلته ، فجلس لها وقال : مرحبا بخالة الملك .

قالت : ابني نوح .. هل علمت أنني أخذته من بيت الرعاية ؟ وذهبت به الغابة .

تظاهر بالدهشة والانزعاج : أأنت أخذته دون علمهم ورميته في الغابة ؟!كيف تفعلين ذلك أيتها الأميرة ؟!

قالت : أنا أردت أخذ ابني للقصر حتى يقبل صدري ؛ ولكني لم أدخل القصر تذكرت أباه فأخذته الغابة حيث التقيت بأبيه .

قال : حسنا ! سآمر رئيس الشرطة بالبحث عنه .. أمتاكدة أنك أنت أخذته من القيمة ؟

قالت : لا أدري لي أيام لم أذهب للدار ؛ لأني سرت به للغابة ..كرهته لكرهي أباه .

قال : سيهتم رئيس الشرطة بالأمر وباختفاء الطفل .. وسأرسله للبحث في قصرك ودار الرضاع هل من أمر آخر ؟

سألت : هل صحيح أن أمي ماتت ؟

قال بحدة : أمك طبعا ماتت .. نعم ماتت ..وهي غاضبة عليك وتلعنك .

ردت : تلعنني ؛ لأنها تزوجت لصا.

قالت : وأنت ماذا تزوجت؟

قالت : لم أكن أعلم أنه قاتل أبي .

قال : كنت تعلمين ، وصدقت رسالته ، وهو قد خدعك ومكر بك.

أقرت فهمست :نعم ، خدعني ومكر بي ؛ لذلك قتلته ..لماذا لم تقتلوه أنتم ؟

فقال : وعسى فعلك القاسي أن يخفف من ألمك وحزنك على جدي الملك ..كنّا سنعذبه عذابا شديدا قبل موته .. هل من أمر آخر ؟

قالت : المهم أن تبحثوا عن طفلي .. أريد أن أرضعه .

قال : علمت أنه رفض لبنك أو لم يجد لديك لبنا يرضعه ؛ ربما لأنك قتلت أباه!

صاحت كأنها محتجة : إن أباه كان يستحق القتل لقتله أبي زرارة الملك العظيم .. جعلني سخرية للناس والنساء .. يقتل أبي ويتزوجني متظاهرا بأنه بريء من دمه لعنه الله .

قال : هل من أمر آخر ؟

قالت : أرغب بالسفر لرؤية أولادي .. لقد طالت غيبتي عنهم .

قال : سيأتون إلينا.

بدت مستغربة : سيأتون إلى هنا!

قال : كتب الملك حميد بأنه سيرسلهم للعيش معنا بضع سنين .. سيتعلمون الفروسية في بلادنا ويتعلمون القيادة .

قالت : الفروسية .. أليس عندهم فروسية؟!

قال : عندهم .. زيادة خبرة وتجارب .. وبلادنا أفضل في التدريب .. ألا تُحبين حياتهم هنا ؟

قالت : أخاف أن يصيبهم مكروه.

قال : لا يصيب المرء إلا المقدور .. وفاجأها بقوله : ما رأيك بالزواج ؟

قالت : الزواج ! أنا أتزوج!

قال : الزواج دواء ونسيان للموت .. أم تعودين لزوجك شداد ، فهو محب لك .

تنهدت ومسحت دموعها وقالت : لو بقيت زوجة ما طمع بي الكاهن وغرر بي .. زعم لي في البداية أنه لن يقربني كزوجة مجرد زوجين .. وبعد أسبوع تذلل لي أنه لن يحميه من سيف الجلاد إلا أن يصبح أبا ، فصدقت ، وملكته جسدي .. كان شداد صالحا وطيبا وصبورا على أفعالي ؛ ولكن مقتل الملك أفقدني الصواب .. ضحيت من أجله بالعرش الذي تجلس عليه .. رفضت

الزواج من أمراء بلدي من حزني عليه وشفقتي على حاله بعد خلعه .. إنه رجل طيب.

قال الملك : ما دام هو رجلا طيبا فلنصلح بينكم .. وتكونين من ضمن حريمه وسأدعوه للحياة مع الأولاد ومعك حتى ينتهي التدريب ، وتعودون كلكم لبلاد الملك الشيح حميد .. هل أطلب ذلك منه ؟

عادت تقول : وابني المفقود .

أجاب : سنبحث عنه ، ونجده إن لم تأكله السباع ..أتعودين لشداد ؟

قالت : لكنه متزوج .

قال : كلنا متزوجون .. ها أنا زفت لي امرأتان في ليلة واحدة .. واليوم كلتاهما تحمل جنينا في رحمها .. وزوجك متزوج قبل الزواج منك .

قالت : تزوج بعد طلاقي ..ورأيت امرأته لما زرت الأولاد .

قال : فكري بعرض ابن أختك أمامة ـ رحمها الله ـ حتى يأتي مع الأولاد للزواج منك .. ونجعل زواجكم في البلاد وأمام أعيان المدينة .

همست : لم أعد أصلح للزواج .

فقال ضاغطا : ولكنك تزوجت ، وحملت قبل سنة .. وأنت صغيرة يا خالتي .. دعيني أخاطب الملك حميدا .. سيفرح أولادك بعودتك لأبيهم.

قالت : الأمر عليّ صعب ..كان أن قبلت بغياث ؛لأنني سعيت لإنقاذه فعلا أيها الملك ! صدقت كلامه وأيمانه .. وصعب عليّ أن أصدق خيانته لأبي .

قال : فكري بما عرضت جيدا .. وأنا رهن إشارتك.

قال بحزن : رحم الله أمامة .. لو عاشت لتراك ملكا تجلس على عرش والدها .قال : رحمها الله

قالت : ماتت مسكينة .. لم تفرح بك، أخفيت عنها منذ ولادتك .

قال : نعم ، مسكينة اضطرت للتخلي عني ؛ لأعيش وأصير الملك.

الأبناء

حضر أبناء الأمير شداد للتدرب العسكري في بلاد اللؤلؤ ، وبرفقة خمسين شاب صغير ، ولما استقروا بالمدينة بسلام وفي مدرسة التدريب ، غادرهم الحرس الذي رافقهم ، وبقي المسؤول عن متابعتهم ورعايتهم الأمير نعمان .

وكان الهدف من تدريبهم للعمل كقادة في بلادهم عندما يشبون ويصبحون من الفرسان الكبار فنزلوا في مساكن المدرسة كغيرهم من التلاميذ المختارين ، وسمح لهم بزيارة أمهم دون المبيت عندها ، ورفضت رغبتها أن يسكنوا معها ، فهم جاءوا ليكون قادة في بلادهم ، فعليهم البقاء مع الأصدقاء والتلاميذ ، ونظام المدرسة العسكرية ، وبعد ثلاثة أشهر من التدريب كان يسمح لهم بالخروج من المدرسة للنزهة والزيارات ، فتمكنوا من زيارة أمهم وخالتهم ؛ بل كانت خالتهم بانة تدعوهم إلى الغداء مع الأسرة في فترة الاستراحات مما سمح لهم التعرف على أولاد خالتهم وبناتها .. وكذلك الأميرة خلود عندما تكون في مدينة اللؤلؤ .

وعلم الفتيان قصة ضياع أخيهم نوح من خالتهم بانة أم محمد.

وقضى الأمراء وغيرهم خمس سنوات في التدريب والتمرين ، وبدأ الاستعداد للعودة لمدينتهم وقد أصبحوا فرسانا وشبابا، وجاء قادة من بلادهم يشاركونهم حفل انتهاء التدريب ، وجاء والدهم ضمن الوفد الكبير .

وهمس الأمير زيد بن شداد لأبيه رغبته بالزواج من ابنة خالته بانة الأميرة أمامة ، فتشاور الأمير مع والدها كساب في ذلك ، والتقى بالوزير غالب من أجل ذلك فدعا الوزير الأمير كساب وبانة ، وعرض الأمر عليهم ، ثم ذهبوا للملك سيف لأخذ رأيه الفصل ، ولما علم الملك بقبول البنت بارك الزواج .

واحتفل بالزواج قبل عودة المتدربين لبلادهم ، وكان الوزير غالب تلك الأيام يعاني من المرض الشديد وأمر الوزير بالاستمرار بحفل الزواج رغم شدة مرضه ، وعين الأمير لؤي والد الملك وزيرا للبلاد بدلا من عمه كما طلب غالب ؛لأن الوزارة متوارثة في أسرته ، فعادت الوزارة لابن

أوس الوزير القديم .

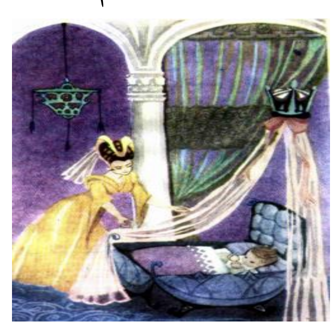
وأعلنت الاحتفالات بتنصيب الوزير الجديد في البلاد . سعت بانة بعد زواج ابنتها من ابن شقيقتها سفانة التصالح معها ، فزارتها في قصرها ، وباركت لها زواج ابنها من ابنتها ، وأنها تمنت أن تحضر الحفل معهم ، فقد حزن زيد بغيابها ، وظلت بانة تتحدث حول ذلك، وتلك صامتة محدقة النظر في أختها فقط.

ورجعت لقصرها متضايقة من تجاهل أختها لزواج ابنها فقالت لزوجها : حالها لا يسر .. تكلمت معها ساعة ؛كأنني أتكلم مع الجدار .. سافر ابنها زيد حزينا من موقفها وتجاهلها لعرسه وزواجه .. ولم يذهب لوداعها ، وعصى أمر أبيه وفعل مثله إخوانه .. هذه المرأة غريبة التصرفات يا كساب !

فقال : أين أخفت ابنها الرضيع ؟! لا أحد يدري لماذا أخذته من دار الرعاية ؟ هل تظنين أنه قتل كما يتحدثون ؟

قالت : قيمة الدار تقول : إنها جاءت ليلا ، وأخذته بحجة رضاعه ، ثم اختفى الوليد .. وهي تبحث عنه .. أختي تنكر قتله .. ذهبت به الغابة حيث التقت بذلك الشيطان، ورمته هناك .. والملك سيف يقول : إنه ابنها .. ماذا سنفعل لها ليعود لها صوابها ؟

فقال : فربما من أجل ذلك تلزم الصمت ، والملك يلزم الصمت بشأن الطفل.



النهاية

مضت السنون والأميرة سفانة تعيش على طبيعتها في عزلة ، ولا تحب الحياة الاجتماعية والاحتفالات والأعياد ؛ ولكن ظل لها الاحترام من الأسرة المالكة ؛ لأنها ملكت البلاد في يوم ما ، وأنها ابنة الملك زرارة ، وأنها خالة الملك سيف.

تزوج أولادها وأبناء أخواتها وبناتهم ، وهي على هذا الحال الانعزالي ، وأصبح أبناء الملك سيف شبانا مؤهلين للحكم والزواج .

اجتازت الخمسين سنة من العمر ، وذات ليلة طلبها الملك للقصر الملكي ، فمشت إليه بصعوبة فقد صار مشيها ثقيلا ومتعبا لها ، وبعد أن جلست رأت الوزير والد الملك ، وكان بصرها أيضا أصابه الوهن والضعف ، فقدم لها الملك تفاحة بيده ، فقبلتها ولما انتهت منها قالت : أرسلت لي هل من خبر؟

قال : نعم ، يا خالتي الطيبة ..دخل البلاد شاب من بلاد الملك حسن بن علي.

قالت : شاب ! وماذا يريد مني هذا الشاب؟!

قال : جاء هو وزوجته ضيوفا على البلاد ، ولهما رغبة بالجلوس معك ، والحديث معك .. هل أدعوهما للسلام عليك ؟

قالت بحيرة : وما شأني بهما ؟!

قال : استأذانا مني ، ومن أبي ..فهو يحمل لك رسالة شفوية.

قالت وما زالت الحيرة ترتكبها : رسالة شفوية ممن؟!

تبسم الملك وقال : عندما تقابليه تسأليه .

قالت : أهو في القصر ؟

قال : نعم، هو هنا ، وهو قريب لنا .

قالت : قريب لنا ومن مدينة ابن صيرم الخائن فليأت !

أمر الملك بإدخال الأميرين ، فأقبلا وحييا الملك والوزير ، فهما لهما بضعة أيام في المدينة .

أحدّ الأمير الضيف نظره بالأميرة سفانة التي أشار إليها الملك ، وحدقت به بدورها وقالت : هذا هو الذي يريد أن يراني، ويحمل لي رسالة شفوية.

أشار له الملك بالكلام فقال : نعم ، يا أمي ! أنت أمي ، وأنا ولدك الذي رميته في الغابة قبل عشرين سنة .

صرخت وقالت : أنت ولدي نوح ! وأنا أمك ! أنت ابن غياث!

فقال : نعم ، أنا ابن غياث الكاهن ! أنا ابن الذي قتل أباك الملك زرارة بن نعيم .. وابن الذي قتلت أباه.

لطمت وجهها وشدت شعرها وقالت بغل : ولدي أنت!

قال : سامحتك يا أمي ! وقد اهتم بي صاحب السلطان الملك سيف بن الوزير لؤي بن أوس ، ورعاني حق الرعاية ، وزوجني أميرة من أميرات مدينة حمصان ..أنا سامحتك ، وجئت لأعرف أمي أو حان الوقت لأرى أمي .. وأنا قائد في بلاد الملك حسن حيث دبر لقتل جدي الملك زرارة فقد أصبحت البلاد بلادنا ، وهذه زوجتي الأميرة نعمى حفيدة الملك حسن .

بعدما استوعبت الصدمة ضمته الملكة لصدرها ، وبكت قائلة : ولدي ! لقد كنت بائسة مصدومة ..فقدت صوابي من شدة الأحداث .. لقد قتلني أبوك قبل أن أقتله .

فقال والدموع تترقرق في مآقيه : أعرف القصة بالتفصيل .

قال الملك : كان الوزير غالب ـ رحمه الله ـ مدركا للخطر المحدق بك يا ولدي من قبل أمك فرتب الأمور لإبعادك عن البلاد على أنك ميت كما تريد أمك عندما رمتك في الغابة فأخذك رجاله .

قالت : نعم ، كان الوزير حكيما يا ولدي ! لقد جننت تلك الأيام .. تعال يا ولدي . وضمته إلى صدرها من جديد وقالت : فأنت فلذة مني ..طول كل هذه السنين لم أصدق أنت مت !

قال : غفر الله لك يا أمي .

قالت : غفر الله لنا كلنا يا ولدي .

تقدمت الفتاة ، وعانقت الملكة بكل صدق وحب .

قالت وهي تخاطب الملك :إنك ملك عاقل ذكي يا ابن أختي ! كم تمنيت أن تكون أختي حية ؛ لترى ولدها ملكا متوجا على عرش زرارة العظيم ! كان مقتله صدمة كبيرة لي.. ذهب عقلي مع موته ..وقد كنت أحس بالخطر المحدق به ، وسمحت له بالسفر دون جيش يحميه .. كان أبي يرى الوزير أوسا وأسرته خصوما له وأعداء .. لكنهم حكماء وفضلاء .. لقد بذل الوزير غالب الجهد الكبير للاقتصاص من قتلة أبي كنت ساذجة بالنظر للحكم والإدارة .. سامحوني اليوم يا آل لؤي .. لقد أسأت للكثير من الناس.

وعادت تحتضن ابنها وقالت : سامحت أمك التي أرادت لك الموت ولا ذنب لك .

قال : سامحتك يا أمي ! قابلت خالتي بانة ، وسعدت بحياتي وعودتي للقاء أمي

قالت : أسأت لأمي وأختاي ولأولادي ..أخوتك من الأمير شداد.

قال نوح : إنهم يحبونك.. وسيأتون البلاد ؛ لنتعرف عليهم كما قال الملك .

قال الملك: أرسلت وراءهم .. يجب أن يعود الوئام للجميع.. وسنبدأ بالصلح بين الأمير رياض القائد الكبير وأخته الملكة سفانة .

وحضر القائد رياض وزوجته ، وبعض أولاده ، وأختها بانة ، والأميرة خلود وزوجها ، وكان لقاء كبيرا دبر له الملك ووزيره لؤي ، واعترفت سفانة بخطئها وقسوتها ، وطلبت الغفران والمسامحة من كل من أسأت إليه ، وفي ختام العشاء قالت مخاطبة الوزير لؤي : أنت أب عظيم أيها الأمير ! لقد أنجبت لنا ملكا عظيما .. تعيش البلد في عهده بسلام وعزة وأمان.. كأنه زرارة العظيم !

فقال الوزير : بارك الله فيك .. كانت أم الملك شجاعة ، وقبلت بالزواج في تلك الظروف القاسية ؛ لتنجب لنا هذا الملك الشجاع ، ووفقنا في الحفاظ على حياته كما وفق هو بالحفظ على حياة الأمير نوح .. الحياة تحتاج أحيانا لأفعال غريبة .. وتصرفات نادرة شجاعة ، وعلى غير المألوف .

قالت : سامحني أيها الوزير ! كنت مستاءة فعلا من زواجك من أختي سرا .. ومن زواج أختي بانة هربا ، وكذلك خلود .. كنت صغيرة وأرى ذلك عيبا وإجراما .. اليوم انزاحت الغمة .. وكما كان زواجي من غياث على غير المألوف ، كان زواج أخواتي بنات الملك خارج عن المألوف كنت مقتنعة أن الزواج يجب عن طريق الأب وبموافقته ، لم أفهم ذلك المنام الذي شاع في القصر ويحرمنا من الزواج .. وعلى البنت أن تبقى دون زواج حتى يوافق الأب ، ثم رأيت ضعف موقف أبي عند زواجي في بلاد الملك حميد ، وقبوله ذلك لي ، ورفضه زواجنا في بلادنا .. كنت في غاية الحيرة من ذلك .. ووافقت على الزواج ؛ ليبقى بعيدا في منفاه .

قال الملك : رحم الله جدي ! كم كنت في شوق لرؤياه واللقاء به ، لم أبغضه رغم علمي بتهاونه في رعاية وعلاج أمي ، ورغم الخطر عند ولادتي ، وسيبقى عظيما في نظري .. وكان أبي شجاعا بأن قبل وهو ابن الوزير أوس بالزواج خفية ومن ابنة الملك .. فقد يفقد رأسه في مثل هذا الأمر الغريب .. وقد يشعل الحرب داخل البلاد .

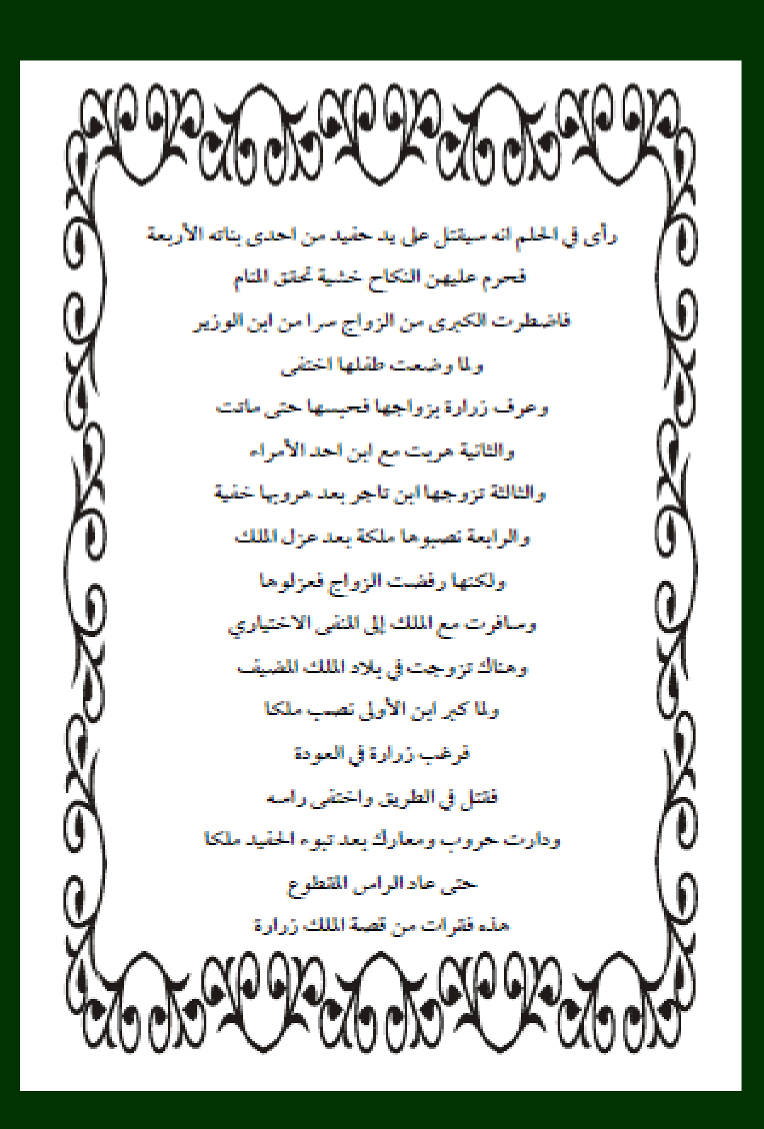
فقال الأمير رياض : رحم الله الجميع ! ولا تنسوا شجاعة أمي الملكة عزوف .. وخوضها غمار تلك المغامرة الخطرة بتزويج ابنتها سرا حتى كلفها ذلك الطلاق والنفي وحيدة .

وظل القوم في لحظات ابتهاج وذكريات حتى صلاة الفجر .



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

الملك زرارة والملكة سفانة



رأى في الحلم انه سيقتل على يد حفيد من احدى بناته الأربعة

فحرم عليهن النكاح خشية تحقق المنام

فاضطرت الكبرى من الزواج سرا من ابن الوزير

ولما وضعت طفلها اختفى

وعرف زرارة بزواجها فحبسها حتى ماتت

والثانية هربت مع ابن احد الأمراء

والثالثة تزوجها ابن تاجر بعد هروبها خفية

والرابعة نصبوها ملكة بعد عزل الملك

ولكنها رفضت الزواج فعزلوها

وسافرت مع الملك إلى المنفى الاختياري

وهناك تزوجت في بلاد الملك المضيف

ولما كبر ابن الأولى نصب ملكا

فرغب زرارة في العودة

فقتل في الطريق واختفى راسه

ودارت حروب ومعارك بعد تبوء الحفيد ملكا

حتى عاد الراس المقطوع

هذه فقرات من قصة الملك زرارة





أبناء

الملك سماك

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

٢٠

جمال شاهين

أبناء

الملك سماك

٢٠١٩

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

أبناء الملك سماك

جمال شاهين



منام سماك

عندما استيقظ سماك الملك من نومه مهموما هلعا مما رأى من رؤى وأحلام استدعى خادمه الخاص صديق الراعي ، وقال له بضيق : هيئ لي يا صديق الشرفة .. لا أرغب بالنوم ثانية .. إنني أحلم أحلاما مخيفة منذ أيام خلت .

فقال الخادم الخاص : ما زال هناك متسع للنوم يا مولاي الملك .. فالفجر بعيد ظهوره .

فقال الملك الضجر والحزين : لا عليك .. اشعل الموقد إذا خمدت ناره ، وأشعل مصباح الشرفة لا أريد النوم .. افعل ما تؤمر أيها الرجل الطيب !

خرج الخادم الطيب من حجرة نوم الملك إلى حيث الشرفة التي يحب أن يسهر فيها صاحب التاج الملك سماك ، وكانت الشرفة مزخرفة وواسعة ومطلة على البحر الكبير ، فهذا القصر الملكي مطل على البحر الكبير ؛ بل مياه البحر تضرب جدرانه ، فكل مدينة الشواهد مطلة على البحر بل يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ، وهي مدينة كبيرة بل تجمع عدة مدن بحرية، ففي رأس المثلث مدينة الحزينة والضلع الشرقي مدينة خرم الحزينة والضلع الغربي مدينة سلة الملك ويقع بين هذه المدن الكبار عددا من القرى الصغيرة والبلدات وعاصمة الملك مدينة الحزينة ، وقصر الملك سماك بن صخرة ملاصق للبحر المحيط ببلاد الشواهد .

والذي يحزن الملك ويؤرقه منذ سنوات ذريته فمنذ أن هده المرض ، ولم يعد يستطع ركوب الخيل ، فقد استقوى عليه ولداه ؛ بل حتى ابنته لا تهتم به ، ولا ترعى أمره ، وكل فرد منهم طامع بولاية العهد والحكم من بعده ، ويحزب الاحزاب حوله .

وقصة هذا الملك تبدأ قديما عندما اعتلى حكم هذه البلاد الكبيرة منذ أربعين سنة ، فعندما كان والده يموت اختاره دون اخوته ملكا وريثا له ، وطلب منه والده الزواج من ابنة الوزير بشوم بن حمض وكانت تكبره بسنوات ، ولما جلس على كرسي وتخت الحكم نفذ وصية والده صخرة ونكح ابنة الوزير بشوم الأميرة كرام ، وبعد زواج استمر خمس سنوات لم تلد له تلك المرأة ، فطلب منه أعمامه واخوته أن يتزوج من ابنة القاضي رسال بن جادي قاضي الملك وكبير قضاة البلاد ، فتزوج الملك سماك من الأميرة منيرة ابنة القاضي رسال ، وبعد سنين ولدت له ابنة

القاضي ابنته البكر الاميرة زهرة ، وفرح الناس والملك وأهله بولادتها فرحا مشهودا ، وبعد سنوات أخرى ولدت الاميرة منيرة ابنة القاضي رسال ابنه قسيم ، وفي نفس السنة ولدت الاميرة كرام ابنة الوزير بشوم ولدا فسماه حازما ، وعندئذ بدأ الصراع والتنافس بين الوزير والقاضي ، فالوزير يرغب أن يكون حفيده وريثا لأبيه في الملك ؛ لأن ابنته الزوجة الأولى للملك ، وتزوجها عن وصية أبيه صخرة ، فهو الأحق بالخلافة ، والقاضي أيضا يريد أن يكون ابن ابنته وريثا للملك لأنه الابن الأكبر ولو ببضعة شهور ، بل بعض الأهل من وجدت لديهم رغبة بأن تكون الابنة زهرة الملكة بعد حياة والدتها وموته ، فللملك جدة كانت تسمى زهرة وقد حكمت البلاد قديما ، وما زال الناس يتحدثون عن عدلها وشجاعتها وفطنتها ، ولما ولدت زهرة بعد كل سنوات الانتظار اشيع بين الامراء بأنها الملكة المنتظرة ؛ بل سعت أمها منيرة تهيئة الناس لذلك ، وأخذت تجمع حولها الأنصار ؛ خشية موت سماك دون تسميتها ملكة ، ويعتلي العرش أشقاء سماك ؛ ولكنها لما أتت بقسيم خف حماسها لهذا الرأي ؛ فالذكر أولى بالقيادة والرئاسة ، وحق توريث الملك هو حق للملك ينفرد فيه ويختار من يشاء من أسرته كإخوته وأبنائه وأعمامه ، فكان القاضي الكبير رسال يحزب الفرسان والامراء حول ابن ابنته قسيم ، والوزير بشوم يدعوهم للالتفاف حول الامير حازم والاميرة زهرة كان بعض أعمامها يرغبون الملك باختيارها ليحي تاريخ الاجداد وجدتهم زهرة ، وليكف النزاع بين الأخوين وأنصارهم فتعلق قلبها بالملك مثل اخويها ، فلما هد المرض والارهاق الملك سماك زاد التنافس والصراع ، والملك يماطل ويؤجل الفصل في ذلك حتى تزف ساحة الرحيل ، ولكن ساعة الرحيل لم تأت كما توقع المقربون من العرش ، فقد حدث أن كان الملك يوما مع فارسه الخاص همام وبعض خدمه في إحدى قرى الصيادين وقد جلسوا على صخرة يشاهدون الصيادين ، وهم يرمون شباكهم لصيد السمك ، وبينما هذا الملك يجلس وحوله غلمانه يتابع الصيادين وأكوام السمك إذا رأى صبية حسناء جميلة تخرج من أحد الاكواخ وقد اقتربت من الشاطئ ؛ حيث رجل صياد ومعه أقرانه، فتحدثت معه فترك الشبكة مع أحد ابنائه وسار مع الفتاة الحسناء نحو

كوخهم ، شاهد الملك المتفرج الفتاة الحسناء فاستحسنها وراقت في عينيه فقال لفارسه همام :

أيها الفارس .. إنها صبية حسناء وذات صوت جميل .. أهي ابنة الصياد ؟!

دهش الفارس لأمر الملك الشيخ فرد : أعتقد يا مولا ي أنها ابنته !

فقال الملك بصراحة ومن غير مواربة : أيها الصديق ! عشق القلب هذه المرأة .. بل ذكرتني بمنام قديم كنت أراه ..

قلق الفارس لهذا الخاطر ولهذا العشق المفاجئ والمتأخر ؛ فالملك الناس تنتظر نهايته ويتحلقون حول أولاده ينتظرون كلمة الفصل في ولاية الملك ، وها هو يفكر بالزواج فعقب الفارس همام على ما سمع من الملك والدهشة مرتسمة على محياه : منام قديم ؟!

فقال الملك بعدما أمر الخدم بالابتعاد عنهما : نعم، لقد رأيت أن بلادنا تغرق وتغرق ولا يزيل عنها الغرق الا رجل من صلبي ، ولكنه من أبناء العامة ، بل قال لي شيخ المعبد " إنني سوف أتزوج من ابنة صياد ، وولدي منها سينقذ البلاد من الغرق " .. ولما رأيت هذه الصبية الحسناء اهتز لها قلبي الضعيف الوهن وتذكرت ذلك الحلم يا همام .. أعرف أنني رجل مريض والكل ينتظر هلاكي ؛ ولكني منذ شهور أرى أنني تحسنت يا همام .. دعنا نكلم الصياد .

فردد الفارس بقلق : مولاي الملك ! إنها ابنة صياد .. مسكين فقير !

فقال الملك بإصرار : نفذ أيها الفارس ألست صديقي وصاحبي وفارسي الخاص ؟!

فقال الفارس : إني خائف عليك !

فارتبك الملك للحظات ثم قال : ممَ ؟ من زوجاتي ؟ من آبائهن ؟ أم من الاولاد الظلمة الذين يعتدون على الناس والشعب ولا يرتدعون بكلام ولا تهديد ويريدون الملك للتجبر واذلال العباد ؟ أم من ضعفي وسقمي أيها الأخ الشجاع ؟!

فقال همام وهو يشغل فكره : إني خائف عليك وعلى الصياد وابنته يا مولاي ؟

فقال الملك بغضب ظاهر : وأنت وفرسان الملك ماذا تفعلون ؟!

ـ أنا خادمك المخلص يا مولاي ولكن ...

ـ لا داعي للكن هذه .. هيا اتبعني ..

مشى الملك بخطوات وئيدة ضعيفة تدل على تعب الملك البدني والحسي مشوا نحو الكوخ الذي دخله الصياد والفتاة ، ولما وصلوا إليه أمر الملك أحد الغلمان أن يستدعي صاحب الكوخ .. خرج الصياد ورأى الملك ولم يعرفه ؛ ولكنه أحس أنهم من علية القوم ، وخرجت الصبية ووقفت بباب البيت تنظر من هؤلاء القوم الذين يرغبون بالحديث مع والدها الصياد ولما عرف الصياد أنه يكلم الملك خر مقبلا ليده ومرحبا به ومعتذرا له عن جهله بصورته ، فعذره الملك وخاطبه مباشرة بشأن الصبية أمام دهشة الفارس والغلمان ، فتعجب الصياد البسيط لطلب الملك مصاهرته ، فتلعثم لسانه وارتبك فهرعت إليه الصبية ظانة أن مكروها ألم به .. فبش لها الملك وحدثها بما طلب من أبيها ، فاضطربت هي الاخرى لما علمت أن هذا الرجل الذي يتحدث معهم هو الملك سماك بن صخرة وكادت لا تصدق .

ثم جرى زواج الملك سماك أمام دهشة رجال البلاط والامراء وحتى الشعب ، الملك يصاهر الصياد جرو البحر ، ولم يمت الملك كما توقع الكثير من الامراء والحاشية ، وبعد سنة تزيد قليلا أنجبت حورية الماء ابنة الصياد فتاة للملك ، فرح الملك بها وقال لنفسه : أيكون انقاذ مملكتي كما رأيت في تلك الرؤية على يد هذه الفتاة .

عاش الملك سنوات أخرى وكبرت الصبية المولودة وأصبحت ذات خمس سنوات وقد سميت كما أخبرنا بالأميرة " شما "

***

لما تجهزت شرفة جلوس الملك ترك مخدع النوم وذهب اليها ، فهو يحب الجلوس والاضجاع فيها ويأخذ بمراقبة البحر وسماع صوته الضخم عند ارتطامه في جدار القصر .. ويرى السماء ونجومها ويسمع اصوات الاطيار على الاغصان السامقة في عنان السماء ، وطيور البحر وزعيقها الذي يملأ الأكوان ، وتدثر الملك الشيخ بفراء سميك واقترب من موقد النار، ووضع له خادمه الكهل الوانا من الفاكهة والطيبات ، وأراد الجلوس أمام مدخل الشرفة كالمعتاد ليخلو الملك الهموم مع نفسه وأفكاره ، فدعاه الملك للجلوس بقربه فأدرك الرجل أن الملك يريد أن

يسر إليه بشأن ، فتأدب وجلس بين يدي الملك سماك فسمعه يقول : صديق أنت خادم مخلص لي .. وقد خبرتك منذ أكثر من عشرين سنة .. ولا أشك في حبك لي ..

فأظهر الخادم كلمات تؤكد الولاء والحب والإخلاص لسيده الملك ، ثم عاد الملك يقول : اسمع يا صاحبي .. سأكلفك بمـهمة عظيمة أيها الصديق .

أظهر الرجل اخلاصه وامتنانه للقيام بهذه المهمة ولثقة الملك الكبيرة بشخصه الضعيف فما هو الا مجرد خادم في قصر الملك منذ وعى على نفسه وهو يعيش في قصور الملك ، ثم خصه الملك سماك بخدمته الليلية والخاصة ، فقال الملك هامسا : سترحل يا صديق الى بلاد بعيدة .. زوجتي حورية الماء حامل .. وأنا أحس بأن أجلي قد دنا واقترب .. وأنا خائف عليها وعلى ما في رحمها .. وأنت تعلم كما يعلم الناس جميعا أن اولادي لا يكنون لي الاحترام والتقدير اللازمين .. وأنا خائف من غدرهم .. فقد طلبت من حورية أن تستعد للرحيل خفية والاختفاء دون علم أحد إلا أنا وأنت يا صديق .. ترحل بها الى بلاد عيسى وهناك تنزلها في بيت وتخدمها كما تخدمني حتى تلد ويكبر المولود الذي أراه في منامي ولدا ، وهو سيكون الملك من بعدي يا صديق .. سيكون أخي زيد الملك بعد موتي القريب دون اولادي وسآخذ منه عهد أن يجعل ولدي من ابنة الصياد ملكا عندما يكبر ويشب .. هل تسمع ما أقول ؟! .. ستسافر إلى باد بمركب تستأجره ومن هناك تركب الى حوت وبعدها الى جمار وهو مرسى سفن مدينة عيسى وفي عيسى تستقر وتختفي يا صديق سوف يبحثون عنك تنكر ودبر الأمر .. فهل أنت أهل لهذا الأمر العظيم يا صديق الشجاع ؟! .. وأنت بخدمتك لولدي ؛ كأنك تخدمني يا صاحبي الراعي .. عليك ترتيب أمر السفر خفية وسرا

تلقى صديق الأمر الخطير والمخيف بكل طاعة ، فدفع له الملك بعض عقود الجواهر والمال وأمره بالاستعداد للسفر .

ولم تكد تمضي بضعة أيام على هذا الاجتماع حتى غادر صديق بالأميرة الحسناء حورية الماء إلى مدينة باد ، ولما دخل مدينة حوت سمع الناس يتحدثون عن هلاك ملك بلاد الشواهد وتنصيب

الامير زيد بن صخرة ملكا على البلاد وسمعهم يتحدثون عن غضب أولاد الملك الراحل على عمهم زيد لتقديمه ملكا على البلاد .

******

بعد سفر صديق بحورية بيومين أو ثلاثة طلب الملك سماك الوزير بشوم والقاضي رسال وقادة الحرس والجيش وكبار رجال البلاط الملكي وأعمامه الاحياء واخوته ورجال العائلة الكبار وفي اجتماع خطير عهد أمامهم بالحكم لأخيه زيد دون اولاده الثلاثة وصيا على العهد والعرش حتى تلد زوجته حورية ابنة الصياد جرو البحر ولده ويكبر ويبلغ سن الرجال فيحكم البلاد خليفة عن والده سماك ، فاشتد غضب ولديه الشابين وقام الصياح والهجاء فطلب الملك من قائد الحرس حوري بحبس اولاده الذكور في سجن القصر ، ثم أعلن لهم الملك ثانية ما قرره ورتبه وأخبرهم برحيل زوجته حورية الحامل من البلاد الى مكان مجهول حتى تلد ابنه وتربيه بعيدا عن أهله حتى يكون الملك من بعده وحفظا لحياته حتى يشب ويكبر ويعود للبلاد وأن وصاية زيد تنتهي بعودة الطفل الموعود .. وأخذ الملك المواثيق الغلاظ من الامراء والقضاة والجند وشيخ المعبد على تحقيق ذلك .. وبعد اعتراض من بعض الامراء والاقارب أقسم الجميع على تنفيذ وصية الملك وإن أصابهم الغضب في نفوسهم وعقولهم ، وبعد انصرافهم دعا الملك ثانية أمير البحر وأمير العسكر وأمير الحرس وأمير فرسان الملك وأخذ منهم المواثيق والعهود على المحافظة على العهد فاقسموا له بالولاء وحفظ الامير وطاعته عندما يعود للبلاد .

وبعد يسير فاضت روح الملك سماك بن صخرة ملك بلاد الشواهد الى بارئها سبحانه وتعالى ، وشيع في جنازة حزينة ومضطربة وأعلن امراء البحر والجيش والحرس والفرسان الامير زيدا ملكا على البلاد والعباد حسب وصية الملك الهالك . وقد رفض اولاد الملك قسيم وحازم البيعة واعتكف كل أمير في قصر أمه وحوله انصاره واعوانه . فتحدث زيد الوصي مع الوزير العجوز بشوم وحذره من تمرد ابن ابنته كرام ، وكذلك تحدث مع القاضي العجوز رسال وبين لهم أن الملك الراحل فعل ذلك لمصلحة وحياة البلاد وأنه لم ير في ولديه الكفاءة للقيادة والرياسة ..

فضحك الوزير بشوم وعلق قائلا : أما الابن الجنين اذا كان ابنا فهو أهل للملك والرئاسة يا ملك زيد ؟!

فقال الملك زيد بشدة : هذه وصية أخي .. أيام ثلاثة اذا لم يأت هؤلاء الصبية وأمام القادة والامراء لإعلان التوبة والبيعة فسوف أزج بهم في السجون .. أنا الملك اليوم وليس الجنين فطاعتي واجبة عليهم بوصية أخي وبأنني عمهم ..

فقال القاضي رسال : أهدأ يا صاحب السلطان .. فلا تعجل على بيعتهم أيها الملك .

فقال زيد الوصي : لم نعهد تمردا على اختيار الملك في أسرتنا أيها السادة .. فهذه سابقة خطيرة .

فأجابه الوزير بنبرة غاضبة ومتحدية : لم نعهد وصاية بهذه الصورة على الملك أيها الملك فهذه سابقة لم نسمع بها في مملكتنا .. وصاية على جنين مجهول !

فصاح الملك بحدة : أخي فعل ذلك لفساد ولديه ولتصارعهما أو تصارعكما أنتما على ولاية الأمر فأنتما السبب ؟! كل واحد منكم يحرض ابن ابنته ليكون هو الملك حتى أن الاميرة زهرة حفيدة القاضي الكبير طمعت في ملك اجدادنا قبل ولادة قسيم ولها انصار ما زالوا يحثونها على ذلك الشأن .. اسمعوا وعوا .. ثلاثة ايام أنتظر خضوعهما .. عندما يأتي المولود الهارب ويصبح ملكا فليتمردوا كما شاءوا .. أما وأنا الملك فعليهم بالولاء والطاعة .. انصرفا الآن لا بارك الله فيكما مضت الايام الثلاثة ومازال ابناء سماك يرفضان الخضوع والبيعة لعمهما زيد ؛ بل ارسلا إليه سيلا من السباب والشتائم ، فجمع الملك زيد امراء الحرب واخوته الاحياء واعلن أمامهم عزل الوزير بشوم والقاضي رسال وعين الأمير رفيق بن عديل ابن عم له وزيرا للبلاد وتعين القاضي فارس بن محمود كبيرا للقضاة في البلاد وفرض الحصار على بيت الوزير بشوم والقاضي رسال فرفض الوزير الشيخ الامر وانتقد الملك واتهمه بالطمع بالحكم ، فزج به في السجن هو وكل من معه ، وأما القاضي فأعلن الخضوع والولاء للعرش ورضي بالحبس في بيته كما يريد الملك زيد .

فلما عرف الاميران قسيم وحازم بذلك ازداد حمقهما وأتى قسيم للملك مبديا سخطه وغضبه ومهددا بالثورة على الحكم والعرش فصفعه زيد الملك ورماه في سجن القصر ثانية ، فأقبلت

أمه منيرة وتشاجرت مع الملك ، فعذرها الملك كرامة لأخيه الميت وقال لها : ابنك يحتاج إلى إعداد جديد .. يشتمني ويتوعدني .. عندما ينصلح حاله سنعفو عنه وعن تطاوله .

أما الامير الشاب حازم حفيد الوزير لما رأى جلادة وقسوة عمه فر من البلاد هاربا ، وقد بحث عنه الملك زيد في أنحاء البلاد ، فلم يعثر عليه فأدرك أنه خرج من المدينة .. وبعد حين حاول الملك زيد البحث عن حورية الماء فعلم أنها اختفت قبل وفاة الملك سماك بصحبة الخادم صديق الراعي ، وحاول عن طريق إخوتها ووالدها جرو البحر كشف السر ومعرفة مكان اختفائها فأنكروا معرفتهم بذلك السر ، وكتم الامر في نفسه وتركه للأيام .

وأما الاميرة زهرة فلما رأت صرامة عمها أظهرت خضوعها وبيعتها للملك مع أن النساء لا بيعة عليهن ، فقبل منها زيد ذلك ، وحثها على الاقتران بأمير أو فارس والابتعاد عن حياة الرجال واطماع الرجال والانشغال ببعل وابناء ، فتظاهرت بالرضا والقبول والاقتناع وأنها ستفكر بالزواج ، وعادت لأمها باكية شاكية ذليلة وقالت صارخة : يا أماه .. لا حياة لنا في هذه البلاد .. فعمي حاقد علينا ولم يدع حرمة لأبينا الميت منذ أيام .. وأحس أن عيونه تطاردنا وسمعتهم يتحدثون عن محاكمة لقسيم فأخشى يا أماه أن يعدموه الحياة .. فيبدوا أن عمي طامع بالملك للابد .. فأفعاله ليست أفعال وصي .

فقالت الام : أنتم السبب ! أنتم دفعتم سماك أن يدفع الحكم والملك عنكم .

فهزت الفتاة رأسها بحقد وغضب وقالت : سوف يرى هذا الملك ما ستفعله بنت سماك !

فقالت الام منيرة : كان أبوك ذكيا ! كنت أراه ساذجا أحمق .. فقد عرف من يختار للملك ؟! أين أخفى حورية الماء ؟ وهل هي فعلا حامل ؟! أين ذهبت ؟! .. لقد دسست جارية على أهلها .. فأكدت لي أنهم لا يعرفون .. بل لم تخبرهم بخطة الملك !

صراع على التاج

عقد مجلس القضاة في البلاد جلسة تمت بها محاكمة قسيم بن سماك ، فعرض عليه كبير القضاة الامير فارس بن محمود التوبة والندم والاعتذار لصاحب السلطان ، ولكن الفتى الشاب ركب رأسه وعناده وأصر على رفض البيعة ؛ بل زاد في شتم واتهام عمه أمام جمهور الحضور بالخيانة واتهم عمه بالتآمر على الملك سماك وأنه خدعه مظهرا ومتظاهرا أمامه بالبلاهة والبساطة ، وأمام إصراره على هذه العداوة والمعاندة أمر القاضي بحبسه عشر سنوات، فنقل إلى سجن البلاد الواقع في مدينة سلة الملك المدينة الغربية في بلاد الشواهد ، فألقي مع رعاع الناس والسوقة والمجرمين .

ولم يقبل الملك الوصي شفاعة أحد فيه ، وهو أصر أمام كل زائريه بعداوته وبغضه للملك الغاصب ، وهدد بالانتقام والقتل لعمه زيد ، وأما بشوم فقد أخرج من السجن ذليلا مهانا ومنع من مفارقة بيته ، فهو سجين بيته ، ولم تكد تنتهي هذه المحاكمات حتى حاول أحدهم قتل الملك زيد ؛ ولكنه نجا من طعنة الخنجر ، وقد قتل الغادر أثناء الجريمة ، ولم يعرف من وراءه ودفعه للاغتيال ، فأعاد الملك ورجاله ترتيب الحرس وحركاته .. وأدرك الناس أنهم مقبلون على أيام صعبة بسبب الصراع على الملك والعرش .

وأدرك الملك زيد بعد محاولة قتله الخطر المحدق به وأن أعداءه كثر ، وأن الخفي أكثر من الظاهر وأن هذه الطاعة تخفي وراءها ما تخفي من الحقد والحسد والثأر والانتقام ، فبدأ يستعمل أموال الخزانة لشراء النفوس والولاء لشخصه ، وأخذ يحدث تغييرات كبيرة في قيادات الحرس والبحر والعسكر ؛ ولكن رويدا رويدا .. وقد شكل فرسانا جددا للملك وكان يساعده في ذلك وزيره رفيق ابن عمه عديل ، وقاضيه فارس وولده البكر راهب ، وأما صاحب الحظوة لديه والمستشار الذي يسمع رأيه أولا فهو صديقه غضبان ، فهو مستشاره وأمين سره في المعمعة ، وما مضت السنة الاولى على الحكم والولاية حتى كان الملك زيد الوصي يتقدم الى الامام في تثبيت قدميه في ملك البلاد بلاد الشواهد ، وبينما الوصي يدعم ملكه ويشتري الانصار جاءه خبر فرار ابن أخيه قسيم من السجن ، ونبأ مقتل صاحب السجن الموالي له ، فغضب الملك

وأجرى تحقيقا دقيقا في قيادات السجن والحرس ، ولم يكد ينتهي من هذه المشكلة حتى فوجئ بتعرض ولده البكر راهب لمحاولة قتل ، فارتبك الملك واعوانه فعزل صاحب الشرطة وعين رجلا مكانه ، وكان يتحدث مع مستشاره غضبان بغضب وقلق فقال : ايها الامير ! إني اريد أن أعرف من وراء هذه الأحداث ؟ فبشوم اللعين تحت المراقبة والقاضي رسال مثله .. وهؤلاء هم اعداؤنا كما نعلم ؟ وابن أخي حازم هارب منذ سنة ولا أراه قرب البلاد فعيوننا ترصد الداخل والقادم .

فقال غضبان : اطمئن ايها الملك .. سيستقر العرش تحتكم يا مولاي ! .. إنما هذه تنفيسات من بعض الأشقياء لنتصرف بحمق وانفعال .. فالشعب ما زال هادئا وقانعا بكم ملكا على البلاد فأنتم الملك الشرعي رغبة ووصية من الملك الراحل وأولاد الملك ليست لهم شعبية لدى الشعب فتغطرسهم وأفعالهم القبيحة في حياة والدهم لم تترك لهم محبة عند العامة .. فاطمئن يا مولاي وقد أثرنا الشائعات والشبهات حول اولاد الملك الراحل رحمه الله ..رغم ما اصاب ابنكم من بأس فالأمور تصير لصالحنا ايها الملك .. سيشفى الامير الشجاع راهب وبعد عمر مديد سيرث هذا التاج وهذا العرش .. وما زلت أبحث عن تلك المرأة الهاربة حورية الماء وعن ذلك الخادم اللعين صديق الراعي .. فقد أرسلت عددا من رجالي يتحرون عنهم في المدن المجاورة .. فهم قد بان لي أنهم غادروا قبل وفاة الملك بيومين أو ثلاثة .. وما زلت آخذ الصياد واولاده باللين والمسايرة وقد ترجح لديّ أنهم لا يعلمون عن ابنتهم شيئا لا أدري لماذا تصرف اخوكم هذا التصرف الغريب في آخر ايامه ؟!

فقال الملك بحيرة : وأنا مثلك ! وعندما شرح لي رغبته بجعلي وصيا على العرش فاجأني حقيقة فأنا لست أكبر إخوتي الأحياء، ولست اصغرهم كما تعلم .. ولما اسر لي بأمر ابعاد زوجته حورية لم استطع أن اسأله عن السبب لهذا الإبعاد والإخفاء ، ولكنه أشار أنه خائف من أولاده فعاد صاحب السر يقول : إنه أمر محير ؛ ولكنهم في حجرات النساء والخدم يتحدثون عن رؤيا رآها الملك قديما .. وسنصل إليها ونتخلص من المولود اذا كان ذكرا ؛ وليظل الشعب ينتظر عودة الملك الموعود وأما اذا وضعت انثى سنحضرهم للبلاد ونكرمهم غاية الاكرام كما أكرمنا

الملك الراحل وجعلك وليا وملكا بعده .. فيرتفع مقامك أمام الأمة والأمم الأخرى.
فقال الملك الوصي : لا أظنها ولدت أنثى ، فلنا أكثر من سنة نجلس على هذا التخت ، ولم تظهر امرأة أخي ، ولو أنها وضعت أنثى لظهرت في البلاد .. بل حتى أن أخي لم يرسل ابنتها معها .
فقال غضبان : هذا ما وقع في نفسي أيضا لابد أنها ولدت ذكرا .. دع الامر لي .. علينا أن نستمر بالقضاء على خصومكم باللين والحبس والعزل

***

هرب الامير حازم مع بعض رجاله وخاصته إلى بلاد الملك ماوا حاكم مدينة غيمة ، وهناك عن طريق احد التجار الذين كانوا يترددون على مدينة الشواهد ولهم علاقة كبيرة بالملك أوصله لمجلس الملك وشكى له ظلم عمه واغتصابه لعرش والده ، فرحب به الملك وبرجاله وأذن لهم بالسكنى في البلاد ، وحثهم على الصبر والتأني حتى يحدث الله لهم امرا ، واعرض عن مساعدتهم في غزو بلاد الشواهد للصداقة الكبيرة التي كانت بينه وبين الملك سماك ، وأن الملك زيدا ملك وصي ؛ وليس ملكا دائما وغير مغتصب لعرش . . وكان حازم كلما تسنح له فرصة بالجلوس مع الملك ماوا أو حاشيته يتحدث عن ظلم عمه له ولأمه ولجده بشوم مما حدا بالملك ماوا أن يقول له : أيها الشاب لا تفتري على عمك كثيرا .. لقد أرسلت من أتاني بأنباء بلادكم .. ونحن ماذا نستفيد ونجني من غزو بلادكم ؟! فهل نخسر فرساننا لإعادة الملك لأولاد سماك ، وهو قد حرمكم من حكمها .. فإما أن تسكنوا بلادنا بهدوء وأمان وإما أن تغادروها بسلام وخفية .
رفض الملك ماوا الإصغاء وسماع حازم الهارب ومسايرته في تحقيق احلامه وطموحه ، فأصابه اليأس والإحباط وجلس في المدينة يسمع أخبار عمه الملك ، فجاءته الأخبار بهرب أخيه قسيم من سجن عمه ، ثم تعرض ابن عمه زيد الأمير راهب للقتل ونجاته من موت محقق .. فتعجب ممن فعل ذلك وأحس أن انصار أخيه يتحركون بقوة وعنف ، وأن أنصاره رضخوا وصمتوا وربما ناموا ويأسوا من تحقيق هدفهم ، فبكى وندم على عداوته لوالده الشيخ ولسماعه كلام ونصائح جده ومن قبله أمه كرام وأخذ يفكر بأخيه المجهول ابن ابنة الصياد .. ابن حورية الماء الأخ الخفي المجهول .

رغم سيطرة الملك الوصي زيد على مدن البلاد الثلاثة كان يلازمه شعور داخلي أن الامور تسير على غير ما يرام ومع تطمينات كاتم سره الأمير غضبان وصديقه الوفي منذ التقيا وتصاحبا .. ومع معرفته لقوة غضبان وحدة ذكائه ودهائه كان قلقا وخائفا على ملكه .. فهو قد تعرض للاغتيال وولده أيضا ، وقد هرب قسيم من السجن ، فهذا يؤشر ويؤكد أن لهم أنصارا داخل البلاد وإن كانوا قلة، وإن كل الجهد الذي بذل للفتك بهم لم ينقرضوا ولم يضعفوا ولسوف يتحركون في الوقت والظرف المناسبين .

حاول الملك الوصي معرفة أماكن استقرار ابني أخيه سماك ، فقد اضطربت الاقوال في ذلك فبعضها يقول " في غيمة " وبعضهم يقول " في باد " " وحوت " وسلباد " فجواسيسهم لا يعرفون أماكن اختفائهم بالضبط ..إلا أنهم خارج البلاد .. فهم لم يصلوا لمجالسهم وأماكن سكناهم ،هذا ما يؤكده عيون عضبان ، وهناك بعض الاشاعات تردد أنهم موجودون داخل البلاد وإنما أشيع هربهم لبحث جواسيس الملك خارج البلاد .. فالشك ما زال في قلب الملك الوصي ..فعيونهم في القصور لم ترهم فيها؛ لأن من اعتاد حب الظهور والبروز في المجتمعات يصعب عليه الاختفاء الطويل داخل القصور والاخبية .

لما تماثل الامير راهب للشفاء من الضربة القاتلة التي اصابته اراد الملك الوصي ارباك خصومه من عائلته وحلفائهم فطلب يد الأميرة زهرة ابنة أخيه سماك لوريثه راهب .

اعجب أناس بهذه المصاهرة ورأوا في فيها حقنا للدماء ورغبة الوصي بالمسامحة والعفو ، وبعضهم اعتبرها سخرية ومهزلة بعد اراقة الكثير من الدماء والسفك .. فتركوا الامر للأميرة زهرة .. وهي أصابتها الحيرة فهناك رسائل تأتي من أخيها قسيم يشجعها على الهرب من البلاد وجاء عرض الملك الوصي وبعد تردد قالت لهم : دعوني اتحدث مع الامير راهب ثم أقرر المناسب .

فسيقت إلى الأمير الذي مازال يعاني من بعض آلام الغدر والاغتيال ، فلما رأته الاميرة اشفقت عليه وحزنت وظنت أنه يموت من قريب وإن ادعاءهم شفائه خدعة لإغرائها بالزواج منه .

تكلمت وإياه ثم سألته" لماذا اختارها من كل بنات المملكة ؟! المملكة المليئة بالأميرات

والحسناوات " فما كان امامه الا أن يقول : " أبي يريد أن يقول العلاقة بيننا بعد هذه المحنة أو الفتنة طبيعية وحسنة ، ويرد بعض المعروف لوالدك الذي جعله وصيا على العرش ريثما يرجع أخوك المختفي من ابنة ذاك الصياد .. ابن حورية الماء ليكون سيدا للبلاد ، وايضا يا ابنة عمي لتهدئة النفوس ورفع الشحناء والبغضاء التي ألمت بنا ؛ ولتصل هذه الرسالة لإخوتك فيلتزموا ما التزم به الناس والامراء .. وعندما يعود ويظهر ابن حورية الماء ينازعونه الملك والسلطان ويأخذونه منه ".

ادركت الاميرة أن الامير تكلم بصراحة ومن غير لف ودوران ، ولابد أن في خلد والده وكاتم أسراره غضبان أمورا أخرى ، قد يجهلها هذا الفتى الجريح ،فطلبت منه مهلة للتشاور مع الاعمام والاخوال فقال الشاب : بعد أيام ثلاثة نسمع الجواب والقبول حتى يهدأ الشد والهياج الكامن في النفوس .. نفوس الاهل والعشيرة

فقالت : وانا مثلك حريصة على أمور البلد واستقرارها .

تشاورت الفتاة مع أمها مرة اخرى ومع الاقارب والاصهار فتركوا الامر لها مرة ثانية ، وكانت تنتظر رد قسيم على هذا الزواج ، وكانت لما طلبها الوصي لولده قد ارسلت له رسولها الخاص الذي رجع قبل انتهاء الايام الثلاثة برفض قسيم لهذه المصاهرة لأن الامير سيقتل كل اولاد الوصي زيد فهم قد اصبحوا أعداء له ولأنصاره .. فنصحها ألا تتزوج وتماطل خيرا لها من أن تصبح أرملة .

لما علمت بجواب قسيم زادت حيرتها وارتباكها ، فهي تعرف قسيما وجنونه وأن الذي يفكرون به سيحققونه عاجلا أم آجلا ، وتعلم أن الوصي زيدا ورجاله سيقاتلون باستماتة عن الملك الذي اخذوه على طبق من فضة أو ذهب فكتبت رسالة طويلة بخطها لأخيها واستمهلت راهبا أن يصبر عليها شهرا ؛ لأنها لم تستطع حسم الامر خلال الايام الثلاثة ، فدخل الريب في قلوبهم الملك وغضبان وأحسوا أن شيئا سيحدث خلال هذا الشهر ؛ ولكنهم رأوا الصبر والتريث لبث الطمأنينة في قلوب الخصوم .

فالأميرة رأت ما حدث لجدها القاضي ، ورأت هرب أخيها قسيم ، وصحة راهب لا تغري

النساء ، فهو مازال ضعفه واضحا للعيان ، ولا يستطيع الظهور للعوام راكبا على الجواد ، ولكنهم كما ذكرنا يخشون من مكر يدبر بليل ، فشدد الغضبان عيونه واصحاب الخبر حول زهرة وقصرها وزوارها ، وكل هذا التحرس والتجسس لم يفت ابنة الملك سماك .

وهي كانت قد كتبت رسالة مطولة لقسيم ليرخص لها في هذا الزواج ربما استطاعت أن تخدمه فيه وتساعده في الوصول للتاج في أي لحظة ضعف تبدو من القوم ، ولم يطل للانتظار فجاءها رد قسيم سريعا وقال لها في رسالته : " انهم سيحبسونك في قصر كله جواسيس وعيون .. الخادم جاسوس .. الطاهي جاسوس ..الساقي جاسوس .. خدم حجرة النوم جواسيس .. الوصيفات جاسوسات .. الخروج برفقة حرس وجواسيس .. فهم لا يمكن أن يثقوا بك . . وإلا كانوا أغبياء وحمقى .. وافعلي ما شئت .. فأنا أرى أن هواك مع القوم ..ومع الامل في الوصول للتاج عن طريق راهب .. فإذا سبقتيني إليه .. سأكون أول رعاياك مبايعا ومسلما سيفي .. "

مضى الشهر وجاء الرسل والوسطاء يسألون عن آخر ما رأته الاميرة ، فأنهت اليهم موافقتها على الاقتران بابن عمها الامير راهب .. فأعلنت الافراح في البلاد ، وخلال أيام كانت الاميرة زهرة تنتقل إلى قصر الملك زيد .. الى قصر نساء الملك ؛ حيث تسكن نساء أبنائه، فهي ليست أول امرأة ينكحها الأمير راهب ؛ إنما كانت هي الثالثة .

ومع هذا الزواج استمر الهدوء المخيم على البلاد والعباد ، فزادت ثقة غضبان برجاله وحاشيته وقوته ، وظن الجميع بعد حين أن الاميرة زهرة هدأت وسكنت أحلامها بالملك وأن إخوانها سيرضخون ويعلنون ولائهم ويذهب شبح الخوف والقلق عن المدن الثلاثة .

كانت زهرة تكره عمها زيدا كرها حادا لمَ فعله بأخيها الهارب من السجن والعقاب ولإيذائه جدها القاضي الكبير ولأمها كذلك ، ولكنها عاجزة وما زالت عاجزة عن الانتقام ؛ لأن أخويها مازالا يتصارعان على طلب الملك ، وإن هدأ حازم منذ اختفى ، ولم يعد يسمع عنه شيئا وكانت قبل زواجها على اتصال سري بأخيها قسيم الهارب ، وتتمنى أن يتمكن من الوصول للحكم ، ولكن بعدما فشل ورغب عمها بتزويجها من ولده البكر وارث أبيه .. فرأت أنها فرصة

لتقترب من الحكم والتدخل في شؤون المملكة ومن عمها زيد ،وهي وارثة لراهب المريض منذ تعرض للقتل ، فهي لا تريد أن تدخل في صراع مع اخويها ، إنها تريد أن تصل للتاج بطريقة هادئة مهذبة على أن يتقبلها الشعب ويستقر لها الملك كما استقر لإحدى جداتها في الزمن الغابر فهي تحمل اسم تلك الجدة؛ فلعل الله يقدر لها ذلك التاج .

وكان يقلقها ويزعجها أن يقتل اخوها زوجها كما نبأها بذلك ، ثم تسلم امرها لرب العباد الذي يفعل ما يشاء ويقدر له ، بعد مضي أكثر من عام على الزواج ولدت الاميرة ابنها الاول الامير بشير ، فسر الملك الوصي بالمولود الجديد وزاد ثقة واطمئنانا لزهرة ، وأنها عادت امرأة وديعة هادئة لا مطمع لها بالسياسة والملك ، وكبر حبها في قلب الامير راهب زوجها العليل وزال الريب أو أكثره من نفسه ، وأحس أن الأميرة قد دجنت ، ولم تعد لها احلام بالملك وسياسة الناس ، والحقيقة أن زهرة لزمت الهدوء لترك الامر لأخويها حتى تتيقن من يأسهم في الوصول للتاج ، فأحلام الملك والسيادة ما زالت تتراءى أمام عينها وفي منامها .

وكانت تعمل بحرص وذكاء وحذر شديد ، فهي مدركة أنها محاطة بالعيون من الحرس والخدم والوصيفات والطهاة وحتى من ضرائرها .

حدثت في البلاد بعض القلائل من تعرض قوافل للسطو والنهب ، وحصلت قرصنة لبعض السفن في مرافئ البلاد ، ولكنها لم تؤثر على استقرار البلاد بشكل مزعج ، واعتبرت امورا عادية ولم تعجب هذه الافعال الاميرة زهرة واعتبرتها حركات يائسة وبائسة، فهذه المغامرات لا تؤثر على الملك وحاشيته . وبعد حين ولدت المولود الثاني الأمير رشاد ، وقد فرحت به ؛ ولكن احلامها لم تمت كما يظن الكثير ممن يعرفها ؛ إنما أجلتها إلى حين . ذات يوم قامت الأميرة بزيارة والدتها الأميرة منيرة وتناولت الطعام على مائدتها ، وكانت تقوم على المائدة خادمة جديدة ، ولما عادت لقصر الملك الوصي ، كانت هذه الجارية التي تسمى " وداد " قد اهدتها أمها لها بمناسبة ولادتها للأمير رشاد ، وخصتها الاميرة برعاية الامير المولود من تنظيف ولباس ورعاية ..ومع أن اهداء الجواري كان امرا طبيعيا بين الناس وخاصة الاسياد إلا أن الغضبان شك في الأمر ، وأجرى تحريا سريا .. فوجد أنها جارية قد اشترتها الاميرة منيرة منذ حين يسير ، وأن الذي قام

على شرائها قيم قصرها ، وقد احضرها من سوق النخاسة ..ثم اهدتها للأميرة زهرة بمناسبة الولادة الاخيرة .. فهي قد احضرت من سوق النخاسين ككثير من الجواري والعبيد .. وهي فتاة دون الثلاثين خفيفة اللحم بيضاء البشرة ، وهي خادمة نشيطة في جناح سيدتها زهرة تقوم بواجباتها على خير ما يرام .. كسائر الخدم وليس بينها وبين الاميرة علاقات خاصة .

قبض على عدة عصابات ممن يتعرضون للقوافل فتبين للغضبان أنهم من انصار واعوان الامير قسيم الهارب ؛ ولكنه لم يتمكن من معرفة مكان اختباء الأمير ؛ إنما كان يزورهم في الجبال والمغارات ، ثم يختفي من حيث اقبل ، فتيقن لكاتم اسرار الملك أن المعركة لم تنته ، ولن تنتهي إلا بهلاك ابناء سماك ، ورغم استمرار شكه بزهرة ؛ فكان موقنا بصعوبة وصولها للتاج بوجود قسيم حيا ؛ وربما ترى أن وصولها للحكم عن طريق راهب زوجها اسلم .. لكن الامير قد لا يصل للحكم فربما الملك زيد اوصى لغيره .. آه .. وربما يظهر لنا ابن حورية الماء عندما يبلغ مبلغ الرجال . كان غضبان يعامل انصار ابناء الملك الراحل بقسوة وشدة ، ومع تحرياته المتتابعة وثقته بأعوانه فشل فشلا ذريعا في القبض عليهما ومعرفة اماكن اختبائهما ، وبينما هذه القضية تشغل قلب وبال الغضبان تعرض سجن كبير في البلاد لغارة كبيرة هرب على اثرها كل المساجين وحرق السجن .

صعق الملك الوصي وهو يسمع خبر ذلك السجن وتلك الضربة القوية ، ولام الغضبان على ضعفه ونومه عن الاعداء . فقال غضبان مكفهر الوجه : أنا مثلك أيها الملك فوجئت بهذا العمل الرهيب !.. فقد مضت خمس سنوات على جلوسك على هذا العرش والأمور تسير على أفضل حال .. ولكن لا تقلق أيها الملك فأنا سيفك المسلول على كل الاعداء.. رجالي لم يناموا ؛ إنما كان هناك تدبير محكم .. مع الاسف الشديد يا مولاي لابد من سفك دم ابناء الملك سماك .. لابد من قتلهم ليضعف انصارهم واصحاب الطمع .. فهما لا يريدان الهدوء والاستسلام .. لابد أن تسمح لي بقتلهم .. حياتنا أم حياتهم ؟!

ـ دعني افكر .. فالأمر صعب يا غضبان ! .. أنا أريدهم أحياء أموات في السجن .. لا أريد أن يصير بيننا دم .. فالدم بيننا يحرق الاخضر واليابس .. قتل أحد أجدادنا في ماضي الايام ..

فدفعت العائلة عشرات الانفس لتسكن روحه ..

ـ هم الذين حاولوا قتلك وقتل ابنك لولا عناية الخالق..

ـ دعني افكر ايها الامير ! أنا الملك فقتلي لهم غير قتلهم لي ولذريتي .

ـ لا يتأخر تفكير مولاي .. لابد من ارسال من يغتالهم ويخلصنا منهم .. فقتلهم اسهل من احضارهم وخطفهم .. فعجل أيها الملك في تفكيرك وردك !

كان الملك حائرا خائفا من الغيب فقال : إني أخاف الدم يا غضبان ولا ينفع الندم حينئذ .. فها أنت ترى قد اصبحوا أخوال أولاد الأمير راهب .. لو أن راهبا قتل ربما وجدت لنفسي عذرا بسفك دمهم بحكم الثأر .. فقتلهم سيدفع للقول أني أطمع بالملك وإنهاء الوصاية.. فزهرة قبلت براهب زوجا وبعلا وأنجبت منه ثلاثة انفر ..

قال الغضبان: ما زال في قلبي شيء نحوها .. فهي احيانا تتفوه بكلمات تهديد ووعيد وطمع في الملك .. ولكنها كما يقال مقصوصة الأجنحة .. وابتعد كل انصارها وانفضوا من حولها من بعد أن نكحت ابنك الأمير راهب ، فقد يئسوا منها ، فهم التموا حولها طمعا في المناصب والرتب .. فالخطر الداهم ليس منها ؛ إنما من أولاد أخيك ..وهي ليس من السهل أن تصل للملك واخواتها أحياء هاربين طامعين بالتاج ..ربما رضيت بأن تكون زوجة لملك المستقبل اذا شاء مولاي أن يجعل راهبا وريثه .. إن ما اخشاه منها المساعدة للغدر بنا من أجل أخيها قسيم فحسب .. هذا ما يجعلني اتابعها واراقبها لليوم ..

ـ اما زلت تحيطها بالعيون ؟!

ـ اجل يا مولاي ! لابد من ذلك .. لا احب أن تغفل عيوننا عن اعدائنا .. وسأعرف تفاصيل دمار السجن وآتيك بالتفاصيل والاخبار الواضحة أيها الملك العظيم !

وخرج الأمير غضبان ، ثم دخل الوزير رفيق ومساعدوه ليتشاوروا مع الملك في ادارة العباد والبلاد بعد كارثة السجن العجيبة وفرار المحابيس ، فقال الملك : ما يقول رجالك ؟ فقد شرح لي غضبان بعض الشيء .

فقال: الحق أن كثيرا من رجال الحرس والشرطة قتلوا وحرقوا فلم نعرف من بقي حيا ، وأن له

يدا في الجريمة وتعاون مع الغزاة ويعتقد أنهم أتوا من مدينة باد ..

فقال الملك : باد ! ـ قالها الملك بدهشة واستفهام ـ كيف علمتم ؟!

قال الوزير شارحا :يا مولاي الملك .. لما قام الجيش بالبحث عن الغزاة وجدوا جريحا في احد الطرق يموت ، فقال لهم انه من مدينة باد .. ثم مات .

فقال: باد !! لم يقل غضبان شيئا عن باد ؟!

ـ ربما لا يعرف بأمر الجريح .

فقال الملك : أكيد ، فهو فعلا لم يخبرني عن الجريح .. قلت إنه مات وهلك لم يقل غير باد .. ومن قتله ؟! وما الذي جاء به بلادنا ؟

ـ عندما سأله الجنود من أي البلاد انت ؟ قال لهم " من باد " وحشرجت روحه وصعدت لبارئها .. فألقوه في البحر وتابعوا البحث والتعقب .

قال الملك : كيف حكمتم أنه مع المهاجمين ؟!

ـ الجنود الذين رأوه وجدوه مثخنا بالجراح والضربات ..فكأنه خاض معركة .. فوقع لهم أنه من المحاربين وفر معهم ولكنهم لما رأوه يموت تركوه أو اعتقدوا أنه قد مات اذا اغمي عليه من الجراح والدماء التي فقدها .

فقال الوصي وهو يفكر بما نقل إليه من امر السجن المدمر والرجل الجريح : كنا نرى قسيما ذهب لغيمة .. فغيمة غربنا وباد شرقنا .

ـ ربما اشتبه الامر على الجنود يا مولاي الملك .. فنحن لما بلغنا الحادث حرك قائد الجيش بعض السرايا في اتجاهات مختلفة .. نحن نشرنا العفو الملكي عن قسيم وحازم واعوانهم شرقا وغربا ومما يؤسف له أنه لم يتقدم إلينا احد لينال عفو السلطان .. فهم مصرون على العداوة والبغض.

فتنهد الملك بعمق وذرف بعض الدمعات وهو يقول بألم ولعله صادق : سامح الله أخي سماكا الذي حملني هذا العبء الهائل .. والذي يعاديني في هذا الملك ابناؤه .. لا حول ولا قوة إلا بالله كان الملك سماك يعرف أبناءه حق المعرفة .. ولكنه اتعبني أيها الوزير !

ومسح دمعات تساقطت على وجنتيه متظاهرا أنه يحارب ويقاتل من اجل وصية سماك ، وأنه

يقاتل مرغما ، فأخذ الوزير يخفف من حزنه وألمه فقال : لا توهن يا مولاي السلطان ! .. سيضعف كيدهم بمشيئة الرب .

فقال الوصي : يا وزيري ويا أيها الرجال ! .. لي خمس سنوات اصارعهم متحملا لهم ، وتزوجت أختهم من ولدي راهب لحقن الدم .. وأنا مستعد للزواج من أمهاتهم ليستسلموا ويتوبوا .. أليس مؤلما أن يقتل هؤلاء الناس والجنود والحرس من اجلنا ؟! ألا يستسلمون لوصية سماك ؟! .. فكيف لو ظهر ابن حورية الماء يطالب بعرش أبيه الملك الحقيقي للبلاد ؟! ما أنا إلا وصي ! .. لو ظهر أيها الوزير لابد أنهم سيقتلونه وينازعونه الامر !

كان الوصي يحب دائما أن يظهر أمام رجاله بالرجل المظلوم وأنه لولا وصية أخيه سماك ما رضي بالملك .. وأنه يقاتل مكرها أو مضطرا وأنه ينتظر عودة ابن الملك المختفي الفتى المجهول .. فهو يقتل ويسجن للوفاء بالعهد الذي أخذه على نفسه أمام السادة والقضاة والفرسان .. فيتعاطف معه السامعون ويتألمون لحزنه وضيقه وينشرون ما يرونه من حبه للرعية ورغبته الكبيرة بالسلام والصلح وأن أولاد أخيه هم الظالمون له بإثارة القلاقل والمعارك . وعندما يختلي بكاتم سره وذراعه اليمين غضبان يكشر عن انيابه ويحثه على الفتك بالخصوم وتعذيبهم .. فهم يخططون لبقاء الملك في سلالة زيد .. ولكن كما يمكر الإنسان للإنسان ، فهناك من يمكر لهم ويسعى لتدميرهم والخلاص منهم !

****

قسيم الهارب من سجن عمه زيد ما زال يقارع ويقاتل عمه وجواسيسه ، لم يهن ولم ينفض من حوله انصاره ، وغضبان رجل الوصي القوي ما زال يتعقب فلولهم ، ورغم الجهود الكبيرة التي يبذلها هذا الرجل لم يصلوا الى الرجال الكبار الذين يعاونون قسيما للاستمرار في المعركة ، فمعركة السجن كانت معركة كبيرة ، قذفت الرعب في قلب الوصي ورجاله ، ولولا تشجيع الغضبان للملك ؛ لربما تنازل عن العرش وترك السياسة والحكم ، فهو منذ نعومة اظفاره كان بعيدا عن الحكم والسلطة والولاية ؛ لأنه لم يكن يحلم يوما ما ولو حلما أن يصير ملكا لبلاد الشواهد ، فسماك الملك ورث الحكم عن أبيه ، وكان يعتقد بأن ينقل التاج لأبنائه .. أما أن يختار

وصيا .. فهذا أمر عجيب .. فتعجب الرجل من قدرة الله ومن قدره .. ثم زاد طمعه بالاستقرار الدائم على سدة العرش وأن يحذف عنه لقب الوصي .. فهو مازال يقال له عند الاكابر الملك زيد الوصي .. فهو نفسه لا يستطيع خلع هذا اللقب عن نفسه ؛ لأنه يحكم بالوصاية .. وربما لو هلك أولاد سماك الهاربين؛ ربما استطاع التخلص من الوصاية ؛ لأنه لو زاح الوصاية عن نفسه وهم أحياء سيثيرون الأقاويل عليه ، ويثيرون الشعب عليه والحاقدين ايضا . كان الوصي سعيدا بتدجين الاميرة زهرة وتزويجها من ابنه البكر ، فهي البنت البكر لأخيه الراحل ، وكان لها طموح ظاهر بالحكم ، وكان يعتقد بزواجها من ابنه بأن اخويها سيهدئان ويسلمان بالأمر الواقع بعدما اصبحوا اصهارا للملك الوصي .. ورغم هذا ذكرنا أن الامير غضبان ما زال حذرا منها .. فكان يرى أن الطمع في الملك والرئاسة ليس من السهل التخلص منهما .. فالنفس جشعة وتتطلع للأعلى والسيادة .. وهو يعرف أن سبب فتورها عن المطالبة بالتاج أخواها الحالمان بتاج أبيهما .. ورأى بزواجها من راهب أن ترضى وتقنع وتحلم بأن تكون ملكة مع زوجها راهب .. والايام تغير النفوس وتأتي بالجديد ؛ وكما هو معروف ومعلوم الأيام دول بين الخلق .

ست سنوات انقضت على حكم الملك الوصي ملكا حاكما على بلاد الشواهد ، واخطر حدث بعد فشل خصومهم بقتله وقتل ابنه كان حادث السجن .. من حرقه وقتل حرسه ؟ لقد فشل الغضبان ورجاله بالقبض على الاشخاص الذين حرقوا السجن وانقذوا من فيه من اتباعهم واهلكوا رجال السجن ..بعد هذه السنوات حدث في بلاد الشواهد حدث هزّ أركان مملكة الشواهد لسنوات .

كان من عادة الملك زيد أن يحضر للديوان مكان الحكم مبكرا صباحا فيخلو بكاتم السر الامير غضبان بعض الوقت ، ثم يدخل الوزير الاكبر والامراء واصحاب الحاجات ، فذات نهار حضر غضبان ووجد القوم في انتظار السيد الكبير .. فهو لم يأت كالمعتاد .. وبعد حين تململ الغضبان فقال للوزير الاكبر : سأذهب لقصر النساء فليلة أمس نام الملك عند نسائه .

رد الوزير : نحن بانتظاركم .. أسرع .

كان غضبان يظن وهو سائر لقصر النساء بأن الملك سهر ليلة امس فتأخر بالنوم ، فمشى نحو

القصر وهو لا يبعد عن قصر الحكم كثيرا ، كان القصر هادئا فتحدث مع حرس الباب فقالوا " انه لم يخرج يا مولانا " . فسأل عن خادم غرفة الملك الخاصة ، فقيل له " خرج مبكرا عند الفجر ولم يرجع بعد " ، فظن الغضبان أن الملك زيدا أرسله في مهمة خاصة ، وهذا يحصل في بعض الاحيان فلم يستغرب الامير من هذا العمل .

فدخل وتحدث مع قيمة القصر وهي احدى الاميرات الكبيرة في السن فقالت له :جهزت الخادمات الطعام يا سيدي الامير .. ولكن غلام الحجرة الملكية لم يظهر فقيل لنا إنه خرج من القصر مع الفجر ولم يعد بعد .. وأنت تعلم أنه لا يجوز إيقاظ الملك إلا عن طريق خادمه الخاص ولما خرج الخادم من القصر ظننا أنه سيعود سريعا .. فننتظر حتى يستيقظ الملك من نومه ويدعونا .. وطال انتظارنا يا سيدي الامير ! .. ونحن في قلق فها هي الشمس قد ارتفعت ..

فقال غضبان : هل يمكنني أن اصل لغرفته واتحدث معه .. فالناس في الديوان قلقون لتأخره عنهم .. فهناك ضيوف ووفود قدمت لتحية الملك والحديث معه .

كان لا يسمح للرجال أن يدخلوا قصر نساء الملك .. فقط الخادم عيسى الذي يرافقه في تنقله بين قصوره حيث يرقد وينام .. وبعض غلمان القصور ينقلون الرسائل بين الاميرات وزوجات الامراء كأبناء الملك واحفاده .

استطاعت قهرمانة القصر أن تقود غضبان في ممرات القصر محاولة قدر الامكان تجنيبه اللقاء بأي امرأة ملكة أو أميرة حتى وصلت به الى الحجرة التي يرقد فيها الملك .. لقد كان من الواجب أن يكون عيسى الخادم يجلس أمامها ليستأذن لمن يريد الدخول من النساء على الملك ولكنهم تذكروا أنه خرج مبكرا من القصر الملكي .. مكلفا بأمر من صاحب السلطان ربما رسالة هامة

طرق غضبان طرقا خفيفا الباب ، وفي نفس الوقت كان يحاول سماع نفس أو صوت في الداخل فقال للعجوز : أمتأكدة أن الملك يرقد هنا لحتى الآن .

طرقت العجوز الباب وقالت وهي تحاول فتحه : مغلق ! .. هل اغلقه الملك من الداخل ؟! .. أم هل اغلقه عيسى واخذ معه المفتاح ظانا أنه سيعود سريعا ..وحدث معه طارئ ؟!

زاد غضبان من قوة الضرب على الباب وحاول فتحه بكتفه .. اصابه الرعب والخوف على حياة

الملك .. أين الخادم اللعين ؟! ولماذا غادر القصر فجرا ؟!

دفع الباب بقوة فانكسر الباب من قوة الدفعة .. دخل وخلفه العجوز المضطربة .. كان الملك نائما على سريره الذهبي .. مغطى بالثياب الخاصة .. المصباح غير مشتعل ..الشمس تدخل من بعض الطاقات والكوات .. كان غضبان يتقدم نحو السرير وساقاه متوترتان مضطربتان .. أيها الملك الكريم !. وكان يقول بصوت كأنه مبحوح أو يخرج من بطنه : أيها الملك الكريم ! أيها الملك الكريم !..وكانت العجوز تزيح الستائر عن نوافذ الحجرة فملأ النور الغرفة وصل الغضبان إلى سرير الملك ، ولم يتحرك الملك ، ولم يرد عليه فقرب الرجل رأسه وأنفه من وجه الملك .. لا نفس يتردد .. رفع يده إلى أعلى وتركها ، وهتف محدقا في العجوز : إنه ميت !! أنه ميت أيها العجوز !!.. استدعي طبيب الملك .. ربما لم يمت بعد !!

دب الذعر في القصر لتهامس الخبر .. وسمع الصراخ في بعض الحجرات .. ولبى الطبيب الدعوة بعد حين يسير ليؤكد أن الملك قتل مخنوقا .. صدم غضبان للوهلة الاولى .. وردد اسم عيسى عدة مرات وتسأل : هل يستطيع ذلك المخلوق خنق الملك ؟ إنه رجل شيخ ..! "

انتشر الخبر في سرعة بين القصور والاقارب .. والكل لا يكاد يصدق بموت الملك الوصي .. ووصل لديوان الحكم ، تفجأ الوزير رفيق وبعض ابناء الملك .. والقاضي الاكبر فارس بن محمود وكبار الفرسان والامراء .. ثم اعلن للناس بهلاك الوصي زيد بيد الغدر والخيانة .. وذهب الاتهام على الفور إلى الخادم الخاص عيسى .. إلى خادمه منذ زمن بعيد .. والكل يتسأل " هل حقا القاتل عيسى الخادم القديم ؟! ولماذا ؟! .

اصاب القوم الذعر والوهن ، ولما تمالك غضبان اعصابه جمع الامراء والسادة واعلنوا راهبا ملكا على البلاد والعباد ؛ لأنه الابن البكر للميت .. وقد تردد البعض في هذه البيعة الخاصة ولكن عندما خوفهم غضبان من الاضطراب والفتنة بايعوا واعلنوا للناس بيعتهم للأمير راهب خليفة لأبيه .. فتوج الامير المريض ملكا على مدينة الشواهد .. في جنازة مهيبة شيع الملك المخنوق .. وواروه الثرى .

واطلق غضبان رجاله يبحثون عن الخادم عيسى المختفي ، وادرك الغضبان ربما حينئذ قوة قسيم

وانصاره رغم حادثة السجن الرهيبة .. ادرك أن الشاب يحاربهم بقوة وقسوة وجسارة فقد طوعت له نفسه قتل عمه بدم بارد .. فكان يرى أنه مصمم بالوصول للتاج .. وربما وقع في قلبه أنه سيصل إليه بهذه الجسارة والشراسة .. ولكنه أقسم لنفسه أن سيحرمه ويدمره ويقتله قبل أن يضع على مفرقه تاج بلاد الشواهد .. فزيد صديقه الوفي وهو الذي رفعه عاليا في بلاد الشواهد واعطاه سلطة اقوى من سلطة الملك نفسه .

وأخذ الامير الذي حافظ على مركزه وقوته بوجود راهب بن زيد وصيا وملكا ، يتابع البحث عن عيسى ومن جنده واقنعه للقيام بهذه المهمة الجبارة ..بل كيف استطاع خنق الملك فقوة زيد تفوقه عشرات المرات .. فزيد فارس وصياد ماهر .

عندما يتناقش مع أبناء زيد بهذا الموضوع يصيبهم الذهول ومحاولة معرفة الوسيلة التي استطاع فيها الشيخ من خنق زيد ..وفي نهاية الحوار يهز غضبان رأسه قائلا : عندما يقبض عليه الفرسان سنعرف الحيلة التي غدروا بها بالملك العظيم زيد بن صخرة .

ويأخذ بالبكاء ويذكر مناقب المذكور ، فيجاريه الاخرون ، فيتحول المجلس الى مجلس بكاء وحزن وندب . كانت جريمة مقتل الملك الوصي في بلاد الشواهد مرعبة ومخيفة ، فالوصول لحجرة الملك يدل على قوة الاعداء والخصوم ، وهذه أول مرة اصيبت المملكة بقتل ملك في قصره غيلة وغدرا ومن قومه ، فهذا الفعل الدامي سيزيد من حدة وشراسة المعركة بين اولاد زيد واولاد سماك .. والملك المتوج على رأس البلاد راهب عليل البدن طريح الفراش اكثر وقته فمنذ طعن وهو يتجنب الخروج لخارج القصور .. فما زالت الالام والاسقام تدهمه بين الحين والاخر .

وبعد هذه الضربة عاود الريب للأمير غضبان من الاميرة زهرة ، فأعاد التحري عنها من جديد فلم يجد لديها ما يريب ويدفعها لقتل الوصي غيلة .. فهي منذ اقترنت براهب وقد انجبت له بشير ورشاد والاميرة رشا وحياتها ساكنه هادئة وإن يبدر منها ألفاظ في بعض المجالس تبدي رغبتها بالملك لتجدد عهد جدتها زهرة .. وأنه لولا أخواها لسعت إليه .

فلما هلك الوصي واصبح زوجها الملك الوصي فطمعت نفسها بالملك والجلوس على كرسي

الحكم في مدينتها . وكان يخيفها للإعلان عن ذلك الطمع مقتل الوصي غيلة ، والكل يعتقد أن للأمير قسيم يدا في سفك دمه ، وما الخادم عيسى إلا منفذا للجريمة .

هي هذه الايام خائفة على زوجها أن يهلك على يد قسيم كما نبهها وحذرها في سابق الايام قبل زواجها من راهب ، وكانت ترى تحذيره شنشنة تعرفها من أخزم ..وأنه ضعيف يقول ما لا يفعل .. ولكن الوصول لحجرة زيد وخنقه اعاد لنفسها الرعب والخوف على راهب ، واولاده صغار فلن ينصبوا ملوكا ؛ بل أبناؤه من ضرائرها اكبر سنا وأشد عودا .. فاتصلت بغضبان صاحب الامر والقوة .. فقد منحه زيد الوصي قوة وسلطة لم يمنحها لأحد من رجاله وتركه راهب على ما كان عليه في حياة الوالد ..

فلما التقت به حدثته بصراحة بطموحها وحلمها ، وذكرت له ضعف راهب وعجزه عن الحكم لعلته ، وعللته بالمحافظة على مركزه وكل ما استفاد من الحكم إن ضمن لها الجلوس على العرش بعد موت الملك راهب .. فأعجب الفارس الرهيب من صراحتها ، وبعد نظر وجد أن مصلحتهما واحدة فقال لها : مصلحتنا واحدة كما ذكرت وأكدت .. وأنا اعلم الضعف الشديد للسيد راهب .. وأنا لا يمكن أن أصير ملكا ؛ ولكنني عندما أكون قريبا من الملكة ؛ فكأنني ملك .. وأنا اعرف أن خصومنا اقاربنا سيسفكون دم راهب في أي لحظة نضعف عن حمايته إن لم يمت من علته .. أتعاهدينني أن نبقى أوفياء لبعض وأصدقاء للابد .. فعندئذ سأكون لك كالخاتم في اصبعك يا سيدتي .. وسيكون الحكم لك دون اخوتك .. دون قسيم ودون حازم فهم لن يرضى الناس بجلوسهم للحكم بعدما سفكوا دم عمهم .. فهذه غلطة كبيرة منهم لم يفكروا فيها جيدا .. فأولاد زيد كما تعلمين لن يصفحوا عن دم أبيهم .. ولن يدعوا ثأرهم .. فجلوسك على العرش الحل الأسلم ، فأنت ابنة سماك وزوجة راهب ابن الوصي زيد .. سيكون لك التاج هنيئا مريئا .

فعاهدته أن تبقى وفية له ، ولن تغدر به وسيبقى سيفها القوي ؛ كما هو سيف عمها وابن عمها بل وعدته بالوزارة الكبرى على أن يخلص لها .

فوافق على العمل معها وقال : علينا أن نصبر يا مولاتي الملكة حتى يرحل زوجك العليل بسلام

وسأهيأ الأمر أمام الناس والسادة والفرسان .. وحتى لا تثار حولنا الاقاويل والاذاعات والشبهات سنبقى بعيدين عن بعض ريثما يصل العرش إليك .. فاطمئني فبمجرد رحيل الملك عن هذه الدنيا سأجعل الناس يسلمون بالحكم لك وأنك أولى شخص بالجلوس على عرش بلادنا حتى يظهر ابن حورية الماء .. فأولاد زيد سيرضون بك لأنك زوجه أخيهم وأولاد سماك سيسكتون لأنك اختهم .. ستكونين الملكة الوصية بإذن الله .

ـ أحسنت يا غضبان بدأت تطيع الاميرة زهرة بنت سماك حفيدة الملوك والملكات العظام .. فحيهلا !

قبل الامير يدها باسما وانصرف وهو يقول " لابد من هذه الصفقة ..لأنها اقوى الجميع اليوم فراهب لا يصلح للحكم .. ولكني رشحته دون اخوته ليكون خاتما في يدي .. بل ربما اصبح أنا ملكا في يوم من الايام .. ولكن لابد من قتل اخوتها .. ليستقر العرش ..فاذا مات راهب وتزوجتها يوما ما فسأصير السيد المطاع من ورائها.. فراهب سيموت قريبا .. وستصبح زهرة ملكة .. وأكون أنا حليف الملكة ..آه .. وزوجها .. رويدا رويدا سأتزوجها .. لو ورطتها بقتل زوجها ستسلم بالقبول والزواج مني .. لا .. اذا تعلمت القتل ؛ ربما تقلتني أنا الآخر .. فليمت على مهله !

بعد وفاة زيد

الحرب الخفية ضروس في مدينة الشواهد فما مضى على خنق زيد الوصي بضعة أشهر حتى اصاب راهب الألم والوجع ، فقد انفتح جرح الطعنة القديمة وعجب أطباء القصر من ذلك ، وادرك غضبان أن يدا ما وضعت سما لسيد القصر راهب ، قلب الشك في قلبه أن تكون زهرة تريد أن تعجل بموت بعلها .. وكان عند زهرة ريب أن يكون الأمير غضبان بعد الاتفاق السري بينهما فعلها .. فلزمت الصمت ، ولم تدقق وكذلك فعل غضبان ، فكلٌ كان يرى بموت وريث زيد الوصي الافضل والانسب له .

وكلما لملم الأطباء الجراح ، كان الوجع يعود إلى راهب حتى قضى ردحا من الزمن طريح فراش السقم ولا يستطيع الذهاب إلى ديوان الحكم ومقابلة السادات والضيوف والحكماء .. واذا تحسنت حاله بعض الشيء حمل على محفة لديوان الحكم فيقضي بضع ساعات متحاملا على نفسه حتى أن بعضهم طلبوا منه الاعتزال والعناية بصحته . وقبل أن يستوعب هذا الاقتراح وافته المنية ، فمات متأثرا بجرحه القديم .. وتم تشييع الملك راهب .. أصاب الناس الوجوم الرهيب وشاع القول بأن الملك مات بالسم، وأن الجرح لم يفتح إلا بتجرعه لسم .

وتردد غضبان بترشيح زهرة للحكم لظهور بعض الشائعات أنها وراء قتل زوجها وأبيه من قبل .. وظهر الانقسام في المدينة.. فقد رفض اولاد زيد اعتلاء سدة الحكم .. ورفض اولاد راهب من زوجات الأخريات ذلك أيضا .. فطرح غضبان اسم زهرة مذكرا بجدتهم زهرة وقال : ربما توفق في حكم البلاد كما حكمت احدى جداتها .

فاجتمع كبير القضاة فارس محمود والوزير الاكبر رفيق وامراء الجيش والبحر والفرسان وغيرهم من الأكابر للتشاور ، ولما قدم غضبان الاقتراح قبله البعض ، والذين رفضوه لم يشيروا لاحد ما .. وذهب وفد برئاسة القاضي للقاء الاميرة زهرة زوجة الملك وعرض عليها غضبان رغبة القوم بجعلها الملكة الاولى بدلا من زوجة ملك .

فتلقت تعزيتهم بوفاة الملك وتظاهرت بأنها قبلت عرضهم على شروط وهي أن يبقى كل منهم في منصبه ومكانه ، وكان كل قصدها من هذا الكلام أن يبقى غضبان في مكانه فهم يعرفون

قدرة وقوة غضبان ودوره في حياة الملك الوصي زيد منذ سبع سنوات وفي سنة حكم راهب .
واعلن في البلاد والمدن الثلاثة أن الملكة زهرة ابنة الملك سماك بن صخرة هي الوصي على العرش حتى يعود الملك المعين للبلاد حسب وصية الملك سماك بن صخرة.

ودبت الحياة في انصار زهرة وعاد اعوانها يلتفون حولها وحاول بعضهم ازاحة غضبان ورفيق ومحمود واعادة القضاء لعائلة القاضي رسال ولكن الملكة قالت لهم " انها اتفقت مع القوم على أن يبقوا في مناصبهم وولاياتهم وحكمهم حتى تتصل بأخويها ويجري الصلح الكبير في البلاد اذا رحبوا بها ملكا عليهم .

وقبل أن تتصل زهرة بأخيها قسيم جاءتها رسالة منه يطلب منها التنحي عن كرسي المملكة وأن تمهد لعودته ليكون ملكا . فأرسلت إليه مخبرة له أن اولاد زيد الوصي واولاد زوجها يتهمونه باغتيال أبيهم وزيد الوصي وأن الملك لن يستقر له ، وأن بقاءها ملكة ربما يساعد في لملمة الجراح ويبرءهم من دم زيد الوصي وابنه .

وقبل أن تتلقى الرد اعلمها غضبان بأنهم مسكوا خادم غرفة زيد في احدى قرى الصيادين متظاهرا بأنه صياد وابن صياد ، وقد أنكر قتله للملك زيد فقالت زهرة بدهشة : أصدقته ؟ ومن قتل عمي الملك إذن ؟! ولماذا هرب ؟!

قال غضبان : صدقته ، الخوف سبب هربه .. أتحبين سماعه قبل أن نتهمه بالقتل ؟

تعجبت الملكة مما سمعت وقالت : صدقته !! وتريد أن تتهمه ؟!

قال : صدقته ؛ لأنه جبان لا يجرؤ على خنق الملك ، واتهمته ؛ لأنه وضع نفسه موضع اتهام وهرب

ـ أتقتل بريئا ؟!

ـ لن نقتله فورا ايها الملكة .. سنلقيه في السجن بضع سنين .. فهو في نظر الناس القاتل للملك زيد

ـ ولماذا هرب ؟ لماذا لم يبق ؟!

ـ يدعي أن احدهم أخبره بموت الملك قتلا ، وحثه على الهرب قبل أن يأتي موعد صحيان

الملك ويتهم بالجريمة والإثم .

فقالت: أحدهم ! ومن هو أحدهم هذا ؟!

قال الغضبان: يقول " إنه كما هو معلوم للجميع أن مهمته البقاء امام غرف نوم الملك كحاجب وخادم ، فبعد نصف الليل أحس بمغص شديد ، ويظن أن احدهم وضع في الشراب مادة منومة ، فغلبه النوم بعدما رقد الملك وقبل الفجر ايقظه شخص مقنع وهمس بإذنه بأن الملك قتل وطلب منه الهرب والنجاة بجلده ؛ لأنه لن يصدق أحد بأنه لم يقتل الملك وابتعد الشبح وتركه في رعب وخوف لا يتحمله انسان .. دخل غرفة الملك بعد تردد ووجده مسجى ولا نفس له فاغلق الحجرة وخرج من القصر متظاهرا امام الحرس بأنه في مهمة ملكية ولما ابتعد عن القصر خلع ملابس القصر ، ومشى شبه عاري ، ثم لحق بقرية الصيادين متظاهرا بأنه صياد كاد أن يغرق فسبح حتى الشاطئ .

فقالت بقلق ظاهر : من إذن قتل زيدا يا أمير غضبان ؟! من هو الشبح الذي خنق الملك واسقى هذا الخادم المخدر ؟ .. قصر النساء لا يدخله رجال إلا غلمان صغار ، ولما يكبرون سنا يرحلون الى قصور اخرى .

ـ هذا ما يحيرني ! ولو أن الحارس رأى رجلا يدخل لذكر احدهم فأنا لي جواسيس بينهم .. بدأت اشك في رجالك أيتها الملكة ..أمعقول أن إخوتك لهم هذه القوة بيننا ؟!

وفاجأت الملكة الأمير قائلة : جاءتني رسالة من اخي قسيم

ـ جاءتك رسالة !!

فقالت: مالك دهشت ؟! يريدني أن اتخلى له عن العرش وأن اعود لحجرة نومي وأنه سيجد لي زوجا جديدا بعد أن حذرني من الزواج من راهب

ـ اين الرسول ؟

ـ غضبان لا تحاول معرفة الرسول حتى لو عرفته لن تنال منه شيئا .. هو لا ينقل الرسالة مباشرة منه .. تسلسل رسل .. وأنا طلبت من أخي الصلح وحاولت اقناعه ببقائي ملكة خيرا له ، ومصلحة لنا وأن أولاد زيد وراهب يحملون دم الوصي وابنه

بعد صمت قاتل قال غضبان :أيتها الملكة صارحيني ألك يد في قتل الملك الوصي زيد ؟

ـ ابدا أيها الأمير وأقولها لك بصدق ، ولست خائفة منك، ولولا أن إخوتي وقفوا ضدي لتحديت زيدا قبلهم .. فزيد قتل من قبل أعدائه ؛ وربما يكون له أعداء في الداخل ، وليس إخوتي فقط

ـ والملك راهب ألك يد في هلكته ؟

صاحت : ويلك أتريد أن تقنعي أنك لم تدس له السم ؟

قال الغضبان: لا ، لم اقتله ، كنت اعتقد أن هلاكه عاجل لضعفه وسقمه ، والله ما دسست له سما ولا سعيت لقتله .

ـ ويلك أتشك بي ؟!

قال الغضبان: أنا وقع في نفسي ذلك ؛ لأنه ما كدنا نتفق حتى دب إليه الوهن وانفض الجرح القديم

ضحكت زهرة وهمست : وأنا شككت فيك وقلت أن غضبان بدأ ينفذ دوره

ـ اذن كلانا لم يقتله أيتها الملكة!

ـ أنا صادقة ؛ ولست خائفة ، ما سعيت إلى قتله .. مهما يكن من طمعي في الملك والتاج فهو والد اولادي يا غضبان .. ماذا أقول لهم عندما يكبروا ؟!

تنهد غضبان عميقا ورد : الذي يفكر بالحكم والسلطان لا يرى اولاده ولا يرى الرحمة في قلبه فأنا اليوم أخشى عليك من القتل .. فهم لهم رجال في القصور بيننا .. الخدم والغلمان تثير القلق عندما تتحدثين معهم تحسين بسذاجتهم وجهلهم ولما تحدث الأحداث تحسين أنهم يلعبون أدوارا كبيرة .. هذا الخادم الهرم ازعجني الآن موقعه ..فعمله بسيط ولكنه مخيف.. يقتلون الوصي ببرودة اعصاب ويضعونه في رمية السكين ، ويدفعونه للهرب لتلتصق التهمة به، فتعاون مع أعداء الوصي

ـ أتنازل عن العرش لقسيم ؟

ـ وهل يرضى اولاد زيد الوصي .. فهم يتهمون بجريمتي قتل أبيهم وأخيهم

فقالت: سيبقى الملك في اضطراب .. الناس يريدون ملكا قويا يرعاهم ويحافظ على املاكهم وبيوتهم .. دمرت البلاد يا امير غضبان

ـ لن يستقر الملك بقسيم بعد ما حدث في البلاد ما حدث حتى لو وضعت يدي بيده .. أنت تنسين أبناء زيد الوصي وأخوه حازم فهو طامع في الحكم .. فأنت خير من يحكم هذه البلاد

فقالت : أنا احب الحكم من زمن أبي .. وها هم أنصاري عادوا يلتفون حولي ؛ ولكنه ملك مخيف .. ومن دخل لحجرة زيد يستطيع دخول غرفتي ؟

ـ لو قضبنا على أخيك ألا يستقر الملك ؟

فقالت: ربما يحدث ذلك ؛ ولكن أنصاره أخرجوه من السجن ، وقبل موت زيد حرقوا السجن بعدما اخرجوا رجالهم .. فأنا لا يهمني قسيم ولا حازم إنما الصراع سيضعفنا ويزيدنا وهنا على وهن .



قسيم وزهرة

لما تلقى قسيم رسالة زهرة جمع حاشيته وقال لهم : هذه ممن سمت نفسها ملكة ترفض التنازل عن الحكم ؛ بل تحالفت مع غضبان عدونا الاول .. تريد البقاء ملكة .. واهل زيد وراهب يتوعدوننا .. وهي اختي ولا تطاوعني نفسي لسفك دمها .. فأمي ستموت كمدا لو فعلت .

احتار هؤلاء الاوفياء لقسيم وقال احدهم : لو لم تقبل الملك لما اعتلى على العرش حاكم فأخوة زيد وأولاد راهب رفضوا الكرسي؛ بل الذين تحفظوا على اخت الأمير قسيم عفوا الملك قسيم ـ ينادونه بينهم بالملك من باب الفأل الحسن ـ لم يرشحوا احدا .. فاضطر غضبان أن يبايعها ويجعلها ملكة وصية ؛ بل وصلتني أنباء عن طمعه بالاقتران بها ..وينتظر مرور سنة على موت راهب .. فهو طامع بالملك عن طريقها .. ورجالنا لليوم لما ينالوا منه ، فهو يحيط نفسه بحرس شديد ، وكلهم أقارب وأخوة فلا يثق بالعبيد والخدم .. فهو الرجل القوي في بلاد الشواهد .

قال قسيم لأعوانه : علمت برسالة خاصة أن الملكة تريد الخروج من القصر .. ونحن لم نفعل شيئا للوصول للعرش أيها الأسياد فما العمل ؟

أجاب احد الزعماء : الجيش ما زال مواليا لمن يجعلونه حاكما ، وكذلك رجال البحر .. لم ننجح في تهيجهم للانضمام لثورتنا.

طال الحوار والنقاش بينهم وقال لهم في نهايته : سأعود للملك حمدان قد يوافق على إرسال حملة عسكرية معي .. فأخلع زهرة وأعلن نفسي ملكا على البلاد .. سأذهب إليه واحدثه بما صنعنا وأن الجيش والحرس على ما هم عليه ، لا يرغبون بالدخول في معارك حول العرش؛ فكأنهم ينتظرون ذلك الغلام المجهول .

ودع قسيم رجاله وركب البحر شمالا إلى ملك جزيرة حمامة ، ولم يكتب لزهرة شيئا ، فهو يعرف طمعها هي الاخرى بالعرش، ولابد أن انصارها وقد وصلوا للحكم بدون قطرة دم فرحين ومستعدين للدفاع عنها باستماته .. والذي يحيره حقيقة علاقتها بغضبان .. وكان يقلقه أيضا ظهور الأخ الخفي ابن حورية الماء بعد فعله كل ما فعل من قتل وحرق .

وبعد ايام دخل على الملك حمدان وقبل الايادي وقص ما فعله اعوانه وأنصاره على الملك ، ولما

سأله عن ابنته قال : ما زالت جارية في قصر الملكة زهرة تنتظر جوابا في البقاء أو العودة اجتمع حمدان بقادته وكبار فرسانه ، فوافق بعضهم على إرسال حملة لاحتلال بلاد الشواهد واجلاس قسيم عنوة ملكا عليها . فارسلوا رسالة لوداد جارية زهرة للعودة للبلاد ، ولم يمض شهران حتى عادت وداد لمملكة أبيها وقد قامت بدورها بكل قوة وشجاعة .. فهي التي صرعت الملك زيد وابنه كما رسمت مع قسيم الذي لجأ لأبيها الملك وتزوجها على أن يصير ملكا لبلاد الشواهد ، وهي معه فقامت بدور الجارية التي اشتراها قيم قصر أم قسيم وهو احد الأنصار ، فلما صارت عند النخاس ذهب ، وتملكها بسرعة ومعها بعض الجواري لأم قسيم ثم اهديت لزهرة ، ثم وصلت لقصر الحريم ، فخدرت عيسى خادم الغرفة الملكية، وخنقت الملك وهو نائم ، وهي التي امرته بالهرب والاختفاء حتى لا يتهم بقتل الملك، ثم صنعت شرابا للملك الجديد حتى تجدد سقمه ، واستمرت في دس السم في الشراب حتى استوى وضعف جسمه ولحق بأبيه .

ولما رأت وداد تعقد الامور في الشواهد ، واعتلت سدة الحكم زهرة وأن قرينها لم يفعل شيئا ولم يظهر في البلاد احبت أن تعود لشخصيتها كأميرة وزوجة .. رحب بها قسيم وشكرها على جهدها وشجاعتها في قتل عمه الوصي وابنه راهب .. وقد تزوجها قسيم عندما لجأ لجزيرة حمامة هاربا من سجن الوصي واتفق مع الملك على أن يعينه إلى الجلوس على حكم مدينة الشواهد .. ووجد ذلك حماسا وشوقا لدى الملك ..وكان يطمع بامتداد ملكه لبعض المدن البرية الملاصقة للبحر وكانت الشواهد من اقربها لجزره .

فبعد عودة الاميرة المتنكرة للبلاد اخذوا يكملون تجهيز الحملة لغزو بلاد الشواهد .. استعد عشرة آلاف فارس للغزو وجعل نسيب الملك قائدا للحملة ونائبا له احد الفرسان المشاهير في المدينة .. انطلقت الحملة إلى سواحل بلاد الشواهد ، ورافقت الأميرة زوجها قائد الحملة .. وخلال ايام تم النزول على الشواطئ ليلا قبل انكشاف امرهم ..فاحتلوا الساحل من جهة شرم الخزنة من الجهة الشرقية ، فدب الرعب والخوف في المدينة ثم سرى لغيرها من المدن .. وكتب قسيم رسالة للملكة زهرة وسادة المدينة يدعوهم للسلم والتسليم وأنه سوف يحكم البلاد

شاءوا أم أبوا .

رفض غضبان والقادة الإذعان والابتزاز ، وقامت معركة كبيرة على سواحل المدينة ، فقد رفض الجند والقادة هذا الغزو ودافعوا بقوة وبأس شديد ودحروا الغزاة وردوهم للبحر بعد خسارة كبيرة فارين إلى جزيرة حمامة، فصعق الملك حمدان للهزيمة النكراء التي حلت بجيشه وأقسم بالرب المعبود ليغزون بلاد الشواهد وينتقم منها اشد الانتقام ويبيحها لجنده ثلاثة ايام يعيثون فيها فسادا . وأما قسيم فعند الهزيمة اختفى عند اعوانه في المدينة حيث الجبال بين الخزنة ومدينة باد وقد تعرض لعدة اصابات وزوجته معه وقالت له باكية " إن قومك لن يسلموا لك الملك بسهولة .. وأبي سيغضب للهزيمة وقد يأتي بنفسه لمحاربتهم "

ولم يكد يتعافى من جراحه حتى سقط هو وزوجته في قبضة رجال غضبان ، وفرح الرجل فرحا كبيرا بصيده السمين وقال له " سأحرقك أنت وهذه اللعينة.. لقد وقعتم اخيرا "

فضحكت الأميرة وقالت " لا تفرح إن أبي قادم بجيش عرمرم .. سيحرق بلاد الشواهد بكل مدنها وعن بكرة أبيها "

انتشر خبر القبض على قسيم في البلاد طولا وعرضا ، وكانت الأخبار تأتي من جزيرة حمامة بأن ملكها يجهز جيشا آخر اكبر من الاول لغزو بلاد الشواهد .

كان الأمير غضبان متشوقا للفتك بقسيم ولو غدرا .. فقد خسر عددا مهما من رجاله في هذه المعمعة ؛ ولكنه اليوم صهر الملك حمدان فقتله أمر لا يستهان به .. فهو لا يريد امتداد الحرب للمدن والممالك الاخرى فتخرج عن نطاق السيطرة وتعم الفوضى .. ووضع الرجل في السجن امر خطير فقد سعى انصاره قديما بإنقاذه وحرق السجن في عهد الوصي زيد .

تحدث مع زهرة في شأنه فطلبت منه أن يبقي على حياته فالأمور تطورت فقد دخلت مملكة حمامة في آتون الحرب . والملك حمدان مشهور بمغامراته وتعديه على الجزر الاخرى وسواحل المدن ، علم حمدان بأسر ابنته وزوجها فكتب رسالة حادة شديدة اللهجة مكتوبة بالدم للملكة زهرة وغضبان يأمرهم بإطلاق الاسرى جميعهم .

فارسل إليه غضبان وفدا لتهدئة الحال وأن يكف عن الاعتداء على بلادهم مقابل العفو عن ابنته

وختنه .. قابلهم الملك حمدان وسمع الرسالة من الرجل القوي غضبان وأن جيش بلادهم لم يقبل الاستسلام والخضوع لحاكم من غير بلادهم .

******

ملك جزيرة حمامة يمت بصلة قرابة لقسيم فهو من أبناء عمومة القاضي رسال ، فلما قبع قسيم في سجن الوصي زيد ارسل القاضي رسال رسالة سرية للملك حمدان يناشده فيها السعي لإنقاذ حفيده بما بينهم من صلة الدم .

وحمدان ملك يهوى المغامرة والتحرش ويحب الظهور والبروز على ملوك ذاك الزمان فقبل المهمة والشفاعة ، فعاد الرسول يطمئن القاضي لصلة القرابة بينهم وسينقذه ويزوجه من ابنته فرحب رسال بذلك وارسل رسالة شفهية لقسيم بهذا المعنى فرضي بمصاهرة الملك حمدان وارسل الشاب رسولا سريا للملك حمدان يعلمه بالموافقة على الزواج .. وارسله حمدان بدوره للأميرة وداد يخبرها بقبوله الاقتران بها بعد نجاته من السجن .

فقام أعوانها مع أعوان الأمير بتهريبه من السجن الى جزيرة حمامة وتزوج من الاميرة ، وفرحت به ووعدته بتحقيق آماله في مملكة والده .. وكانت ترى في أول الامر اثارة القلاقل والشعب على الملك زيد قد يضعفه ثم تبين لها أن الشعب غير مهتم بمن يحكمه من اسرة الملك سماك فالرجل يحكم باسم سماك وما هو إلا وصي .

فرتبت حيلة للوصول لقصر زيد وفعلت ما يعرفه القارئ، وما يدل على قوة قلبها وجسارتها وحبها للمغامرة واقتحام الاهوال .. ولما اوردت زيدا المهالك واتبعته بابنه ، فلم تجد لدى الشعب استعدادا لقبول قسيم ملكا عليهم ، وأن الاتهام الاول وجه له وإليه ، واصبح في نظرهم قاتلا لعمه مجرما مع أنه لم يثبت عليه شيء إلا الظن والتهمة .. فقررت ترك دور الجارية بعد أربع سنوات .. واخذوا يفكرون بالاستيلاء على الحكم بالقوة .

وفعلوا ذلك كما رأينا ؛ ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة اصيب فيه قسيم وأسر ومعه زوجه .. وظهر أن جيش بلاد الشواهد مازال قويا ومتماسكا ولم يتأثر بالصراع الدائر بين الأمراء والرؤساء ، ولم يسمحوا للغزاة بدخول بلادهم ، وقويت زعامة غضبان وزهرة وهو يساهم

على حياتهم لمنع حرب اخرى .

شاور حمدان سادة قومه وفرسانهم الكبار ، فرأى بعضهم لابد من الانتقام لمن قتل من رجالهم ولإخراج المئات من أسراهم وعلى رأسهم قسيم وزوجته ابنة الملك .. ولما سئلوا كيف ؟ لم يجدوا حلا . فمعركة جديدة متعجلة لربما لا تحقق لهم ما يرجون من النصر وامتلاك بلاد الشواهد ، فهي بلاد كبيرة وكثيرة الخلق ، وهم يحاربون من البحر وأولئك من البر.

فعرض بعض خواص الملك الدعوة لقسم بلاد الشواهد إلى ممالك بين الأمير قسيم وزهرة وأحد أبناء زيد أو راهب ، طرب حمدان لهذا التقسيم وأعجبه لو قُبل .. وهل يقبل غضبان الرجل القوي الصنديد بهذا التقسيم للبلاد مقابل الاستقرار والهدوء ؟.. وذكروا أن هناك أخا ثالثا اسمه حازم ، وأنه اختفى وليس له حركة ، فلابد أنه يحلم بالتاج كغيره من أبناء سماك .. وذكر الابن المختفي ابن حورية الماء ، وهو المسمى ملكا شرعيا للبلاد ، وسيظهر في يوم الايام مطالبا بحقه الشرعي .

وبعد فكر عميق قال حمدان : الأمير حازم غير ظاهر فهو قد قنع بالبعد والسلامة .. والامير المجهول عندما يظهر يقضى عليه .. المهم أن ترضى زهرة بإعطاء شقيقها ثلث المملكة .

دون حمدان اقتراحه لفرض السلام بتقسيم مملكة الشواهد بين المتصارعين في رسالة لزهرة وغضبان وإلا الحرب والقتال . تلقت زهرة الخطاب والتهديد وتشاورت مع غضبان ، فجمع رجال الدولة والحكم للتشاور فتركوا الامر له فاجتمع بأولاد زيد وراهب فقالوا : دم أبينا برقبة قسيم .. يعترفون أولا بالغدر والجريمة ، وبعدئذ نتشاور ونعفو ونقبل بالدية في الوصي وابنه راهب .

أرسل غضبان لقسيم السجين بأحد أبناء زيد ، فأبى أن يقر باغتيال الوصي وابنه وقال :إنني اكرههما وابغضهما ؛ ولكني لم اقتلهما . ولما ذكر بمحاولة الاغتيال انكرها ايضا ، وذكر أن له أعداء آخرين ؛ فليس كل من يقتل أن اعوانه قتلوه ونالوا منه .

فذكر له اقتراح صهرة لتقسيم البلاد الى ثلاث دول فقال : هذا ليس الحل الافضل واقترح أن يكون لها ملكا واحدا ولكل مدينة ملك خاص .

ولما لقيهم غضبان قالوا له : لم يعترف بجريمته .. ودم أبينا لن يذهب هدرا .. وأنت أولى الناس بالمطالبة بدمه .. لأن حمايته من واجباتك الأولى.

حثهم على الصبر إلى حين حتى تستقر البلاد والملك ، ثم يتخلصون من قسيم وزوجته ، ومن كل رجالهم ، فلم يرتاحوا لهذا الغدر السافر ، وذكروا حازما ، والابن الغائب ، وأن في التقسيم خطرا على البلاد فتصبح الدولة ضعيفة ، ولقمة سهلة للغزاة والطامعين .. وقد تكون هذه حيلة من حمدان ؛ ليصل بها قسيم لحكم البلاد كلها .

قال غضبان بعد كلام الحاشية واهل الوصي وابنه : الجيش لن يقسم، فقد فكرت بحيلة حمدان سيبقى الجيش تابعا لمملكة زهرة ؛ ليكون صمام أمان للجميع .. فالملكة زهرة راضية بالقسمة لحقن الدم وعلى أن يبقى الجيش لها .. ومهمة حماية المدن الثالثة تعود للجيش .

ارتاح اولاد زيد الوصي وزهرة لهذا الاقتراح ، وأما قسيم فقد رفضه وقبله حمدان ووافق عليه وطلب الافراج عن قسيم وابنته وأسرى الجزيرة .. واقنع قسيما وابنته بقبول هذا التقسيم المؤقت وبعد حين يسعى بالدس والحيلة لضم باقي المدن بإضعاف حكم شقيقته وجيش بلاده ومع الزمن يحكم كل بلاد الشواهد ويتخلص من غضبان ورجاله الاشداء ... وأن الحرب لن تحقق احلامه لقوة جيش بلاد الشواهد جيش متماسك جيش يحارب في البر ، والبحر يلعب لصالحهم دون خصومهم .. اقنع قسيم نفسه بأفكار عمه .. وأنه لن يحارب من جديد من اجله .. وجرت المفاوضات على تقسيم بلاد الشواهد إلى ثلاثة ممالك لكف الحقد وحقن الدم بين أسرة الملك سماك بن صخر .. فكانت المدينة الحزينة لزهرة وهي المدينة الرئيسية ،وقسيم يحكم شرم الشفة ويختار أبناء زيد احدهم ليحكم سلة الملك .

ولما كملت الاتفاقات والمعاهدات بين افراد الأسرة الكبيرة عرض غضبان نفسه كزوج على زهرة ، واقنعها بذلك حتى يسد الطريق على أي طامع أو محتال .. وبعد تردد وافقت الملكة على الاقتران من غضبان . ولما ظهر ذلك للعلن حدث هرج ومرج في البلاد خاصة أن التقسيم لم يطبق على ارض الواقع بعد ، ولكن غضبان بسعة حيلته والإقناع وأنه بذلك يقطع حبل الطامعين والمتآمرين وخاصة قسيم وحمدان .

تزوج غضبان الملكة وأكد لها أنه ما زال لها حليفا ، وأن حياته مرهونة بحياتها.. فوجدت منه فارسا مغوارا وصديقا مهما قد خبرته من أيام الوصي .. وتصالح قسيم مع اولاد زيد ووعدهم بالمساعدة على كشف قاتل عمه .. فرضوا بالوعد ولزموا الصمت .. وتوج قسيما على المدينة الشرقية وسعد بن زيد بالمدينة الغربية وقبل بأن تكون تابعة لزهرة وغضبان .

ومضت سنة على هذا التقسيم ولم يرتاح الاهالي لهذا التقسيم فحدثت الفتن والقلاقل المستمرة والمتقطعة ، وكان قسيم يؤجج نارها ويزيدها احتراقا ؛ ليصل البشر فيها أنه لا يصلح لها إلا ملك واحد .



لما علم الأمير حازم بن سماك مآل بلاد الشواهد ارسل رسولا لأخيه قسيم يطلب منه العودة والحياة في كنفه .. فتردد قسيم بتلبية طلبه وخشي أن يفسد عليه آماله وأحلامه ، وأن تحدثه نفسه بالملك ، وبعد تشاور وتردد كما ذكرت رضي قسيم باستقراره في مدينته ، وأن الرجل سكن ، ولم يحرك ساكنا خلال السنوات الماضيات ، فقنع بالهدوء والسكون ، وترك الطمع بالحكم والكرسي الملكي .. فرجع وحده لينظر البلاد والحياة فيها .. وكان قانعا هادئا .. فلما لم يجد انصارا وحليفا يسانده لزم الهدوء .. وقد رحب به الملك ماوا ولم يشجعه على التمرد .. وكان يخشى من العودة للبلاد في حياة الوصي خوفا من الاغتيال والغدر .. عاد إلى قصر أمه ابنة الوزير بشوم فوجدها زوجة لأحد السادة ، وأنها ولدت ولدين الأمير سلمان والامير داود احدهما ابن خمس سنوات والآخر ثلاث سنوات .. ولامته أمه على ضعفه وسكوته عن الطلب للتاج الملكي فقال : يا أمي لم أجد حولي انصارا واعوانا اشداء وملكا يساعدني .. فقسيم وجد انصارا والملك حمدان صهره .. وقومك خذلوني .. واخوال قسيم نصروه جهرا وسرا .. ويئست من الحكم . حثته على العمل على تجنيد الانصار خفية لحين يضعف فيه الاقوياء فيصير ملكا . استخف الشاب بدعوة أمه وقال : لنا سنون في بلاد ماوا وكل من حولي وشد أزري ابتعد وانسحب .. وليس لديّ أموال لأجذب الموالين والذمم .

سعت لتأجيج قلبه المكلوم وتقوية طموحه إلى التاج ، فلم تجد أذنا صاغية ، وعندما حدثها

بزواجه في بلاد الملك مايا وأنه يفكر بجلب الزوجة والابن منها .. ولما علمت أنها من بنات العامة وليست أميرة ضاقت منه ، وطلبت منه بتركها هناك ولا يحضرها ؛ لأن سادة البلاد سيسخرون من زوجته ومنه عندما يعلمون أن ابن الملك سماك يتزوج فتاة عادية من عامة الشعب . فذكر لها قصة زواج أبيه من ابنة الصياد .. فغضبت من دفاعه وسخطت عليه وقالت بقهر " وهو لليوم يعير بها أيها الأمير "

فأجابها قائلا : ابنة الصياد! جعل زوجك الملك ابنها خليفة له دوننا .. الناس تخلت عني .. من يزوج ابنته لأمير هارب ؟! أي أميرة تقبل بي ؟! أي أميرة تقبل بالفقر ؟ أنت لم تهتمي بي وبرأيي عندما تزوجت .. وقبل ذلك عندما هربت ؟!

تشاجر الأمير المسكين مع أمه وغادرها غاضبا ، وسعى لمقابلة الملك قسيم وشرح له قصة زواجه وطلب منه السماح له بإحضارها وولده منها للعيش معه .. ولما علم قسيم أنها من بنات العامة وليست أميرة استشاط غضبا منه هو الآخر ، ولامه على هذا الزواج وقال " ابن سماك الملك العظيم ينكح فتاة معدمة .. أنا لم جاءني رسولك تطلب الحياة هنا خفت منك ومن غدرك .. أما الآن فأنا مطمئن أنك لا تفكر بتاج تضعه على مفرق رأسك .. ادركت أنك ضعيف ولا مطمع لك في حكم بعد اقترانك بتلك الجارية ..

ـ تركت الحكم لكم يا سيدي فأذن لي بالعيش معهم

فقال: ابن سماك الملك يتزوج من بنات العامة !

ـ أبي تزوج من ابنة صياد

فقال: إنك تحاكي أبوك .. والله هذا عار علينا .. أنا لا أحب أن يقال أخ الملك قسيم تزوج من امرأة لا اصل لها ولا عشيرة ..فلتبق هناك يا حازم

ـ تطلب مني الرحيل إذن

فقال: أنا لو خبرت من تزوجت لما أذنت لك بالقدوم إلينا

ـ حسنا يا ابن أبي .. عليّ بالرحيل !

فقال: افعل ما تشاء .. أو دعها وتزوج أميرة من أميرات البلاد .

ـ أتزوج أميرة وأنسى زوجتي وابني !

فقال: تزوج ، ثم تفكر بأمر تلك المرأة .. طلقها يا أخي الأمير وخذ ابنك منها

ـ رضيت بي هاربا مختفيا .. ولما أصبحت أخا الملك أتخلى عنها

فقال: إنها امرأة من الشعب .. ليست من الأشراف ، وهذه سبة يا حازم كما تعلم .. فنحن الامراء والملوك لا يجوز أن نتزوج بنات الشعب .. ألم تر ماذا حل بأبيك لما نكح ابنة صياد ؟! سخط الامراء والفرسان

طلب حازم من أخيه الامهال في التفكير ، فعاد لقصر أمه محزونا على حاله وهوانه ، وأخذ انصاره القدامى يترددون عليه ويدعونه لاجتماعات خاصة فيرفض ويعتذر بأنه صرف نظره عن التفكير بالحكم والملك ، وأن المملكة قسمت ثلاثة أقسام وهي ليست بحاجة لقسم رابع .

ذكرنا أن قسيما وأعوانه طفقوا يحركون ويهيجون العامة ضد النظام والانقسام واثارة الشائعات حول تقسيم المملكة ، اجتمع غضبان زوج أخت الملك قسيم بقسيم ونبهه وحذره صراحة مما يثيروه اعوانه من قلاقل وتعديات وأن النار اذا اشتعلت ستحرق الجميع وتهدم كل البنيان .. فتظاهر قسيم بالغضب والسخط من اعوانه وادعى ضعفا في مساعدة الشرطة والعسس في حماية المدينة والتجار .

مضت سنتان على تلك القسمة الثلاثية للمملكة الشواهد ، والأمور لا تسير لصالح قسيم وطموحه بضم الممالك الأخرى لحصته .. فالغضبان امامه بالمرصاد واخته لا تعاونه وهي مسرورة وسعيد بأنها ملكة .

الأمير حازم لم يتكمن من اقناع أخيه بجلب امرأته وابنه للحياة في بلادهم ، فرحل إليهم واستقر ضيفا على بلاد الملك ماوا ، وصمم على الاستقرار ونسيان بلاد الشواهد .. وقد سمح له قسيم وغضبان بأخذ ماله وميراثه من أبيه سماك للحياة الطيبة في بلاد غيمة ..ورحب به ماوا ضيفا عزيزا في مملكته .

ذات يوم دخل رسول من مملكة مدينة باد على غضبان دافعا له رسالة من مليكه سمعان وكانت رسالة تهديد ووعيد ، والسبب أن رجالا من الشواهد اعتدوا على قافلة تجارية تخص تلك المدينة

ونهبوها وقتلوا عددا من رجالها وحرسها.

غضب غضبان ودخل على الملكة بكتاب سمعان فانزعجت الملكة من الخبر والجريمة ، فهذه أول جريمة من عهد بعيد ، فكلف غضبان رجاله بالقبض على اللصوص والعصابة المعتدية التي فعلت هذه الجناية البشعة والشنيعة ، فعجزوا عنهم فارسل غضبان اعتذارا للملك سمعان وأنه حقق في الأمر ، ولم يقبض على احد من بلادهم ، وسيرسل له أمير الشرطة وبعض اعوانه لمشاهدة افراد العصابة الذين بين يديه ؛ ليسمع أقوالهم وحججهم حتى لا يكون بينهم مندس صاحب غرض وفتنة .

قبل سمعان العذر وحرص غضبان على السلام والأمان بين البلدين ، وجمع وفد غضبان برجال القافلة الناجين وجرحى تلك العصابة الأسرى ، فلما اجتمع مع الملك سمعان بعد التحقيق قال : بصراحة يا مولاي اظن انهم من بلادنا .. ولكن بلادنا اليوم ثلاث ممالك .. وهناك قوم يسعون للفساد بيننا .. فمنذ عشرات السنين السفن والقوافل تتنقل بين بلدينا في كل السلام والأمان . ووعده باستمرار البحث والتعقب لهذه العصابة لمعرفة دوافع هذا الاعتداء السافر وتقديمهم للقصاص العادل .

ورجع أمير شرطة غضبان وبين له أن المهاجمين من أهالي البلاد ؛ وربما يكونون من رجال قسيم واعوانه

قال الغضبان: هذا الشاب لا يريد الاستقرار للبلاد .. وأنا صاهرته ليعقل ويقنع بنصيبه ويترك شقيقته بسلام .

ـ الملك سمعان حذر من خطورة الامر .. ومن تكراره وأنه عوض القافلة وأهليها ودفع ديات الضحايا .. وأن تكرار الاعتداء سيؤدي لحرب لن يقبل قومه بالصمت الطويل

قال الغضبان: هذا ما يسعى إليه الخصوم .. يبدو أن نبوءة سماك ستتحقق وتتفتت المملكة .. فدع رجالنا أن يكونوا دائما على حذر وحرص.. فالبلاد مقبلة على شدائد من قسيم وانصاره رغم أنه خال ابني من أخته زهرة فأخشى من فقد أعصابي وعقلي وأثور عليه .. فزهرة تقول إن زوجته ابنة حمدان هي التي كانت تخدمها عندما كانت في قصر راهب .. أهدتها لها أمها .. فهي

تعتقد أنها كانت متنكرة لغرض ما ؛ وربما لها الدور الأهم في قتل زيد الوصي وابنه .. ولما فاتحتها زهرة بتلك الشكوك انكرت وقالت " أيعقل أنا ابنة الملك حمدان أتنكر على صورة جارية لقتل زيد الوصي .. هذا جنون أيها الملكة ! .. ربما جارية أشبهت صورتي "

ولما بحثنا عن تلك الجارية وكيف جاءت وجدنا أنها اشتريت فعلا من أحد تجار العبيد وبعد هلاك راهب اختفت ونسي أمرها .. ولكن هل يمكن لأميرة أن تقوم بدور جارية خبيثة لتقتل بالخنق والسم ؟!..هذه الأميرة إن صح هذا فهي خطيرة جدا ! .. ضع هذا السر في قلبك يا صاحبي (الخطاب لأمير الشرطة سلمان) الملكة وردة بنت حمدان جارية كانت تسمى ودادا!

ورغم الاحتياطات التي أنشاها غضبان واعوانه الاشداء تكرر الاعتداء على القوافل السائرة إلى بلاد سمعان أو الخارجة منها .. فقام سمعان باحتلال مدينة خرم الخزينة بدون تحذير ، وهرب قسيم لمدينة الحزينة زاعما أنه لا جيش عنده ليدافع عن المدينة .. ارسل غضبان مفاوضين للملك سمعان وليحدد شروطه للخروج من المدينة ، فكان شرطه الوحيد استلام قسيم ليحاكم في بلاده ، فأصابت الحيرة غضبان وزهرة فقال قسيم لهما " اذا اردتم تسليمي لعدوي فأرسلوني للملك حمدان والد وداد .. فهو سيدافع عني وعن ابنته "

فاعلم الملك سمعان بهذا ، فرفض إلا أن يسلم إليه وإلا الاستمرار بغزو بلاد الشواهد .. وتضايق الناس في شرم الحزينة من عساكر سمعان وثارت مشاكل متعددة ومتكررة بين الجند والاهالي وكثر القتل والغدر ، وأخذ الناس بالرحيل إلى المدن الأخرى لضعف الأمن والحمايات تقابل غضبان بسمعان وحدثه بالمشاكل التي تعصف في البلاد وانقسام مملكة الشواهد لثلاث ممالك ورغم كل الحجج والاعذار التي وضعها غضبان بين يدي سمعان أبى إلا أن يسلم إليه قسيم ليحاكم في بلادهم أو الحرب .

كان غضبان لا يريد الحرب ؛ لأن هذا ما سعى إليه قسيم وأنصاره ، فاجتمع أهل الحل والعقد وخيروا بين الحرب أو تسليم قسيم فقال بعضهم " نسلمه ونرسل لعمه أن ينقذه أو نرسل له ابنته لتشرح له الحال "

فانفذوا رسالة لحمدان ، وسلموا قسيما لسمعان الذي ساقه أسيرا ذليلا لبلاده .. وكان الرجل

يكاد ينفجر من الغيظ والقهر ، ورأى أن تدبيره عاد لنحره .. وسخط على اعوانه وانصاره فاقسم بأن يقتل غضبان الذي حرمه من جيش أبيه ليدافع عن نفسه "

ارسل الملك حمدان رسالة تهديد لملك باد وطلب منه تسريح الملك قسيم قبل قراءة الكتاب والاعتذار له، وأنه صهره زوج ابنته ، واعلمه أن جيوشه زاحفة لبلاد باد .. لم يكترث سمعان بهذا التهديد والزعيق وطرح الأسير في السجن ؛ ليحاكم امام القضاة بالإفساد في الارض وقطع الطرق بواسطة أعوانه ولصوصه .

وادعى أمامهم أنه بريء ، وأن زوج أخته غضبان مكر به ؛ ليتخلص منه شريكا في الملك فقال القاضي " ثبت لدينا أن رجالك هم الذين تعرضوا للقوافل اكثر من مرة ، وأنهم نهبوا وسرقوا وقتلوا ."ثم قضى عليه بالسجن في بئر عميقة عشرين سنة فاسقط في يد قسيم لهول هذا العقاب فكان الموت خيرا منه .



زوجة قسيم

ولما علم غضبان بما حكم على قسيم ومن تهديد حمدان للملك باد أمر الجيش بالسيطرة على شرم الحزينة وطرد انصار قسيم منها ، وكذلك الحرس الذي ارسله له حمدان والد الملكة وردة ، أعاد توحيد البلاد في مملكة واحدة تحت حكم الملكة زهرة بنت سماك ، وكان يقول لنفسه " عشرون سنة سجن ستقضي على حياة قسيم " .. حاولت زوجة قسيم التحدي فقال لهم أمير الجيش " اذا لم تسكتي سنطردك من هذا القصر وتعودين لأهلك " فلزمت الصمت بعد هذا التهديد الصريح ، وقد كتبت رسالة عتاب لغضبان فشجعها للعودة إلى بلادها ؛ لربما تيسر لها زوجا آخر فمدة حبس قسيم في بلاد باد طويلة .. فسكتت على مضض وكتبت لوالدها الملك بما حل بها من هوان ، وكيف اخرجوها من الحكم بدلا من زوجها حتى يكبر ولدها من قسيم

ارسل الملك وفدا لزهرة الملكة في هذا الشأن فأرسلتهم إلى الأمير غضبان ، فكتب إليه أن صهره سعى إلى إشعال الفتنة في البلاد ، ولقي جزاءه فلم يعد بنا حاجة لثلاث ممالك .

فدست وداد برسالة للملك سمعان متهمة غضبان بسبب المشاكل والاعتداء على القوافل ليتهم قسيما ويعيد ضم الممالك من جديد .. فأجرى تحقيقا سريا بعد أن دخل الريب على قلبه وقال " ربما تكون هذه الوشاية صادقة " ثم ترك التأكد منها للأيام ، فالظواهر بينت أن لقسيم اليد الطولى في الفساد والعبث ، وأخذ يستعد لحرب حمدان .

ولما رأت ابنة حمدان فشل مسعاها لدى سمعان ، واصم أذنيه عن رسالتها ولم يحرك ساكنا دست رسالة لغضبان تتهم زهرة بأن لها عشيقا منذ أيام الملك زيد الوصي .

استغرب غضبان لهذه الرسالة الخطيرة والوشاية الكبيرة ، فمن ارسلها ؟! لم يعرف مرسلها اعطيت للحرس على أنها رسالة من أحد الدواوين، فاستقبح ما فيها من اخبار واجتمع برجاله المندسين بين رجال القصور فجاءت الاخبار أن الملكة لها علاقات خاصة برجال من الامراء والفرسان . وخشى مفاتحة الملكة بذلك الشك والريب أن تطلقه ، فهي الملكة وهو يحكم ويرسم باسمها ؛ ولكنه لا يرضى بأن يكون جاهلا وله شريك أو اكثر في فراشه وإن كانت ملكة ، ولم يصل لحل فجاءته رسالة اخرى تثير الشك وتؤججه في نفسه وذكرت له اسم احد العشاق من

أيام الوصي زيد .

فعجب بمن يعرف هذه المعلومات ؟! هل هي جارية حاقدة ؟ غلام غاضب على سيدته الملكة ؟ يعرف كل هذه الأسرار ولا يعرف أنه سيموت لو عرف اسمه وشخصه .. صحيح أن سيدة البلاد تحب الترف والحفلات والنزهات في حدائق القصور ، وأنه هو الذي يحكم ويرسم ويجلس مع كبار الضيوف والزائرين والعساكر .. إنه يعرف الاسم الذي ذكر في الرسالة .. إنه أمير كبير ، وهو ابن أمير البحر الفارس سنان ..هو ماجن معروف في البلاد ، وله بعض الغواني المعروفات ..أيعقل أن يصل ليصبح عشيقا للملكة زوجة غضبان .. وغضبان معروف بشراسته لأهل البلاد الصغار والكبار .. وعشيق منذ الملك الوصي .. سأبعثه في حملة بحرية لاحد الجزر للبحث عن اعداء لنا .. وهناك يصرع ؛ ولكنه قد يكون بريئا وسيغضب والده غبار .. وهو أمير محبوب من رجال البحر ومسموع الكلمة ومخلص للعرش . هو حائر بالطريقة التي يتبعها في مراقبة الملكة زهرة.. هو يعلم أنها امرأة لعوب تحب اللهو والعبث منذ حياة الوصي زيد .. وسلمته زمام كل شيء للتفرغ للهوها وعبثها .. وتذكر أن الرسالة الاولى ذكرت أن لها اكثر من عشيق ، وهو لا يراها في الأسبوع إلا مرة واحدة .. تأتي للديوان ساعة من الزمن ، ثم تنصرف وينام معها ليلة واحدة في الاسبوع ؛ وربما اعتذر عنها .. ويقضي لياليه مع زوجتيه الاخريتين وأولاده منهن شبابا وفرسانا .. أيكون لزوجته عشاق دون علمه ؟! .. فهذا اكبر اهانة لفروسيته وقوته .

وبينما الأمير حائر بشكه جاءته رسالة من الملك سمعان تطلب المساعدة على محاربة الملك حمدان الذي يحشد جيشا ضخما للقضاء على باد ؛ وربما تطمع نفسه بالشواهد اذا انتصر عليه .

ارتبك غضبان وعرض الامر على رجال الحكم والسادة فذكروا أنهم في صلح مع حمدان .. وهؤلاء يعيشون في جزيرة داخل البحر فمن الصعب الوصول إليهم إلا عن طريق البحر وحروب البحر قاسية وصعبة وجيشهم يحسن الحرب في البر والسواحل .

ارسل وفدا يسمع من سمعان خطر حمدان على البلاد والصلح القائم بينهم فقال لهم سمعان : اذا انتصر علينا سيحتل بلادكم ويجعل قسيما عليها ملكا .

فعادوا لغضبان بذلك التحذير، فقرر المشاركة في الحرب ، واشهر الحرب على حمدان ملك جزيرة حمامة .. فلما خبر حمدان هذا التحالف ضده كتب لباد مطمعا لهم في خيرات الشواهد وغزوها وتقسيم خيراتها بينهم وسيعطيه حكمها نكاية بغضبان وحاشيته وسيأخذ قسيما معه إلى جزيرته . رفض سمعان هذا الغدر الصريح .. والتقت جحافل الجزر البحرية مع جحافل المدن الساحلية عدة جولات ، وكان حمدان يقود الجنود بنفسه ، واستمر القتال عدة اسابيع دون أن يظهر أحد على الاخر .. ولم يكن هناك نصر كبير .. وتعبت الجيوش كلها .. فاتفقوا على الصلح شريطة أن يطلق سراح صهر الملك قسيم من سجن سمعان .. فقبل قوم سمعان هذا الشرط بعد أن كثر الموت في صفوف الجميع ، ووافق سمعان على ذلك على أن يذهب معه إلى جزيرة حمامة ، ولا يعود لحكم شرم الحزينة .. فقبل حمدان بذلك الشرط ولما انفصلت الجيوش عن بعضها وبدأت تعود لمدنها .. طلب حمدان من غضبان اعادة قسيم لمملكته وتقسيم البلاد فقال غضبان " إن سمعان سيغضب اذا ارسل لي بالموافقة سلمت له ما كان "

رفض سمعان هذا الغدر .. فساقه حمدان معه الى جزيرة حمامة ، وأخذ ابنته وردة ، وعاد بمن بقي حيا من جيشه لجزيرة حمامة ، وهو حزين لفشله في تدمير مملكة الشواهد وباد .. فمكث اياما ثم قضى نحبه مقهورا مغموما .

فبايع القوم ابنه عصاما ملكا عليهم ، وأخذ الرجل يلملم جراح الجزر التي يحكمونها وخاصة حمامة .. لقد خسروا الكثير من الرجال وإن لم يهزموا هزيمة كاملة .

وشاع في البلاد هم الثأر والانتقام للقتلى فوعدهم الملك الجديد بحملة قوية لتلك المدن . أما غضبان فبعدما عاد الهدوء للبلاد بعد هذه الحرب الشرسة عاد للشك في حياة زوجته الخاصة وكذلك بخطر قسيم الذي خرج من السجن ، وسيعود للمطالبة في الحكم والذي لن يهدأ قبل أن يثأر منه ..فقد زاد العداء بينهم ..فغير غضبان من نظام حياته فقرر قضاء كل الليالي في قصر الملكة زاعما لها أنه غضب من زوجتيه ، فشكت زهرة بهذا العذر، وعرضت عليه السعي بمصالحتهن فقال " دعيهن حينا من الزمن .. أريد أن أعيش بجوارك " وكال لها من الكلام المعسول والحب والغزل فكانت تضحك منه وقالت : ويحك نحن متزوجون من سنين .. فما

ألم بك؟.. كنت لا تأتينا في السبع إلا ليلة .

قال : انتهت المشاكل والهموم

ضحكت وقالت : المشاكل لا تنتهي والهموم تتجدد .. فقسيم حر طليق ، ولن يغفر لك اخذ مملكته فاحذره

ـ اني دائم الحذر يا مولاتي

فقالت : اذاً ما الذي جدد الحب والشباب لقلبك ؟ .. أنسيت أنك شيخ ؟ وأنا رضيت بك زوجة لتتحد قوانا ويطمئن بعضنا لبعض .

قال الغضبان: هذا حق.. وأنت زوجتي وأم بعض اولادي

فقالت : أولادك مع المربيات اذا كان لديك شيء تخفيه عني فقله دون لف ودوران

قال الغضبان: لا شيء إلا الحب والشباب والعشق

ـ حسنا ! سنرى هذا الشباب اعلم يا غضبان لو جئت بشيء خطير سأسحقك

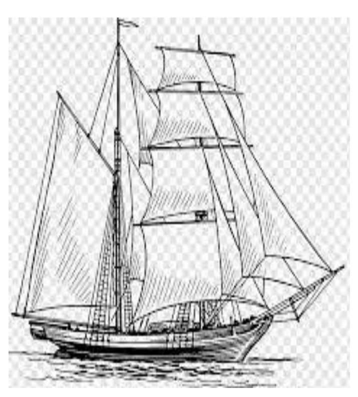
قال الغضبان: كل هذا لأنني اريد البقاء بقربك .

فقالت : هذا ليس من عادتك؛ فلابد أن احدهم وضع في قلبك شيئا ؛ ربما زعم لك " ان لزهرة عشيقا أو عشاقا "

تظاهر بالسذاجة والبساطة: احدهم ! من هو أحدهم ؟

ـ جارية قديمة كانت عندي .. قتلت عمي وزوجي وتريد قتلك اليوم

قال الغضبان: زوجة قسيم وداد وردة ؛ ولكنها رحلت إلى بلادها



حذر غضبان

عادت المخاوف والشكوك لغضبان من غدر زهرة وما هو إلا مجرد زوج ، وهو لا يرضى أن تكون زوجته فاجرة ، وهو لا يستطيع التأكد من الاتهام ؛ لأن فشله معناه التخلي عنها أو الدخول معها في صراع ؛ ولولا قوته الظاهرة للعيان لاختفى منذ عهد الوصي زيد .

وزهرة حذرة من هداياه وجواريه وخدمه، ولا تقبلهم منذ عهد ابن الوصي راهب .. ومع قضاه اسبوعا لديها لم يثبت لديه شيء ، ولم ينف عنها الاسبوع شيئا ، واعتذر عن الكثير من سهراتها وحفلاتها الخاصة بحجة البقاء معها .. استدعى على خدمه الابالسة خادما اسمه نواس وصارحه بشكوكه في الملكة ..فوعده الخادم بالخبر اليقين خلال ايام .. ونبهه الأمير من الوقوع في الخطأ وأن تعرف الملكة مهمته .

غاب نواس فترة وجيزة عاد يقول لسيده " لها علاقات وصداقات كثيرة مع رجال البلاط من فرسان وامراء ومحظيات .. ويسهرون سهرات طويلة يلعبون ويلهون ويمزحون .. ولها صداقة عميقة بالمسمى سنان .. ولكن لم أر علاقة ما بين رجل وامرأة.. وزوجته الأميرة تصاحبهم غالبا اشتاق غضبان لمعرفة من ألقى الحجر في الماء الراكد ، ويشعل النار في فؤاده وطلب من خادمه نواس الاستمرار في مهمته الدقيقة والذكية وحثه على الفطنة والحذر . وبينما غضبان يصارع الشك في خيانة زهرة له جاءت الاخبار أن عصام بن حمدان يستعد لغزو بلاد باد والشواهد لإرضاء شعبه الغاضب على ما قتل من أبناء الشعب في المعركتين الماضيتين فقال غضبان " ما دام قسيم عندهم ووداد سيبقى الشعب ثائرا على قتلاه وجرحاه "

ثم جاء الخبر الخطير أن عصاما استطاع إنشاء حلف كبير مع عدة ملوك لجزر كبيرة والاتفاق على تقاسم بلاد الشواهد وباد .. فالتقى غضبان بسمعان امام الخطر الداهم وجددوا الحلف والدفاع عن بعضهم البعض وارسلوا لملك حوت للتحالف معهم فاعتذر عن هذه الخطة ، واعتذر عن الدخول في حرب لم يشهد أولها .

ذهب وفد لجزيرة عصام يعرف سبب تجدد العداء ، فلم يُرد على الوفد بشيء ، ولما عادوا لبلادهم وصل وفد من الملك عصام يدعوهم إلى الاستسلام والخضوع لحكمه مقابل العفو عن

حياتهم ، وذكرهم بثأره عندهم بقتلهم الكثير من فرسانهم .

لم تفلح المفاوضات بوقف المعركة ، وأخذت تزحف إلى شواطئ المدن جيوش الجزر البحرية المتحالفة ضد مدن السواحل ، ونزلت تلك الجيوش الكثيرة بين حوت وباد ، ولما كمل وصولهم بدأت الحرب وطال القتال وضعفت جيوش باد والشواهد وتقهقروا لداخل باد وحوصرت المدينة بضعة أشهر حتى ضاق الناس بالحصار وقبلوا بالاستلام لشروط ملوك الجزر الثلاثة ، وسلم باد نفسه للملك مسعود ملك جزيرة سعدة فسيق اسيرا هو وأسرته ووزيره وبعض سادة المدينة إلى جزيرة سعدة وطلب اهل المدينة الأمان والخضوع للملك مسعود . وتحرك قسيم الذي ناب عن عصام في هذه الحرب نحو بلاد الشواهد ليخضعها لحكم ملوك الجزر ، وحاول غضبان التفاوض مع الملوك الاخرين دون قسيم فلم يوفق فتراجع الى مدينة غيمة . واستسلمت المدينة للجيوش الغازية وقد انسحب اكثر الجيش مع غضبان واحتلت الجيوش المدن الثلاثة ، وحدثت فوضى ونهب وحرائق وقتل ، وحاول قسيم حفظ بعض القصور ، فرفض مسعود وخالد ملك جزيرة الوردة .. وقسمت أموال المدن المغنومة بين الجزر الثلاث ، وتشاوروا على الاستمرار في متابعة غضبان أم الاكتفاء بما نالوا من نصر .. فخشوا طول المسافة بينهم وبين البحر فرضوا بالتوقف والكف عن زهرة وغضبان ومن هرب معهم أو دونهم .

واخذ خالد مدينة باد وجعل عليها نائبا عنه ، وقسمت الشواهد بين حمامة وسعدة ، وسعى قسيم لأخذ الشواهد كلها ليحكمها باسم حمامة ؛ ولكن مسعودا رفض التنازل عن حصته .. وترك مسعودا شقيقا له نائبا على حصته من بلاد الشواهد ، وغادر لجزيرته سعدة مسرورا سعيدا بمغامراته تلك . واعلن قسيم نفسه ملكا على حصته ، وانه نائبا للملك عصام شقيق زوجته وردة التي رحلت بدورها إلى قصرها في شرم الحزينة .

حاول غضبان بعد حين إقناع ملك غيمة ماوا في تحرير بلاده الشواهد فرفض الملك الدخول في هذه الحرب وأنزلهم في بلاده وأعطاهم الأمان .

سكتت الحرب ردحا من الوقت ، ثم اخذ الناس بالتمرد على حكامهم ، ثار اهل الشواهد على شقيق مسعود وقتلوه وقتلوا انصاره ، وهرب قسيم في الوديان والجبال ، وأقام الثائرون حاكما

عليهم ممن ثاروا على حكم الأغراب ، واسمه شهروان وجعل أصحابه مساعديه والتف الكثير من الشعب حوله . ولما سمع غضبان بهذه الاخبار فكر بالعودة لبلاد الشواهد فقال له ماوا " اذا خرجت فلا تعد الينا .. فالملك مسعود لن يغفر لهم قتل شقيقه فأنصحك بالتريث وانتظر عاقبة مقتل أخ مسعود "

ولما علم خالد بمقتل رجاله في باد اخرج سمعان من السجن واتفق معه على السلام وقبول خراج سنوي منه ، فقبل سمعان هذا الشرط وعاد لمدينة باد ، ورحب به الشعب الثائر واعترضوا على الخراج ، وكان ذلك امام مندوب الملك خالد واعتبر سمعان نفسه اسيرا للملك خالد ؛ لأنه لا يستطيع اجبار الشعب على الدفع .. فارسل خالد جيشا لغزو مدينة باد وعزل الشعب نائب خالد وأمروه بمغادرة البلاد ، واستمرت الثورة بزعامة الثائر "نسيم البحري" احد الصيادين وتصدوا لجند خالد واوقعوا فيهم خسائر كبيرة اجبرتهم على العودة للبحر، ثم العودة لبلادهم خائبين فغضب الملك خالد منهم ومن خيبتهم فتمردوا عليه سخطا وقتلوه وعددا من أسرته واعوانه ، ونصبوا زعيما منهم حاكما على المدينة وتوترت الامور في جزيرة الوردة على إثر مقتل الملك ، وانقسمت البلاد بين المتمردين وانصار الملك المقتول وبعد حين استطاع العقلاء من تهدئة الاحوال واتفقوا على الصلح وعدم التدخل في شؤون الجزر الاخرى فقد جر عليهم الغزو الانقسام والحرب الاهلية .

ولما استوعب الملك مسعود ما اصاب الوردة من مقتل خالد تردد في العودة لبلاد الشواهد وخشي من انقلاب اهل القتلى عليه كما حصل في الوردة ؛ ولكن المقتول شقيقه فارسل حملة إلى بلاد الشواهد لرد الكرامة ولكنهم منوا بهزيمة شنعاء .. واتصل مسعود بعصام لعمل حملة كبيرة لتأديب المدن الثائرة .. فتردد عصام لم سمع من حال جزيرة الوردة .. وخشي أن ينتقل الثوار لبلاده .. فقد احس بتمرد يجري من تحت قدميه بسب هذه الحروب وموت الكثير من اهل الجزيرة .. فقد رأى أهل بلده أن غزو تلك المدن لم يعد عليهم بالثروة والأمان فقد تعرضت قوافلهم للثوار فنهبوها .. وحكامهم هناك ضعفاء لا حول لهم ولا قوة .. فاعتذر عصام للملك مسعود .

رجع قسيم الهارب ووداد لجزيرة حمامة بعد حين من الوقت ، وقد نجو من الثائرين عليهم وسعى لإقناع الملك بغزو جديد وانتقام ، فبين له الخطر المحدق بجزيرته وما حل بجزيرة الوردة من صراع وموت ومقتل الملك خالد . واخبره أن الشعب ثار ورفض الخضوع فمن الصعب الاستمرار والاستقرار بين الاعداء فقال قسيم بغضب " أيبقى أولئك الثوار حكاما لتلك البلاد رد عصام بغضب كذلك : دعك من هذا الكلام الفارغ .. الناس لا يريدونك مع أنك ابن ملكهم .. لما حبسك ملك باد لم يتحرك احد من قومك يا زوج اختي لمساعدتك .. أنت غير مقبول عندهم .. ولقد خسرنا آلاف الرجال لتكون ملكا .. ولم تستقر عليه ولم تخسر شبانا كما خسرنا .. فليبق هؤلاء الثائرين وليقاتلهم زوج اختك زهرة

غضب قسيم من جواب وكلام الملك ورفع صوته في حضرته فحنق الملك عليه وقال : لولا حرمة أبي الذي رحب بك ضيفا في جزيرتنا وزوجتك الاميرة وردة لسفكت دمك .

غضبت وردة من كلام شقيقها وغادرت وزوجها غاضبين ساخطين ، وكان عصام الملك يحسب لشقيقته وداد حسابا كبيرا .

***

راسل غضبان بعد علمه بهزيمة حملة مسعود شهوان شيخ الثائرين وحثه على التعاون معه لإعادة المملكة إلى ما كانت عليه قبل الحرب الأخيرة ، ووعد بجعله واصحابه من اهل المناصب المهمة في البلاد ، فحذروه من العودة هو وكل الهاربين وتركهم الشعب تحت رحمة الغزاة إلا اذا رغبوا بالحياة كعامة الناس ، فلا مكان لهم في البلاد إلا كذلك ، الجبناء لا مكان لهم .. فحز هذا في نفس غضبان ورجاله ؛ بل اعلن بعضهم الموت للثائرين .. وشاور غضبان ماوا فنصحهم بالبقاء ولزوم السكينة فما زالت البلاد مضطربة وقتل الثوار في هذه المرحلة قد يدفع مسعود للمجيء بجيش غاز من جديد .

لم يقنع غضبان بهذا الحل فدفع سفاكا متعاونا معه لقتل لشهروان أمير الثائرين ؛ ولكن هذا السفاح سلم نفسه لسيد الثائرين وأقر له بالغاية التي أتى من أجلها ، فكتب شهروان لماوا يطالبه بتسليم الأمير غضبان لخيانته وغدره .. فانكر غضبان هذه التهمة فقال شهروان في رسالة أخرى

أن القاتل بين أيدينا فارسل ماوا وفدا للتحقق من التهمة فاجتمعوا بذلك السفاح واعترف لهم بمهمته لبلاد الشواهد الثائرة فطلب ماوا من غضبان بعد رجوع الوفد ترك المدينة بظلام ليل ، فأوصى الملك على زوجته وصغاره وخرج هاربا يصحبه عدد من اعوانه .. وما ابتعدوا مسيرة يوم حتى دهمهم رجال شهروان وأسروهم، ووضعوهم بعد حين بين يدي زعيم الثائرين ، وتمت محاكمتهم سريعا ، وألقي غضبان بجب عميق .. فتعجب لحال الدنيا ومكرها باهلها من زوج ملكة إلى هارب إلى سجين بين يدي صبيان ، ولم يطل به السجن فمات قهرا وغيظا .. فلما علم أمير الثوار بموته أمر بدفنه أو رميه في ماء البحر .

كان الثوار يرغبون بتنصيب أحد أبناء سماك ملكا عليهم حتى يستقر الحكم وتتوقف الفتن ، ولا يزداد المتمردون والطامعون ، وليبقى ولاء الناس لهم فعقد زعماء الثائرين اجتماعا كبيرا بينهم يتشاورون فيمن ينصبونه ملكا عليهم ..فذكر بعضهم أن لسماك ابنا اسمه حازم يعيش في بلاد ماوا لو اتصلوا به وجعلوه ملكا فخريا ، وقد تزوج فتاة من عامة الشعب في بلاد غيمة فاتفقوا على ارسال وفد يجتمع به ، ويعرض عليه شرطهم الأهم ، فمشى ثلاثة نفر إليه ، ومروا وهم في طريقهم لغيمة على معسكرات جيش بلادهم التي انسحبت مع الامراء وغضبان قبل سقوط البلاد في أيدي الغزاة ، فوجدوا أن اكثرهم هرب وعاد للبلاد متخفيا بثياب العامة وأن كبار الفرسان حائرون في مصيرهم ويفكرون بالاتصال بالثوار للحياة في بلادهم مواطنين مسالمين .

بحث الانفار عن مسكن الأمير حازم بن سماك في مدينة غيمة وبعد جهد وصلوا إليه واسروا له بالرغبة بتنصيبه ملكا على البلاد ملكا اسميا لا فعل له، فاستشار بعض رفاقه القاطنين معه في بلاد غيمة ، فذكره بعضهم بأن زهرة حية وملكة على تلك البلاد ، ولم تتنازل عن الحكم لليوم فلتذهب إليها لتتنازل عن الحكم والتاج قبل كل شيء ، وذكره آخرون بوجود الملك قسيم الذي ينزل بلاد جزيرة حمامة وزوج ابنة الملك حمدان ، وذكروه بأن الثوار قد قتلوا شقيق الملك مسعود وأن الامور في بلاد الشواهد غير مستقرة واغلب الجيش ما زال يقبع في بلاد غيمة ،وقد يتحركون للقضاء على الثوار اذا رتبت امورهم .

احتار حازم بعد سماع كل هذه الإشارات فذهب إلى لقاء زهرة وحدثها بمطلب وفد الثوار اليه بعدما عزاها بوفاة زوجها غضبان فسألها هل يطيعهم أم يبقى في حماية الملك ماوا ؟ وذكر أمامها ايضا الاخطار الاخرى من قسيم ومسعود ، فأسرت له سرا أن الملك يرغب باتخاذها زوجة له وقد توافق اذا رد إليها تاج بلادها ، فلما سمع الكلام فهم الجواب ، واعتذر لوفد الثوار عن قبول عرضهم للإخطار المحيطة بالبلاد ، ونبنهم للخطر القادم عليهم من الملك ماوا ؛ لأنه على وشك الزواج من الملكة الوصية زهرة .

رجع الوفد وقصوا على أميرهم شهروان الخبر بالتفصيل ، وذكروا له طمع ملك غيمة في بلادهم فقام شهروان بجولة على الصيادين والفلاحين يحدثهم بالأعداء الذين يتربصون بهم من البحر والبر فارسل الثوار وفدا محذرا لماوا من الطمع في بلادهم من اجل ملكة هربت هي وجيشها من أمام الأعداء ، فالشعب اقوى واهم من الجيش والملكة الهاربة .. من بلاد يأكلون خيراتها من مئات السنين .

غضب ماوا من هذا التهديد وأعلن زواجه من الملكة زهرة بوجود الوفد وعلى أن يكون مهرها ما اتفق عليه معها سرا ، وهو تاج الشواهد ويكون الغزو بعد الزواج بسنة .

ولما رجع الوفد بهذه الاخبار اصدر امير الثائرين امرا بالموت على الملكة الخائنة ، ووضع جائزة لمن يقتلها ، وامر شعب غيمة ببيان سري الثورة على ملكهم الطامع في جرهم لحرب على بلاد الشواهد ؛ ليقتل أبناءهم وفرسانهم من اجل تاج امرأة هاربة .

وانتشر هذا البيان بين افراد الشعب كانتشار النار بالهشيم والعشب الجاف ، واحدث بلبلة وقلقلة في المدينة ، وظهرت حركة تمرد عجب منها ملك غيمة ، وخشي على عرشه منها وأن تحدث ثورة شعبية كما حدث في الشواهد وباد وبعض جزر البحر وادرك أن لهؤلاء الثائرين امتدادات واسعة في المدن ، وأن هؤلاء الصيادين هم قادة هذه الحركات والتمردات فاعلن للشعب أنه لن يغزو أي بلاد لا الشواهد ولا غيرها ؛ وإنما يريد مساعد جيش بلاد الشواهد لاسترداد بلادهم من الاعداء ليعودوا لبلادهم .. فعاد الهدوء للشعب بعد ذيوع هذا النبأ عليهم وجيش الشواهد قد تناقص مع الوقت ، وقادته مترددون في العودة لبلاد يطمع فيها الكثير ..

فهم يسمعون أن قسيما ما زال يحرض اهل الجزر على غزو بلاده .

وأما زهرة فلما رأت تخاذل ماوا عن نصرتها عاتبته بحدة ، وذكرته بعدته لها مقابل نكاحها فطمأنها أنه على وعده وعهده ، وأنه ما زال يتحرى عن الزعماء السريين في صفوف الشعب الذين يحرضون الناس على التمرد ، وحثها على الصبر ، وذكر لها أن الملك قسيما شقيقها ما زال يحرض الملك عصام على غزو بلاد الشواهد ، وذكرها بالملك مسعود الذي يجهز حملة للانتقام من قتلة شقيقه وجنده ..فالانتظار خير في مثل هذه الحال المضطربة فقال : ننتظر حتى نرى ماذا سيفعل هؤلاء الناس ؟وانا افكر باغتيال زعيم الثائرين في بلادك ، فقد تمادى وتطاول على الاسياد .. وربما بموته يتشرذم الثائرون حول الزعامة فيفتكون ببعضهم البعض .

ـ اخشى أن يفعل رجلك كما فعل رجل غضبان فيصير بك بما صار به واعود للترمل من جديد

فقال: لا تخافي أنا ملك وحولي حرسي وجندي .. وغضبان اخطأ باختياره ذلك السفاح .. فقد اختار الرجل الحياة على الموت ..

فقالت : سأصبر سنة أخرى أيها الملك .. أنا لا احب أن أكون مسخرة بين حاشيتي وفرسان بلادنا .. ملكة بلاد الشواهد تزوجت ماوا من أجل تاج بلادها ووعدها ولم يف بالوعد

فقال: أنا عند عهدي أيتها الملكة ..ولكن حسن اختيار الوقت مطلوب ..حتى يتحقق الانتصار الحقيقي .. الامور معقدة وجهات كثيرة تطلب حكم الشواهد

فقالت : ولا تنسى رأس شهروان .. فأنا لي عنده ثأر .. فأولاد غضبان مني عندما يشبوا يجب أن يعلموا أنني لم أتهاون في دم أبيهم .. فأولاده الاخرون يلومونني على عدم تحريك الجيش لقتال الثائرين والانتقام لمقتل أبيهم .. وأنه كان يعمل من اجلي .

فقال: الصمت سلاح قوي أيتها الملكة .. فالمعركة مستمرة ومرعبة .

ثورة الشواهد

كان الثائرون في بلاد الشواهد الذين يتزعمهم شهروان الصياد يرغبون بتتويج ملك عليهم من سلالة سماك بن صخرة .. فلما خابوا بإقناع الأمير حازم بذلك الأمر ، وأن زهرة تزوجت ماوا ليعيد لها تاج البلاد اثاروا الصيادين في بلاده عليه ، فكف عن تنفيذ الوعد خشية امتداد الثورة لبلاده كما حصل في باد وجزر البحر .. قد علم الصيادون أن للملك سماك ابنة اسمها شماء وهي حفيدة جرو البحر الصياد ، وله أبناء ثائرون معهم، فلما قابلوا جرو البحر قال : منذ تزوجت حورية الماء الملك سماك وولدتها لم نرها إلا مرات يسيرة .. زارتنا فيها حورية .. وحورية اختفت منذ عهد بعيد ، ومنذ اختفاء ابنتي لم نسمع شيئا عن شماء ولا عن أمها .

سأل شهروان عنها في قصور النساء ، فذكروا لهم أنها اختفت منذ اختفاء أمها ، ولما انشغل الناس بحكم الوصي واولاد سماك نسيها الناس .. وذكر بعضهم أن حاضنتها ماتت بعد سماك بسنتين أو ثلاث ؛ وربما سبيت مع الكثير من بنات واماء القصور عندما غزا ملوك الجزر البلاد أو هربت مع الأميرات قبل سقوط المدينة الى غيمة .

فارسل شهروان رجلا حاذقا لبلاد غيمة والبحث عن ابنة حورية الماء ، ولما رجع الرجل بعد حين أخبر أن لا احد يعلم عنها شيئا ، ولا يوجد أميرة بينهم تحمل هذا الاسم ، وأن الملكة زهرة لا تذكر أن لها أختا بهذا الاسم ، فمنذ موت سماك وقبل موته لا يذكرونها فهي ابنة العامة .. فعاد شهروان يبحث عنها في القصور ويسأل العجائز وخاصة خدم حورية الماء ووصل إلى أن الأميرة لا وجود لها بعد غزو ملوك الجزر للبلاد ، واختفت أيام الغزو هل سبيت ؟ هل قتلت لم يكن مهتما بها احد حتى جاريتها عواد لا احد يعرف مصيرها .. فيئس شهروان من وجودها كان الثائرون في مدن الشواهد قد شكلوا مجلسا حاكما مهمته سياسة البلاد والعباد ، وكان يتكون اغلب هذا المجلس من الصيادين والفلاحين والتجار فاعلمهم شهروان بفشل البحث عن ابنة بنت الصياد جرو ، وقد فشلوا من قبل بعودة الأمير حازم لتولي حكم البلاد تحت رعايتهم واشرافهم .. واقترح عليهم الاتصال بزهرة واقناعها بالعودة للحكم تحت حرابهم ورماحهم فقبلوا مشورته وكلفوه بالعمل على ذلك، فانتدب رسولا سريا للحديث مع الملكة

الهاربة ، ويعرض عليها العودة للبلاد وتنصيبها ملكة على أن تطلق من ماوا ؛ ليطمئن أهل البلاد على حرية بلادهم.. التقى الرسول بها خفية واطلعها على رغبة القوم بعودتها ملكة لبلادهم ، ووافق ذلك هوى عندها لما رأت من تخاذل ماوا عن نصرتها طلبت مهلة حتى تتخلص من ماوا ، فتركها تفكر بهذا الهدف ، وكانت قد ولدت للرجل طفلا فلما وضعته سليما ذكرته بوعده وبالانتقام من شهروان ، فرد عليها " إن البلاد ما زالت تعمها العصابات والفوضى " فطلبت الطلاق فرفضه وعيرته بإخلافه الوعد بعودة العرش ، فحبسها في قصر خاص فغضب اتباعها على فعلة الملك فأمرهم بترك بلاده فراسلوا شهروان فأذن لهم بالعودة للبلاد بدون سلطة ومناصب مجرد شعب ورعايا فقبلوا الشرط ، واخبروه عن احتباس الملكة في قصر خاص . وجاءت رسالة لشهروان من زهرة تطلب مساعدته وتعده بالزواج منها ، فطمع شهروان بذلك ..فكتب لماوا مهددا بتدمير البلاد واثارة الشغب عليه .. فغضب ماوا وأراد أن يشن حربا على الشواهد لكن مستشاروه ذكره بحال الشواهد وأنها في حرب مع الجزر الثلاثة ولن يغنموا من حربهم شيئا مهما .. فطلق زهرة بعدما قبلت التخلي عن ابنه منها .. فرجعت الملكة إلى البلاد ، وبعد حين تزوجت من الأمير شهروان ، وأعيد تتويجها ملكة لبلاد الشواهد وزوجة لأمير الثائرين شهروان.

ولما علم قسيم الصامت كل هذه السنين بالخبر هو وزوجته وداد طار صوابه لقبول شقيقته الزواج من صياد من عامة الشعب وصاح في وجه وداد : ألا لعنة الله على شقيقك .. له سنتان صامت صمت الجبال ..أرأيت ما فعلت المجنونة ؟! خمسون زوجا نكحت من أجل الحكم .. راهب ..غضبان .. ماوا وشرهم هذا اللعين شهروان الصياد ؟! اصبحت ملكة ونحن لم نحرك حجرا أيتها الملكة !..ألست شريكة لي في الملك ؟!

قالت وداد بضيق من شتم شقيقها : المصيبة أيها الرجل أنك غير محبوب من شعبك .. سيرتك قبيحة عندهم منذ عهد أبيك .. ولو أنت مقبول لديهم ما ثاروا عليك ولما تخلوا عنك عندما سلمك غضبان لسمعان .

تفاجأ قسيم بكلامها الشديد وقال مهدئا للحوار : وهل اذا كرهني الشعب والرعاع أن أتخلى

عن الملك ؟! فهؤلاء الرعاع لا اعتبار لهم عند الملوك

ـ هؤلاء الرعاع اصبحوا ملوكا اليوم، ويتزوجون الملكات ، وستكون خال هؤلاء الرعاع بعد سنة من الزمان .. فأختك كأنها بقرة ولود .. لها اولاد من راهب ولها اولاد من غضبان ولها ابن من ماوا وغدا ستلد من هذا الصياد

تنهد قسيم وقال بنفرة : أوه ! إنك تثيرين غضبي اليوم .. أنا اطلب منك تشجيعي لنيل التاج ليعود على مفرق رأسك بدل أن نبقى أذلاء عند الملك عصام .. تحدثي مع شقيقك الملك على مساعدتنا ، فالملك مسعود يبدو أنه نسي دم شقيقه المقتول في بلاد الشواهد .. رحم الله الملك حمدان كان صاحب نخوة اصيلة وهمة علية

ـ يا قسيم لقد بذلنا الغالي والنفيس من أجل عودتك ملكا .. ضحينا بآلاف من الجند والناس ودون فائدة .. تزوجتك وقبلت بك سيدا وأبا لأولادي .. لصلة القربى التي شدتنا لبعض وذهبت بنفسي وخنقت عمك الوصي وابن عمك راهب .

فقال: أنت فعلت ذلك ؛لأنك أحببت أن تكوني ملكة ؟!.. لو قبلت أن تظلي اميرة ما فعلت ذلك .. أنت طمعت بتاج بلادي وتكونين ملكة واقنعت والدك العزيز بذلك .. لم يكن وقوفك معي إحسانا وجودا .. زهرة تعود ملكة وقسيم يبقى حبيس قصره ينتظر رحمة الملك عصام .. ألا ترغبين بأن تكوني ملكة ؟!

ـ بلادك لم يعد هواها يطيب لي

فقال: انتهى حلمنا إذن يا وداد البطلة المغامرة الشجاعة

ـ بصراحة اقول لك .. أخي الملك لا يريد الحرب ، وأنا لم اكف عن الضغط عليه كل هذه السنوات حتى صار يضجر من اللقاء بي ؛ بل هدد بتطليقي منك ، ومرة هدد بنفينا

فقال ساخطا : ألهذا الحد الجبن ؟!

ـ لا تغلط أيها الفارس بحق الملك فجواسيس وعيون الملك في القصر نحن نعيش في حمايته فانفعل فأخذ بالصراخ والصياح والقذف والسباب حتى أن بعض الخدم فزعوا إلى مكان اللقاء فصرفتهم الاميرة ثم قالت : اذهب بنفسك للملك قل يا ملك عصام يا شقيق الأميرة وردة

ساعدني في استرداد ملكي مللت الصمت .

فهاج في نوبة أخرى وزعق وقال متحديا : سأذهب اليه . ودخل على الملك عصام ساخطا غاضبا محمر الوجه والعيون وقال صارخا : أيها الملك !.. أين الوفاء؟ .. أين العهد؟.. أين الملك حمدان؟ قاتلت أهلي وقومي معكم من اجل العرش أن يكون مواليا لكم .. إنكم غدرتم بي .. هذا جبن !

وأخذ يصيح بكلام هائج من شتم وتحقير مما اغضب الحاشية كلها والملك نفسه ، فأمر الجند بحبسه ، ثم أمر بعد ايام ثلاثة بجلده أمام العامة، ثم رماه عند أخته وطلب منها مغادرة البلاد أو تطلق منه فاختارت الطلاق .. فحمل قسيم في سفينة صغيرة وألقى على سواحل مدينة باد مثخنا بالجراح ممزق الثياب ، فوجده أحد الصيادين الاثرياء فساقه لبيته وداواه ظانا أنه صياد تعرض للغرق أو قراصنة بحر . ولما استعاد عافيته بعد ايام من الانهاك والمرض وأخذ يتذكر ما حل به من هوان وذل وتخلي انصاره الذين لم يهلكوا عنه ، ويئسوا من عودته ملكا .. وتذكر حبسه وجلده امام العامة وتطليق زوجته منه ورميه على ساحل مدينة باد فانتكس ثانية وعاوده السقم لهذا الحال وفكر برمي نفسه في البحر ليموت وغلبه حب الحياة والحاجة للانتقام من كل اعدائه .. من عصام ملك حمامة .. فزيد الوصي قد هلك وتبعه ابنه وغضبان مات مسجونا .. وشهروان الثائر الشعب اختاره زعيما لطرد الغزاة وقد حقق ذلك فهو عدو .. وسمعان اليوم اسير عند ابناء خالد ..فلأبدا بعصام الذي اذلني وسحق شرفي .. شكر الرجل العجوز على مداوته وألقى على مسامعه كذبات وأنه تعرض لحقد من رفاقه فضربوه ورموه في البحر فسبح حتى وصل الشاطئ فصدق الرجل ما سمع وأذن له بالسفر لبلاده ، غير من هيئته المعروفة للناس ..ومشى جهة بلاد الشواهد والمسافة بين المدينتين خمسة ايام بالسفر الطبيعي والمتمهل ، فدخل وديان وصعد تلال وجبال حتى اقترب من بلدة صغيرة تسمى " نهبة " وبينما يسير نحوها دهمه رجال وصبيان وساقوه إلى شيخ القرية وهو في حال يرثى لها من الضرب والصفع واتهمه الشيخ وأهل القرية بأنه كان مع اللصوص الذي سرقوا بعض مواشي البلدة ، فانكر التهمة وشهد احدهم أنه رآه مع اللصوص وهذه الثياب الرثة تدل على أنه منهم وأنهم تخلوا

عنه ، فاسترقوه ودفعوه للرجل الذي سرقت مزرعته وبعض دوابه ، وهددوه بالقتل اذا حاول الفرار ، فصمت ورضي بحكمهم ، ولم يستطع كشف شخصيته لهم ، وكان خلال مكثه يفكر بالهرب ، وقد وجد لدى صاحب المزرعة جوادا فرسم خطة بخطف الحصان والهرب عليه ويدخل على أخته الملكة مستجيرا معلنا التوبة والندم .

وفي اليوم الذي قرر الاختفاء فيه شعر به أهل المزرعة وكشف امره فأوثقوه بالحبال وجلدوه وساقوه إلى مكان بين عدة قرى يتبادلون فيها الاشياء كسوق وباعوه لتاجر رقيق يتردد على ذلك السوق القروي .. وبعد أيام حمله التاجر إلى سفينة يجمع فيها العبيد والاماء لينقل للمدن الكبيرة ، وبعد زمن وجد نفسه يباع في سوق مدينة حوت واشتراه فلاح مع غيره ليعمل في الارض من حراثة وسقي واطعام الدواب .



اختلال البلاد

قلنا إن شهروان نكح الملكة زهرة مقابل عودتها للحكم وإخراجها من سجن ماوا ، وهدأت البلاد شيئا قليلا ، وأخذت قبضة الثائرين تضعف عن حكم البلاد يوما عن يوم ، وحتى مجلس حكم البلاد كاد يختفي بعد عودة زهرة وزواجها من السيد الجديد للبلاد ، وقد نال بعض الثوار زوجات وأرامل أميرات .. ثم حلت القيادة للثائرين بعد استقرار البلاد وضعف الخطر الخارجي .. وأنشئ حرس جديد للأمراء الجدد واغلبهم من الصيادين لعددهم الكبير في البلاد ولأن اكثر الثائرين كانوا منهم ايضا .

ولما اطمأنوا من عدم غزو ملوك الجزر تراخت قبضتهم نهائيا عن البلاد وانتشر بينهم الزواج من الاميرات والثريات ، وعاد الفرسان القدامى بسبب هذه الزيجات لحكم البلاد مع هؤلاء الناس .. واعيد احياء الجيش ولكن بعدد أقل كما أراد شهروان .. وخلال اقل من خمس سنوات من عودة زهرة انفض زعماء الثائرين من حول شهرون أو شهروان ، واخذ يستبد لتأمين المال لمتعته وشهواته ، فغضب التجار والفلاحون والصيادون الجدد من سياسات شهروان الظالمة وهددوه بالثورة عليه .. فاستشاط غضبا من تهديدهم .. فقد ذاق طعم الحكم والسلطة ، وتمادى في غيه .. فاجتمع الثوار من جديد .. وقام الثوار القدامى بعزل شهرون رغم أنفه ، ودفعوا زعيما جديدا لسيادة البلاد .. فدار صراع مرير بين الثوار .. فهناك من قتل واغتيل .. وهناك من هرب من نير البطش فاضطر الثوار خصوم شهرون بمحاصرة قصر شهرون وأسره وتثبيت فارسهم الجديد .. وحكم حكامهم على شهرون بالموت وإثارة الفتن والغدر والخيانة لثورة الشعب ، وقتلوه أمام أعين الناس مع أهم وأشهر معاونيه ، ولم يقبلوا فيه شفاعة الملكة وغيرها، وهددوا بخلعها وهكذا اختفى شهرون فجأة ؛ كما ظهر فجأة .. وعادت زهرة أرملة تنتظر عريسا خامسا.. وأهلك الكثير ممن عرفوا انصارا له .

واعتلى سدة الولاية في بلاد الشواهد الزعيم الجديد ، وهو رجل مسن اسمه سبع البحر وهو صياد معروف بين الصيادين ، وابقوا زهرة ملكة اسمية للبلاد ، ومنعوها من التدخل في شؤون المملكة والحكم والأمن والضرائب .. ما عليها الا الاكل والشرب واللهو ، فلزمت

الهدوء وخشيت بأسهم .

اجتمع رجالات من الحرس والجيش خفية للتمرد والسيطرة على البلاد بقوة السيف وبعد نظر وجدوا انفسهم ضعفاء ، والملكة غارقة في ملذاتها وشهواتها المعروفة لأهل القصور والامراء فلاذوا بالصمت . سعى احد أبناء غضبان لإنشاء حركة سرية ، فعلم بها الثائرون فلقي جزاءه سريعا بالموت هو ومن التفوا حوله .. ونفوا كل سلالة الغضبان حتى أولاد زهرة منه ورفضوا أي استعطاف .. فصمت الجند والامراء من جديد .. وانتشر الرعب بين الناس لقسوة الحساب وقام سبع البحر بترتيب امور البلاد من جديد .. ولغى الجيش .. وزاد من افراد الحرس والشرطة .. وأهل مدينة شرم الحزينة طلبوا الانفصال عن الحزينة .. فدارت حرب بين ثوار المدينتين واتفقوا بعدما كثر القتل في صفوفهم إلى تقسيم الشواهد لثلاث مدن رئيسية وبقيت زهرة ملكة اسمية لكل المدن .. وكل مدينة وضعت زعيما وسيدا منهم .. واستقر سبع البحر بعد هذه الحرب القصيرة حاكما على مدينة الحزينة ، وحماد على شرم الحزينة وقروان ملكا على سلة الملك . ولتقويه حكمه وسلطته ، وتثبيت شرعيته كان الزوج الخامس ، تزوج سبع البحر الملكة الارملة ؛ فكان الزوج الخامس الشرعي لها ، وعاد الهدوء بعد هذه الصراعات بين الثوار وكل مدينة انشأت حرسها الخاص وشرطتها الخاصة .

ذات ليلة استيقظ سبع البحر من نومه فجأة ، ولم يجد الملكة بجواره وسمع صوتا في القصر فنهض، وتحرك بخفة نحو المكان الذي سمع منه الصوت ، وقف على باب الغرفة واصغى ثانية فسمع زهرة تتحدث مع رجل ، ففتح الباب فجأة وبقوة فوجد زوجته في ثياب فاضحة تجلس مع ذلك الشاب فصاحت : سبع البحر أصحوت ؟! فدخل للحجرة وقال والغضب يتطاير من عينيه : من هذا ؟

كان الرجل قد وضع يده على خنجره فتطلعت إليه وقالت : هذا ...

فصاح سبع البحر : من هذا ؟ عشيق جديد .. لقد قالوا لي إنك امرأة لا تشبع من الرجال .. امرأة فاجرة .. رفضت الزواج منك ولكنهم اجبروني .. من أنت أيها العاشق ؟

فما كان من العاشق حتى انقض على سبع البحر بخنجره، فابتعد سبع البحر عن طريقه

وعرقله فسقط الشاب على الارض فهجم عليه سبع وضرب رأسه في الأرض ، ولاحظ أن زوجته تحاول الغدر به وتساعد عشيقها فنهض مسرعا خارجا من الغرفة ، واغلق الباب عليها ثم استدعى حرس القصر فهرعوا إليه مسرعين ، وأمرهم بفتح الغرفة واخذ الشاب الخائن إلى سجن القصر . وانطرحت زهرة تقبل قدميه وتطلب العفو وتعلن الندم فقال : أنا اعرف سيرتك السيئة منذ عهد الملك راهب .. وقلت لك أنا رجل كبير لا أصلح للنساء ؛ ولكنك قبلت الاقتران بي امام رجال الحكم ..

أمرها أن تذهب لحجرتها حتى يجتمع بأمراء المدينة ، وينظرون امر هذه الخيانة الزوجية ، لا تطيعه نفسه بقبول الحياة مع امرأة لا تحترم الحياة الزوجية .. ولم تعتبر من حوادث الزمن ..ولا تهتم لعمر .. ناشدته العفو والصفح وأنها آخر مرة تسمح لنفسها بالخيانة الزوجية

فقال: هذا سقم فيك .. اغربي عن وجهي ولولا خشية الامراء لقتلكما سوية .. سيعرف الشعب كل شيء في الصباح .. مقامك ليس هنا

كانت تتوسل وتبكي فرفض الخضوع فامر الخدم بأخذها، فأخرجت خنجرا صغيرا لتطعن نفسها فقال ساخرا : دعوها تقتل نفسها اذا كانت عندها الشجاعة لفعل ذلك

لم تفعل بالطبع فعادت للاستجداء والرجاء فقال : أيتها المرأة .. كيف سأقبل أن تبقي زوجة ؟ ألم تتعهدي امام السادة بالمحافظة على الحياة الزوجية وألا تخوني سبع البحر ؟ وزعمت أنك كبرت عن الخيانة الزوجية والعشاق .. لن أقتلك سأطلقك فقط وأمر بحسبك حتى تشتهي الرجال من مدة الحبس ..

فهجمت عليه بخنجرها فأمسك بها الغلمان فقال : خذوها إلى حجرتها واغلقوا عليها لعلها تقوى على طعن نفسها لترتاح من الحبس والعشاق .

عقد مجلس حكم مدينة الحزينة مجلسا للنظر في هذه القضية بعد ثلاثة ايام من الحادثة استمعوا للشاب الذي وجدوه يجالس الملكة ليلا فلما أطمعوه بالعفو اعترف بالعلاقة الاثمة بينه وبين الملكة زهرة ، وحاولت الملكة التي حضرت اللقاء أن تنفي ذلك عن نفسها وبعد تشاور ومعرفة أن الشاب احد أبناء الأمراء القدامى ، وأن الملكة عرضت عليه الغواية فامروا بالعفو عن حياته

وسجنه ، وامروا بحبس الملكة الخائنة اللعوب في قصر صغير خاص بالنساء المسجونات معروف من ايام الملك سماك بن صخرة .. ولم تهدأ الامور بعد صدور الحكم عليها فقد اجتمعوا بعد حين لعزل زهرة لسوء أخلاقها وسمعتها المشينة للتاج والحكم وللبحث عن ملك جديد من سلالة سماك .

ورحب سبع البحر بحكمهم هذا الذي اعتبره قد رد إليه الشرف والكرامة التي اهدرتها بخلاعتها وعدم احترام شيخوخته الذي رفض ابتداء الزواج منها لما يعلم من خلاعتها ومجونها السافر في البلاد منذ عهد بعيد .

ارسلوا وفدا لمقابلة الأمير حازم بن سماك في بلاد غيمة فرفض الرجل وزعم أنه زاهد في الحكم والولاية الكبرى وأسف لما أصاب أخته من حبس وفجور .

عاد الوفد وعقد المجلس من جديد وسمعوا رفض الأمير للحكم والملك ، فسعوا عند اولاد الملك زيد الوصي فكلهم اعتذر عن حكم غير مستقر .. فذكروا قسيما فسعوا إليه ورجعوا بأخبار سيئة عن قسيم وأنه اختفى منذ سنوات وطلق امراته وغادر جزيرة حمامة .

فاستغرب أهل الشواهد من عدم عودته إليها بعد كل هذه السنوات وشكوا بأنهم قتلوه واخفوا بدنه ، ولم يأسفوا على هذا الضياع ، وأمام هذا الواقع أعلن اهل المدينة سبع البحر ملكا كبيرا على بلاد الشواهد الثلاث ، وبحثوا له عن أرملة من سلالة ملوك البلاد وزوجوه اياها ليسري الدم الملكي في عروق سبع البحر . وعاد السكون للبلاد بضعة أشهر حتى فوجئ أهل البلاد كلها في احد الايام بالإعلان عن اغتيال سبع البحر بخنجر داخل قصره .



الحكم والتمرد

حدثت على اثر اغتيال الحاكم سبع البحر فتنة كبيرة في المدينة، قام مجلس الحكم بتحقيق واسع لمعرفة الغادر ، وعين الصياد البحري " شبير" حاكما جديدا ، وأمر بحفر أخدود أججت فيه النيران ، وجلب كل من كان في القصر الذي قتل فيه سبع البحر وسألهم سؤالا واحدا " أتعرفون الجاني ؟" وكل من نفى علمه طرح في النار ، ولم يعف إلا عن أبناء وزوجات سبع البحر فاحرق الكبير والصغير الذكر والانثى ممن كانوا في القصر ليلة الحادث حتى الحرس على الابواب اهلكوا .. فكان حدثا مروعا في المدينة الحزينة اهتزت له الشواهد كلها والمدن المجاورة وحتى الجزر الثلاث، ووعد شبير بالمزيد من القتل حتى يكتشف قاتل الملك الشيخ سبع البحر فترك هذا الحادث المروع الجزع والرعب في قلوب الاهالي وبدأ البعض بالهرب والمغادرة إلى المدن الأخرى خاصة التجار والأثرياء ولم يبال شبير بهربهم وهجرتهم ، ثم تبين له بعد حين من الدهر خطأ الصمت على هربهم وفرارهم ، فقد قل المال الذي يدخل على خزينة المدينة ، وعجز عن دفع أجور الحرس والشرطة .. فأمام هذا الوضع المر عزل مجلس الحكم الحاكم شبير ، وخضعوا لحكم قروان وأعادوا توحيد الجزيرة لحاكم واحد .. وعندما تولى قروان الحكم جاءته رسالة استعطاف من الملكة المخلوعة زهرة تطلب العفو والنفي .

فذهب إليها الملك بنفسه ولما رآها اعجب بحسنها ، وعرض عليها العفو مقابل الزواج منها وضمها لنسائه فوافقته على ذلك ، وحذرها من الغدر والخيانة فوعدته بالتوبة والندم .

فاصدر أمر العفو عنها ، وأشهر زواجه منها ، فكان الزواج السادس لها سوى عشاقها الذين لا يعرفهم احد . كان قروان رجلا دون الخمسين سنة وهو فارس قوي وصياد شجاع وشارك في التمرد والثورة من بدايتها ، ورفض مجلس الحكم اعادة تنصيب زهرة ملكة حتى يثبت لهم توبتها وحسن خلقها . كانت زهرة في الشهور الأولى نعم الزوجة وأثار الحبس ظاهرة عليها ، ولكنها بعدما حملت من قروان بدأت تحن للحفلات والسهر فولدت له بنتا ارسلها للمربيات من نساء الصيادين اقاربه . ثم رآها يوما تكلم شابا غريبا عن القصر خلسة فاستراب في شأنهم، ثم فاجأهم بالظهور وهددها بالطلاق اذا عادت للعب والدوران والعبث بشرفه وهددها

بالحبس من جديد ، وحرم على ذلك الرجل الدخول للقصر بأي صفة كانت .. وهدده بالموت دون تفكير ، حاولت الدفاع عنه وأنه مجرد رجل صديق وتاجر تكلف بشراء ثياب لها ، فنهرها وأمرها بالصمت فغضبت وقالت بحنق " اخطف روحك كما خطفت روحه "

فقال محدقا : "أنت قتلت سبع البحر ؟!"

ادركت أن لسانها زل فحاولت الانكار والتملص من فلتة لسانها ، فامر بعض الحرس بحبسها وجمع مجلس الحكم وكشف لهم خطأ لسانها وتهديدها له بالقتل كما قتلت سبع البحر فقال شبير الذي حرق قصرا لمعرفة قاتل سبع البحر " من نفذ الجريمة ؟! هاتوا حرس حبسها .. فلابد أن احدهم أوصل رسالة للقاتل أو من دفع القاتل "

جلب حرس محبس قصر النساء واعترف احدهم انها كلفته برسالة لاحد الناس ، فجيء بأحد الناس واعترف بتجنيده رجلا من خدم القصر لقتل سبع البحر ، وقد قتل يوم حريق القصر فقتلهم شبير جميعهم ، وأمر بحبس زهرة مرة اخرى في ذاك المحبس .

ذات صباح استيقظ سكان مدينة الحزينة على صراخ وصليل سيوف وصهيل خيل فقد دهم احد السواحل غزاة اشتبكوا مع الصيادين في تلك الجهة ، ثم تقدموا لوسط المدينة يسفكون دم كل من وجدوه في الطريق، ففزع الناس إلى سيوفهم وخيولهم وصدوا الغزاة وقاوموهم حتى ردوهم للبحر حيث سفنهم ومراكبهم .. وعلم قروان أن أولئك المعتدين من جزيرة حمامة .. وأذن بقتل كل رجل منهم واحرقت جثثهم .. وطلب مجلس الحكم تكوين حملة لغزو جزيرة حمامة والانتقام لهذا الغزو .. ونشط في هذا الامر ووجد الحماس لدى الكثير من الشباب الصغير وأبناء الصيادين.. وفتحت اماكن لتدريب افراد الحملة وبمضي عام عليها كانت جاهزة لغزو تلك الجزيرة ، وكانت حملة تتكون من اكثر من ألفي محارب فولى ابنا له رئيسا للحملة .. وكان الاصفر شابا قويا معروفا بالشجاعة والاقدام ابان الثورة الاولى .. ولما جاءت العيون بالأخبار امرهم الحاكم بالوصول لقصر الملك عصام وقتله او اسره وحرق القصر دون هوادة .

لم تسير الحملة لجزيرة حمامة مباشرة ابتعدت عنها عدة ايام ثم استدارت من جهة اخرى حسب الخطة الموضوعة للحملة ، وعند نصف الليل اقتربت السفن من شاطي الجزيرة المقصودة ومع

تباشير الفجر كانوا قد وصلوا قرب قصر الملك حسب الأدلاء لهذه الحملة ، واشعلوا فيه النار بعدما نالوا من الحراس واصبح آخر الليل نهارا ، وجرت معركة حوله من المدافعين عنه ، وكانت معركة كبيرة استطاع الصيادون دخول القصر ونهبه وتركوه مسودا محروقا ، ولم يجدوا الملك عصاما فيه ..وعادوا للبحر بما غنموا .. وبعد حين وصلوا شواطئ بلادهم بمن نجو سالمين غانمين وخرج الشعب يرحب بهم .

وكان عصام في حمامة يهدر ويرغي ويزبد ويعض أنامله غيظا وقهرا على الكارثة التي ألمت بالجزيرة وغاضبا على شقيقته التي ظلت تطمعه وترغبه في بلاد الشواهد فتعهدت امامه بالسعي لقتل وتدير بلاد الشواهد .

خلعت ملابس النساء وتنكرت بثياب الفرسان فقاموا في منعها من مغادرة البلاد ، فأقسمت على صرع قروان والفتك به غيلة ، فخشي عصام من فشلها وافتضاح امرها ويعودون لغزو بلاده فقالت : سأدخل بلادهم متنكرة ،وقد سبق لي ذلك في الزمان الماضي حياة والدي الملك حمدان. فتركها تفعل ما تشاء وبدأ يراسل امراء الجزر المجاورة لشن حملة على بلاد الشواهد .

أما قروان فبعد النصر وحرق قصر المعتدي عصام أخذ بإنشاء جيش ثابت وقوي ويخطط لغزو جديد لبلاد حمامة .. وقد وجدت هذه الحملة هوى لدى الشعب والصيادين لقلة التجار وكثرة الصيادين فقد هرب الكثير من التجار والعائلات إلى بلاد أخرى ..فكانوا يرون في الحملات العسكرية كسبا وثروة .. فكثر المتطوعون للحملة الجديدة وأخذ القادة في تدريبهم وتهيئتهم للغزو الجديد .

دخلت وداد متنكرة بلاد الشواهد التي تعرفها حق المعرفة لقد سكنتها كجارية بضع سنوات وكملكة بضع سنين أخرى .. وقد علمت منذ حين أن زوجها قسيم لم يصل لبلاده فوقع في قلبها أن اعوان شقيقها قتلوه ورموه في البحر بعد جلده وطلاقه لها .. ولكن عصاما اقسم لها أنهم تركوه حيا على شاطئ باد . وبحثت عنه بطرق خاصة فلم تصل إليه ، لذلك كان من أهدافها عندما وصلت المدينة سوى قتل قروان البحث عن قسيم ومعرفة مصيره .. علمت أن زهرة محبوسة بتهم كثيرة في قصر حبس النساء والاميرات .

هي تسعى لدخول القصر لتفتك بقروان كما قتلت الوصي زيدا وابنه راهبا وتنجو بروحها في نفس الوقت .. أخذت تعمل شحادة متسولة في قلب المدينة ، وطفقت تسعى لمعرفة اقرب الناس لقروان من رجال ونساء ، وسمعت بالغزو الذي يجتهد له اهل المدينة لبلادها وغيرها من الجزر ورأت حماس الشباب لهذه الحملة ..وفكرت بالعودة للجزيرة وإعلام أخيها والسادة فقالت : ربما أقتل هذا اللعين قبل القيام في الحملة .. فالحملة تحتاج لوقت حتى تجهز كما يقولون . تعرفت على امرأة أحد رجال قروان ، وأخذت تتردد عليها طلبا للمساعدة والعشاء واشعرتها أنها فقدت زوجها في معارك المدينة ؛ وليس لها أسرة وأولاد ، فامتهنت التسول لسد رمقها .. وظلت تتردد عليها شهورا حتى غدت معروفة لتلك السيدة بأنها امرأة فقيرة أرملة وكذلك عرفها زوجها . ثم طلبت من المرأة أن تجد لها عملا كخادمة لدى الاميرات والامراء بدل التسول ومد اليد للأجاويد وأهل اليسار . فاستحسنت السيدة هذه الفكرة وكلمت المرأة زوجها بشأن تلك الأرملة .. حتى وجدوا لها عملا في قصر أم قروان وبعض نسائه القاطنات معها .. فذهبت بها المرأة بعد أن كستها ثوبا جديدا ، وزعمت لهم أنها طباخة ماهرة ..فقبلت للعمل في قصر أم قروان .. وسمح لها بالعيش مع الجواري والخدم ، واطمأنت لها نفوس القوم بعد حين . وكانت تترقب يوما يزور قروان أمه أو إحدى نسائه .. ولكن الوقت يمضي وزمن الحملة يقترب ، وتخشى أن لا يعلم أهل الجزيرة بما يدبر ويمكر لهم من قروان .. ففكرت ببعث رسالة سرية مع احد الصيادين .. فسعت للبحث عن صياد امين وماهر ورجل بحر .. تعرفت على بحار عجوز ويحب ركوب البحر ؛ كأنه شاب صغير ..ويحب الابتعاد في جوف البحر لصيد الاسماك .. وبعدما وثقت علاقتها معه، عرضت عليه حمل رسالة لسيدة لها في تلك الجزيرة ووعدته بجائزة ثمينة .. فقبل البحار القيام بهذه المهمة الخطيرة .. فبلاد حمامة في حالة حرب مع بلاد الشواهد فكتبت رسالة ووضعتها في جوف قصبة .. وكانت قد اقنعت الصياد العجوز أن تلك المرأة سيدة قديمة لها وتسعى للعودة للعمل عندها .. فتسلم الصياد القصبة وقبل خاتما ثمينا منها وسر به . فقال الصياد : ستكون عند سيدتك الأميرة رحمة بنت حمدان.

وعندما كانت وداد في الليل تسلم الرسالة للبحار العجوز امام كوخه كان في الداخل رجل

فسمع صوت المرأة وهي تسلمه الرسالة وتعطيه الخاتم وتعده بالإكرام بعد عودته .. فلما ابتعدت المرأة وعاد الصياد لداخل الكوخ سأله الرجل عن تلك المرأة فقال الصياد : إنها جارية كانت تعيش قديما في بلاد جزيرة حمامة عند اميرة من الاميرات كأنها ابنة الملك حمدان .. ولما تزوج قسيم ابنة ذلك الملك جاءوا بها الى هنا وعاشت بيننا وتزوجت وقتل زوجها .. ولا أولاد لها.. وتعمل طباخة في قصر أم الملك قروان .. عن طريق الفارس نشوان احد رجال قروان كما تعلم .. فلها رغبة بالعودة لجزيرة حمامة فكتبت رسالة لتلك الاميرة طمعا بقبولها من جديد .. فكتبت رسالة ووضعتها في هذه القصبة المغلقة والملفوفة بقماش جميل ـ واشار بها للضيف ـ وفي سفرة لي سأمرر هذه الرسالة الى تلك الجزيرة إما بنفسي أو اكلف احد معارفي من صيادي حمامة بنقلها لرحمة تلك .. لتوتر الامور بيننا وبين تلك الجزيرة ..

قال الضيف بعدما خيم الصمت : اخشى أن تكون هذه المرأة جاسوسة وتستغل طيبتك .. منذ متى تعرفها ؟

ـ من شهر .. وهي تعمل في قصر أم قروان

ـ نحن في حالة عداء مع جزيرة حمامة اليوم .. فانظر في الرسالة قبل نقلها .. فالخاتم الذي اعطي لك ثمينا وسمعتها تعدك بشيء ثمين

ـ هل يحق لنا فتحها ؟

خطفها الرجل ومزق القماش عنها وازاح الطين عن طرفي القصبة واخرج الرسالة وامر الصياد بإشعال النار ليحسن قراءتها ..وقد قرأها !

ابن بنت الصياد

بعد مضي كل هذه السنين سنعود بك أيها القارئ الفاضل إلى الوراء إلى المشاهد الأخيرة من قصة أبناء الملك سماك بن صخرة إلى صديق الراعي وحورية الماء التي خرجت من المدينة خفية تحمل في رحمها جنينا كان الملك سماك يعتقد أنه ولد ذكر سيكون ملكا على بلاد الشواهد في يوم من الايام .

ومشى صديق بالمرأة حتى باد ، فعلم هناك بموت الملك سماك ، فسار بها إلى حوت التي تبعد عن باد ثلاثة ايام وتسمى ايضا بالبحر ، ومن ثم انتقل الى بلدة حمار التي تبعد عن حوت بضعة ايام ، وحمار هذه مرفأ مدينة كبيرة تسمى عيسى ، وقلب المدينة يبعد كثيرا عن البحر ولا يربطها بالبحر سوى ميناء حمار . ويقال للميناء أحيانا حمار عيسى ، وبينه وبين موقع المدينة حيث السلطان عشرات القرى الصغيرة .. بعد وصوله إليها استأجر صديق بيتا صغيرا ، وبعد شهرين استأجر بيتا في حي آخر وترك الأول .. وقبل أن تلد المرأة انتقل لبيت ثالث ؛ حيث ولدت ابنها فيه وسمته " اسد الغابة" وكنته ابا يوسف .. وبعد انقضاء فترة النفاس التي تتبع الولادة رحل صديق إلى مكان آخر .. وكل هذه يفعله الرجل تنفيذا لخطة سماك لتضليل من يفكر يوما بالبحث عنهم . وكان كل من يتعرف عليهم من الجيران يظن أن المرأة الشابة زوجة للشيخ ، وأن المرأة ولدت له هذا الطفل ، واستقر صديق بالمرأة بحي يسمى النسران ، وفيه كبر الفتى ونشأ .

وكان لصديق في هذا الحي جارة قد ولدت بعد سكنهم بأيام وسمت وليدها "عفر" وتصادق صديق الراعي مع زوج المرأة وكذلك جيرانه الآخرين .. ولم يطل العمر بصديق ليرى أسد الغابة شابا .. فقد مات قبل أن يكمل الطفل السنوات الخمسة الأولى من عمره .

قام أهل الحي بدفن الرجل واعتبروا أنفسهم أهل المرأة بحكم الجيرة ، وصعبت الحياة اكثر بموت صديق صديق الملك سماك .. وكانت تهم بالعودة لبلادها ولكنها تتذكر الخطر المحدق بابن الملك سماك فتهدأ وتلجأ للصبر والتحمل .. واخذت نساء الحي يرغبنها بالزواج بعد حين من موت زوجها صديق .. كان الظن أنه والد الطفل وتحتج بالرفض بتربية وتنشئة وليدها

اليتيم ، ولما كملت السنوات العشر للطفل رضيت بالزواج ، فتزوجها والد عفر جار صديق المفضل على غيره من الجيران .. وكانت حورية قد تسمت بشجرة وصديق بحسان.

أصبحت شجرة ضرة لمحبوبة زوجة جاد ، وكان لجاد سوى عفر ابن كبير اسمه ليل وابنتان حمراء وبيضاء ، وبعد ولادة عفر ولدت له طفلة سميت نهى ، وولدت حورية لجاد حساما وربيعة وأنثى سميت ذهبة .. اخفت حورية حقيقة والد اسد الغابة عن الجميع وظلت محتفظة بسرها حتى يشب الفتى .

كبر الفتى وتعلم القراءة والكتابة كسائر أطفال المدينة ، ولما بلغ العاشرة ارسلته كما يفعل الفرسان لتعلم السيف وركوب الخيل زاعمة لهم أنها محبة لابنها أن يخدم في الجند أو الشرطة عندما يصير شابا .

ورافق عفر صديقه هذه التمارين ، وتحمس جاد لعمل ابنه عفر في الجيش الملكي .. فهو يعمل في الزراعة في أطراف المدينة مع أسر غنية .. وابنه ليل ذهب لحمار ويعمل في الصيد البحري .. وحمراء وبيضاء قد تزوجتا قبل زواجه من شجرة ..الاولى منهما أخذها ابن أخيه شاب فلاح مثله .. والثانية تزوجت قريب لأمها .. وكان يفكر بتزويج اسد الغابة من ابنته نهى عندما تشب احب الفتيان مكان التدريب على المبارزة ، وتعلقا بالفروسية ، وكانا يعجبان من قوة الذين يكبرانهم في السن .. واستمر تدريبهم في مواقع التدريب حتى بلغ أسد الغابة خمسة عشر عاما فقوي عضله واشتد عوده ، واصبح يسابق الفرسان ، وزادت صداقته ومحبته لعفر واصبحا لا يفترقان ساعة عن بعضهما البعض . وسعى لهما احد مدربيهم لإدخالهما في معسكر الجيش للتدريب والمران حتى يلتحقان بالجند ليحققا شهوتهما بالخدمة في جيش البلاد .

وكانت شجرة وهي ترى ابنها يشب تطلب من زوجها السماح لها بالسفر لبلاد الشواهد لزيارة أهلها وأقاربها .. وتذكر له قصة زواجها المزعومة من حسان : إن زوجها العجوز نزل تلك البلاد في تجارة له ، وكان ضيفا على أسرتها من الصيادين وأحب والدها التاجر الجوال وأنه رآها عدة مرات، ثم طلبها من أبيها فقبل به رغم صغرها وكبره .. ولما علم بحملها استقر بها في هذه البلاد وكف عن السفر.. وإنها بشوق لزيارة أهلها بعد هذه السنوات الطوال وقالت له :

إن زواجي منك خفف من اللوعة والشوق لأبيها وأمها وأهلها "

ثم قالت له : إن أسد الغابة كبر اليوم .. وحسام وربيعة كبرت بهم الايام .. وإنها على استعداد لشراء جارية ترعاهم في فترة غيابها .

فكلما يتكرر هذا الكلام على مسامع جاد يعدها بتحقيق هذه الرغبة .. ويقول لها " بلاد الشواهد بعيدة كثيرا عن بلاد عيسى ..والرحلة البحرية اليها تستغرق وقتا كبيرا وكذلك البرية "

فقالت: سأذهب بخادمي قمص .. فهو خادم امين .

كانت حورية تدرك أن جاد لن يسمح لها بالسفر ، وإنما كانت تلح بذلك ممهدة ليعرف الشاب أسد الغابة أهله وحقيقة اصله .. وهي تريد السفر إليها لتعرف حال البلاد لتكشف له القصد من هذا الاختفاء ؛ ليتحمل الأمانة، ويعود ليكون ملكا على بلاد أبيه .. فهي نسيت البلاد والاهل لتنفيذ وصية الملك الذي احبها واتخذها قرينة وهي من بنات الشعب والعامة .

لذلك عندما أمسى اسد الغابة ابن ثمانية عشر عاما اصرت حورية على تلك الرحلة فابنها اليوم يصلح أن يكون ملكا لبلاده فأرادت السفر للتأكد من احوال البلاد وأن الرجال الذين عاهدوا سماكا ما زالوا على العهد وأن الوصي سيخلع نفسه لابنها .

وكانت تقول لنفسها " لا تخلو الدنيا من أهل الوفاء ومن أهل الغدر " وكانت تراودها فكرة السفر بدون علم زوجها وابنائها بصحبة خادمها قمص .. يجب عليها أن تعرف حال البلاد قبل كشف الحقيقة لابنها وغيره .

وكانت ترى أن افضل فترة للسفر عندما يذهب اسد الغابة في رحلة صيد مع مدربه زيدان ، كان المدرب زيدان فارسا من فرسان السلطان ،وقد ترك الخدمة السلطانية وأنشأ مدرسة تدريب للفتيان على السيف وغيره .. وكان له بين كل فترة وفترة رحلة صيد في الغابات والوديان ، فيصحبه بعض الفتيان المتدربين في هذه الرحلات ، ويعتبر هذا نوعا من التدريب والبسالة ، ومكان الصيد في اطراف المدينة حيث الغابات والجداول والغدران .

وقد رافق عفر وأسد الفارس أكثر من مرة .. وقد يقضون اياما في الصيد .. فكانت حورية الماء تراها فرصة لمغادرة المدينة خفية ، فزوجها ما زال خائفا عليها ويتعذر بالأولاد حسام وربيعة

وكان زيدان يقرع قرعة بين الشبان الفرسان الصغار الذين سيرافقونه في صيده ، فخرجت القرعة لأسد الغابة دون عفر ، فاعتذر أسد الغابة لمدربه عن مصاحبتهم بدون عفر ابن زوج أمه فتنازل احد الأخوة لعفر فهما يعرفان تعلقهما ببعض .. وكان عفر متقدما بعض الشيء عن أسد بالقوة والفروسية ، فقد كان اسمن بدنا وأشد منه عضلا وأطول منه رغم أنه يصغره بشهور . كانا رفيقين بمعنى الرفقة فوافق الفارس على أخذهم كلهم ، وباتا تلك الليلة في مقر التدريب لينطلقوا مع تباشير الفجر ، وكانت حورية تحب عفرا وتراه نعم الاخ والصديق لولدها فأوصته عليه كما تفعل كل رحلة .

وفي الصباح حملت الخيام والاطعمة على ظهر الدواب ، ومشت نحو الغابات ، واعتلى الفرسان والصيادون جيادهم ، وكانت المجموعة تزيد عن عشرين رجلا وشابا ، فعشرة كبار وعشرة من جيل عفر واسد وثلاثة من الخدم .

وبعد مسير استمر يومين تخللهما نوم دخلوا احدى الغابات التي يرتادونها دائما للصيد ومطاردة الظباء والغزلان والوعول أكثر من غيرها من غابات الصيد .. وهذه الغابة كانت أول مرة يذهب إليها الشبان الصغار .. وشاهدوا الحيوانات الكثيرة التي تجول في الغابة وتدنو من بحيرات ومستنقعات الماء الصغيرة ، ونبهم زيدان إلى وجود الحيوانات الضارية في هذه الغابة وتقترب من المستنقعات المائية لتصطاد الغزلان عند إتيانها للشرب .

وكان عفر قد طلب من مدربه السماح له بالنيل من احد الوحوش القوية ؛ ليظهر له شجاعته وقوته ، أما أسد فلم يكن يحلم بلقاء أسد أو ضبع وحده .

نصبت الخيام على تلة مرتفعة وأشعلت النيران ؛ لأنه وصلوا قرب الليل لهذه المكان ، وقدم لهم الخدم الطعام من الارانب والطيور التي استطاعوا النيل منها أثناء مشيهم لمكان الصيد .

فارتفعت رائحة الشواء في المكان فنبهم زيدان ؛ ربما تقرب منهم بعض الحيوانات على رائحة الشواء وعليهم ترتيب حراسة طول الليل .. وكل فارس سلاحه معه وبقربه وعلى أهبة الاستعداد .. ومن يذهب للخلاء يصحبه رفيقان .. ونبهم بخطر الزواحف كالأفاعي والعقارب وغيرهما ، وفي الصباح سيذهب فريق للصيد ويبقى آخر عند الخيام .. وهكذا

يتبادلون الصيد والحماية .

وطلب أسد من مدربهم زيدان أن يكون هو وصديقه في فريق واحد، فابتسم المدرب وقال " ابشر أيها الفتى " ثم حثهم على العمل متفرقين وأن هذا لمصلحتهم .

وذكر عفر للمدرب خفية وصية أم أسد للمدرب ، وأن أباه غير أبيه فقال المدرب : اعرف أن أباه هلك ، وهو صغير وأن أباك زوج لأمه .. واعلم أن الانسان لا يهرب من قدره وحظه ، ولو كنت معه في كل لحظة ؛ فاذا جاء القدر بطل الحذر .. ويجب أن يتعود على البعد عنك .. هذه دنيا .. المرة الاولى سأسمح لكما بالذهاب معا.. أما المرة الأخرى فلا ..

تناوب الفرسان الحراسة الليلة ، ومضت الليلة بسلام وخير ، وفي الصباح خرج الفريق الاول للصيد .. فهم سيتجهون لبحيرة معروفة لهم أي الرجال الكبار ويتربصون للظباء عندها .. عندما تردها للشرب .. وبعد مسير لعدة ساعات وصلوا إليها .. فهي من الاماكن التي ترتادها الغزلان ، وهي معروفة لهم مع الزمن .. وعند الظهيرة رجعوا بصيد ثلاثة منها وصادوا ثعلبا كان يرابط عند الماء طمعا بصيد غزال صغير ، وارتفعت النيران وعلقت الغزلان .. وروى الفرسان قصة صيدهم لها والعقبات التي وجدوها أثناء الصيد .

وكانوا يحاولون اقتناص بعض الطيور والأرانب ؛ حيث هم ومن حولهم ، وفي اليوم التالي سارت المجموعة الثانية وفي صحبتها عفر وأسد .. وربضوا للحيوانات عند البحيرة ووفقوا إلى صيد بعضها كأصحابهم .

وتقرر أن يكون الصيد في الغد على مرتين فرقة في الصباح وفرقة في الليل لمن شاء .. ذهبت فرقة الصباح وصادت ما تيسر من الظباء .. وقال زيدان " لقد قل ورودها فقد شعرت بنا.. ربما صيد الليل احسن الليلة .. وعلينا اصطياد بعض الاسود "

والمجموعة التي ذهبت للصيد في الليل لم تتمكن من صيد شيء لشدة العتمة وقلة الوحش عند البحيرة فقال زيدان " يبدو أنهم رحلوا لبركة أخرى "

بعد السهر والعشاء ذهب قوم للنوم وبقي الحرس للحراسة. قضى الرجال عشرة ايام كاملة في الصيد ، وصادوا سوى الغزلان عددا من الثعالب للانتفاع بفرائها وجلودها .. وقد رأى اسد

الوحوش الضارية من أسود ونمور وضباع وذئاب ولم يتمكنوا من صيد أحدها ، وكان تدريبا قويا للمجموعة كلها ، وسرتهم الرحلة وفكت الخيام وحملت على الدواب وتحركت القافلة للعودة للديار .

كانت حورية في خوف على ولدها ، فهذه أول مرة يغيب عنها كل هذه المدة من الزمن ، وكانت تتردد على مدرسة التدريب تسأل عن عودتهم .. فكم سرت عندما اقبل الشاب فرحا سعيدا من رحلته الطويلة جدا بالنسبة إليها وإليه فعانقها وقال : اشتقت إليك يا أمي .. كانت رحلتنا هذه المرة طويلة .. لقد تعمقوا بنا إلى جوف الغابة حيث الاسود والذئاب الكثيرة .. والغزلان اللذيذة .

هدأت روحها وتركته ، وعانقت عفرا الذي تحبه كابنها اسد لصداقتها وحبهما لبعض، وشكرت الله في قلبها على عودته سالما سعيدا ، واستمعت لهما بلذة عن صيدهما ومطاردتهم للوحوش والظباء وسرها ما فعله المدرب من التفريق بينهم أثناء مغامرات الصيد ، فهي تعلم قوة تعلقهما ببعض خاصة اسد .

****

بلاد عيسى بلاد كبيرة ويسكنها عدد كثير من البشر وهي ممتدة حتى تصل طرف البحر حيث ميناء حمار عيسى ، وهي سبع مقاطعات كبيرة محيطة بقلب المدينة حيث قصر الملك والوزراء والجند ، وتعتمد بساتينها وسكانها على مياه المطر والعيون والسيول والجداول الصغيرة ، ويحيط بها الكثير من القرى ، يعمل أهلها بالرعي والزراعة حتى أنك تجد لتاجر أو قائد أو أمير قرية كاملة يعمل بها الفلاحون له ولأسرته .. اكثر القرى تتبع لأسر تركت الخدم يعملون لهم وانتقلوا للتجارة في وسط البلاد .. حيث مقر السلطان وكان يحكمها قبيلة يقال لهم " بنو سامون " والمدينة تعتمد على التجارة البرية والبحرية .. فكان سماك عندما اختارها على البلاد لإخفاء ابنه لمعرفته بسعة البلاد وكثرة ناسها ويسهل الاختفاء فيها ورأينا كيف سعى غضبان في البحث عن هذا الابن وقبله زيد الوصي وقد ذهبت مساعيهم ادراج الرياح وحتى أن عيونهم لم يصلوا إليها لبعدها عن بلادهم كذلك .

وافق جاد لشجرة بالسفر لبلاد الشواهد بعد عودتهم من رحلة الصيد الكبيرة ، تفاجأت حورية بقبوله ، فهي كانت تفكر بالسفر خفية عنه ، فغمرها السرور لرضاه ، وطلب منها أن تذهب بدون أسد ، وهذا ما كانت تريده .. فتقرر أن يرافقها عبدها قمص فحسب ، وكان قصد جاد من بقاء اسد لتفكر بالعودة له ولولديها منه .. وهي راغبة ببقائه لتنظر احوال البلاد لتكشف له امره الخطير وابن من هو حقيقة ؟

أقسمت حورية لزوجها بأنها ستعود إليه ولأولادها، ولن تبقى عند أهلها في بلاد الشواهد ، ولا تفكر بالهرب ؛ فليس لها في هذه الدنيا إلا هم ..ولكن الشوق يشدها لرؤية والديها اذا ما زالا على قيد الحياة . لما كاشفت الاولاد بقصة الرحلة تحمسوا للسفر معها ؛ لكنها رفضت ذلك لبعد المسافة وطول الرحلة ووعدتهم بزيارة معهم في قابل الأيام ، ورافقها الأولاد وجاد إلى حمار حيث ستركب البحر إلى المدن الأخرى ولما ركبت السفينة لحوت عاد جاد والأولاد لحي النسران ؛ حيث يعيشون حظهم من الدنيا .

وانشغل أسد وعفر بالمزيد من التدريب في معسكر الجند ؛ ليلحقهم زيدان بالجيش اذا اجتازوا تدريبات الجيش القوية . ومضت الايام وقاموا برحلة أخرى مع زيدان ، ولم ترجع أم أسد بعد مضى الشهر الاول والثاني ولا خبر عنها، فتسرب الخوف على حياتها في قلب جاد ومشى إلى البحر عدة مرات ، وطلب من ابنه الصياد البحري ليل عندما التقاه السؤال عنها فعجب الشاب بالطريق التي سيتحرى بها عنها ، وكان جاد يقضي اياما عند البحر يتحدث مع المسافرين عن اخبار بلاد الشواهد والكل يردد له أنها بلاد بعيدة عن عيسى والقليل من يذهب إليها . وقضى شهر آخر يتردد فيه على حمار دون أن يظفر بعلم عنها حتى راودته نفسه بالمغامرة إلى تلك البلاد ولم يجد احد يشجعه على هذه الرحلة لصعوبة وجودها في كل تلك الامصار هل هي حية أم ميتة ربما غرقت سفينتها ؛ ربما تعرضت لقرصان المياه أو أنها نسيتهم عند لقاء الاهل ومنعوها من العودة لأولادها .. وذكر جاد أنها قضت سنوات بدون زواج ومع ذلك لم ترجع لبلادها .. لابد أن شيئا صعب اصابها .. حتى خادمها قمص لم يظهر ..

وأحس اسد الغابة بطول غياب أمه .. وأحس أن خطرا دهمها ، لقد طالت غيبتها عن المألوف

فضياع أمه ضياع له .. فهو وحيد في هذه الارض .. لا أم ولا أب .. له أخوة من أمه ؛ لكنهم ليسوا كالأم والأب ..فهو لا يعرف أقارب أبيه ولا أقارب أمه .. أمه لم تحدثه عن أسرتها أو أسرة أبيه ..

فكر جاد بعد ذهاب الشهر السادس لغيبتها بالسفر إلى الشواهد ، فوجد أنه لا يعرف شيئا عنها يذكر أنها ذكرت له أن والدها صياد .. ولا يعرف اسمه ولا حتى اسم أبيها وأب حسان كانت امرأة غريبة وأرملة ولا تهم الأسماء عند النكاح .. حبطت همته .. ومضت السنة ، فزاد اليقين عنده بهلاكها وغرقها هي والعبد قمص ، فأصابه الحزن الشديد واليأس .. وحاولت محبوبة مساعدته والتخفيف من همه وحزنه على الزوجة المفقودة فيقول بحزن : لو نعرف أنها ميتة لارتاحت نفوسنا لقدر الله

وبينما هم في هذا اليأس القاتل دخل عليهم قمص الخادم ، وقبل يد السيد وأسد الغابة وذهب في بكاء ونشيج مسموع مما زاد الفزع في قلوبهم فقال جاد بلهفة : هاتوا الماء له والطعام .

فقبل الماء وشربه وقال مفاجئا لهم : لم تعد سيدتي إليكم بعد ؟

دهشوا لهذا السؤال وصاح جاد " ويحك ألم تركب السفينة معها ؟!"

فقال: لقد سألت الجيران عنها فقالوا " منذ خرجت لم ترجع " ..

ـ قص علينا الحكاية

فقال: ودعتنا يا سيدي في حمار كما تعلم، وركبنا السفينة لبلاد حوت التي دخلناها بأمان الله وسلامه ..وقضينا فيها يومين نستريح ثم ركبنا سفينة متجهة لمدينة باد وصلنا إليها بعد أيام بكل سلام وأمان ..وبعد راحة ركبنا الدواب مع قافلة برية سائرة إلى بلاد الشواهد ، وبعد أيام في الطريق دخلناها فرحين سعيدين ..ومشينا إلى قرية الصيادين في مدينة تابعة للشواهد اسمها الحزينة ، بحثت شجرة عن أسرتها ، فوجدنا رجلا يعرف تلك الأسرة فعلمنا أن أكثرها هلك في حروب بين اهل المدن انفسهم وفي محاربة المدن المجاورة لهم .. كانت تخرج ناحية البحر تبحث عنهم حتى التقت برجل يعرف أخبار أسرتها ، فقص عليها قصة بلاد الشواهد والصراعات القائمة فيها ..وقضينا زمنا نبحث ونسأل ثم ركبنا البحر الى باد .. واعتدى علينا

غزاة في البحر وأخذونا رقيقا وساقونا إلى جزيرة اسمها سعدة .. وهناك افترقت عن سيدتي شجرة ، وبحثت عنها فلم أجد لها خبرا .. فصممت على الهرب والمجيء اليكم .. فهربت من سعدة بجنح ليل واليوم وصلت إليكم أيها الاسياد !

بكى جاد والاولاد على فقد شجرة ، وقال جاد : الحمد لله على عودتك سالما يا قمص .. إذن شجرة في مدينة سعدة أسيرة الغزاة

ـ يا سيدي جاد لما دخلنا تلك الجزيرة فصلوا الرجال عن النساء ، وباعونا للتجار كرقيق وإماء وبعد افتراقنا لا أدري يا سيدي هل بقيت سيدتي في الجزيرة أم نقلوها لمكان خارج الجزيرة ؟ لأني بحثت وتعسعست أشهرا عنها دون أن أقف لها على خبر .. بل عرفت مكان هؤلاء المجرمين ؛ حيث يعيشون في الجبال في تلك الجزيرة ولم اجدها عندهم .. وعلمت أنهم عصابات من عدة جزر يستولون على السفن وبيع الركاب لتجار النخاسة والعبيد .. وعلمت أن حكام تلك الجزر يتشددون في عقابهم ويقتلونهم شر قتلة ؛ لأنهم يقللون من سفن التجار والركاب إلى مدنهم .. ولكنهم احترفوا هذه المهنة ويجدون من يبتاع منهم .

بكى القوم فقيدتهم واحتسبوا أمرهم عند الله ، ووعدهم الخادم قمص بالعودة للبحث عنها من جديد ، ولن يطيب له عيش حتى يعرف مصيرها أحية هي أم ميتة ؟

فأثنى عليه جاد خير الثناء وشكره على جهده والوفاء ، أما اسد الغابة فقد ركبه الحزن الشديد عدة أيام ، وكان يفكر بطريقة يصل بها إلى أمه المفقودة منذ شهور .

وكان جاد يعلم مقدار الالم في صدر اسد فقد امسى وحيدا في هذا الكون .. لا أم ولا أب .. فحثه على الصبر وعلى بقاء الامل في قلبه وأنها سوف تتحرر من آسريها في يوم من الايام كما فعل قمص . وشجعه على المتابعة للتمارين فقد اعلمه زيدان انهم بعد انتهاء التمارين سيلحقونكم بجيش الأمير (سلعود) ابن الملك وأن قمصا سيذهب للبحث عنها واذا وجدها أسيرة سيفتدونها بالمال .

وفعلا بعد مضي شهر على عودة قمص تجهز الرجل للسفر الى جزيرة سعدة ليعرف أين يبيع القرصان أسراهم .. أي الجزر تبتاع منهم ؟.. ليبحث عنها في تلك الجزر ووعدهم بالعودة بعد

ستة اشهر فشكروه وودعوه .

الحزن سيطر على اسد الغابة وحتى عفر .. فالأم له معزة في قلب الابناء فكيف بأسد الغابة الذي ليس له في الدنيا إلا هي ؟.. أين أقاربه وأعمامه وأخواله ؟.. أكلهم هلكوا كما اخبر قمص ؟ فكان يكثر من البكاء على حاله ولم يعد تراه ضاحكا واخذ يفكر بالانتقام لها من كل غزاة البحر وقراصنتهم .. وحاول جاد مساعدته بترك الحزن الاسود والبكاء .. وفعل مثل ذلك عفر .. وسيطر عليه حب الانتقام .

مضت سنة ولم يعد قمص ولم يكتب رسالة ولا خبر من طرفه . بعد ما يزيد عن خمس سنوات ظهر قمص في مدينة عيسى وقد تفاجأ جاد واسد وعفر بظهوره بعد كل هذه السنين واخبرهم بأنه ظل يبحث ويسأل عنها حتى وجد السيدة شجرة جارية في بلاد حمامة ورحل بها إلى بلاد الشواهد حيث وجدت والدها الصياد جرو البحر وأنها ترغب برحيل أسد الغابة لعجزها عن السفر .

تحدث اسد وعفر مع قائدهم عن أمه فسمح لهما بالسفر لبلاد الشواهد وقال : إذا احتجتم لمساعدة اكتبوا لنا ليساعدكم ملك البلاد .

قادهم قمص إلى بلاد الشواهد ، والتقى أسد بأمه وسط عناق وحب وعانق عفر زوجة أبيه ، ثم كاشفت حورية أمام ابيها جرو البحر أسد الغابة بمن هو وقصتها ، واكد جرو الحكاية لأسد وعفر ، وانتشر الخبر بين الصيادين بظهور ابن الملك سماك من حورية الماء ، ومشى الخبر إلى قصر قروان وظهرت شيماء بنت حورية وشقيقة اسد حيث كانت تعيش بصورة مختفية خوفا على حياتها ، ولما تأكد أهل البلاد من حقيقة أسد الغابة ، وتحدثوا عن نبوءة سماك تنازل قروان امام رغبة الصيادين وجلس اسد الغابة على عرش بلاد الشواهد واستعان بقائده زيدان وبعض فرسان مدينة عيسى لتأسيس جيش على غرار تلك البلاد ، ورحل جاد زوج حورية لبلاد الشواهد ، وقد صاروا أهل الملك والملكة حورية ، وكذلك زوجة أسد وطفله الصغير الشبل ، وعجب الناس لتصاريف القدر ، وتمنوا عودة الهدوء والسلام لمدينتهم ؛ كما كانت قبل هلاك الملك سماك بن صخرة والحمد لله رب العالمين .



قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

أبناء الملك سماك








(١) سيف الزمان وجميلة
(٢) حكاية ريح البحر
(٣) الملك ابن الراعي
(٤) مدينة نجوان
(٥) الملك زرارة والملكة سفانة
(٦) أبناء الملك سماك